پول هازار




# الفِكر الأوروبّي

## في القرن الثامن عشر

## من منتسكيو إلى ليسنج

## ١ - ٢

نقله إلى العربية
الدكتور محمد غلاّب

وراجعه
الدكتور ابراهيم بيومي مدكور

# الفكر الأوروبي
## في القرن الثامن عشر
(١-٢)

پول هازار

# الفكر الأوربي

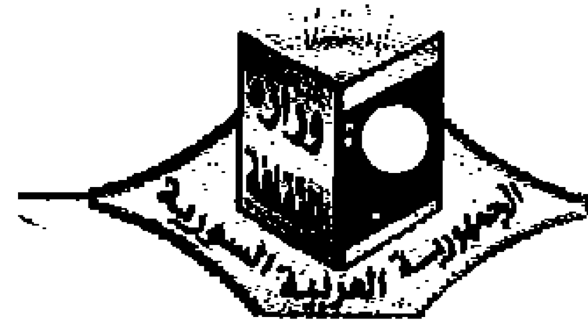
## في القرن الثامن عشر

### من منتسكيو الى ليسنج

١ - ٢

نقله إلى العربية
الدكتور محمد غلاب

وراجعه
الدكتور ابراهيم بيومي مدكور



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٤

## الإهـــداء

إلى عـميـد الأدب العـربـي، ورافـــع لواء الثـقـافـة الناطقة بالضاد.

إلى السـيـد الجليل الدكـتـور طه حـسـين، أهدي هذا الكتـاب. وهو إحدى ثمرات اختـيـاره المستنير الموفق الذي سيتيح للشرق فرصة الإلمام بالحركة الفكرية الشاملة التي كونت العـقليـة الغربيـة الحديثة، وأرجو أن يكون في هذا اعتراف ببعض فضله، وتسجيل لشيء من إنتاج أياديه البيضاء على العلم والأدب.

محمد غلاب

# مقدمة

لايكاد فصل من فصول هذا الكتاب يخلو من إثارة بعض مشاكل الضمير، ولايكاد فصل من فصوله يخلو أيضاً من أن يسجل هزات امتدت حتى وصلت إلينا. وليس معنى هذا أن كل شيء ابتدأ في سنة ١٧١٥[١] بل إننا نحن أنفسنا في كتاب سلف، جعلنا تاريخ ابتداء أزمة الضمير الأوروبي، حوالي سنة ١٦٨٠ ومنذ ذلك الحين أبان آخرون عن الطرق التي التقى بها تفكير عصر النهضة بتفكير القرن الثامن عشر[٢].

غير أنه، منذ سنة ١٧١٥، بدت ظاهرة من ظواهر انتشار الفكر لانظير لها، إذ أن ما كان يعيش في الظلام، أخذ يحيا في وضح النهار، وما كان موضع نظر بضعة عقول، غزا الجماهير، وما كان حييا أصبح متحدياً. نحن ورثة مثقلون، أخذنا عن العصور القديمة، والوسيطة، وعصر النهضة، ولكننا ننحدر عن القرن الثامن عشر بهيئة مباشرة.

وسندع لغيرنا العناية بإثبات العلائق. واستخلاص النتائج، فإنا لم نرد أن نقوم بدور محبي الماضي، ولا صاحب المذهب، ولا المتعصب له، ولايقيدنا الزمان

---

(١) السنة التي توفى فيها الملك لويس الرابع عشر والتي تعتبر في المحيط الأدبي، نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر. (المترجم).

(٢) Rossi, Alle fonti del deismo e del materialismo moderni Firenze, 1942- Lenoble, Mersenne ou la naissance du mécanisme, 1943- Pintar, Le libertinage érudit la lère moitié du 17 ème siècle, 1943.

كما كان يجب أن يكون أو كما كان يمكن أن يكون، بل كل همنا أن نسجلها كما كانت فحسب، وليس لدينا قانون أكثر سلطة من عرضها في حقيقتها الموضوعية، ولم يشغلنا شاغل أعز علينا من أن نكون أوفياء للتاريخ.

والمنظر الذي شاهدناه هو:

«أنه ترتفع أولاً ضجة من النقد، فيأخذ المحدثون على أسلافهم أنهم لم ينقلوا إليهم سوى مجتمع سيىء التكوين، كله أوهام وآلام، وأن الماضي السحيق لم ينته إلا إلى البأساء، ولمَ؟ وعلى هذا النحو يشرعون علناً، في قضية وصلت من الجرأة إلى حد أن نفراً من الضالين وحدهم هم الذين أعدوا في الظلام مستنداتها الأولى. وعلى أثر هذا يظهر المتهم وهو المسيح، ولم يكتف القرن الثامن عشر بالإصلاح، وإنما أراد أن يحطم الصليب، وأن يمحو فكرة الاتصال بين الإله والإنسان أي فكرة الوحي، وأن يقوض الإدراك الديني للحياة. ومن ذلك يتكون القسم الأول من هذه الدراسة أي «قضية المسيحية».

كان أولئك الجرآء يريدون البناء أيضاً، وكانوا يحسبون أن نور عقولهم سيبدد عظائم أكداس الظلام التي كانت الأرض مغطاة بها، وأنهم سيعثرون على منهج الطبيعة وأنه ليس عليهم إلا أن يتبعوا هذا المنهج لكي يظفروا بالسعادة المفقودة، وأنهم سيشيدون حقاً جديداً، لاتوجد بينه وبين الحق والإله أية صلة، وأخلاقاً جديدة مستقلة عن كل لاهوتيه، وسياسة جديدة تحول الرعايا إلى مواطنين، وأنهم سيخلعون على التربية مبادئ جديدة تقي أبناءهم من الوقوع في الأخطاء القديمة. وحينئذتنزل السماء إلى الأرض وفي تلك المباني المنيرة الجميلة التي بنوها، وترقى أجيال تصبح ولا حاجة بها إلى أن تبحث خارج أنفسها عن أسباب وجودها، ولا عن عظمتها، ولا عن سعادتها. وها نحن أولاء نتعقبهم في أعمالهم، وسنرى مشروعات وتكوين مدينتهم المثالية، «مدينة الإنسان».

ومع ذلك لاينبغي أن تدرس الفكر كما لو كانت قد احتفظت، إبان نموها،

بنقاء أصلها- واستبقت - أثناء تطبيقها- منطق المجردات الذي لايلين، ولاتدع العصور المتعاقبة وراءها البتة، سوى ميادين عمل مهجورة، وكل عصر منها يتحلل قبل أن ينتهي تكونــه، ويدفعها قادمون آخرون كما دفعت هي نفسها، من وجدتهم عند وصولـــها. وعندما تذهـــب تترك وراءها خليطاً نامياً بدلاً من النظام الذي كانت تحلــم به.

وسنعالج أسمى ما عرف من العقول المستنيرة، وإن كانت قد خلفت، في فلسفتها الشفافة، متناقضات سيفيد منها الزمن في وقوع هذه الفلسفة لفعله القارض. وعلى هذا- بدلاً من أن نوجز فكراً حية في بضعة سطور مفرطة في البساطة- يجب علينا أن نخصص جزءاً من دراستنا للنقص الذي انزلق إلى كمالهم المثالي، وسيكون علينا إذ ذاك، ألا نؤدي حساباً عن الطريقة التي يريد أي مذهب أن يستقر عليها فحسب، بل عن الصيرورة الحتمية التي تسايره. وسيكون ذلك هو القسم الثالث من دراستنا، أي الانحلال.

ولكي نحدد حقلاً من حقول الدراسة، لايقول عنه أحد قطعاً: إنه كان مفرطاً في الضيق. لم نعتبر سوى أسرة واحدة من العقول، فالأب بريڤو مؤلف «مانون ليسكو» وريشارد سون مؤلف «باميلا» و«كلاريس» وجوت مؤلف «ڤرتر» قد ذكرنا أسماءهم، ولكن لمجرد التعامل، ولم ندرسهم لأننا تجاهلنا راضين، ممثلي الإنسان الحساس. ولم نتابع النهر الصاخب الذي كان ينساب أيضاً خلال القرن الثامن عشر، وإنما قصرنا أنفسنا على الفلاسفة والعقليين، تلك النفوس الجافة التي أدى جفافها بتأثير عكسي، إلى ظهور ذوي الضلال والمتنسكين. تلك الأرواح المفتونة بالمعارك، والتي لم تكن تحاول أن تسبر غور الجوانب النفسية لخصومها. تلك النفوس التي لم تستطع الغابة، ولا الجبل، ولا البحر، أن تنال منها أدنى منال. تلك العقول الخالية من الرحمة، والطباع التي لم تصل إلى القمم التي ارتفع إليها إسبينوزا، وبيل، وفينيلون وبوسويه، وليبنز، والتي كانت بمثابة الجيل الثاني

لتلك العبقريات العليا . ولكن أولئك القوم كانوا أيضاً كتاباً عباقرة وممثلين من الطراز الأول في فاجعة الفكر ، لأنهم لم يريدوا ، بدافع الجبن ، أن يتركوا العالم كما وجدوه ، فتجرأوا .

إنهم حصروا أنفسهم في دائرة المشكلات الجوهرية إلى درجة لا يبدو أننا نعرفها ، وإن الشواغل والملاهي واللعب ، بل إن إنفاق عقولهم لم يكن يظهر لهم إلا أمراً ثانوياً إلى جانب الأسئلة الخالدة وهي : ما الحقيقة؟ وما العدالة؟ وما الحياة؟ وهذا العذاب لم يَكُفَّ البتة عن أن يتعقبهم ، بل إنهم كانوا دائماً يعودون إلى ذات المطالب التي لم يكونوا يحسبون أنهم يبعدونها في المساء ، إلا لكي يجدوها عند استيقاظهم .

ولقد كان يجدر بنا أن ندرس في هذه المجموعة ذاتها ، الأسرة الأخرى أي أسرة ذوي القلوب المضطربة ، والإرادة المزعزعة ، والنفوس الكئيبة ، وأن ننظر إلى ذوي الرغبات والذين أضناهم الحب ، والحب الإلهي ، وأن نستمع إلى صرخاتهم واستغاثاتهم ، وأن نشهد اغتباطهم وانجذابهم ، وأن نستكشف معهم ثروات الظلام ، وأن نرى في رفقتهم شموس الليل . وفي الحق إنه لكي يتمم المرء التاريخ العقلي للقرن الثامن عشر ، ينبغي له أن ينظر في نشأة إنسان العاطفة ، ونموه إلى عهد الثورة الفرنسية . ولقد بدأنا هذا العمل فعلاً وسنتابعه ، وقد ننتهي منه في يوم ما إذا منحنا القوى «Si vis suppeditat» ، كما كان الأقدمون يقولون .

# القسم الأول

# قضية المسيحية

# الفصل الأول

## النقد العام

إن أسموديه Asmodée (١) قد تحرر وهو الآن يوجد في كل مكان، إنه يرفع سقف المنازل لكي يعلم الطباع، ويذرع الطرقات ليستجوب المارة، ويدخل الكنائس ليتحقق من إيمان المؤمنين، بل إن هذه المهمة الأخيرة هي شغله الشاغل المفضل، وهو لم يعد يعبر عن نفسه بمثل ثقل پيير بيل (٢) Pierre Bayle الخاضع للهوى، وقسوته المحزنة ولكنه- كشيطان ضاحك- كان يظفر ويلعب.

ولاغرو، فالقرن السابع عشر قد انتهى من عدم الاحترام، والقرن الثامن عشر قد بدأ في وسط السخرية إذ أن الهجاء القديم لم يقف عن عمله قط، وأن

(١) أسموديه هو البطل الأساسي لرواية أحد كتاب القرن الثامن عشر وهو ليساج (١٦٦٨ - ١٧٤٧) وعنوانها «الشيطان الأعرج» (١٧٠٧). ومجملها أن أسموديه شيطان يأسره أحد الفلكيين، وعندما ينقذه أحد الطلاب الأسبانيين من أسره يحمله إلى برج، ومن هناك يرفع سقف المنازل ويشرح له كل مايمر في داخلها أي أعمال السكان ومسوغاتها وأشد أفكارهم خفاءاً. ومنذ ذلك الحين دخل أسموديه في اللغة الأدبية وهو هنا يمثل النقد العام الذي يتحدث عنه مؤلفنا ولنلاحظ أيضاً أن ليساج نفسه قد حاكى رواية ظهرت في سنة ١٦٤١ للمؤلف الأسباني لويس ڤيليز دي جيڤارا (١٥٧٠-١٦٤٤) المبتكر الحقيقي لشخصية أسموديه. (المترجم).

(٢) كاتب فرنسي حرر الفكر ولد في سنة ١٧٠٦ وهو مؤلف ذلك القاموس الفلسفي الشهير الذي يمكن أن يستخلص منه الجحود المطلق، محجباً بحجاب من الاحترام الظاهر للمعتقدات الموروثة وليس الدين عنده سوى حيرة للعقل والأخلاق. (المترجم).

هوراس وچوڤينال Horace et Juvénal قد بعثا، ولكن هذا النوع كان قد فاض، فالروايات صارت هجائية، وكذلك المهازل واللواذع والقوارص والثوالب أخذت تفرخ في كثرة وسرعة، ولم يكن هناك سوى نكت شائكة، وتلميحات جارحة، وتلويحات صائبة، وتصريحات معروفة، وكان الكل يقذفون بأنفسهم في وسط هذا بقلوب مغتبطة. وعندما كان الكتاب لايكفون لسد هذه الحاجة، كان المصورون يهرعون إلى معونتهم. ومن الأمثلة النموذجية التي تميز ذلك العصر، أنه كان في لتدن، رجل عالم، وطبيب ولغوي وسياسي أيضاً. وكان يدعى جون أربوشنوت، فجمع حوله بضعة من علية القوم التي تمثل الفكر الإنجليزي، وتعاونوا جميعاً فأسسوا في مرح، نادياً لانظير له أطلقوا عليه اسم نادي الكتاب، وكانت الغاية منه هي الثأر للفطرة السليمة بوساطة السخرية كما لو كانوا يودون أن يعلنوا في أوربا في سنة ١٧١٣، أن أوان النقد العام قد آن.



على صفحة هذا البحر الهائج، ظهرت آثار لم تلبث أن كونت ثلاثة خطوط. أولها المضحك، إذ لم تفتأ رواية «تيليماك» لفينيلون مثلاً أن تنكرت لأصلها. وهناك مثل آخر يمكن إجماله فيما يلي:

إذا كان في «الإلياذة» فصل رقيق مفعم بالحنان والحب، فإنه هو الفصل الذي ترى فيه أندروماك Andromaque مودعة «هيكتور» Hector على النحو التالي.

تقف على مقربة منه وتجهش بالبكاء، ثم تتناول يده وتناجيه داعية إياه بجميع أسمائه قائلة: «حميتك ستقضي عليك، ألا تشفق على ابنك الصغير ولا على أنا التعسة». ولكن التراث القديم فقد اعتباره. على أنه لم يكن إذ ذاك شيء معتبر، ومن ثم فهاك كيف، وبأية عبارة يرد هيكتور على أندروماك: ياإلهي كم أنت

تجيدين النهيق ولكن لو أنك نهقت أجود من ذلك أيضاً، لكانت الصخرة أقل صلابة من هيكتور، بل هو يعني بدموعك عنايته بقطرات الأنف في الشتاء»[1].

وقصارى القول إن الحماسة الهزلية انتشرت، وأخذت تعم شيئاً فشيئاً حتى صارت بدعة العصر، وصار الجميع يغتبطون بأن ينفخوا صغار الموضوعات أو يصغروا من شأن عظمائهما. فمن أمثلة ذلك أن خصلة شعر تخطف أو كلمات نابية تنطق بها ببغاء ذات حظوة لدى الراهبات، أو حماقة طالب مفتون بالمشاجرات والمبارزات، تبدو كأنها موضوعات كافية لتَنَكُّر عروس الشعر الحماسي، وتساهم في أن تخلق من السخرية أحد مواقف العقل المفضلة.

وفي الوقت ذاته تتابع وصول الرحالة الساخرين الذين كانوا يتظاهرون بأنهم ينظرون إلى أوربا بعيون جديدة- ويبينون مضحاتها وعيوبها ورذائلها. وإنهم لكذلك إذ تجرأ جاسوس تركي، ثم شخص سياسي وهما اللذان عبدا الطريق، لفارسيٍّ مونتيسكيو Montesquieu وعندما ظهر هؤلاء الأخيرون سنة ١٧٢١، استقبلوا بحماسة. آه كم كانوا خفيفي الروح وكم كانوا لاذعين حينما جعلوا- متناسين أحداثهم المتعلقة بالقصر- يروون قصة دهشهم الساذج، وبفضل هذه القصص البسيطة تخلصت الحياة الفرنسية بغتة، من العادات التي كانت تزملها. وفوق ذلك فإن الأوهام المحجبة بالعرف الجاري، وبطابعها المألوف في الحياة العملية والمسوَّغ أحياناً بوساطة الاتفاقات الضرورية لمجتمع ما، لم تكن تظهر فجأة إلا على ما كانت عليه في الواقع، أي على أنها أوهام وإن الأنظمة المجردة من هيبتها الاتفاقية ومن الالتزامات التي أسستها، ومن ذكريات الخدمات التي أدتها» ومن التسامح الطويل الذي حماها، كانت تبدو عارية كالحة من الهرم لأن نقاب الاحترام قد تمزق، وخلف النقاب لم يكن سوى مجافاة المنطق والتناقض.

---

(١) Mariyaux, Ho, T.ère iravesti, Paris, 1717.

كان الفارسيون[1] يحققون هذا العمل في صورة ماهرة طبيعية، قد أتقنت أجزاؤها إتقاناً علمياً، وفي كثير من المرح والخفة، وفي إرادة حازمة متحدية، وكان كل ذلك مغرياً إلى حد يفتن القراء، ويجتذبهم إلى صفه. ولقد كان الجميع يرمون بالحمق كل من لايكون حليفهم- وقد توفر لديهم أيضاً كثير من القوة ودقة الملاحظة، والثقة من أنفسهم في التعبير وتفارق التفاصيل، إلى حد يجعل الإعجاب به ينتصر على المعارضة وذلك كما لو كان الفارسيون قد هدموا المنزل في سرعة ومهارة إلى حد كان من شأنه أن يجعل المالك يهنئهم ويشكرهم. وعندما انسحب الفارسيون من الميدان انتزع أوليڤير جولد سميث من أحد حواجزه[2]. صينياً يدعى ليان - شي- التانجي وأرسله يذرع طرقات لندن. وقد أخذ هذا الرحال أو المواطن العالمي يبعث بأحاسيسه إلى أصدقائه النائين، وجعل يبرز- في صورة السخرية- الجنتلمان الأرقاء الذين كانوا يمثلون كبرياءهم في عصائب شعورهم المستعارة كما كانت قوة سمسون كامنة في شعره، والسيدات الرقيقات اللواتي يتزين بالأصباغ إلى حد أن يصير لكل منهم وجهان، أحدهما جميل وزائف للنهار، والآخر هرم ودميم لليل. وقد طفق هذا الصيني يتحدث عن الجميلات اللواتي كن يحاصرنه، وعن تلك التي جاءته لتقدم إليه قلبهاثم استولت على ساعته. وأكثر من ذلك أنه تجرأ إلى حد أن دس- بين هذه الرسوم المحبوبة الباسمة- بضعة رسوم أخر ذات خطوط قد حفرت بهيئة أعمق، وبمداد أكثر دسماً وأشد سواداً إذ يقول لنا مثلاً: انظروا إلى الأعلام المعلقة على سقف قبة كاتيدرائية القديس پولس، إنها خرق حريرية لم تكد تبلغ من القيمة بضع قطع من العملة الصينية عندما كانت جديدة، وهي لم تعد تساوي شيئاً الآن، ومع ذلك يقال إن الفرنسيين فقدوا كثيراً من شرفهم بفقدها، وإن الإنجليز ربحوا منه كثيراً

---

(١) يقصد المؤلف بالفارسيين شخصيات كتاب «رسائل فارسية» تأليف مونتيسكيو الذي نشر في سنة ١٧٢١ (المترجم).

(٢) الحاجز أو الپاراڤان، مزدان في الغالب بصور صينية، ولعل المؤلف يريد أن يقول أن إحدى هذه الصور هي التي ألهمت جولد سميث اتخاذ بطل كتابه من بين الصينيين. (المترجم).

باستيلائهم عليها. فهل شرف الدول الأوربية إذن يتلخص في قطع من الأقمشة الممزقة؟

وانظروا إلى المركبة الفخمة التي تجتاز الطرقات في ضجة عظيمة، إنها مركبة لورد انحدر من إحدى فتيات المطبخ، تزوجها في الماضي أحد أجداده، ومن أحد سائسي الاصطبلات كانت فتاة المطبخ قد منحته حظوة سرية، فاحتفظ من الأولى بذوق الإكثار من الأكل والإفراط في الشرب، ومن الثاني بهواية الجياد. ها هو ذا من يدعونه بالنبيل.

وحين ينتهي الصيني من هذا، يخطو على المسرح بضع خطوات ثم يؤدي التحية ويختفي فيما وراء الكواليس إذا لاتكاد سنة ١٧٦٧ تحل حتى يصل هوروني[1] فينزل عند مصب نهير الرانس. وعلى أثر نزوله يسبب فضيحة للأب دي كيركابون وشقيقته الآنسة دي كيركابون، ثم يزعم أنه يتزوج حسب هواه ويعرض نفسه لخطر الاتصال بالپروتستانيين والچانسينيين، وهكذا يقلب كيان بلاط ڤرساي رأساً على عقب، لا لشيء سوى أنه ساذج، ولأنه لم يتعلم شيئاً، فليس لديه أوهام، ولأنه لم ينحرف فهمه بالأخطاء، فقد بقي على استقامته، ولأنه- بعد أوسبيك وريكا، وريدي[2] وليان- شي- التانجي- يدعى للمرة الأولى أنه يرى الأشياء كما هي. وفي نهاية المطاف يتمدين الهوروني وينخرط في سلك جيش الملك، ثم يصير فيلسوفاً ومقاتلاً شجاعاً، ويفقد تبعاً لهذا أهميته.

وإذ ذاك تتساءل إسبانيا أي أجنبي تستطيع هي أيضاً أن تبدعه، ثم تختار أفريقياً هو غزال بن علي المراكشي، فيدرس مدريد والأقاليم الإسبانية، ثم يصف في سلسلة من الرسائل يبعث بها إلى ابن بيلي، أخلاق إسبانيا، وفي الوقت ذاته يسجل أسباب عظمتها وتدهورها، ويبين الدواء الذي بدأ يبرئها فعلاً. تلك هي

---

(١) الهوروني أحد أفراد قبيلة هورون من الحمر الذين كانوا يقطنون أمريكا الشمالية في غابر الأزمان وهذا الهوروني هو بطل كتاب ڤولتير الذي عنوانه «الساذج». (المترجم).

(٢) أسماء شخصيات كتاب «الرسائل الفارسية» تأليف مونتيسكيو. (المترجم).

محتويات كتاب چوزيه كادالسو الذي عنوانه «الرسائل المراكشية» والذي ظهر في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر.

وفوق ذلك وجد بين كل اثنين من هؤلاء الأبطال أشخاص- كما لو كانوا قد أتى بهم لسد الفراغ- للقيام بأدوار ثانوية من جميع الأجناس أي من الأتراك والصينيين والمتوحشين الذين أقصوا عن بلادهم، والبيروويين والسياميين والإيروكويين، والهنود الذين كانوا يقومون في مرح، بأدوارهم البهلوانية النقدية.

وأخيراً- وتلك هي الطريقة النقدية الثالثة- نشاهد رحالة آخرين، رحالة خياليين لم يغادروا مساكنهم قط، يستكشفون بلاداً عجيبة تخجل أوربا. وذلك كأمبراطورية الكانتهار فعلاً أو جزيرة النساء العسكريات أو دولة وسط أفريقيا التي كأن سكانها يعادلون الصينيين في القدم والكثرة، والمدنية، أو كمدينة «فيلاديف» أو كجمهورية الفيلسوف أوجويان.

لم يكد أحد يمل من أن يشيد بفضائل أولئك الذين لا وجود لهم، والذين كانوا جميعاً منطقيين وسعداء. ولقد كان الناس إذ ذاك يعيدون طبع المشروعات الخيالية العتيقة. فمن ذلك أن دومانجو جونساليس قد بعث ليقذف بنفسه إلى القمر، وكان البعض يكتب عن ذلك قصصاً كقصة نيكولاس كليميوس الذي تغلغل إلى عالم ما تحت الأرض حيث ألفى مملكة البوتوانيين المستنيرين الحكماء، وشاهد الأرض الثلجية التي يذوب سكانها عندما يصيبهم شعاع من أشعة الشمس، وذلك كله دون حسبان الذين لا رؤوس لهم، والذين يتكلمون بأفواه في وسط معداتهم، ولا البوستانكيس الذين ثبتت قلوبهم في أفخاذهم اليمنى.

تلك كانت بعض هذيانات الأخيلة وإن لم ينس أربابها الغاية الأساسية، وهي إظهار كم أن الحياة غير قابلة للتعقل في إنجلترا وألمانيا وفرنسا والمقاطعات المتحدة، وعلى العموم في جميع البلاد التي تزعم أنها متمدينة، وكم أنها يمكن أن تصير جميلة لو أنها صممت في النهاية، على أن تطيع قوانين العقل.

الخيالة. ومنذ سنة ١٧٢٦ بدأ أثر جوناثان. سويفت- وهو أستاذ في هذا

النوع- يظهر في كثير من هذه المشروعات. ولما كان الأطفال قد استولوا على كتاب سويفت الذي عنوانه «رحلة جوليڤير» لكي يتخذوا منه أحد ملاهيهم المفضلة، فقد شق علينا أن نرى إلى أي حد يمكن أن يصل مرماه الرهيب، لأن سويفت يقبض بيده على المخلوق البشري فيصغره إلى نسب ضئيلة، ويكبره إلى أن يمنحه نسباً عملاقية، ثم ينقله إلى بلاد فيها كل الصور الفطرية لحياتنا، منقلبة رأساً على عقب. وهو لا يكتفي بأن يعطينا في النسبية أكبر درس تلقيناه، بل إنه يهاجم كل ما تعلمنا أن نؤمن به ونحترمه ونحبه، وذلك في حماس خبيث وحركة لاتلبث أن تصير مدمرة، فرجال الحكومة مثلاً جهلاء أغبياء مغرورون مجرمون، والملوك يمنحون الأوسمة ذوات الأشرطة الزرق والسود والحمر كل من يجيدون معرفة القفز على الحبل، والأحزاب تتقابل فيما بينها على معرفة ما إذا كان من الملائم فتح البيضة من طرفها الغليظ أو من طرفها الدقيق والعلماء؟ إنهم مجانين، وفي المجمع اللغوي لا جراد ونشاهد أحدهم يعمل على استخدام الشمس من الخيار وحبسها في قوارير للشتاء. بينما نرى آخر يشيد منازل مبتدئاً بسقفها، نجد ثالثاً، أعمى، يصنع ألواناً، وآخر يستبدل بالحرير نسيج العنكبوت.

والفلاسفة؟ إنهم أدمغة مختلفة تعمل دون جدوى، ولا يوجد شيء متناقض أو غير معقول إلا وقد أيده واحد منهم.

وفي مملكة لوجناج يلتقي جوليڤيربعدد من الخالدين يدعون استرالبروجس ولكن أي خلود بشع مفزع ففي الواقع أنه في بعض الأسر، يولد أطفال موسومون في جباههم بوشمات، ومقدر عليهم أن يحيوا دائماً. وفي سن الثلاثين يصيرون منقبضين. وفي الثمانين يئنون تحت تعس الشيخوخة، ويألمون بشعورهم بالهرم الذي ينتظرهم. وفي التسعين يصبحون بلا أسنان ولا شعر، وقد فقدوا الذاكرة وتذوق الطعام. وفي سن المائتين ثم في سن الخمسمائة يصيرون حطاماً حقيراً بغيضاً بشع المنظر، بل أشد إزعاجاً من الأشباح بلا عون ولا أمل.

وأخيراً يصور سويفت وجودنا نفسه فظيعاً لأن في بلاده الخيل، تعيش في

العبودية، حيوانات عفنة تدعى بالياؤوس. ولها شعر طويل يتدلى على وجوهها وأعناقها، وصدورها وظهورها. وسيقانها الأمامية مغطاة بشعر سميك، ولها لحى في أذقانها كالتيوس، وهي تستطيع أن تنام وتجلس وتقف على قوائمها الخلفية وتجري وتقفز، وتتسلق الأشجار مستعملة مخالبها. وإناثها أصغر قليلاً من ذكورها وأثداؤها معلقة بين سيقانها الأمامية وتلمس الأرض أحياناً. وهذه الياؤوس المقززة هي بنو الإنسان. .

وعندما ينتهي المرء من مطالعة كتاب «رحلة جوليڤير» يحس بميل إلى تغيير عنوانه ومنحه عنوان كتاب يعزى إلى مكتبة العملاقة الشابة جلومدا لكليش من بلاد بروبدينياج، وهو «رسالة في ضعف النوع البشري».

ومن ثم فإن أبناء جوليڤير - سواء أكانوا أبناء شرعيين يحملون اسمه أم أبناء طبيعيين - جعلوا يتناسلون في خصوبة إلى حد أن كونوا قبيلة نقدية هي قبيلة الساخطين أو غير المنسجمين مع المجتمع، أو الحالمين فقط.

لقد أظهروا للعصر - في الصحراوات المتحولة إلى حدائق، وفي الجزر التي تختبئ فيها الدورادو، أي أرض الذهب. وعلى شاطئ جرونكاؤف، وفي مجموعة جزر منجاهور، التي لاتبينها أية خريطة إنسانية عرفت، كيف توجد دساتير أفضل، وديانات أكثر نقاءاً، وحرية ومساواة وسعادة. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا نستمر نتعثر في شقائنا ما دمنا نستطيع أن نجلب لأنفسنا كل هذه الخيرات؟ إن هذا كله بسبب رذائلنا، وإن رذائلنا لاتأتي إلا من أخطائنا الطويلة.

* * *

ذلك هو النقد العام، وهو يطبق في جميع الميادين: الأدبية، والأخلاقية، والسياسية، والفلسفية. إنه روح تلك الحقبة المناضلة. لم أر في أي عصر ممثلين للنقد أوسع شهرة من نقادها ولم أر النقد مطبقاً بهيئة أكثر شمولاً، ولا أشد لذعاً مع مايبدو عليه من مظهر مرح.

ومع ذلك فهو لايتطلب تحولاً مطلقاً في كيانانا، ولايحمل على الأنانية الأبدية التي شهَّر بها أخلاقيو القرن السابع عشر، ولايطلب إلينا أن نغير طبيعتنا لنصير قديسين أو آلهة، إذ أنه يوجد اتجاهان ممتزجان في المحيط النفساني لأولئك النقاد أحدهما اتجاه الغضب والآخر اتجاه الأمل، وحتى سويفت الشديد القتومة يدَعُنا نلمح شيئاً من الزرقة في وسط سحب سمائنا. حقاً إنه يعلن أنه ممقت ذلك الحيوان الذي يدعى بالإنسان، وأن رحلاته مؤسسة على ذلك المبنى العظيم الذي هو عداء البشرية. ولكن قد يحدث له أيضاً بغتة أن يصرح تصريحات أقل يأساً، عندما يفرض أن ذلك البصيص من العقل الذي وضع فينا على صورة غير قابلة للشرح، يمكن أن ينمو، وأن السياسة تنحصر في الحس المشترك، وفي الإنهاء العاجل للأعمال، وأن شخصاً يستطيع إنبات سنبلتين أو نبتتين من الأعشاب فقط؛ في قطعة من الأرض لم يكن فيها فيما مضى سوى نبت واحد. عند ذلك لاينبغي اليأس تماماً من نوعنا. ولو أننا استطعنا أن نتخلص من رذيلتنا الجوهرية التي هي الكبرياء، لكنُا أقل تناقضاً، وأقل تعاسة. ولكننا جسّمنا بأساءنا وأضفنا إليها أخريات، ومع ذلك فمن يدري ما إذا كانت حكمة جديدة وفطرة سليمة بسيطة متواضعة، وإدراك للحياة أدنى نسبة إلى طبيعتنا، لاتكون هي الأدوية التي لم نستعملها ولكنها لاتزال في متناول أيدينا؟.

وإذا كان سويفت كذلك فإن الآخرين من باب أولى يتمالكون أنفسهم، لأن تشاؤمهم ليس كونياً أي أنه لا يمتد إلى العالم كله ولاينطبق على حالتنا كلها. أنهم بالأحرى يتهمون حاضراً يثيرهم ولكنهم يحسبون أنه يمكن تغييره، لأن عدوهم هو الحالة الاجتماعية كما وجدوها عندما أتوا إلى هذا العالم. فلتهدم ولتبدل وعند ذلك يتحسن المستقبل.

لايقترن نقدهم دائماً بطلب من المطالب، فمن أمثلة ذلك، أن چون جيه - وهو ليس عملاقاً. ولكنه صديق للعمالقة: أربوثنوت، وپوپ، وسويفت- Arbuthnot Pope Swift قدم مسرحية عنوانها «أوبير المتسول» كان من

الممكن أن تبدو للوهلة الأولى، مزاحاً بريئاً، وذلك أن الأوبرا الإيطالية في لندن تثير أعصابه، وأخذ يسخر من أولئك المغنين الأكابر، ومن تلك العواطف الجوفاء، والدسائس الحمقاء، التي لا تلائم العبقرية القوية للبريطانيين الأشداء.

ولكي يضع أولئك المغنين موضع السخرية أصعد على المسرح عصابة من اللصوص والمثالين، والفتيات الساقطات، ومعهم قاطع طريق. وبهذا يتم له تأليف معارضة لأشخاص الأوبرا الإيطالية المكونة من ملوك وملكات وبطلات مغرمات، ومحبين ممعنين في الإفصاح عن عواطفهم، وآباء أشراف ورقيبات محترمات. ولاتوجد حالة من حالات الأوبرا- كاعتراف يسوده الهوى أو مناجاة تحت نور القمر ولعنات أبوية، وموت منسجم- دون أن تكون قد أخذت لها صورة كاريكاتورية في تلك المسرحية. وفيما يتعلق بالموسيقى، فإن ألحاناً شعبية، وأغنيات قديمة، وأنغاماً كان أهل سوهو [1] يترنمون بها وهكذا قد استهزئ بالتصنع والتعمل في الخطابة، والتظاهر بالرشاقة في الأوبرا الإيطالية الخالية من المعنى غير الجديرة بالعبقرية القوية للبريطانيين الجافين.

ولكن هذا التصوير للسرقة كان يرمي إلى ماهو أبعد من ذلك لأن نشاط العصابة التي كانت تحركها عبقرية رئيسها المستر پيتشوم- وهو مخبيء المسروقات، وموزع الأدوار على الأشقياء، ومنظم المؤامرات، وهو قدير على حماية رجاله وانتزاعهم من السجون إذا اعتقلوا، قدرته على عقابهم إذا ضعفوا- كان يهدف إلى أن يكونوا صورة للحياة السياسية بوزرائها الذين يوزعون على أنصارهم ما اختلسوه من الأفراد، وعدالتها البعيدة عن العدل، وقانونها الخارج على القانون. وأكثر من ذلك أن طبقة الأشراف هي التي كانت موضع سخرية المسرحية لأن المستر پيتشوم وصاحبته مسز بيتسن- وهي قوية الحنجرة ومستعدة دائماً لتوريد الأمثلة السائرة التي هي حكم الدول- وابنتها پولي وهي أجمل حلي العصابة وأكثرها نفعاً، واللصوص الذين كانوا ينحبسون في مقصف، والعاهرات اللواتي تفوح

(١) أحد أحياء مدينة لندن. (المترجم).

منهن رائحة الكحول. وفيم يفترق كل هؤلاء عن السادة الحسان والسيدات النبيلات ممن يختلفون إلى البلاط، ويسكنون القصور، ويتنزهون في المركبات، ويشغلون الجوانب العليا في الطرقات[1].

هذا الفرق إن صح، خارجي لأن العواطف والعادات والجرائم متماثلة إذا سنحت الفرصة، وإلا فهل يعمل هؤلاء القوم ذوو المظهر الجميل شيئاً آخر سوى البحث عن فوائدهم ولذائذهم؟ إنهم يتحدثون عن شرفهم ولكن أليسوا مستعدين دائماً لخيانته؟ ويتحدثون عن فضائلهم، ولكن أليس فيهم جميع الرذائل؟ أو ليسوا غير أوفياء؟ أولا يغشون في اللعب؟ أولا يترقبون الفرص لجمع المال؟ إنهم وحوش مفترسة، فليتظاهروا بالتقزز كما يريدون لأنه لايعرف أحد بالضبط ما إذا كان السادة يحاكون أبناء الشوارع أو كان أبناء الشوارع يحاكون السادة. وإذا كان ينبغي الفصل بينهم، فإن اللصوص هم الذين سينتصرون. حقاً إن اللصوص خير من هؤلاء المنافقين لأن هؤلاء إذ يجلبون إلى أنفسهعم بلا طنطنة ما يحتاجون إليه ليعيشوا، وإذ يكونون مهرة غير متأثرين بالتعب، شجعاناً، لايترددون في أن يخاطروا كل يوم بحريتهم وبحياتهم في سبيل الاستعداد لإغاثة صديق، وللموت من أجله مدفوعين إلى ذلك بالوفاء لقانونهم. هؤلاء «الفلاسفة العمليون» يرمون إلى أن يوزعوا- بصورة أكثر عدالة - خيرات هذا العالم، وأن يصلحوا إجحاف الحظ.

والآن دعوا السنين تمضي، وانظروا إلى بلد آخر مختلف كل الاختلاف، وغيروا النوع الأدبي، فإنكم ستجدون نفس القلق الاجتماعي.

كان پاريني ابن أحد الصناع اللمبارديين وقد صار قسيساً ثم مربيّاً. ولما اقترب بسبب ذلك، من الارستقراطية، حكم عليها ودانها. وفي سنة ١٧٦٣، أخرج كتاباً عنوانه «الصباح» لم يلبث أن قفى على آثاره بآخر، عنوانه

---

(١) كانت الطرقات في القرن الثامن عشر منحدرة في أوساطها عالية في جوانبها وكانت النواحي العالية النظيفة مخصصة للطبقة الأرستقراطية. (المترجم).

«الظهر»وهما رائعان. والسيد الشاب الذي صور فيهما حياته أثناء بضع ساعات فقط، أي منذ يقظته المتأخرة إلى وسط النهار، ليس سوى كسل ورخاوة وتعطل، وليست شواغله سوى فراغ، فهو يتناول القهوة في وعاء من الصيني الفاخر، ويثرثر مع أستاذ الرقص، وأستاذ الغناء، وأستاذ اللغة الفرنسية، ويستقبل الحائك الذي يأبى أن يدفع له ما عليه ويتلكأ طويلاً أمام منضدة الزينة، بينما يكون الحلاق الذي يهيئه مشتغلاً بتجميل شعره ووضع المساحيق عليه، ثم يتجه نحو عشيقته المتزوجة تحت عيني زوجها. وأمام مائدة الطعام يتظاهر بالامتعاض بإزاء أطعمة لذيذة، وهو يثرثر بلا ضابط، ويصدر أحكاماً قاطعة على مالا يعرفه. إنه مختل ومتكبر وقاس، وإن مركبته تسحق المارة الذين لايبتعدون بسرعة عن طريقه، فما هي مميزاته؟ إنه لم يقدم خدمة إلى الدولة، ولم يدافع عن وطنه كأجداده، ولايحمل فوق جنبه سوى سيف البلاط. إنه غير جدير باسمه وطبقته وامتيازاته وقد جعل باريني Parini يتعقبه تفصيلاً إثر تفصيل. وهنا يسخر ويزمجر. ومن حين لآخر يستولي عليه غضب، وغضب مكبوت بلا تعبير ولاصياح. وفي شعره ذي القوة التي لا توازى، تمر حسرات وآمال كقوله مثلاً: «قد يكون ذلك كذباً، ولكن الخرافة تقول إنه وجد زمن، كان فيه بنو الإنسان متساوين وكان السوقة والأشراف فيه اسمين غير معروفين...».

على هذا النحو ظلت الحالة إلى نهاية القرن أي إلى فيجارو(١).

وظلت كذلك في كل أوربا، وكان النقد إذ ذاك ينتهي باستغاثة وتمنيات ومطالب. وأخيراً ماذا يشتهي أولئك الرحالة الساخطون؟ أو الجائلون الناقمون؟ وماذا يريد أولئك المتظلمون؟ ولماذا يعيدون النظر بهيئة لايفلت منها شيء، لا التشريع الذي يحتمي بجلاله؟ ولا الدين وهو يبرز طابعه الإلهي؟ ومن أي خير يعتبر أولئك النفر أنفسهم محرومين ظلماً إنهم محرومون ظلماً من السعادة.

---

(١) الشخصية الأساسية في أشهر مسرحيتين الكاتب الفرنسي بومار مشيه (١٧٣٢ - ١٧٩٩) «وهما حلاق إشبيلية» و«زواج فيجارو». وقد أنشأ المؤلف فيهما هجاءاً عنيفاً لمجتمع النظام القديم عارض فيه السلطة الناشئة النامية للطبقة الشعبية التي كان فيجارو أحد مشاهير نماذجها. (المترجم).

# الفصل الثاني

## السعادة

أيتها السعادة يا نهاية كينونتنا وغايتها، أيها الخير أو اللذة أو السعة أو الرضى أو أيّاً كان اسمك.

ستعود غالباً هذه الدعوات أو هذه العبارات التي تشبه الرقى. ولاجرم أن هذه الكلمات- وهي التي يجمعها پوپ في كتابه «محاولة على الإنسان»، كما لو كان يناديها، والتي يضيف إليها أيضاً كل الممكنات- ستتخذ من جديد. وستحلل وستعرف بصورة غير قابلة للملل. فأهل ذلك الزمن لم يكونوا يخشون آلهة غيورين يسخطون عندما ينطق الفانون بكلمة غير حكيمة، بل على الضد كانوا يصيحون معلنين أنهم يريدون نصيبهم من السعادة. ذلك النصيب الذي سينالونه، بل الذي كان لديهم فعلاً. وهاك ما كانوا يجرؤون على تدوينه كعناوين لكتبهم بلغات مختلفة: «أفكار عن السعادة، رسالة على السعادة، عن الحياة السعيدة، نظرية السعادة الحقة، محاولة عن السعادة، عن السعادة، فن الإسعاد، خطبة عن السعادة، عن السعادة. وعلى السعادة البشرية، على السعادة» وعلى أثر هذا لما كان استكشاف السعادة، بعد إرضاء الأفراد، سيفيد الشعوب فقد وسعوا ما فيه من خير، وأشاروا إلى ذلك في كتب أخرى على النحو التالي:

«رسالة عن المجتمع المدني». وعن وسيلة تصيير الإنسان سعيداً يساهم في إسعاد الأشخاص الذين يعيش معهم، وأسباب السعادة العامة، وعن السعادة

العامة، وعن السعادة العامة، وتعقلات مؤدية إلى السعادة العامة، وتفكيرات عن السعادة العامة، وعن السعادة العامة»[1].

ولكي يكون تحت أيديهم أفضل الرسائل في تلك المسألة، فقد كونوا منها مجموعة أطلقوا عليها عنوان «مبادئ السعادة». ولقد كان المعبد الجميل هناك فوق التل السعيد، وكان السرور واقفاً أمام بابه يدعو البشر آخر الأمر إلى عيد الحياة الأكبر.

غير أن هناك منافسة أخرى استولت على العقول. نعم إن الجميع كانوا ينقدون، ولكن الجميع أيضاً كانوا يرددون أن الحقائق الهامة الوحيدة من بين جميع الحقائق، هي التي تساهم في جعلنا سعداء، وأن الفنون الهامة الوحيدة من جميع الفنون، هي التي تساهم في جعلنا سعداء، وأن كل الفلسفة تنحصر في الوسائل الناجعة في إسعادنا، وأن نهاية المطاف هي أنه لايوجد سوى واجب واحد هو أن يكون الإنسان سعيداً.

وضع الشعراء في قصائدهم هذا التنقيب عن السعادة الذي صار «جرال» Graal[2] العصر الحديث. ومن ثم فإن هلفيسوس[3] Helvétius عندما اعتزم أن يكون أبولون[4] فرنسا طلب النصح من ڤولتير فأجابه بأن وجود موضوع جميل هو

---

(١) تحمل هذه الكتب الثلاثة عنواناً واحداً ولكن أولها فرنسي وثانيها إيطالي وثالثها إنجليزي فالجهة منفكة كما يقول علماء المنطق. (المترجم).

(٢) الجرال هي الكأس التي استعملها المسيح ليلة وفاته والتي تلقى فيها دمه على الصليب. وتروى القصائد الحماسية الفرنسية واللمانية في العصور الوسطية كيف أن الجرال قد حفظت في قصر موتسالفا حيث سيأتي للاستيلاء عليها پارسيفال البطل الشاب ذو القلب النقي الذي سيخلع عليه هذا الاستيلاء عنوان ملك الجرال والذي سيخلف ملك البلاد المتوفى. (المترجم).

(٣) هلفيسيوس هو أحد فلاسفة القرن الثامن عشر (١٧١٥ - ١٧٧١) وهو مؤلف قصيدة «السعادة» ورسالتين فلسفيتين. (المترجم).

(٤) أبولسون هو عند الهيلسين إله الشعر، ورئيس عرائسه، وهو مضرب المثل في إجادة الشعر حتى ليطلق على من يتقن القريض اسم أبولون عصره وقد يطلق هذا التعبير أيضاً على« الشاعر الرديء للسخرية. (المترجم).

قبل كل شيء، ضروري لكي ينشىء المرء شعراً جميلاً، فطفق ينقب، ولكنه لم يجد من بين الموضوعات أجدر من الموضوع التالي: سعادته هو وسعادة النوع البشري.

لقد دنا الزمن الذي كان سيتمم فيه أورومازد[1]، إله الخير كفاحه ضد أريمان إله الشر، بانتصار حاسم، وكان أورومازد هو الذي يعلن ذلك النبأ على هذا النحو: «إن الجحيم ينعدم، وإن السماء تنزل على الأرض... وكذلك وضع الكتاب هذا التنقيب عن السعادة في رواياتهم. ففي سنة ١٧٥٩ قد وكل الكاتب المتعقل الحكيم صمويل جونسون Samuel Johnson هذه المخاطرة إلى بطل روايته راسيلاس ابن إمبراطور الحبشة.

كان راسيلاس - تبعًا لقانون بلاده، وإلى أن يدعوه إلى الحكم نظام التعاقب على العرش - مبعوثًا في أحد الأودية بلا اتصال مع العالم، نعم لم يكن يعوزه شيء مما كان يجب أن يرضيه. ومع ذلك فقد كانت حالته تبدو له غير ممكنة الاحتمال. وعلى أثر ذلك أعد مشروعًا لمغادرة سجنه المفرط في الكمال. وأخيراً فرّ وجعل يزور الريف والمدن، ثم اتجه إلى القاهرة التي يتجابه فيها الغرب والشرق والتي يوجد فيها المثل لجميع الحالات بل دخل الأهرام التي يمكن أن تكون قد خبأت سر الحكمة القديمة، وجعل يردد - بصوت أخذ عزمه يقل تدريجياً بقدر ما كانت تجاربه تضعف أعماله - الكلمات الآتية: «لابد أن هناك مكانًا توجد فيه السعادة».

وفي سنة ١٧٦٦ قد خلق ڤيلاند «Wieland» بطلة آجاتون، وقد جعل هذا الأخير يجوس خلال المناطق المختلفة في إغريقا الأثرية، مستجوباً العامة والحكماء، والمومسات والزهاد قائلاً: «السعادة، قل لي إذا كنت قد وجدتها؟ أين السعادة؟».

---

(١) أورومازد أو أهورامازدا هو إله الخير، وأرمان أو أهرمان هو إله الشر في الديانة الفارسية القديمة، وقد قدر لإله الخير في تلك الديانة أن ينتصر على إله الشر آخر الأمر لتسود الفضيلة وتنمحي الرذيلة من الحياة. (المترجم).

لقد كان بعض المؤلفين يحلمون، فطفق أحدهم يقدم إلينا مملكة من ممالك الأحلام تمتد في الجانب الآخر من خط الاستواء بين درجتي الأربعين والخمسين من خط العرض الجنوبي. وكانت عاصمتها ليليو بوليس مشيدة فوق صخرة في جمال الرخام، وكانت منازلها مزدانة بزخارف الأقمشة والبسط في الشتاء، وهي في الصيف محلاة بأنسجة أكثر رقة، وأسطع لوناً من حريري الموصل والهند، وكانت أغطية الحوائط والسقف مكسوة بزخرفة أكمل من الزخارف الصين، وكان الريف ثرياً ومأهولاً بالسكان وكانت الأراضي- وهي مزروعة بعناية تشبه عنايتنا بحدائقنا- تنتج أثرى الحصائل التي يمكن أن تقع عليها الأعين في هذا العالم. وكانت توجد فيها جبال من ماس، وكمية من الأحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والزبرجد، وكانت الأنهار تجتذب الذهب في رمالها، والبحر يحتوي الجوهر والعنبر والمرجان. ولم يكن هناك شيء يوازي خضرة الأشجار، والمروج والأعشاب. وكانت الأسيجة النباتية نفسها مغطاة بزهور لانظير لبريقها، وكانت تعطر الجو بأريجها. وكانت الخضراوات والفواكه فيها فاخرة، والنبيذ لذيذاً. وكانت الينابيع ذوات المياه النقية عديدة. وأخيراً إن هناك سماء صافية، وهواءاً صحياً، ومناخاً معتدلاً أكثر وداعة وأقل خضوعاً للتغير من مناخنا. كل ذلك كان يتمم جعل السكان جديرين بهذا الاسم الجميل وهو «الهانئون» أو «السعداء» (١).

كان أولئك المؤلفون يفرون من الواقع عن طريق الفكر، فكان أحدهم مثلاً يرتحل في إثر روبينسون (٢) فوق صفحة الخضم غير مأمون العاقبة. وكان يقتحم المخاطرات ومهالك البحر.

وكانت العاصفة تهب فتغرق السفينة، ولكن الغارق كان يجد دائماً شاطئاً

---

(١) Marquis de Lassay, Relattion du royaume des Féliciens peuples qui habitent dans les terres australe, 1727.

(٢) روبينسون كروزيه هو بطل الرواية الشهيرة التي ألفها الكاتب الانجليزي دانييل ديفويه الذي ولد في سنة ١٦٦١ وتوفي في البأساء في سنة ١٧٣١ . (المترجم).

يأوي إليه، وطبيعة رحيمة، ووادياً خصباً، ولحم صيد وفاكهة. وكانت إلى جانبه في هذه الأسفار، رفيقة، أو كان يلتقي بها عن طريق أحد الأحداث. وحينئذ كان هذا المثنى يؤلف مجتمعاً تخجل حكمتـه أوربا العجوز. وكان كل ذلك يجـري في جـزيـرة فيلسينبور، وهي في أحد جوانب مملكة الأوهـام، أو في جزيرة أخرى إدراكها أشـد صعوبة، وهي تسمى «أسـعد جزائر العالم كلـه أو بلاد الرضـوان والغبطة».

وفي الحق أن جميع العلماء والسطحيين، والمختارين والمبعدين والشبان والنساء والشيوخ كانوا يستولي عليهم ظمأ واحد، فمدرسة الأشراف في وارسو مثلاً- لكي تقدم إلى الأسر فكرة عن رفعة دراستها- قد أبرزت أمام الرأي العام في سنة ١٧٥٧ عشرة شبان خطباء كانوا يعالجون موضوع «سعادة الإنسان في هذه الحياة». وفي المنتديات الباريسية كان روادها يستبدلون «خريطة الحب»[(١)] بخريطة السعادة. وفي المسرح كان المرء يستطيع أن يشاهد تمثيل مسرحية فلسفية نثرية في ثلاثة فصول، عنوانها «السعيد». ولقد كانت هناك أيضاً «نحل» «في السعادة» تعتنقها شيع من بين الجمعيات السرية، وكانت تلك الشيع في مجتمعاتها تترنم بأغانٍ من النوع الآتي: «إن جزيرة السعادة ليست وهماً، وإنما هي هناك حيث تسود اللذة التي هي أم الحب. أيها الأخوة، لنجر ولنمخر عباب البحار الموصلة إلى سيتير[(٢)] فإننا سنجدها.

وكانت مدام دي پويزيو كذلك تكتب حين كانت تصور أخلاق معاصريها: «إن السعادة كرة نجري وراءها عندما تتدحرج. وندفعها بأقدامنا عندما تتوقف... وحينما يعتزم المرء أن يستريح، ويدع الكرة يبتعد، يكون جد منهك...». ولكن

---

(١) كان رواد المنتديات الباريسية في القرن السابع عشر من الأدباء المتأنقين، والأديبات المتأنقات قد اتفقوا على وضع خريطة للحب تحتوي على مراحله المتتالية التي يجب على كل محب متأنق أن يمر بها قبل أن يصل إلى الغاية العظمى من حبه. (المترجم).

(٢) سيتير هي إحدى الجزر الإغريقية في البحر الأبيض، وتدعى اليوم سيريجو وكان لأفروديت إلهة الجمال والحب فيها معبد بديع، وتمثل سيتير في لغة الشعر، الوطن الرمزي للحب. (المترجم).

الإنسان إذا صدق ما يقوله مونتيسكو، لا يكون منهكاً ألبتة: «إن السيد دي موبيرتوي الذي حسب طول حياته، أنه لم يكن سعيداً، بل الذي يمكن أن يكون قد برهن على ذلك، نشر آنفاً رسالة صغيرة عن السعادة».

ومهما يكن من الأمر فإن ذلك العصر كان مستعبداً لبضع فكر معينة ولم يكن يتعبه استئنافها من حين إلى حين. وكان يفضل أن يعود إلى نفس الصيغ، ونفس الامتدادات كأنه لم يكن البتة موقناً بأنه أثبته، ولا أقنع به أحداً بالقدر الكافي، فنحن نراه هنا في إحدى خططه المفضلة وفي إحدى معانداته، إذ ينبغي أن نذكر أن الحروب لم تكن تضع أوزارها: كحرب التعاقب على عرش إسبانيا، وحرب تركة النمسا، وحرب السنوات السبع، وحرب الشرق الأدنى، والحرب التي حملت إلى العالم الجديد. وفوق ذلك فمن وقت إلى وقت كان الطاعون أو الجوع يأتي فيجتاح بضعة أقاليم. وفي كل مكان كان الناس يتألمون كما هي العادة. ومع ذلك فإن أوربا العقلية كانت تريد أن تقنع نفسها بأنها تعيش في خير العوالم الممكنة. وكان مذهب التفاؤل هو معونتها العظمى[1].



قد يقال إن هذا هو التاريخ الأبدي لو هم أبدى... ولكن الأمر ليس كذلك، فقد وجدت عصور يائسة، ووجدت عصور أليمة لم تكن لتجرؤ على أن تعلن هذا المطلب من السعادة لأن، ذلك كان يبدو لها هزواً. وكانت قد أصيبت إصابة عميقة في عقولها وفي أجسامها إلى حد أنها لم تكن توشك أن تجرؤ على الإيمان بغد أفضل. وكانت تعرف أنها تحمل في بداخلها جميع بأساء العالم. ولقد وجدت أيضاً عصور إيمان عندما لاحظت شقاءنا الذي لا دواء له، وضعت ثقتها فيما وراء هذا العالم، أي في من تنتظر منه العدالة. وهذه الأخيرة قد راهنت على اللامتناهي.

بيد أن السعادة كما أدركها عقليو القرن الثامن عشر، كان لها مميزات لم تكن

(١) فيما يتعلق بتفاؤل ليبنيز وبوب، انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان «الطبيعة والخيرية».

لغيرها . إنها سعادة عاجلة، إذ أن الكلمات التي كانت تدخل في الحسبان إذ ذاك، هي: اليوم، أو على الفور، وما إلى ذلك. وكان الغد يبدو متأخراً أمام ذلك القلق لأن الغد كان يمكن على الأكثر أن يحمل تتميماً، أن الغد كان يستطيع أن يستمر في العمل الذي بدئ فيه. ولكنه لايشير إلى تحول ما، إن هذه السعادة التي كانت غُنْماً أكثر منها منحة، كانت سعادة إرادية ولم يكن يجب أن يدخل في مقوماتها أي عنصر مأساوي. فلتهدأ الإنسانية كما يقول الألمان.

فلتهدأ الإنسانية ولتنقطع الاضطرابات والشكوك والقلق إطمئن أيها الإنسان إنك في مَرْج لطيف محوط بأشجار، تجتازه جداول من الفضة، وهو يشبه جنة عدن. ومع ذلك فأنت تأبى أن تراه. وإن هناك رائحة عطرة تتضوع من الزهور، وأنت تأبى أن تتنسمها، وزنابق ساطعة، وفواكه لذيذة تتقدم إليك وأنت تأبى أن تجتنيها. وإذا اتجهت نحو شجرة ورد، فأنت تعمل على أن تمزقك أشواكها. وإذا اجتزت الأعشاب فأنت تفعل ذلك لكي تجري وراء الثعبان الذي يفر. وبعد كل ذلك فأنت تولول وتصعد الزفرات، وتقول إن الكون يتآمر ضدك، وإنه كان من الخير ألا تكون قد ولدت. ولكنك لست إلا معتوهاً وأنت نفسك تتسبب في شقائك[1]. أو إنك تغتبط بأن تستحضر شَبَحاً أي آلهة مرعبة مرتدية ملابس سودا وجلدها متغضن بكثير من الثنايا، ولون وجهها ممتقع، ونظراتها مليئة بالفزع، ويداها مسلحتان بسياط وعقارب إنك تستمع إلى صوتها وهي تنصح لك أن تشيح بوجهك عن جواذب عالم خادع وتقول لك إن السرور ليس من نصيب الجنس البشري، وإنك ولدت لتتألم ولتكون، ملعوناً، وإن جميع المخلوقات تتألم تحت النجوم. وحينئذ أنت تطلب الموت. ولكن ألا تعرف أن الوهم هو الذي يحدثك على هذا النحو، أو أنها ابنة القلق، وأن من توابعها الخوف والهم؟.

---

(١) I,P, Uz, Lyrische Gedichte, 149. Versuch uber die kunst stets frohlich Zu sein.

في الحق أن الأرض مفرطة في الجمال إلى حد يحول بين العناية وبين جعلها مقراً للألم. ومن ثم فإن رفض الاستمتاع بالخيرات التي أعدها لك مبدع الأشياء، يكون برهاناً على الجهل والفساد(١).

ليس لهذه السعادة علاقة مشتركة بسعادة المتنسكين التي تتجه إلى التلاشي في الإله، وبسعادة فينيلون Fénelon الذي كان يشعر بأن روحه أكثر يقيناً وأشد بساطة عندما يلتحق بالإله في الفكر، أو بسعادة بوسويه Bossuet الذي كان يحس بعذوبة كونه مأموراً بوساطة العقيدة الموحاة، ومقوداً بوساطة الكنيسة، وبإحرازه اليقين بأنه سيُسعَد يوماً ما، بين المصطفين الذين سيوجدون عن يمين قدس الأقداس، أو بسعادة العادلين الذين كانوا يقبلون طاعة القانون، وكانوا يؤملون في المثوبة التي لا تنفد، أو بسعادة البسطاء المغمورين في الصلوات.

أولئك الذين كانوا يحملون محل الأساتذة القدماء، لم يكونوا ينشغلون بالسعادة السماوية، وإنما الذي كانوا يريدونه هو سعادة أرضية- تلك السعادة كانت إحدى طرائق الرضى بالممكن دون إدعاء اللحوق بالمطلق أي سعادة عادية ومتوسطة تقصي الربح التام خوفاً من خسران تام، ذلك هو عمل بني الإنسان الذين كانوا يستولون في هدوء، على الخيرات التي كان كلُّ يوم يحملها إليهم. وتلك هي أيضاً سعادة التقدير والتدبير. حقاً إن مقداراً منها معيناً للشر بلا خلاف. ولكن منها أيضاً مقداراً آخر للخير. وأخيراً إن الخير هو الذي سيغلب. وأكثر من ذلك إن البعض كان يستعمل في هذا عملية رياضية، هاك مجملها: كوِّن مجموعة خيرات الحياة، ومجموع الشرور التي لايمكن تجنبها ثم اطرح الثاني من الأول فسترى أنك ستستبقى ربحاً. أو كون من جانب، مجموع النقط المواتية مضروباً في القوى. ومن جانب آخر مجموع النقط المضادة مضروبة كذلك في القوة فإذا وجدت عند

---

(١) S, Johnson, The Rambler, no, 44, aout 1759

نهاية اليوم أن لديك أربعاً وثلاثين درجة من اللذة وأربعاً وعشرين درجة من الألم، فإنه يجب عليك أن تعتبر نفسك راضياً(١).

هناك أيضاً سعادة مشيدة. فلننظر في شأنها إلى مؤلف كتاب «الرسائل الفارسية» كما يرى نفسه في مرآته أي لنستفد مما ابتدأه ككل الناس إذ ذاك وهو «محاولة عن السعادة» وعلى الأخص من المذكرات التي اقتبسها من الكراسات الشخصية. فلنرى الطريقة التي عرف بها كيف يوجه وجوداً ناجحاً تاماً إلى هذا الحد. وإليك ما كان مونتيسكيو يقوله لنفسه:

«سأصدر عن مبدأ واقعي، وهو أني لن أطمح إلى حالة الملائكة، ولن أشكو من أني لم أظفر بها، وسأكتفي بالنسبي. وعندما أجعل هذا المبدأ مقبولاً نهائياً، ألاحظ أن المزاج الفطري يقوم بدور في هذا الأمر. ولاجرم أن لدي في هذا الشأن نصيباً موفوراً، ففي الواقع أن هناك قوماً لديهم من الوسائل التي يحفظون بها صحتهم، أن يتناولوا المسهلات أو يستعملوا الحجامة وما إلى ذلك..

أما أنا فليس لدي من نظام إلا أن أستعمل الحِمْيَة حين أفرط، وأن أنام حين أسهر، وألا أضجر، لا بسبب الحزن، ولا بوساطة اللذة، ولا عن طريق العمل، ولا من جراء التعطل».

حقاً إن نفسه ترتبط بكل شيء، إنه من أولئك الذين يحيُّون بمرح متساوٍ، الفجر الذي يوقظ. والليل الذي ينيم، وإن القول بأنه يكون أكثر سروراً في الريف، ليس معناه أنه يكره باريس.. إنه يرتاح ارتياحاً تاماً في ممتلكاته التي لايرى فيها سوى الأشجار. وهو لايقل عن ذلك ارتياحاً في المدينة العظمى. بين

---

(١) Wollaston, Religion of nature délinéated, 1722. Ebauche de la religion naturelle, La Haye 1756, Section II, note, P. 110.

«من ذلك الكتاب وهاك ترجمته: «ينبغي بالضرورة، تقديم فكرة عن الموازنة التي أجراها المؤلف بين درجات اللذة والألم بالأرقام، لأن هذه الموازنة تدخل القارئ بهيئة أكثر يسراً في النظريات المجردة من هذا الجزء من الكتاب الذي يشير فيه المؤلف إلى علم الأعداد اشارات لاتنقطع.

ذلك العدد من الناس الذي يساوي عدد رمال البحر . وفوق ذلك فإنه ينبغي أن يستغل . في مهارة . هذه المسرات الحيوية على نحو ما يفعل صغار الناس ، لأنه كما أن الدراهم المكدسة تنتهي بأن تصير دنانير ذات رنين ، كذلك لحظات اللذائذ القصيرة تنتهي بتأليف ثروة من السعادة الملائمة . وإذن فلا ينبغي أن نئن من متاعبنا ، ولنذكر بالحري أنها ستعود بنا إلى ملذاتنا . ومن ثم فإني أتحداك أن تجعل ناسكاً يصوم دون أن يمنح هذا العمل طعماً جديداً لخضره . ولنذكر أيضاً أن الآلام المعتدلة ليست خلواً من بعض اللذة ، وأن آلام الحياة إذا كانت تجرحنا فإنها تشغلنا . وقصارى القول ، لنضع أنفسنا في استعداد روحي بحيث نفهم كم أن مالنا ، يتغلب على ماهو ضدنا . وإذن فلنلتئم مع الحياة لأنها ليست هي التي تلتئم معنا . لقد قذف بنا في لعبة تدوم بمقدار دوامنا . وعندما يبدو دور سيء - يتخلى اللاعب الحاذق . وعندما يصل دور حسن يستفيد من أوراقه ، وهكذا يربح اللعبة ، بينما أن اللاعب الأخرق يخسر دائماً .

تلك السعادة هي سعادة الجفاف ، وكم من حالات نفسية خاصة كانت شبيهة بحالته النفسية عن تلك السعادة ، فكان الناس إذ ذاك يصنعون مزيجاً من العناصر المختلفة ليستبدلوا به السعادة النقية ، والابتهاجات (الفوق) الإنسانية . وكانوا يدخلون فيه اللذائذ المادية التي رُدَّ إليها اعتبارها . وفي الحق لم هذا المعنى المعكوس في موضوعه طول هذا الزمن؟ ولماذا نبذ؟ أو لم يكن في طبيعتنا؟ أيتها اللذة ، يا سر الحياة . . . إن المتعصبين وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون أن يضعوا سرورهم في الحرمان ، وفي الآلام ، وفي الزهد ، لأن المرح يصنع منا آلهة ، والعبوس يصنع شياطين[١] وفي هذا يقول كاتب آخر : «لماذا يجب علي أنا أيضاً أن أبلي جسمي بوساطة الحداد والآلام؟ ولماذا يجب علي أنا الحي أن أحرم نفسي سرور الحياة؟[٢]» إن الموت ، والموت نفسه يجب أن يفقد المظهر الفظيع الذي يعزى إليه ، لأن الموت

(١) انظر رسالة الإمبراطور فريدريك الثاني إلى ڤولتير ، ٢٧ سبتمبر سنة ١,٧٣٧
(٢) Hagedoru, Die jugend, 1730

المفرط في الجدية محتقر بسبب التصنع الذي يرافقه، ولأن عظماء الرجال الحقيقيين هم الذين عرفوا أن يموتوا وهم يمزحون(1). وفي هذا المزيج كانوا يدخلون الصحة لا على أنها صلاة للاستفادة (الروحانية) من المرض. ولكن عليها أنها احتياط لكي لايصيبها المرض. وفوق ذلك كانوا يدخلون فيه الثروة الكافية إذا كان ذلك ممكنا وكل الفوائد المادية للمدنية لأنهم كانوا قد بدأوا يمنحون قيمة عالية لرفهنية الحياة.

ولقد كان بعض تأليف هذا المزيج مادياً كتأليف المركيز دي أرچانس الذي يعلن أن السعادة الحقة تنحصر في ثلاثة أشياء، وهي: ١- ألا يكون لدينا شيء من الجرائم نأخذه على أنفسنا. ٢- أن نعرف كيف نجعل أنفسنا سعداء في الحالة التي وضعتنا فيها السماء والتي نحن مكرهون على البقاء فيها. ٣- الاستمتاع بصحة كاملة» وكتأليف مدام دو شاتيليه التي تصرح بأنه: «ينبغي، لكي نكون سعداء، أن نتخلص من الآراء الباطلة، وأن نكون فضلاء، وأن يكون لدينا ميول وأهواء، ويجب أن يكون لدينا الاستعداد للأوهام، لأننا مدينون بأكثر ملذاتنا للوهم، وشقي ذلك الذي يفقده... وينبغي أن نبدأ بأن نقول لأنفسنا إنه ليس لدينا ما نعمله في هذا العالم إلا أن نجلب لأنفسنا أحاسيس، وعواطف لذيذة».

يشاهد المرء أحياناً أن فكرة الرضى بالنظام العام غامضة عند البعض وأكثر تحدداً عند المفكرين الذين كانوا ينقبون عن السبب العميق للخطة التي هي جد مختلفة عن خطة أسلافهم، فعندهم أن النظام العام قد أراد أن يكون كل المخلوقات سعداء، إذ- لو كان الأمر غير ذلك- لماذا استقبلوا الحياة؟.

كانت هذه الاتجاهات الجديدة تبدو بصورة واضحة على النحو التالي: «هناك جموع غفيرة من العوالم تتلألأ في حدودها المعينة وفي الفضاء الإثيري الذي يموج بكواكب لا عدد لها تدور في أفلاكها، كل شيء خاضع للنظام.

«إنما للنظام وحده قد تألف كل موجود»، والنظام هو الذي يحكم النسائم

---

(1) A.F.B. Deslandes, Réflexions sur les grands hommes qui sont morts en Plaisau tant, 1712

الرقيقة، والرياح العاصفة، وسلسلته تربط جميع الكائنات من الحشرات إلى الإنسان.

أن ناموسنا الأول هو خير ما في الخليقة، وسأكون سعيداً إذا لم أخرق- بأي عمل إجرامي- السعادة العامة التي هي الغاية الوحيدة لوجودي[1]».

وهكذا بدت في وضوح، اتجاهات جديدة للفكر، أولها أن قد انتهى الشوق إلى المطلق. ولكن الذي كان يراد هو أن يكون ذلك التخلي سلمياً، فكان الناس يتظاهرون بأنهم يؤمنون، أو كانوا يوشكون أن يؤمنوا بأن الكأس لم تكن مملوءة بالمرارة، وأن هذه المرارة نفسها لم تكن مرة. كانوا «يضعون النظام الأخلاقي للعالم في مرتبة جد منخفضة تحت الكمال المثالي (لأننا غير قادرين على إدراك ما يستحيل علينا اللحوق به) ولكنه مع ذلك في درجة كافية لكي تحقق لنا حالة سعيدة هادئة أو على الأقل قابلة للاحتمال»[2].

من هذا يتبين أنهم كانوا يستنزلون السماء إلى الأرض، بل أنه لم يعد من الممكن أن يوجد فرق في النوع بين السماء والأرض، لأنه إذا فرض أن وجوداً آخر يمكن تصوره، فكيف يمكن الاعتقاد بأن ذلك الوجود السعيد قد وجب أن يشترى بالشقاء؟ وأن خالق العالم ومنظمه قد أراد أن تكون الوسائل متعارضة في بلوغ نفس الغاية في هذه الحياة وفي حياة أخرى تتبعها؟ وأن الإنسان لكي يكون سعيداً ينبغي أن يبدأ بالألم؟ لأن الإله لايمكن أن يسلم نفسه للعبة حرماننا من السعادة أثناء وجودنا لكي يمنحنا إياها عندما لانوجد. ومن ثم فإن الحاضر والمستقبل- إذا كان هناك مستقبل- لايمكن أن يختلفا في النوع، بل إن الأفعال التي كان ينبغي أن نحققها لكي نظفر بأكبر قسط من السعادة التي كانت طبيعتنا كفئاً لها، كانت هي

(١) Uz, Lyrische Gedichte, 1749, Die Giuckseligheit, traduction Huber, tome II, la Félicité, ode de M. Utz.

(٢) Bolingbroke, A letter on the spirit of Patriotisme, 1737.

نفسها التي ستنتهي بنا إلى السعادة الأبدية، إذا كانت هناك سعادة. وإذا كان ذلك كذلك، فلا انقطاع ولا تناقض، وتكون كينونتنا استمراراً لكينونتنا، إذا كانت هناك فردوس فيما وراء هذا العالم، ويكون كياننا الجسمي، شبيهاً به في الحياة الأبدية[1].

كان من جراء ذلك أن الفلسفة يجب أن توجهها الحياة العملية، وأنها يجب ألا تكون شيئاً آخر غير التنقيب عن وسائل السعادة «إن في الطبيعة مبدأ أكثر شمولاً مما يدعى «بالنور الطبيعي» وهو اشتهاء أن يكون الإنسان سعيداً، وهذا المبدأ هو متوحد بالنسبة إلى جميع بني الإنسان، وهو قائم بالنسبة إلى أدق الأناسي، كما هو بالنسبة إلى أغباهم. وهل من الغريب القول بأن من هذا المبدأ وحده يجب علينا أن نستخلص قواعد السلوك التي يجب أن نلاحظها؟ وأن بوساطته وحده ينبغي معرفة الحقائق التي يجب الإيمان بها؟ . . . وإذا كنت أريد أن أستعلم عن طبيعة الإله، وعن طبيعتي الخاصة، وعن أصل العالم ومصيره، فإن عقلي يختلط، وإن جميع المذاهب تتركني في نفس الظلمة. وفي هذا الحندس المتوازي وفي ذلك الليل السحيق، لو أنني التقيت بالمذهب الوحيد الذي يستطيع أن يحقق الرغبة التي عندي في أن أكون سعيداً. أفلا يجب علي لذلك السبب، الاعتراف بأنه حق؟ أو لا يجب علي أن أؤمن بأن ما ينتهي بي إلى السعادة، هو الذي لا يستطيع أن يخدعني؟[2]».

وأخيراً، صارت السعادة حقاً حلت فكرته محل الواجب. وما دام أنها كانت غاية كل الكائنات العاقلة، والمركز الذي كانت جميع أعمالهم تنتهي إليه، وما دام أنها كانت هي القيمة المبدئية، وما دام أن هذا الجزم- وهو «إنني أريد أن أكون سعيداً»- كان هو المادة الأولى من قانون سابق على كل تشريع، وكل مذهب ديني، فإنه لم يعد أحد يتساءل عما إذا كان يستحق السعادة. ولكن عما إذا كان

---

(١) Maupertuis, Essai de Philosophie morale, 1749

(٢) Mauperiuis, ibid

ينال السعادة التي كان له الحق فيها وبدلاً من: هل أنا عادل؟ كان هذا السؤال الأخير: هل أنا سعيد؟ .

وكان من يفكرون على نحو آخر يعتبرون رجعيين. ومن ثم فإن الشاب ڤوڤينارج Vauvenargues الذي كان استؤيسيا، والذي كان يبكي ويتحمس حين كان يقرأ ڤلوتارخوس والذي كان يعمل على أن يتعهد في نفسه الفضيلة لذاتها، والبطولة لجمالها، كان مخطئاً في نظر ابن عمه وصديقه الثائر ميرابو أي أن ڤوڤينارج في رأيه قد ضل بدلاً من أن يضع لنفسه منهاجاً معيناً لكي يدرك ما يجب أن يكون غايتنا الوحيدة وهي السعادة. وأن «أميرة كليڤ»[1] التي كانت محبوبة ومحبة والتي رفضت سعادتها واعتزلت، في صحراء لتفر من الرجل الذي كان يريد أن يكرهها على أن تكون سعيدة رغم إرادتها، كانت في نظر أهل القرن الثامن عشر مخطئة. وأن التاريخ في رأيهم قد أسيء فهمه لأن العلماء الذين حاولوا أن يحددوا ما إذا كان الشعب الفلاني أشد تديناً من الشعب الفلاني الآخر، وأكثر قناعة وأعظم قتالاً، كانوا مخطئين، لأن الذي كان يجب أن يفعلوه هو التنقيب عن أيها كان أكثر سعادة. فالمصريون لم يكونوا سعداء، ولا الإغريق رغم مرتبتهم العالية في المدنية، ولا الرومان رغم قوة إمبراطوريتهم، ولا أوربا الخاضعة للمسيحية. ولكي يكون المؤرخون قادرين على الإتيان بدواء لهذه التعاسة الطويلة، ولكي يكونوا نافعين في الآونة الراهنة، كان ينبغي أن يضعوا لأنفسهم هذين السؤالين وهما: كم من الأيام في السنة، أو كم من الساعات في اليوم، يستطيع المرء أن يعمل دون أن يتعب؟ ودون أن يجعل نفسه شقياً؟ وكم ينبغي أن يعمل المرء من الأيام في السنة أو من الساعات في اليوم لكي يجتذب لنفسه ما هو ضروري للاحتفاظ بحياته وبميسرتها؟ وفي الواقع «أنه توجد في جميع الحالات جاذبية لاتقاوم، تتجه بجميع الكائنات إلى خير حالة ممكنة. وفي هذا وحده ينبغي

---

(١) هي بطلة رواية مدام دي لافاييت الشهيرة المعنونة باسمها والتي ظهرت في سنة ١٦٧٨ وكانت إحدى المنتجات الساطعة في القرن السابع عشر. (المترجم).

التنقيب عن ذلك الإلهام المادي الذي يجب أن ينتفع به جميع المشرعين كأنه وحي». ولقد كانت مثقلة بالمعنى تلك العبارة التي نطق بها في سنة ١٧٧٢ المركيز دي شاتيلوكس في رسالته التي عنوانها «عن السعادة العامة أو اعتبارات عن حظوظ بني الإنسان في عصور التاريخ المختلفة، إنها كانت مثقلة بمعنى واحد كان يجب أن ينميه المستقبل.

وإذن فقد كان جميع الناس مخطئين، وقد يستثنى من ذلك الطلائع الذين فاز بهم القرن الثامن عشر أثناء عصر لويس الرابع عشر، وقد نجمت عن ذلك المرارة النقدية واللوم الدائم والشكوى من الخيانة. وعنه أيضاً نجمت الدعوة إلى السعادة. ومنه كذلك نشأت فكرة إصلاح جد قريب بفضل العقل وبفضل «الأنوار».

# الفصل الثالث

## العقل والأنوار

إن العقل، فيما يرى المؤمنون، قبس إلهي، أو جزء من الحقيقة منحها المخلوقون الفانون إلى أن يحين اليوم الذي يغادرون فيه أبواب القبور حيث يلقون الإله وجهًا لوجه. بينما أن ذلك -فيما يرى الجيل الجديد- ليس سوى أباطيل عصر انتهى. وآونة مضت. وهكذا نرى الفكر الأوروبي هنا، كما في تعريفه للسعادة، يبتدئ بعمل من أعمال التواضع لايلبث أن يتبع بعمل من أعمال الكبرياء. ولكن قراره الأول يشتمل على تصريح من تصريحات التضحية. لأنه يعترف بعدم مقدرته على معرفة المادة والجوهر اللذين هما في محيط غير قابل للإدراك بالنسبة إليه. وإليك مايعلنه في هذا الصدد: إن الناس قد قدسوا ـ أثناء زمن طويل ـ مذاهب فنيت على التعاقب وشروحًا هي في كل مرة نهائية، وفي كل مرة وهمية. وفي الحق إنه لمن لعب المجانين أن يجتهد المرء في اجتياز حواجز غير ممكنة الاجتياز. وهي لعبة خطرة. وفي هذا يقول المثل اللاتيني: إنك ستأتي إلى هنا ولن تذهب إلى أبعد من ذلك «usque huc venies et non procedes amplius» فقف عند الحدود التي تعينها لك قواك فلم يتعد تلك الحدود أحد، ولن يتعداها أحد، وبهذا الشرط فقط ستحقق ثبات مكاسبك.

إن العقل كالأمير الذي عندما يصل إلى الملك يصمم على أن يتجاهل الأقاليم التي يعلم أنه لن يحكمها أبدًا في حزم، وبهذا يبسط سلطانه بصورة أفضل على

الأقاليم التي يملكها وإن البيرونية[1] التي هي العدو الخالد قد أتت من الطموح الذي تجاوز الحد. ولاجرم أن هذه الكبرياء المغترة لم تدع وراءها سوى الدمار. ولكن بفضل الاعتدال الذي هو الحكمة، ستهزم البيرونية.

والآن ما هو العقل المحدد على هذا النحو؟ بديًا أن الناس يعارضون في كل طابع فطري له، فهو يتكون في ذات الوقت الذي تتكون فيه نفسنا، ثم يتكامل معها، وهو يمتزج بذلك النشاط الباطني الذي ـ عندما يعمل في عناصر المعرفة الحسية ـ يقدم إلينا فكرنا المجردة، والذي يتفرع إلى ملكات.

وبعد ذلك يمرون مروراً عاجلاً بمقدرته على الاستنتاج، لأن الاستنتاج ليس سوى امتداد لايضيف شيئًا إلى المعرفة مادام أنه يفرض سابقيتها في العناصر الأولى التي تنتج منها جميع الأخر ـ ولكنهم على الأخص يلحون على بيان قيمته في تمييز الحقائق، لأن الحقيقة هي علاقة موافقة أو مباينة نجزم بها في شأن الأفكار.

بيد أننا في أكثر الأوقات. لا نلمح هذه العلاقة، لأننا يعوزنا الحد الأوسط. ففي الواقع عندما نرى مبنيين متباعدين، يكون من المستحيل بالنسبة إلينا أن نعرف على التحديد، كيف يتشابهان، وكيف يتباينان. ولكننا نعرف ذلك، لو أننا طبقنا عليهما المقياس أو خيط البناء لأننا حينئذ، نثبت بينهما صلة كانت العين المجردة غير قادرة على جعلنا ندركها.

هذا هو دور العقل كذلك، إذ أنه ـ تجاه المظلم، وما هو موضع الريبة ـ يشرع في العمل، أي أنه يحكم ويشبه ويستعمل المقياس العام، ويستكشف ويصدر الكلمة الفاصلة. ولاتوجد وظيفة أسمى من وظيفته مادام أنه مكلف بإيحاء الحقيقة، وكشف الأخطاء. ومن ثم فإن بالعقل وحده يتعلق كل العلم وكل الفلسفة.

---

(١) البيرونية هي مدرسة الفيلسوف الإغريقي بيرون وهي مضرب المثل في الارتيابية المغالية وقد كانت زاهرة في القرن الرابع قبل المسيح. (المترجم)

ولقد اعتبر من غير المفيد، المجادلة حول جوهره. وعلى الضد من ذلك، اعتبر أن من أسمى الفوائد رؤية ذلك العامل المجد يفعل، ومعرفة منهجه ونتائجه. إنه يلاحظ الوقائع التي تسجلها الحواس.

ولما كانت تلك الوقائع تتقدم إليه في مجموعة تبدو للوهلة الأولى مستعصية، فإنه يستخلصها من ذلك الخليط، ويحاول أن يستولي عليها في حالتها النقية، ثم يحتفظ بها كما هي دون أن يؤولها، ودون أن يقتحم في موضوعها أي افتراض. إن التحليل هو منهجه المفضل. وبدلاً من صدوره عن مبادئ سابقة على التجربة «apriori» ـ كان يفعل أهل الزمن الماضي الذين كانوا يقتنعون بالألفاظ وكانوا يدورون دوران الرحى دون أن يلمحوا ذلك ـ هو يرتبط بالواقع الذي يتبين عناصره بوساطة التحليل، ثم يجمعها في صبر، ذلك هو عمله الأول. أما الثاني فهو يتألف من الموازنة بين تلك العناصر ومن تبين الروابط التي تجمعها واستخلاص قوانين من هذه الروابط.

تلك مهمة بطيئة وشاقة. ولكن العقل على الأقل بإزائها يكون في استطاعته أن يستجوب الوقائع التي تفلت منه، بل أن يكرهها على أن تستأنف عودتها لكي يختبرها عن قرب، وأن يراجع ضبط علائقها بفضل طريقة يجهلها الميتافيزيقيون. وهو يضعها في الصف الأول، وهذه الطريقة هي التجربة. ومن ثم فإن الحركات المتتابعة لتصرفه المتبصر هي استيلاؤه على الواقعة، منتزعة من ظلالها، ومراجعة الواقعة والعودة إلى الواقعة. ولا غرو فبين الكسب المؤقت والنتيجة النهائية توجد التجربة كأنها ضمان وتأمين ضد الخطأ؟ ودواء لضعف حواسنا ولإهمال كسلنا، وانحراف خيالنا، وأمراض عقلنا التي تألمت منها الأجيال السابقة. ولهذا صارت هي القوة النافعة التي قوضت معابد الباطل، فمثلاً إن ماجو جول بطل كتاب «الحلى البائحة بالسر» ـ ولو أنه كان مشغولاً بملاه لايربطها بالشواغل الفلسفية رابط مشترك ـ لم يكن أقل هياماً بالعقل منه بالملاهي وبهذا العنوان يخلع عليه ديديرو مؤلف الكتاب، حلماً رمزياً تفيض منه حماسة للتجربة، ومجمله أن ماجوجول في

نومه يرى نفسه قد نقل بوساطة الوحش هيبو جريف[1] إلى مبنى غريب لايستند إلى أي أساس، وأن أعمدته الواهنة ترتفع ارتفاعاً شاهقاً وتعتمد على قباب مثقبة. وأن الناس الذين يجتمعون في داخل هذا المبنى سمان ونحاف بلا عضل وبلا قوة، وهم جميعاً سيئو التكوين تقريباً. وعندما يجتاز مانجو جول جماهيرهم، يصل إلى منصة ارتفع فوقها نسيج العنكبوت على هيئة خيمة. وعلى هذه المنصة يقف شيخ ذو لحية بيضاء ينفث رغاء الصابون من خلال قشة ضغث لأن هذه هي طريقة العمل لدى النظريين الخلص. ولكنه يلمح على بعد طفلاً يقترب شيئاً فشيئاً. وفي كل خطوة تتضخم أعضاؤه وتستطيل. وهو يتخذ مائة صورة أثناء تقدمه في نموه، فهو مثلاً يوجه نحو السماء مرصداً عظيماً، وهو يقيس هُوِيَّ الأجسام بوساطة جهاز خاص، ويلاحظ ثقل الهواء بوساطة أنبوبة زئبق. ثم يصير عملاقاً تلمس رأسه السماء، وتختفي قدماه في الهوة، وتمتد ذراعاه من أحد القطبين إلى الآخر، ويهز بيده اليمنى مشعلاً يضيء أعماق البحار، ويتغلغل إلى أحشاء الأرض، إن هذا الكائن هو التجربة وإن هذه التجربة تدنو من ذلك المبنى العتيق الذي ارتجت أعمدته وتهاوت قبابه وتشققت أراضيه وجعل حطامه يتساقط في ضجيج مزعج وينهار في الظلام.

إن العقل يكتفي بنفسه، وإن من يملكه ويستعمله بلا تسرع لاينخدع ألبتة. إنه يتبع، في عصمة طريق الحقيقة، وهو ليس في حاجة إلى السلطة التي يوشك أن يكون مضاداً بالضبط، والتي لاتبدو إلا ربَّة للخطأ. ولا إلى التقاليد، ولا إلى القدماء، ولا إلى المحدثين. ففي الواقع أن كل خطأ قد أتى من التصديق في عمى، بدلاً من متابعة اختبار عقلي في كل ظرف. ومما لاريب فيه أن في نفس الموضع الذي يوجد فيه رواق الفروض الذي تخيله ديديرو، يوجد معبد الجهالة الذي تخيله بيتر ڤيري[2] «pietro Verri» والذي يصفه على النحو التالي: تقطن الجهالة قصراً

(١) الهيبو جريف هو كائن مزعج من كائنات الأساطير الهيلينية له مقدم حصان ومؤخر تنين. (المترجم)
(٢) pietro Verri, templo dell' ignranza, dans revue "Il Caffé" juin 1764.

متهدماً هندسته قوطية[1] . وعلى بابه الأكبر نحت فم ضخم يتثاءب، وقد ملأ ذلك المبنى الواسع جمهور مكون من مترددين وثرثارين وأغبياء لايعرفون موضع إقامتهم الخاصة . وكانت الحوائط مغطاة برسوم مفزعة كالغرائق والحروب المدنية والموت والإقحال. وفوق منصة عالية وقفت امرأة عجوز عجفاء، وجعلت تردد في كل لحظة، وفي لهجة متعاظمة قولها: «أيها الشباب، أيها الشباب استمعوا إلي، لاتكلوا أموركم إلى أنفسكم لأن ماتشعرون به ليس سوى أوهام، وليكن عندكم ثقة في القدماء، وآمنوا بأن كل مافعلوه حسن». وفي الوقت ذاته يهيج شيخ هرم ويصرخ قائلاً: «أيها الشباب، أيها الشباب إن العقل خرافة، وإذا كنتم تريدون أن تتبينوا الحق من الباطل فاتبعوا آراء الكثرة، أيها الشباب إن العقل خرافة».

وهناك صور أخرى بنفس الأسلوب تبين لنا التجربة التي تهدم النظريات والجهالة التي تنصح بالاعتقاد في الماضي، وإقرار التعاليم القديمة وإطاعة التسرعات التي تتعارض مع الحكم الحر.

وإذا كان الفرد، مع ذلك في حاجة إلى أن يطمئن على قيمة عمليته العقلية، فإن لديه أمارة لمعرفتها وهي الطابع العام للعقل، إذ أن هذا الأخير في الواقع متماثل لدى جميع بني الإنسان، وهو لايقبل إمكان الاستثناء. ومن ثم فإن الرحالة الذين ادعوا أنهم لاحظوا في البلاد النائية، وجود تعارضات غير قابلة للنقص، بين طرائق العمل المتباينة لنوعنا، لم يكن أمامهم سوى فروق سطحية، وأحداث خليقة بالإهمال أو أنهم أساءوا النظر، أو أنهم كذبوا. أما ما هو غير عقلي، فإنه لم يكن دائماً، وما لم يكن في كل موضع. وإن مقياس الحقيقة هو امتدادها من حيث المكان والزمان.

لاريب أن العقليين كان لديهم من البواعث التي تسوغ سخطهم على المتحمسين الذين كانوا أعداءهم الشخصيين، وأن أكثر هذه البواعث عمقاً هو أن

(١) القوطية نسبة إلى قبيلة القوط أو الجوتيك وهي إحدى القبائل البربرية التي زحفت من الشمال واحتلت أوروبا. وعندما يقال الهندسة القوطية يقصد بذلك هندسة العصور الوسيطة. (المترجم).

أولئك المتعصبين كانوا يثقون في الانفعال وفي العاطفة، وهما من الأمور الشخصية المحضة. ولهذا فإن فكرتهم وسلوكهم انتهيا إلى نوع من الخليط حيث إن من الحق أننا ـ من أكثر المواطنين العالميين مدنية إلى هالهورونيين القاطنين على شاطئ بحيرة ميشيجان، وإلى بؤساء هوتانتو الذين هم أدنى الدركات قبل المتوحشين ـ نشاهد أن الطبيعة من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، تعبر عن نفسها بوساطة صوت العقل.

إن سمو العقل ينتهي بأن يتبين بوساطة قوته النافعة. إذا أنه لما كان العقل هو الذي سيسير بالعلوم والفنون نحو الكمال، وأن هذا سيضاعف يسر حياتنا وسهولتها. ولما كان هو الذي سيصير الحكم الذي سيعرفنا ماهي بالضبط قيم لذائذنا بصورة أكثر يقيناً من الإحساس نفسه، وبالتالي ماالذي ينبغي هجرانه، وما الذي ينبغي اتخاذه. ولما لم تكن التعاسة سوى عدم المعرفة أو حكم خاطئ، ولما كان هو الذي يداوي أحدهما، ويصلح الآخر، فإنه سيتمم ماوعده به الماضي دون أن يمنحه إياه. وسيجعلنا سعداء، وسيحمل السلام، وسيكون ـ كما يقول دومارسيه ـ لدى الفيلسوف بمثابة الغوث الإلهي عند القديس أوجوستان. وقصارى القول أنه هو الذي سينير كل إنسان يوجد في هذا العالم مادام أنه هو النور.



إن النور أو بعبارة أفضل، إن «الأنوار» مادام أن الأمر لايتعلق بشعاع واحد بل بباقة من أشعة تتجه نحو كتل الظلام العظمى التي لاتزال الأرض مغطاة بها ـ تلك هي الكلمة السحرية التي كان يروق العصر أن يقولها ويرددها مع بضع كلمات أخرى أيضًا سنراها. لقد كانت شيقة في نظر الحكماء هذه «الأنوار» التي أشعلوا أقباسها هم أنفسهم، كم كانت جميلة وكانت قوية، وكم كانت مخوفة من جانب الخرافيين والمخادعين والخبثاء! . وأخيراً جعلت تتلألأ وتنبثق من قوانين العقل الجليلة، وطفقت ترافق، أو على التحديد تتبع الفلسفة التي كانت تتقدم بخطوات

العملاق. ولقد كان أبناء العصر مستنيرين لأن المجاز اللذيذ كان يمتد بلا حد. فمن ذلك مثلاً أنهم كانوا هم المشاعل أو المصابيح التي كان وميضها يقتادهم في أفكارهم وفي أعمالهم. أو الفجر المعلن، أو النهار، أو الشمس الثابتة الدائمة. وأن الأناس قبلهم قد ضلوا لأنهم كانوا منغمسين في الظلام، ولأنهم لابد أن يكونوا قد عاشوا في وسط دياجير الجهل وضبابه. وبين السحب التي كانت تخفي الطريق المستقيم. ولأنهم قد أصيبت عيونهم. وهكذا كان الآباء عمياً ولكن الأولاد كانوا أبناء النور.

ولم يكن يعنيهم إلا قليلاً أن تكون هذه الصورة مساوية للعالم في القدم، وأن من الممكن أن تكون قد نشأت في الآونة التي كان فيها أبناء آدم منزعجين من الليل، فاطمأنوا حين رأوا نشأة النهار. بل إنه لم يكن يعنيهم إلا قليلاً. أنها كانت دينية كما ور د على لسان المسيح قوله: «إنني نور العالم، وإن من يتبعني لا يسير في الظلمات». فقد استولوا عليها كما لو كانوا قد استكشفوها. وكان النور أو كانت الأنوار هي الشعار الذي ينقشونه على أعلامهم، لأن هذه هي المرة الأولى التي يختار فيها عصر اسمه. وفي الواقع أن الفرنسيين كانوا يبتدئون «قرن النور»، حينما كان الألمان، يبتدئون عصر «أوفكلارانج» أي عصر الأنوار.

وإذ ذاك جعل «كانْت» يتساءل، ماهو عصر الأنوار هذا؟ وعندما مضت تلك الحقبة رأى من الخير أن يجري في شأنها اختباراً مخلصاً، وقد أجاب على هذا التساؤل بأنه كان بالنسبة إلى الإنسان بمثابة أزمة من أزمات نموه، وإرادة لخروجه من طفولته، لأنه إذا كان الإنسان في العصور السالفة، قد بقي تحت الوصاية، فإن ذلك كان بسبب خطئه، إذ لم يكن لديه من الشجاعة مايمكنه من استخدام عقله. وكان دائماً في حاجة إلى أمر خارجي. ولكنه تنبه وبدأ يفكر بنفسه. أو كما تقول الحكمة اللاتينية: اجترئ على أن تعرف «Sapere aude».

بيد أن الكسل والجبن يدفعان جمهوراً من العقول إلى أن تظل قاصرة طول حياتها، ويسمحان لفريق آخر بأن يتولى سيادة ميسورة. وفي الحق أنه إذا كان لدى كتاب فيه آراء تحل محل آرائي. ومرشد لديه أخلاق توجهني، وطبيب لديه نظام

يرسمه لي، فإني لا أكون في حاجة إلى بذل مجهود شخصي مادام أن جاراً سيحل محلي، وسينشغل بالعمل الشاق الذي ينحصر في التفكير. ومن ثم فإن الحراس الذين بدأوا بجعل قطيعهم البشري المستأنس حيوانات، يسهرون على أن تكون الأكثرية الغالبة من المخلوقات في رهبة من أن تصل إلى رشدها، وهم يبينون لأولئك الأطفال الأبديين الخطر الذي يهددهم إذا ادعوا أنهم يسيرون وحدهم، بحيث يكون من العسير على الأفراد أن يخرجوا من هذه الطبيعة الثانية التي انتهوا بأن أحبوها. ومع ذلك، فمن الممكن بل مما لايمكن تجنبه أنه قد تكون رأى عام سما إلى الفلسفة، لأن طائفة من النفوس القوية قد تخلصت وضربت المثل. ولكنه مثل لايستطيع قوته أن تعمل إلا في بطء، لأن الشعب يحقق إصلاحًا عميقًا بوساطة التطور، بينما أنه بواسطة الثورة يهزم الاستبداد ويقضي على الاضطهاد. ولكنه لايصل إلى شيء دائم بل إنه يخلق أوهامًا جديدة[1] وعلى الضد من ذلك هو ينفذ إصلاحًا عميقًا بوساطة التطور وروح هذا التطور هي الحرية، والحرية في أصح مايتعين تحت هذا الأسم من صور، أي حرية المرء في الاستعمال العام لعقله.
ولكن صرخات لاتلبث أن ترتفع هنا قائلة: إن الضابط مثلاً يقول لجنوده: «لاتتعقلوا واعملوا التمرين». وإن رجل المالية يقول: «لاتتعقلوا وادفعوا». وإن القسيس يقول: «لاتتعقلوا وآمنوا»، والواقع هو أن شيئًا من تحديد الحرية

---

(١) هذا هو رأي الفيلسوف الألماني «كانت» وهو رأي سطحي متسرع من باب إلقاء الكلام على عواهنه لأن الثورة حقًا لاتنتج نتيجة دائمة إذا كانت ناشئة عن أهواء خاصة لدى زعمائها. أما إذا كانت منبعثة عن نار تتأجج في قلب كل فرد من أفراد الشعب ــ كثورتنا مثلا ــ فإنها تكون محققة الإنتاج، يقينية الدوام والثبات. وفوق ذلك فإن الثورة إذا كانت بيضاء سلمية فإنها تظفر بكل مقومات التطور الذي يعزو إليه كانت ا إنتاجًا محققًا. على أن هذا الفيلسوف قد كتب ذلك الرأي الفج في سنة ١٧٨٤ أي قبل اشتعال لهيب الثورة الفرنسية الخالدة التي كانت بمثابة نفخ في صور الوعي العالمي، فأيقظت الأمم الخاملة أو كأنها قبس علوي أشعل جميع الثورات الشعبية الحقيقية التي كانت نتائجها النافعة الثابتة ردًا مفحمًا على هذا الرأي الفطير الذي استلهمه صاحبه من شيطان الوهم عندما رأى فشل الثورة الانكليزية التي لم تز د على أن استبدلت استبدادًا ، باستبداد وأحلت طغيانًا محل طغيان فالقياس هنا مع الفارق، والتعميم باطل كما يقول المناطقة. (المترجم).

ضروري، وأن هذا التحديد، فضلاً عن أنه بعيد عن أن يضر الأنوار «الأوفكلارانج»، هو يعاونها«Aufklaung».

حقًا إن حرية الفكر والقول هي غير محددة عند الإنسان المثقف وعند العالم، وإنها محدودة لدى أولئك الذين حينما يزاولون وظيفة من وظائف الكيان الاجتماعي. يجب عليهم إتمامها بلا نقاش. لأنه سيكون من الخطر الفادح أن الضابط ـ عندما يتلقى أثناء مهمته، أمرًا من رئيسه ـ يشرع في استعمال عقله حول ملاءمة هذا الأمر، وأن القسيس. عندما يعرض قانون الإيمان على المؤمنين. يشرع في أن يبين لهم مافي هذا القانون من عيب. وبالإيجاز إن سير أعضاء الجهاز الاجتماعي يجب أن يستمر بلا تغير مفاجيء، ولكنه يجب في الوقت ذاته أن يَحْدُثُ تغير في عقول من يديرونه، تغير يؤثر فيهم على اعتبار أنهم كائنات مفكرة. ويستبدل حالة الوصاية بحالة الحرية، وإذن فهناك محيطان مختلفان محيط العمل الذي يظل بلا تغير إلى حين، ومحيط العقل الذي يتم فيه إعداد التطور الذي يسود الأفعال أخيراً لأن عمل الفكر كواجب. ألا يقف.

وإذن فحقل التحرير مفتوح، وإننا لم نصل ولن نقف أبدًا. ولكننا في الطريق الجيد(١) ...

هكذا كان عصر الأنوار في أوروبا في أسمى صورة وفي مثله الأعلى.

* * *

فيما يتعلق بتاريخ الفكر. نجد أن عدة وقائع قد ساهمت في تثبيت سيادة الأنوار وهي: تأثير بيل. وإخفاق ڤيكو «Vico» ونجاح ڤولف «Wolff» وانتصار لوك «Locke» ـ فأما بيل فلم يغتر عن التأثير. وكان نقصه يعتبر عملاً دينيًا. ورغم أنه كان قد توفي منذ نصف قرن. بل منذ ثلاثة أرباع قرن. كان الكتاب يشتدون عليه كما كانوا في اليوم الأول. لأنه كان لايزال يبدو في الصف الأمامي من

---

(١) Kant, Beantwortung der Feage: was ist Autkarung., 1784.

صفوف الارتيابيين. ففي الواقع أن قاموسه كان في موضع الشرف من المكتبات. إذ كان يعاد نشره ويترجم. وسواء أكان يتضخم من طبعة إلى طبعة أخرى. أم كان يقتصر منه على مختارات وتحليلات. فقد كان هو المستودع الذي تستمد منه جميع الأسلحة عندما كان الأمر يتعلق باستبدال سلطان القدماء، بالنقد. وكان هناك تلاميذ متفاوتون في مباشرة الاتصال به، يستغلون الفكرة المركزية لهذا العدو العظيم لأنصار الدين، وهي أن الدين والحقيقة هما غير قابلين للاتفاق، وأن الدين والأخلاق غير مرتبطين. ولقد راح هؤلاء التلاميذ يرددون أنه لا يلمح أحد أن المسيحيين كانوا أفضل من الجاحدين، وأنه من الممكن أن تكون جمهورية من الملحدين أكثر فضيلة وأكثر نزاهة من جمهورية من الكاثوليكيين والبروتستانتيين. وأكثر من ذلك أن إحدى طرائقه المفضلة، كانت تستعمل لديهم بلا كلل، وهي الطريقة التي تنحصر في القول بأنه حينما تكون هناك عقبة غير قابلة للحل بوساطة العقل، ينبغي الالتجاء فيها إلى الإيمان. للخروج من الحيرة، بحيث تكون العقيدة بالنسبة إلى غير المعقول بمثابة الملجأ. وفي هذا يقول ڤولتير «Voltaire»: «إذا كانت كتبنا المقدسة قد قالت إن الخليط موجود.، وإذا كانت قد أقرت وجود الفوضى، فإننا نصدق ذلك بلا ريب. وبأشد الاعتقادات حيوية، وإننا لانتحدث هنا إلا تبعاً للوميض الخادع المنبعث عن عقلنا[1]... »نعم إن التلميذ أكثر خفة من أستاذه. ولكننا نعرف في هذا النص درس الأستاذ. وقصارى القول إن هذا التأثير كان منتشراً، وسواء أتعلق الأمر بالكواكب المذنبات أم باسبينوزا «Spinoza»، أم بالتاريخ، أو بالتوراة، فإن بيل هو الذي كان في الذاكرات، وبيل هو الذي كان يوجه العقول.

وإذا أردنا أن نوجد هنا شيئًا من التلطيف، فإننا نقول فقط إن هذا الإجلال لبيل كان منذ آونة معينة، أقل حرارة. ففي الواقع أننا نشاهد من ناحية، أن ما كان يبدو متطرفًا في الجرأة حوالي سنة ١٧٠٠ـ جعل يظهر عاديًا معتدلاً حوالي سنة

(١) Voltaire, le philosophe ignorant, tout es-it éternl.?

١٧٥٠ . ومن ثم فإننا نكون إذ ذاك أقل حاجة إلى مثل، قد تلطف عنفه مع الزمن، فمنذ ظهر المقال الذي عنوانه «داوود» في ذلك القاموس، قد سمع داوود مقالات أشد عنفاً، واعتاد ذلك اللون ـ ومن ناحية أخرى كان كتاب الجيل التالي يرون أن الارتياب الذي هو خطة مبدئية، واحتياط أولي، يجب أن يتبع بنشاط واقعي كان بيل ـ وهو البيروني بأكمل معاني هذه الكلمة ـ يأباه على نفسه. ومنذ «القاموس التاريخي والنقدي إلى ظهور الموسوعة» أي منذ مجموعة الأخطاء إلى قائمة المعارف الإنسانية نشاهد تطوراً يستقر ويفوق پيير بيل.

* * *

وأما چامباتيستا ڤيكو، فلو أن إيطاليا قد استمعت إليه ولو أنها ـ كما حدث في عهد النهضة ـ كانت مرشداً لأوروبا، أفما كان مصيرنا العقلي يمكن أن يكون مبايناً لحالته الراهنة؟ أجل لو كان الأمر كذلك لما كان أجدادنا أهل القرن الثامن عشر قد صدقوا أن كل ماكان واضحًا كان حقًا، بل لأمنوا على الضد، بأن «الوضوح هو منقصة للعقل البشري أكثر من أن يكون محمدة له» لأن الفكرة الواضحة هي فكرة منتهية، ولمّا كانوا قد صدقوا أن العقل كان ملكتنا الأولى و بل لآمنوا على الضد بأنها هي الخيال. وحيث إن العقل الذي أتى متأخراً، لم يصنع أكثر من أنه جفف نفسنا، فقد يكون من الممكن أنهم قد أسفوا على فراديسنا المفقودة، ولم يصدقوا أنه كان ينبغي أن تنار الأرض فوق سطحها، بل لآمنوا على الضد بأن إيضاح الأشياء آت من أعماق الزمن، ولما صدقوا بأننا كنا نتجه نحو مستقبل أفضل، بل لآمنوا على الضد بأن الدول كانت خاضعة لتغيرات متعاقبة تخرجها من البربرية إلى المدنية وتعيدها من المدنية إلى البربرية. وبالإجمال لو كان الأمر كذلك لكانت جميع أفكارهم قد انقلبت كإدراكهم للعالم.

ينبغي الإعجاب بهذا البطل من أبطال الفكر، هذا العبقري المبتدع، هذا الرجل الذي كان من الممكن أنه يستطيع أن يمنح نهر العصر، مجرى جديداً. بيد أنه ـ بفضل المرض الذي أقصاه عن المدارس، وبسبب العزة التي جعلته يقيس بغتة،

عدم كفاية الأساتذة الذين كانوا يعيدون ولا يفكرون ـ لم يخضع لتأثير «المدرسين» الذين كان لهم أوفياء لايزالون كثيرين، وكذلك بفضل قوته الذاتية لم يخضع لتأثير مذاهب عصره كمذهب ديكارت «Descartes» الذي هو، في نظره، قد قلص العقول بإعفائه إياها من المعرفة، وبتعليمه إياها كيف تحتقر الجهود والصبر عندما كانت تركز ثقتها في «الفكرة الجلية» التي ساعدت كسل طبيعتنا التي تريد أن تعرف كل شيء في أقصر زمن، وبأقل عناء ممكن.

لم يخضع ڤيكو أيضاً لتأثير لوك الآتي حديثاً من لندن والذي كان يمثل حِدَةَ الوقت الراهن. وكذلك خُلُقُهُ لم تنحن قناته لقوى العبودية، أي لسلطان العظماء، ولاللفقر، ولالعدم نجاحه في سلك الأستاذية. وإنما استمر في وسط الضنك، يكد، ويبحث، وينغمس في دراسة أشد العلوم تبايناً. وظل كذلك إلى اليوم الذي رأى فيه أن دنوه من المعرفة، كان كافياً. ونشر الكتاب الذي يعتزم فيه أن يقدم مبادئ علم جديد عن طبيعة الدول وعن حقوق بني الإنسان. وبعبارة أدنى إلى الحق عن القانون الذي يهيمن على تطور الإنسانية. وعنوان ذلك الكتاب: «مبادئ علم جديد على طبيعة الدول، به توجد المباديء الأخر لحقوق بني الإنسان» وقد نشر في سنة ١٧٢٥. واستخلصت منه تلك الفكرة العظيمة، وهي أن موضوع المعرفة. وهدفها هما التاريخ الذي يخلقه كل شعب. بل جميع الشعوب، بلا شعور. عندما يحيون فيه، وبدافع الشعور عندما يدركونه كما لو كان هو نفس صيرورة نوعنا. وإذن فقد كان التاريخ عنده هو الواقع أثناء حياة الناس فيه، وكان لايزال بالنسبة إليه مجموعة الشهادات التي نتركها خلفنا والتي ـ قبل أن تكون ذكريات ـ كانت بعض طرائق الحياة أي أن التاريخ هو جميع المشيدات منذ الأحجار الأولى للكهوف إلى أشد منتجات المدينة انصقالاً وجميع اللغات التي تُكلَم بها أو كتبت، وجميع المنظمات التي أسست. وجميع العادات والتطبعات، وجميع القوانين. وبالإجمال لم يكن موضوع مسَّه ڤيكو، دون أن يحوله إلى ذهب، وعنده أن اللغة لم تعُد هي علم الكلمات المجرد ولكنها طائفة من المسجلات التي

كان ينبغي أن تقرأ وأن يبحث فيها عن انعكاسات حالاتنا النفسية الماضية ؛ والشعر لم يعد نتيجة اصطناع أو عقبة ذلك، أو نجاحًا كاملاً بقدر مايتطابق مع قواعد العقل، ولكنه هو نفسنا التلقائية الساذجة. وعنده أن الإلياذة والأوديسًا لم تعودا ملحمتين أنشأهما ـ على صورة فنية ـ جوال أعمى، وملأهما في الوقت ذاته بالجمال النادر، والأخطاء الذوقية، وهذه الأخيرة ناشئة من فظاظة زمانه، ولكنهما كانتا صوتًا تحدثنا به، أو صورة من صور كينونتنا سجلت في لحظة من لحظات الزمن وأتت إلينا. والعلم الجديد لم يعد هو الهندسة أو علم الطبيعة، بل هو شرح الإشارات التي يؤلف مجموعها الإنسانية والحياة.

عبثًا حاول چامباتيستافيكو أن يتجه إلى العلماء وإلى مواطنيه النابوليين، وإلى چان ليكلير، ذلك الذي كان ـ في صحيفة الهولاندية ـ يوزع الشهرة على الكتاب الذين كان يوحى بهم إلى أوروبا. ولكن أوروبا بقيت صماء، وأولاها إيطاليا. ومع ذلك فقد خلع على هذه الأخيرة أحد عناوين شرفها حين أبان في اللغة اللاتينية آثار مدينة بدائية في رسالة عنوانها «عن أقدمية الحكمة الإيطالية» وهي حكمة ليست مدينة بشيء إلا لشعب جدير بأن يتسعيد كينونته.

لم تسمع هذه الدعوة ولم تقبل إلا فيما بعد فقط. أما في آونتها فقد ظلت بلا صدى، لأن هذا المجدد لم يكن له تلاميذ، ولأن فكره كان بلا عمل، بل إن عشيرته نفسها لم تكن لتستجيب له.

* * *

وأما كريستيان ڤولف، فقد كان أستاذ متعاظمًا بالعلم، ويستطيع المرء أن يتنبأ بهذا، لالشيء سوى النظر إلى صورته بشَعْره المستعار الرسمي، ورباط رقبته السميك الذي كان عنقه يغوص فيه، وعينيه البارزتين المميزتين لرجل أفرط في القراءة والكتابة، ومنظره المفعم بثقة المربي.

وكان يعلم في جامعة هال التي ابتدأ فيها بالرياضة في سنة ١٧٠٦. وظل

يحتفظ منها بطابع الهندسة دائماً، ثم صار فيلسوفًا بالمهنة. وفي سنة ١٧١٢، نشر كتابه الكبير الأول الذي عنوانه: «فكر معقولة عن قوى الفهم البشري وعن حسن اســتعماله في معرفة الحكمة». ومنذ ذلك الحين لم يفتر عن التعليم، وعن وضع مادة محاضراتــه في مؤلفاته، فأنشأ فيما بين سنتي ١٧٠٣، ١٧٥٣ سبعة وستين كتاباً، بعضها في عدة مجلدات، وكثير بينها من القطع الكبير. وفي كل سنة، كان يجتمع ـ حول منصتــه وفي لألاء شــهرته ـ مريدون جدد، وقد صار أستاذ الفكر في ألمانيا.

حقًا إنه كان يريد أن يكون تلميذ ليبنيز «Lwibniz»، على شرط ألا تؤخذ هذه الكلمة في معناها الضيق، وألا يعتبر كأنه مذيع بسيط لمذهب رجل أعظم منه، بل أن يعترف بصوت عال، أنه حول، وأصلح، وحسَّن التراث الذي صار هو بالنســبة إليــه أكثر من مجــرد مؤتمن عليه، لأن الفلسفة الليبنيزية ـ الڤولفية قسمان أفضلهما له، فليبنيز قد قدم إليه نقطــة الصدور التي قفز منها ليبدأ الطيران إلى ما هو أعلى.

غير أنه لم يلبث أن يكون ـ من فكرة مؤلف كتاب «الإلهيات» الموفقة بين الوجهات بهيئة بديعة ـ فكرة مذهبية محددة، وانتهى بها إلى توكيدات حاسمة، توشك أن تكون جزماً.

كانت الفلسفة بالنسبة إليه، هي علم الممكنات بل علم كل ممكن. ومن ثم فإنه أدخل كل ممكن في محيط مغلق بحيث لم يزد شيء ولم ينقص شيء، وحصره في حدود بلا شقوق. وفي هذا يقول مترجمة والمعجب به فورميه: «إن العلوم ليست علوماً، ولا يمكن أن بطلق عليها هذا الأسم، إلا إذا نتجت من مجموعة حقائق مرتبطة ارتباطًا متينًا وبلا أي مزيج من الأخطاء، و إن السيد دي ڤولف قد أمضى حياته، كأنه قصرها على العناية بأن يحول ـ إلى علوم واقعية وحقيقية ـ هذه الكتلة الثقيلة من المعارف الفلسفية التي كانت إذ ذاك قد كدست أكثر من أنها شيِّدت». حقًا ما أجمل رقعة الشطرنج هذه التي كان يتخذها كمرآة! لأنت الكائن يوجد محصوراً، ومحصوراً تماماً في مربعاتها على النحو التالي.

## الفلسفة

١ ـ ينقسم الجانب النظري منها إلى :

(١) المنطق

(٢) الميتافيريقا الذي ينقسم إلى :

أ ـ علم الموجود

ب ـ علم النواميس الكونية

جـ ـ علم النفس الذي يتجزأ بدوره إلى :

١) التجريبي

٢) العقلي

د – علم الآلهيات الطبيعية

(٣) علم الطبيعة الذي يتفرع إلى :

أ ـ التجريبي

ب ـ الدوجماطيقي الذي تعتبر فيه العلتان :

١) الفاعلة

٢) الغائية

٢ ـ وينقسم الجانب العملي منها إلى :

١) الفلسفة العملية العامة

٢) الأخلاق

٣) الفلسفة الاقتصادية

٤) السياسية[1]

---

(١) Mémoir abréé sur la vie et les ouvrage. M. Wolff, dans les principes du droit da nature et des gens par M. Formey, Amesterdam 1758, s vol, tome 1,p XLVI.

كان هذا الإفراط في الضبط الصوري موجوداً حين كان كريستيان ڤولف يحاول أن يقدم مقياساً للحق، فالحق عنده هو كل مالا يشتمل على تناقض من حيث ذاته، والوضوح علامة الحقيقة، والغموض علامة الخطأ. وتعقل الأشياء نقي إذا لم يحتو تصورها على اختلاط ولا غموض. وهو غير نقي إذا كان يشتمل على الغموض والاختلاط. وليست حقيقة الواقعة هي التي تعتبر عنده وإنما هو تطبيق التعقل على الواقعة، وسيره الدقيق. وامتداده بلا نقص. وكذلك هو المطابقة بين الأجزاء المختلفة لجزم معين أكثر من مطابقة الكائن مع الجزم الذي يجب أن يعبر عنه. وهو إذ تحدث على هذا النحو، قد أعجب بإنتاجه وألفاه كاملاً.

كان لديه فكر معقولة عن الإله، وعن العالم، وعن النفس، وفكر معقوله عن الإنسان. وفكر معقولة عن المجتمع، وبكل هذه الفكر المعقولة، وبفلسفته العقلية التي وضعت بالألمانية للكافة وباللاتينية للعلماء قد غمر بلاده أولاً، ثم البلاد المجاورة بعد ذلك. حقًا أن سلكه كأستاذ قد أصابته حادثة مؤلمة، ففي مدينة هال في ١٢ يوليه من سنة ١٧٢١، ألقى خطبة عن أخلاق الصينيين، وقد اتخذ من جديد، الخليفة السامية لتعليم كونفوشيوس «Confucius»، فاستأنف بهذا موضوعًا كان من الممكن أن يصيره الطَّرْقُ الطويل مأمون العاقبة، ففي الواقع أن هذه التعاليم لاتقود إلى الخير. نتيجة لوحي إلهي، بل بحكمة إنسانية كان يلهمها العقل أي بحكمة معقولة. وعلى أثر هذا، هب الأساتذة البييتست[1] زملاؤه وأعداؤه وصارحوا معلنين الفضيحة، وسرعان ما ألفينا الأمر ـ بعد أن هزَّ الجامعة ـ قد حمل إلى الملك فريديريك ـ جيوم، وتروي الخرافة أن أحد رجال القصر قد نقل إلى الملك أن هذا السيد ڤولف يعلم مذهب الانسجام المقرر في الأقدار، والذي ينتهي إلى الجبرية. وبناءاً على ذلك فإن جنود جلالته لم يعودوا سوى آلات، وأن من الخطأ معاقبتهم إذا فروا. وعلى أثر ذلك غضب الملك وأصدر الأمر بطرد السيد ڤولف، وأنذر بشنقه إذا بقي في مدينة هال أربعًا وعشرين ساعة.

(١) البييتيست هم أشياع البييتيسم، وهو مذهب ديني لطائفة من البروتستانتيين. (المترجم)

غير أن الأقدار قد ثأرت له، فعندما صعد فريديريك الثاني على العرش، دعا الأستاذ إلى مدينته وجامعته وكرسيه حيث كان لايوشك أن يقوم بشيء أكثر من أن يعيد الحديث عن مجده. وقد استمر ذلك إلى وفاته في سنة ١٧٥٤.

تلك كانت شهرة ضخمة حملتها الرياح، إذ أن معاصريه كانوا يدعونه بالحكيم، حيث كان لقب الفيلسوف ضئيلاً بالنسبة إليه، وكانت دول بأسرها معجبة به، وقد عينه الفرنسيون في المجمع العلمي. وذلك شرف رفيع. وقد ترجم الإنجليز عدداً من رسائله، وكان ذلك علامة يقينية على الاستحسان من جانب شعب يعتقد في نفسه أنه وحده رَب التفكير والتفلسف. وقد شعر الإيطاليون مبكرين بميزاته، وكانوا هم الأولين الذين أوصوا بمؤلفاته في روما وفي المدارس الإيطالية بل إن ملك نابولي قد أدخل - بأوامر رسمية - النظريات الڤولفية في جامعات مملكته، ولم يكن الشمال متثلجًا بإزائه، فروسيا منحته لقب أستاذية الشرف في مجمعها الإمبراطوري، وقد قدمت إليه الممالك الأخرى في ذلك المناخ براهين أعظم أنواع الاعتبارات امتيازاً.

ولكن هذا الضجيج الذي كان يسمع من حفيف أجنحة المجد، لم يلبث أن خَفَتَ، وأصبح كريستيان ڤولف، وليس يملك من شواهد الخلود سوى ماله في كتب تاريخ الفلسفة. ولكن هل كل إنسان عرف كيف يوصل هزاته إلى العقول يمكن أن يموت؟ أوليس يبقى قائمًا بيننا بهيئة أبدية؟

كان ڤولف دائمًا مرتبطًا بالدين المسيحي[1] فنقض اسپينوزا ولوك، بيل، واحتج «على حرية الفكر الإنجليزي المقززة» بقدر ما احتج «على تأليهية «déisme» الفرنسيين الغازية، وعلى ماديتهم وارتيابيتهم».

---

(١) عبارة المؤلف هنا هي دين واقعي، أي دين مقرر. ولكننا لما كنا نخشى أن يلتبس ذلك بدين أوجست كونت - ولو أنه لم يكن قد وجد بعد - من جهة، وكنا نعلم أن ڤولف كان مرتبطًا بالمسيحية من جهة ثانية، فقد تصرفنا في عبارة المؤلف هذا التصرف. (المترجم)

وقبل موته بساعتين تقريباً، عندما أحس بأنه دنا من النزع الأخير كشف رأسه، وبعد أن بذل كل الجهد الذي كان ضعفه النهائي يسمح له به، ضم يديه ثم قال: «والآن يايسوع يامنقذي، امنحني القوة أثناء هذه الساعة ...» تلك هي خطة المسيحي الذي يصلي ويؤمل. ومع ذلك فهو لم يكن مسيحياً في أعماق فكره، مادام أن الأخلاق عنده كانت عقلية، وأن الاعتقاد كان عملية عقلية لم تكن تصل إلى حد التصديق بالمعجزة وأن الإله بالاختصار، لم يكن في رأيه، سوى أحد إنتاجات العقل البشري. وبهذا المعنى وحده سيشرح كريستيّان ڤولف بوساطة أخلاقه.



وأما جون لوك فعندما يصل إليه المرء، يستولي عليه الدهش ففي الواقع أن سيادته تبدو للوهلة الأولى بلا منازع ولا تعاني أي تمرد. وفي سنة ١٦٩٠ عرض في كتابه: «محاولة عن العقل البشري» اتجاهاً جديداً للفكر. وقد بقيت هذه المحاولة، إلى عهد «كانت»، على أنها هي الكتاب المرشد للفلسفة. ولاغرو فإن كلمة الفيلسوف هيلڤيسيوس في كتابه: «عن الإنسان» ـ هي «مماثلة آرائي لآراء لوك» ـ كانت تعبر إذ ذاك عن الأكثرية العظمى من معاصريه، لأنه يمكن أن يعد على الأصابع أولئك الذين لم يقرأوا لوك، ولم يعملوا بآرائه، ولم يعجبوا به، بينما أن جمهور أتباعه لايحصى. ولست أدري ماإذا كان قد وجد مستعرض للفكر صار أكثر من هذا الأخير تكييفاً لعصره. إنه قد تجاوز المدارس والجامعات والدوائر العلمية، والمجامع ليذهب إلى الكافة، وأضحى من التوابع الضرورية للبدعة العقلية. ومن آيات ذلك أن پوب يحدثنا أن شابة إنجليزية، كانت قائمة برسم صورتها، فأرادت أن يقدمها الرسام ممسكة بيديها مجلداً ضخماً هو منتجات لوك. وأن جولد سميث يروي لنا أن الشبان الفرنسيين المتأنقين لم يكونوا يكتفون بأن يسطعوا، بوساطة رشاقة زينتهم ورقتها، بل كانوا أيضاً يريدون أن تكون عقولهم

مزدانة بلوك . وأن ديتوش في مهزلته «أنييس الزائفة» قد وضع على المسرح فتاة تتظاهر بأنها مجنونـــة لكي تتخلـــص من دعي لاتحبه . وبعد أن يتم لها ذلك تبين أنها أكمل ماتكون عقلاً . إذ تشرح نظرية المعرفة كما عرضت في كتاب المحاولة للـــوك . وفي أغلب الأحايين يشاهد أن إشارة، أو استشهاداً . أو استعادة ـ ولو أنها ليست من المؤلفات الرئيسة . بل من أقل المنتجات شهرة ـ تبين أن الناس يحتفظون بـــه في مدخـــر الذاكـــرة كأنه قطعة من الذهب يسعد المرء بإبرازها ويجعلها تسطع إبان مروره .

حقًا إنهم نادرون . أولئك المؤلفون الذين يتجهون بالغريزة إلي جميع المسائل الجوهرية، . وإليها وحدها، وهي مسائل الإيمان والأخلاق والسياسة والتربية، والذين يضعون ـ على كل هذه الموضوعات العظيمة ـ طوابعهم التي لاتقبل الزوال . ولقد كان چون لوك واحداً من هؤلاء . بل يضاف إلى ذلك مااكتشف اليوم من أنه قد أحدث ثورة في الأدب . وليس ذلك فقط لأنه دمَّر بضربة واحدة، فنون الخطابة القديمة، والقواعد العتيقة حين أبان أن فن الكتابة لاينحصر في تطبيق قواعد وحكم، وأنه بالحَري يصدر من النشاط الروحي الباطني . ولكن أيضًا لأنه منح الانفعال والشعور مكانًا لم يكن قد اعترف لهما به حتى ذلك الحين . ومن آيات ذلك أن الكاتب الإنجليزي استيرن «Sterne» كان يقول مخاطبًا سوار : «لست مدينًا بشيء للطبيعة، وإنما أنا مدين بكل شيء للدراسة المطولة لبعض الكتب كالعهد القديم، والعهد الجديد . ومنتجات لوك التي بدأت أطالعها في شبابي، والتي ظللت أقرؤها كل حياتي» وعندما سمع سوار هذا، جعل يتساءل عما إذا لم يكن ذلك الإنجليزي الغريب يسخر منه .

وإذن فنحن نلتقي بلوك في أصل الأدب الذي يسجل ردود فعل الفردية، سواء أكانت ملتئمة أم غير ملتئمة . أمام الظواهر التي تؤثر فيه، وذلك هو أدب الانفعال أو أدب الشعور .

فمن أين يأتي الأثر المترامي والعميق إلى هذا الحد؟ ومن أين يأتي ذلك العمل الذي يبدو في كل مكان؟ ذلك لأن لوك قد تصور قبل الأوان، الخطة التي كان العصر يريد أن يتخذها بإزاء مشكلة الموجود، ففي الواقع أن منه يتأتى التخلي الرسمي عما لا تمكن معرفته، وأن عنه صدر المرسوم الإمبراطوري: «الإكراه في داخل حدود الإمبراطورية De coercendo» «intra fines imperió» وأنها فكرته تلك التي مؤداها أن مالا ينفعنا، ليس ضروريًا لنا، وأن البحّار ليس في حاجة إلى أن يغوص في هوة المحيط، بل حسبه أن يقيد في خريطته: الصخور، والتيارات، والمرافيء، وأنها فكرته - أيًا كان مستقاها - تلك التي تنص على أنه لايوجد في النفس شيء فطري، وأن فكرنا المجردة وعقلنا نفسه هما نتيجة لأحاسيس تسجلها النفس، وعمل تجربة عليها. وأنها فكرته تلك التي مؤادها أن المعرفة ليست سوى العلاقة التي تقتنصها، وأنها فكرته تلك التي تحصر الإنسان في الإنسان. وبالإجمال إننا نلتقي بلوك عند منبع التجريبية.

وإذن فقد كان حملة المشاعل يتقدمون، وكانت الحقيقة ستبرز من مكامنها، وكان هؤلاء يدعون في عزة «بأصدقاء الحق». ولقد نقشوا ميداليا، كان وجهها يمثل صورة «مينيرڤا» Minerve[1] شعارهم الذي هو: «إجترئ على أن تعرف». وكانوا يسيرون «ونظراتهم حرة، وعقولهم مليئة بالنور[2]».

«والذي كان الجهل الفظ قد أنتجه، واختفى في رائعة النهار في عصر النور[3]».

(١) هي إلهة الحكمة عند الرومان واسمها باللغة الهيلينية پالاس - أثينية. (المترجم)
Wieland, Die Natur der Dingó, Erstes Buch, vers 77 et 78.(٢)
Chabanon, sur le sort de la poésie, 1764.(٣)

# الفصل الرابع

## إله المسيحيين موضوع قضية

بيد أن المكان كان مشغولاً، وأن أولئك الجرآء كانوا قد وجدوا أمامهم فكرة عن الحياة اختلطت منذ ثمانية عشر قرنًا، بمدينة أوروبا، ففي الواقع أن المسيحية كانت تقدَّم إلى الناس منذ مولدهم. فكانت تشكلهم. وتعلمهم، وتجازي كل فعل من عظائم أفعال وجودهم، وتضع علامات للفصول والأيام والساعات، وتحول لحظة وفاتهم إلى خلاص، وكانوا في كل مرة يرفعون فيها عيونهم، يرون على الكنائس والمعابد نفس الصليب الذي قد انتصب فوق جبل الجلجلة. وكان الدين جزءاً من أنفسهم بهيئة عميقة إلى حد الامتزاج بكينونتهم، وكان يطالب بكيّان كل فرد كاملاً. ولايحتمل التجزئة. ويصور هذه الحالة فوق السيد المسيح: «من ليس معي هو ضدي».

كانت العقيدة المسيحية هناك قائمة وفعالة، وكان أولئك القادمون يصطدمون بقوتها المتأصلة. وكانت تعلم الناس أن الحياة ليست ممر أو إعداد. أو أنها هي الطريق العسير الذي ينتهي إلى السماء، بينما أولئك القادمين كانوا يكلون إلى الآونة الراهنة كل حظوظهم، وكل مسراتهم.

وكانت العقيدة أيضًا تقول إن العقل يقتادنا إلى نقطة معينة من المعرفة ولكنه ينتهي دائمًا بأن يلتقي ببعض الأسرار. ومن ثم فإن الوسيلة الوحيدة هي وضع ثقتنا في العقل الأسمى الذي يساعدنا من الآن، والذي سيسمح لنا يومًا بأن نخترق

الحجاب الذي يعترض بين عيوننا المادية والحقيقة، بينما أن أولئك كانوا يضعون ثقتهم في عقل إنساني بحت. وكانت العقيدة كذلك تقول إن لغة كانت مرتبطة بجنسنا بحيث إن انعطافًا إلى الشربقي حتى لدى أكثرنا نبلاً وإن توقاناتنا الرفيعة بختلط بها ميل فظيع إلى الخطايا. ومن ثم فإن الوسيلة الوحيدة هي الإقرار بالخطيئة الأصلية التي كان من الممكن أن نتطهر منها لو أضهرنا أننا جديرون بالدعوة الإلهية. بينما أن أولئك لم يكونوا يرون هذه اللعنة، وتلك الوصمة الأولى. وأخيراً كانت العقيدة تلتجئ إلى السلطة. وإلى التقاليد، بينما أولئك كانوا يرون في إحداهما سوء استعمال. وفي الأخرى خطأ.

وإذ وصلت الحالة إلى هذا الحد، اشتبكت معركة لم ير لها نظير من قبل، لأن الأمر لم يعد يتعلق بتهديدات محجبة، أو بمطالب جزئية، أو بزندقات، أو بانشقاقات، وهي غصون تمكن تضحيتها للاحتفاظ بالدوحة. وإنما هي جذور تلك التي كان الأعداء يهاجمونها. ولم يكن الأمر يتعلق أيضًا بتمردات منعزلة أو بعصيات مقصورة علي فرد، أو على طائفة، أو بمشاجرات بين اللاهوتيين، لأن الرغبة في السيادة التامة كانت قد استيقظت وأرادت أن ترضى نفسها.

كان الاصطدام يحدث في رائعة النهار. أما من الجمهور. ومن أجل الجمهور، وكانت المعركة الهائجة من الجانبين، تخلع على العصر طابعها الحاد.

وليس معنى هذا أن الدين المسيحي وفلسفة الأنوار متعارضان في حالتهما النقيتين فقد كان الفاريسيون. وباعة المعابد، من بين المدافعين عن المسيح[1]. وكان من طائفة الأقوياء والأثرياء المقتنعين بأن الأمور لم تكن في أية حاجة إلى التغيير مادام أنها كانت منتظمة حسب فائدتهم. ومن طائفة المعاندين وضيقي الأفق الذين

---

(١) يشير المؤلف بهذا التشبيه إلى أن المدافعين عن المسيحية في ذلك الحين كانوا يشبهون معاصري المسيح من الفاريسيين المنافقين وباعة المعابد الجشعين أي أن أولئك وهؤلاء لم يكونوا من الاتقياء المخلصين. (المترجم).

كانوا يجدون أن من الإصلاح أن يدينوا ويعاقبوا بدلاً من يتغلغلوا إلى أعماق النقاش. ومن طائفة الأتقياء الزائفين الذين كانوا يعتقدون أنهم يحققون نجاة أرواحهم بوساطة قيامهم بطقوس عملية خارجية، وكانوا يصيحون بالفضيحة إذا مست إحدى الخرافات الواضحة. وبالإيجاز كانوا من المسيحيين اسماً. ولكنهم أشد وثنية من المشركين وعبدة الأصنام. وقصارى القول أنهم طوائف خلت قلوبهم من محبة الغير.

وكذلك كان في الجهة الأخرى أرواح خِلْو من العاطفة الدينية إلى حد أنهم لم يكونوا يفهمون، ولا يستطيعون أن يفهموا قلق الذين يبحثون، وسكينة الذين يرجون. وعند هذه الأرواح لم يكن المسيحيون إلا ضعفاء أو مزوِّرين. ولما كانوا لايشعرون بالحاجة إلى الإيمان، فإنهم كانوا يشوهون الدين ويرسمون له صورة مزيفة. وكانت المسيحية في نظرهم، مؤامرة فظة إلى حد يجعل من العسير أن يتخيل المرء أنها استطاعت أن تنشأ وأن تبقى بين الاضطهادين اللذين اتحدا ليحققا لنفسيهِما اقتسام الأرض، وهما اضطهاد القسس واضطهاد الملوك.

وعندهم أن المسيحية لم تنتج إلا أكاذيب وجرائم عبر التاريخ، وأن جميع البلايا التي نألم منها، ستختفي في اليوم الذي تختفي فيه المسيحية. وكانوا يعلنون أن أهم مافي العقيدة هو الإفراط الذي سمحت به الكنيسة، واشتركت فيه أحياناً. أما العقيدة نفسها، فإنها في رأيهم سذاجة غير متعقلة خصصت للجهلاء والأغنياء وهي لاتنحصر في تصديق مايبدو أنه حق، بل مايبدو أنه باطل أمام العقل. ولقد استبدلوا عبادة إله إسرائيل وإبراهيم ويعقوب بعبادة خرافية للطبيعة البشرية(١) أو الطبيعة البشرية المشوَّغَة(٢). كما لو أن بأساءنا لم تكن قد أتت من حالتنا، بل من الدين الذي أراد أن يؤولها وأن يجعلها نبيلة.

---

(١) Corresondance ;ittére, III, p. 449, décembre 1757.

(٢) Thomas Chubb, Human nature vindicated, 1726

غير أنه من خلال أحداث المعركة المختلطة والمفعمة غالبًا بالمقت ـ وذلك كالحجج التي لاتصيب فلا تتلاقى، وكالنقد الذي لايلحق الدفاع، وكالدفاع الذي لايرد على النقد، وكالسخط والعنف ـ وعلى الرغم من الانحرفات والأخطاء التي تتخذها المناقشات حين تطرح أمام الجماهير، فإنه يبقى أن المسألة التي تعرض هي معرفة ماإذا كانت أوروبا ستبقى مسيحية، أو سوف لاتكون كذلك.

* * *

على هذه الأوضاع نشأت قضية لم يسبق لها نظير. وهي قضية الإله. وكان الأمر فيها يتعلق بإله البروتستانت كما يتعلق بإله الكاثوليك مع بضعة ظروف مختلفة بالنسبة إلى الأول، لأنه كان يعتبر أدنى إلى العقل، وأمْيَل إلى النور. ولكن في العموم لم يكن أحد يريد التمييز بين جنيف وروما، أو بين كالڤان Cal-vin والقديس أوجستان St. Augustin، لأن الأصل مشترك، وكذلك الإيمان والوحي.

وفي هذا يقول أحد النقاد، ونحن ننقل هنا عباراته نفسها: إن الحالة كانت كما لو أن شائعة ـ لايدري أحد متى نشأت ـ قد صارت مفرطة

الإلحاح إلى حد لايسمح بإهمالها وقتًا طويلاً، وكان مؤدى هذه الشائعة أن الإله الذي ارتحل في الليل سراً كان متأهبًا لاجتياز حدود العالم المعروف، ولهجران الإنسانية. ولنلاحظ أن الإله في ذلك الحين كان أمام المحاكمة، وأن هذه المسألة كانت في السلك العقلي هي قضية العصر الشهيرة، وكانت تثير انفعالات الناس إلى درجة لانستطيع أن نفهمها إلا في صعوبة. وكان كل فرد ـ سواء أكان من القراء أم من المؤلفين ـ مشغوفًا بمعرفة ما إذا كان هناك إله، لكي يعتني بنفسه الخالدة أو لم يكن هناك إله ولا نفس خالدة يجب أن يعتني بها. تلك كانت مشكلة الكافة من الناس أي أنهم كانوا يتساءلون أيعيشون في عالم يحكمه عقل خيرٌ أم في عالم تسوده قوة لا اختيار لها؟ تلك هي المشكلة التي كانت تثير العقول، وهي التي كانت موضع النقاش في كل مكان، في الكتب، وعلى المنصات، وفي المنتديات، وعلى

الموائد بعد أن يخرج الخدم. ولانستطيع أن نتصور إذ ذاك فيلسوفًا يجهل، أو يهمل هذه المسألة أكثر من أن نتصور فيلسوفًا عصريًا يجهل أو يهمل نظرية الكوانتا[١] ... [٢].

هذه الملاحظة دقيقة في صورتها الشاذة بشرط تحديد أن المتهم كان هو إله المسيحيين، ففي الواقع أن الناس كانوا يتحدثون عن هذه القضية في مكاتباتهم التي كانوا يتبادلونها خلال أوروبا، وكانوا يتحدثون عنها في الصحف والرسائل والقصائد الطويلة، والمدائح، بل في المخطوطات الصغيرة الخفيفة التي كانوا يخلطون بها النثر، وكانوا يتحدثون عنها في حضرة الملوك والملكات. فمثلاً في «هرميتاج» الذي شيدته كارولين دي انسباخ ملكة إنجلترا في مدينة ريشمون وزينته بتماثيل وولاستون، وكلارك، ولوك، ونيوتون «Wollaston, Clake, Locke, Newton» والذي كان الأسقف بوتلير يأتي إليه في كل مساء بين الساعتين السابعة والتاسعة، ليعرض حقائق الدين. وعند ملك البروسيين في قصري رانسبورج، وپوسدام، وفي بلاط استانيسلاس ـ أوجوست ملك بولنيا، وأمام كاترين إمبراطورة روسيا. وكانت أنباء تلك القضية تتناقل في المنتديات التي كانت تديرها مدام دي تانسان ومدام دو ديفان، ومادموازيل دي ليبيناس، «Mme de Tenncin Mme de Deffand, Mlle Lespinasse» وكان يشار إليها في الجلسات المجمعية، وكانت تستأنف في مكاتب دائرة المعارف في باريس. وفي برلين كان عدد من الرفاق الذين يجمعهم نفس الانشغال بمعرفة الحكم النهائي، يتحدثون عن القضية فوق مقاعد المقاصف، وفي وسط سحب دخان التبغ ورنين الأكواب، وكان العلماء في معاملهم، ينحنون على مناظيرهم المعظمة على أمل أن يستكشفوا في

---

(١) يرى بعض الطبيعيين العصريين تنوع القوة في الظواهر، ويطلقون على الوحدات التي تستعمل لقياس ذلك اسم الكوانتا وقد وضع هذه النظرية هانزي بوانكاريه. (المترجم)

(٢) The Heavnly city of the Eighteenth Century philosophers, by Carl Becker, New - Haven, Yale university press, 1932.

الطبيعة مستنداً جديداً يضيفونه إلى أضبور القضية. وكان الرحالة الذين يذهبون إلى البلاد الأجنبية ينقبون عن معرفة ما إذا كان هناك طريقة لمجابهتها وحلها. ولقد كان ديديرو في منزل صديقه دي هولباك بالريف، وبعد أن أكل المدعوون وشربوا في سعة، جعلوا يضحكون ويمزحون، وكان كل مالايمس تلك القضية كأنه لم يكن سوى لَهْوٍ حائل محدود بلحظة من لحظات النسيان فطفقوا يعودون، بالرغم منهم، وبوساطة انعطاف غير محسوس، إلى المسائل التي لايستهان بها. وفي هذا يقول ديديرو: «إن الحساسية العامة، وتكوين الكائن الحساس، ووحدته، وأصل الحيوانات وبقاءها وكل المسائل التي يتعلق بها ذلك ليست من المسائل التي لايكترث بها، إذ ليس من الهين أن يجمد الإنسان أو أن يقر عقلاً أعلى[1] ...»

ولاجرم أن هناك دائماً لدى الذين بدأوا القضية شيئًا من المرارة والحفيظة. وفكرة المسؤولية التي أخذت تنمو من قرن إلى قرن، ولذا كان الوقت أكثر من ملائم لطلب تقديم الحساب، إذ أن إله المسيحيين فيما يرون كان لديه جميع السلطان، وأنه كان قد أساء استعماله، وأن الناس قد وثقوا به، وأنه خدعهم، وأنهم قاموا بتجربة لم تنته إلا إلى التعاسة. ولقد جعلوا يسألون لماذا كان المسيح منقبضًا وحزينًا؟ ولولا ذلك الدين لكنا أكثر مرحًا بعض الشيء[2]، ولماذا لم تكن مملكته من هذا العالم؟ «فبدلا من أن يحارب الدين الارتباط بالأمور الأرضية، ينبغي أن يقويه لدى الإنسان[3]». ولماذا نصح بإهانة البدن؟ وفي هذا يقول ڤولتير:

«أي انتصار مرهق وأية غلبة حقيرة، هل تبحثين في حزن عن الفوز ضد نفسك؟ وهل عقلك المستنير يستطيع أن يؤمن بالتاريخ الوهمي للعهدين القديم والجديد، وبالأحلام المقدسة لأولئك المتنسكين المجانين الذين - إذا كانوا مؤمنين كسالى، وغيلانا حمقا أتقياء - يتركون اللذة الحقيقية من أجل مجد زائف؟ لأن اللذة هي موضوع جميع الكائنات العاقلة وواجبها وغايتها ...

---

(١) Diderot, Réve de d'Alembert, ed. Tournux, t2,p.135.

(٢) Diderot, Entretien avec is Maréchale, oeuvres, ed. Tourneux tome 2,p.514.

(٣) Helvétius, De l'homme , section 1, Chap, 13.

والعقـل عندهم ليس من خصائص الإله بل إنه في رأيهم غير منطقي، ففي الواقع إن برنامـج عنايتـه لو حكم عليه حـسب قوانين منطقـنا وعقلنا، لكان غير متسق» .

هذا هو ماكان ڤولتير يقول ضمن قصيدته التي عنوانها «رسالة إلى أوراني» والتي تحتوي على مآخذه، والتي كان يتابعها على النحو التالي: «إنني أريد أن أجد هذا الإله، وإنني أبحث فيه عن أبي ولكنهم يظهرونه لي طاغية يجب علينا أن نمقُتَه، إنه خلَق الأناسـي يشبهونه، لكي يمعن في تصييرهم سفلة، وقد منحنا قلوبًا مذنبة ليكون له الحق في أن يعاقبها، وقد حبب إلينا اللذة، ليزيد في تعذيبنا بالبلايا المرعبة التي تمنعها معجزة خالدة من الانتهاء. وقد خلق الإنسان على صورته، وفجـأة يرى وقد قدم على فعلته، كما لو كان الصانع لم يشعر بعيب صنعته الخاصة ... »

ولكي نوجز كل المآخذ في مأخذ واحد نقول إنه قد عرض علينا لغزاً، وكان يستطيع أن يشرحه ولكنه لم يرد. وفي أحد الأيام ألف لاكوندامين لغزاً وقرأه على أصدقائه المجتمعين حوله كأنهم دائرة، وفي دهشة منه لم يلبث هؤلاء أن وجدوا كلمة السر لأنه كان قد كتبها بأحرف ضخمة على ظهر ورقته. آه! لماذا لم يصنع الإله مثل ذلك " «ولو أن الإله كان قد عاملنا كما عاملنا لاكوندامين الخيِّر الذاهل، لما حطمنا رؤوسنا منذ خمسة أو ستة آلاف سنة. ولكن من السخرية من الناس أن يبعثهم إلى ميركور[١] العالم الآخر لكي يعرفوا كلمة السر»[٢].

هكذا كان الجو السائد. وقبل أن نرسم تاريخ هذه المعركة في خطوطه العريضة، ينبغي أن ننظر إلى عدد من هذه النفوس الكليمة المتمردة التي كانت بين

(١) يريد المؤلف أن يقول إننا لكي نحل لغز الألوهية في حاجة إلى ميركور للعالم الآخر كما كان ميركور فرنسا يحل ألغاز العصر. (المترجم)

Grimm, Correspondance littéraire, t,7,p. 119 septembre 1770(٢)

الأولين الذين منحوا الزمن لونه . وقد اخترنا منها مثلا ثلاثة، أولها إيطاليا، وثانيها فرنسي، وثالثها ألماني .

* * *

لم يكن من الجديد أن تدافع السلطة الدنيوية عن نفسها ضد زحف السلطة الدينية، بل كان ذلك نهاية لمعركة طويلة وهاكم المظهر الذي اتخذه هذا الدفاع .

ولد پييترو چيانون Pietro Giannon في پوى إحدى مقاطعات إيطالياالجنوبية في سبعة مايو من سنة ١٦٧٦، وقد درس مذاهب «المدرسين» . ثم اتجه إلى نابولي ليدرس فيها الحقوق أي القانون الروماني والقانون الديني، والقانون الإقطاعي. والتاريخ العام، والتاريخ الديني، والفلسفة، فكان جاسانديًا، ثم صار ديكارتيًا . فتعلم كل شيء. ولم يكن شريراً، وكان في أخلاقه استقامة وشرف، ولديه ثقة في العدالة، ولكنه لكنه لم يكن مسالمًا، بل كان شائكًا وعنيداً، ومغرمًا بالنضال. وكان أسيراً لفكرة واحدة استولت عليه فخصص لها حياته وهي أن رجال الدين في رأيه، قد أرادوا منذ البدء أن يغتصبوا امتيازات الحكم، وأن دعاواهم لم تكن مشروعة. هذا هو مكان جيانون يريد أن يبديه في نابولي وفي إيطاليا بل في أوروبا. ومن ثم فقد ألف على عجل وفي حُمَّى «التاريخ المدني لحكم نابولي» الذي ظهر في سنة ١٧٢٣ .

لم يكن ذلك الكتاب من التاريخ بالمعنى الكامل، لأن المؤلف لم يكن ينظر عن قرب إلى ضبط المصادر، وفي أثناء تهيجه في التدليل، كان يستولي في يسر، على إنتاج الآخرين. كان حقًا يجب أن يفهم جيانون جيداً، ولم يكن ينبغي أن ينتظر منه قصص عن المجد والمعامع، ولا رسوم لمناظر الطبيعة، ولا آراء فنية، وكان مشروعه كله اجتماعيًا إذ كان ـ بصعوده نحو الماضي إلى أبعد ماينبغي، وبإمعانه إلى الحقبة المعاصرة ـ يريد أن يبرهن على أن كفاحًا واحدًا هو الذي نشأ ونما خلال أحداث متباينة وهو كفاح أخلاف القديس بطرس ضد ممثلي قيصر. وأن الكنيسة ـ وهي دائمًا نفعية، ودائمًا مستعدة للاستفادة من الضعف البشري،

ولإغواء القلوب المزعزعة، وللاستفادة من مخاوف مابعد هذا العالم أمام سرير المريض، ولتكديس الأموال والأملاك والفوائد على اختلاف أنواعها ـ قد خانت رسالتها على مر العصور.

لاجرم أن الحركة التي تقتاد ذلك الكتاب منبعثة عن الهوى، وأن لهجته مرة، وأن طريقته العادية هي التكرار، فنحن نشاهد مثلاً أن جيانون يقول في الفصل الذي عنوانه: «السياسة الدينية، الرهبان والثروات الدنيوية» مانصه: «إنك ترى خلال العصور أن السياسة الدينية تظل كما هي، وترى خلال العصور أن الرهبان يميلون إلى الاستيلاء على الثروات». وفيه حجج متماثلة تستأنف في غضب متزايد، ونرى جيانون ـ وهو المدافع عن الدولة ـ قد صار من الذين ينبذون قداسة الصور والرسوم وهو في هذا يعمل بغضبه، وكان الناس يدركون ذلك من الطريقة التي يتحدث بها عن الصور المقدسة، وعن البقايا والآثار السلفية، وعن الحج والمعجزات، وعن مقته للرهبان، واحتقاره لنظام الدرجات الكهنوتية. وكانت السخرية هي وسيلته إلى الدفاع ضد المهاجمات التي كان هو موضوعها، فمثلاً لكي يرضى معارضيه، كان يعلن أنه مستعد للإيمان بأن البابا سيد العالم أجمع، وأن له الحق في أن يستعمل جميع الوسائل كالتغريم والحبس والسجن الانفرادي والنفي، لكي يحقق النجاة الأبدية للنوع الإنساني وللإيمان بأن السلطة البابوية لاتتحدد على سطح الأرض والبحر ولكنها تمتد إلى الجحيم والأعراف والفردوس بحيث إنه يستطيع في الممالك السماوية، أن يأمر الملائكة ...

إن بييترو جيانون ـ وهو الذي لايكبح جماحه ـ قد استمر يدافع عن فكرته ولكن ذلك لم يكن دون أن يطلق عقال اضطهادات السلطات التي كان يجابهها، فضاعف بذلك المجادلات الكتابية قصد إنقاذ كتابه ونشره وهكذا كان يهاجم دائمًا، فأقصى ردحًا من الزمن، وسجل كتابه في قائمة المحظورات، فالتجأ إلى ڤيينا حيث وجد ملجأ في كنف الأمبراطور الذي كان يؤيد سلطانه.

غير أن نابولي في سنة ١٧٣٤ انفصلت عن النمسا، وأن الأمبراطور، بسبب ذلك نفسه، قد تخلى عن الاهتمام بجيانون الذي صمم على العودة إلى إيطاليا، وعندما وصل إلى البندقية، أقصي عنها، فاتجه إلى ميلانو، وسرعان ماطرد منها، وحينئذ ذهب إلى جنيف حيث استقبل استقبالاً حسنًا، ولكن البيت الحاكم في سفوا قد اعتبـر أن إقامته في تلك المدينة خطرة بالعدوى فاجتذبه في فخ مجمله أنه ـ تلبية لدعـوة رجل كان يظن أنه أحد أصدقائه ـ اتجه إلى قرية وفي نفس ليلة وصوله إليها اعتقـل، وجعل ينقل من سجن إلى سجن حتى توفي في قلعة توران في سنة ١٧٤٨.

وقد ترك مخطوطًا لم ينشر في حياته، وكانت محتوياته متممة لوسم فكرته، وكان عنوانه «الحدود الثلاثة» وملخصه أنه قد وجد في العالم ثلاث ممالك متتابعة، كانت أولاها مملكة الأرض، إذ أن المدينة العبرية كانت كلها أرضية، ولم تكن عقائدها تتضمن أية فكرة عن البقاء، ولا أي أمل في الخلود، وأن موسى لم يَعدْ أولئك الذين أطاعوا قانونه إلا بمكافأة مادية كخصوبة الحقول ووفرة القطعان، والصحة والرغد ولم يدرك النفس ألبتة على أنها يجب أن تنجو من الموت، وأن المصريين قد قدموا إلى الإغريق ـ وهم جنس ماهر ـ أخيلة لم يكن لهؤلاء الأخيرين بد من أن يروقهم إنماؤها في أساطيرهم، وذلك مثل «الأكيرون» و«الشان إيليزيه»[1] بل إنه في تلك التنميات لم يكن يوجد سوى استمرار مجازي للأشياء الأرضية.

وعلى أثر ذلك جاءت المملكة السماوية، فالأناجيل تحدثنا كيف أن الإله أرسل «كلمته» إلى العالم حتى يستطيع المسيح أن يكون مرشداً على الأرض حيث الأناسي الذين هم أرضيون وفانون كما كانوا إلى ذلك العهد يصيرون سماويين وخالدين. إنه من المفهوم أن النجاة تنال بالإيمان أقل مما تنال بالعمل ببعض فضائل جد بسيطة إلى حد أن كل رجل جلف وامرأة فظة يستطيعان أن يزاولاها.

---

(١) الأكيرون هو في الأساطير الهيلينية، نهر يمر في الجحيم، ولكي تذهب نفوس الموتى إلى مقرها لابد من اجتياز هذا النهر، أما الشأن إيليزيه في نفس تلك الأساطير فهو موضع إقامة نفوس الموتى الذين كانوا من ذوي الفضيلة. (المترجم)

وفي المحل الثالث جاء حكم البابا. ومأتاه أن رجالاً قد استولوا على تلك المسيحية البدائية. وعلى أسسها أقاموا مبنى متعارضاً أتم التعارض مع روحها. واستولوا على قانون العدل والجور، ونعتوا الأعمال بنعوت المباحات أو المحظورات حسب أهوائهم، وحملوا الجماهير على الإيمان بأن لديهم القدرة على فتح أو إغلاق الأبواب السماوية. وقد استغلوا جهل الأمراء، وحمق الشعوب فعلموا الناس أنه من الممكن استبدال الثروات المادية، بثروات روحية وأن الهبات والوصايا لها القدرة على افتداء النفوس، وأنه بالمال المقبوض، يدفع ثمن الفردوس. وبهذا يكون الناس قد عادوا إلى عهد الحكم الأرضي. ولكي يظفروا بالعهد السماوي، كان ينبغي القضاء على الكنيسة.

* * *

لم يكن يحدث للمرة الأولى أن عضواً من الإكليروس الأدنى يكون متذمراً من حظه، فيتظلم من بأسائه، ويتألم من احتقار العظماء، وهاك المظهر الذي اتخذه هذا الاحتجاج عند أحدهم:

كان جان ميلييه Jean Meslier يعيش في إيتريبيني بمقاطعة شانبانيا، وكان قسيساً خيراً، أو كان على الأقل قسيساً لابأس به إذا حكم عليه بمقتضى الظاهر. وكان من أسرة ذات سعة وكانت قد قدمت عدة علماء من أبنائها إلى الكنيسة. وكان هذا القسيس مثقفاً، وكان الناس يرونه مشغولاً بمطالعة مؤلفات مكتبته، وإعادة قراءتها. حقاً إنه كان بينه وبين مولى الإقطاعية خلافاً، وأنه قد رفض أن يزكيه في الوعظ، وأن رئيس أساقفة رانس قد خطأه، وطالبه بالندم في جلسة عامة. وإذ ذاك صعد على المنصة يوم الأحد الذي تلا هذا الأمر وأعلن مايلي: «ها هو ذا المصير العادي لقساوسة الريف المساكين، فرؤساء الأساقفة الذين هم كبار الأشراف، يحتقرونهم، ولايستمعون إليهم، إذ ليس لديهم آذان إلا للأشراف. وإذن فلنتشفع للسيد دي كليري مولى هذا الإقليم، ولندع له، ولنسأل الله أن يهديه، وأن ينعم عليه بأن لايسلب الأيتام ثروتهم».

من المفهوم أن هذا التصريح لم يصلح الأمور وأن الكفاح غير المتوازي قد استأنف سيره، فقد روى أن ذلك المولى الإقطاعي كان يطلق البوق تحت نوافذ الكنيسة يوم الأحد أثناء وعظ القسيس.

وإذن فلم يكن جان ميليه ذا سجل حسن، ولكنه لما كان مثابراً على تأدية وظائفه، وكان يقوم بعظاته، فإنه قد توفي في سنة ١٧٢٩ دون حادث آخر.

غير أنه ترك ثلاثة نسخ من وصية مفعمة بالسُخْط إلى حد أنه بعد مرور مائة سنة، لا يستطيع أحد قراءتها دون أن ينتفض، لأنها كانت مرارة تنبجس وفيرة، وكتلة من الحقد والمقت هيجها عدم المقدرة، ودعوة إلى التمرد الذي لم يجرؤ ميليه على أن يزاوله في صورة واضحة. ولقد كان اللوم الذي يوجهه إلى نفسه من أجل هذه الوضاعة يدخل جزء منه في عنف الشتائم التي كان يصوبها إلى الدين. وكذلك كان القارئ يحس فيها بالغيظ من أنه ترك نفسه يقاد إلى الحالة الكنيسية، ومن أنه كان يبدو في مظهر القسيس الخير، ومن أنه اضطهد، ومن أنه نبذ كل إيمان وصمت. ولقد كان مائة مرة على أهبة أن يفجر ذلك الغضب الذي كظمه طول حياته، ولكنه لم يرد أن يعرض نفسه لسخط القسس، وقسوة الطغاة الذين لو فعل، لما وجدوا له عذابًا قويًا إلى الحد الكافي لعقاب تهوره.

كانت وصية القس ميلييه تصدر عن اشتهاء السعادة الذي يوجد في قلوب بني الإنسان. ولما كان ذلك الاشتهاء دائماً مخدوعاً، لأن البعض يريد أن يأمر، والبعض الآخر يريد أن يظفر بشهرة القدسية، أي أن هناك سلطتين قد تثبتتا إحداهما سياسية، والأخرى دينية، وعندما تحالفت هاتان السلطتان كان شقاء العالم قد استقر إلى الأبد. وكان الملوك والقسس قد أتموا ظلمهم معاً.

حملت ميلييه موجة من الهوى، فكان يقول إن الأديان ليست سوى تزويرات، وإنها هي المنبع المحتوم للاضطربات والانقسامات والحروب. وإذن فهي ليست من التنظيم الإلهي في شيء، وإن البراهين التي تأتي بها الكاثوليكية لإثبات الميزة الاستثنائية لرسالتها، هي كلها زائفة، وإذن فهي ليست من التنظيم الإلهي. وإن تعاليمها مضادة لتعاليم الطبيعة مادام أنها تجعل الألم مقدساً، ومضادة لتعاليم

العقل مادام أنها تتطلب الاعتقاد، وإذن فهي ليست من التنظيم الإلهي. وأنها تسمح بفقدان النسبة بين الأناس، وإذن فهي ليست من التنظيم الإلهي وأنها تأمر بترتيل عبارة: «أيها المولى «تي ديوم»[1] Te Deum».

لكي تمجد المذابح والمجازر، وإذن فهي ليست من التنظيم الإلهي.

ولقد جعل جان ميلييه يستمر في هذه اللهجة لأن نفسه كانت أقل النفوس رحمة، وأقلها محبة للغير، وأكثرها تعصبًا.، ولو أنه كان يكره التعصب. وإن نداء الإله الذي كان يقيم في قلب أشد القرويين الذين يختلفون إلى كنيسته، تواضعًا لم يسمعه هو شخصيًا ألبتة. إنه لم يعرف قط سوى حرفية الكتب المقدسة، وإنه لم يعرف مطلقًا ما هو الرمزي، ويستطيع المرء أن يعتقد أنه لم يصل ألبتة.

وكذلك يمكن الاعتقاد بأنه لم يعتقد قط أن تطبيق السلطة يمكن أن يتجاوب مع ضرورة اجتماعية. ومن ثم فإنه أعلن أن كل الأمراء والملوك ينبغي محوهم، ولبدء هذا يجب التمرد، ورفض دفع الضريبة، والضرب على رؤوس الوحوش الذين أعطوا أجزاءًا من السلطة وهو في هذا يقول: «إنني أذكر الأمنية التي كان يتمناها في الماضي رجل لم يكن لديه علم ولا دراسة، ولكنه لم يكن ينقص الفطرة السليمة، حسب الظاهر لكي يحكم حكمًا صحيحًا على كل الإفراطات البغيضة وكل الرسميات المقيتة التي أعيبها هنا ... وكان يتمنى أن الأشراف وجميع عظماء الأرض يشنقون ويخنقون بأمعاء القسس». وبعد هذه الكلمات المفزعة، جعل يهتف بأسماء بروتوس[2] وكاسيوس[3] وجاك كليمان[4] وراڤاياك[5] والذين سيكونون على غرارهم في المستقبل كان يأخذ على الإله نفسه تعاسته الشخصية، لأنه كان في نظره هو المسئول الأخير أو بالحري تلك هي الفكرة الزائفة التي كان

---

(١) تي ديوم هو نشيد ديني يرتل في الكنائس للشكر عند الانتصار في الحروب، وقد عزى ابتداعه إلى القديس أميرواز والقديس أوجوستان (المترجم)

(٢)و(٣) و(٤) و(٥) بروتوس وكاسيوي هما قاتلا يوليوس قيصر في روما، وجاك كليمان هو قاتل هانري الثالث ملك فرنسا، وراڤاياك هو قاتل خانري الرابع ملك فرنسا. (المترجم)

الأناسي يتخذونها لأنفسهم عن وجود الإله وهكذا كان ميلييه يعلن أنه ملحد، وعندما وصل إلى أقصى حدو دسخطه وثمل بإهانته للمقدسات، لم يلبث ـ حين لم يبق أمامه شيء يهدمه ـ أن أفاق من ثَمَلِهِ وأصبح لايشعر إلا بحزن وإرهاق وإذ ذاك أودع سره الأخير في ذلك المخطوط الذي أنشأه ونسخه ثم أعد نسخه في بقية أيامه ولياليه الساهرة. وذلك هو السر اليائس لرجل لم يعد أمامه سوى الفناء، وهو في هذا يقول: «وبعد ذلك فكل مايعتقده الناس، وما يحكمون به، وما يقولونه وما يفعلونه مما يشاؤون في العالم، فإنني لا أكاد أنشغل به فَلْيُسَوِّ الناس أمورهم، وليحكموا أنفسهم كما يريدون، وليكونوا حكماء أو مجانين، وليكونوا أخياراً أو أشراراً، وليقولوا عني أو يفعلوا بي بعد موتي فإنني لا أعبأ بذلك إلا قليلاً. إذ إنني لا أكاد أساهم فيما يحدث في العالم وأن الموتى الذين أنا على أهبة الذهاب إليهم، لم يعودوا يتحيرون من شيء ولاينشغلون بشيء، وإذن فسأنهي هذا المخطوط بألا شيء مادمت لاأوشك أن أكون شيئًا، وإني، عما قريب، سأصير لاشيء ...».

* * *

ولم يكن يحدث للمرة الأولى كذلك أن لوثيريًا يهجر إيمانه ويتجه نحو الفكر الحر، وإليك المظهر الذي اتخذه هذا التطور عند رجل من ذلك العصر وهو جوان كريستيان أيديليان «Johann Christian Edelmann»

لم يتخذ جذوره من أعماق القرن السابع عشر بالقدر الذي كان جيانون وميلييه يتخذانه مادام أنه ولد في سنة ١٦٩٨. وأياما كان فقد اتجه بديا نحو السلك الديني، وبعد أن اجتاز عدة مدارس، أتم دراسته الدينية في جامعة بينا في سنة ١٧٢٠، ثم بدأ يعظ، بل قد حدث له أنه كان يعظ ضد الهرطقة السوسانية بحرارة كانت موضع ملاحظة، ولكنه قد احتفظ لنفسه بأسوأ الفكر عن أساتذته إذ ألفى أن ماتعلمه منهم لم يكن يساوي شيئًا، وأن رجال الدين لم يعلموه إلا حماقات مجمعية، وكان سعيداً بأن يفر منهم لأنه لم يكن معجلاً لأن يصير راعيًا. ومن ثم

فإنه ـ لكي يعرف العالم ـ قد انخرط في سلك مهنة المربين. وهنا أيضًا كان من الممكن أن يستقر لأنه لم يكن ينقصه شيء مما كان ضروريًا في مهمته وهو المعارف والسلطة، وحب للاطلاع شديد اليقظة. وكان بينه وبين بعض الأشراف ألفة جعلته سعيداً بأن يستفيد من ملاهيهم كالصيد في الخريف، وكالمراقص والتزحلق على الجليد في الشتاء، ولم يكن يخشى أن يصوب نظراته إلى «كونتة» جميلة لاتلبث أن تنظر إليه بدورها. وكان من الممكن أن تستمر حياته على هذا النحو، ولكنه لم يكن ثابتًا، وإن الثبات بالضبط هو الذي كان ينقصه أكثر من غيره. وفوق ذلك فقد كان محترقًا بالكبرياء.

وقع بين يديه كتاب عنوانه «الكنائس المحايدة وتاريخ الهرطقات» تأليف جوتفريد أرنولد فأحدث في نفسه انفعالاً حاسمًا. وفي الواقع أن أرنولد هو الذي كان محقًا، فالهراطقة هم الذين كان لديهم العقيدة الحقة ولم يكونوا هم الأرتودوكس. وما دام الأمر كذلك فوداعًا أيها المذهب اللوثيري، لكل كنيسة!.

وفي صباح أحد الأيام، وبينما كان في مدينتة دريسد سمع صوتًا يقول له: اكتب حقائق بريئة. ولكي يلبي ذلك النداء الخفي، جلس إلى مكتبه وبدأ كتابة أولى الرسائل التي ستؤلف سلسلة، وكان ذلك للتدليل على وجوب عدم الاكتراث بالأديان.

ولما لم تكن الحقيقة موجودة في الأرتودوكسية، فقد جعل ينقب عنها، وانتسب إلى شعبة «الملهمين» وكان أعضاء هذه الشعبة يجتمعون، ويصلون، وينشدون نشائد تتعلق ببابل، وبسكانها التعساء، ثم يركعون ويسجدون، وينتظرون الإلهام الإلهي. وعلى هذا النحو صلى إيديلمان، وأنشد، وانتظر الإلهام، وكان بين المتحمسين إلى اليوم الذي تعلم فيه كيف يعرف رئيس الطائفة الذي أتى بنفسه ليرى العضو الجديد فأحس بأنه لايحبه. ولاجرم أن الحقيقة كانت لاتزال عند الهراطقة، ولم تكن عند الملهمين.

وفي أحد الأيام استرعت انتباهه في إنجيل القديس جان هذه الكلمة: «إن الإله هو العقل». أي سرور وأي يقين غزاه عندما قرأ هذه الكلمة! إن الإله كان هو

العقل! الإله هو العقل! إن العقل الذي لم يسمع إيديلمان نداءه حتى الآن. وقد فرض نفسه عليه أخيراً بطريقة نهائية. كل ذلك قد مر، كما لو كان قد نقل إلى قمة جبل شاهق واستكشف فيه فجأة، آفاقًا هائلة، أو كما لو كان رقيقًا سجينًا موثقًا، ثم رد بغتة إلى الحرية والنور والشمس، أو كما لو كان باب رمس قد فتح للبعث ولن يكون له بعد الآن مهمة أخرى غير التبشير لعبادة العقل بين الأناسي. وعلى أثر ذلك يقذف بقبعته المثلثة، وشعره المستعار، ويتخلى عن أكمامه الإضافية، ورباط عنقه المصنوع من القماش الرقيق ويرسل لحيته ويرتدي المسوح ويخرج إلى الطريق العام فيكون موضع سخرية الكافة. ومع ذلك فقد كانت هناك جملة لاتزال تشغل عقله إذ تشتمل على فكرة أثرت عن اسپينوزا وهي: «إن الإله هو الجوهر الكامن للعالم» ولذا يرى أن واجبه هو أن يعرف على وجه أفضل، اسپينوزا الذي كان رجال الدين يتحدثون إليه عنه كما يتحدثون عن أحد الجناة. ومن ثم فقد كتب إلى صديق من برلين ليطلب إليه أن يشتري منتجات الفيلسوف حين تمر في فرصة، بأحد البيوع، ولقد كانت مفاجأة جديدة وسرور جديد ينتظرانه في هذا الشأن، إذ أن اسپينوزا ـ فضلاً عن أنه بعيد عن أن يكون أحقر الناس كان هو الوحيد الذي خلع الإيضاح الحق على الأشياء.

ولما كان إيديلمان قد شجعته مطالعة «الرسالة اللاهوتية والسياسية»، فإنه قد شرع في التدليل على زيف الكتب المقدسة، وعلى إزالة النقاب عن موسى، ثم نشر كتابه «ألوهية العقل» في سنة ١٧٤١ .

وفي هذا التاريخ تحدد دوره لأن المجتمع قد لفظه وصار كافراً بأجلى معاني هذه الكلمة، وأصبح ذنبًا من أذناب الشيطان. وقد استولى على كتبه، وأُحرقت، وقضى بغرامة على من يحاول أن يجعلها متداولة. فطفق يتيه في شمال ألمانيا، وانتهى بأن يعود إلى برلين حيث سمح له بذلك على شريطة ألا ينشر بعد الآن شيئًا. وكان ذلك بالنسبة إليه، أشق أنواع الإهانة، وكانت الظلمة التي أمضى فيها سنينه الأخيرة، بلا ريب أيضًا أعظم أحزانه.

# الفصل الخامس

## ضد الدين الموحى

إن الدين الموحى، كان منظوراً إليه على أنه عدو من جانب فلاسفة ذلك العصر الذين كانوا يعتقدون أنهم لن يعملوا شيئًا، مالم يدللوا للمؤمنين على أن هذا الدين لم يستطع البرهنة علي كيانه نظريًا، وأنه لم يظهر وجوده واقعيًا، ومالم يثبتوا أنه منطقيًا، لم يحتمل الاختيار، وأن الشواهد التي كانت يعتمد عليها. لم تكن ـ من الحقيقة التاريخية ـ تستحق الإيمان. ففي الواقع أن الوحي، فيما يرون، يعزى إلى محيط المعجزات، أو أن العقل لايعير المعجزات أو أن الوحي يعزى إلى محيط الما فوق الطبيعي، وأن العقل لايقر إلا الحقائق الطبيعة، وأن العقل عندما يختبر الوحي، يجد فيه تناقضًا، وبالتالي يجد فيه زيفًا. وأن ماهو ديني حقًا في الدين ليس إلا خرافيًا، وبالتالي ينبغي أن يهاجم العقل تلك الخرافات وأن يحطمها، لأنه لاإيمان إلا بما هو عقلي، وأن الإلهي نفسه يجب أن يرتد إلى العقلي. تلك هي الموضوعات التي كانت مطروحة بوجه عام لدى كبار المفكرين في جميع اللغات. ولم يكن عسيراً على الناظر في خريطة أوروبا أن يميز المراكز الأساسية التي صدرت عنها هذه الآراء، وهاكها:

ها هو ذا بديا المظهر للذي قدمته إنجلترا التي كانت مصدر المثل في التمرد منذ زمن بعيد. وكان هناك كثير من الضجيج والفضائح المتتابعة التي كانت كل واحدة منها تبدو قوية إلى حد أنه لم يكن في الإمكان تجاوز ضوضائها. ومع ذلك فقد

تُجُوزت . وكانت هناك سلسلة من المؤلفات المتحدية التي كانت نتائجها تثير في كل مرة السخط والهرج، وكانت هناك طائفة من الأفراد يأتون من أمكنة جد متباينة لكي يتعاقبوا في القيام بنفس التحدي على النحو التالي :

في سنة ١٧١٥، لم يكن تولاند Tolannd» مؤلف كتاب «النصراني» ولا كولينس «Collins» ولا الأخ ثينكير «Thincker» قد انتهوا من مهمتهم بعد ولكن آخرين ـ دون أن ينتظروا ذلك ـ «كانوا يزلزلون أعمدة القسوسة والأورتودوكسية». وأو ل هؤلاء توماس جوردون Thomas Gordon ثم وولستون Wolston وهو رجل كان ساطعًا وفصيحًا، فقد كان أمامه مستقبل جميل. ولكنه قذف بنفسه في محاربة الأورتودوكسية، ثم ميديلتون وقد ربى هو أيضًا في كامبريدج فصار دكتوراً في الإلهيات وأمينًا لمكتبة الجامعة. ثم تاندال Tindall وهو خريج أوكسفورد، وكان أول الأمر قد اهتدى إلى الكاثوليكية ثم عاد إلى البروتستانتية. ثم مرق من البروتستانتية إلى «التأليهية» المقاتلة. وفي الوقت ذاته ظهر بغتة توماس شوب، وهو رجل بدين قصير سيء التربية، يتعذر عليه أن يكتب كتابة صحيحة، وكان صانع شموع بعد أن كان عاملاً في صناعة القفازات. ثم أتى بعد ذلك توماس مورجان Thoinas Morgan، ثم بيتير أنيت Peter Anet وكان هذا الأخير معلمًا في إحدى المدارس. وكاتبًا من كتاب الدهماء... ولقد كان هؤلاء جميعًا يغمرون السوق بنشرهم الساخط أي بهجاءاتهم القصيرة ورسائلهم ومؤلفاتهم العالمة وقد طردوا من أعمالهم، وأحرقت منتجاتهم، وزج بهم في غياهب السجون ولكن ذلك كان عبثًا. وكانوا في كل مرة يشنون هجومًا جديداً ضد الكنيسة الإنجليزية الرسمية ودرجاتها ودخلها، وضد كل كنيسة، وضد المعجزات، وضد التأويل الذي أتى به الإنجيل عن حياة المسيح، إذ أن هذه الحياة ليست سوى رمز للحياة الروحية وللبعث الخلقي لكل فرد، وعلى الأخص ضد الوساطة الإلهية. وفي الواقع إن أساس الدين كان إما الاتساق الأخلاقي بين الأشياء وأما الإرادة الإلهية الاستبدادية، فإذا تطابقا الإله مع الاتساق الأخلاقي كان حكيمًا وخيراً، وإذا كان

له إرادة استبدادية فإنه لايكون حكيمًا ولاخيراً، وإنما هو يجري اختياراً خاضعًا للهوى بين الخير والشر، ولكن الإله بإذعانه للاتساق الأخلاقي للأشياء تصير وساطته عبثًا، لأن الإنسان المزود بملكة الفهم، يصل بنفسه إلى تمييز الخير من الشر وإلى شرعية الخضوع لقاعدة الاتساق الأخلاقي بين الأشياء. وإذن فينبغي الرجوع في ذلك إلى الدين الطبيعي، مادام أن المسيحية لايفترض أنها ضرورية إلا في الحالة التي يفترض فيها الإله غير معقول أو شريراً.

ولقد كانوا يهاجمون الحصن من جميع الجوانب، فهذا يتشبث بأن يبرهن على زيف العهد القديم، وذلك كان يقول إنه ينبغي أن يعزى إلى القديس بولس الدور الذي احتفظ به للمسيح. و "آخر كان يثبت التشابه الدقيق الذي كان يعتقد أنه يراه بين الكنيسة الرومانية، والوثنية. وآخر أيضًا كان يتهم داوود ـ وهو الرجل الذي كان كما يود القلب الإلهي ـ بأنه لم يكن سوى مجرم مهين. وبالإجمال كانوا كلهم يحلون العقل محل الوحي.

ومن الممكن أن تكون أكثر الرسائل دلالة في هذا المعنى، هي رسالة تاندال التي عنوانها: «المسيحية قديمة بقدم الخلق، والإنجيل ليس سوى نشرة جديدة من قانون الطبيعة»(١٧٣٠).

جعل تاندال يشرح في هذه الرسالة أنه ليس في الإمكان أن يكون غير ذلك الإله الكامل قد منح العالم قانونًا كاملاً وأنه لايسمح لا بإضافة ولابإنقاص ولابتغيير ـ ومن ثم فإن القانون المسيحي ـ ومن الممكن أنه كان مفيداً في وقت ظهوره لإعادة المعنى الذي كان قد ضعف في الدين الطبيعي ـ لم يكن يستطيع إيجاد جوهر جديد، ولم يكن يستطيع أن يكون سوى إعادة للقانون الأول الوحيد. وأن فكرة الوحي هي غير قابلة للإدراك، وخطرة ومنبع الخرافات والإفراطات التي آن الأوان للرجوع عنها بفضل التربية الفلسفية التي حلت محل التربية الدينية.

انطفأ هذا الحريق حوالي سنة ١٧٦٠ وكان قد بدأ يخبو منذ سنة ١٧٤٠

تقريبًا . وفي هذا التاريخ كان الجو قد تغير في إنجلترا فالرأي العام قد تحول ونمت في النفوس قوى أخرى غير قوة العقل التي أهانت الدين .

بيد أن هذه الفكرة العنيفة قد استمرت في تغذية الأجانب ، ففولتير قد استكشفها وانتفع بها في سعة ، والبارون دي هولباك «d'Holbach» نشرها بوساطة تراجمه . ولكن تأثير المؤلهين الإنجليز كان أكثر بروزاً في الفكر الألماني كان ينقب عندهم عن قوة دافعة بدلاً من التنقيب عن نصوص وشهادات وعلائم على الجرأة وعدم الاحترام وكانت منتجات أولئك المؤلهين في مكتبات المؤرخين والشراح وكان الأساتذة يقدمونها إلى الطلاب ليدرسوها ، وكانت توجد في تقارير المجلات العالمه ، وكان الألمان الذين يرتحلون إلى لوندن يطالعونها في مكانها . ومن ثم فإنه في سنة ١٧٤١ حين قام جوان لورانز شميت ـ وهو الذي أراد أن يخضع التوراة للعقل ـ بترجمة كتاب تاندال الذي عنوانه : «المسيحية قديمة بقدم الخلق» يمكن أن يقال أن التيار الآتي من إنجلترا قد انضم إلى تيار الفكر الألماني ، ولم يكن ذلك لكي يمتزج به ، بل ليعجل بنتائجه .



أما الفرنسيون فقد كانوا يسلكون نهجًا آخر إذ لم يورطوا أنفسهم في دراسات تأويلية ، ولا يكاد المرء يرى بين الكتاب المعروفين مؤلفًا قد انحنى على النصوص المقدسة أو أتعب نفسه في أن يتعلم اللغة العبرية أو حتى الإغريقية أو تعلم النقد بصورة جدية ، وإنما كان حسبهم أن يجمعوا ، في مؤلفات مختلفة ، الحجج التي كان يبدو لهم أنها ناجعة وكانوا يستعملونها ، حقًا إنهم كانوا يهدفون إلى بيئة غير بيئة العلماء وهي الطبقة العالية ، والمتوسطون ، والنساء ، والسواد الأعظم ؛ وكان الحكم الذي يلجأون إليه غالبًا الفطر السليمة وكانوا يتعمدون أن يصطدموا بالعقبات ، على طريقتهم الحية السريعة ، لكي يبينوا أنها غير قابلة للتذليل . ولم يكونوا يستعملون مبهمات ميتافيزيقية ، ولابحوثًا طويلة قمينة بإيآس

القراء ولا بسطًا لسعة الاطلاع، بل كان لديهم إنشاء معتنى به، وأسلوب لطيف وصورة نشيطة.

كانوا ـ بفضل وضوحهم ـ يمنحون جميع الموضوعات مظاهر بساطة ساطعة. وكان المرء يلمح خلف ظواهرهم المازحة، الشواغل الجدية الدائمة التي كانت تقيم في أعماق أفكارهم، ففولتير مثلاً كان قد عاد من إنجلترا وجعل يروي استكشافه، وكان من الممكن ألا تكون قصته سوى وصف لرحلة بعد أوصاف كثيرة أخرى، مع تعمق أشد ونكت أكثر. غير أن هذه الرسائل الإنجليزية لم تلبث أن صارت رسائل فلسفية تعالج حرية المذاهب، وعدم الاكتراث بالأديان، وبذلك الأمر التافه المتعلق بخلود النفس كما يقول المؤلف. كتب مونتيسكيو تاريخًا رومانيًا بعد كثيرين آخرين، وبمناسبة إحدى الحالات الخاصة، استبدل الإرادة الإلهية بأسباب داخلية، لكي يشرح عظمة الدول، وتدهورها، أو ألف كتابًا قانونيًا ولكن الذي عرض له في هذا السفر هو سلطة الحق الإلهي[1].

ولقد كان الأمر كذلك بالنسبة إلى كثيرين من مؤلفي الطبقة الثانية، فتوسان مثلاً قد درس طباع عصره. ولكنه، بدلاً من أن يصور مجرد مظهر للمهزلة الإنسانية الخالدة كانت دراسته تنعطف نحو فصل الأخلاق عن الدين. وهيلفيسيوس قد درس الإنسان، ولكن بلا سر ولاغد.

كان الكتاب الفرنسيون أكثر عددًا منهم في أي بلد آخر، وكانوا رغم منازعاتهم، يتكتلون ضد العدو المشترك وكان بين طوائفهم كثيرون من ذوي المواهب، وبعض العباقرة. ولاجرم أن الأخ توماس والأخ جريتري والأخت نيكير والأخت دي ليسبيناس، والأم جوفران «Mme Geoffrin» ـ كما كان جريم يدعوهم في عظته الفلسفية التي ألقاها في سنة ١٧٧٠ بمناسبة عيد رأس السنة ـ

---

(١) يقصد المؤلف بالحق الإلهي (تلك العقيدة العتيقة التي كانت سائدة في العصور الوسيطة وهي أن الملوك كانوا يتلقون سلطاتهم من الإله مباشرة). (المترجم)

كانوا، لأقل إشارة، وعند الحاجة إليهم، يهبون للمساعدة. وكان تقدمهم يلاحظ بوساطة أحداث رنانة كانوا في كل مرة ينهزمون فيها عن طريق السلطة العامة وينتصرون أمام الرأي العام. وذلك مثل رسالة الأب دي يراد، وحظر دائرة المعارف، وإدانة الكتاب الذي عنوانه «الروح» ورقابة السوربون ضد رواية «بيليزير» تأليف مارمونتيل الذي كتب إلى ممثل كلية اللاهوت مايلي: «اعترف يا سيدي أنه يحكم على حسب روح عصري أكثر مما يحكم حسب روحي الخاصة».

كان الناس يتتبعون كل تلك المجادلات بالفضول الذي لا يفتر والذي كانت أحداث فرنسا تثيره، لأن الناس في الواقع كانوا يشعرون بأن روح العصر ـ وهي الممثلة في شعب ليس له هوى أكثر حرارة من هوى الفكر الواضحة ـ كانت هي المقصودة في كل مرة.

وكان أولئك الكتاب يدعون لمعونتهم كل من كانوا في المكان أو في الزمان. قد أظهروا أن الناس يستطيعون أن يحيوا حياة حسنة دون أن يعرفوا الدين الموحى أو الذين لم يتمردوا قط ضد أي دين كان، وكانوا يستشهدون على ذلك بالصينيين والمصريين والمسلمين، أما الإغريق فقد كانوا يتطلبون منهم في الوقت ذاته صورة سقراط وصورة إيبيقور، ومن اللاتين كانوا يستعيرون لوكريس ذلك الحواري، وشيشيرون ذلك الحتمي، والمبشر الذي عرف كيف يرى أن عبادة الإله هي عبادة العقل العام. وأخيراً سينيك الفيلسوف. وكانوا يبعثون جوليان الصابيء حين كانوا يترجمون خطبته ضد المسيحيين، وكانوا يلعنون كونستانتان الذي كانوا يدعونه بالأمبراطور الشرير الذي كان يسخر من الإله والناس، وكانوا يثنون على كبار العقليين الإيطاليين الذين، والحق يقال، لم يكونوا يعرفونهم معرفة جيدة. ولكن كان من المفيد ومن المجد أن يسردوا أسماءهم: كجيوردانو برونو وكاردان وكامبانيلا وبومبونازي وخلفهم ڤانيني Ciordano Bruno, Cardan, Campanlla, Pomponazzi, Vanini وكل أولئك كانوا من أحرار الفكر الذين تألموا من أجل

قضيـــة الحق. وكذلك كانوا يـــشنون على أحــرار الفكر من أسلافهم، وعلى الإنجلز جيرانهم.

أما «الضـــديات» فقد كانت عندهـــم تســـتأنف بلهجـــة أخرى، على النحو التالي:

ضد الوحي الأول، وضد اليهود ذلك الجنس الحقير غير الجدير بالرسالة المقدسة؛ وضد التوراة التي كانوا يعتقدون أنه من تلفيق إدريس وضد العهد القديم، وضد المعجزات، وضد شهودها، وضد الأنبياء الذين لم ينطقوا قط إلا زيفًا[1] بل لم يكن في نيتهم أن يدعوا النبوة، وضد «چيوڤا»[2] الحقود القاسي الظالم الذي لم يكن مافيه من خير إلا آتيًا من الأجانب أي من شعوب شرقية أكثر تقدمًا في المدينة، وضد الإنجيليين أولئك الصيادين المساكين الجهلاء، وضد الإنجيل بل ضد شخص المسيح، وضد الكنيسة، وضد تعاليمها، وضد الأسرار، وضد فكرة الخطيئة العنصرية التي تدعى أنها دمغت جميع أبناء آدم، وضد أنظمة، الكنيسة، وضد السر والتعميد والاعتراف والصلاة، وضد الرهبان والراهبات، وضد القسس، وضد البابا، وضد الأخلاق المسيحية، و ضد القديسين، وضد الفضائل المسيحية، وضد محبة الغير، وضد المدنية المسيحية، وضد العصور الوسيطة وهي عصور الجوتية المظلمة، وضد الحروب الصليبية ذلك الجنون.

وكانو يخترعون رسومًا كاريكاتورية، وعظات، وحكايات إباحية، ونكتًا داعرة، لأن طرفًا من الفجور كان يمتزج بمجادلاتهم في سهولة. وكانوا يتخذون بغتة خطة آباء الكنيسة ليلوموا على المسيحيين أنهم لايعيشون حسب قانونهم الخاص، وبعد ذلك بلحظة كانوا يسخرون من هذا القانون.

وقصارى القول أنهم لم يكونوا يتركون شيئًا للمسيحية، ولا أثرًا آخر في

---

(١) يقصد أولئك المتمردون أنبياء بني إسرائيل الذين وردوا في العهد القديم. (المترجم)

(٢) چيوڤا هو إله العهد القديم الذي أحيط بأوصاف أدنته في نظر أولئك المتمردين، من البشر الذين يقسون ويحقدون. (المترجم)

التاريخ سوى أثر سوئها، ولا قيمة يمكن نقاشها فحسب، بل حتى ولا مظهر فضيلة.

* * *

وفي ألمانيا تحققت نفس الغاية بوساطة تطور أكثر تأخرًا، مادام أنه كان ينبغي الانتظار إلى أوائل سنة ١٧٨٠ لكي يظفر بنتائجه الجوهرية، وأشد تعقيدًا أيضًا لأنه كان مزدوجًا، أحد طرفيه يتصل بطبقة الأشراف، ومصدر جزء كبير منه، هو البلاد الأجنبية وآخر عميق وهو يتصل بنفس كيان الوجدان اللوثري.

وفي الحق أنه إذا كان الأمر يتعلق بحالة وحيدة من نوعها، فإنه يكون من المتوغل في الغرابة تلك الدعوة التي وجهها ولي عهد پروسيا للمرة الأولى إلى ڤولتير في رسالته التي بعث بها إليه في شهر أغسطس من سنة ١٧٣٦ ليطلب إليه فيها أن يكون مرشده وأستاذه.

غير أنه في الواقع - في وسط التخمر العام، وفي وسط الاحتياج إلى التجديد الذي كانت ألمانيا تشعر به - كانت برلين قد اتجهت فعلاً نحو البلد الذي كان يمثل المدينة بكل ماكان فيها إذ ذاك من أشد الأشياء عصرية، أي نحو فرنسا، وليست برلين فحسب بل كل الدولة، لأن الأمراء والنبلاء - على نفس النحو الذي كان آباؤهم ينظرون به في إعجاب إلى ڤيرساي - كانوا ينظرون إذ ذاك إلى باريس بنفس الإعجاب. ولنذكر مثلاً ذلك التغيير الذي حدث في حياة ڤيلاند الشاب، فإنه كان بديا يتجه إلى العاطفة، وكان يتبع مدرسة سويسرا التي كانت توصيه بحب الطبيعة وبشعر القلب، ثم لم يلبث أن تغير فأدار ظهره لأصدقائه القدماء؛ واتجه نحو الأنوار، وذلك لأنه كان يختلف إلى قصر ڤارتوسان الذي كان سيده الكونت أستاديون قد علمه اللهجة الشائقة إذ ذاك؛ وقال له إن من المهم أن يفكر المرء وأن يكتب كما يفعل الناس في فرنسا، إذا كان يريد أن يكون على ذوق العصر. وتحت هذا التأثير وجد ڤيلاند الحقيقي نفسه أي ڤيلاند الڤولتيري.

وفي بعض الأحايين، عندما يقرأ الإنسان سفر أحد كُتّاب حركة الأنوار، يخيل إليه أنه يسمع صدى، لأن الموضوعات التي يرددها المؤلف الألماني قد

عوجلت بالفعل في لوندن وباريس، فنحن نشاهد مثلاً أن في الكتاب الذي نشره في سنة ١٧٥٠، ميكائيل ڤون لون ـ وهو ابن تاجر ثري، وأحد أفراد المجتمع العالي ـ والذي في سنة ١٧٥١، لحذره من المترجمين، قد عنى بأن ينقله هو نفسه إلى الفرنسية.

في هذا الكتاب الذي عنوانه «الدين الحقيقي، الوحيد في نوعه، العالمي في مبادئه الذي أفسدته منازعات رجال اللاهوت وانقسم إلى عدة مذاهب اجتمعت في المسيح» أعلن على القراء مايلي: «لاينبغي أن يدهش المرء من أن يرى أنني أدرس المسألة الدينية دون أن أنتسب إلى الكنيسة، لأن الموضوع يعني كل مسيحي، ويهم الصالح العالم والسعادة البشرية. وإذا نظرت في تاريخ الشعوب القديمة فإنني أجد في كل مكان تصورات بسيطة وعامة، بإزاء الفضيلة كما بإزاء ذلك الذي يدعى بالإله. أجل إن الإله يبدو في الطبيعة وبوساطة الوحي، وإن حقيقة واحدة هي نفسها التي تربط بين أحدهما والآخر، وإنه لايمكن أن يوجد بينهما تناقض أو اختلاف لأن الوحي لوكان يناقض قانون الطبيعة أو يختلف معها لكان خارجاً عن الحقيقة. وكذلك الفضيلة هي من نوع فريد تتلخص في أمر لم يتغير قط وهو: «أحبَّ المولى إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك وبكل قوتك، وبكل فكرك، وأحبَّ غيرك كما تحب نفسك» ولاجرمك أنه لايوجد شيء جوهري جديد في هذه الطريقة من طرق التعقل، وأن بضعة مؤلهين على شواطئ التاميز والسين كان من الممكن أن يوقعوا على هذا السفر.

ولكن الذي لم نره، والذي لانستطيع أن نراه هو ذلك العمل الصبور الذي قام به العلماء الذين اختبروا نص الكتاب المقدس، والذين لايزالون يبتعدون شيئاً فشيئاً عن الإدراك الأورتودوكسي للوحي. وكم من أبناء الرعاة الدينيين ـ بعد أن تابعوا دروس المدرسة الثانوية المجاورة لبلدهم، وبعد أن انتسبوا إلى الجامعة ـ قد صاروا دكاترة وأساتذة وطلبوا إلى علم تفسير الكتاب المقدس أن يؤيد أو يهدم عقيدتهم.

كانوا يعرفون اللغة العبرية، وكانوا يعرفون إلى جانب ذلك بضع لغات

شرقية أخرى، وكانوا يكتبون بحوثًا ورسائل ومجلدات ضخمة للمختصين إخوتهم. ولم يكونوا يقذفون الدين بالإزدراء الملقى على عواهنه، بل كان لديهم، على الضد من ذلك احترام ثابت وأسف بل أمل في أن العقل ـ أمام كثرة المنشقين وكثرة الفاسقين ـ سيقدم مبدأ للحكم الذي يقود إلى الوحدة المفقودة.

ذلك هو مايدعى «أوفد كلارانج» أو حركة الأنوار في الجامعات الألمانية، وكانت أكثر علمًا وأدنى إلى الاعتدال من التمرد الإنجليزي الذي كانوا يقبلون منه بعض المبادئ، ولكنهم كانوا يستهجنون منه الاستشاطات. ولقد كانت هذه الحركة أقل إيغالاً في عدم الاحترام من حركة الفرنسيين التي كان الألمان يقبلون معونتها ولكن روحهم ومزاجهم يبدوان أنهما ناشئان عن سوء الذوق، «فسيجموند جاكوب بومجارتان» مثلا قد صار في سنة ١٧٣٠ أستاذًا مساعدًا، ثم في سنة ١٧٤٣ أستاذًا عاديًا للإلهيات في جامعة هال، وكان الطلاب يستمعون إليه ولم يكن ذلك لسحر تعليمه ـ لأن لهجته لاتتغير، وصوته ضعيف ومحاضراته متعبة في اتباعها ـ بل لكرامته الشخصية، ولسعة اطلاعه العجيب. وكان كثولف ينطق في ثمل كلمة العقل الذي يجب أن يقدم إليه مفتاح المسيحية النقية. ومن ثم فإنه يعلن أنه يتجه إلى عقلاء القراء وإلى المسيحيين، وكان يزاول مهمة التعليم ثم كتب تاريخًا للكنيسة كان في نظره يجب أن يكون قصة معتمدة على النصوص ولكن معتمده هو النص كما هو، وليس كما يفترض أنه يجب أن يكون، ذلك هو قانونه، وقد جعل يبدي بإزاء الهراطقة اهتمامًا دائمًا دون أن يصل مع ذلك إلى حد التفضيل الذي كان أرنولد يظهره نحوهم، وقد كتب هو أيضًا تاريخًا للهراطقة عنوانه: «هيكل لتاريخ الأحزاب الدينية أو جمعيات الخدمة الآلهية، واختلافاتهم وانقساماتهم في خارج المسيحية وداخلها»[1] ولقد درس منتجات الهراطقة في مجلتين نشرهما Nachrichten voneiner Hallischen Bibliothek (1748-

---

(1) s.JBaumgarten, sbris einer Geschichte der Religions Fartheyen, oder Gottes- dienstliahen gesellechafien und der selben Streitigkiten so Wohl als spaltungen, ausser und in der Christenheit (1775).

1751),Nachrichten von merkwurdigen Bucher (1752-1758) وكانت تلك المنتجات عشرين مجلدا، فما هي تلك الكتب التي نبش عليها فاستخرجها إذا لم يكن أكثرها كتب زندقة؟ حقًا إنه ينقضها، وحقًا إنه يعين المؤلفين الأخيار الذين ينبغي إبداء تعارضهم مع أعداء الدين ولكنه يبقى مع ذلك أن المؤلف كان يحيى في الرفقة العقلية، مع أولئك الذين كانوا يريدون تدمير الدين.

لنتخيل أننا دخلنا القاعة التي يعلم فيها زميله كريستيان بينيديكت ميكائيليس، حيث كان هذا الأخير يشرح سيرة النبي ارميا «Jérémie»[1]، فيقول إن أول شيء يجب عمله لفهمه جيداً هو وضعه في عصره، لأن الظروف الزمانية هي النور الذي يوضح النبوة. وبين هذه الفكرة وفكرة اعتبار النبوة كأنها واقعة تاريخية بسيطة تنشأ بلا تدخل للعناية الإلهية لايوجد بون شاسع. أو كان يشرح العهد الجديد كما لو كان الأمر يتعلق بهيرو دوت أو بوليب[2].

نعم إن العهد الجديد يقدم إلينا عدة روايات وذلك جد طبيعي إذا فكر المرء أن مؤلفيه كانوا ملهمين بلا ريب؛ ولكن أولئك الذين نسخوا نصوصهم لم يكونوا كذلك؛ وعن هذا نجم كثير من الأخطاء المرادة أو غير المرادة، والتي يمكن أن تصل إلى حد الخداع. ولكي يختار المرء بين هذه الروايات ينبغي له منهج. وعند ميكائيليس أن روايات آباء الكنيسة أقل قيمة من روايات المترجمين؛ وأن روايات المترجمين أقل قيمة من روايات النصوص لأن نفس قوانين العلم التي هي مشروعة بإزاء المؤلفين العاديين، هي مشروعة أيضًا بالنسبة إلى المؤلفين المقدسين.

ذلك مايقوله أيضًا أوجست إيرنيسيتي Johan. August Ernesti فقيه ليزيج اللغوي، أو العالم اللاتيني الشهير الملقب بشيشرون الجرماني إذ يعلن أن كل نص له معنى واحد لاعدة معانٍ أي لايوجد معنى مجازي وإنما يوجد معنى محدد يتعلق بالاستعمال لأن الصلة بالاختصار بين الألفاظ والمعنى هي تأسيس إنساني؛ وهي

(١) Ch. B. Michaelis S. Théologiae ac ph prof. Halensis prolegomena in Jéremiam, Halae Magdeburgicae, 40 éd. 1733

(٢) D. Ch. B. Michaelie... tractaico eritica De Varlis lectiouibus sevi testamenti caute colhigendis et dijudicantis, Haiae Magd, 1749.

خاضعة للاستعمالات البشرية لالشيء آخر؛ وإذن فالمسألة مسألة قواعد نحوية، والكتب الإنسانية؛ والكتب المقدسة؛ يجب أن تعامل بطريقة واحدة. ومن ثم فإن الكتب المقدسة لايمكن أن تفهم من الحيثية الدينية، إذا لم تكن قد فهمت من الحيثية النحوية: nullus alius sensus est nisi grammaticus, eumque grmmatici tradunt. وبالتالي يجب أن يكون النقد لغويًا أو لايكون ألبتة[1].

حقًا إنها لعجيبة عقلية أولئك العلماء، لأنهم كانوا يعدون أشد أنواع الجرأة دون أن يعترفوا بذلك حتى لأنفسهم، وإنما أخلافهم هم الذين رأوا في وضوح، نتائج أعمالهم لأنهم هم أنفسهم كانوا لايزالون يرتبطون بالتقاليد، ففي الواقع أن شغف بومجارتان بالاطلاع، وعمله التاريخي والعلمي لم ينتهيا به إلى القطيعة مع الدين الموحى، إذ أنه محافظ بالعادة وبالمزاج، وبالإرادة، وهو مجدد فقط بالطرف النهائي من عقله، وأن ايرنيسيتي - ولو أنه ينصح كما رأينا آنفًا باستعمال أضيق المناهج اللغوية - يعتبر، ولكن لا بلا تناقض، أن ذلك المنهج يجب ألا ينسي صاحبه، الوحي الإلهي، ولا العصمة من الزلل التي هي نتيجة ذلك الوحي. ولقد وصف لنا رجل الدين الكامل بأنه هو الرجل الذي يستطيع أن يقوم بدورين في الوقت ذاته أحدهما يشترك فيه مع النحويين، والآخر خاص به ولايعزى إلا إليه. ولاجرم أن هذه الجملة تترجم عن إرادة تحتفظ بالاعتدال الذي كان مؤلفون آخرون يعتبرون أن من المستحيل الاحتفاظ به، لأن النقد قد انحل عقاله، فجوان داووذ ميكئيليس، كان ابن كرستيان بينيديكت، وكان أستاذًا في مدينة جوتانجان، كما كان والده أستاذًا في هال، ولكنه كان أستاذًا للفلسفة لا للاهوت، لأن أستاذ اللاهوت لم يكن به بد من أن يخضع لاعتراف أوسبور[2] «La Confession d' Augsbourg» وذلك هو مالم يكن يريد أن يفعله.

---

(1) To Augusti Ernesti Institutio interbrets novi Testamesti ad usus lectionum, 1761.

(2) إعتراف أسبور هو عرض مشهور كتبه ميلنكتون تلميذ لوثير وهو يحتوي على قواعد عقيدة اللوثيريين مصوغة في ٢٨ مادة وقد قدمت وقبلت بصورة رسمية في سنة ١٥٣٠. (المترجم)

كان مخلصًا إلى حد الوسوسة، ومستقلاً إلى درجة أنه أراد إعادة تشييد جميع المناهج العلمية بنفسه، وكان نحويًا ولغويًا ومؤرخًا وشارحًا للكتب المقدسة وقد منح الدراسات الشرقية ثوبًا جديدًا، وقد أثبت بطريقة قاطعة، ماكانت مدرسته تطالب به للعلم. وفي سنة ١٧٥٠، طبع مقدمة عن قراءة كتب «العهد الجديد»(1)، ثم تناولها فنقحها وأضاف إليها، واتجه بها إلى طبعة رابعة في سنتي ١٧٨٧ و١٧٨٨. وهو يقول إن مسألة وحي كتب العهد الجديد هي أقل أهمية من حقيتها. وأنه - حتى إذا كانت الأولوهية لم توح كتابًا واحدًا من هذه الكتب وحتى لو لم يكن للحواريين وللإنجيليين عون آخر سوى كتابة ماكانوا يعرفون - عندما تقبل كتبهم علي أنها حقيقة، وعلى أن لديها درجات كافية من مقتضيات التصديق، يكون الدين المسيحي لايزال هو الحق، لأن المرء يستطيع أن يرتاب في وحي «العهد الجديد» بل يستطيع أن يجحده وأن يكون مقتنعًا بحقيقة، إذ في الواقع أن هذا الحدث التاريخي يظل قائمًا، وأن عدة أشخاص قد صرحوا علنًا بهذا الرأي، أو أنه كان لديهم بنوع خاص، وأن من الظلم وضع أولئك الأشخاص في صف الذين لايصدقون شيئًا وإذن فيجب ألا يحسب في عداد الكتب المقدسة سوى الكتب التي يمكن إثبات أنها كتبت حقًا بوساطة الحواريين، وعلى أثر وضع هذا المبدأ هو يميز بين فريقين، فأما كتب الفريق الأول منهما، فهي تحمل أسماء الحواريين وهم متى ويوحنا وبولس وجاك وجود، وأما الكتب الأخرى فلم يكتبها الحواريون بل كتبها أعوانهم وأصحابهم وهي إنجيل القديس مرقص والقديس لوقا وأفعال الحواريين، ولم يكن ميكائيليس، ينبذ كتب الفريق الثاني عندما شرع في دراستها، ولكنه بقدر ماكان يتعمق في الموضوع، وكان يشبهها بكتب الفريق الأول، كانت شكوكه تتزايد في قوة، وفي الطبعة الثالثة من كتابه، كان لايزال يقدم حججًا لهذا الرأي أو عليه، لأنه لم يكن موقنًا بالنتيجة التي كان يجب أن ينتهي إليها. وفي الطبعة الرابعة مال

---

(1) J. O. Miehaelis, Einteitung in dic Gottichen Schrffen ues nuen Bundes.

إلى الجحود، لأنه إذا لم تكن هذه الكتب حقيقية فينبغي نبذها. ولاتستطيع إذ ذاك سلطة الكنيسة، ولا الشعور الباطني للوجدان، ولا يعض خصائص النفعية الخلقية، أن تتخذ عونًا ضد هذا النبذ، مادام أن المسألة مجرد مسألة أسس واشتقاق، وتاريخ. وإذن فقد أقصى ج. د. ميكائيليس إنجيلي القديس لوقا والقديس مرقص، وعندما فعل ذلك شعر أنه قد أفاد المسيحية، لأن تفكيره كان على النحو التالي: إن الاعتراضات الجوهرية التي يثيرها خصوم الدين ضد الإنجيل؛ تتجه إلى القديس لوقا، فاهجروا القديس لوقا. وكذلك القديس مرقص فهو معرض لنفس الشكوك، فإذا فعلتم فإنكم ستنزعون سلاح أولئك الخصوم، بانتزاعكم منهم إمكان إبداء التناقضات التي لايمكن في الواقع محوها نهائيًا.

وختامًا إليك هذه الحالة الأخيرة التي أصيب فيها جوهر المسيحية نفسه، وغُيِّر بوساطة أحد رجال الدين وهو چوان سالومو سيلمير الذي كان يحسب أنه عزي إليه ما هو منه براء، وسُب عندما كان يقال له إنه لم يعد مسيحيًا حقًا.

كان چوان سالومو سيملير هو التلميذ ذو الحظوة لبومجارتان الذي طالما أبدى نحوه إعجابًا واعترافًا بالجميل. ولقد سلك نفس الطريق الذي سلكه أستاذه، مادام أنه قد صار في سنة ١٧٥٢ أستاذًا للإلهيات في جامعة هال، وأنه كان جريئًا وساطعًا، وأن صوته كان يجلجل قويًا في المناقشات العظمى في عصره. وعنده أن الدين هو خلقية، وأن تاريخه هو تاريخ التحسن الخلقي للإنسان. وأن الدين هو حياة باطنية تتفاوت شدتها حسب صفة الفرد. إنه نبع متفجر، وقوة تلقائية، وقوة حرة، فإذا تدخلت فيه من الخارج، لتنظمه، فإنك تفسد طبيعته، وتحد انتشار قوته. وإن السلطة هي عدوته الكبرى، ومع ذلك فماذا يصنع الدوجماطيقيون؟ وكيف يفعل رجال الدين؟. لاجرم أنهم يعملون في اتجاه مضاد لأن أولئك القوم ذوي النظر القصير، قد فصلوا من الزمن، هنيهة عابرة، أو واقعة انتقالية. ومن ثم فإنهم ـ في مدنية مقضى عليها بالفناء أي في الدين اليهودي وفي الدين المسيحي ـ

قد أرادوا أن يروا الدين الوحيد، وقد طبعوا قيمه النسبية بطابع مطلق. وتلك كانت كبْوَتهم، لأنهم، من تعبير معين عن العاطفة الدينية، قد صنعوا الدين الثابت، ومن صورة محلية، قد انتزعوا قانونًا بلا استئناف أعلنوا أن هو الشرعي الوحيد لجميع الأزمان وجميع الأصقاع. وبالإجمال، مما كان يجب أن يتغير، قد صنعوا مالا ينبغي أن يتغير ألبتة، كما لو كانوا قد فرضوا على جميع الأجسام إلى الأبد ملابس جعلتها بدعة اليوم صالحة للاستعمال، وستذهب بها بدعة الغد، كذلك فرضوا على جميع النفوس هذا الارتداء الذي لايلبث أن يصير نوعًا من التنكر، وكانت تلك عملية مشئومة فيما يقول سيلمير لأنهم قد أخمدوا بها جوهر العقيدة تحت كومة من القواعد والطقوس. ولقد حولوا إرادة الخير التي هي القوة العميقة للعقيدة، إلى أفعال عملية خارجية، وإلى طقوس فات أوانها. ولقد وصل أعلام الكنيسة أولئك بهذا، إلى حد أن خلعوا على لاهوت محلى أو على مظهر فرضي أو على نظام اجتماعي مدين بوجوده إلى ظرف معين، منزلة الايمان المطلق وميزة جَعْلِها الشرط الوحيد للنجاة.

لم يكن سيلمير يحسب نفسه زنديقًا، وكان يعتقد أن المسيحيين الأردياء هم لاهوتيو المدرسة القديمة أو الأورتود وكسيون الذين كانوا يسمحون لأنفسهم بأن يقصوا من جماعتهم هذا الهرطيق أو ذاك، كما لو أن الهرطقة هي نفسها لم تكن رداءاً عابراً للعقيدة، أو مظهراً حائلاً من مظاهر الإيمان الأبدي. . وعنده أن أعداء المسيحية هم الذين جحدوا كل فكرة عن الوحي الذي كان واقعة، أبرز سيلميز معناها الحقيقي، وهو اتصال بين الله والإنسان مجدد بلا انقطاع. وكان يظهر، باسم النقد، كيف يريد أن يفهم هذا الاتصال منذ الآن، وكان يجتهد في دراسة للعهد الجديد، وكان يجزم بأنه لايوجد سبب عميق لكي يحتفظ المرء ببعض النصوص أو أن ينبذ البعض الآخر، ولايوجد سبب للتمييز بين تلك النصوص مادام أنها جميعها تمثل إلى حد ما، صورة محلية ومؤقتة، من صور العقيدة، قابلة للشرح من الحيثية التاريخية.

وكذلك كان يجتهد في دراسة العهد القديم حسب أضيق المناهج التي كان يعتقد أنه يطبقها بلا أي تحيز، وقد حكم بأن الأمر في هذا الكتاب يتعلق بإنتاج قومي يهودي بلا أي تحيز، وقد حكم بأن الأمر في هذا الكتاب يتعلق بإنتاج قومي يهودي، ولاشيء أكثر من ذلك، وبأن التوراة لم تكتب لتوحي دينًا، مادام أنها قد اشتملت على توكيدات متعارضة مع حقائق الوحي الأزلي، الذي كان يرجع إليه دائمًا. ولم يكن إله اليهود، في رأيه هو إله الطبيعة، ولم تكن الفضيلة اليهودية هي الخلقية التي تنبثق من نواميس الطبيعة، إذ أن اليهود لم يكونوا يؤمنون بخلود النفس، وأن هذه الفكرة لم تأت إليهم إلا متأخرة وبعد تأثيرات أجنبية أي بعد أسْرِ بابل وفارس. وإذن فمن الاتجاهات المضادة للواقع، أن يراد تقديم التوراة على أنها هي الحقيقة والحياة مادام أنها صورة أو انعكاس له من القيمة، ماللكثير من الانعكاسات الأخر التي يمكن أن يلتقي بها المرء أثناء صعوده خلال تيارات العصور، كما هي الحالة عند الوثنيين مثلاً، لأن أولئك الوثنيين قد مثلوا هم أيضًا آنًا من آوان الوحي الأزلي، ولقد كان عندهم دين حقيقي في كل مرة كانت فيها لديهم خلقية حقيقية.

# الفصل السادس

## الدفاع

في كل مكان كانت فيه المسيحية مرتبطة بالدولة، كانت الدولة تهب لمناصرتها، ففي إسبانيا كان نشر الكتب المتزندقة بل إذاعتها عسيرة بصورة خاصة، لأن محاكم التفتيش- إلى جانب السلطة الملكية بل فوقها- كانت ساهرة. وكذلك كانت الحالة في البورتوغال، ففي ١٨ أكتوبر من سنة ١٧٣٨ مثلاً قد خنق چوزيه داسيلفا ثم أحرق بمدينة ليسبوا في «عمل عقيدي»[١] "auto da fé" .

وفي سنة ١٧٧٨ اتُّهم أيضاً فرانشيسكو مانويل دونا شيميانتو بأنه لايؤمن بالطوفان، وبأنه كان يجلب السخرية إلى مسألة الخطيئة العنصرية، فسجن، ولم ينج من قضيته إلا بفراره.

وفي فرنسا- وقد كان كل هجوم فيها ضد الحق الإلهي يعتبر جريمة عيب في الذات الملكية- كانت الرقابة، وامتياز أصحاب المكتبات والإدانات الصادرة عن الأساقفة، وتدخلات البرلمان، والجزاءات الملكية، كان كل ذلك يحاول وضع حد لأمواج الإلحاد الجارفة.

أما إيطاليا المفككة فقد كانت الأحوال فيها مختلفة، إذ أن ولاية توسكانا، كانت رحيمة، وكانت تترك دائرة المعارف يعاد طبعها فيها، وأن دوقية پارما

---

(١) العمل العقيدي هو اسم كان يطلق على الاجتماع الرسمي الذي كان يعقد من حين إلى آخر لإحراق الذين كانت محاكم التفتيش تقضي عليهم بالإعدام لاتهامهم بالزندقة. (المترجم).

المتفرنسة لم تكن تبدي من القسوة إلا قليلاً . وفي البندقية ، وهي المدينة التجارية ، كان الناس يغمضون عيونهم في سهولة عن طبيعة التجارة . بينما أن روما كانت قاسية ، وأن ولاية پيمون كانت تتخذ إجراءات متعبة أو عنيفة .

وأما في النمسا فإن الإمبراطورة ماري-تيريز كانت سيئة الظن بصورة خاصة . ومن ثم فإن الرقابة في ڤيينا قد أمرت بحظر قائمة الكتب المقضى عليها لأن الإمبراطورة كانت تعتقد أن مجرد قراءة عناوينها كان يمكن أن يوجد الرغبة في مطالعة تلك المؤلفات التي ينبغي أن يظل وجودها نفسه مجهولاً . وكانت القسوة تزيد بمقدار ما كانت الدعاية الفلسفية تسير أكثر نشاطًا . وكان الحظر والمنع يزدادان خطورة في البلاد التي كان الناس فيها يغمضون عيونهم في أول القرن .

وعند البروتيستانتيين كان من المقبول أن الفكر له الحق في أن يعبر عن نفسه في حرية . ولكن لم يكن يمنع من أن يقصى ڤولف في ألمانيا عن كرسيه بجامعة هال ، وأن يبعد من الولايات البروسية ، كما لم يمنع ذلك من أن يسجن چوان لورانز شميت ، وأن يطرد كارل فريدريك بارت من وظائفه . نعم إن برلين كانت من حيث المبدأ ، أكثر المدن تسامحًا ، وكانت تتلقى جميع المبعدين الذين كانت بلادهم تتعقبهم بسبب اللادينية . ولكن عندما كان الأمر يتعلق بالسياسة ، كان له شأن آخر إذا صدقنا ليسينج ، وهو شاهد غير متهم إذ يتجه إلى القارئ بهذه العبارة : «قل في برلين ، فيما يتعلق بالعقيدة ، جميع الحماقات التي تريدها ، فإنك ستترك في سلام ، ولكنك إذا هممت أن تمس السياسة فإنك سترى أن هذه الحرية المزعومة هي عبودية» . وليس هذا فحسب بل حتى في انجلترا كانت السلطة تعاقب أحيانًا وإلى سنة ١٧٧٩ كان الكاثوليك لا يزالون مُبْعَدين عن قانون التسامح .

إننا نشير إلى هذه الحالة لمجرد التذكره إذ أننا نقر لو لم يكن للمسيحية من حماية سوى تدخل الحكومات لسوغ ذلك جزءاً من التهم التي وجهت إليها .

* * *

ما دام أن الفلسفة قد صارت إحدى مسائل الرأي العام لا سيما في فرنسا ،

فإن خصوم الفلسفة، خصوصًا في فرنسا، قد قبلوا الكفاح في نفس الميدان، أو على الأقل جعلوا يحاولون ذلك. وكانوا ينجحون أحيانًا، فقد عثروا مثلاً على اسم لكي يسخروا من خصوصهم وهو «كاكواك»[1] وقد وضعوا إذ ذاك كتابًا عنوانه «تاريخ الكاكواك» بدأ يجوس باريس في سنة ١٧٥٧.

روى هذا الكتاب أنه قد اكتشفت -حديثًا في جنوب خط الاستواء- قبيلة الكاكواك التي كان الناس يجهلونها أكثر من جهلهم بقبيلة كريبان وكان لدى هؤلاء الكاكواك كسلاح، سمٌّ يخفونه تحت ألسنتهم، وفي كل كلمة كانوا ينطقونها، حتى بأعذب اللهجات، كان ذلك السم يسيل وينتشر بعيداً، ولم يكن هؤلاء القوم، يعترفون بأية سلطة، وكانوا يدعون إلى النسبية في كل شيء، ويرددون بلا انقطاع، كلمة الحقيقة. وكان أولئك المتكبرون يعتقدون أن الكون أمام أقدامهم. ولما كانوا يحتقرون الحكمة الإلهية، فقد ألهوا الطبيعة، وعن طريق عباراتهم الماهرة الزائفة، كانوا يتقدمون في زحفهم شيئًا فشيئًا. ولكن شعبًا مكونًا من رجال شجعان ولو أنهم قليلو العدد قد أعلنوا عليهم الحرب ولم تلبث المعركة أن اشتبكت، فجعل الكاكواك يتقدمون في جلبة ضخمة. وقد كان من الممكن أن تكون لهم الغلبة لو لم يكن لدى الآخرين أداة مخيفة وهي أداة الصفير[2]، فلم يكادوا يصفرون حتى جعل الكاكواك المنهزمون يفرون في فوضى.

ولا جرم أن بعض هذه الملاحظات كانت مضبوطة، فمثلاً: «إن أصل الكاكواك، إذا صدقنا قولهم يصعد إلى التيتان الذين يريدون أن يتسلقوا السماوات» أو «إن الكاكواك يدرسون الطبيعة في كل شيء، ولا يبنون معابد، لأن ذلك لو حدث لكان عليه مظهر العبادة، لأن التيتان قد تركوا لهم من الأمثلة، أنه ينبغي أن يعرفوا، لا أن يعبدوا» وأيضًا إن في العنوان المتخيل لأحد كتبهم وهو:

---

(١)- هو تذكير بنعيق الغراب وهو من أسماء الأصوات التي ترمز إلى فقدان الانسجام، ويضرب به المثل المغنى أو الموسيقي الذي ينحرف عن الاتساق في الأنغام. (المترجم)

(٢)- عادة الصفير هي في فرنسا إحدى وسائل السخرية والاستهجان، والتقريع. ومن ثم فإن الممثل يقابل بصفير الجمهور يعتبر رديئًا. (المترجم)

«برنامج الدين العام، لمن يستطيعون الاستغناء عنه والذي فيه يمكن إقرار إله، بشرط ألا يتدخل في أي شيء».

وإذا أضفت، إلى ذلك الكتاب، المضحكات، والمحاكاة الساخرة، والنصوص المختارة للتعاظم كقول ديديرو: «أيها الشاب هاك فاقرأ»، فإنك ستظفر بمثل من نوع چاكوب نيكولا مورو في مؤلفه الذي عنوانه «رأي نافع» وفي مذكرة جديدة لخدمة تاريخ الكاكواك».

ظفر هذا المؤلف بنجاح، وحوكي، وحل عقال غضب الفلاسفة الذين كانوا يريدون أن يستعملوا المضحكات، ولكنهم لم يكونوا يتسامحون في أن تستعمل ضدهم.

لم يلبث الفلاسفة بعد ذلك أن وضعوا على المسرح. وكل الناس يعرفون تلك المهزلة التي عنوانها «الفلاسفة» والتي ظهرت في سنة ١٧٦٠ والتي رسم فيها مؤلفها پاليسو، ساخراً: جريم وهيلڤيسيوس، وديديرو والآنسة كليرون، وعلى الأخص چان چاك روسو الذي ظهر على المسرح يمشي على أربع، ويستخرج من جيبه خَصَّة(١).

غير أن الناس كانوا يعرفون أقل من هذا، مجموعة من الإنتاج خصصت للمقاومة، وللمهاجمة فمثلاً قد هاجم أبرهام شوميكس، دائرة المعارف» فكان ذلك كأنه الحرب الصليبية بالنسبة إلى حياته. ولقد كان ذلك المؤلف مفعماً بالنكات الوفيرة اللاذعة، وكان يعرف كيف يتبين النقط الضعيفة، وكان يعين الروح التي كانت تحرك تلك المجموعة على النحو التالي «إنني لم أتعب نفسي بأن أستعلم عما إذا كان السيد ديديرو قد وضع رسمًا دقيقًا لمهنة صنع الجوارب أو للطرائق المختلفة

(١)- من المعروف أن چان چاك روسو، يرى أن الطبيعة قد وصلت في صنعها إلى أسمى آواج الجمال والانسجام، وأن يد الإنسان هي التي أحالت الجمال دمامة (والانسجام تنافرا حتى قال عنه ڤولتير: إن من يقرأ روسو، يشتهي أن يمشي على أربع وأن يقضم الأعشاب، وهذه الصورة هي التي رسمها مؤلف تلك المهزلة الساخرة. (المترجم)

لقص القميص ولكنني وقفت عند التساؤل عن أي الفكر تعطيني دائرة المعارف إياها عن الإنسان، وعن طبيعته ونهايته وسعادته». أو كان يمزق كتاب «عن الروح» لهيلڤيسيوس تحليلاً ونقداً ولم يكن يلقي في ذلك عناءاً كبيراً.

هناك مؤلف آخر وهو لانجيه، قد صوب ضربات قاسية إذ كان يتساءل قائلاً: «حقًا إن اسمها معناه حب الحكمة، وإنها تستولي عليها في عزة، ولكن على نفس النحو الذي توضع به مواضع الشعار، رموز ليس بينها وبين أعمال من يحملونها أية صلة، ففي أغلب الأحايين نشاهد أن جبانًا يرسم أسداً في موضع شعاره». وكذلك «إن التعصب الديني يريق الدماء على الأرض، ولكن التعصب الفلسفي، ينتزع من الأناسي قوتهم وفضيلتهم». وأخيراً: «إن الفيلسوف المتعقل الذي يناقش، ويزن حقوق السلطات، والذي يتناول بالبحث، الفضائل والرذائل هو أجبن من أن يعرف كيف يطيع، وإن قلبه الذي أذبلته أنواره المدعاة لا يلحقه سوى الخوف. ولما كان قد اعتاد تشريح كلمات الوطن والشرف والواجب فلم يعد يؤمن بها، ولم يعد يعرف قوتها، ولا عذوبتها».

كان أشد أولئك الكتاب نضالا فريرون «Fréron»وكان من بريطانيا الفرنسية وكان ذا رأس صلب وكان ينهض في كل مرة من انهزاماته. ولقد أودع غياهب السجون في البستيل وفي ڤانسين وفور -ليڤيك لأنه كان يوزع ضربات أدبية ذات اليمين وذات الشمال، وكان في هذا، يفضل، الأقوياء. وعندما تحرر من سجنه، ودون أن يستريح تقريبًا استأنف الكتابة، ولم يكد كتاباه اللذان عنواناهما «رسائل الكونتات» و«رسائل عن بعض منتجات هذا الزمان» يظهران حتى وقفا. ولكن ذلك لم يكن يعينه إلا قليلاً، ثم شرع يحرر مجلة «السنة الأدبية» وظل يحتمل عبأها طوعًا أو كرهًا حتى توفى. غير أنه لم يكن في هذا دعيا لأنه كان ذا أسلوب قيم، وكان شديد التأثير بالمواهب الأدبية، وكان ذا ذوق ومحبًا للتجديد، وكان يرى آلام المجتمع ويطالب بالإصلاح وأخيراً كان صديقًا للذات الحياة، كريمًا بل مسرفًا، وكانت شخصيته تتجاوز الأمور العادية، ولكنه عندما يرى فيلسوفًا كان

يستشيط غضباً. ولم تخل صفحات مؤلفاته من اسم أي واحد منهم، بل إن ڤولتير نفسه لم يكن يخيفه، وكان يقول: «إنني سأعود إلى الظهور في الميدان بحماس المقاتل الذي لا تزيده بضعة جروح أثخنه بها الجبناء غدراً، إلا إذكاءاً لشجاعته بدلاً من القضاء عليه».

حقّاً إنه يعرف ما ينتظره. وهو الكلمات الوحشية، واللذعات العنيدة، والدسائس الخبيثة. ولكنه يجد لذة في انتقاماته لأنه كان لديه رسالة ينبغي أن يؤديها، ففي الواقع أن الفلاسفة، لم يكن يلوح عليهم أنهم يفهمون أنهم قد استبدلوا بمواساة المسيحية، الاضطراب والمرارة واليأس، وأن فريرون كان يكشف ضلالهم إذ أنه كان سيظهر لهم أنهم يكونون مجانين لو فكروا أن الشعب الذي يحطم نيراً مقدساً، سيظل يحتمل نيراً بشرياً، وكان يدافع عما تشتمل عليه التقاليد من إنقاذ حين كان يقول: «لم يكن هناك عصر أكثر خصوبة من عصرنا في الكتاب المؤلبين الذين -على غرار الشاعر لينير- ليس لديهم نكت إلا ضد الإله.

إنهم يعلنون أنهم حواريو الإنسانية، وهم لا يرون أن المرء يكون مواطناً سيئاً وأنه يقدم الشر الواقعي إلى الناس بانتزاعه منهم الآمال التي هي وحدها تلطف آلام هذه الحياة، وأن التصرف على هذا النحو هو قلب لنظام المجتمع وإثارة للفقراء ضد الأثرياء والضعفاء ضد الأقوياء وتسليح ملايين من السواعد قد كبح جماحها بزمام مقدس بقدر ما كبح بالقوانين... على أن هذا الهياج ضد الدين يدل على ضعف في العقل، أكثر مما يدل على قوة، لأن الكتاب لم يكونوا ليتحدثوا أو ليكتبوا ضده لو لم يكونوا يرهبونه في الداخل. وإن الناثرين والشعراء الذين يتخذون من الدين موضوعاً لهجائهم، يشبهون أولئك الرحل المضطربين الذين يخشون اللصوص، والذين يتغنون بكل قواهم لكي يخفوا مخاوفهم».

وإذن فإن أولئك الذين يؤلفون جيش أعداء الفلاسفة، كانوا يحسبون أن خصومهم قد أشعلوا النار في الدار العتيقة بحجة أنهم يمنحونها النور.

* * *

ونحن لو أردنا أن نستعير أحد الأخيلة التي كانت مستعملة في ذلك العصر ، لكي نرسم معركة من معارك المؤلفات بجميع صفحاتها المتطايرة في الهواء، لكان ذلك ميسوراً لأنه لا يكاد يكون صورة خيالية، ففي الواقع أنه لم ينشأ قط مثل هذا القدر من الكتب ضد الدين -ولم ينشر كذلك مثله لصالحه، ولهذا كان المعاصرون يقولون إنه يوشك أن تتكون من ذلك مكتبة كاملة.

وهناك في صحف ذلك العصر في أوروبا قد تمثل نوع بهيئة أكثر اتساعًا من أنواع الرسائل الهجومية، وهو نوع الرسائل التي كانت تدافع عن المسيحية.

ولقد كان المدافعون عن الدين ينقدون آراء القدماء الذين كان الآخرون يستشهدون بهم لصالح المادية، وكان هؤلاء الآخرون يستعينون بجميع أحرار العالم، كذلك المدافعون يستنجدون بمشاهير المدافعين عن العقيدة، ولطالما كانوا يبعثون صوت بوسويه الجمهوري ليعيد دعوة النفوس إلى الإله. أكانوا يهاجمون التوارة؟ إن الأب «كالميت» كان يقضي حياته في الدفاع عنها. أكانوا يقولون إن الأسفار الخمسة لم ترد عن موسى؟ إن استروك الطبيب كان يرد على ذلك بأن الكتاب يبدو أنه ينم عن منابع مختلفة، وأنه توجد فيه رواية، يدعى الإله بمقتضاها «إيلوهيم»، وأخرى، يدعى بمقتضاها، «چيوڤا»، وأخريات إذا أريد ذلك. ولكن هذه العقبات تختفي إذا ووفق على أن موسى قد اعتمد على عدة ذاكرات انتهت إليه.

وهناك حجة من الحجج المفضلة عند الخصوم تنحصر في أن تتدعي أن القيم الروحية التي يعترف بها في التقاليد اليهودية، قد أتت من الأديان الشرقية الأخر. وإذن فقد كان «المدافعون على الضد من ذلك، يعلنون أن خرافات الوثنية الكبرى، وعبادتها، وأسرارها، ليست سوى نسخ مشوهة من تواريخ العبرانين وعاداتهم وتقاليدهم». وهناك نقاد كانوا يعترضون على تاريخ الاستقرار الأول للكنيسة، وعلى جميع التقاليد الكنيسية وإذ ذاك أخرج المدافعون، «التاريخ الكنيسي» تأليف الأب ڤلوري الذي روى الفيبري أنه قرأ في شبابه مجلداته الستة والثلاثين. ولقد

ظهر عند اللوثريين في سنة ١٧٢٦ كتاب ممتاز من تأليف ج . ل . ڤون موشيم J.L. Von Moshei‌mوهو خصم تولاند وعنوانه «التنظيمات التاريخية والكنيسية القديمة والحديثة» وهو في أربعة مجلدات .

أما الفلاسفة فقد كانوا ينتهلون جهودهم من مجموعة مؤلفات الهراطقة . وللرد على ذلك قد نشرت مجموعة أخرى أو مختارات أخرى كان المؤمنون يجدون فيها ما يقوون به يقينهم ومن أمثلة ذلك كتاب چوان البير غابريسيوس الذي عنوانه «اختيار الحجج وقائمة الكتاب الذين جزموا بحقيقة الدين المسيحي» (١٧٢٥) وأخيراً ما دام أن الهرطقة كانت تتخذ طريق الجامعات لكي تنتشر ، فإن الخطب الجامعية ، والبحوث ، والرسائل كان ينبغي أن تعيد الطلاب إلى الأورتودكسية وإذن فلم تكن هناك أية خطوة تتخذ دون أن تقتضي سعيًا مضاداً وكان المدافعون يقولون لنعلن الحرب على السوسنيين الهراطقة ، والمؤلهين ولنحطم الملحدين ، وما دام أن الشر العميق قد أتى من لوك ، فلننقضه آراء هذا الفيلسوف بالفلسفة . وما دام أن الناس لا يتحدثون إلا عن البراهين الهندسية فلنبرهن هندسيًا على حقيقة الدين المسيحي .

وقصارى القول إن الدوريات كانت ضد الدوريات ، والرسائل ضد الرسائل ، والقواميس ضد القواميس ، والشعر ضد الشعر ... وهاك مثلاً عنوانين من عناواين منتجات ذلك العصر «الفيلسوف المسيحي» أو «الدين المنتقم له» .

* * *

إن الدفاع[1] عن الدين قد عمل بديًا على تقوية وضعه وعلى إجراء اختبار متنبه لحججه التقليدية وعلى طمأنة نفسه ، إذا أمكن أن يقال ذلك . وقد قرأ منتجات آباء الكنيسة وعظماء لاهوتي الماضي ثم جمع قواه الباطنية . ومن أمثلة ذلك أن أسقف سواسون مولاي دي فيز -چيمس ، كتب إلى مونتيسكيو في ٢٩

(١)- المراد بالدفاع هنا هو هيئة الدفاع أو جماعة المدافعين لا المصدر المعنوي من كلمة دافع دفاعًا . (المترجم)

سبتمبر من سنة ١٧٥٠ . يقول: «لكي يستأصل المرء جذور الشر، ينبغي له أن يفكر جديًا في أن يحي دراسات اللاهوت نهائيًا، وأن يجتهد في تكوين خدام للدين يعرفونه، ويكونون قادرين على الدفاع عنه. إن الدين المسيحي جميل إلى حد أني لا أحسب أنه لا يستطيع أحد أن يعرفه دون أن يحبه. وإن أولئك الذين يسبونه، إنما يجهلونه. ولو استطعنا أن نعيد إلى الحياة رجالاً كبوسويه؛ وپاسكال ونيكول وفينيلون Bossuet, Pascal, Nicole, Fénelon لكان مجرد النظر إلى مذاهبهم وأشخاصهم يحدث خيراً أكثر من ألف رقابة».

كان الدفاع إذن يتحدث بلغة «المدرسين» إلى أولئك الذين كانوا لا يزالون يفهمونها، ولكنه عرف كيف يتحدث بلغة أخرى إلى الذين لم يعودوا يفهمونها. وتلك هي لغة العقل؟ ولماذا؟ هل العقل والدين عدوان بالضرورة؟ كلا، إن الكينسة على الضد من ذلك قد وحدت بينهما. حقًا إننا لا نستطيع أن نعرف الأشياء إلا إذا تتبعنا الفكر التي لدينا عنها، وإن حكمنا لا يكون يقينيًا إلا بقدر ما تكون فكرنا واضحة، إننا في هذا متفقون. ومع ذلك فإنه يبقى محيط لا تستطيع أفكارنا الغامضة المحدودة والمخطئة غالبًا، أن تتدركه، وذلك شيء لا يجحده أحد. وفوق ذلك فإن المؤلهين يوافقون في سهولة على أن الإله لا يمكن أن يخدعنا، وما دام أن الإله قد أوحى إلينا حقائق لولا ذلك لكانت ستظل بالنسبة إلينا غير ممكنة الإدراك، وينبغي تصديق ذلك. وإذن فالإيمان بالأسرار ليس البتة ضد العقل بل بالعكس إن العقل يأمرنا بهذا الخضوع للسلطة الإلهية. وهكذا كان يتحدث أحد المدافعين الأكثر خصوبة من بين أهل العصر، وهو الأب بيرچييه الذي كان يذكر قراءه بكلمة القديس بولس. وهي: «Rationabile Obsequium»[1] أي أنه قبول متعقل.

هل نريد الوقائع ولم لا؟ إن الدفاع لا يجب أن يظل في صمت، ولا يجب

---

(١) Apologie de la Religion chrétienne, 1769, Ch, 5. -Le Déiame réfuté par lui-méme, 1765.

أيضًا أن يستعمل الإكراه ولكن يستعمل الإقناع والمحبة والوداعة، لأنه لا يوجد دين حقيقي إلا الدين الاختياري، ولا توجد قوة بشرية تستطيع أن تقتحم مأوى الحرية الذي لا يمكن التغلغل إلى أعماقه. وإذن فواجبه هو أن يستمع إلى حجج خصومه، وأن يرد عليهم في محيطهم الخاص. ولقد اتخذ هذه الخطة مؤلف آخر وهو الأب هوتيڤيل الذي نشر كتابه «الدين المسيحي مثبتًا بالوقائع» في سنة ١٧٢٢، وأعيد نشره، إلى نهاية القرن عدة مرات.

عني هذا المؤلف بديًا بأن يثبت -عن طريق منهج جيد- المميزات التي تضمن يقينية الوقائع، وبعد ذلك أبان أن المعجزات الواردة في الكتاب المقدس والمروية عن شهود عيان أو معاصرين. مخلصين وحقيقيين، والمتعلقة بوقائع قد أذيعت من قبل، ومرتبطة بوقائع متأخرة. والمعترف بها حتى من الذين لهم مصلحة في إنكارها. إن المعجزات التي هذا شأنها، لها ميزة الوقائع التي لا تقبل الاعتراض، والتي ينبغي الانحناء أمامها، وسواء أكانت متناقضة مع نواميس الطبيعة أم غير متناقضة، فإنه كان ينبغي إقرارها. على أن هذا تناقض ليس له وجود إلا بالنسبة إلى عقولنا الضعيفة وأنه يختفي بإزاء العقل الإلهي القدير على أن يرى روابط كل شيء وأن يلاشى في وحدة وحيدة ما هو بالنسبة إلينا متباين».

هناك أيضًا قوة أخرى تنشأ من العقل الذي يلاحظ الوقائع، ثم تتجاوزه فتصير إنفعالاً. وتصير عاطفة. وإذ ذاك اكتشفت عجائب الطبيعة، ففي الواقع أليست هذه القوى المترابطة التي تخضع للنظام، وهذا الانسجام الذي ينسق اللامتناهي في العظم وللامتناهي في الأسرار وهذا الجمال المتناثر في الكائنات وفي الأشياء، أليس كل ذلك يتطلب أن يصعد اعترافنا بالجميل إلى صانعه؟ ولا جرم أن مجرد ملاحظة الظواهر لا يكفي لالتزامنا نحو الخالق وينبغي أن يصعد من جانبنا نشيد نحو الإله، لأن من المفرط في الضآلة أن يلاحظ الإنسان وجود الإله فحسب، وإنما الملائم هو أن يدع التعبير للقلب الذي ينفعل والذي هو على وئام مع العقل.

ومن ثم فإن انجلترا بوساطة دير هام، ثم هولندا عن طريق نيوڤينتيد قد بدأتا صلوات الشكر على النعمة، ومظاهر العاطفة، والوثبات الحماسية. وهكذا لم تلبث الإشارة أن لمحت من جانب العقول التي كانت تتطلبها في سرعة إلى حد أنها تتناقل من جار إلى جار، وإنه لم يمض إلا وقت قصير حتى كانت كل بلاد أوروبا تردد في لغاتها أن السموات تروي مجد المولى.

حقًا إنه ليس من موضوعنا هنا أن نكتب تاريخ هذه العاطفة الإجماعية مادمنا قد حددنا لأنفسنا نطاق العقل، ولكن لنذكر أن هذه العاطفة قد استخلصت من ملاحظة عقلية وأن الدفاع قد استفاد منها، واتخذ للحقيقة حجة من الخيرية والجمال، فمنذ سنة ١٧٤١ نشاهد أن الأب أندريه في «رسالة عن الجمال» قد عبر عن الفكرة التي كانت قد وجدت عند المؤلفين الخاملين والتي نضجت تحت تأثير الأحداث والأناسي حتى كتاب «عبقرية المسيحية»[١]. وهاك كيف عبر عنها: «لقد تحدثنا عن الإله كما يلتئم مع فيلسوف مسيحي، فبرهنا على وجوده، وشرحنا طبيعته، ووصفنا فعله، مظهرين في كل موضع الوفاق الوثيق بين الدين والاعتقاد فيما يتعلق بالإله الأعلى، فمن ناحية عندما تأملنا الإله في ذاته بطريقة أعمق رأينا أنه لا شيء أعظم، ولا أدعى إلى الإعجاب ولا أشد إرهابًا من الألوهية مقدمة إلينا، كأنها في مشهد. ومن ناحية أخرى عندما نظرنا عن كثب كيف يعمل الإله بإزائنا، ألفينا أنه لا يوجد شيء أفضل ولا أحب من نفس هذا المظهر الإلهي. وبهذا أحسسنا بصعوبة في رؤيته أقل منها في شرحه».

* * *

استعمل المدافعون الإنجليكانيون لباقتهم، فنزل بيركليه«Berkeley» إلى الميدان، وتحدي «الفلاسفة الأصاغر» الذين كانوا يحسبون أنفسهم من عظماء المفكرين[٢].

---

(١)-عبقرية المسيحية هو أحد مؤلفات شاتو بريان التي ظفرت بشهرة عظيمة. (المترجم)

(٢) Alciphron or the micute Philsopher, in seven Dialogues, containing an apology for the Christian Rellgion against these who are called Freethinkers, London, 1732.

حقًا إن الزنادقة قد ذهبوا جد بعيد وأفرطوا في السرعة، وعندما كان سويفت يقول لهم إنهم يستطيعون أن يهاجموا المسيحية ولكنهم لا يستطيعون القضاء عليها، كان جمهور من الناس يدعي أنها ليست سوى كذب، بل إنها لا تساوي أن تكون موضوع تحقيق، وأنه لم يبق إلا الضحك منها كطريقة للانتقام، لأنها قطعت لذائذ العالم زمنًا طويلاً.

غير أن ذلك لم يكن سببًا في هجرانها بل بالحرى كان سببًا في إرجاع قيمتها الحقيقية، وما دام أن بدعة العصر كانت هي جعل المسيحيين الأخيار مضحكين ودفعهم إلى فقدان التوازن، فإنه كان ينبغي -بوساطة أسباب ملتئمة مع العصر- أن يُطَمأنُوا وأن ترد إليهم الثقة. وما دام أنه كانت هناك قضية فقد كان ينبغي الحكم، ولم يكن ذلك مجازًا لأن أحد أولئك المدافعين وهو الأسقف شيرلوك، خطرت له فكرة تكوين قضية في أتم صورها أي يوجد فيها قاض، ومحلفون، ورئيس للمحلفين، وبالإجمال كانت قضية كالقضايا التي كانت ترى كل يوم في لندن وفي الأقاليم، مع ذلك الفرق الذي هو أن الشهود المستدعين كانوا هم الذين يجزمون ببعث المسيح[1]: وإليك نتيجة هذه القضية.

القاضي -أيها المحلفون، إني أعرض عليكم بصورة جوهرية ما ترافع به الخصمان، وعليكم أنتم الآن أن تفكروا فيه وأن تصدروا حكمكم.

(وبعد أن يتداول المحلفون يقف رئيسهم ويقول):

رئيس المحلفين -سيدي اللورد. إننا على استعداد لأن نصدر حكمنا.

القاضي، متجهًا إلى المحلفين- أأنتم على وفاق؟

المحلفون- نعم.

القاضي- من الذي سيتناول الكلام؟

---

(١) The trial of the witneses of the Résnrrection of Jésns, London, 1729

المحلفون- رئيسنا.

القاضي- ماذا تقولون إذن؟ هل الحواريون مذنبون أو غير مذنبين في تزوير الشهادة على موضوع بعث المسيح؟

رئيس المحلفين- إنهم غير مذنبين.

وإذ ذاك يبرز في وضوح رجلان من بين المفسرين واللاهوتيين، والمؤرخين، والوعاظ، أولهما واربورتون«Warburton» أسقف جلوسيستير وهو ذو خلق غريب، وكان قويًا جافًا كثير القراءة عظيم العمل، شديد المشاغبة وقد قرأ أصول الدعاوى قبل أن ينخرط في السلك الديني واحتفظ بشيء من النضال العملي. ولما كان حديثًا فلم يكن يخشى من أن يستلهم من مؤلفات لوك عن الفلسفة الجديدة، ومن مؤلفات بيل عن الارتيابية. ولما كان شاذًا، فقد كان له طريقة خاصة ليست لغيره، فكان يبدو أول الأمر أنه يسلم لخصومه بكل شيء حتى إذا لاح عليهم أنهم ينتصرون، كر عليهم فهزمهم بغتة. ومن أمثلة ذلك أنه في كتابه «حلف بين الكنيسة والدولة» (١٧٣٦) يعلن بديا أن الكنيسة هي كيان على حدة ليس لها حقوق على الدولة، وأن الدولة هي أيضًا مؤسسة على حدة، ليس لها حقوق على الكنيسة، فكيف لم يستمتع المنشقون بهذه التوكيدات الأولى، وكيف لم يصدق الفلاسفة أنهم قد وجدوا صديقًا جديداً بين رجال الدين أنفسهم. بيد أن واربوريون قد استمر على النحو التالي يقول: «إن الدين في حاجة إلى الدولة، وإن الدولة في حاجة إلى الدين، وإذا لم تكن الدولة تريد أن تكون فاسدة، فإنها لا تستطيع أن تسمح لخدامها بجحود المبادئ التي تضمن استقرارها كالتمييز الطبيعي والجوهري بين الخير والشر، وإن من المشروع أنها تتطلب منهم هذا الضمان. وإذن فبين هاتين السلطتين لا يوجد خضوع بل يوجد حلف غير قابل للانحلال، وأخيراً اختتم واربورتون كلامه في الدفاع عن دين- سمي باسم قواعد أساسية لناموس الطبيعة، ولحقوق الآناسي.

ولقد كان الإنتاج الذي نشره بعد عامين من ذلك، والذي عنوانه «التشريع

الإلهي لموسى» أكثر من هذا تلألؤا. ولا جرم أن الجميع كانوا يقرون المصادرة التالية التي وردت فيه والتي مجملها أنه حين يثبت مشرع ماهر دينًا وحكومة مدنية، فإنه لا يتصرف عن الهوى ولا بالمصادفة بل على الضد لديه أسبابه وغاياته. ومن جانب آخر أن الدين العادي هو -لكي يؤيد- في حاجة إلى الإيمان وبدولة مستقبلة، وإن الحكومة العادية، لكي تحقق السير الجيد للمجتمع، هي في حاجة إلى الإيمان بمذهب المثوبات والعقوبات. غير أن الإيمان بالدولة المستقبلة، ومذهب المثوبات والعقوبات لا يوجدان في القانون الموسوي، فماذا يجب على المرء أن يستنتج من ذلك، ولو أنه من المقرر أن موسى بلا أي ريب، مشرع ماهر؟ إنه لم يكن يؤسس تشريعه على قيم عادية كافية لدين بشري خالص، ولكنه كان يؤسسه على قيم غير عادية استثنائية أسمى من الإنسانية ... بل إلهية حقًا يمكن أن يعترض على أن أقيسة واربورتون مثبتة، ولكن لا يعترض على أنها عملت عملها، لأن هذا هو ما تدل عليه ردود ڤولتير.

يختلف عن هذا كل اختلاف چوزيف بوتلير«J. Butler» الذي ولد من أب پريبيتري والذي توفي أسقفًا أنجليكانيًا، وإذن فقد بدأ في الانشقاق وانتهى في الدين الرسمي. ولم يكن ذلك بدافع الطموح لأنه كان بسيطًا وقنوعًا وبلا تظاهر بل بلا أية غاية أخرى في الحياة غير البحث عن الحقيقة وتطبيق الفضائل المسيحية. وكان يرتضي الطبيعة والعقل كنقطة لصدوره. وما دام أن أهل العصر على أثر لوك، لم يكونوا يريدون أن يقبلوا شيئًا قد تعدى ملاحظة النفس البشرية، فقد أسس استدلالاته على التجريبية ومن هذا أتت ملاءمة كتابه لعصره وقوته والنجاح الضخم الذي ظفر به كتابه الذي عنوانه: «مشابهة الدين للطبيعي والموحى به للموجود وسير الطبيعة» (١٧٣٦).

كان بوتلير يقول إن أسمى درجات الحقيقة بكل توكيد، هو اليقين البرهاني، غير أنه في حياتنا اليومية، ليس هو الذي نلجأ إليه وأنه يجب علينا أن نكتفي باليقين الراجح، وهو الذي يسير في سلسلة من الدرجات منذ الرجم الخفيف إلى أقوى التوكيدات المعنوية، فمثلاً يمكن أن يفترض أنه سيوجد ضباب في إنجلترا في يوم

محدد من شهر يناير، وأكثر من ذلك رجحانًا، أنه سيوجد ذلك في أي يوم كان من نفس الشهر. ومن الموقن به معنويًا، أنه يوجد إبان الشتاء. وكذلك الإنسان الذي يلاحظ المد والجزر على شاطئ البحر، والذي يجزم بأن نفس الظاهرة ستتكرر لا يضع سوى فرض، ولكن من حيث إن المد والجزر قد نتجا أثناء أيام وأسابيع وشهور وأعوام وقرون، فإننا نستطيع أن نقول بالتأكيد إنهما سيحدثان غداً. لا جرم أن هذا التعقل الذي لا يساوي شيئًا أمام العقل الكامل القادر على معرفة مجموع الأسباب والمسببات له قيمة على الأقل بالنسبة إلي عقولنا المحدودة. غير أننا من حيث الواقع نجد أن القياس هو الذي يحدد حكمنا وبوجه تصرفاتنا كما تثبت ذلك التجربة.

وعلى نفس النحو يؤكد القياس شرعية الدين الطبيعي. وبيان ذلك أن الإيمان بخلود النفس، في أبسط حدوده هو اجتياز حالة معروفة. إلى حالة غير معروفة. ولكن فكرة الاجتياز هذه، أليست مشابهة لعملية الطبيعة كما تنتج أمامنا؟ على نفس النحو الذي تتحول به دورة الفراشة. والذي تصير به الكائنات الزاحفة. كائنات ذوات أجنحة، وتثقب به الديدان أغلفتها. وتكسر به الطيور الصغيرة قشور البيض لتحتمل أشد التحولات إدهاشًا، كذلك قياسًا على هذا يكون من المحتمل أننا، بعد موتنا البدني سندخل في حياة جديدة.

إن الدين يخيفنا من آلام ستكون عقوبة عن جرائم. ويجعلنا نؤمل في ملذات ستكون مثوبة علي فضائل، فعلى نفس النحو الذي يجتاز بنا عليه عدم الاعتدال في آونة معينة من صحة مزدهرة إلى صحة بائسة، والذي عليه ينتهي سلوكنا الحسن إلى أن يجلب إلينا القوة والشجاعة. كذلك يكون من الممكن بل من الراجح، بل من اليقين معنويًا أن تقصيراتنا نحو الخالق ستترجم بآلام وأن ملاحظتنا للقانون الأخلاقي ستترجم بمسرات.

أما الدين الموحى به -وهو لا يختلف عن الدين الطبيعي إلا بأنه يرضي حاجتنا إلى التحديد- فإن العقبة التي يصطدم بها غير المؤمنين هي وساطة المسيح. ومع ذلك أفليست هذه الوساطة هي إحدى الوقائع التي تسود حياتنا والتي نقبلها

معترفين بالجميل؟ إذ أن جميع المخلوقين ينشأون بوساطة مخلوقين آخرين، وأن هؤلاء يطعمون أولئك ويدافعون عنهم ويحمونهم، وأن كل الترضيات قد جلبت إلينا بوساطة مخلوقين آخرين وإذن فإتيان وسيط بين الإله والإنسان أي مجيء المسيح الذي تجسد ليطهرنا من دنسنا، يجب أن ينتظر وأن يصدق عن طريق القياس. كان ذلك صوتًا مقنعًا أعجب المؤمنين لأنه كان يفهمهم أنهم ليسوا متأخرين، وأنهم يستطيعون هم أيضًا أن يدعوا أن لهم الحق في أن يسموا محدثين. ولا جرم أن هذا الصوت قد فاجأ غير المومنين من حيثية أنهم كانوا يجدون فيه بعض نبراتهم، وأن نعقل بوتلير قد اتبع المنهج المقدم على أنه هو الحسن الوحيد وهو الملاحظة والتجربة. ولقد أحس چوزيف بوتلير أسقف دور هام بالرضى في أن يقدم إلى الرأي العام نوعًا من الاطمئنان الفلسفي.



وهنا يلمح شيء، كأنه تجديد لم يسجل بعد في التاريخ، ولكي تتحدث عنه بلغة العصر نقول إنه مسيحية «مستنيرة» أي حركة أوروبية حركة مسيحية تتجه إلى أن تخلص الدين من الرواسب الأجنبية التي تراكمت حوله، وإلى أن تقدم عقيدة حرة في مذهبها إلى حد أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يتهمها بالبقاء في ظلمة الجهل عقيدة نقية في أخلاقها إلى حد أنه لا يستطيع أحد أن يجحد أثرها العملي ولا ريب توكيد متين بأن نفس القيم التي أسست المدنية أثناء ثمانية عشر قرنًا، كانت لا تزال قيمة وستظل كذلك دائمًا.

ولو حاول المرء أن يرسم هيكلاً لذلك المجهود العظيم، لبدأه بذكر المفكرين الذين فهموا أن الأرسطو طاليسية كانت تعزى إلى عصر آخر، والذين ارتضوا ديكارت بينما أن الجيل السالف قد أقصاه -وانتهلوا منه حججًا لصالح روحانية النفس، وكذلك ذكر مفكرين مسيحيين كانوا يطالعون لوك ويعجبون به، رافضين أن يتبعوه في «جحوده إمكان إدراك المطلق»، ولكنهم استغلوا تلك الثروات النفسية التي استكشفها. ثم لسرد بعد ذلك أسماء علماء ذوي مميزات على أرفع

الدرجات، كالأب بوسكوفيتش في راجوزا، وهالير وبونيه في سويسرا، وريومور في باريس، وأولير في ألمانيا قد أبانوا أن المنهج التجريبي -فضلاً عن أنه بعيد عن أن ينتهي إلى عدم الإيمان- كان يقوى فكرة الغائية. ولاستنجد بالأخلاقيين الذين طالما ذكَّروا الأمير بأن قوته لم تكن مؤسسة إلا على أشد الواجبات ضيقًا، والذين كانوا يتطلبون منه أكثر كثيراً مما كان الفلاسفة يطلبونه، وذلك مثل الحكيم التقي موراتوري الذي لم يكن منغمسًا في التبحر العرفاني إلى حد ألا يلحقه الشك أحيانًا، والذي التجأ إلى إيمانه.

وعند هؤلاء الأخلاقيين أن الحكماء يجب ألا تكون له غاية سوى خير الدولة، وأن يتبعوا في كل شيء، القانون الإلهي الذي يحظر اقتراف الشر، والذي يأمر بالمساهمة في خير الجميع حتى في خير الأعداء: إعمل بإزاء الاخرين ما تريد أن يعمل بإزائك، لأن خير دواء للآلام الاجتماعية هو دائمًا محبة الغير، إذ أن القاعدة الوحيدة التي يتطلبهما المؤلهون -وهي: تحابوا فيما بينكم- ليست لهم وإنما أتت من المسيح. ولأخرج من الظلام شخصيات القس والأساقفة الذين بشروا بالتسامح وكشفوا النقاب عن الخرافات. ولذكر عدد القديسين الذين شاهد القرن الثامن عشر نشاطهم.

ولما نسيَ مجهودات الجمعيات الدينية ويمكن أن يتخذ مثلاً لذلك الأب بوفييه اليسوعي الذي كان، زهاء أربعين سنة، أستاذًا في مدرسة لويس الأكبر، ومساهمًا في مجلة «مذكرات تريڤو». وعندما نقرؤه نعلم أن السيد لوك هو الأول الذي زاول في ذلك العصر إيضاح عملية العقل البشري والذي لم يدع نفسه ينقاد إلى نظريات غير واقعية. ويبدو أن فلسفته في هذه النقطة، بالنسبة إلى فلسفتي ديكارت ومالبيرلنش كانت هي منزلة التاريخ بالنسبة إلى الرواية. ولقد كانت فلسفة الأب بوفييه المعقولة هي الفلسفة الدارجة، وكانت مخصبة بصورة دفعت توماس ريدThomas Reid بانجلترا فيما بعد، إلى أن يعتنقها وأن ينميها، لأن تصوراته للحياة الاجتماعية لم تكن هيابة ولا رجعية، إذ أن مساواة الطبيعية البشرية كانت

مبدأ لا ينبغي الإغضاء عنه ألبتة، وإنما الوظائف هي التي كانت غير متساوية أي وظائف الرعايا والأمراء، لا الأناسي. وبالإجمال كان الأب بوفييه يريد أن يتبع. في كل شيء. الوضوح الأقل اشتباهاً لدى العقل البشري.

هل سنتخذ مثلاً من أحد البينيديكين؟ لا جرم أن من الصعب ألا يكون لدى المرء انعطاف نحو الأب فيجو الذي كان جد بسيط وجد صريح وجد قوي. والذي كان يطلق على نفسه اسم المواطن الحر لجمهورية الأدب وهو اسم في موضعه. في النصف الأول من القرن الثامن عشر كان تأخر إسبانيا في طريق «الأنوار» موضوعاً شيقًا لدى الفلاسفة وكان الأب فيجو بالضبط هو الرجل الذي اجتذب من داخل خلوته. تلك البلاد إلى التقدم.

لم تكن روح النقد تعوزه، بل كان يزاولها في كل مناسبة وهاك أمثلة من نقده يقال إن الموجة العاشرة هي دائمًا أقوى الموجات، فلنر هذا، إنه ليس حقًا، وهو وهم عامي. ويقال إن نبتة الرقيب تدير زهرتها دائمًا نحو الشمس وذلك زائف. ويقال إن من الخطر أن يتعاطى المرء طعامًا على أثر شرب الشوكولاته، وذلك أيضًا واحد مما يقال وهو لا يصمد أمام الاختبار، فلننبذ كل هذا الذي «يقال» ولا نؤمن إلا بالوقائع التي ثبتت تمامًا.

كان فيجو موسوعيًا أي أنه كان لاهوتيًا مؤرخًا، ورجل أدب وعلم وكان معجبًا ببيكون ونيوتون «Bacon, Newton» الذين كانا يمثلان في رأيه الحقيقة التجريبية. وكان ديكارت يبدو له عبقرية متهورة ولكنه على كل حال عبقرية، وكان يحطم الحربة لصالحه إذا عنت الفرصة[1]. ولما كان مصلحًا فإنه لم يكن يخشى أن يكتب ضد الأشراف الذين لا يسوغون امتيازاتهم، وضد بطء العدالة، وضد التعذيب. ولما كان وطنيًا لم يكن لديه في العالم أعز من بلاده، ولما كان عالميًا

(١)- يقال إن فلانًا قد حطم الحربة من أجل فلان أي دافع عنه إلى أقصى حد، حتى حطم حربته في سبيل هذا الدفاع وهو مستعار من فرسان العصور الوسيطة وعصر النهضة الذين كانوا يحطمون أسلحتهم في سبيل الدفاع عمن يحبونهم أو يعجبون بهم. (المترجم)

أو «كوسموپوليت» فقد كان من أنصار أشد الاتصالات بين الشعوب اتساعًا، ومن أنصار محو الحزبية، وأنصار السلام العالمي، ولأنه كان كل هذا مجتمعًا فقد كان مسيحيًا بصورة عميقة. وكان يعتبر أن المؤمنين قد أنزلوا الدين بسبب الإيمان بالمعجزات الزائفة وبسبب الأعمال الظاهرية الساذجة، وبوساطة الطريقة التي كانوا يستعملونها لربطه بالماضي. وكان يقول ليست المعتقدات المقدسةهي التي تقيد الفكر وتكتم أنفاس العلم، وإنما هي السلطات المغتصبة، وإذن فقد كان يحارب الأرسطوطاليسية المزيفة التي شلت الفكر الإسباني والتي أرادت أيضًا أن تحتفظ به متقلصًا في وسط القرن الثامن عشر، ومن عباراته مايلي: أثناء قرون وقرون كان من يدعون بالفلاسفة يرهقون رؤوسهم أمام نصوص أرسطو، أي خطأ! وكم كانوا يحسنون صنعًا لو أنهم درسوا الطبيعة! لأن من لا يستعمل منهجًا آخر غير منهج المجادلات المدرسية، يعمل ما يرضي كالوس الوضيع يجتذب، بوساطة الحيلة هيراكليس إلى كهفه لكي يجعل أسلحته عابثة إذ يعميه بالدخان الذي يتقايؤه. أما هو فلن يقع في هذا الفخ وسيخلص الكاثوليكية من تجارات العصابات التي جلبت إلى المعابد. وهكذا كان فيچو يشعر بأنه مستريح تمامًا في التقاليد وفي التجديد في الوقت ذاته.

إنها لرسالة كبرى أن يجتلب المرء التجديد إلى التقاليد، وأن يجرد التعليم من «قدم المدرسة» وأن يوجه العقول نحو ملاحظة الوقائع، وأن يوصي بإجلال بيكون ونيوتون، وأن يحرر البرتوغاليين من نرسيسيتهم[1]، وأن يعودهم على النقد وعلى الحكم الشخصي وأن يوقظهم وأن يدفعهم إلى أن يتخذوا لهم مكانًا في الحياة العقلية لأوروبا. تلك كانت رسالة الأب لويس أنتونيو ڤيرنيه الفرانسيسكاني مؤلف كتاب «المنهج الحقيقي للدراسة»(١٧٤٦-١٧٤٧). وكان أخلافه كذلك من رهبانية

(١)- النارسيسية هي نسبة إلى نارسيس وهو في الأساطير الهيلينية ابن النهر سفيز وقد نظر إلى وجهه في أحدا الجدوال فعشق نفسه فأراد الاتصال بصورته فسقط في الجدول وغرق وقد صار مثلاً يضرب المفتون بنفسه أو الذي لا يعنى إلا بذاته كأنه محور الوجود. (المترجم)

«الأوراتوريين» بيد أنه إذا أريد إبراز الصور تمثيلاً لهذه الكاثوليكية المستنيرة، فإنه ينبغي اختيار القسيس أنتونيو چينوفيزي Antonio Génovési، وقد أتت جدارته بذلك من متانة موقفه الفكري الأول وهو أن المفكرين الذين يهاجمون الدين المسيحي يسيئون معرفته. ومن ثم هم يشوهونه، ولذا، يكون من الضروري أن يتقدم لنقضهم شخص يعرفه معرفة داخلية ويطبقه في حزم ويستخلص روحه. وعلى أثر هذا الموضع الأساسي يشرع في العمل، فيتعرف منتجات أولئك الذين خاصموا الدين الموحى به ويستشهد بهم عند الحاجة، ولذا كانت صفحاته مفعمة بذكرياتهم. وكذلك قرأ جميع منتجات «المدافعين» وكل المشكلات التي راق العصر أن يضعها وأن يستأنفها، فجابهها مجابهة شخصية وهي مشكلات أصل الفكر، والناموس الطبيعي، والمذاهب العقلية والتجريبية والتفاعل. وقد جعل يدافع عن الديانة المسيحية بوساطة المعرفة العميقة التي لديه عن أعدائها وعنها هي ذاتها، وطفق يدافع عنها أيضاً بأعماله.

كان في شبابه مشائيًا وكان مجادلاً جيداً «للموضوع وعليه» كما كان المدرسيون يعبرون. وفي سنة ١٧٣٦ رسم قسيسًا ثم عين في السنة التالية في نابولي، وكان ذلك في الحقبة التي كان فيها مولاي جالياني يزاول إصلاح الدراسات فالتحق بحزب المصلحين. وكان في أول الأمر ديكارتيًا ثم عرف أفكار لوك وارتضى جزءاً منها. وقد عين أستاذاً لما بعد الطبيعة ثم للأخلاق في الجامعة وجعل ينشر منذ سنة ١٧٤٣ كتابه «عناصر ما بعد الطبيعة» الذي عد من لوامع منتجات العصر. ومنذ ذلك الحين لم يفتر عن استعمال أوكَد الوسائل من بين التي تؤثر في الحياة أي التي تمس نفوس الشباب، وكان يردد على طلابه أنه لا ينبغي الاستيقان بأي شيء اعتماداً على أن الأساتذة قالوا به. وأن الإيمان يجب أن يتوقف على اختبار عقلي، وأنه يجب ألا يختلط بالطقوس الظاهرية الضيقة التي تخمد اللهيب الداخلي، وأن الكاثوليكية لا ترهب أن تجابه الفلسفة الحديثة سواء أكان ذلك لكي تنقضها حين تنخدع أم لكي تستفيد منها حين تطابق الحكمة.

استأنف نشاطه بعد ذلك في المحيط السياسي ولكن بصورة أكثر حيوية لأن چينوڤيزي قد ساهم في تحويل فائدة هي جوهرية بالنسبة إلى ناپولي خاصة، وإلى أوروبا عامة، ففي الواقع إن الأمر يتعلق هنا بتوكيد حقوق الرعايا وبالمطالبة بإصلاحات يجب أن تضمن سعادتهم بدلاً من أن تجعل صالح الدولة شرعيًا، وأن تقوي كيان السلطة المستقرة.

حدث في أرض ناپولي التي كانت الإقطاعية تنوء عليها بكلكلها، أن نوعًا من الاتفاق قد تم بين الأمير ورعاياه ضد القوة المتوسطة التي كانت معادية لفوائد الفريقين كليهما. وكان چينوڤزي أحد أولئك الذين ساهموا بقوة في تشييد هذا الاتفاق. ومن ثم فإنه عانى، بسبب آرائه شيئًا من القلق والمشقة إذ أبلغ أمره إلى روما، فلم يظفر بكرسي الإلهيات الذي كان يتوق إليه. غير أنه لم يخرج ألبتة عن الأورثوذوكسية. حقًا إنه لم يكن زاهدًا، بل كان مليء الجسم وكان يشرب في غبطة نبيذ ساليرنا الجيد. ولكنه في روحه قد بقي مسيحيًا بصورة عميقة وفيًا لأنقى جميع الفضائل المسيحية وهي محبة الآخرين. وكان معتادًا على أن يقول: «إني أعبد الإنجيل الذي جوهره الحب، كم هي عذبة كلمة الحب! وكم كانت حياتنا تكون سعيدة لو أنها هي وحدها التي كانت سائدة! ...»

وأخيراً ينبغي انتقال الفكر المسيحي على نفس النحو الذي ينتقل عليه الفكر الفلسفي من دولة إلى أخرى. وكان أحد هذه الانتقالات العجيبة عمل مدرسة «الپياريست» التقية بإيطاليا، وفي دول عديدة بأوروبا، سواء أكان هذا العمل يتحقق بصورة مباشرة، أن يتسرب بوساطة الأجانب الذين كانوا يأتون ليتمموا أو ليستأنفوا دراستهم في روما. وقد امتد أثرهم التجديدي إلى هونغاريا، وإلى ألمانيا الجنوبية، وإلى النمسا وإلى ممتلكاتها وإلى بولونيا. وحين صارت هذه الأخيرة حديثة بدورها حوالي منتصف القرن، وأحست الحاجة إلى تجديد مناهج مدارسها، كان الأب كونارسكي السيارستي هو الذي أمر بدراسة بيكون وجاسندي وديكارت وماليبرانش ولوك وچينوڤزي على أشد الأرواح اتساعًا.

رأينا أن شعار المجددين الذين كانوا يريدون أن يتخذوا من البحث عن الحقيقة قانون حياتهم الوحيد، كان هو «تَجرأ على المعرفة» وأن ملك بولونيا استانيسلاس أوجوست قد أمر بصنع وسام يحمل صورة كونارسكي مع هذا الشعار، وهو: «إنني أجرؤ أن أعرف» «Sapere auso».



والآن لنجمع بوساطة الفكر عمال الكرم[1] ولنتخيل ذلك النشاط من جانب ذوي المعاطف السود، والمعاطف البيض، ولنذكر القساوسة والأساقفة الأنجليكانيين، والرعاة والأساتذة اللوثريين؛ والرعاة الفرنسيين والمدنيين أيضًا، وينبغي ألا ننسى الذي يستأنف دائمًا، بالتوفيق بين الكاثوليكيين والبروتيستنتيين وباتحاد بين الكنائس يجمع تلاميذ المسيح، عند ذلك نستطيع -بعد أن رأينا حيوية الهجوم- أن نتصور حرارة الدفاع.

(١) يريد المؤلف هنا أن يشير إلى عبارة الإنجيل التي تشبه خدام الدين بعمال الكرم. (المترجم)

# الفصل السابع

## تقدمات عديم الإيمان

## الچانسينية

## إقصاء اليسوعيين

لم يأت بوسويه جديد، ولا فينيلون جديد، ولا باسكال جديد. حقًا إن الأب چيرديل الذي كان كاردنالا، قد نقض لوك، ولكن ماذا كان يستطيع ضد انتشاره؟ وماذا كان كروزاز يستطيع ضد پوپ وحقًا إن چون ليلاند كان يدافع عن العهدين القديم والجديد وعن الوحي ولكنه لم يكن يمحو ابتسامة هيوم. إنهم كانوا جميعًا مدافعين أقوياء بينما كان ينبغي وجود عباقرة.

على أن المتجادلين غالبًا -رغم نياتهم- قد ظلوا سمجين ومضجرين. ومن ثم فإن مقدماتهم الطويلة وبحوثهم المتعالمة، وعباراتهم السميكة لم تكن تمس الرأي العام.

كانوا يتعقلون كأجدادهم، ولم يكن العصر الراهن يستمع إليهم أو أنهم حين كانوا يبحثون عن الجديد لم يكونوا يظفرون إلا بالمضحكات، فهل كان الأب پيليجرين يحسب أنه نجح حينما لحن الحقائق المسيحية على نغمة عصرية؟ وهاك بعض عناوينها:

١- شرح الصلاة الربانية موقعًا على نغمة أغنية: «مولاي لقد أردت أن تمنحني زوجة».

٢- شرح الصلاة المسماة «رمز الحواريين» موقعًا على نغمة أغنية «إستيقظي أيتها الجميلة النائمة».

٣- ضد الخطيئة بوجه عام موقعًا على نغمة إوبرا عنوانها «أيها الحب ماذا تريد مني؟».

٤- عن ضرورة التفكير موقعًا على نغمة أغنية «لذائذ إسبانيا». وليسير. هل حسب أنه قد قام بإنتاج جدير بالبقاء حين نشر كتابه الذي عنوانه «الحشرات واللاهوت» والذي قال فيه: «إن الإله قد تصرف بحيث جعل أشد الحشرات ضرراً تنتسب إلى الأنواع الأقل خصوبة. وهو يريد أن تكون الحشرات نافعة ما دام أنها في بعض البلاد تستعمل أطعمة، وأن القديس يوحنا كان سيموت جوعًا في صحرائه لو لم يظفر بالجراد. وإذن فللحشرات قيمة لاهوتية، وقد كانت أدوات للعقوبات التي يعاقب بها الإله الجناة، وهي مخيفة إلى حد أنه لا توجد وسيلة لاتقائها. وللحشرات أيضًا قيمة قانونية لأنها قد عاقبت الزناة إذ أرادت القوانين القديمة أن تعرضهم عارين أمام مساكن النمل أو تدعهم للسعات مجمع النحل ...».

ومهما يكن من الأمر فإن أعداء الكاكواك كانوا يسيئون استعمال الصفير، ولكن الكاكواك كانوا يستعملونه بصورة فائقة. ومن ثم فإن خصومهم مهما كانوا محترمين، قد صاروا سخريًا، وهكذا عندما يريد المرء إبراز مميزات فريرون فرنه، بالرغم منه، يتخيل أنه يسمع اللذع الوحشي الذي وصله ڤولتير باسمه وهو:

في أحد الأيام وفي أعماق واد صغير، لدغ ثعبان چان فريرون، فماذا حدث فيما تظنون؟ لا جرم أن الثعبان هو الذي هلك.

وكذلك چان چاك ليفران ماركيز دي پومپينيان -وكان قاضيًا مبجلاً، وأديبًا غير محظوظ- قد هاجم الفلاسفة في خطبة استقباله في المجمع اللغوي الفرنسي. فأمسك ڤولتير بخناقه ولم يفلته، ومنذ ذلك الحين صار ليفران دي پومپينيان هدفًا لسخريته وهاك أحدَّ لذعاته:

هل تعرفون لماذا بكى إرميا إلى هذا الحد في حياته؟ ذلك لأنه -باعتباره نبيًا- كان يتنبأ بأن ليفران سيترجمه يومًا ما.

ظلت الرسائل والهجاءآت ترهقه إلى حد أنه لم يكن يجرؤ على الخروج من منزله، أي ڤولتير قد محا ليفران دي پومپينيان.

* * *

ومن الذي كان يستطيع أن يقف الجانب غير المكتوب من حياة العقل وهو المحاذثات والتأملات والكلمات المعادة؟ ففي الواقع أن الفلسفة كانت في النوادي والجمعيات وفي المقاهي وحول موائد الشاي وكانت تنتشر في الهواء وتنزلق إلى كل مكان، فأين توخذ ومنذا الذي سيستولي عليها؟.

كان رجال الشرطة يختلطون، في براءة، بالمتنزهين الذين كانوا يثرثرون تحت أشجار القصر الملكي، وفي حديقة لوكسانبور وكانوا يسجلون في تقريراتهم أنهم سمعوا محادثات ضد الدين ومحادثات إلحادية يتناولها حتى القسس ولم يكن من الممكن اعتقال كل هؤلاء الزنادقة.

كان نيكولا بواندان - وهو أحد رجال الأدب وعضو في مجمع الآثار- يمكث عادة في مقهى پروكوپ حيث كان معروفًا بحرية الفكر، وكان يستعمل لغة خاصة به، فكان يسمي الحرية «چانيتون» والدين «چاكوت» والإله «السيد الموجود».

وفي مرة كان أحد رجال الشرطة يستمع إليه فقال له: «هل أجرؤ على أن أسألك من هو ذلك السيد الموجود الذي كان سلوكه غالبًا سيئًا إلى هذا الحد، والذي أنت مستاء منه إلى هذه الدرجة»؟ وهنا أجاب بواندان قائلاً «سيدي، إنه جاسوس من جواسيس الشرطة».

وفي المسرح كان من الممكن أن أحد أجوبة المأساة يكون موضع شبهة، ولكن هل كان أحد يستطيع أن يزج في السجن بالنظارة الذين يصفقون لها؟

ولا جرم أن كتابًا ماجدا كتيليماك أيضًا يمكن أن ينتفع به في الدعاية الفلسفية، فهل كان يجب إحراق تيليماك على سلم قصر العدالة؟

كان كل ذلك يؤلف جوًا انتهى بالمسيحيين أنفسهم إلى الإذعان لفعله.

كان أحيانًا أحد باعة الكتب المتجولين يطرق الباب ويترك، في مقابل بضعة دراهم، مخطوطًا من النوع التالي «خطبة تاريخية ضد رؤيا القديس يوحنا (Apocalypse) وفي الوقت ذاته ضد الكتب الأخرى من العهد الجديد» و«جوهر عواطف چان ميلييه» و«وصية چان ميلييه»، و«النفس المادية». ولقد بلغت العناوين التي من هذا النوع، أكثر من مائة عنوان. إذ كانت توجد في فرنسا جماعة سرية منظمة يساهم فيها فريريه وميرابوو دو مارسيه، عاملين في فرنسا وكان أعضاؤها مقدمي مخطوطات سواء أكانوا مؤلفين أم نساخًا أم موزعين في المساكين، وكان زبائنهم من الأشراف والمتوسطين ورجال الدين في باريس بل في الأقاليم.

تلك كانت تجارة مثمرة في بضائع محظورة، أصاب فنها الماهر الرأي العام إلى أعماق مجهولة. ولا جرم أن هذه الجماعة كانت تتجه إلى أن تحل محل الكتب التي كان طبعها يبدو أنه مفرط في الخطورة، وعند الحاجة كانت تتملك أحدث المنتجات، ففي أغسطس من سنة ١٧٥٥ كان جريم يجتذب مراسليه من الأجانب بإعلانه إليهم أن مخطوطات كتاب «العذراء» للسيد ڤولتير قد تعددت بصورة لا تكاد تحس ولم يكن مستحيلاً أن يظفر المرء من هذا الكتاب بأربع عشرة أنشودة في مقابل ثمن يتراوح بين خمسة ريالات وعشرة.

غير أنه لم تكن أية سلطة تستطيع أن تمنع الكتب نفسها من أن تطبع وتنشر عندما كان الرأي العام ضدها فلو أن مؤلفًا حظرته الرقابة أو لم يظفر بإذن نقابة المكتبة، لطبع مع ذلك بفضل المطابع السرية، تلك المطابع التي يمكن حملها وإخفاؤها في سهولة، ثم كان يباع في دور التمثيل، وفي الحدائق، بل في الأمكنة الممتازة التي كانت مملوكة للملك أو للأسرة الملكية، أو للجمعيات الدينية. أو كان

المخطوط يجاوز الحدود فيصل إلى لوندن أو إلى ليبج أو بيون أو كولونيا أو جينف أو إيفير دون، وعلى الأخص هولندا التي كانت مطابع المؤلفات المحظورة مستقرة فيها.

وعندما كان ذلك السفر يطبع ويجلد، كان يتخذ طريقه إلى العودة وكان من الملاحظات المألوفة أنه بقدر ما يكون ذلك الكتاب محظوراً في قسوة كان المشترون يطلبونه بصورة أشد حيوية -وهكذا- بمناسبة كتاب توسان «الطباع» -كتبت مجلة «الرسالة الأدبية» تقول: «إن القاضي حين أمر بإحراق هذا الكتاب، قد ضاعف من الشغف بقراءته كما يحدث دائماً في مثل هذه الأحوال». ولقد كتب دالامبير إلى فريديريك الثاني في عشرة يونيو من سنة ١٧٧٠ يقول «إني لا أعرف كتاب «محاولة على الأوهام» الذي عنيت جلالتكم بنقصه ومع ذلك فإن أعتقد بأن هذا الكتاب قد ظهر في باريس بل إنه بيع فيها بثمن جد غال. ولكن حسب أي كتاب أن يمس بعض المواد وأن يهاجم بعض الناس لكي ينقب عنه في شره، ومن نتائج هذا أن ذلك الكتاب -بوساطة الاحتياطات التي تتخذها الحكومة لوقف هذا النوع من المؤلفات- يتجاوز كل ثمن. على أن هذه الاحتياطات تعزو إلى المؤلف في الغالب من الشرف أكثر مما يستحق» ولقد كانت أشد الحالات لفتًا للنظر، حالة كتاب «التاريخ الفلسفي والسياسي لمؤسسات الأوروبيين وتجارتهم في الهندين» تأليف الأب رينال، إذ حظر في فرنسا وسجل في قائمة الكتب الممنوعة، ثم مزق وأحرق على أنه زندقة، وعلى أنه متجه إلى تأليب الشعوب ضد السلطة العليا، وإلى قلب المبادئ الأساسية للنظام، فظفر بعشرين طبعة، وبعدة محاكيات بل قد بيع أجزاءاً، وجلب إلى مؤلفه نوعًا من الشهرة.

وقصارى القول إن دينيل الأخلاقي الذي كان يدرس «أوهام الشعوب»، يدعى أن الكتاب يباع سيئًا إذا ظفر بإذن منظم، وعلى الضد من ذلك هو يباع بوفرة إذا لم يحمل عبارة «بامتياز»، وإذا وكل إلى خمسة أو ستة تجار جوالين يحملونه خفية إلى المنازل ويتقاضون عشرة أضعاف ثمنه.

كان پييترو ڤيرى يقيم في ميلانو وكان أخوه أليساندرو قد استقر في روما وكانا يتبادلان مراسلات نشيطة يتحدثان فيها عن جدة المكتبة وعلى الأخص عن الجدة المحظورة، وإليك كيف كانت هذه الأخيرة تصل، فإما إلى ميلانو فعن طريق سويسرا وبوساطة أرباب مكتبات بارما، وتوسكانا، وبفضل مؤامرة الرسول الذي أحضر يومًا كتاب «التاريخ الكنيسي» تأليف فلوري وهو كتاب فاضل، ولكن رسائل ملتهبة قد دست بين مجلداته في نفس الحزمة. وأما إلى روما فقد كتب أليساندرو إلى پييترو يقول: «لم أتسلم دائرة المعارف ولكنها على بعد اثني عشر ميلاً من روما وإني أعرف طريقة استقدامها. إنها في مدينة شيڤيتا ڤيكيا، ومن هناك سأحضرها إلى ضواحي روما، ثم إنها ستدخل في مركبة أحد الكرادلة بلا خطر. وهذا هو ما عملته فعلاً بإزاء كل ما أتى من لوندن» «٢٩ ديسمبر من سنة ١٧٧٠».

وفي البندقية في سنة ١٧٦٤ زيدت قوة الاحتياط والحظر، فأصبح أي صاحب مكتبة لا يستطيع أن يفتح حزمة من الكتب الآتية من البلاد الأجنبية بلا حضور أحد موظفي الجمهورية وإذن فقد كان الأمر يتعلق بمخادعة رجال الشرطة، فإذا كانت المؤلفات مرسلة من ألمانيا تفتح الطرود في پادوا ثم من هناك تقسم إلى حزم صغيرة تنقل بوساطة الزوارق التي تنحدر في نهر برينتا وعن طريق البريد إذا دعت الحاجة، وأخيراً تنهي رحلتها عند أصحاب ميدان سان ماركو في البندقية. وإذا كانت الكتب الآتية عن طريق البحر، فإن المعنيين بهذا كانوا يلتقون -أثناء بضع دقائق- بالزوارق التي كانت تتجه من السفينة إلى المرفأ، فيأخذون المؤلفات المحظورة، ويضعون في مواضعها مؤلفات بريئة وكانت حرية التراسل التي يستمتع بها الساسة، تلعب أيضًا دورها.

إننا نعرف هذه الكتب بوساطة تقريرات رجال الشرطة المكلفين بضبطها، والذين، رغم كل شيء، كانوا يصلون إلى ضبط شيء منها، وكانت هذه الكتب من منتجات لوك وكولينس ومانديڤيل وبولينبروك، وهيوم وبيل والماركيز دارچانس، وهيلڤيسيوس والبارون دو لباك، ففيما يتعلق بروسو، كان

«إيميـل» و«العقد الاجتماعي»، وفيما يتعلق بفولتير كانت «العذراء» و«مسـائل حول الموسـوعة»و«السـاذج». ولقد كانت هناك أيضًا النشرات الداعرة التي كانت موفورة.

وفي إسبانيا نفسها -وهي أقل البلاد قابلية للإقتحام- كان الفكر المارق عن الأورثوذوكسية، ينتهي دائمًا بأن يتغلغل إليها، وكان أحيانًا في أقل الصورة قابلية للتنبؤ بها. ومن أمثلة ذلك صداقة شخصية مع مؤلف أجنبي عرف أثناء إحدى الرحلات، ومنها أيضًا تراسل برئ في ظاهره. غير أنه تنزلق فيه جمل تنم عما وراءها من مغاز. ومنها كذلك عرض نقدي ينشر في صحيفة فنشاهد أنه -رغم استشاطته ضد الفكر التي ينقضها- يبدأ ببسطها. وأخيرًا كانت توجد، عدا هذا كله، التجارة الظاهرة والتجارة الخفية. وهناك عدد كبير من أرباب المكتبات كانوا يساعدون هذا النوع من النشر كجبريل كرامير في چنيڤ. ومارك ميشيل ريه في أمستردام، وفرانسوا چراسيه في لوزان، وهذا الأخير هو الذي كتب إلى چ.چ، روسو في ٨ أبريل من سنة ١٧٦٥ يقول: «ألست تبتسم يا مواطني المبجل حين تعلم أنني رأيت في مدريد في كنيسة الدومينيكانيين الرئيسية وفي يوم الأحد بعد الصلاة الكبرى وفي محضر عدد كبير من الأغبياء كتابكم «إيميل» يحترق في صورة مجلد من القطع الكبير؟ وذلك بالضبط هو الذي دفع عددًا من الأشراف الإسبانيين وسفراء الدول الأجنبية إلى اجتلابه بأي ثمن وإلى استيراده عن طريق البريد».

* * *

ولقد كانت التآمرات آتية من الحاكمين أنفسهم. ، من أمثلة ذلك أن ملك فرنسا قد عين ما ليزيرب مديرًا للنشر، وماليزيرب هذا كانت له سياسته الخاصة، فهو شخصيًا كان يرى أن حرية رجال الأدب نافعة للدولة، وأن أي قانون من ناحية أخرى، لا يمكن أن ينفذ عندما تكون الدولة كلها تساعد على الغش. ولا جرم أن هذا تفكير جيد جدًا، ولكن لماذا نيط ماليزيرب بعمل كان يجب أن يمنع طبع الكتب المحظورة وأن يقف تدوالها؟ ذلك لأن ملك فرنسا كان حقًا حامي الدين ولكن مدام

دي پومبادور[1] كانت تحمي الفلسفة، ومن ثم فإن ملك فرنسا لم يرد أن يكون پيرون عضواً بالمجمع اللغوي، غير أنه أراد أن يمنحه نفقة ثابتة لكي يواسيه. وقد كان يحدث أن تتخذ تدابير بربرية تثير مشاعر العدالة كما سجن مثلاً چيانون غدراً وقضى على كالاسي بالموت عن طريق عجلة الدولاب[2]، ثم لا تلبث القسوة أن تنام فيسود النسيان.

وعلى العموم كان العقاب ينزل بالخاملين ولكن البارون دولباك كان يستقبل كل قادم، وكان يتباهى علنًا بالإلحاد. نعم إن السلطات قد أمرت باعتقال مؤلف كتاب «إيميل»، ولكنها تركت لأصدقائه الوقت الكافي لإنذاره وتركت له هو الوقت اللازم لفراره، بل قد التقى في طريقه ببعض رجال الشرطة فرفعوا قبعاتهم احترامًا له.

حقًا إن مؤلفات ڤولتير المعادية للدين قد وقف سيرها، ولكنها انتشرت مثلاً بوساطة صديقه دافيلافيل الموظف الذي كان يضع فوق الرسائل وحزم الكتب ختم المراقب العام.

ولقد كانت مخطوطات نيچون الملحد سُما، وكان ذلك معروفًا تمامًا ومع هذا فقد كان يبعث بها في سلام، إلى أخيه الذي كان مراقبًا للكتب في مدينة سيدان. ومن هناك كانت تلك المخطوطات تمر إلى لييج ثم من لييج إلى أمستيردام.

ومن ناحية أخرى، إذا سايرنا المنطق القويم، فكيف نعلل أن ڤان سويتين المستشار المفضل للإمبراطورة التقية ماري تيريز، يبذل كل جهوده لكي يخفي عن عين الرقابة النمسوية المؤلفات التي كانت تلك الرقابة تود أن تدينها؟ وأن فرنسوا

---

(١)- مدام دي پمپادور هي أشهر محظيات الملك لويس الخامس عشر وأعظمهن سلطانًا في عهدها. (المترجم)

(٢)- كان هذا النوع من القتل إمعانًا في التعذيب الوحشي إذ كان يمد المقضي عليه بالإعدام فوق عجلة أفقية ثم تهشم عظامه بقطعة من الحديد وهو على قيد الحياة. وقد أجرى هذا التعذيب على كالاس ظلمًا كما أثبت ذلك، ڤولتير فيما بعد. (المترجم)

-إيتيين دوق لورين، وزوج ماري- تيريز نفسها يكون ماسونيا معترفًا به بينما أن الماسونية كانت قد دانتها روما في صورة محددة؟ وكيف يعلل أن أسقفية ليبج تشغل بماسوني آخر وهو الأسقف ديلبروك الذي يحمي الفلاسفة بوجه عام وخاصة پيير روسو محرر «الصحيفة الموسوعية» التي هي قلعة الزندقة في الممتلكات النمسوية؟ غير أن هذه الصحيفة قد راقبتها كلية لوفان اللاهوتية ثم ألغيت في سنة ١٧٥٩ ونفى الأسقف بيير روسو، فألقى عصا التسيار في بويون حيث أسس «صحيفة بويون» التي استمرت في مهمة «الصحيفة الموسوعية»، وجعل يتلقى المال من جلالة الإمبراطور الذي طرده.

كان في كل هذا اتحاد سرى بين السلطة والفلسفة ضد الكنيسة التي كانت السلطة في الوقت ذاته تدافع عنها.

حقًا إن الحظر -ما دام يراد حظر- كان يمكن أن يكون مستمراً وقاسيًا. ولكن في الواقع كانت تمد لهذا شبكة ذات عيون واسعة إلى حد أنه لم يكن من العسير المرور منها.

كانت هناك نوبات من التعصب تتعاقب على التبادل مع الفوضى، فكانت السلطة تقاوم ثم تتنازل للروح العامة التي كانت عذوبة الحياة تدللها، أو كانت ترأب التشققات ولكنها لم تكن تلبث أن تدعها تتسع ولم يكن ذلك سوى تناقضات... ففي الواقع إن طبقة الأشراف كانت تتمسك بامتيازاتها، ومع ذلك فقد كانت تسترضي الفلاسفة الذين كانوا يكشفون النقاب عن تلك الامتيازات.

ولقد كان أشد الأفاقين تعرضًا للريبة يستطيعون دخول قصور الأمراء، وكانت جماعة الاكليروس الفرنسي تأبى أن تدفع الضريبة وتكتفي بمنح هبة اختيارية تحدد هي مقدارها، وكانت تقاوم السلطة، ومع ذلك فقد كانت تستعدي هذه السلطة على غير المؤمنين.

لم يكن اللاهوتيون -كما كان واجبهم يتطلب منهم- يتساهلون في

المعتقدات، بينما أن الوعاظ الفائزين برضى الجماهير، كانوا يفضلون ألا يتحدثوا عن هذه المعتقدات، وكانوا يكتفون بالحديث عن أخلاق عائمة تدنو من الأخلاق الطبيعية دنواً كافياً لكي لا تفزع أحداً. وكان ذلك الهجران للمذهبية يلاحظ أيضاً في الكنيسة التي تناولها الإصلاح ولنذكر الاتجاهات العقلية لموجهي الفكر اللوثري، ولنضف إلى ذلك أن الكالڤانية الفرنسية -مع دفاعها عن نفسها ضد الاضطهاد- كانت مع ذلك تتنازل عن بعض مبادئها الخاصة، بل إن بعض رعاة چينيڤ كانوا يرون من واجبهم أن يراقبوا أنفسهم حتى لايقبلوا النتائج المتطرفة للمذهب السوسيني الذي كان الفلاسفة سعداء بأن يروهم يخوضون غماره.

عرّف پول ڤاليري -بمناسبة كتاب «الرسائل الفارسية»- تعريفاً فخماً ذلك المعنى النفسي الذي نتج من كل تلك التواطؤات إذ قال: «إن النظام ثقيل دائماً على الفرد، ولكن الفوضى تجعله يشتهى الشرطة أو الموت، هذين هما ظرفان متطرفان لا تكون الطبيعة البشرية فيها مستريحة، ففي الواقع إن الفرد ينقب عن الحقبة المستعذبة التي يكون فيها أعظم حرية، وأكثر ظفراً بالمعونة. وهو يجدها عند بدء نهاية أحد الأنظمة الاجتماعية. وحينئذ يكون بين النظام والفوضى هينهة لذيذة، ومن حيث إن كل الخير الذي يجلبه تنظيم السلطات والواجبات يكون قد تحقق فعند ذلك يستطيع الإنسان الاستمتاع بالرخاوة الأولى في هذا النظام. نعم إن المؤسسات العظمى المهيبة لا تزال قائمة، ولكنها-دون أن يكون شيء مرئي قد فسد فيها- لا تكاد تملك سوى ذلك الحضور الجميل، إذ أن نتائجها كلها قد تحققت، وأن مستقبلها قد نفد بصورة خفية. إن النقد والاحتقار يرهقانها ويخليانها من كل قيمة مستقبلة. وهكذا يفقد الجسم الاجتماعي غده على مهل»(١).

* * *

(١) - Paul Valéy, Préface aux Letres, dans Variétés, 11, 1930

منذ أن هدم «بور-روايال»[1] كان الناس يحسبون أنه لن يسمع أحد الحديث عن الچانسينية. غير أن البراءة البابوية الصادرة في ٨ سبتمبر من سنة ١٧١٣، والتي عنوانها «أونيچينيتوس» «Unigenitus» قد دانت مائة عرض وواحد في كتاب ظهر في سنة ١٦٧١ تحت عنوان «أخلاق الإنجيل» وقد أعيد نشره عدة مرات تحت عنوان جديد هو «أفكار أخلاقية» تأليف الأب كينيل الأوراتوليري. وبعد هذه الإدانة استؤنف الكفاح، وظلت الچانسينية أثناء السنوات الطويلة تزلزل وجدان أوروبا الديني بدرجات مختلفة.

أزهر هذا المذهب في مدينة أولتبريك حيث وجد فيها حواريا في شخص جابرييل دوپارك دي بيليجارد -الذي بوساطة مؤلفاته ورسائله وبأعماله- قد جلب إلى الهرطقة مركزاً من مراكز المقاومة والعمل. وكان له فروع في هولندا وفي بلاط ڤينا حيث كان يبشر به ڤان سويتين، وفي إسبانيا حيث اتخذه المدافعون عن السلطان الملكي حليفًا لهم، وفي البرتوغال، وفي المدرسة الچيرمانية بروما، وفي ناپولي، وفي لومبارديا وفي توسكانا.

وفوق ذلك فإن شيپيون دي ريشى الذي عين في سنة ١٧٨٠ أسقفًا في بيستويا بإيطاليا كان يرحب برسائل الدعاية التي كان يرسلها إليه صديقه بيلجارد، وكان يتبنى في أسقفيته سفراً تعليمياً مصبوغاً بصبغة الچانسينية. وكان يكتب رسائل أسقفية بنفس اللون، وكان يعجب بكتاب الأب كينيل، ويساعد المطابع التي تخرج الرسائل التي تستلهم من آرائه. ولقد أكثر من هذا إلى حد أن تسعين عرضًا من العروض التي بسطتها الجمعية الدينية التي عقدها في ١٨ سبتمبر من سنة ١٧٨٦، قد دانتها البابوية.

---

(١)- بور-روايال هودير كان على مقربة من باريس وكان يجتمع فيه الجانسينيون وهم طائفة دينية كانت تعتنق مذهب اللاهوتي الهولندي جانسين (١٥٨٥-١٦٣٨). ورغم سمو أخلاقهم وصلابة طباعهم، فإن وجهة نظرهم عن الغوث الإلهي، وعن القضاء والقدر قد دفعت البابا إلى أن يدينهم في القرن السابع عشر، ثم انتهى. الأمر بهدم بور-روايال في سنة ١٧٠٩ وبهذا تفرق الچانسنيون شذر مذر. (المترجم)

أما الأحداث في فرنسا فإن الناس يعرفون كيف أن الملك قد أمر بتسجيل البراءة البابوية، وكيف أن البرلمان قد ساعد من لم يقبلوها، وكيف أن آراء الأساقفة قد تباينت في ذلك، وكيف أن حربًا دينية قد تبعت ذلك، وكيف أنه -على قبر القسيس باريس في مقبرة سان ميدار- قد ظهر عدد من المتشنجين، وكيف أن المقبرة قد أوصدت، وكيف أن المعجزات الزائفة قد تعددت، وكيف أن راهبات قد تجشمن الدوس بالأقدام والضرب بالعصى، والانسحاق تحت الألواح بل الصلب لكي يثبّتن عقيدتهن الچانسينية، وكيف أنه ألزم من المؤمنين الذين كانوا يريدون تلقي الأسرار، بتقديم بطاقات معطاة من قسيس خاضع للبراءة، وكيف أن الچانسينيين كانوا يبلغون البرلمان عن القسس الذين كانوا يأبون منح الأسرار بلا بطاقة الاعتراف تلك، وكيف أن البرلمان كان يتعقب أولئك القسس، وكيف أنه بدأ ضد الملكية كفاحًا طويلاً انهزم فيه، وكيف أن الرأي العام قد انقسم وتمزق، وأي انفعال ساد النفوس، وأية مرارة؟!.

وكذلك ظهرت نتائج كل هذا في وضوح، إذ أن أشد موضوعات العقيدة دقة، قد عولجت في الميدان العام، وأن أكثر الناس جهلاً قد حسب أنه يستطيع أن يقول الكلمة الحاسمة فيما إذا كانت العروض التي دانتها البراءة موجودة في كتاب الأب كينيل أو لم تكن فيه. ولقد كان ذلك مألوفًا إلى حد أن قومًا عنيدين كأنهم الشياطين -ومن بينهم نساء ضئيلات الفهم بل خادمات- كانوا يقبلون أن يقطعوا أشلاءً بسبب وقائع أو تفريقات أو تأويلات لا يفهم أكثرهم شيئًا منها[1] وأن السلطة المدنية قد تدخلت في الشؤون الدينية وتدخلت بصورة بلغت من الاستبداد حدًا جعلها تفقد سمعتها. وأن نظام الدرجات الكنسي كان مهددًا، فقد كان يقال مثلاً لماذا كانت سلطة البابا ولم تكن سلطة الأساقفة الذين هم الأخلاف المباشرون للحواريين؟ ولماذا كانت سلطة الأساقفة ولم تكن سلطة القساوسة وهم سفراء الإنجيل؟ ولماذا كانت سلطة القساوسة ولم تكن سلطة المؤمنين الذين يجب أن تكون

(١) Journal de l'avocat Barbier, année 1729

لهم الكلمة الحاسمة باعتبار أنهم أعضاء الجماعة المسيحية؟ وبهذا ألبّتْ الطبقات الدنيا من الأكليروس لاستجهان الأساقفة وأثيرت السلطة الدنيوية ضد السلطة الروحانية. وفي هذه الفوضى ألفى العقليون موضوعًا جميلاً للسخرية لم يفتهم أن يستغلوه.

ومما لا ريب فيه أن الچانسينية قد عملت على التدمير في داخل الدين الذي كانت تريد الدفاع عنه وفي هذا يقول السيد چورچ جويو: «إن العادات وطرائق العمل الچانسينية قد زلزلت نفوذ السيادة الكنسية في الجماعة المدنية، إذ أن هذه الكنيسة -وهي التي كانت بإزاء الفلاسفة في حاجة إلى الترابط قد وجدت فيها ثغرات. وفي الحق أن الحجاج الأتقياء الذين كانوا-فيما بين باريس وموضع أطلال الچانسينيين- يقطعون ثلاث عشرة مرحلة من مراحل الحج كما لو كانوا يزاولون السير في «طريق الصليب» بأورشليم لم يكونوا يرتابون في أن هذا الدين الپور -رواپالي الذي كانوا يقيمون نظام خدماته الأخير، قد صار بلا قصد، مورد ڤولتير وديدرو اللذين كانوا يمقتون اسميهما»[١].

ولكن من الممكن أيضًا أنه- حين ألقت الچانسينية بلهائبها الأخيرة، ولم تعد سوى رماد- اختفى معها من الوجدان العام، عنصر من عناصر القسوة والصلابة وهو الذي كان الفلاسفة يشعرون بأنه يمثل أعظم المعارضات لتساهلاتهم.



أما إقصاء اليسوعيين فقد أدهش المعاصرين إذ أن هذه الجماعة كانت لا تزال جد قوية، فالآباء كانوا أثرياء، وكانوا كثيرين، وصفوة الشباب كانت تختلف إلى مدارسهم في جميع القسم الكاثوليكي بأوروبا، وكانوا يوجهون وجدانات الملوك والملكات، وكان لهم بعثات في الصين، وكان سلطانهم في المستعمرات الإسبانية والپورتوغالية بأمريكا الجنوبية فوق كل سلطان.

---

(١) Georges Guyau Histoire religieuse dans Histoir de la nation Française par Hano-taux, t, VI ch, 6, la fin de l'Eglise d'Ancien Régime p. 481.

وفي بضع ســـنوات تهدم كل ذلك، واتخذت نهايتهم مظهر فاجعة سريعة وحشية.

ولقد كانت المآخذ التي وجهت إليهم قديمة إلى حد أنها كانت تبدو بالية، وكان يتردد أن أخلاقهم مفرطة في الرحمة وكأنها دائمًا مستعدة للتوفيق، وأن معالجتهم الدقيقة للمشكلات الوجدانية مستعدة لجعل الحق في جانب الخاطئين، وأن إلههم الذي كان يمنح الغوث لمن لا يطلبونه، والذي كان يجد في جميع الأخطاء باعثًا للتسويغ، كان ضعيفًا ومتحيزاً، وأنه قد أفرط في الاختلاط بشؤون هذا العالم، ناسيًا السماء. ولكن تلك كانت أغنيات عتيقة يترنم بها في غير نصب، أعداؤهم المغلوبون من الچانسينين.

غير أن هذه المآخذ قد استؤنفت حوالي منتصف القرن، وتعددت وصارت عنيفة ومهددة، فأولت جميع تصرفات اليسوعيين إلى شر، وصارت جميع أخطائهم إجرامية، وإذ ذاك ارتفعت ضدهم موجة من الآراء واختطفتهم.

وقد صدرت إشارة التنفيذ الأولى من ليسبوا عن طريق سيباستيان چوزيف دي كارڤالوي ميلو الذي صار كونت دوييراس في سنة ١٧٥٩ وماركيز دي پومبال في سنة ١٧٧٠. وكان مندوب أعمال في لوندن ثم سفيرا في ڤيينا، ولما صعد جوزيف الأول على عرش البورتوغال عينه وزيراً في سنة ١٧٥٠، فلم تلبث سلطته أن صارت ديكتاتورية، إذ أنه كان يريد أن يصلح البورتوغال وأن يحول فوضاها إلى نظام، وبأساءها إلى هناءة، وأن يكون ذلك فوراً دون نقاش في اختبار الوسائل أو في مشروعيتها أو في خلقيتها، على أن هاتين الكلمتين الأخيرتين لم يكن لهما عنده معنى لأنه كان يحطم كل العقبات التي تعترض سلطة الدولة.

إلتقى في طريق غايته باليسوعيين فبدأ المعركة واقتاد ضدهم حملة مستغلاً مواطن الضعف فيهم ومعايبهم وأنواع الحسد وألوان الكراهية التي أثاروها. وقد جعل يضربهم فرادى في كل مرة يجد فيها الفرصة مواتية. وبعد ذلك أتت التدابير الحاسمة، ففي ١٧٥٧ حظر عليهم أن يتلقوا اعترافات الأسرة المالكة، وأقصاهم

عن البلاط، وفي سنة ١٧٥٨ حظر عليهم الوعظ وتلقى الاعتراف في كل المملكة، وفي ٣ سبتمبر من نفس تلك السنة حدثت محاولة الاعتداء على حياة ملك البورتوغال، فأقحم بونبال، اليسوعيين في المؤامرة واعتقل منهم عشرة وسجن ثلاثة. وفي يناير سنة ١٧٥٩ حددت إقامة الآباء في منازلهم، وصودرت ثرواتهم وفي ١٧ سبتمبر غادر مرفأ ليسبوا مائة وثلاثة من اليسوعيين مبعدين. وأخيراً ظهر مرسوم تاريخه ٣ سبتمبر أقصاهم نهائيًا وحظر عليهم، تحت عقوبة الإعدام، الإقامة في الممتلكات البورتوغالية.

كان بين اليسوعيين المتهمين بالمساهمة في المؤامرة الأب مالاجريدا «Malagrida» الذي كان الوزير قد تشاجر معه في المستعمرات التي استدعى منها، ثم تشاجرا كذلك في البررتوغال. وفي سجن الأب مالاجريدا قد ضبط مخطوطان من إنشائه، أحدهما عن حياة القديسة آن، والآخر عن المسيح الدجال وكان ذلك كافيًا لإرساله إلى محكمة التفتيش على أنه هرطيق وقد حكمت عليه تلك المحكمة بالإعدام فقضى نحبه محرقًا في الساعة الرابعة من صباح ٢١ سبتمبر سنة ١٧٦١. وكان يمكن أن يعتقد أن بومبال كان في حاجة إلى تلك اللهائب لكي يعلن انتصاره في أوروبا.

وفي فرنسا أيضًا كان سخط الشعب على اليسوعيين عظيمًا، وقد أوجدوا هم أنفسهم الصواعق التي كانت تعد بطريقتين: أولاهما أن الأب بيروييه قد أخرج في سنة ١٧٢٨ سفراً عنوانه «تاريخ شعب الإله» أثر في الرأي العام تأثيراً سيئًا، وفي سنة ١٧٥٣ نشر القسم الثاني الذي دانته السلطة الكنيسة. وفي سنة ١٧٥٨، استهجن القسم الثالث منه أيضًا استهجانًا شديداً، وقد صدر الأب بيروييه في مؤلفه عن هذه الفكرة التي مؤداها أن الكتب المقدس غامضة، ولو كانت مترجمة وأنها لا تؤلف تاريخًا تامًا ومترابطًا وأنها تقدم مبهمات هي في حاجة إلى الإيضاح، وأنها-لكي تعالج جفاف الوقائع -في حاجة أيضًا إلى تفكيرات خلقية وسياسية من النوع الذي يقدمه التاريخ المدني. وقصارى القول إن التوراة والإنجيل

بل تاريخ الحواريين يعوزها إنشاء منظم وعرض شيق وكان ينبغي إصلاحها. وعلى أثر ذلك نرى أن الأقسام المختلفة المترابطة معًا ستؤلف جسمًا واحدًا وأن الشخصيات المتفقة فيما بينها، ستديم منظرًا لا ينقطع إلى النهاية التامة، وهو المنظر الذي سيفكر فيه الأبطال ويتحدثون ويعملون، وأن أعمالهم سترسم ولا تعين وأن خطبهم ستسمع وعواطفهم ستستكشف.

ولقد جعل المؤلف يمعن في مزاولة هذا المشروع بشجاعة ورضى عن نفسه وعمى إلى حد أن أي لوم لم يكن يلحقه.

ومع ذلك -وبالرغم من أن الأب بيروييه كان مجحودًا من رؤسائه جحودًا قاطعًا- فإن الفضيحة قد وقعت على الجماعة كلها، إذ أنه أصبح من الهين على أعدائهم أن يقولوا إن اليسوعيين لم يعودوا يكتفون بتلطيف الأخلاق بل أخذوا يزيلون من الكتب المقدسة صبغتها الدينية، وكانت تلك وسيلتهم لأنهم لو كانوا قد ظلوا على صلابتهم في موضوعات العقيدة، ولو أنهم أبانوا للأفراد التافهين والفاسدين إلهًا في شخصيات ثلاث، إلهًا تجسد في بطن عذراء لكي يموت على قطعة خشب موتة وضيعة، ولو أنهم بشروا بالإنجيل في تمامه، لكانت الطبقة العالية التي يحبونها ويتطلعون إلى تفضيلها إياهم وإلى الاعتماد عليها، قد أفلتت منهم، وإذن فقد كانوا يقدمون إليها «مسيحًا» بلا تاج من الأشواك وبلا صليب وبالإجمال لم يكونوا سوى مؤهلين مقنعين(١).

وثانية هاتين الطريقتين أن الأب لاڤاليت المفتش العام والمدير الرسولى حين أخفق ماليًا في المشروعات التي زاولها في المستعمرات، وفي مؤسساته بجزيرة «لامارتينيك»، وحين أراد أن يدفع إلى تجار مارسيليا سلعًا، فاحتجز الحصار الإنجليزي السفينة التي كانت تحمل تلك السلع. وحين رفض اليسوعيون أن يدفعوا

---

(١) Lettres théologiques, dans lesquelles l'Ecriture Sainte, la tradition et la de l'Eglise sont vengées contre le systéme impie et socinien des p.p. Berruyer et Hardouin par l'abbé Oaulter, 1756.t. III, p. 859 spp.

عندما حكم عليهم قضاة مارسيليا، بالدفع، والتجأوا إلى البرلمان، وحين أبروزا نواياهم وشرع البرلمان في اختبارها، حين ذاك فقدت الجماعة.

وفي ٣ يولية من سنة ١٧٦١ نطق چولي دي فلوري المدعي العام في برلمان باريس بقرار الاتهام الذي تبين منه أن وجود هذه الجماعة كان خطراً على الدولة، وقد سارت برلمانات الأقاليم المختلفة على نفس النحو فالتقرير الذي كتبه عن لوائح اليسوعيين لويس رينيه دي لا شاتوليه النائب العام في برلمان بريتانيا الفرنسية، قد ظفر بنجاح خاص وكانت الفكرة الأساسية فيه أن اليسوعيين قد أقسموا على الطاعة المطلقة للبابا حتى في الأشياء المادية وأن البابا قد نقل سلطته إلى قائد الجماعة، وأن الجماعة على هذا النحو تكون ضد الدولة وقوانين الدولة بل ضد جوهر الدولة. فينبغي أن تدان، وأسرع ما يجب عمله هو أن تتنزع منها تربية الشباب وكانت تحت هذه الفكرة فكرة أخرى وهي أن طائفة الرهبان غير نافعة وخطرة بسبب عددها لأنها تضر القسس الذين يحملون عبء الأيام. وما دام أن اليسوعيين هم أرستقراطية الجماعات الدينية، فإن ضربتهم تصيب لوائح كل الجماعات الأخريات.

هناك مراسيم متتابعة قد اتخذت ضد جماعة «غير ممكنة القبول بطبيعتها في دولة منظمة». وأخيراً في ١٨ نوفمبر من سنة ١٧٦٤ أقصاها ملك فرنسا من مملكته «الجد مسيحية».

وبعد ذلك بقليل جاء دور صاحب الجلالة «الجد كاثوليكي»[1] نعم إنه لم يكن في منازعه مع روما ولكنه كان على كراهية منها، لأنه كان يريد أن يدافع ضدها عن امتيازات تاج إسبانيا، ومن ثم فإن اليسوعيين الذين كانوا خير خدام روما قد انقطعوا عن أن يكونوا ذوي حظوة لديه. وهنا أيضاً قد هوجموا فرادى، وهنا أيضاً قد استعملت ضدهم خصومة الجماعات الأخريات، وهنا أيضاً قد اعتزم القضاء عليهم. وفي سنة ١٧٦٦ حدثت فتنة شعبية كانت تدعى بفتنة القبعة

---

(١) جرت العادة بأن يطلق على ملك إسبانيا لقب الجد كاثوليكي كما كان يطلق على ملك فرنسا اسم «الجد مسيحي». (المترجم)

فأزعجت الملك شارل الثالث الذي غادر مدريد، وعندما أخمدت هذه الفتنة، كان ينبغي العثور على الجناة. ولم يكن إذ ذاك أبسط من أن يقال إن اليسوعيين عليهم نصيب من المسئولية. وعندما كانت البراهين تعوز خصومهم كان يقال إنهم سَمَّمُوا الروح العام، في حرب هجائية سبقت الفتنة. هكذا كانت الذريعة، أما وسيلة التنفيذ فقد كان وجودها أكثر صعوبة في ذلك البلد الذي نشأت فيه تلك الجماعة، والذي لا تزال ترتبط به عن طريق مجموعة من الروابط، إذ كان من الممكن أن تخشى اضطرابات.

بيد أن السلطات المدنية قد تسلمت رسائل مختومة كان يجب عليها أن تفضها في مدريد في ليلة ٣١ مارس وأول أبريل من سنة ١٧٦٧، وفي الأقاليم في ليلة ١-٢ أبريل. ولما فضتها وجدت فيها الأمر باحتلال دور اليسوعيين بوساطة مساعدة القوة المسلحة، ثم بأن تجمع تلك السلطة الآباء، وأن تقرأ عليهم أمر النفي الذي كان الملك قد وقعه، وفي ٢٤ ساعة كان يجب أن يقادوا -تحت مراقبة موكب- نحو مكان عين لاجتماعهم، وعلى أثر ذلك يقادون نحو المرفأ الذي سيغادرون منه إسبانيا بلا عودة. ذلك ما حدث بسرعة فائقة إلى حد أن المائتين من الآباء الذين كانوا يقيمون في مدريد قد أبعدوا قبل طلوع النهار بعدة ساعات.

* * *

كانت القوة التي هزمت اليسوعيين هي أولاً روح الزمن الجديد أي «عصر الأنوار»، ومن بين الفلاسفة الذين أبدوا دهشتهم وسرورهم بمناسبة ذلك الحدث الذي لم يكونوا يجرؤون على تمنيه، والذي أفعم نفوسهم سروراً. ومن أكثرهم وضوحاً: دالمبير، ففي مذكراته التي عنوانها «عن هدم اليسوعيين في فرنسا» (١٧٦٥). يشرح لقرائه أن هذه الواقعة يجب أن تتخذ مكانها بين أشد الأحداث تفوقاً في عصر سوف يبرز هو نفسه في تاريخ العقل الإنساني، وأنها ستوضع في نفس الصف الذي توضع فيه الزلازل والحروب وانقلابات الأحلاف، ومحاولات اغتيال الملوك، وهي جديرة بأن تنال كل انتباه، ففي الواقع أن هذه الجماعة كانت

أسمى كل الجماعات بسبب المكانة العالية التي كان اليسوعيون يحرزونها في العلوم والفنون، وانتظام سلوكهم وطباعهم وأيضًا بسبب المهارة التي كانوا يضعونها في التوفيق بين الأخلاق والضعف البشري.

عرفت هذه الجماعة في عصر لويس الرابع عشر، أرفع درجات هنائها، ولكنها الآن قد هوت لأنها أرادت أن تسود جميع الأرض، ولا شيء يشوك العقول المفكرة بقدر ما تشوكها رؤية رجال تخلوا عن العالم، وهم يتطلعون إلى حكمه. ولقد أجاد لاشاتوليه إذ قال في هذا الصدد: «إن الروح الراهبية هي وباء الدولة، وإن اليسوعيين -من بين جميع الذين تحركهم هذه الروح- هم لأشد ضرراً، لأنهم هم الأشد قوة، ولذا فيهم ينبغي البدء في التخلص من النير»، لأنه إذا انهزم رئيس الجيش تفرق الباقي خلال الغابات. وعندما يتأمل دالمبير في الأسباب الصغيرة التي أتت بهذه النتيجة العظمى، وفي أن العاصفة قد هبت من أشد الدول ارتباطًا بالقسس وبالرهبان، وفي أن طائفة محتضرة ومهينة قد أتمت المشروع الذي لم يستطع باسكال، وأرنو، ونيكول تنفيذه، عندما يتأمل في كل هذا يعين العدو الحقيقي الذي إليه يرجع مجد الانتصار، وهو الفلسفة، فهي التي أصدرت الحكم ضد اليسوعيين ولم يكن الچانسينيون سوى ملتمسين.

غير أن القوة التي هزمت اليسوعيين بعد ذلك إنما هي غريزة الدولة وإرادتها[1] التي لم تكن تريد أن تقر فوقها ولا بجانبها قوة ليس لها عليها سلطان، إنما ملوك أسرة بوربون هم الذين عملوا في عنف ضد هذه الجماعة لأنهم لما كانوا ملوكًا لأشد الممالك كاثوليكية. فقد كانوا يشعرون -في قوة بالغة- بالحاجة إلى قطع الصلة بينهم وبين خدام روما- وإذا كان فريديريك الثاني ملك بروسيا قد استقبل اليسوعيين في ولاياته البروتستانتية فذلك لأن سلطانه لم يكن لديه

(١)-في عصر الملكية المطلقة كان مؤدى الدولة والحكومة والملك واحدًا. وقد دون لويس الرابع عشر ملك فرنسا هذا المعنى في سجل التاريخ بعبارته المشهورة وهي: «إن الدولة هي أنا». (المترجم)

ما يخيفه منهم[1]. أما جوزيف الذي كان وصياً على عرش الإمبراطورية النمسوية مع والدته ماري تيريز، فقد كان من الممكن أن يقصيهم في غبطة إذا صدقنا ما كان يسرُّ به إلى شوازول رئيس وزراء فرنسا، إذ كان يكتب إليه قائلاً: «أما فيما يتعلق باليسوعيين، وفي مشروعك بمحوهم، فإن لديك استحساني التام لذلك. ولكن لا تعتمد كثيراً على والدتي لأن الارتباط بجماعة اليسوعيين قد صار وراثياً في أسرة بيت أيسبور وأن برهان ذلك عند البابا كليمان الرابع عشر، ومع ذلك فإن كونيز هو صديقها وإنه يستطيع أن يفعل ما يريد بالإمبراطورة، وهو من حزبك وحزب الماركيز دي بومبال فيما يختص بمحو اليسوعيين، وهو رجل لا يرضى بأنصاف الحلول.

يا شوازول، إني أعرف هؤلاء الناس كما يعرفهم أي خبير بهم. وإني أعرف جميع المشروعات التي نفذوها، والجهود التي بذلوها لنشر الظلمات على الأرض، ولحكم أوروبا وسيادة الاضطراب فيها، من رأس فينيستير إلى بحر الشمال. إنهم في ألمانيا مثقفون ذوو تأثير، وفي فرنسا مجمعيون، وفي إسبانيا والبرتوغال هم عظماء الدولة، وفي پاراجواى ملوك.. كل ذلك كان في الماضي يا شوازول لأني أتنبأ بأن الأمور ستتغير».

وبعد أن أقصيت الجماعة من جمهورية البندقية، ودوقية پارما، ومملكة صقليا، وبعد بضع مقاومات عابثة، ألغيت الأخوة اليسوعية كلها في ٢١ يولية من سنة ١٧٧٣ بمقتضى براءة بابوية عنوانها «الرب هو المنقذ» «Dominus ac Rrdemptor».

* * *

بيد أنه كان من العبث أن كليمان الرابع عشر في هذه البراءة قد جعل يهيب

---

(١) إن الملك الكاثوليكي تلزمه كاثوليكته بأن ينفذ أوامر البابا الواردة على أيدي خدامه اليسوعيين وقد تضايقه هذه الأوامر في سلطانه الدنيوي فمن صالحه إذن أن يتخلص من هؤلاء الخدام ليستمتع بسلطته مع احتفاظه بكاثوليكته. (المترجم)

بجميع أعضاء المسيحية، ويتوسل إليهم باسم هذه التضحية نفسها أن يعيدوا استقرار سلام الكنيسة أمام المهاجمات الضاغطة الآتية من العدو المشترك، لأن المؤمنين قد اختلط عليهم الأمر ما دام أن رعاتهم لم يكونوا يكفون عن الشكوى من تقدم اللادينية، وأن الفلاسفة لم يكونوا يكفون عن التباهي بنفس التقدم للادينية وأن الحاجز كان قد تحطم وأن موجة الزندقة قد ارتفعت.

ومع ذلك فهل كان حقًا أن أولئك الفلاسفة الذين استولوا إذ ذاك على زمام الفكر، قد انتزعوا قلوبهم المسيحية القديمة؟ وهل الاعتقاد لا يتعقبهم إلى أعماق تمردهم؟ أو لم يبسطوا جميع المشاكل من الحيثية المسيحية، وليس خارجها ألبتة؟ أو لم يبرز تحرشهم نفسه وجود قوة عنيدة لم تغلب ألبتة؟. وأيًا ما كان فإنهم يحسبون أنفسهم قد تحرروا، وإن مؤرخ الأفكار يجب عليه، قبل كل شيء، ألا يسجل ذلك المجهود الضخم الذي بذلوه لكي يحولوا أوروبا المسيحية التي وجدوها أمامهم، إلى أوروبا غير مسيحية. وإن ما يجب على هذا المؤرخ أن يدرسه بعد ذلك، هو ما عرضوه لكي يحل محل ما هدموه.

# القسم الثاني

## مدينة الأناسي

# الفصل الأول

## الدين الطبيعي

ستبنى مدينة الأناسي حسب تخطيطات بسيطة عندما تكون قد تهدمت تلك العمارات المهوشة التي كانت تغطي الأرض، بل تلك التأسيسات العتيقة التي لم تكن تسند سوى بنايات فشلت. وإذ ذاك تقوم فوق أرض مستوية، هذه المباني المنطقية. ولا جرم أن عمالها ـ دون أن يبحثوا عن أن يستخدموا الماضي وأن يحسنوه بإصلاحات في التفاصيل، وهو عمل مفرط في البطء ـ سيقيمون تخطيطًا كاملاً لسكان سينتهون إلى الكف عن الاعتقاد بأن ليس لهم سوى بابل كمسكن وسوى سماء غير يقينية كأمل.

هناك بابل كانت تثير الجرآء الذين كانوا يشرعون في العمل، كلمة سحرية قد أضيفت إلي تينك الكلمتين اللتين رأيناهما سابقًا أي العقل والنور، وهي كلمة الطبيعة، وكانوا يعزوا إليها فضيلة أكثر أثرًا، مادام أن الطبيعة كانت منبع النور، وضمان العقل، كانت هي الحكمة، وكانت هي الخيرية، ولو أن إنسانًا كان يقبل أن يستمع إلى الطبيعة، لما انخدع أبدًا لأن حسبه أن يطيع قانونها المحسن.

وهكذا للبدء في هذا العمل يجب أن يصير الدين طبيعيًا. يصير طبيعيًا لأنه حينئذ لايكون سوى انبثاق من الطبيعة، ولأنه سيتبع الغريزة التي وضعتها الطبيعة فينا لكي تسمح لنا بأن نميز الحق من الزائف والخير من الشر، وأيضًا لأنه ـ بدلاً من أن يجعلنا نعتبر حياتنا الفانية على أنها محنة ـ سيخضع لقانون الطبيعة الذي يريد سعادتنا بلا محنة.

مضى زمن طويل منذ أن أعلن أنبياء مجيء الدين الطبيعي. وقد أعد في بطء وفي عمق غير معروف للجماهير، ولكنه منذ الآن يبدو في وضح النهار، ولم يكن محتواه هو الذي جعله يظهر كأنه حدث عجيب، بل هو كبرياؤه وجرأته.

كان من الممكن أن يحتفظ فيه بإله، ولكنه يكون بعيداً وباهتًا إلى حد أنه لن يضايق مدينة الأناسي بمحضره، وأنه لن يحدث فيها اضطرابًا بسبب غضبه، وأنه لن يكدرها بمجده. ولاريب أن هذا التأليه فيه سيكون نتيجة لعملية عقلية نقية تنتهي إلى جزم عنصري وكاف وهو وجود الإله، ففي الواقع إن نظرة واحدة تلقى على الخلق تكفي لملاحظة نتائج جديرة بالإعجاب. ولما لم يكن من المستطاع تصور نتائج بلا علة، فإنه ينبغي إذن، فرض علة أولى، ولأنه لاتوجد ساعة بلا (ساعاتي) وأن لدينا أمام أعيننا ساعة جيدة الضبط، فإنه يوجد إذن، عامل ماهر قد صنعها وأنه هو الذي ينظم ضبطها وهو الإله.

لأية غاية انتزع الإله العالم من العدم؟ حقًا إن الإجابة محيرة، ولكنه يكون أشد مدعاة للحيرة أيضًا أن يقر الإنسان فرض عالم لم ينشئه أحد وهو يسير بالمصادفة ولا يتجه نحو أية غاية. ولاجرم أن هذا يساوي القول بأن كائنات عاقلة، يمكن أن تخلق بلا تدخل العقل. وإذن فيجب علينا حسب المنطق القويم، أن نفضل العسير على المستحيل، وأن نقر العلل الغائية وذلك حل يمكن أن يكون مرضيًا.

إن التأليه يحقق نوعًا من التطهير، ففي الواقع أننا إذا محونا كل مايبدو لنا خرافيًا في الكنيسة الرومانية ثم في الكنيسة المصتعة، ثم في كل كنيسة وفي كل مذهب، فإنه في نهاية هذه الانمحاءات سيبقى إله، ولكنه إله غير معروف وغير ممكن المعرفة. ومن ثم فإنه لايكاد يحتفظ له بغير الكينونة ومن بين جميع النعوت الممكنة لم يعط سوى أشدها إبهامًا وأكثرها إجلالاً، وقد دعي بالموجود الأسمى.

مافائدة الأسرار؟ والطقوس؟ والكنائس؟ والمعابد بجميع أنواعها؟ فجزيرة العقل ستكون أكثر جمالاً بلا قباب وبلا أبراج للنواقيس. ولماذا يوجد القسس أو الرعاة؟ إذ أن الإله لايمكن إجلاله إلا بالعادة الباطنية التي تثوى في النفس.

وقصارى القول إن إقرار المرء في العموم بموجود أول، وتوجيهه قلبه من وقت إلى آخر نحوه، وامتناعه عن الأفعال التي تخل بالشرف في البيئة التي يقيم فيها، وتأدية بعض الواجبات في المجتمع، هذا هو الضروري الوحيد، وكل مايبقى بعد ذلك هو عرضي. وفي عداد تلك الواجبات لاتدخل المناسك الدينية العملية التي تحول المؤمنين عن العبادة الحقيقية لأنهم ـ بانشغالهم في سماع الوعظ ـ يهملون معرفة الغير. وبهذه المناسبة ويروي توسان المؤله[1] القصة الآتية...

كان مع أورجون رفيقة وحيدة وهي ابنته، فيلوتيه، وفي أحد الأيام هوى في إغماء طويل، فجعلت تنشقه أحد السوائل المألوف استنشاقها إذ ذاك في مثل هذه الحالة، فلم يخفف هذا الدواء شيئًا عنه، وفي أثناء ذلك حلّت ساعة الصلاة، فوكلت فيلوتيه أمر أبيها إلى الإله وخادمتها وتناولت غطاء رأسها وكتاب صلاتها وهرولت نحو الكنيسة. ولما كانت الصلاة طويلة فقد توفي أورجون، دون عون... غير أن فيلوتيه قد حسبت أن رنين الناقوس هو صوت الإله الذي كان يدعوها، وأنه يعتبر عملاً بطوليًا أن تفضل أمر السماء على صرخة الأبوة، وهكذا عند عودتها قدمت في سخاء، حياة والدها ضحية إلى الإله، وحسبت أن عبادتها ذات قيمة لأنها كلفتها كثيراً[2].

وأخيراً يختتم توسال قصته معلنًا أنه لاشيء يمنع الأناسي من أن يسلموا أنفسهم. إلى الفضيلة عندما تكف فيلوتيه عن استعمالها إشارة الصليب[3].

يتطلب الدين الطبيعي التخلي عن صور الأبن على صليبه، وصور جمعية الملائكة، ووجوه القديسين المبدلة، وهجران التقاليد التي كانت تقتاد المؤمنين حول

(١) المؤلهون هم أصحاب مذهب الدين الطبيعي وهم الذين يؤمنون بوجود الإله: لكنهم ينكرون الوحي في أي دين وقد نشر هذا الدين في القرن الثامن عشر. (المترجم)

(٢) Toussaint, Les Moeurs, 1748, Disconrs préliminaire sur la vertu

(٣) يريد المؤلف أن يقول إن الناس يستطيعون أن يقوموا بالواجبات الحقيقية عندما يكف الموسوسون عن التفاني في المظاهر الدينية الخارجية. (المترجم)

حظيرة الرب في عيد الميلاد، بل إن الأطفال أنفسهم لن يكون لهم الحق في أن يعيروا الإله جسمًا وأذرعة يجتذب بها، وأيدي يبارك بها ولكي لايصنع منهم وثنيين ينبغي أن يحظر على الأساتذة الأولين كل إشارة، وكل تعبير يحتمل أن يدع تلاميذهم يحسبون أن الموجود يمكن أن يكون ممثلاً. ويروي بهذه المناسبة أن القسيس فوتان، وهو رجل عالم، عندما كان يزور في أحد الأيام، آباء الصحراء، ألفى بينهم راهبًا فاضلاً يدعى سيرابيون كان جديًا وذا سلوك لاتؤخذ عليه شيء، ولكنه كان معتادًا أن يتمثل الإله في شبه الفانين، فتحدث فوتان إلى سيرابيون الشيخ وأصلح خطأه ثم استأنف سفره ـ غير أن سيرابيون منذ تلك اللحظة حين كان يريد الصلاة، كان يهوي في يأس عظيم ويقول: «واأسفاه! كم أنا تعس! لأنهم انتزعوا مني إلهي! ولم أعد أعرف الآن بمن يجب أن أرتبط، أو من يجب أن أعبد، أو إلى من يجب أن اتجه ...»[1].

أما فيما يتعلق بسيرابيون المسكين وبأسفه ودموعه، فإن المؤلهين لو شاهدوا ذلك لما وجدت لديهم رحمة بل لوجد لديهم احتقار فقط.

كانوا يؤملون أنهم، باحتفاظهم بهذه الديمومة للإله، يحققون عمومية أكثر اتساعًا من العمومية التي حققتها الكاثوليكية نفسها، لأن دين المسيح عندهم ـ وهو لم يبدأ إلى منذ تاريخ حديث نسبيًا، ولم يقدم إلا إلى أقلية من سكان الأرض ـ وهو محدود بصورة مزدوجة، بينما أن الدين التأليهي كان يجد أنصاره في عظم الزمان والمكان. وفي هذا يقول ڤولتير: «إننا نعلن أن ديننا قديم بقدم العالم، وأنه هو دين آدم وشيث ونوح، وأن «لي» وشانجتي، وتيان كان السير[2] يعبدونهم. وبراهما الذي كانت شعوب الجانچيز تعبده، وذلك الكائن العظيم الذي يدعى هورماز عند قدماء الفارسيين، وأن ديميور جوس الذي مجده أفلاطون عند

---

(١) jen Brémond, les péres du Désert, 1927, t. II,p.524- 526.

(٢) السير هو أسم كان أهل العصور الأثرية الغابرة يطلقونه على شعوب الشرق الأقصى. (المترجم)

الإغريق، وجوبيتير الذي هو جد عظيم وجد خير عند الرومان هم صور مختلفة لإله واحد للموجود الأعلى»[1]. ولقد كان ڤولتير يعتقد أنه لو وجد سكان في نجوم المجرد، لكان أولئك أيضًا مؤلهين وقد كتب في هذا يقول: «كنت أتأمل في هذه الليلة، وكنت منغمسًا في مشاهدة الطبيعة، وكنت أعجب بعظم وسير وعلائق هذه الكرات غير المتناهية التي لايعرف الدهماء كيف يعجبون بها، وكنت أعجب أكثر من ذلك أيضًا بالعقل الذي يرأس تلك المحركات الواسعة وكنت أقول لنفسي ينبغي أن يكون المرء أعمى لكي لايبهره هذا المنظر، وينبغي أن يكون غبيًا لايقر بمنشئها، وينبغي أن يكون مجنونًا لكي لايعبده، وأية صورة من العبادة يجب أداؤها إليه؟ وهذه الواجبات ألا ينبغي أن تكون هي ذاتها في كل الكون؟ ولو أن كائنًا مفكرًا يقيم في أحد نجوم المجرة، أفليس يجب عليه له نفس الإجلال في جميع الكون؟ إذ أن النور هو ذاته بالنسبة إلى كوكب الشعري وإلينا ...»[2].

وإذن فلن يقصى أحد عن هذا الدين الطبيعي، ولن يقضي فيه على أحد لأن كل مخلوق بشري سيأخذ بحظ منه. ولقد ساهم فيه الأمريكيون ولو أنهم منعزلون في قارتهم غير المستكشفة، وكذلك الوثنيون قد اشتركوا فيه أي جميع الوثنيين ذوي النية الحسنة الذين عاشوا قبل الوحي المسيحي.

* * *

ماذا كانت قوى الإلحاد إلى جانب التأليهية؟

ينبغي بديًا أن يعد بين أنصاره بعض ورثة تقاليد حرية الفكر، فمن أمثلة ذلك أن جريم يحدثنا: «أن قسيسًا قصيرًا أحدب يدعى ميهيجان ـ حين اضطر بواندان الشهير إلى هجر مقهى پروكوپ الذي كان يبشر فيه بالإلحاد في صراحة ـ قد أراد أن

(١) Voltatie, les Adorateurs ou les louanges de Dieu, 1769

(٢) Voltaire, questions sur 1, Encyclopédie, art. Religion, 1771

يخلفه في هذه المهمة الجميلة، ولما لم يكن مكتفيًا بأن يخطب في ذلك بصوت عال فقد ألف كتابًا رديئًا عنوانه «زرواستر» سحق فيه كل وحي لكي يقر قرار المذهب الطبيعي. وقد تسبب هذا الكتاب الصغير في أن يزج به في غياهب «الباستيل» أكثر من سنة»[١].

ومنها أيضًا أن البيرتو رادايكاتي دي باسير انو ذلك الإيطالي الساخط على الجميع وعلى نفسه، والذي لم يكن له بد من أن يغادر بلاده وأن يذهب إلى انجلترا حيث تحالف مع توماس مورجان، ثم مر بهولندا حيث توفي دون أن يترك مايدفع منه نفقات دفنه. وقد انتقل البيرتو راديكاتي من الكاثوليكية إلى الكالڤانية إلى التأليهية، ومن التأليهية إلى الإلحاد. وعنده أنه لاتوجد في هذا العالم عدالة ولا حياة أبدية، وأن فكرة البدء هي مستحيلة كفكرة النهاية، وأن الموت ليس سوى انحلال عناصر تستخدمها الطبيعة لتصنع منها كائنات جديدة ولاينبغي الخوف منه. وإذا كان المرء تعسًا فلينتحر بكل بساطة.

ولاجرم أن هؤلاء الثائرين كانوا يبرزون من مجموعة جعلت تصير أقل عداوة لجحودهم، ففي الواقع أن الناس ـ بدلاً من اعتبار الملحد كأنه مجرم ـ كانوا يغتبطون بأن يمنحوه شيئًا من الظروف المخففة، كأن يقولوا مثلاً: قد لايكون إلا رجلاً مخدوعًا. على أنه، احقا قًا للحق، كان هناك نوعان من الملحدين أولهما الملحدون الفاسقون الذين لا أخلاق لهم، والذين هم ضد الدين لأن الدين يشهد ضد حياتهم، وهؤلاء يستحقون الذم، وهناك أيضًا ملحدون فضلاء يحبون ما هو خير ومعقول وجميل. وكان هؤلاء يعزون الإنسانية ويبدون اجتماعيين، وهم لم يهووا في الإلحاد إلا بسبب شرفهم الطبيعي، ولكنهم رضعوا الخرافات مع لبن مراضعهم، وحينئذ خلطوا بين الخرافة والدين، وذلك سوء فهم خليق بالصفح، ومع ذلك فإن إصلاح الملحد أيسر من إصلاح المتحمس أو المتعصب.

---

(١) Grimm, Corses. littéraire, t, II, P. 218, 1754

أجل إن كثيراً من أولئك الذين تبعوا مزاعم بيل قد عنوا بأن يضيفوا ـ لكي يدافعوا عن الملحد ـ أنه كان مخطئًا بلا ريب. غير أنه رغم ذلك، لاينبغي أن يعطى الدرجة الأخيرة من سلم الأناسي. على أنه، ألم يسيء استعمال هذا الأسم أو لم يكن يستخدم لإلقاء الاحتقار على فلاسفة جد خليقين بالاعتبار لم يكن لديهم خطأ آخر سوى إرادة تبديد تسرعات الجماهير؟ أو لم يطبقوه على مفكرين جديرين بالإعجاب كسقراط؟ أو لم يحرقوا ڤانيني بسبب الإلحاد؟ ومع ذلك فإن ڤانيني لم يكن ملحداً.

وإذن فقد كان من المقرر أن التأمل الطويل، والدراسة العميقة، والتطلعات الخيرة، والتخلي الكامل عن التسرعات، يمكن أن ينتهي بعبقرية عظيمة إلى الإلحاد، أو أن الإلحاد كان رذيلة بعض ذوي الذكاء. ولقد شاهد الناس للمرة الأولى ملحداً، وهو السيد دي ڤولمار، يتخذ صورة بطل جذاب في أشهر روايات العصر وهي «إيلوإيز الجديدة» لجان جاك روسو.

ولاجرم أن ظل الرحمة هذا الذي كان يخلف قسوة تامة، يشف عن تعديل أولي للحالة العقلية الماضية. وهاك الآن التعديل الثاني:

* * *

حدث في تلك العقلية انزلاق نحو مادية فلسفية، ففي الواقع لم يكن هناك شيء أكثر ثباتًا إلى ذلك العهد، من مبدأ أن الروح تختلف اختلافًا جوهريًا عن المادة. وبينما كانت الحال على هذا المنوال إذ بهذا الاختلاف ينمحي بسبب رجل كان يريد أن يبقى مسيحيًا، وهو لوك ورجل آخر كان يريد أن يظل على مذهب المؤلهين وهو ڤولتير. إن الأمثلة عديدة على أن هناك فكراً قد انحرفت واتخذت على معنى مضاد ووجدت نجاحها في هذه الضدية. وإن الفكرة التي نتحدث عنها قد أفلتت من مبتدعها وخدعته لأنها انشئت لتبرز القدرة الإلهية فاستخدمت في الخلط بين الروح والمادة، وفي أن تستحسن ـ بإزاء طائفة من الفلاسفة ـ عدم فائدة

ما كانوا يسمونه نظرية النفس، ففي الواقع أن لوك قد احتفظ بضمير متزمت، وكان يتخذ الإنجيل قاعدة لعقيدته، وكان يغتم عندما كان الناس يعدونه بين الزنادقة. ولكنه لما كان مشغولاً بتعيين الحدود الضيقة لمعرفتنا، فقد أبان مانحن فيه من استحالة العثور على اليقينيات التي نتو ق إليها إذ قال: «إن لدينا مثلاً فكر المربع والدائرة، ومايشتمل على المساواة. ومع ذلك فمن الممكن أننا لن نكون أبداً قادرين على أن نجد دائرة مساوية لمربع، وأن نعرف ماإذا كان ذلك يوجد بطريقة يقينية. وكذلك لدينا فكر عن المادة والفكر. ولكننا قد لانكون قادرين على أن نعرف ماإذا كان الكائن المادي المحض يفكر، أو لا يفكر، لأنه من المستحيل علينا أن نتبين - بوساطة تأمل أفكارنا الخاصة، وبلا وحي - ماإذا لم يكن الإله قد منح، بعض أجرام من المادة المزودة بالاستعداد الذي يبغيه هو، المقدرة على التصور والتفكير، أو ما إذا كان قد ضم إلى المادة المستعدة على هذا النحو، جوهرياً غير مادي يفكر[1] ... »

استهوت هذه الفقرة فولتير فوقف أمامها حين خصص الرسالة الثالثة عشرة من رسائله الفلسفية للوك الذي لا ند له، كما يدعى في ذلك الحين، فسردها بعد أن خففها بلون من ألوان المرح، لكي لا يصطدم وجهاً لوجه، بسادتنا اللاهوتيين أولئك القوم الذين يرون في وضوح، روحانية النفس الى حد أنهم يحرقون، لو استطاعوا، أجسام من يرتابون في ذلك.

هكذا كان فولتير يتحدث الى أصدقائه. بينما كان في النصوص المعدة للكافة، أكثر تبصراً، ولكن خطتـــه كانت جد حازمة إذ يقول: «إن لوك بعد أن دمر الفكر الفطـــرية - جعل أخيراً يختبـــر امتداد المعارف البشرية أو بالحري عدمها، وهو في ذلك الفصـــل يتجرأ على أن يقـــدم في تواضع، هذه الكلمات: من الممكن ألا نكون أبداً قادريـــن على أن نعرف ما إذا كان هناك كائن مادي محض، يفكر أو لا يفكر».

---

(1) An Essay concerning Human understanding, livre 4, ch. 3 traduction Coste

على أثر ذلك دق اللاهوتيون والمتدينون، نواقيس الخطر. وفي هذا يقول فولتير: «لقد حسب الناس أن لوك كان يريد أن يقلب الدين، ومع ذلك فلم يكن الأمر في هذا الشأن، يتعلق بالدين، وإنما هي مسألة فلسفية محضة جد مستقلة عن العقيدة والوحي، فكان ينبغي فقط أن يختبر المرء بلا حدة ما إذا كان هناك تناقض في أن يقال: إن المادة يمكن أن تفكر، وإن الإله يستطيع إمداد المادة بالفكر».

عاد فولتير عشر مرات، وعشرين مرة، الى نفس الفكرة وزينها حسب طريقته وصيرها براقة، ومنحها اتساعاً جديداً. فمن قبله. وعلى أثر نشر كتاب «محاولةعن العقل البشري، كان الأصدقاء والأعداء قد تناقشوا في موضوعه: كان إدوار استيلينفليت أسقف وورسيستير قد احتج ورد عليه لوك، ولخص كوست مترجمه الى الفرنسية، ذلك الرد بقوله: ولقد رجع السيد لوك الى القول بأنه لا يوجد تناقض منطقي في أن يفرض المرء أن القوة الإلهية الكاملة، يمكن أن تذهب الى حد تزويد المادة بالفكر ولا شيء أكثر من ذلك. ولقد استخلص بيل ما احتوت عليه جميع الصيغ وساءل هذه الصيغة عن معناها بالضبط ثم قال: «إن مذهب السيد لوك هذا، ينتهي بنا الى ألا نقر سوى نوع واحد من الجوهر المتحيز الذي يتصل بالامتداد عن طريق إحدى خاصياته، وبالفكر عن طريق الأخرى، وإذا أقر هذا فلن يمكن أن يستنبط منذ الآن أنه لو فكر الجوهر لكان غير مادي». ولقد فهم كولينس وتولاندا الفائدة التي يمكن استخلاصها من حجة يزيد من نفاستها أنها آتية من خصمهما، وقد اغتبطا بذلك في شيء من الخبث. وأما ليبنتز فقد اغتم بسبب أن الدين الطبيعي نفسه قد جعل يضعف ضعفاً شديداً لأن كثيرين يرون أن النفوس جسمية، وآخرين يرون ان الإله جسمي، وأن السيد لوك وأشياعه يرتابون فيتساءلون عما إذا لم تكن النفوس مادية وقابلة للفناء. ولقد وضع كلارك الأمور في نصابها عندما رد على ليبنتز فقال: نعم إن عدة مواضع من مؤلفات السيد لوك يمكن أن تجعل المرء يظن أنه يرتاب في لا مادية النفس، ولكن لم يتبعه في ذلك إلا بضعة من الماديين الذين لا يكادون يستحسنون من منتجات السيد لوك سوى أخطائه.

وإذن فهذه الفكرة كانت تعيش منذ نصف قرن من الزمن، وكانت قد حُمِّلَتْ عبئًا ثقيلاً من المناقشات والتأويلات، حين أعاد فولتير انبجاسها من جديد، وقد ألفاها بسيطة وجلية الى حد استدعى اختفاء عقبة قد ظن أنها لا تذلل، وهو في هذا يقول: «إن رسالتي عن لوك تتلخص فيما يلي: إن العقل البشري لا يستطيع أن يثبت أن من المستحيل على الإله أن يضيف الفكرة الى المادة. وإني أعتقد أن هذه القضية توازي في حقيقتها، القضية التالية: إن المثلثات التي تتحد قواعدها وارتفاعاتها: متساوية»(١).

وهكذا بعد فولتير، قد اعتبر خصوم الروحية أن المسألة قد سويت، واتخذوا حجته فيها على أنها حاسمة، وجعلوا يسألون: لماذا توجد ثنائية في الجوهر؟ وقد قال لوك إن النفس يمكن أن تكون مادية.



حدثت أيضًا محاولة نحو مادية علمية، مجملها أن كل الحياة تتضح بالمادة وحدها، هكذا كان يقول بعض العلماء الذين كانوا يهبون لمساعدة جرآء الفلسفة مع ازدرائهم إياهم قليلاً، إذ أنهم كانوا يزدرونهم كقوم يرتضون الألفاظ الجوفاء، وهم - ولو أنهم يدعون أنهم لا يعبأون إلا بالوقائع - لا يعملون عقولهم إلا في ألفاظ، بينما أن أولئك العلماء الذين كانوا مؤمنين بأنهم كذلك. كانوا يتحدثون بوصف أنهم ملاحظون يدرسون الطبيعة في صورها الحية، ويعرفون ما هي، فكانوا - في كتاب بعد كتاب وفي صورة تشبه العناد - يتناولون الحوار حول مسألة معرفة ما إذا كان للحيوانات نفوس أوْ لا، لأنهم كانوا يرون أن الروحيين أنفسهم يقدمون إليهم حجة جد نفيسة بقولهم إن الكائنات العضوية المنظمة، تستطيع أن تحيا حياة جيدة مستغنية عن النفوس.

حقًا إن مذهب إيبيكور ونظرية الذر وائتلافه، والمحاولات التي لا تحصى

---

(١) Voltaire a M. de la Condamine 22 juin 1734.

والتي انتهت الى تلك اللعبة السعيدة التي كونت العالم، قد بقيت عزيزة على عقولهم، ومع ذلك فإن تلك المذاهب لم تكن تبدو لهم قادرة على أن تشرح شرحاً تاماً، تلك الظاهرة الحيوية، وكان من المهم أن يعود إليها شيء من الشباب. وذلك ما فعله عدد من الشواذ. ومن أمثلة ذلك بينوا دي ماييه ذلك السياسي المتقاعد الذي - بعد أن كان قنصلاً في مصر وسفيراً في الحبشة، وقنصلاً في ليقورنا، ومفتشاً في المؤسسات الفرنسية في الشرق، وفي شواطئ البربر - نشر في سنة ١٧٤٨ كتابه «تيليا ميد» أو «محادثات فيلسوف هندي مع مبعوث فرنسي، حول نقص البحر وتكوّن الأرض، وأصل الإنسان وما إلى ذلك...»

توجد في هذا الكتاب ذكريات عن الشرق بلد العجائب وبلد الحكماء، وتوجد فيه أيضاً حسب تقاليد العصر، رحلة خيالية. كما يوجد فيه تأثير فونتينيل و«محادثاته»، وكذلك الرغبة في الرد على أحد الشواغل المعاصرة، وذلك كقولهم مثلاً لماذا توجد أصداف على قمم الجبال؟ ولا جرم أن الإجابة على هذا السؤال خليطاً من الحقائق والمعتقدات الساذجة... إذ يقول: إن حدود البحر ليس مستقرة بل هي تتقهقر فينقص امتداد البحر، وذلك ثابت بأقيسة يقينية. ومن ناحة أخرى، أظهرت الرجوس[1] الوثيقة ان قاع البحر يحتوي على أوجه شبه بينه وبين طبيعة جبالنا وأوديتنا وإذن فالبحر قد غطى في الماضي كل الأرض، والأصناف التي تحصل عليها فوق القمم تشهد بذلك. وإذن فليس الطوفان سوى تأويل لواقعة علمية لا تستدعي تدخل الإله. وإذن فكوكبنا قد تكون بوساطة تطور بطيء للمادة يقتضي إقصاء فكرة الخلق المرتجلة "ex abrupto" والمادة الأزلية تتخذ صوراً متنوعة كما يمكن أن يلاحظ ذلك بمشاعدة المجموعة الشمسية التي ليس ثبات كل ما فيها سوى ثبات نسبي لأن هناك نجوماً قد اختفت، وأخرى تظهر، بل إن مصير أرضنا نفسها غير يقيني. لقد تجف يوماً وتحترق. ومن الممكن أن تكون الحياة قد نشأت من البحر، كما يشهد بذلك وجود عرائس البحر ورجال الأسماك...

---

(١) الرجوس: جمع رجس وهو سبر غور البحر (المترجم)

وعند روبينيه أنه كان في البدء خليط من أصول الكائنات التي انتظمت بعد خصبها، حيث طفقت الأرض والماء والهواء والنار تنمو وجعلت الأحجار والمعادن تفقس، وأخذت الجبال تتكون في بطء وظهرت النباتات وضاعفت الطبيعة المحاولات التي انتهت بها الى تكوين الإنسان، وهكا كان أصل الحياة على كوكبنا فيما يرى روبينيه في كتابه «تفكيرات فلسفية في التدرج الطبيعي لصور الكائن» والذي ظهر في سنة ١٧٦٨. وقد أضاف روبينه الى هذه التصورات العظمى أن الآثار التي نجدها على الأحجار المطمورة في باطن الأرض، والتي تمثل صورة الإصبع أو الأذن أو عظمة الساق، أو القلب، هي محاولات الطبيعة التي كانت ترسم المسودات الأولى للإنسان، في خرق وصبر.

أما هارتليه "Hartley" الطبيب فقد كان يحتفظ بسلطان الوحي بل كان يشيد لاهوتاً على طريقته ينبذ إمكان العقوبات الأبدية. وفي الوقت ذاته كان يجزم بأن الفكر يرجع إلى حركة لويفات المادة النخاعية، وأن النفس مادية.

وأما بريستليه "Priestley" الكيميائي المؤله، الغائي والمناصر للمسيحية المعقولة، فعنده أن النفس أيضاً مادية وهو في هذا يقول: لماذا نتهيب التدليل على هذا الأمر الواقعي؟ وهو يجعلنا نعجب أكثر من ذي قبل بالموجود الأسمى الذي منح المادة القدرة على التفكير.

وكذلك كان موبير توي أيضاً من الشواذ وأما لاميترى - وهو أشد الجميع سطوعاً. فقد حطم الرؤوس صياحه بأن المادية هي النجاة. وأن المادية هي الحقيقة نفسها، وأنه ينبغي الصدور عن الطبيعة، وهي قوة بلا معرفة وبلا عاطفة، وهي عمياء حين تمنح الحياة بقدر ما هي بريئة حين تهدمها. ولكن كيف تعمل؟ أهي تخلق أصولاً لجميع الأنواع المنتشرة في الكون والتي تنتهي بأن تتلاقى؟ أم هي تتبع نوعاً من التطور حيث كانت الأجيال الأولى ناقصة وبشعة؟ وقد بقيت منها الكائنات التي لم ينقصها أي جزء جوهري؟ وسواء أكانت الأولى أم الثانية فإن اليقيني هو أن جميع التجارب التي نجمت عن علم التشريح ووظائف الأعضاء تظهر

أن ما اتفق على تسمته نفساً ليس سوى أحد لواحق الجسم. ففي الواقع أن مظاهرها مرتبطة بأحوال الجسم، فهي تسوء بالأمراض، وتخدر بالأفيون وتهيج بالقهوة والنبيذ ويصيرها الجوع قاسية ومتوحشة، وهي تكون شابة وناضجة وهرمة، أي أنها تتغير بالسن على نحو ما تتحول مع الأجواء. وبالإجمال إنها لا توجد على اعتبار أنها مغايرة للمادة، بل هي المادة. إنها تعبير عابث ليس لأحد فكرة عنها، وهي تستعمل لتسمية الجزء الذي يفكر فينا، بينما أن الفكر ليس سوى خاصية للمادة المنظمة كالكهرباء أو قوة التحرك أو عدم التداخل أو الامتداد. ودراستها تدخل ضمن التاريخ الطبيعي. وقد كتب لاميتري «تاريخاً طبيعياً للنفس» في سنة ١٧٤٥. وفوق ذلك فإن الإنسان لا يمتاز بأية ميزة عن المجموعة الميكانيكية للكائنات الحية، وقد كتب في كتابه الذي عنوانه «الإنسان الآلة» (١٧٤٧) ما يلي: «لأن يكون الإنسان ماكينة وأن يشعر ويفكر ويعرف كيف يميز الخير من الشر، كما يميز الأزرق من الأصفر، وبالإجمال أن يكون قد ولد بالعقل وبغريزة للأخلاق موثوق بها. كل تلك الأشياء ليست أكثر تناقضاً من أن يكون قرداً أو ببغاء ويعرف كيف يمنح نفسه اللذة». وعنده يمكن أن يقال أيضاً إن الإنسان نبات حيث إن النبات نفسه ماكينة، وهو يقول في كتابه «الإنسان النبات» مايلي: إن من نظر الى الإنسان على أنه نبات لم يسئ إلى ذلك النوع الجميل أكثر ممن جعل منه ماكينة محضة، لأن الإنسان ينمو في الرحم كأنه نبات، وأن جسمه يختل ويعتدل كأنه ساعة سواء أكان ذلك بوساطة قواه الحيوية الخاصة التي يكون دورانها في الغالب سعيداً، أم كان بوساطة فن من يعرفونها وليسوا هم (السعاتية) بل هم علماء الطبيعة والكيمياء، ويجب أن نقبل هذه الجبرية. وهو يضيف إلى ما تقدم قوله: «لسنا - حين نتبع انفعال الحركات البدائية التي تحكمنا - أكثر إجراماً من النيل في فيضانه والبحر في إتلافاته». وينبغي بالحري الاغتباط بذلك، «هل تعرفون لماذا لا يزال لدى شيء من الاعتبار للأناسي؟ ذلك لأني أعتقد جدياً أنهم آلات ميكانيكية، وفيما لو كانت النظرية على الضد لما كان جديراً بالاعتبار سوى رفقة القليلين منهم. وإذنْ فالمادية هي الترياق الشافي من سموم بعض الإنسانية».

وبعد أن جعل لاميتري يخرج من حادثة ليصطدم بالأخرى ويتخلص من فضيحة ليهوى في غيرها، وجد له ملجأ لدى فريديريك الثاني، وكان ڤولتير يدعوه «بملحد الملك». وفي الحق أنه كان عنده من المادة أكثر من متوسطي الناس لأنه سميناً ضخماً بطنياً نهماً. وأخراً في ١١ نوفمبر من سنة ١٧٥٨. ماتت ماكينته على أثر عسر هضم.

* * *

عبر شمول الإلحاد عن نفسه في عدد من المؤلفات وعلى الأخص في اثنين منها وهما «نظرية الطبيعة» (١٧٧٠)، و «الفطرة السليمة أو الفكر الطبيعية المتعارضة مع الفكر ألما فوق الطبيعة» (١٧٧٢) وهو موجز للكتاب الأول. وكان هناك أيضاً ملحد محترف يقرؤه العلماء والجهلاء والدوقات والوصيفات، وهو بول تيري بارون دولباك الألماني الأصل، وقد أتى إلى باريس ليدرس فيها فأقام بها.

- كان له منزل خاص يقدم فيه غداء فخماً مرتين في الأسبوع، وقصر ريفي كريم الاستقبال. وما أبدع هذا كله كوسائل للعمل! ولا غرو فكثير من الأوربيين ذوي الشأن قد لقوا من لدنه كرماً في باريس في شارع رويال سان أونوريه أو في قصر جرانڤال. وليس معنى هذا أن البارون كان ذا عبقرية. فأفكاره كانت ملتقطة من ذات اليمين وذات الشمال، ونثره كان ثقيلاً وسميكاً، وكانت تأثيرات فصاحته الفخفخائية تجعله ينتفخ، ولم تكن كافية لأن تلطف من ثقله. وكذلك طبعه لم يكن كاملاً، إذ كان مزيجاً من المتعارضات والأهواء، ولكي تستعمل في وصفه عبارات ديريرو- وهو أحد أصدقائه الحميمين- تخيل رجلاً خليعاً مرحاً لذاعاً مستهتراً عصبياً وله في الحديث أسلوب شاذ وكان ذا مزاج متغير يحمله على مضايقة أصدقائه واستعمال الخشونة معهم، وقلب كريم، ومحسن في سهولة ويسر، ولكنه أيضاً أهل للعواطف المرة التي تجعل الحياة عسيرة على من حوله. حقاً إن اللحظات الحسنة كانت توازي السيئة ولكن ذلك لم يكن دائماً، فقد كان يجذب وينفر ...

غير أنه كان ثريًا، واجتماعيًا، وكانت له منزلة بين أرفع الطبقات، وكان مجداً ونشيطًا وكان يشعر في نفسه برسالة آمرة هي أن يعمل على اضمحلال، أو امحاء كل دين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن ثم فإنه لم يجد نفسه قد أدى القدر الكافي من السباب ضد المسيحية، وقد أضاف إلى مالا يحصى من الكتب التي ظهرت ضد الدين كتبًا أخرى كانت تقدم إلى الجمهور أشد الأغذية المعادية للدين غلطة وفظاظة، وذلك ككتب: (١) جدول القديسين، (٢) القسس السافرون، (٣) القسوة الدينية، (٤) الجحيم المهدم. ولقد كانت هذه المؤلفات كثيرة العدد إلى حد أن من العسير إيجاد قائمة دقيقة لها، كما أن من العسير أيضًا تمييز نصيبه الشخصي من أنصبة المساهمين الذين كانوا يعاونونه فيها. وعندما كان يجد في العصور القديمة أو الحديثة، كتابًا يمكن أن يفيد هدفه، كان يعمل على ترجمته. وحين كان يظفر بامتلاك أحد المخطوطات التي تستطيع أن تنفع حملته، كان يبرزه إلى عالم النور، وذلك كالمخطوط الذي تركه م. بولانجيه والذي عنوانه «العصور الأثرية تجليها عاداتها» والذي يثبت فيه مؤلفه أن فكرنا الدينية أتت من انفعال الرهبة الذي خلفه الطوفان في نفوس القليلين الذين بقوا أحياء.

وكان يدير المعمل أو المكتب الذي تنبعث منه دعاية فظة وثائرة إلى حد أن كانت تتعب حتى الإخوان الملاحدة الذين انتهوا بأن رأوا في شخصه راهبًا ملحداً.

هناك آخرون كانوا يرافقونه ويعملون على إطالة تصرفه. ولم تكن هذه الفئة القليلة مؤلفة من محتقرين ولا مهنيين بل كانت مكونة من متكبرين لم يكونوا يخشون أن يطالبوا بالمنزلة الأولى في المجتمع مادام أنهم كانوا يعلنون أنهم هم الحكماء، ويضيفون إلى ذلك أن الحكيم أسمى من الإله، ومن هؤلاء بولانجيه ونيجون وشارل فرانسوا دوبوي وسيلڤان ماريشال وجيروم لالاند، ولانذكر هنا إلا أشهرهم، وهم جميعًا يقدمون مظهراً من مظاهر اللحمة لأنهم اتسموا بميسم الشذوذ، فنيجون- وهوتابع لديدرو ومِمون أدنى ومراجع للبارون دولباك- قد جمع

في كتابه «المجموعة الجوهرية عن اللادينية. وسيلفان ماريشال كان يريد أن يكون «لوكريس [1] فرانسا» وقد أنشأ قصيدة تعتبر أبياتها تحدياً كقوله مثلا.

«لا توجد فضيلة إذا أقر الناس وجود الآلهة»

وقد جمع «قاموس الملاحدة» الذي اجتذب إليه فيه الشخصيات التي لا يتوقع وجودها كأبيلار وزورواستروبير كليه وبوكاس وجويجوار دينازيانز وجوريو ڤولف الفيلسوف ويونج الشاعر. وفيه كذلك شعوب كاملة كالإنجليز والبرازيليين والشيليين والأمريكيين عامة. ولا جرم أن هذا القاموس هو إنتاج رجل استعبدته فكرة معينة. وأما «الخطبة الأولية» التي يشع منها الغرور، والمنتفخة من الادعاءات فلم تكن تظفر بقيمة أكثر لو أنها لم تظهر لنا هياج الفكر التي شاهدنا نشأتها ونموها إذ تعلن: أن الملحد هو إنسان الطبيعة، إنه الإنسان الذي- بقبوله تحديد المعرفة- لا يرى كيف أن هذه المعرفة تسمح له بإدراك الإله، إنه الإنسان الذي لما لم يكن يشتهي سوى سعادته الراهنة، فإنه ليس في حاجة إلى الإله ليحقق هذه السعادة. وإن مسألة معرفة ما إذا كان يوجد في السماء إله، ليست بالنسبة إليه، أهم من معرفة ما إذا كانت توجد حيوانات في القمر. إنه الإنسان الذي- بإقراره أن كل المدينة المسيحية تعتمد على خطأ- يريد أن يكون تحطيم هذا الخطأ تاماً، وهو في هذا يقول: «إن التحطيم الكلي التام للخطأ الطويل المهيب الذي يتدخل في كل شيء. والذي يشوه كل شيء حتى الفضيلة والذي هو فخ للضعفاء، وأداة فعالة في أيدي الأقوياء، وحاجز بالنسبة إلى ذوي العبقريات. إن التحطيم الكلي التام لهذا الخطأ الطويل المهيب سيغير، لو تحقق، وجه العالم.

* * *

بيد أن هؤلاء الملاحدة كان لهم من التأثير أقل مما أحدثوا من الضجيج ومن

---

(١) لوكريس هو شاعر لاتيني ولد في روما في سنة ٩٥ قبل المسيح وهو مؤلف قصيدة «عن طبيعة الأشياء» التي كان فيها رسولاً من رسل المادية في لغة قوية وأحياناً عليا. وأخيراً انتحر في سنة ٥١ قبل المسيح (المترجم).

آيات ذلك بيلاتي المعاصر لهم، قد أعلن أنه لا يوجد أي جزء من العالم مليء بالملحدين والمؤلهين كإيطاليا، ولكن حتى إذا كان التعبير عن الفكر الإيطالي لا يظهر لنا ضد ذلك؛ فإن الخلط الذي يقترفه بين المؤلهين والملحدين يكفي لإبطال قوله. وفي إنجلترا نشاهد أن تطور علم النفس- فضلاً عن بعده عن اقتياده إياه إلى الجحود- قد انتهى به إلى العقيدة.

وفي فرنسا يعلن هيلفيسيوس أن اللاهوتيين قد أساؤوا استعمال كلمة المادي التي صارت مرادفة للعقل المستنير، والتي تعين الكتاب المشهورين الذين تقرأ مؤلفاتهم في شراهة. غير أن ذلك ليس سوى علامة من علائم الجدل، لأن الكل يعرفون هذه النكتة، وهي أن هيوم، حين عاد إلى فرنسا، كسكرتير للسفارة، قد أعلن في إحدى المآدب، أنه لا يعتقد بوجود ملاحدة لأنه لم ير ألبتة منهم أحداً، فرد عليه ضائفه بقوله: إننا ثمانية عشر على هذه المائدة، بينهم خمسة عشر ملحداً، والثلاثة الآخرون مرتابون، ولا عجب فقد كانت المأدبة في منزل البارون دولباك. وفي ألمانيا لم يكن أشياع حركة «الأنوار» يميلون إلى تثبيت الإلحاد. بل إلى معرفة عقلية للإله.

حقًا إنه لم يعد أحد يطلب إحراق الملحدين، ولكن مؤلفاتهم كانت لا تزال تحدث الامتعاض. وعندما أهدى لاميتري كتابه «الإنسان الإله» إلى العالم هالير اعتبر الأخير ذلك سبة في جبهته وأرسل في مايو من سنة ١٧٤٩ إلى صحيفة العلماء احتجاجًا رسميًا جاء فيه مايلي: «لما كان المؤلف المجهول لكتاب «الإنسان الإله» قد أهدى إلى هذا السفر الذي هو خطر بقدر ماهو ضعيف التأسيس، فإنني أحسب أنه يجب على للإله وللدين ولنفسي أن أدلي بالتصريح التالي الذي أرجو السادة محرري صحيفة العلماء أن يسجلوه في صحيفتهم. وهو أنني أستهجن هذا الكتاب كشيء متعارض كل التعارض مع عواطفي وأنني أنظر إلى هذا الإهداء على أنه إهانة أقسى من جميع الإهانات التي وجهها المؤلف المجهول إلى كثير من المحترمين، وأنني أرجو الرأي العام أن يكون موقنًا من أنه لا توجد ألبتة رابطة. ولا

تراسل، ولا صداقة، بيني وبين مؤلف «الإنسان الإله» وأنى أعتبر كأعظم الكوارث كل تطابق معه في الرأي». أجل إن هالير تقيًا ولكن دالمبير وفريديريك الثاني، وڤولتير لم يكونوا أتقياء، وقد نقضوا «نظريات الطبيعة».

ولاغرو ففي الواقع أن المؤلهين كانوا يتجادلون ضد الملحدين في إسهاب وكانوا يناقضون حججهم واحدة بعد الأخرى. فمن ذلك أن الملاحدة كانوا يقولون إن التجربة تثبت أن المواد التي تنظر إليها على أنها هامدة وميتة تظفر بالعمل والعقل والحياة حين تكون مؤلفة بطريقة معينة، وكان المؤلهون يردون عليهم بأن ذلك باطل. ومنه أن المادة والحركة تكفيان لشرح كل شيء فيزد عليه بأن هذا باطل. ومنه أن المادة أزلية أبدية وواجبة الوجود. فيرد كذلك أن هذا باطل، ويضيف ڤولتير إلى ذلك قوله: «حين يجرؤ الملحدون على أن يؤكدوا أنه لا يوجد إله وأن المادة تعمل بذاتها بوساطة ضرورة أزلية، ينبغي التدليل على ذلك كأنه إحدى قضايا أوكليد، وبلا ذلك فأنتم لا تعتمدون في نظرياتهم إلا على الإمكان، وأي أساس لذلك الأمر الذي هو أعظم ما يعني النوع البشري!» (١).

بيد أن الملاحدة لم يستسلموا، وكانوا يتخذون- بإزاء التأليهية- خطة الاحتقار التي كان المؤلهون يتخذونها بإزاء التقوى. وفي هذا يقول الأب بونوم: «قال لي أحد الماديين يومًا إن المؤله هونوع من الناس ليس لديه القدر الكافي من الضعف ليكون مسيحيًا، ولا القدر الكافي من الشجاعة ليكون ملحدًا» (٢).

ويذكر البعض أن إحدى المغرمات بالفلسفة المتعصبات لها، كانت تقول عن ڤولتير ما دام أنه مؤله فهو مفرط في التعبد.

ومما وجهه الملاحدة إلى المؤلهين قولهم: ماذا تقصد هذه العقول الضعيفة أوهؤلاء العليون الغائيون، بدين بلا سر؟ أليس ذلك تناقضًا في الألفاظ؟ وبأية خشية هم يحتفظون بإله يقولون هم أنفسهم إنهم لا يستطيعون إدراكه؟ حقًا إن

---

(١) Voltaire, Dictionaire Philosophique, art. Athéisme, art. Dicu.

(٢) P. Bonhomme, L'auti- Uranie ou le délsme comparé au christianisme, 1763.

الفرق بين إله المؤلهين المتفائلين المتحمسين وإله الأتقياء الخرافيين المتسابقين، لا يوجد إلا في اختلاف الأنواع والأمزجة، ولن يكون أبداً سوى خطوة واحدة بين التأليهية والخرافة [1] وإن المؤله، وكل متمذهب يقر بدين يمكن أن يشار إليه في هذا التعبير العامي بكلمة هاهو ذا الإنسان العادي "Ecce Homo" بينما أن الكائن الملحد الذي لا يركع أمام أحد يشار إليه بكلمة هاهو ذا الرجل القوي (١) "Ecce Vit".

وإذن فبهذه العبارات العنيفة كان يتناقش هؤلاء الحلفاء المؤقتون الذين كانوا قد أرادوا أن يؤلفوا معاً، حملة ضد عدو مشترك، ولكنهم كانوا يرون في وضوح تدريجي، أن أفكارهم تتباين في مسألة جوهرية.

وقصارى القول إن القرن الثامن عشر في مجموعه، كان مؤلهاً ملحداً، ولكنه لابد أن يكون قد أفسح طوعاً أو كرهاً، مكاناً لإلحاد أخذت عليه نفس الخشية التي اتهمت بها التأليهية المؤمنين.

---

(١) Baron d'Holbach, Le Bon Sens ou ideés naturelles oppsoés aux idés surnaturelles, Para. III.

# الفصل الثاني

## علوم الطبيعة

سيكون العلم في مدينة الأناسي هو علم الطبيعة، ففي الواقع أن التاريخ الطبيعي قد وضع في الصف الأول، ووضعت الهندسة في الثاني، حقاً إن كثيرين قد استمروا يلتزمون بالرياضة التي كانت تعتبر أجمل تمرينات العقل وأوضحها وأمتنها، وأشدها منهجية، وإن أوروبا لم يعوزها الرياضيون الأمجاد بغتة، بل كانوا لا يزالون موفوري العدد، لأنه سيظل دائماً في العالم أشخاص يشبهون ذلك السيد «دي لاني» الذي تروى لنا عنه القصة التالية.

عندما كان محتضراً، كان من حوله يتحدثون إليه أحب الأحاديث فيذهب ذلك عبثًا، وإذ ذاك أقبل السيد دي موبيرتوي وأخذ على عاتقه أن يحمله على الكلام، فسأله قائلاً: «ياسيد دي لاني، ماهو مجذور العدد اثني عشر؟ فأجاب المريض في صوت ضعيف قائلاً: مائة وأربعة وأربعون ثم لم ينبس بعد ذلك ببنت شفة.

غاية ما في الأمر أن الهندسة فقدت الصدارة التي كانت قد منحتها وأن الناس قد تنبهوا إلى أنها لم تكن تضيف شيئًا إلى المعرفة، وأنها كانت تكتفي بأن تنمي - بوساطة الاستنتاج - مبادئ قد وضعت، وبالتالي لم تكن تدرك الواقعي. ولما كان من الموقن به أنه لا يوجد في الطبيعة، سطح بلا سمك، ولا خط بلا عرض، ولا أية نقطة بلا مقدار، ولا أي جسم يشمل على النظام النظري الذي يعترض فيه

المهندس، وبالتالي فعلم المهندس لا يبدو سوى حلم وضع في صيغة معادلات. ومن الوهم أن تراد إعادة خلق العالم بوساطة الحركة والأمتداد، وكان ذلك وهم السيد ديكارت الذي مضى عهد حكمه.

أتى بعد ذلك حكم نيوتون الذي وضع الرياضة في خدمة علم الطبيعة وبهذا عاد بها إلى دورها الحقيقي. ونظراً لأنه لم يصدر عن التجرد، ولا عن المبادئ البديهية، بل عن وقائع، لينتهي إلى وقائع أخرى قد شوهدت أتم المشاهدة، لأنه قد انتزع من الطبيعة، نواميس الطبيعة، فإن الجيل الصاعد قد أقره بين أنصاف آلهته، فجعل يشرحه لآخر الجاحدين، فطفق تلاميذه في المجامع، وعلى المنصات، يشرحون منتجاته التي كانت محتوياتها تبدو كأنها غير قابلة للنضوب، بل كانوا يضعونه في متناول الرأي العام، كما كان يفعل ڤولتير في أسلوبه الفرنسي الواضح، والجاروتي بالإيطالية في كتابه «النيوتونية للسادة».

جعل مجده يتدعم شيئًا فشيئًا حتى أن العلماء الذين أرسلوا إلى بيرو في سنة ١٧٣٥، وإلى تورنيو في سنة ١٧٣٦ لكي يتحققوا من مقاييسه للأرض قد عادوا يقولون إنه - بعد أن قاموا بالتجربة - لم يكن مخدوعاً. ولقد وجد أمام السوربون العتيقة نفسها، من يدافعون عنه وكان يتغلغل في المدارس الحارسة للفكر، والتي كانت بطيئة في تقبلها إياها، وعنيدة في الأحتفاظ بها. وفي هذا يقول الماركيز دار جانس: «إن الهيام بنظرية الجاذبية، هو اليوم أقوى في هولندا وفي انجلترا، من الهيام بزوابع ديكارت الخيالية في فرنسا. وكان الناس يرون محامين يهجرون مهنتهم ليعنوا بدراسة الجاذبية، وكنسيسين ينسون من أجلها كل التمرينات اللاهوتية[1]»...

ودون أن ينال جاليليو مثل هذا المجد، قد ظفر بنوع من التفكير عما أصابه، ففي سنة ١٧٣٧ قد نقلت رفاته إلى كنيسة سانتا كروشي بفلورانسا التي كانت

(١) Le Marduis d;argens, la philosphie du bon sens, 1746 Retlexion lll, par. 20.

إيطاليا تحتفل فيها بذكريات موتاها الأمجاد. غير أن هناك اسمًا كان يرمز إلى علم أقل تدرجًا وأقل ترفعًا وأشد قابلية للتناول، وأكثر طبيعية أيضًا من علم الطبيعة الرياضية، وهو اسم بيكون رئيس الديوان الملكي الذي كان يدعى بالطليعة أو بحكيم الحكماء، أو بعدو النظريات العابثة أو بأستاذ التفكير، أو الذي أعاد الجدة إلى امبراطورية العقل، ورسم الطرق، وقضى على العقبات وعين الأعمال التي يجب فعلها. ولقد كان - فيما يرى أهل القرن الثامن عشر، أعظم الفلاسفة وأشدهم عالمية، والعبقرية التجريبية مشخصة.

وفي الحق أنه، حين أعلن بيكون أن المنطق الصوري أشد جدارة بتقوية الأخطاء وتخليدها منه بكشف الحقائق، وأن القياس يقيد العقل ولا يلحق الأشياء، وأنه لم يعد ينبغي الاعتماد على قول الأساتذة، ولا عبادة الأوثان، وأنه يجب تغيير المنهج، واستعمال الملاحظة، والالتجاء إلى التجربة، حين أعلن كل ذلك، قد وضع بذور الفكر التي - بعد مائة سنة تقريبًا من ظهور الأورغانون الجديد - قد نبتت واستوت على سوقها، وأنتجت ثمارًا شملت أوربا. كما يقول الكتاب الذي عنوانه حكم حول تأويل الطبيعة والنوع البشري «APhorismi de interprtatione et regno hominis».

* * *

منذ المظهر السطحي، وللوهلة الأولى كان المرء يشعر بالفوران، ففي كل مكان، كان فضوليون يشرعون في العمل، فهذا يبدأ في إيجاد مجموعة من الفراش، وذاك يضع « ألبومًا» للنبات، وثالث يستورد من البلاد الأجنبية الزجاج المنشور الذي يسمح له بتحليل النور، أو المناظير التي تسمح له برؤية دائرة زحل. ومن كان يريد أن يروق خليلته، كان يرسل إليها حشرات نادرة تضعها في ڤيترينتها، ومن كان يريد أن يبدو عالمًا، كان ينشر وصف إحدى حجرات التاريخ الطبيعي، ومن كان يرتحل، كان يتزود بعلب وبشباك للحشرات، ومقصات ومناظير مكبرة، ولم يكن جيرسان يبيع لوحات فحسب، بل أصدافا. وكان

عظماء الأشراف يقدمون الأمثلة على ذلك ، وكان أحد الساخرين يقول : ذلك أفضــل إذ ما دام أنه لابد من الخراب فخـير أن يكـون ذلك على يد كيميائـي من أن يكون بوسـاطـــة أحد رجال الأعمال ، حيـث إن العلم على الأقل يربـح . ولقد أصابت هـــذه العدوى الملوك ، فلويـس الخامــس عشر كان يريد أن يمتلك مجموعات ، وولي العهد كان يتلقى دروسًا في علم الطبيعة ، وجورج الثالث كان نباتيا ، وجان الخامس كان يحضر بحوثًا فلكيـة ، وفيكتـــور - أميديه الثالث ، كان يعيـد مع جيرديل ، تجارب الأب نوليه . وإلى باب الأب نوليه هذا - وهو الذي كان في باريـس بشــارع الكبـش . يلقي محاضرات عن علم الطبيعـة التجريـبي - كـانت تتسـابق مـركبـات الدوقـات اللواتي كـن يردن أن يكهـربـن وكـانت الطبـقـة المتوسـطـة تتبع تلك الحركة ، وكذلك الشـبان الذين كان الأب بلــوش يظهر لهم منـظر الطبيعة أو أجـدر الخصائـص بجعلهم شـغوفين بالإطـلاع ، وبتكوين عقولهم .

وعندما جعل الناس - وقد لفتت أنظارهم هذه الظواهر الأولى - يبحثون عن مؤيداتهم ، قد لاحظوا في صورة جدية ، المجهود الذي لم تصنع البدعة سوى أن استغلته ، ففي الواقع أن الصحف قد جعلت تمنح ملخصات النشرات العلمية ، مكانًا بلغ من الأعتبار حد الغزو ، وقد جعلت كتب علوم الطبيعة والنبات والطب ، يتزايد عددها على الدوام . غير أنه على أثر نفس تقدم العلوم التي تنتسب إليها تلك الكتب كانت تهرم بسرعة وتستوجب الاستبدال ، وكانت تستبدل . وكانت المجامع تفتح على مصاريعها لهذه الكتب المتضاعفة ، وللمكاتبات التي كانت تعلن عن وجود هذا الجديد . أو ذاك ، وذلك كمجمع برلين الذي أحياه فريديريك الثاني في سنة ١٧٤٤ ، ومـجـمع سان بتيرسبـور الذي أسس في سنة ١٧٢٥ ، ومـجـمع أستوكهولم الذي أسس في سنة ١٧٣٩ ، وجمعية كوبنهاج الملكية التي أسست في سنة ١٨٤٥ ، بينما أن معهد بولونيا ( بإيطاليا ) ، ومجمع العلوم في باريس ، وجمعية لوندن الملكية ، تلك الأمهات المجيدات ، كن يتمسكن بتقاليدهن ، وكانت

كل جماعة تعتبر من الشرف أن تشرك الأجانب في أعمالها . وكان من علائم الأعتبار الذي يتمنى في حرارة من جانب المؤلفين أن تتناقش تلك الجمعيات في شأنهم أمام محاكمها . ومن ثم فإن ڤولتير الذي كتب « بحثًا عن التغيرات التي حدثت في كرتنا ، وعن التحجرات التي يدعى أنها شواهدها » قد وجهه في سنة ١٧٤٦ بالإيطالية إلى مجمع بولونيا ، وبالإنجليزية إلى جمعية لوندن الملكية ، بل كان يعتزم أن يضعه بالاتينية لكي يرسله إلى مجمع سان -بتيرسبور . وفي سنة ١٧٣٥ . قدم هذا الأخير مؤلفات إلى مجمع ليسبوا الذي كان رئيسه إذ ذاك هو الكونت ديريسيرا الشيخ وهو نفسه الذي سبق أن ترجم بوالو . وقد ألقى خطبة شكر لا تزال مفعمة بعبارات مزدهرة ، تحدث فيها عن ملكة سبأ أو عن سبيل الشرق [١] التي بعثت من ثلوج الشمال مؤلفات أعضاء مجمعها مكتوبة على صحائف من ذهب . ولكنه تحدث فيها عن بيكون ، وعن رينيه ديكارت الدقيق الذي عرف كيف يربط الجبر بالهندسة ، وعن نيوتون أكبر فلاسفة إنجلترا الذي أثبت ما يمكن إثباته في الفلسفة الطبيعية والذي كانت مبادئه جد متبعة بحق ، أي أنه جمع فيها الصور القديمة للخطابة ، إلى معالم الذوق الجديد .

كانت الحركة مزدوجة ، فمن جهة كان هناك امتداد ، أو إرادة قد دفعت الباحثين إلى الخروج من أقاليمهم ، ومن ممالكهم ، ومن قاراتهم لكي يغزوا شيئًا فشيئًا ، كل ما خلق . ومن آيات ذلك الكتب الآتية : (١) قائمة نباتات استنتيت لحديقة جديرة بالإعجاب Catatogus plantarum consitus est patavii amoe-nissimus hortus (٢) علم النباتات الباريسية Botanicon patisiense (٣) مجموعة النباتات اللابونية Flora lapponica (٤) التاريخ الطبيعي وعجائبه في بلونيا (٥) The natural history ot Egland التاريخ الطبيعي لإنجلترا the

(١) شبه الكونت دير يسيرا ، أميراطورة روسيا كاترين الثانية بملكة سبأ ، أو بسبيل وهو عند الهيليين اسم لشهيرات النبيات اللواتي كن ينقلن الوحي إلى البشر . (المترجم)

Flora co- مجموعة نباتات الكوشانصينية (٦) natnral hisry ot Emgland chinchinense

ولما كان الناس يتكهنون بأنه كانت لا تزال هناك بعض أراض غير معروفة، فإن السفن التي ترتحل للاستكشاف كانت تأخذ معها علماء طبيعين فيحملون إلى أوروبا نماذج من النبات والحيوان، كانت إلى ذلك الحين خافية على الناس. وبقدر ما كان التحقيق يمتد، كان عدد الأنواع النباتية والحيوانية يزداد بغير حساب، ولم يكن أحد يصل إلى إحصائها، وكانت الأرقام التي تسجل اليوم تصير زائفة في الغد. وكان الناس كأنهم مغمورون بتلك المستوردات التي لا تنقطع، وكانت الحياة، والحياة الضخمة تقلب كيان الفكر التي هي لدى الناس عنها.

ومن جهة أخرى كان في الوقت ذاته يحدث تركز لأن أشغف هؤلاء المشغوفين بالاطلاع، ينحصرون بين أربع حوائط، ويدعون إليهم نفس هذه الحياة المخصبة وهم يسلمون أنفسهم إلى عمليات خفية، فيمزقون، ويُشرِّحون وينظرون في المناظر المكبرة ويرُجُّون زجاجات قد وضعوا فيها مواد غريبة. وبالإجمال كان عالم المعمل قد ولد».

على أن المعمل كان إذ ذاك فقيراً لأنه كان يعوزه غالبًا أبسط الأدوات، وأن الباحثين كانوا سيىء التزود بالآلات، وأنهم كانوا يترددون في أن يخلعوا سترهم القطيفية، وأن يشمروا أكمامهم الدانتيلية، ولكنهم كانوا مع ذلك قد بدأوا يحققون ملحمة التجربة.

وحينئذ ظهرت كحلقات السلسلة، تلك الأسماء التي ظل كل واحد منها مرتبطًا بذكرى الانتصار، ففي الفلك أسرة كاسيني، وفي علم طبقات الأرض جان جوتلوب ليمان وهوراس بينيديكت دي سوسور. وفي علم النبات شارل دي لينيه وأوائل أعضاء أسرة جوسيو الخمسة. وفي علم الطبيعة جيوم جاكوب سجراڤيزاند، وليونار أولير. واليساندرڤولتا، وفي الفيريولوجيا. هيرمان بوراڤ. وفريديريك أوفمان والبريك ڤون هالير. وجاسبار فريديريك ڤولف، ولازارو

سبالانزاني، وجورج استال، وجوزيف برستليه وشارل جيوم شيل. وفي الغالب كان من الخطأ أن يحصر هؤلاء العلماء في تخصص معين لأن كل شيء كان يستكشف في آن واحد، وسنذكر شخصيتين من تلك الشخصيات الخرافية. ما دمنا لا نستطيع أن نسميها جميعها، وهما شخصية جالفاني الذي كان يحدث الانقباضات العضلية للضفدعة المسلوخة، وشخصية لافوازييه الجدى الجميل أمام أنابيبه ويواتقه.

كان أولئك العلماء ينتسبون إلى أشد البلاد تباينًا، والحق يقال. أنهم لم يكونوا يؤلفون سوى وطن واحد بين الأوطان، وهو وطن كان أبناؤه يستمرون في عملهم حتى في وسط الحروب، وحتى في اللحظات التي كانت الاتصالات فيها أشد ما تكون عسراً، وكانوا يتبادلون الإشارات والمراجعات، والاستحسانات، والتهاني فيما بينهم. تلك كانت جمهورية العلماء المثالية.

* * *

غير أن العمل المراد إتمامه لم يكن جد ميسور إلى هذا الحد، ففي الواقع أن المطامع كانت واسعة بصورة مفرطة، وكان الباحثون يرددون أنه لا يستطيع أحد أن يتقدم إلا بأحذية نعالها من الرصاص، ولكنهم كانوا يصدرون عن وثوب مغتبط إلى حد أن كانوا يحسبون أن لهم أجنحة ولكي يبتدئوا، كانوا يقذفون بأنفسهم في مشروعات تتجاوز المقاييس، كذلك المشروع الذي زاوله مجمع بوردو الناشئ في سنة ١٧١٩ وهو كتابه تاريخ الأرض، وكل التغييرات التي حدثت فيها، عامّها وخاصها سواء أكان ذلك بوساطة الزلازل أم بوساطة الفياضانات أم بأسباب أخرى وأن يكون هذا بوصف دقيق لتقدمات الأرض والبحر أي لتكون، أو فقدان الجزر والأنهار والجبال والأدودية والبحيرات والخلجان والمضايق والرؤوس ولكل تغيراتها، وأخيراً لوصف الأعمال التي تمت بأيدي الرجال الذين منحوا الأرض وجها جديداً... وكانت المذكرات يجب أن ترسل إلى السيد دي مونتسكيو وهو إذ

ذاك أحد رؤساء برلمان مقاطعة جويين. وكان على السيد دي مونتسيكو، أن يدفع نفقات الإرسال، ولكن هل دفع كثيراً؟ كلا، لأن المشروع لم ينفذ ألبتة.

حقًا إنه لم يكن أحد يريد المعجزات، ولكنه كان من الشاق التخلص من العجائب، وعلى الأخص في المبدأ حين لم يكن المنهج قد تثبت بعد، وحقًا إنه لم يكن أحد يريد النظريات الفردية، ولكن كم كان من المفيد إنتاج واحدة منها في كل مرة يجد الناس أنفسهم فيها حائرين! هكذا حين اجتاح الطاعون مارسيليا وإقليم بروڤانس، كان الناس يتساءلون ما هو الطاعون وكيف ينتشر؟ وكان الرد: إنه ليس معديًا، وسيكون من الخروج التام على العقل تأييد عدواه. أو أنه معد، ولكن فقط على طريقة الوباء، وهذا الأخير يأتي من سوء التغذية. أو إنه معد، بوساطة القروح والبول والعرق، وإذن فعن طريق الفراش والملابس، وكل ما مسه المريض.

وكانوا يتساءلون أيضًا ما هي طبيعته؟ فيجاب بأنها تتكون من أبخرة وبائية وعفنة ومن ذرات من الإثمد، ومن ذرات جورجونية وديدان صغيرة تسبح في الصباح كالسمك. وتطير في الظهيرة كالطيور. وتموت في المساء. أو تتكون من حشرات تدخل من مسام الجلد. ولا سيما في الشتاء لأنها شديدة الإحساس بالبرد.

وأخيراً يتساءلون كيف شفاؤه؟ فيجاب: بالقهوة، أو بالإكثار من شرب الماء أو بالمشروبات الحامضة كما كان أساتذة العصور الماضية يأمرون، أو بمغلي جذور نبات القعبول الذي ينبغي أن تضاف إليه قطرات من عصير الليمون أو من خلاصة الكبريت، أو من صبغة الذهب ومن خلاصة المقيء، ومن شراب للقلب، وحبوب مسهلة، ومن معرقات وفوق الخراجات توضع لصقات وأحجار كاوية تترك فوقها عدة ساعات. وبينما كانت ليون ومونبيلييه وباريس وزوريخ ولندن تتجادل على هذا النحو، كان المرضى يموتون دائماً.

ولم يكن يكفي أن يلعن الناس روح النظريات لكي يتحقق الخلاص منها،

لأنهم حين جعلوا يتشبثون بما هر أصعب أي بمشكلة الإنسال أو مشكلة تكون الأجسام العضويــة وقبل أن يجمع العلماء الملاحظات كانوا يصوغون النظريات التي لا تلبث نظريــات أخرى أن ترد عليها. وعلى أثر ذلك، تصير المعركة مستعصية بين النظريات الآتية أهي سابقية التكون والاندماج؟ أو إيبجينيز؟(١) أو القوالب والأرحام(٢).

ولإثبات ســمو أحد هذه التعليلات أو الآخر، كانوا يناقشون إلى أن يصلوا الغايــة المنشــودة، وعندما كانوا ينحرفون على هذا النحــو، يكون العلم كأنه وقف عن التقدم.

يوجد في بعض الأحايين خطأ يسترعي الانتباه بسبب طابعه الذي يؤلف منظراً، ففي سنة ١٧٤٨ مثلا رأي جان توبيرفيل نيدهام العالم الطبيعي الإنجليزي أنسالا تنشأ من ذاتها، فلندع له الكلمة، ولنستمع إليه يقص علينا التجارب التي نظمها، والاحتياطات التي اتخذها ضد كل خطأ ممكن، والنتائج المدهشة التي ظفر بها، وهو في هذا يقول: «أخذت عصارة لحم جد ساخنة ووضعتها في زجاجة أغلقتها بسداد من الفل المضوغ بكثير من الأحتياط إلى حد أن صارت القارورة كأنها سدت سداً محكماً. وبهذا أقصيت الهواء الخارجي حتى لا يمكن القول بأن الأجسام المتحركة قد اتخذت أصلها من الحشرات أو من البويضات المنتشرة في الجو. ولم تكن الكمية الصغيرة من الماء الذي أضفته إلى العصارة لأجعلها أكثر سيولة، تؤلف فيما أعتقد، أكثر من السدس، وقد سكبتها أثناء غليانها حتى لا يتخيل أحد أن بضع جراثيم كانت محتواة في هذا الماء ... وبالإجمال لم أهمل أي

(١) إيبيجينيز هي نظرية ترى أن الحيوان الناتج من البيضة في أثناء تطوره، الخاص، تنشأ أعضاؤه بوساطة تكون جديد (المترجم)

(٢) توجد هذه النظرية في المؤلفات التالية: أنظر في نظرية الاندماج.

Manpertuis,Essai sur ha tormation des corps oganises, fara, 9 ct 10, pour pEpjgense : charlce Bonnet contemplatlon de ln nature septieme parlie ch . 10 ; pour les monle et matrice : button , H isoire Histoire naturelle Des animax, sh 3 et 4.

احتياط، حتى الأحتياط في أن أضع في رماد جد ساخن، الزجاجة بعد إغلاقها حتى إذا كان هناك شيء في ذلك الجزء الصغير من الهواء الذي يملأ عنق الزجاجة، أكون قد وصلت إلى إبادته، أو إفقاده القوة الإنتاجية ... وفي أربعة أيام من الزمن امتلأت زجاجتي بحيوانات تشاهد حياتها بالمنظار المكبر».

تلك تجربة جديرة بالإعجاب. ولكنها ليست حقة. وكان من الضروري مرور أعوام لاختبار نظرية نيدهام ولمراجعتها ونقضها، وإثبات أن تخمر الحياة الذي شاهده قد حدث من جراثيم آتية من الخارج رغم العناية التي اتخذها لإقصائها. أما بالنسبة إلى العلم فقد كان ذلك وقوفاً. وحركة بلا تقدم. وعودة إلى الوراء ...

كل الأحداث التي يقدم إلينا تاريخ الفكر منظرها كالتتابعات التناسلية غير المتوقعة، والانتصارات التي تنتهي بالانهزام، والإخفاقات المخصبة، تتلاقى هنا في أعلى درجاتها، فعلماء النبات المتشبعون بالروح العلمية، كانوا يتوقون إلى أن يجدوا تقسيما للنبات، لا يكون مؤسساً إلا على وقائع قد لوحظت بصورة موضوعية.

وبعد تورنيفور، قد حسب لينيه أنه قد نجح منذ «نظريته الطبيعية» (١٧٣٥) حيث يقول: «إني أنا الأول الذي ابتدع لتقسيم الأنواع، استخدام المميزات الطبيعية».

غير أن أولئك النباتيين في الوقت ذاته - كالعلماء الآخرين. وكالفلاسفة أساتذتهم اعترفوا بهم أم لم يعترفوا - كانوا يحاولون أن يدخلوا الكون وإنتاجاته في برنامج مقرر من قبل، فيتخيلون ما يدعونه بُسلَّم الكائنات الأعظم، وأن الكائنات لا تستطيع أن تنتظم على وضع آخر إلا حسب هذا السلم الذي لا تنقصه أية درجة، وهم يمضون من درجة إلى أخرى بوساطة تدرجات ضئيلة إلى حد أنها لا تميز إلا بمشقة، ولكنها لم تكن أقل من ذلك واقعية. أما الانقطاع فهو مستبعد مقدماً، لأنه لا يوجد أي مكان له الحق في أن يبقى خالياً ولا توجد ثغرات بين

درجات أية سلسلة، ولا بين السلسلة الحيوانية والسلسلة النباتية، ولا بين السلسلة النباتية والسلسلة المعدنية. وهناك رابطة غير مرئية توجد بين بني الإنسان والمخلوقات العالية أو الملائكة. وعلى القمة يوجد الإله وحده مفارقًا. وكان ينبغي بأي ثمن. أن تكون كل الدرجات مشغولة، وإذا لم يكن شاغلوها يميزون بعد، فإنهم سيظهرون يقنيًا في يوم ما، بحيث إن الأفراد الذين كانوا يعلنون أنهم خدام الوقائع، قد جعلوا يخضعون الوقائع طوعًا أو كرها، للنظرية المقدمة على التجربة.

لكي يجتاز العلماء عقيدة تحدد الأنواع إلى فكرة التطور الحيوي، كان الكفاخ القاسي الطويل ضروريًا. ومع ذلك فإنه كان ينبغي أن يلاحظ أنه تحت تأثير الأجواء الأجنبية، قد تغير بعض الحيوانات وبعض النبات، ولم يكن هناك بد من قبول النتائج التي حصل عليها علماء المطمورات الأرضية الذين وجدوا في الطبقات العميقة من الأرض، أثر الكائنات التي اختفت والنتائج التي حصل عليها علم الفيزيولوجيا الذي سجل ظواهر للانحطاط، وأخرى لاختلاط الأنواع.

غير أن ذلك لم يكن بلا مقاومة، فقد كان الناس مثلا ينظرون إلى موبيرتوي على أنه ذو عقلية غريبة، لأن زائريه كانوا يرون في دهش، أن منزله كان حظيرة مفعمة بالحيوانات من جميع الأنواع، وأنها لم تكن تحتفظ فيه بالنظافة، وأنه كان يلهو، في صورة غريبة، بتزويج حيوانات من أنواع متباينة، ولقد كان لا ميتري يبدو أشد جنونًا أيضًا، حين أعلن أن السلالات الأولى لابد أنها كانت جد ناقصة، ، فهذا كان ينقصه المرئ، وذلك تعوزه الأمعاء، وأن الحيوانات التي بقيت وحدها هي المزودة بالأعضاء الضرورية والأشد قوة. وإذن فقد كان على الباحثين أن يرفعوا عبئًا ضخمًا من الجهل والتسرع لكي يروا نظرية التحول للامارك تطفو شيئًا فشيئًا.

* * *

حقًا إن متاعب طويلة، وإخفاقات، وكروبا، كانت تنتظرهم، ولكن كانت

هناك أيضًا تحمسات واغتباطات، لأنه يكون من الغدر بالنسبة إلى ذلك العصر ألا يترجم هذا الاهتزاز الذي كان يحركه.

يا للعجب! يالعالم الحشرات العجيب! ها هو ذا شارل بونيه - بملاحظة صغار براغيث[1] النبات - يستكشف أشد الظواهر إدهاشًا، وهي ظاهرة الإخصاب بلا تدخل الذكور، أي بوساطة البيض غير الخصيب أي بارتينوجينيز.

يا لعالم النبات العجيب! ها هو ذا أبراهام ترامبلة - بملاحظته سيقان النباتات المائية - يستكشف أنها تطول، وأنها تغير مواضع قرونها أو أذرعتها وأنها تنكمش، فيسائل نفسه: أهي حيوانات؟ ثم يقطع هذه السيقان عدة قطع، فتصير كل واحدة من تلك القطع نبتة أخرى. وإذن فهي نباتات، وهي تخصب بوساطة الغروز. ولكن كلا، ليست هذه نباتات، لأنها تستولى على ديدان صغيرة وتدخلها من أفواهها إلى داخل أجسامها ثم تهضمها، وإذن فهي حيوانات. هي «حيوانات - نباتات» أي هي كلاهما معًا أي بوليب[2]...

يستأنف ريومور بعض تجارب ترامبلية ثم يقول: «إني أعترف بأني حين رأيت للمرة الأولى «بوليبين» يتكونان شيئًا فشيئًا من اليوليب الذي قطعته قطعتين، كان من العسير على أن أصدق عيني. وذلك حدث لم آلفه حتى بعد أن رأيته مائة ومائة مرة.»

وبعد ذلك كان الناس يقطعون ديدان الماء العذب، بل ديدان الأرض قطعًا، وفي كل مرة كانت تتكون من نفسها. وكان «إسبالان زاني» يقطع قرون الحلازونات ذوات الصدف ورؤوسها فتنبت القرون وتتكون الرؤوس من جديد. وإذ ذاك جعل يتناول سيماندر الماء وهي حيوانات ذوات دم أحمر، فيبتر قوائمها، وسرعان ما تنبت من جديد!

عاد الناس إذن إلى زمن المعجزات، ولكنها كانت معجزة طبيعية، فمثلا كان

---

(١) صفار براغيث النبات أو اليسيرون هي حشرات صغيرة خضر تعيش فوق النبات والزهور. (المترجم)

(٢) ADrhsm Tremdley , Memoire pour servir a phistoire d,un gebre pe polype d,eu donce 1744.

النبات يتنفس، ولم يعد الهواء أحد العناصر الأربعة البسيطة. بل كان مكونًا من غازات توصل العلماء إلى فصلها. ومن مدينة فيلاديلفيا في العالم الجديد، جعل الناس يعلنون أن رجلا وهو بانجامان فرانكلان قد استولى على الصاعقة فامتلكها وانتزعها من الآلهة. وفي هذ يقول شارل بونيه ... «إنني منهك من فرط رواية المعجزات»(١).

بيد أن المكافأة كانت إذ ذاك قد أتت، لأن السلطة كانت تنشأ من المعرفة، وكان الناس يسودون الطبيعة بمعرفتهم إياها، وصارت المادة مذللة وكان يقال: كم أحسن الباحثون صنعًا إذ هجروا البحث العابث عن المبادئ الأولى والجواهر والمواد! فلم تكن العلل الأولى تعني الناس إلا قليلا مادام أنهم كانوا يجدون الوسيلة لجعلها تنتج بطريقة يقينية، النتائج التي كانوا في حاجة إليها. وعن هذا التغير نجمت وفرة في هذه الخبرات، وهذه الخبرات الواقعية التي إليها تنتهي العلوم التي كان ظاهرها أشد ما يكون تنزها عن الغايات. وفي هذا يقول جوزيف لاندون: «إن كشوف العلماء هي فتح النوع البشري(٢).

لم يعد من الحق أن الإنسان ضعيف(٣)، قد جعلت قوته تزداد من يوم إلى آخر.

وعن طريق العلم كانت الحياة ستصير جميلة وخيرة. وإذ ذاك ظهر محوطًا بإكليل جديد من النور - ذلك الذي كان يمتلك العلم والذي كان يصلح الطبيعة حين تضل، والذي كان يبرئ من آلام الحياة، وهو الطبيب. حقًا إن المسرح ظل يضحك من ديافواروس(٤) بدافع العادة. ولكنبوراف الليدي، وترونشان جنيف،

(١) Charles Bonnet, considerations les cords organises, 1752, ch xl.

(٢) Joseqh Landon Rellexions de Mad, x , comedienne tranc,aise, 1750, p.54.

(٣) S,johnso, Rasselas, 1759, ch. 12,aMAh is no Weak answered his compahion (is more thah eduivaieirnt ho tcrce///a

(٤) ديافواروس هو أحد أبطال مسرحية المريض الخيال تأليف موليير «Molier» وهو من الأطباء الجهلاء المتنطعين الذين هزأهم ذلك الكاتب العبقري وصيرهم مضرب المثل في السخرية. (المترجم)

وبوردر باريس وهم أطباء أمجاد في كل أوروبا كانوا يجسدرن القوة الجديدة. وكان الرأي العام يشهد محاوراتهم الطويلة عن التلاقح. وأخيراً انهزم الجدري، وفي هذا يقول لامتري: «إن كل شيء يتخلى عن الصدارة لفن البرء العظيم، وإن الطبيب هو الفيلسوف الوحيد الذي يستحق تقدير وطنه.. وهو كأخوى هيلين[1] يظهر في وسط عواصف الحياة. أي سحرا وأية فتنة! إن منظره وحده يهدئ الدم، ويرد السلام إلى النفس الهائجه، ويعيد نشأة الأمل العذب إلى قلوب الفانين التعساء، إنه يعلن الحياة والموت، كما يتنبأ الفلكي بالكسوف...»[2] وهو الفيلسوف الوحيد في الحقيقة لأنه هو وحده الذي يتحدث باسم التجربة «لأنه هو وحده الذي رأى الظواهر والآلات الهادئة أو الساخطة، والسليمة أو المحطمة، والهاذية أو المنتظمة، والتي هي على التعاقب بلهاء، ومستنيرة، وغبية، وساطعة. وبليدة ونشيطة، وحية وميتة.»[3]

* * *

وفي ١٤ فيراير من سنة ١٧٥٠ سجل بوفون نفسه نجاح كتابه: «التاريخ الطبيعي» الذي كان قد نشرت منه ثلاثة مجلدات في السنة السابقة، فالطبعة الأولى - ولو أنها طبع منها عدد كبير - قد نفدت في مدى ستة أسابيع، ثم ألحقت بها طبعة ثانية وكانت الثالثة على وشك الظهور آونة هذا التسجيل. وفوق ذلك فقد ترجم الكتاب إلى الألمانية والإنجليزية والهولاندية ... نعم قد لا يكون بوفون أعظم عبقرية علمية في عصره ولكنه أعظم ممثل لتلك العبقرية.

---

(١) أخوا هيلين هما كستور وبولوكس وهما في الأساطير الهيلينية حاميا ركاب السفن حين تفاجئهم العواصف فيهتفون باسميهما لإنقاذهم من الغرق. (المترجم)

(٢) La mettrie dedicace de l,Homme machine , 1748

(٣) Diderot, Encyclopedie, art, Locke.

كان معاصروه مدينين له بخطبة جديدة على المنهج[1] . عنوانها «عن طريقة معالجة التاريخ الطبيعي» وفي هذا السفر، حول المؤلف الرياضة عن منزلتها، وأعلن أن العقول تتطلب الآن يقينًا واقعيًا أكثر مما تتطلب جلاء هندسيًا . ولاجرم أن هناك ثورة كانت مرسومة في السطور التالية :

«توجد عدة أنواع من الحقيقة، وقد اعتاد الناس أن يضعوا في الصف الأول الحقائق الرياضية، وهي مع ذلك ليست سوى حقائق وتعريفات، وهذه التعريفات تستند إلى فروض بسيطة ولكنها مجردة، وكل حقائق هذا النوع ليست سوى نتائج لهذه التعريفات مؤلفة، ولكنها دائمًا مجردة، أي أننا أجرينا فروضًا ووفقنا بينها بكل الطرق، وهذه المجموعة من التوفيقات هي العلم الرياضي، وإذن فليس هناك شيء في هذا العلم إلا ما وضعناه فيه ... ولكن الحقائق الطبيعية على الضد من ذلك ليست ألبتة استبدادية ولاتتعلق بها وهي بدلاً من أن تكون مؤسسة على فروض صنعناها ليست معتمدة إلا على وقائع ... وبالإجمال إن الباحث في الرياضة، وفي علم الطبيعة، يضع ويثبت، أي أن هناك فروضًا وهنا وقائع . وأن الباحث في العلوم المجردة يذهب من تعريفات إلى تعريفات، وأنه في العلوم الواقعية يسير من ملاحظة إلى ملاحظة، وهو في الأولى يصل إلى الجلاء وفي الثانية إلى اليقين ...

كان يريد أن يضع الإنسان في المركز من الكون، وكان يمعن في هذه الإرادة إلى حد الغرابة . ولم يكن يحب تقسيم النبات الذي أراده «لينيه» إذ أن تقسيمه الخاص الذي لم يكن يتحدد بالنبات، ولكنه كان يتناول الخلق كله، وكان يصدر عن مبدأ آخر . وإليك كيف يبسطه :

يستيقظ أحد الأفراد وكأنه قد نسي كل شيء، وهي في أحد الحقول حيث الحيوانات والطيور، والأحجار تمثل أمام عينيه الجديدتين ففي أو ل الأمر يضل ولايميز شيئًا، ويخلط كل شيء . ولكنه بعد قليل يلمح فرقًا بين المادة الجامدة والمادة

(١) تشير المؤلف هنا بكلمة «جديدة» إلى التذكرة بذلك الكتاب الخالد الذي كان ديكارت قد أصدره في القرن السالف بعنوان «خطبة على المنهج» (المترجم)

الحية، ثم لايلبث أن يتبين في هذه الأخيرة فرقًا بين الحيوانات والنبات منه ينشأ ذلك التقسيم العظيم الأول إلى : معادن ونباتات وحيوانات. وعلى أثر ذلك، حين ينظر هذا الشخص نفسه إلى الحيوانات ينتهي في وقت قصير، إلى أن يكون لنفسه فكرة خاصة عما يعيش منها على الأرض أو في الماء، أو في الهواء. ومن ذلك ينشأ التقسيم إلى ذوات الأربع، والطيور والأسماك، وإذ ذاك يرتب ذوات الأربع حسب علائقها به هو، فأكثرها نفعًا في حياته، تظفر بالصف الأول كالجواد والكلب والثور. وعندما تنفذ قائمة تلك الحيوانات الأليفة، ينشغل بالحيوانات التي يمكن أن تقطن نفس المكان كالأرانب البرية والأوعال وحيوانات متوحشة أخر. وفي النهاية فقط، ينتهي به حبه للاطلاع، نحو الحيوانات التي تقطن المناخات الأجنبية كالفيلة والهجن وما إلى ذلك.

وبالإجمال إن طموحه كان يهدف إلى أن يجمع بين الأشياء التي تتشابه، وأن يفصل المتباينات منظما التشابهات والاختلافات من حيث علائقها بالإنسان، وإلى أن يقدم إلى هذا الأخير صورة عن الطبيعة تحققت بوسيلة الوصف الكامل.

لاجرم أن كتابيه «تاريخ الأرض» و«عصور الطبيعة» قد أفاد في استبدال الفكرة الثابتة، عن العلم، بفكرة متطورة، إذ أبان فيهما أن المرء لايستطيع أن يعرف ذلك الواقعي - وهو الذي كان بوفون يطمح إلى فهم مجموعه وتفاصيله - إلا إذا كان يراه يتكون في وجوده السابق، وفي أحداث ماضيه. وقد صدر عن المظهر الأخطبوطي للأرض - كالجبال والهُوَى والسهول والبحار والبطاح والأنهار والكهوف واللجج البراكين والصخور الهاوية، المشققة والمحطمة، والبقاع المبتلعة، لكي يتغلغل في أعماقها بفضل علم طبقات الأرض. وعن طريق فعل النار والماء الذي دام منذ آلاف السنين قد شرح ذلك اللغز. أو كما قال بلغته الرنانة: إنه فتش في سجلات العالم، ووضع أحجاراً مرقمة على طريق الزمن الأبدية.

كان كل شيء يبدو أن يتخذ منه رمزاً حتى من أخطائه، لأنه كان ينخدع أحيانًا. ولقد أساء النظر حين وضع عينه على المنظار المكبر الذي أعاره إياه السيد

«نيد هام»، وقد أساء صنعاً في تقديراته، وفي مراجعة نتائجه، وقد حدث له أن نظر إلى الانشغال بالتفصيلات على أنه عمل منحط وغير جدير به. ولاجرم أن هذا العدد لمجموع النظريات قد انغمس نهائياً في نظرية الأرحام والقوالب وأيدها زمناً طويلاً. غير أنه إذا كان قد أتم فإن ذلك كان منه ضد حكمته الخاصة، وضد القانون الذي كان يرجع إليه دائماً، بحيث إنه كان معرضاً للخطأ، فقد وكل إلى من سيأتون من بعده، المنهج الذي يسمح لهم بنقضه.

كان رمزاً للعمل وللصبر الطويل الذي صار عبقرية. والوقت، الوقت النفيس الذي يسفه فيه الآخرون في التوافة واللذائذ بل في الشواغل الخارجية عن مهمتهم، كان هو يحتفظ به لعمله الذي هو: حديقة الملك، والتاريخ الطبيعي. وكان هو يقاوم فتن سعة العيش والحياة الاجتماعية، والرحلات. وفي الواقع أنه لم يمض سوى بضعة أشهر في إيطاليا، ولم يقم في إنجلترا إلا بقدر مايكفي لتلقفه العلم. وعلى أثر ذلك، لما كان سيد حياته ولما كان قد امتلك مزاجه وطبعه وقوته، فقد بذل في هدوء أقصى جهده، كانت ساعات الاستيقاظ، والمائدة، والنزهة محددة بطريقة ثابتة. وبالإجمال كان يعمل كمن لايستريح ألبتة لأنه يعلم أنه لم ينته قط من عمله.

كان رمزاً لِخُلُقِيَّة العلم وللشعور بقانونه القاسي. وكان أيضاً رمزاً للآمال التي يمنحها العلم. وكان في هذا يقول: «لنجمع دائماً، تجارب، ولنبتعد - إذا كان ذلك ممكناً - من كل روح للنظريات، وليكن ذلك على الأقل، إلى أن نصير متعلمين، و سنجد في يسر، مانستعمل فيه هذه المواد، وحتى لو لم نسعد السعادة الكافية بأن نشيد منها بناية تامة، فإنها ستنفعنا يقيناً في تأسيسها، ومن الممكن أن نفيدنا في إعجال تشييدها إلى ماوراء آمالنا[1]».

لم يكن المساء يحل بالنسبة إليه، وكلما كان يهرم، كان يدخل في موكب من المجد والفخار، بل إن عيوبه، أي بعض الجوانب المادية من طبعه، ومهارته في

---

(١) Buffon, Piéface á la traduction de la statique des végétaux Hales, 1733

العثور على مساعدين أحسن اختيارهم، وذوقه في الحب السريع السهل. كل هذه النقائض كانت تختفي في نوع من دخان بخور المدائح، فقد كان عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي، وكان أميناً دائماً لصندوق مجمع العلوم. وكان عضواً في مجامع لندن، وإيديمبور، وبرلين، وسان بيترسيور، وفلورنسا، وفيلاديلفي، وبوستون، وكان متوجاً بالمجد ومبجلاً من الجميع، وقد رأى في حدائقه، ذلك التذكار الذي شيده ابنه لمجده، كما رأى تمثاله في حديقة الملك العزيزة عليه. وقد صار قصره في مونبار موضعاً للحج متنافساً في ذلك مع قصر ڤولتير بفيرنيه، ولقد قدم أمبربروسيا هانري لزيارة هذا الرجل الشهير ثم أرسل إليه على أثر ذلك طقماً من الصيني محلى بصورة الطائر الأبيض. وكان جان جاك روسو يركع على ركبتيه ليقبل عتبة بابه، وكان هناك قوم يرسلون إليه شعراً يصورونه على أنه العقل المبتدع، والعبقرية العالية، وكانت مدام نيكير، تدعوه «رجل جميع العصور». ولقد كتبت إليه كاترين إمبراطورة روسيا في كتاب بخطها تقول له: إن نيوتون قد خطا الخطوة الأولى، وإنه هو قد خطا الثانية. وعندما كان الزائرون ينتهون من زيارة الحديقة ذات (التراسات الثلاثة عشر) ويشاهدون ذلك المكتب الجدي الخالي من الزخرف، وهو الذي كتب فيه بوفون مؤلفه العظيم. وكانوا يوجهون نظراتهم نحو المؤلف، كانوا يرون مظهراً جليلاً، ووجهاً جميلاً هادئاً لايزال غضاً في الثامنة والسبعين. حقاً إن المثال «هو دون» قد استطاع أن يعبر - في التمثال النصفي الذي صنعه له عن جده ونبله، ولكنه لم يستطع أن يرسم بريق عينيه، ولا لون حاجبيه الأسودين المتعارضين مع شعره الجميل الأبيض. وفي الحق أنه كان يشبه الرجل الذي كان المثال قد مثله. كان ينصب قامته مستقيمة وكان مظهره مظهر الآمر وكان رأسه متجهاً إلى السماء ويقدم وجهاً جليلاً رسم عليه طابع كرامته.

* * *

ومن ثم فكل هذا العمل. وكل تلك المشقة وجميع هذه المحاورات قد تمت لكي تبين هذه الحقيقة التي هي بسيطة إلى حد أنه، في محيط العلم، ينبغي الصدور

عن الملاحظـة الدقيقـة للوقائع . أليـس كذلك؟ إن هذا أمر يقيني . وكما أن الملاحظـة كانت موضع الجزم في كثير من الحالات ، يجب أن تكـون كذلك أيضاً في المسـتقبل . ولهذا لايفعل كلود بيرنار أكثر من أنه يعـود إلى بيكون ، وكـل شيء يحـدث كما لو كان المد يغطي الجزر المستكشفة من عصر إلى عصر . من جيل إلى جيـل ، وكما لو كان ينبغـي في كل مـرة تبيينـها من جديد بكثـير من العـمل والعبقرية .

# الفصل الثالث

## الحق الطبيعي

هيا إلى العمل لكي نستغل فتوح جروسيوس، وبوفيندروف وكومبير لاند، وليبنز وجراڤينا. ولكي تفهم كل أوروبا وكل الدنيا أخيراً أنه لا يوجد سوى حق واحد تنبثق منه الحقوق الأخرى، وهو الحق الطبيعي.

إلى العمل لكي ننقض جميع الذين لا يزالون يجرؤون على مهاجمته، ولكي نصيب ولو في الماضي، هو بس الشرير الذي أراد أن يصنع من القوة، المبدأ الوحيد للعلائق البشرية. إلى العمل لنحدد المكاسب التي لا تزال مختلطة، ولننميها ونحولها إلى علم، ولنجتاز النظري إلى العمل إذا كان ذلك ممكناً.

على أثر هذه الدعوة، تضاعف تعليم الحق الطبيعي في كل أوروبا، وفي سنة ١٧٧١ تأسس كرسي الحق الطبيعي في المدرسة الملكية، وبالإجمال انتهى عصر المخترعين وأتى عصر الأساتذة.

ومنذ ذلك الحين كانت هناك محاولات وبحوث وشروح طويلة كثيرة الكلام قليلة الدلالة، وكان هذا كله تبدو عليه مسحة العمل المتجهم الذي يقوم به الاختصاصيون، ولكنه في الواقع كان مجهوداً قوياً اتخذ له مقراً في قلب الحياة نفسه، مجهوداً تطابق مع جميع المجهودات التي حاولها أربابها في تلك الحقبة، بل إنه كان في أغلب الأحايين يفوقها، مجهوداً يهدف إلى أن ينتزع من اللاهوت، الناموس المنظم للعالم، وإلى أن اللاهوت لا يحتفظ بالحق على أنه من

أوصافه، إلا حين لا يكون اللاهوت شيئًا آخر غير العقل. وإليك أهم المنتجات في هذا المجهود.

في سنة ١٧٣٠ ألف جوان جوتليب هينيك، كتاب: «عناصر الحق الطبيعي وحق الناس» «Elementa juris naturae et gentium»:

كان رجلاً جد عالم ذلك المدعو جوان جوتليب هينيك الذي لم يغادر جامعة هال إلا لكي يعود إليها لأنه كان يوجد في موضعه حقًا. كان فقيهًا من الصف الأول، وقد أراد أن يضع في متناول الطلاب كتابًا تكون مهمته ترسيخ ارتباط الحق الطبيعي بالفقه، لأن الفقه يكون عبثًا إذا لم تبعث فيه الحياة، روح هذا الحق. وهل الفقه في الحقيقة شيء آخر غير الحق الطبيعي مطبقًا على الوقائع البشرية؟ وإليك التعريف الذي وضعه له: «الحق الطبيعي هو مجموعة القوانين التي شرعها الإله للنوع البشري، بوساطة العقل المستقيم، وإذا أريد اعتباره على أنه علم، فإن الفقه الطبيعي يكون هو الطريقة العملية لمعرفة إرادة المشرع الأعلى: كما تتضح عن طريق العقل القويم، ولتطبيقها على جميع الحالات النوعية التي يمكن أن ترد».

وفيما بين سنتي ١٧٤٠ و١٧٤٨ - ألف جوان كريستان ڤولف كتاب «الحق الطبيعي، والمنهج العلمي لمعالجته» «Jus naturae méthodo scientifica pertractorum».

يشرع جوان كريستان ڤولف في العمل. ولا يتوقف بعد ذلك وهو الذي سيضع من الحق الطبيعي منطقًا، والذي سيقيده في الجدول النظامي الكبير الذي يمثل الحقيقة مع الحياة العملية.

إن الإنسان مؤلف من نفس وجسم، وكما أن مجموع أعضائنا يميل إلى حفظ جسمنا، كذلك العقل يميل إى اقتياد النفس إلى كمالها. وعلى أثر ذلك تتخذ أفعالنا طابع الخير أو الشر في ذاته: ويعتبر خيراً كل ما يسهم في كمال النفس، ويعتبر شراً ما يضاد ذلك. هكذا يريد القانون الطبيعي المشتمل على سببه الكافي في

جوهر الأناسي والأشياء، وهو في هذا يقول: «من حيث إن الطبيعة التي هي دائماً مرتبطة بالحقيقة ارتباطاً داخلياً، لا تحتمل التناقض الذي هو العدو الأبدي للحقيقة فإن اتجاه الأفعال الإنسانية الوحيد الذي يتفق معها، هو أن تكون محدودة بنفس الأسباب الغائبة التي تحدد الأفعال الطبيعية وإنها على هذا النحو تتجه معاً، نحو نفس الغاية» وإذ يقرر هذا يصل إلى الحق ولكي نستطيع أن نؤدي هذه الالتزامات يجب أن يكون لدينا المقدرة على فعل ما لا نستطيع تأديّها بغيره. ومن هذا ينبثق إما حق استعمال الأشياء، وإما حق أتمام بعض الأفعال. وكذلك الانتظام في المجتمع قد أنشأ واجبات أخرى غير التي تعرض على الفرد. وإذن فقد أوجد حقوقاً أخر تدعى بالحق الخاص والحق العام وحق الناس. ولقد بذل ڤولف هذا المجهود الشاق ليجعل جميع الحالات الخاصة تنبثق من هذه المقدمات. إنه ينزل إلى التفاصيل، ويتحدث عن الملكية، وعن الحقوق التي تنتج منها، وعن الالتزامات التي توجد مرتبطة بها. وعن الهبات والعقود وأشباه العقود، وعن الواجبات والحقوق الأسرية التي تتعلق بالمجتمعات الزوجية والأبوية والسيادية وعن حق الدول وحق الناس.

ولقد بهت فورميه. وهو أحد المعجبين أمام منطق تدليله فقال: «إن الطبيعة تريد أن يكون الإنسان سليم الجسم والعقل بقدر ما يمكن أن يكون وإن العقل يريد أيضاً. فافترضوا إنساناً تعمل فيه الطبيعة والعقل متفقين فإنه سيكون لديكم إنسان كامل. ذلك هو المبدأ العظيم الذي عليه تعتمد كل تدليلات السيد ڤولف. ولم يستعمل أي فيلسوف إلى عهده مبدأ منيراً وخصباً كذلك المبدأ.» ولكي نقول الحق. نعلن أن الفقه لا يزال ينقصه شيء، ولكن السيد ڤولف قد أجاد العمل إلى حد أنه لم يبتعد به عن الإتمام. وهو الآن كأنه آلة لا ينقصها سوى إحكام أجزائها لكي يمكن استعمالها، وسيأتي واحد آخر يكون قد استفاد من أنوار السيد ڤولف فيصلح ما فرط منه. وكان أقل ضبطاً. وقد يأتي الوقت الذي يتاح فيه لهذا المذهب- وقد انتشر في كل امتداده- أن يستقر على أنقاض الآخرين، وأن يكون مرشداً لجميع الفقهاء.»

وفي سنة ١٧٤٠ ألف ف. هـ. استروب دى بيبرمون، كتاب: «بحوث جديدة عن أصل وأسس حق الطبيعة».

منذ سنة ١٧٣٢ حين لاحظ فريديرك مانرى استروب دى بيير مون أنه لا المؤلفون ولا الأساتذة كانوا متفقين على تعريف الحق الطبيعي، استشار أنواره الخاصة وإخراج كتابه «بحوث جديدة عن أصل وأسس حق الطبيعة». وكان يحسب أنه قد ظفر بالسر الأعظم.

كان أقدم الفلاسفة، يقصدون بالنواميس الطبيعية، النظام الأزلي الثابت لجميع الأشياء المخلوقة، وكان الفقهاء الرومانيون يرون فيها التوجيهات الصادرة من الطبيعة إلى جميع الحيوانات، وقد اتخذه أكثر الأخلاقيين على أنه قواعد أمر بها العقل، وقد حددوها بالإنسان وحده. ولكنها في الواقع شيء آخر، إذ أن كل كائن مخلوق لا يمكن أن يكون قد خلق إلا للاحتفاظ بذاته، وأن بعض التشابهات في الأسباب، تضطره أيضًا إلى التفكير في حفظ الآخرين، وإذن فكل إنسان يحب أن يحتفظ بذاته، وأن يحفظ الآخرين المرتبطين به. وبالإجمال يجب أن يعمل على إدامة النوع البشري، ذلك هو المبدأ الأول الوحيد والأعظم لنواميس الطبيعة أو لحقها.

غير أن العقل الذي يتحدد بأن يعتبر العلائق التي توجد بين الفكر، هو غير قادر على أن يجعلنا نستكشف ما ينبغي أن تعلمنا النواميس إياه. وهناك قوة أخرى من قوانا هي أيضًا غير قادرة على هذا، بينما أن الهوى على الضد من ذلك هو المبدأ الفعال للنفس، لأنه مصحوب بالقوة التي تحقق التنفيذ، وهي التي تلزمنا بتطبيق الحق الطبيعي.

وفي سنة ١٧٤٢ ألف فرانسوا ريشيه دوب، كتاب «محاولة على مبادئ الحق والأخلاق».

الآن قد أتى دور السيد دوب وهو من قضاة مجلس الدولة، ومن ناحية أسرته هو أحد أقارب فونتينيل.

يرى هذا المؤلف أن الناموس الطبيعي الذي عليه طابع الأزلية والعمومية. والذي لا يمكن أن يمحى. والذي ليس في حاجة إلى التأويل. هو منقوش على جميع القلوب. ومجمله أن الإنسان كائن مادي، وإذن فهو يميل إلى حفظ ذاته، وهو كائن روحي. وإذن فهو ينعطف نحو سعادته. وأن الطبيعة - وهي مضمونة بوساطة الإله الذي هو سيد الكون- هي ملهمة هذا الناموس الذي يمتزج بخير المجتمع.

وفي سنة ١٧٤٨ ألف ج. ج. بورلاماكي كتاب «مبادى الحق الطبيعي».

ولما كان چان چاك بورلاماكي- وهو أستاذ للحق الطبيعي والمدني في جنيف- شجاعًا وثرثاراً. هندسيًا ومحللاً ودوجماطيقيًا أكثر مما يعتقد هو. فإنه كان يضع الحدود بلا فتور. وقد حَدَّ الإنسان من حيث إن فكرة الحق. وأكثر من ذلك فكرة الحق الطبيعي مرتبطة بطبيعة الإنسان، وحَدَّ السعادة التي يتوق إليها الإنسان بالطبع، وحَدَّ الفطنة التي هي محكمة بالفطرة. والتي تملك في ذاتها القوة الكافية لمعرفة الحقيقة وتمييزها من الخطأ. وحَدَّ الجلاء الذي لا تستطيع الأهواء البشرية أن تنتصر عليه. وحَدَّ العقل الذي يحمل معه دائمًا فكرة عن الكمال، وحَدَّ الفضيلة. ولما تزود على هذا النحو ألم بفكرة القانون. وهو في هذا يقول: «يفهم من كلمة القانون الطبيعي الذي يفرضه الإله على جميع بنى الإنسان والذي يستطيعون استكشافه ومعرفته بوساطة نور العقل وحده، عندما يعتبرون طبيعتهم وحالتهم والحق الطبيعي هو النظام، أو ترتيب هذه القوانين.

وأخيراً إن الفقه الطبيعي هو فن الوصول إلى معرفة قوانين الطبيعة، ونشرها وتطبيقها على الأفعال البشرية».

وعنده أن القانون الطبيعي هو أيضًا: «كل ما يقره العقل على أنه وسيلة يقينية ومختصرة للوصول إلى السعادة، وما يستحسنه على أنه كذلك».

عندما يعلن بورلاماكى أن القانون الطبيعي هو «القانون الذي يفرضه الإله على جميع بنى الإنسان» هل يحتفظ ببعض بقايا الحق الإلهي؟ فلنتفاهم في ذلك:

لما كان الإله هو منشئ طبيعة الأشياء وتكويننا، وإذا كنا- تبعًا لهذه الطبيعة وهذا التكوين- ميسرين بصورة معقولة لأن نحكم بطريقة خاصة، ولأن نعمل متفقين معها، فإن قصد الخالق يكون إذ ذاك واضحًا وضوحًا كافيًا، ولا نستطيع بعد ذلك أن نجهل ماهي إرادته. وإذن فلغة العقل هي لغة الإله نفسه. ومن حيث إن الإله عقل، وإن العقل هو العقل البشري، فإن الإلزام لا يجيء من الإله بمعنى أنه لا تمكن إطاعة أمر موجود أسمى إلا بوساطة قبول سابق، للمبدأ الذي يلهم هذا الأمر وبالاختصار إن الإله يتلاشى في العقل، وإن العقل يتلاشى في الطبيعة، وبهذا يصير الحق الإلهي القديم حقًا طبيعيًا وعقليًا. وينبغي ألا يبقى أي أثر للحق الإلهي، وينبغي الرجوع في هذا إلى تعريف دائرة المعارف تحت كلمة قانون، «إن القانون في العموم، هو العقل البشري. بمعنى أنه يحكم جميع شعوب الأرض، وإن القوانين السياسية والمدنية لكل دولة لا يجب أن تكون سوى الحالات الخاصة المختلفة التي عليها ينطبق هذا العقل البشري».

وفي سنة ١٧٥٧ ألف مارتان هوبنير كتاب «محاولة على تاريخ الحق الطبيعي».

ولكم أريد تبيين أن الحق الطبيعي كان منقوشًا على قلوب جميع الأناسي. إلى نهاية حدود الأرض. ومنذ مبدأ الزمن! ولكم كان حسنًا أن يستأنف المرء الصعود إلى حالة الطبيعة. وبهذا يجعل نظرية ذلك الحق نفسه تعتمد على معارف تجريبية! وأي انفعال ذلك الذي أثاره نبأ وجود فتاة متوحشة في غابات شانبانيا. ورجل متوحش في غابات هانوفر! وكان من الممكن أن يسألهما الباحثون وأن يدونوا على ألسنتهما، أجوبة الطبيعة! غير أن المسرح والرواية قد استبدلا بالخيال ما وجد لدى هذين الشخصين من دواعي خيبة الأمل. ففي مهزلة «المشاجرة»، ينقب ماريفو عن الذي وقعت منه الخيانة الأولى، أمن الرجل، أم من المرأة؟ والأمير الذي يضعه على هذا المسرح هو الذي سيقول الكلمة الحاسمة في ذلك. ولا جرم أن

العالم وعلائقه الغرامية الأولى، سيعودان إلى الظهور أمام أعيننا كما كانا، أو على الأقل كما وجب أن يكونا ...» وهاك البيان:

كـان والـد الأمير وهـو فيلسـوف، قـد نقل- إلى مكان منعزل وبعيد عن كـل اتصـال بالمجتمـع أربعـة أطفـال غلامين وفتاتين لا يزالون في المهد، فكبر هذان الغـلامـان وهاتان الفتـاتـان الذين ربوا كل على حـدة، ولم ير واحـد منهم الآخرين ألبتة.

أتى بعد ذلك الزمن الذي ستترك لهم فيه حرية الخروج والالتقاء، وسيمكن النظر إلى العلائق التي ستوجد بينهم. على أنها صورة للعصر الأول للعالم. بيد أن ماريڤو. لا يقول الكلمة الفاصلة في هذا، وأننا لن نعرف أبداً ممن أتت الخيانة، لأن النتيجة هي أن النوعين ليس لديهما ما يؤخذ عليهما، وأن الرذيلة والفضيلة تنتسبان إليهما على السواء.

أما بوريو- في روايته «تلميذ الطبيعة» التي ظهرت في سنة ١٧٦٦- فقد كان أكثر جرأة. ومجملها: أن زوجاً كان قد نال من زوجته، الموافقة على أنهما إذا وجد لديهما أكثر من ستة أولاد، فإن من زاد على ذلك يخصص لاستجواب الطبيعة. ولما كانا قد ظفراً بسبعة أولاد فإن السابع والأخير قد حبس في قفص دون اتصال بأي أحد، بل إن طعامه كان يقدم إليه من بين فرجات القفص، وكان القفص قد نقل إلى جزيرة مقفرة. وفي سن العشرين قد بدأ بطل الرواية يتصل بالرجال الآخرين، وقد حدث أن كان خيراً وعاقلاً، وأنشأ أسرة صارت على أثر ذلك مجتمعاً كاملاً...

نعم من الواضح أن الأدب لا يعتمد عليه. ولكن الذي يمكن على الأقل هو رسم الخطوط العريضة منه، وذلك للمرة الأولى، هو تاريخ الحق الطبيعي. ولقد حاول أحد الدانيماركيين، وهو مارتان هوبنير، مزاولة هذا العمل، وكان من دواعي الغبطة عنده أن يردد تلك العبارات المتمثلة التالية:

(١) إني تعقلت كإنسان ليس لديه مرشد آخر سوى أنوار العقل (٢) إن ما أدعوه باسم الحق الطبيعي هو مجموعة القواعد المنظمة الإلزامية التي يأمرنا العقل وحده لكي ينتهي بنا يقيناً إلى السعادة (٣) إن فكرة القانون الطبيعي هي، بلا معارضة، متعلقة بطبيعة الإنسان، أي أنها متصلة بجوهره (٤) إن الإنسان يريد أن يكون سعيداً، وهو لا يعمل مستهدفاً سعادته، ولكنه- لكي يرضى رغباته التي تحثه بلا انقطاع، ولكي يصل إلى الغاية التي يقصدها في كثير من المثابرة- ينبغي أن يعز الوسائل التي تنتهي به إليها، وعن ذلك ينجم أن الإنسان في حاجة إلى بعض القواعد. ولا جرم أن قواعد توجيه سلوكنا أي وسائل السعادة البشرية، هي ما ندعوه بالقوانين الطبيعية. وإذن فطبيعة الإنسان هي التي كانت- إذا أمكن أن يقال ذلك- المعلم الأول للحق الطبيعي.

وإذ ذاك جعل ينبش في أعماق العصور عن عظماء الرجال الذين تجسد فهم هذا المعلم، كل بدوره. ومن أمثلة ذلك الكاتب المحترم الذي عنه تلقينا تاريخ الزمن الذي سبق الطوفان، والذي قدم ملخصاً جد موجز، للقوانين الطبيعية، وهو موسى. ومنها أيضاً الصينيون، والإغريق، (مونتسكيو العصور الأثرية) الذي بوساطته اعترف بالحق الطبيعي اعترافاً حاسماً، وهو سقراط. ومنها كذلك الرومان. رغم زهوهم السياسي الذي كان يستمد وجوده من التعصب، وهم شيشرون، وسينيك ثم إبيكتيت، ومارك- أوريل، "Cicéron, Sénéque, Epic- téte, Marc-Auréle"

غير أن هناك انحطاطاً قد حدث في العصور الوسيطة كما كان ذلك متوقعاً ما دام أن العصر كان قوطياً وبربرياً. ولكن النهضة كانت قد علمت الناس أن يجيدوا التفكير، وكان بيكون قد ظهر. وعلى هذا النحو يصل القراء إلى جروسيوس، وبوفيندروف، وكومبيرلاند، وڤولف، وباربيراك، وبورلاماكي "Grotius, Pufendorf, Cumberland, Wolff, Barbeyrac, Burlama qui"

ولقد انتقل الإنجليز والدانيماركيون إلى صف الحق الطبيعي، وفي ألمانيا كان

النجاح يوشك أن يكون مفرطًا في الحيوية لأن تلك الأمبراطورية الواسعة ذات الأقاليم المتعددة التي كانت مكتظة بالجامعات، وكان في كل جامعة منها يوجد بصورة عامة، كرسي للحق الطبيعي، وكانت المحاولات والملخصات والنظريات توجد فيها كثيرة العدد إلى حد فقدت معه الفكرة المرشدة منذ زمن طويل، بل كان من الممكن أن تؤلف من تلك الكتب مكتبة كاملة، لو كان ذلك يوازي مشقة جمعها ونفقاتها، بل إن الأشخاص الذين هم أقل الناس جدارة بالتفكير كانوا ينبثقون غالبًا في تلك البلاد، على هذه المادة عندما لا يعرفون أيها يختارون لكي يحققوا نشاط أقلامهم.

نعم إن الحق الطبيعي قد التقى بخصوم، ومرتابين كاسبينوزا، وبهراطقة، كبيل، ومانديفيل وبولينبروك.

غير أن مؤلفاتهم لم تكن تستطيع شيئًا أو كانت تستطيع قليلاً ضد حقائق قد اعترف بها.

وفيما بين سنتي ١٧٨٣ و ١٧٨٨ ألف جايتانو فيلانجيري- كتاب «عن علم التشريع».

ولقد كتب جوت عن جيتانو فيلانجيري الذي التقى به في نابولي وعرفه بمنتجات مؤلف قديم وهو ج. ب ڤيكو، الثناء التالي الذي لا ينسى: «إنه كان أحد أولئك الشبان الجديرين بالاعتبار الذين لا يغفلون عن سعادة البشر، ولا عن الحرية التي أجادوا فهمها. ومن خلال تصرفاته يستطيع المرء أن يتبين فيه الجندي والفارس، ورجل الطبقة العليا، ومع ذلك فإن هذا المظهر الأرستقراطي معتدل بوساطة ملامح العاطفة الأدبية الرقيقة المنتشرة على شخصه، والتي تشع من ألفاظه ومن كل كيانه في كثير من السحر.»

أما بينيديتو كروش، فهو يطلق عليه لقب أحد حواري الإنجيل الجديد أي إنجيل العقل.

بوساطة كتابه «عن علم التشريع» ينتهي الحق بفقدانه طابعه كواقعة تاريخية، لكي يصير النظرية المؤسسة على فكرة والتي بمجرد دخولها في العمليات، تصلح الحياة. وفي الواقع أن المعرفة التاريخية لا يمكن أن تعطي إلا منظراً من مناظر الاختلاط المحزن، إذ أن التجربة تظهر لنا كومة من القوانين منبثقة عن مشرعين مختلفين في دول متباينة وفي أوان متفرقة. وعلى الضد من ذلك، لو حصرنا الوقائع في علم نظري، لصار كل شيء ميسوراً وخيراً، وهو في هذا يقول: «أيتها الطبيعة البسيطة المعصومة، إنني بقدر ما ألاحظ منهجك، أبغض منهج بني الإنسان، وبقدر ما أحاول أن أتبع منهجك أكون مغتبطًا بأن أبتعد عن منهجهم...»

ينبغي الصدور عن تعريفات يقينية، وبوساطة سلسلة من المبادئ سنعرف كيف يجب أن تكون الحقوق الجنائية والمدنية والسياسية والدينية، وكيف يجب أن تكون التربية والأسرة والملكية.

في الغابة المظلمة التي كان آباؤنا البرابرة مغتظين بها، سينشئ الحكيم المشرع طرقًا فسيحة مستقيمة تنتهي بنا إلى العدالة والسعادة. وسيستمع الأمراء صوته، وسيتبعون نصائحه. ولا ريب أن «هذه الوظيفة المقدسة تستند إلى خدام الحقيقة وإلى الفلاسفة السلميين».

وإذ ذاك سيحل حب الإنسانية محل الأنانيات، وسيمحو معنى العدالة، الإفراط، وستمزق المخطوطات القديمة، والشروح والتأويلات، وسوف لا يلتجأ إلى السوابق، وسيصير الخصوم والمحامون والقضاة. تلاميذ للقانون الطبيعي النقي، وسينجو العالم.

وحين يتحدث جايتانو فيلا نجيري على هذا النحو. ينفعل ويشعر بأنه يحركه هوى حاد فيعظ. وعندما ينظر إلى الأخطاء القديمة يتألم ويعلن الألم. وحين يلمح تقدم المستقبل يتحمس. ولا غرو فليس عقله هو الذي يتحدث فحسب، بل قلبه أيضاً.

* * *

ومهما يكن من الأمر فَلِمَ هذه الفوضى الكبرى في القوانين؟ لِمَ هذا الاختلاط وذلك الأخطبوط؟ أمنشأ ذلك هو خيانة المشرعين الأغبياء أو المغرضين، والذين هم على كل حال حراس غير أمناء على وديعة مقدسة؟ ليكن ذلك، ولكن الناس كانوا يشعرون بأن هذا الجواب قد دفعه الإفراط في التسرع.

وفي الحق أن مونتسكيو "Montesquieu" كان عظيمًا لأنه تيسرت له تلك الإرادة للشرح، فلكي يصل إلى أرفع النقط حيث يبدو النظام في وسط الفوضى، صنع من حياته صعوداً إلى أسمى القمم. إنه لجميل أن يرى مستقراً في ثروته العقارية، وألا يكتفي بذلك، وأن يظفر بشهرة إقليمية وألا يكتفي بذلك، وأن يصل إلى المجد الأدبي بسبب النجاح الأوروبي لكتابه «الرسائل الفارسية» وألا يكتفي بذلك. وبدلاً من أن يستريح هو يستأنف مجهود من جديد، وليس لديه طموح إلا أصعب الأشياء، إنه عمل، وكم عمل! وقد قرأ، وكم من الكتب قرأ! إنه قرأ أثرَى الكتب مادة. وأشدها إقحالاً، قرأ ما كان يحبه، وما كان يبدو له «فاتراً وجافًا وتافهاً، وفظًا، ومتعبًا» وكان يزدرد كل هذا. كما كان «سانورن- فيما قالت الخرافة- يلتهم الأحجار. ولما آن الأوان غادر مكتبه وهجر إقليمه العزيز جويين، ووظيفته ووطنه، وارتحل ليرى عن قرب، تطبيق الدساتير، وحياة الناس ثم عاد إلى فرنسا في قصره لابريد حيث استأنف العمل والقراءة والتأمل لكي يفوق الكافة ذوي المعارف المكتسبة. وعندما سادت كل معرفه، وتضجت كل أفكاره، بدأ يرى من أعلى، ما أساء الآخرون رؤيته. ولكي يصل إلى هذا، أبدى كثيراً من المعرفة، وكثيراً من الذكاء، ومجهوداً مدهشاً لكي يكون واضحًا، وشعوراً جليًا بالموضوع الذي ينبغي اختياره، وبطريقة معالجته، وبالأسلوب نفسه، واعتدالاً سمح له بألا يترك نفسه يُحْمَل إلى ماوراء الحقيقة، وأنانية مقدسة دافعت عنه ضد كل من يحوله عن الغاية أي، ضد الأهواء والمحبة نفسها، وحب الخيرات المزيفة وعذوبة الفراغ، وختامًا نقول إنه قد ظفر بمكافأته حين أعلن قائلاً: «إنما هاهنا ينبغي أن يقدم الإنسان لنفسه منظر الأشياء البشرية ...».

وفي سنة ١٧٤٨ ألف مونتسكيو كتاب «روح القوانين» الذي يقول فيه: «إن القوانين في أشد معانيها امتداداً، هي العلائق الضرورية التي تنبثق من طبيعة الأشياء.»

إنه شعر بقلق زمانه، لأن المرء لم يكن يستطيع أن ينظر في كثرة القوانين، وعدم تناسبها، دون نوع من اليأس، وذلك كقوانين الرومان وقوانين شعب «الفرنجة» في العصور الوسيطة، وقوانين إفريقيا وآسيا، وقوانين العالم الجديد، والقوانين التي كانت تحكم منذ آلاف السنين، حياة البشر الذين كانوا لا يزالون متوحشين، والقوانين التي تملئ اليوم أحكام محكمة لوندن أوبرلمان باريس. وعلى أثر ذلك لم يلبث النور الأول أن تمثل في ملاحظته، ومجمله أن أي قانون- مهما بدا خاضعاً للهوى الحائل- يقتضي دائماً، علاقة ما، لأن أي قانون هو متعلق بالشعب الذي أنشئ له، أي بالحكومة، وبطبيعة البلد، ومناخه، وبخاصية الأرض، وبنوع حياة السكان، ودينهم وثروتهم وعددهم وطباعهم وطرائفهم وتجارتهم. وفوق ذلك فإن للقوانين علائق فيما بينها، ولها علائق بأصولها وبغاية المشرع.

كيف تأسست تلك العلاقة؟ إنها نتيجة لطبيعة الكائن، وهي تتجه من كائن معين إلى مظاهر وجوده، فمن حيث إن العالم المادي موجود فإنه توجد قوانين تتفق مع طبيعته المادية، ومن حيث إنه يوجد مَلَكٌ فإنه توجد قوانين تتفق مع طبيعته الملائكية، ومن حيث إن الحيوانات موجودة فإنه توجد قوانين تتفق مع طبيعتها الحيوانية، بل إن اللاهوت نفسه، له قوانينه لأن الإله له علاقة بالكون كخالق وكحافظ، فالقوانين التي خلق بمقتضاها هي القوانين التي بمقتضاها أيضاً يحفظ، وهو يعمل حسب هذه القواعد لأنه يعرفها، وهو يعرفها لأنه صنعها، وقد صنعها لأن لها علاقة بحكمته وقدرته.

وهذه العلاقة ليست استبدادية، ولكنها منطقية لأنها عقلية، وإن الأمر بها صادر من العقل الأول الذي كان موجوداً قبل الأشياء، وقبل أن توجد الكائنات

العاقلة، كانت ممكنات، وإذن فقد كان هناك علائق عدالة ممكنة؛ وعند اجتياز علائق العدالة تلك، الإمكان إلى الواقع، تطابقت مع العقل الذي اقتضاها مقدماً: ومعنى هذا أن القول بأنه لا يوجد عدل ولا جور إلا ما تأمر به أو تنهى عنه القوانين الواقعية، هو القول بأنه قبل رسم هذه الدائرة، كانت أنصاف أقطارها غير متساوية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى جميع القوانين.

ولننظر إلى القوانين التي تتعلق بالحالة البشرية.

بدياً إن الإنسان كائن مادي، وهو بهذا المعنى خاضع لقوانين الطبيعة ولكنه أيضاً كائن عاقل، وإذن فسيكون لديه قوانين تتفق مع هذا العقل الذي هو محدود، وهو فوق ذلك في أغلب الأحايين منحرف بوساطة الأهواء، معرض للجهل والخطأ. وهذه القوانين هي التي كانت فيما بعد، قوانين الدين والتي ستعيد الإنسان إلى خالقه حين يعرض عنه، وقوانين الأخلاق التي ستعيده إلى نفسه حين يسيء معرفتها، والقوانين السياسية والمدنية التي ترده إلى واجبه نحو المجتمع.

لا يريد مونتسكيو أن ينظر في الأصل الإلهي للقانون لأنه لم يكن من رجال اللاهوت، وإنما هو كاتب سياسي، وهو لا يفحص ديانات العالم المختلفة إلا من حيث علاقتها بالخير الذي يستخلص منها في الدولة المدنية سواء أكان يتحدث عن الديانة التي أصلها من السماء أم عن الديانات التي أصلها من الأرض. أجل، إنه يعرف أن في كتابه أشياء لن تكون حقة تماماً إلا على طريقة بشرية في التفكير، ولكن نفس هذا الإقصاء، وهذا الشرح، وذلك الحذر، تلك الوسائل التي عني بأن يسلكها، تشف عن أعماق فكره كالعناية التي اتخذها لإظهار النتائج المحزنة التي حدثت خلال التاريخ في كل مرة أراد فيها ممثلو السلطة اللاهوتية أن يتدخلوا في المحيط الدنيوي. وعلى هذا الأساس يقرر الفرقة بين الحق الطبيعي والحق اللاهوتي.

وعند ذلك يلقي القلم، لأن ملاحظاته قد ارتفعت به إلى مبدأ وحيد، وعن هذا المبدأ الذي هو جوهر القانون، تنبثق جميع قوانين العالم.

* * *

بيد أن الناحية العملية لها شأن آخر، فعندما تلا «لاشاتوليه» اتهامه الذي وجهه إلى اليسوعيين أمام برلمان بريتانيا الفرنسية، أعلن أنه سيواجه إحدى وستين منظمة، قواعد الجماعات الدينية بمبادئ القانون الطبيعي ثم القوانين الواقعية اللاهوتية والبشرية، وعلى الأخص بقوانين مملكة فرنسا. ولكنه لم يتحدث ألبتة عن الأولى طوال خطبته. وحين أخرج موريلي، كتابه: «مجموعة قوانين الطبيعة» ليتجول، فيما يقول، مع رغبة كل أوروبا التي كانت- منذ زمن طويل- تتطلب رسالة أولية عن الحق الطبيعي. غير أن أوربا لم تظفر إلا برسالة أدبية، أضيفت إلى ما سبق. حقًا إنه كان من الأماني أن ينتج من كل تلك الكتب المؤلفة في نظرية الحق، قانون نافع يمكن أن تتبناه جميع محاكم أوروبا، سواء أكان ذلك عن المواريث، أم العقود، أم عن الشؤون المالية. أم عن الجنائية. غير أنه لا نصوص جروسيوس وبوفيندروف، ولا نصوص «روح القوانين» قد أنتجت ألبتة حكمًا من محكمة «ليشاتيليه» بباريس، ولا حكمًا من محكمة «أولد بيليه» بلندن [1].

ومع ذلك فإن إرادة العدالة- تحت تخمر الفكر الذي لم ينتج شيئًا في الظاهر- قد قويت. وفي الواقع أن المدينة، كانت تعتبر أن السلطات الدنيوية تسيء استعمال قوتها، وكانت تحاول أن تحدد القيمة غير القابلة للنقل التي أسندت خاصية إلى كل واحد من أفرادها. والتي، من نفسها. حمت حقوقهم، وكانت تريدها فعالة. وفي الحق أنها كانت تؤثر في الواقع المتحيز لأن الفكر كانت تغير الحياة. ومن أمثلة ذلك أنه كانت هناك بلاد في أوروبا، لا تزال محاكم التفتيش تقذفها بلهيبها، وإذا كان ذلك اللهيب قد انطفأ، فمنذا الذي يستطيع أن ينكر على الفلاسفة نصيبهم من هذا الإحسان؟ ومنها أيضًا أن العبودية- وهي التي يعللها البعض بوقائع الغزو، أو بضرورات الاستعمار. أو بفوائد التجارة أو بالعرف المقرر- لا يمكن أن تسوغ من جانب الطبيعة التي تمنح جميع أبنائها كرامات متوازية، ولا من جانب العقل الذي لا يقر أن اختلافًا في لون الجلد يؤدي إلى

---

(1) Voltaire, questions sur I'Encyclopédie, art, Lois. Eprit des loi.

القضاء بالتعاسة والعار. وإذن فقد حدثت حركة من جانب الفكر، عملت في تمهل على محو العبودية. إذ تَكَوَّن أدب معاد للعبودية جعل يؤثر في الرأي العام، وبوساطة هذا الأخير يؤثر في السلطة. ولا تزال فقرات الفصل الخامس من الكتاب الخامس عشر من «روح القوانين» تحيا حتى الآن في ذاكرتنا. وهاك نموذجًا منها: «إن أولئك الذين يتعلق الأمر بهم هم سود من أقدامهم إلى رؤوسهم، وهم فطس الأنوف إلى حد أنه يوشك أن يجعل الاشفاق عليهم مستحيلا. ولا يستطيع المرء أن يضع في ذهنه أن الإله الذي هو كائن جد حكيم، قد أمكنه أن يضع نفسًا خيرة في جسم كله أسود». ولقد جعل مونتسيكو- وهو متابع نصوصه- يدعو المحبة المسيحية إلى معونته إذ يقول: «إن من المستحيل أن نعتقد أن أولئك الأشخاص هم أناسي لأننا لو فرضنا أنهم من البشر، لبدأنا نحسب أننا نحن أنفسنا لسنا مسيحيين». وهو يستمر في نفس اللهجة التي ليست السخرية فيها سوى سخط مكظوم فيقول: «وهناك عقول صغيرة تُفْرِطُ في الجور الذي يقترف نحو الإفريقيين، لأنه لو كان كما يقولون، أفلا يكون قد مر برؤوس أمراء أوروبا الذين الذين ينشؤون فيما بينهم كثيراً من الاتفاقات العابثة، أن ينشؤوا اتفاقًا لصالح الرحمة والشفقة؟».

غير أنه- بقوله هذا- لم يكن يمنع التجار من بيع العبيد في سوق طرابلس، ولكنه كان يُعِدُّ اليوم الذي سيغلق فيه السوق، وسيُتَعَقَّبُ فيه التجار وسيُحرر فيه العبيد.

ومنها كذلك أن طائفة شجاعة قد تكونت في ميلانو، وكانت مؤلفة من شبان متوسطين وأشراف صمموا على مقاومة أذواق آبائهم الرجعية، على نحو ما يحدث في كل تغيرٍ لجيل من الأجيال، ولكنهم أقحموا في ذلك شيئًا آخر أكثر من حرب بسيطة، قوامها النقد، ولكي يبرزوا مزاجهم المشاغب، اتخذوا لهم اسمًا متحديًا وهو «جمعية اللكز» وأصدروا مجلة عنوانها «المقهى» لأن محرريهم، كان المفروض فيهم أنهم كانوا يجتمعون في مقهى مثالي يتخذونه مركزًا لمناقشاتهم.

وكان محمسهم هوبيتروفيري الذي كان يستصحب بين أتباعه شاباً ثقيل الذات يدعى بيكاريا . كان سيزار بيكاريا هذا ابن أحد أشراف المدينة، وكان لديه كثير من الفراغ . على أنه كان يبدو سميكًا كسولاً أكثر مما كان عليه في الواقع . وكان من شأن هذه الصفة أن تقتاده إلى قضاء حياة عابثة، لو أنه لم يكن لديه من حوله، ولو أنه يتشبع بروح عصره، ففي الواقع لما كان يشتهي بصورة عائمة، أن يشتغل بمشروع عظيم، فإنه جعل يتثقف، وكان يقرأ على وجه التفصيل، المؤلفين الذين كانوا يستحثون الفكر، أي الفلاسفة الفرنسيين . وتحت تأثير هؤلاء الفلاسفة- مضافًا إلى تأثير أصدقائه وإلى تأثير مدينة كان النشاط قانونها- قد استيقظ من سباته . وإذ كان أول الأمر، لا يزال ينقب عن طريقه، فقد كتب عن العملة، وأخيراً عثر على نفسه . وفيما بين تواني عهد الشباب، وفراغ عصر النضوج، أنتج كتاباً من الطراز الأول عنوانه «جرائم وعقوبات» نشر في سنة ١٧٦٤ .

حقًا إنه كان يأخذ بنصيب من أوهام العصر، كقول معاصريه مثلاً إن من دواعي الأسف أن القوانين لم تكن منذ نشأتها، من إنتاج العقل، وأن الناس كانوا يعيشون خطأ، تحت إمرأة قوانين شعب قديم من الغزاة أي تحت إمرة القوانين الرومانية . ولما كانت هذه الأخيرة قد تمت بوساطة استبداد أمير كان يعيش في القسطنطينية في القرن الثاني عشر، فقد أضيف إليها خليط مشوش آخر أنتجته رجعية العصور الوسيطة، وأنها لهذا كان ينبغي أن تستأنف جميعها، وأن تصاغ على نموذج القانون الطبيعي :

غير أن بيكاريا بعد ذلك كان لديــه من الحكمة ماجعله يقبع في محيط كان معروفــا له بصــورة خاصـــة لأنه يزور ســجون ميلانو، وكان يتحدث إلى المتهمين ويستمع إلى الجناة، وأن حســاسيته كانت قد نبهتها المظالم التي كان أحد شهودها، ففوضى الإجراءات، وأهواء القضــاة، وقسوة قانون العقوبات، لم تكن قد أشـــير إليهــا بعد في عريضة الاتهام وهذه العريضـــة هي التـــي أراد بيكاريا أن يحررها .

وعنده أن القوانين كانت اجتماعية، ويجب أن تبقى اجتماعية في تطبيقها كما في جوهرها إذ أنها- مهما يكن أصلها- لم تكن شيئًا آخر سوى سند المجتمع، وبالتالي فإن من الملائم ألا يكون الحكم، أو العقاب تبعًا لمبدأ خارج عن صالح المجتمع، بل تبعًا للأهمية الاجتماعية للجريمة، بحيث إن كل درجات سلم العقوبة تنقلب بسبب هذه النظرة رأسًا على عقب.

وباسم نفس هذا المبدأ كان من الملائم أيضًا أن تتلافى الأخطاء بدلاً من الحكم على الجاني بعد أن صار الشر غير قابل للإصلاح، ففي الحق أنه لخطأ جسيم أن يعامل المتهم- وهو نفسه عضو في الهيئة الاجتماعية- على أنه مجرم مقدمًا، لأنه هو الإنسان الذي طلبت إليه الهيئة الاجتماعية أن يعبر عن نفسه أمام مندوبيها الذين يجب عليهم أن يقدموا إليه كل ضمانات الحرية الأخلاقية، وإنه لخطأ جسيم أيضًا أن تقدر نسبة العقوبات تبعًا للنيات لا تبعًا للخسارة الواقعية التي حدثت. وإنه لخطأ جسيم كذلك خلط القسوة الوحشية بالعدالة، لأن القسوة والوحشية لا تظفران عند الاختبار إلا بنتائج مضاده للصالح العام.

وهناك وسيلة من وسائل التحقيق وحيدة من بينها جميعها، وهي التعذيب. ولما كان قد بقي سريًا فلم يكن له قوة المثل التي قد تكون هي السبب الجوهري للعقوبات. ولقد كان التعذيب يسمح للمجرمين الأقوياء بالنجاة من القضاء، وبكره الأبرياء الذين لا يستطيعون مقاومة التعذيب على الاعتراف بذنوب لم يقترفونها، وإذن فقد كان التعذيب نهاية الانحراف عن العقل وهو مرذول، بل هو نفسه إجرامي، وكان يجب أن يختفي من كل دولة يمكن أن تَدَّعي أنها متمدينة.

لا جرم أن بيكاريا- بوساطة قوة رسالة: «جرائم وعقوبات» لم يمح التعذيب على الفور، ولكن التعذيب بفضلها لم يكن له بد من أن يختفي شيئًا فشيئًا من مجموعة العدالة الجنائية. وفي الحق أنه قد لا يكون هناك سطر من كتابه- بتأثيره في روح المشروعين- لم يؤثر بدوره في القانون.

# الفصل الرابع

## الأخلاق

في هذا المحيط يلتقي المرء بالتجربة العظمى التي قبلت في صراحة، وهي أنه كما تعرف الشجرة بثمارها، كذلك قيمة كل فلسفة ما تقاس بحسن تأثيرها. وما دام أن الأخلاق المسيحية قد استبعدت نهائيًا، فإنه كان ينبغي وجود أخلاق تكون أسمى وأنقى منها، وإلا، فإن الإنتاج كله، يكون قد أخطأ الغاية.

لقد كان أهل العصر يقولون: إننا لم نعد نريد الأخلاق الرواقية. حقًا إننا نُكنُّ شيئًا من الاعتبار لزينون، ولكننا نفضل عليه إبيقور، وإننا نعجب بسينيك عدو الاستبداد، ولكنه سيكون ناصحًا مفرطًا في القسوة ليقودنا نحو الابتهاج. وإننا لم نعد نريد الأخلاق الأرستقراطية لأننا لا نجد- في التعاليم الأخلاقية التي كانت مدام دي لامبير توجهها إلى ابنها وابنتها، وفي التعاليم التي كان اللورد شيستر فيلد يوجهها إلى الشاب شيستر فيلد، والتي كانت توجه في كثير من الرسائل أو النصائح أو الكتيبات الأخر- إلا ما تشمُّ منه رائحة القرن السابع عشر، وإننا لم نعد نريد أن يكون نموذج «رجال اللياقة»[1] مرشدنا، لأنه متأخر، ولأن محامده تنال بثمن مفرط في الانخفاض إلى حد لا يحسد عليه، ففي الواقع أن كثيراً من الزهو، وسعة من الثروة، وعيوبًا مستحسنة، هي التي كانت تؤلف ما يملكه من تراث

(١) رجل اللياقة هو نموذج الرجل الرقيق المحترم في القرن السابع عشر وهو يعادل الجينتيلمان الإنجليزي. (المترجم).

موروث، وأن الفضيلة لم تكن تدخل في عداد ذلك. ولا جرم أن جميع «رجال اللياقة» في العالم، لا يساوون رجلاً فاضلاً.

ولم نعد نريد نموذج «البطل» فقد أفرط الناس في الثناء عليه، وهو يثيرنا ويسخطنا، فلنتخذه هدفاً، ولنضربه، ولن يكون لدينا السهام الكافية للقضاء عليه، لأنه انزلق بمهارة إلى قلوب الناس، وهم لا يزالون يحتفظون له بإجلال قديم سنحطمه، وسيكون ذلك إحدى مهماتنا الأشد دفعًا إلى الإسراع. ولا عجب، فهذا البطل الذي أفرط الناس في إطرائه، ليس إلا متكبراً، متهوراً هدامًا لصًا وضيعًا، سفاحًا شهيراً. وينبغي دائمًا لهذا المغرور مسرح ونظارة. لأنه يسطع ويحيط نفسه بالمجد، ولكنه عندما ينظر المرء إليه عن قرب، يرى طموحه الذي هو وباء النوع البشري، فليثن عليه القدماء إذا أرادوا ذلك. أما نحن فإنه عندنا مدعاة للامتعاض، وسنوحي بنفس هذا الامتعاض إلى أبنائنا قرون وقرون، فلنكف عن أن ندعو بعظماء الرجال، أولئك الملوك المتعبين والمشاغبين الذين يعيثون في الأرض فساداً. ولنحتفظ بهذا الاسم الجميل «لأولئك الذين أبدعوا في النافع والمستحب. وليس سلابو الأقاليم سوى أبطال»(١).

لنحطم تماثيلهم، ولنقم في مواضعها تماثيل الأمراء الذين، إذ كانوا يضطرون إلى أن يكونوا على رؤوس جيوشهم ليدفعوا مهاجمًا، قد ارتحلوا آسفين، فظفروا بنصر سهل، فلم يلبثوا أن ألقوا أكاليل الغار، وأسرعوا إلى أن يصيروا فلاسفة من جديد، وذلك مثل سيتوس بطل كتاب الأب تيراسون

كان الأمير سيتوس معداً لعرش مصر، فاضطهد ونفي «فلم يسعه إلا أن يستعمل حقبة نفيه الطويل، في التنقيب عن شعوب مجهولة يخلصها من أشد الاضطهادات قسوة، ويصير مشرعها.

وفي أثناء عودته، ينقذ بشجاعته، جمهورية قوية من عدو كان على أبوابها،

---

(١) Voltaire a Thiériot, 15 juillet 1735.

ولا يطلب منها كجزاء له سوى سلامة الشعب المنهزم الذي كان ملكه أو طاغيته قد هاجم تلك الجمهورية. وأخيراً لما عاد إلى وطنه، أحسن إلى أولئك الذين كان لديه من الأسباب ما يجعله ينظر إليهم على أنهم أعداؤه أو خصومه (١).

حقًا إن سيتوس وأضرابه، لا يمثلون البطولة الزائفة، بل الحقيقة، أي البطولة السلمية التي يتفق مثلها وحده مع النفوس المستنيرة.

مما لا ريب فيه أنه لم يوجد في أي عصر رجة كهذه من لدن الأخلاقيين؛ غير أنهم ليسوا من الذين يدرسون القلب البشري، لأن القلب البشري كان الناس يحسبون أنهم يعرفون كيف كان مصنوعًا، أي أنه كان هو هو دائمًا، وفي ككل مكان، وأنه لم يكن أحد يستطيع أن يستكشف منه شيئًا. ولا جرم أن الأمر كان بالحري يتعلق بنظريي الأخلاق، وليس بعلماء النفس بل بأولئك الذين يريدون أن يخلعوا مبادئ على سلوكنا قبل كل شيء، أي أن الأمر كان يتعلق بإنشاء أخلاق قد تكون قد وضحت «بالأنوار».

* * *

لخص ديديرو تلك المناقشة في الفقرة التالية بقوته المعتادة فقال: «أتريد أن تعرف التاريخ الموجز لبأسائنا؟ إن كنت تريد ذلك فهاكه: كان يوجد إنسان طبيعي فأدخل في هذا الإنسان إنسان صناعي، ونشبت في ذلك الكهف حرب مستمرة دامت طول الحياة، فحينا يكون الإنسان الطبيعي هو الأقوى، وحينا، يلقى على الأرض بوساطة الإنسان الأخلاقي والصناعي، وفي كلتا الحالتين يكون الممسوخ التعس. متجاذبًا، كأنه بين شقي الكلابة متألمًا ممدوداً على عجلة التعذيب، شقيًا بلا انقطاع. . » (٢) ولقد لخصها أيضًا بصورة أشد بساطة في السطر الآتي: «يقصد بكلمة الأخلاق ما يساوي الطبيعي عند رجل الخير. . . . » (٣).

(١) Abbé Terrasson, Séthos, 1731, Piéface, 15- 16.

(٢) Diderot, Supplément au vorage de Bougainville, 1772.

(٣) Enyclopédie, art, Leibnizianisme.

«وفي الواقع لنتعقب الطبيعة في أفاعيلها الأولى، فإن أحاسيسنا إما لطيفة، وإما كريهة، وهي تجلب لنا إما اللذة وإما الألم. ومن هذه التجربة نمضي إلى الفكرة المجردة للإهانة وللإحسان. إن الأثر الذي ينطبع في النفس منذ زمن مبكر، يصير غير قابل للمحو، وهو يعذب الشرير في دخيلة نفسه، ويواسي الفاضل ويستعمل كمثل للمشرع»[1]. ولو أننا اتبعنا الطبيعة في إرادتها الجلية لرأينا أنها خيرة، وأنها تميل إلي سعادة الإنسان، وفي هذا نفسه أيضاً ينبغي إطاعة قانونها. لقد اقترف الناس خطأ أساسياً، إذ حسبوا أن الإنسان قد نشأ رذلاً وشريراً، أو على الأقل صار كذلك على أثر خطيئته الأصلية. ومن هذا نشأت أخلاق سوداوية لا تنعطف، إلا إلى اضطهاده، فينبغي على الضد، تفضيل الغرائز التي تنعطف بنا إلى أن نكون سعداء، والعقل الذي يقدم إلينا الوسائل التي دعاها بالأخلاق. ومن ثم فإن ك. ف. بارت، حين تحدث عن الأخلاق أو بعلم الطباع أو بحاملة السعادة[2]. وفي هذه الكلمات قد تمت ثورة كاملة.

إن الأهواء هي واقعة طبيعية، وإذن فإنه يكون من الخطأ أن يراد محوها، إنه خطأ واستحالة لأن الأهواء هي كماء النبات تحيينا، وهي ضرورية لحياة نفوسنا، كما أن الرغبات لازمة لحياة أجسامنا. فهل ننكر الجوع والعطش؟ إن الأهواء نافعة، ولكي يثبت الكتاب ذلك، كانو يرددون المجاز التالي الذي كانوا يتناقلونه من كتاب إلى كتاب: كما أن الربابنة يخشون السكون التام ويتمنون الرياح التي تدفع سفنهم، ولو كانت هذه الرياح تجلب العواصف أحياناً، كذلك الأهواء تحركنا، ويخشى أن تغرقنا إذا لم نحذرها. ومع ذلك فإننا لا نستطيع بغيرها أن نبحر. وما دام أن الأخلاق توجه الأهواء فإنها ستكون هي الدفة والدوارة والخرطة التي تسمح للإنسان بأن يتبع الطريق التي تعينها له الطبيعة نحو السعادة. وأكثر من

(١) Diderot, Apologie de l'abbé de Prades, oeuvres, 1,p. 470.

(٢) Carl Friedricg Bahrdt, Handburch der Moral Fur den Burgersiana, Halle, 1790, p. 81.

ذلك! أن اللذة نفسها يجب أن يرد إليها اعتبارها، لأنها نعمة منحها الموجود الأسمى لمخلوقاته. وفي محيط الأحاسيس، هي الإحساس الذي ننقب عنه بصورة آلية، وهي الإحساس الذي يعين لنا الخيرات التي يجب أن نشتهيها، والآلام التي يجب أن نفر منها، وهي -حتى في أشد صورها قوة وهي الشهوة- مرتبطة بإنتاج نوعنا، بحيث إنها بعيدة عن أن تتنافر مع الفلسفة، ولذا كان ڤولتير يقول: «إنني فيلسوف جِدَ لَذي».

ومن جهة أخرى، فإنه لما كانت الطبيعة عقلاً، فقد ثبتت بين جميع الأشياء المخلوقة علائق عقلية، فالخير هو إدراك هذه العلائق وإطاعتها المنطقية، والشر هو جهل هذه العلائق وعصيانها. وفي الحق إن الجريمة هي حكم باطل، وإن المنطقيين لم يترددوا في أن يستخلصوا من هذا المبدأ نتائج متطرفة: حيث يقررون أنه إذا سرق رجل جواداً، فذلك لأنه اقترف خطأ فيما يتعلق بهذا الجواد وهو أنه لم يكن قد فهم أن الجواد كان ملكًا لرجل آخر، وكان حسبه أن يفهم خيراً من ذلك، لكي لا يسرق.

إن العقل هو القانون الأعظم للعالم، بل أن الموجود الأسمى نفسه خاضع للحقيقة التي هي في المحيط النظري تبقى أساسًا للخلقية، بحيث إن هذه الأخيرة لا تأتي من الموجود الأسمى، ولكنها تأتي من قوة فوقه، وهي «العقل الأزلي».

وفي الحق أنه، لإدراك فعل السلطة اللامتناهية، ألا ينبغي أن تكون هناك ممكنات مستقلة عن السلطة؟ ولإدراك مظهر إرادة إلهية، ألا ينبغي أن تكون هناك إرادات مستقلة عن تلك الإرادة وإلا، فإن الإرادة الإلهية تكون نفسها مخلوقة، وهي ما يستحيل فرضه؟ وكذلك إذا لم تكون هناك خلقية مستقلة عن اللاهوت، فإنه لا يمكن أن تكون هناك صفات أخلاقية لهذا اللاهوت. وما دام أن الطبيعة هي تجريبية أو عقلية فإن الخلقية إما أن تكون طبيعية وإما ألا تكون أصلاً.

* * *

لا جرم أن نتائج هذه المبادئ ستتجه اتجاهات متباينة. ولكننا إذا أردنا أن نعين هنا، الإرادات المشتركة، فإننا نلاحظ أن أمرين مسلمين على الأقل، قد أقر أكثر أخلاقي العصر أنهما يقينيان.

أولهما شرعية حب الذات، ومجمل ما حدد به إذ ذاك هو أنه: «لا يوجد حب منزه عن الأغراض» أو «أن تلك المحبة القوية التي تلهمنا الطبيعة النقية إياها لأنفسنا، تملي علينا واجباتنا نحو أبداننا ونحو نفوسنا» (١). أو «أن حب الهناءة- وهو أقوى من حب الوجود- كان يجب أن يكون بالنسبة إلى الأخلاق، مَا كَانَهُ الثقل بالنسبة إلى الميكانيكية(٢)». أو إذا أريد التعبير عنه بصيغة أدنى إلى العامية كما عبرت عنه مدام ديبينية في كتابها إلى الأب جالياني بتاريخ ٢٩ سبتمبر من سنة ١٧٦٩ إذ قالت: «إن القانون الأول هو عناية المرء بذاته، أليس كذلك؟»

هذه هي واقعية الملاحظة التي لا يمكن جحودها، وهي تحتوي فوق ذلك على ميزة أنها في متناول الجميع، ففي الواقع أنه لا المسيحية، ولا الفلسفة، قد جلبت الفضيلة إلى الأرض، وذلك بلا شك لأنه قد حدث انخداع في البواعث التي التجئ إليها في النصح بالفضيلة، ولكي تستأنف المهمة ينبغي بإزاء العامة أن يلتجأ إلى مبدأ أكثر شمولاً وأشد بساطة من الحب الإلهي، ومن حب الحكمة النقية، وسيكون هو الحب الذاتي (٣).

غير أنه ينبغي التفاهم جيداً، فليست المسألة مسألة حل عقال الأنانية بلا عنان، وإنما العقل هو الذي يجب أن يوجه الميل الذي يحملنا على أن نتبع فائدتنا. وهو الذي يختار ويبين أن سعادتنا ليست سعادة البهائم التي نفترق عنها بأسمى صفاتنا، ولا سعادة الملائكة المستحيلة اللحوق. وهو يميز بين درجات اللذات،

---

(١) Toussaint, Les Moeurs, 1748, I, 1.

(٢) II Caflé, 1754, scmestre primo: Ia fortuna del Libri.

(٣) Fredérce II, Essal sur l'amour- propre Envisaé comme priacipe de morale, 1770.

ويرتبها حسب قانون الاعتدال، وهو ينصح بهجرها عندما تهدد بأن تصير طغيانية، وبالاختصار هو يبقى سيداً، وفي هذا يتساءل بولينبروك قائلاً: «ماهي الرذيلة وما هي الفضيلة؟» ثم يجيب قائلاً: «بأن الرذيلة هي التطرف والإفراط وسوء التطبيق للشهوات والرغبات والأهواء التي هي طبيعية وبريئة، بل نافعة وضرورية. وبأن الفضيلة تنحصر في اعتدال هذه الشهوات وتلك الرغبات، وهاتيك الأهواء، وحكمها واستخدامها وتطبيقها حسب قواعد العقل. وذلك إذن في الغالب متعارض مع اندفاعاتهم العمياء (١)».

وفي هذه الآونة يظهر اليقين الثاني الذي يعين حد الأول، والذي هو: إن البحث عن فائدتنا، يجب ألا يضر بفائدة الغير. على أنه لا توجد سعادة فردية بلا سعادة جماعية. وذلك ما يعبر عنه ديديرو إذ يقول:

«الحكيم- ما هي في رأيك واجبات الإنسان؟

التلميذ- هي أن يسعد نفسه. ومن ذلك تنشأ ضرورة المساهمة في سعادة الآخرين، أو بعبارة أخرى، ضرورة أن يكون الإنسان فاضلاً (٢)».

وإذن فالفضيلة تساوي «الاجتماعية». ولقد عرف البارون دولباك هذه «الاجتماعية» الفاضلة فقال: «إن الاجتماعية هي في الإنسان عاطفة طبيعية تقويها العادة. ويتعهدها العقل وذلك لأن الطبيعة، بجعلها الإنسان حساساً، قد علمته حب اللذة، ورهبة الألم، ولأن المجتمع هو عمل الطبيعة مادام أن الطبيعة هي التي تضع الإنسان في المجتمع ... وأن الإنسان هو اجتماعي لأنه يحب الرفهنية، وأنه يغتبط في حالة الدعة. ولا جرم أن هذه الأحاسيس طبيعية أي أنها تنتج من جوهر أو طبيعة الكائن الذي ينقب عن الاحتفاظ بحياته، والذي يحب نفسه، والذي يستولي في حرارة علي الوسائل التي توصله إلى ذلك، وأن كل شيء يثبت للإنسان

---

Bolingbroke, letters on the Study and Use of History, 1762. (١)

Diderot, Introduclion aux grands principes, aevres, 2, p. 85. (٢)

أن الحياة الاجتماعية نافعة له، وأن العادة تربطه بها، وأنه يكون شقياً عندما يحرم من معونة أمثاله. هذا هو المبدأ الحق للاجتماعية[1]».

غير أن دالمبير قد يكون هو الذي عين- على خير وجه تلك الصلة، عندما كتب في الفصل الرابع من كتابه «عناصر الفلسفة»، فقال: «قد يكون علم الأخلاق أتم العلوم فيما يتعلق بالحقائق التي هي مبادئه، وبتسلسل تلك الحقائق، فكل شيء فيه مثبت على حقيقة واحدة من الوقائع، ولكنها غير قابلة للمعارضة، أي أنه مثبت على الحاجة المشتركة التي هي لدى الأناسي كل بإزاء الآخرين، وعلى الواجبات المتبادلة التي تفرضها عليهم تلك الحاجة. وعندما تفرض هذه الحقيقة تنبثق منها كل القواعد الأخلاقية في نوع من التسلسل الضروري... إن جميع هذه المسائل التي ترتبط بالأخلاق لها في قلب كل واحد منا، حل دائماً مستعد، تمنعنا الأهواء أحياناً من اتباعه، ولكنها لا تهدمه ألبتة، وإن حل جميع المسائل ينتهي دائماً- بوساطة أغصان تتفاوت كثرة وقلة- إلى ساق مشتركة أي أن فائدتنا كما هو مفهوم، وهي مبدأ كل الالتزامات الأخلاقية».

وإذن أفلا تتعارض فائدة الفرد مع فائدة الجماعة ألبتة؟ كلا، حقاً إن الثانية، تبدو في الظاهر، أنها تتطلب تخيلات وهجرانات وتضحيات، غير أن هذه التصرفات، تتحول دائماً إلى فائدة من يقوم بها. وأن الأنانية التامة تعاقب نفسها بعزلتها لأن التبادل هو هنا مطلق، فعندما يعمل المرء لغيره، يعمل لنفسه، والتزام كل واحد هو التزام الجميع.

ولكن الرحلات والتاريخ، ألا يجلبان تنوعات غريبة في الأخلاق تبعاً للأصقاع والمناخات؟ فمثلاً كان الرحالة يلتقون في أطراف العالم بمتوحشين يأكلون شيوخ القبيلة. وكان الإسبارتيون يمجدون اللصوصية التي كان الأثينيون يحكمون على مقترفيها بالشغل في المناجم، وكان محظوراً على الرجل أن يتزوج أخته في

---

(١) D'Holbach, De Ia politique naturelle, 1712, Discours 1, Sociabilité.

روما القديمة، ولكنه كان مسموحًا له بأن يتزوج عمته عند المصريين ... ولقد كان يجاب على هذا بأن الناس يختلفون في الواقع على تأويل بعض القيم، ولكنهم لم يختلفوا على فكرة الإباحة والحظر، على أنه، هل يمكن أن بعض الحالات المنعزلة تفوق قانون الصالح العام الماثل في جميع العقول والمنقوش على جميع القلوب؟ وإليك في هذا رأي ڤولتير:

(ب) ماهو القانون الطبيعي؟

(١) هو الغريزة التي تجعلنا نشعر بالعدالة.

ب- ما الذي تدعوه بالعدل والظلم

(١) ما يبدو كذلك للكون كله [١].

والنتيجة من كل هذا هي أن عمومية الواقعة هنا أيضًا- ولم يكن ذلك بلا شيء من العناء- قد انضمت إلى عمومية العقل. وقصارى القول إن الأخلاق قد انتظمت كأنها «علم تجريبي» أو كأنها «سيكولوجية طبيعية». وحينئذ صار كل شيء بسيطًا، وصار كل شيء واضحًا، ولم يكن على المرء إلا أن يتبع بضع عبارات أولية مثل: لا تعمل مع الغير، ما لا تحب أن يعمل معك، أو إعمل مع الغير ماتحب أن يعمل معك، أو أحبَّ الإله، أو كن عادلاً.

عند ذلك يختفي الأشرار، أو يكادون، وسيبقى على فعل الشر بعض المعاندين، وغير القابلين للإصلاح وحدهم، ولما كان الحكماء يكافأون، ويحتفى بهم في حفلات عامة، فإن عددهم سيزداد من يوم إلى يوم بالمجاورة، وعما قريب سيكون العالم كله سعيداً.

* * *

(١) Voltaire, Dialogues philo, PA,B,c. 1768- 4 éme entretien, de la loi naturelle et de la curiosité.

كان الأمر إذن يتعلق باجتذاب الرأي العام إلى البدعة الجديدة. ولكي يتحقق هذا، ينبغي العمل له بوساطة الصحف الأخلاقية التي كان عدد قرائها يتسع، وبوساطة الكتب التي ليست قاسية والتي تروق السواد الأعظم، كذلك الكتاب الذي تخيله «دود سليه» والذي يحدثنا فيه أنه على حدود الصين تمتد بلاد تيبت الواسعة الموضوعة تحت السلطة الروحية «للاّما الأعظم» وأن أمبراطور الصين قد أرسل إلى اللاّما الأعظم، كرسول، دكتوراً شهيراً، وأن هذا الأخير- بعد إقامة ستة أشهر- قد عاد إلى بيكين حاملا معه عجائب وكنوزاً من كل نوع، وبين ذلك مخطوط من أبعد الآثار قدما، وهو رسالة في الأخلاق لم تكن قد ترجمت ألبتة، لأنه كان مكتوباً بلغة قدماء «الجيمنو سوفيست» أو البراهمان. ولقد نقله الدكتور إلى الصينية ثم ترجم من الصينية إلى الإنجليزية لتحقيق أعظم الفوائد لأوروبا حيث جعل في الواقع ينتشر من جيرة إلى أخرى [1].

إنها لحكمة عملية، إذ هي تبدأ بالمعرفة الدقيقة لطبيعة الإنسان، لمقياس سلطاته، ونتيجة هذا هي البحث عن الفضائل الشخصية التي يمكن أن تمنح السعادة الحقيقية، والبحث عن الفضائل الاجتماعية التي تتجه إلى نفس الغاية، بوساطة اتفاق عجيب، ومع استثناء شيء من الحرارة الشرقية في مظهر العبادة، فإن النصائح التي كان البرهمان يقدمونها قبل أن تظهر المسيحية على الأرض بزمن بعيد، تشبه نصائح فلاسفة القرن الثامن عشر نقطة نقطة.

ثم لماذا لا تؤلف كتب صغيرة لتعليم الفلسفة على غرار كتب تعليم الديانة للوصول إلى الأطفال أنفسهم؟ لأنه ليس من السيء محاكاة منهج العدو، فإن من لا يظفر بالجيل الذي يتأهب للمستقبل، لا يظفر بشيء.

رأى الناس إذن كتباً تعليمية صغيرة مؤسسة على التجربة، وعلى العقل، لا على العقيدة. وكان دالمبير يتمنى كتاباً من هذه الكتب، يعلم الجيل الناشىء مبادئ

(١) Dodsley, The Economy of Human life, translated from an Indian Manuscript, written by an Ancient Bramin, Dublin, 1741.

فلسفته. ولم يكن جريم يكتفي دائمًا بأن يقدم إلى زبائنه من الأمراء أخباراً عن جمهورية الأدب، نعم إنه كان لديه أحيانًا أفكار، وكان يروقه أن ينشرها في «رسائله الأدبية» وكان يهجرها ثم كان يستأنف تناولها ليراعيها، وكان يفكر فيها على النحو التالي: إن الإنسان يمتاز عن الحيوانات بقابليته للكمال، وإن الجياد والدبب، لا تساوي أكثر مما كانت تساويه منذ ثلاثة آلاف سنة، ومع ذلك فإن هذا الإنسان لا يكاد يسير إلى الأمام في تاريخ التقدم، لأنه كثيراً ما يدع نفسه ينسحب بعيداً عن الطبيعة. وعندما يعود إليها يكون ذلك بعد تجارب مريرة، ويكون خير ما في قوته قد فقد. ونحن نرى جيداً من أين تأتي أخطاؤه، فمثلاً إنه من المضاد للعقل القويم أن يعلم الأطفال المبادئ الأولى للدين المسيحي، لأن من اليقين أنه ينبغي البحث- في هذا العرف المقرر على الأرض بصورة عامة- عن منبع السلطة التي نشاهد أن أكثر الآراء بعداً عن التعقل، وأشدها في الغالب خطراً، تتخذها على العقل البشري. وفي الحق أن كتب تعليم الإنسانية. وتعليم المجتمع، يجب أن تسبق كتب تعليم الدين لأنه بعد نهاية المطاف، ينبغي أن يكون المرء إنسانًا، ثم مواطنًا قبل أن يكون مسيحيًا. وينبغي أن النوع الأول من هذه الكتب يعلم الشعب حقوقه الإنسانية وواجباتها وأن النوع الثاني يعرف أبناءنا حقوق المجتمع وواجباته وقوانين حكومة البلاد التي نشأوا فيها. ولا ريب أن مونتيسكيو كان جديراً بأن يؤلف النوع الثاني، وأن سقراط لم تكن كفايته لتأليف النوع الأول زائدة على ما ينبغي أن يكون.

على أن جريم، بقوله هذا، قد حاول شخصيًا أن يزج بنفسه في هذه المخاطرة، وأن خمس عشرة فقرة قصيرة، قد بدت له كافية بالنسبة إلى رسالته «محاولة كتيب تعليم للأطفال» (١٧٥٥).

وفيما بعد استأنف لامبير [١] المشروع ونجح أكثر من جريم لأن رسالته «كتيب

(١) Principes des moours, on catéchisme universel, an VI.

التعليم» للأطفال في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة تحتوي، كشيء جوهري، على مبادئ أخلاق العصر. وهاك نموذجًا منها:

س – من هو الإنسان؟

ج – هو كائن حساس وعاقل.

س – وباعتبار أنه حساس وعاقل. ماذا يجب عليه أن يفعل؟

ج – يجب أن يبحث عن اللذة وأن يتجنب الألم.

س – وهذه الرغبة في البحث عن اللذة وفي تجنب الألم. أليست هي ما يدعى بحب الذات؟

ج – إنه نتيجتها الضرورية.

س – وهل كل الأناسى لديهم حب الذات على التساوي؟

ج – نعم لأن كل الأناسى عندهم الرغبة في الاحتفاظ بالحياة وفي نيل السعادة.

س – ماذا تقصد من كلمة السعادة؟

ج – هي حالة جديرة بالبقاء، فيها يشعر المرء بلذة أكثر مما يشعر بمشقة.

س – ماذا ينبغي عمله لنيل هذه الحالة؟

ج – أن يكون لديه عقل، وأن يدع قيادته لهذا العقل.

س – وما هو العقل؟

ج – هو معرفة الحقائق النافعة لسعادتنا.

س – وحب الذات، أليس يلزمنا دائمًا بأن نبحث عن هذه الحقائق وبأن نتبعها؟

ج – كلا، لأن جميع الأناسى لا يعرفون كيف يحبون أنفسهم.

س – وماذا تقصد من ذلك؟

ج – أريد أن أقول إن البعض يحبون أنفسهم حسنًا، والبعض يحبون أنفسهم سيئًا.

س – ومن هم أولئك الذين يحسنون حب أنفسهم؟

ج – هم الذين يبحثون عن معرفة أنفسهم، والذين لا يفصلون سعادتهم عن سعادة الآخرين.

* * *

كان ينبغي لهذه الأخلاق الجديدة، فضائل جديدة وكان هناك ثلاث وهي:

التسامح: لم يكن التسامح أول الأمر سوى قاعدة تجارية أو وسيلة عملية من وسائل التجار، لأن أموال الأتراك والعرب، لم يكن لها- كما يقول المثل- رائحة، وكذلك أموال المسيحيين.

وبعد ذلك صار مطلبًا من مطالب البروتستانتية، ولما كانت هذه الأخيرة تسيطر على عدة ملايين من الأنفس، وكان لها دولها الخاصة بها فقد كان ينبغي أن تسمح بها الكاثوليكية. ولقد كان بوسويه، إلى ذلك العهد ينبذ التسامح على أنه ضعف وتخل عن إنقاذ نفوس هوت في الخطأ، وعلى أنه جبن روحي، وسُمٌّ انتشر في المسيحية. غير أن لوك، كان- منذ سنة ١٦٨٩- قد منح التسامح براءة النبل، والآن قد جعل يتسع ويثرى، ويتخذ فروقًا دقيقة، وصار عدلاً وعقلاً مادام أنه كان يفترض وجود عقل قادر على التغلغل إلى بواعث الغير، إنه كان هو الشعور بأسائنا، لأننا جميعًا ضعفاء معرضون للخطأ. فلنعرف كيف نتبادل الصفح. كان التسامح قيمة اجتماعية لأن البشر بغيره، يصيرون ذئابًا من جديد. كان مبدأ حب، وكان يلهم نوعًا من الصلوات، بل هو قد خضع في معناه الذاتي لتغير

عميق، لأنه بدلاً من أن يكون تنزلاً، قد صار شعوراً بكثرة العناصر التي تدخل في تكوين فكرة معينة، أو في بواعث عمل معين، واعترافًا بجزء الحقيقة وجزء العدالة اللذين يشتمل عليهما رأي غير مشترك، أو يحتوي عليهما تصرف مستهجن. كان التسامح يوازن لا ليعثر على الشر، بل ليبرز الخير (١) وكان يسير إلى الأمام شيئًا فشيئًا، وكان الناس يستطيعون أن يتتبعوا تقدماته، وسيصير عما قريب كونيا، أو هناك أمل في ذلك على الأقل. وفي هذا يقول ڤولتير «أيها الأصدقاء، إننا عندما بشرنا بالتسامح نثراً وشعراً، وعلى بعض المنابر، وفي كل مجتمعاتنا... قدمنا خدمة إلى الطبيعة، وثبتنا الإنسانية في حقوقها، إنه لايوجد اليوم يسوعي قديم ولا جانسيني قديم يجرؤ على أن يقول: «إنني متعصب» (٢). ظهر التسامح بالانتصارات بعد متاعب ضخمة ومجهودات طويلة، وأُصلح بعض مظالم الحياة. ومن أمثلة ذلك أن جوزيف الثاني في سنة ١٧٨١ قد أصدر «أمره بالتسامح» لصالح اللوثريين، وأن لويس السادس عشر في سنة ١٧٨٧ كان قد رد إلى الكلفانيين حقوقهم المدنية.

الإحسان- كانت هذه الفضيلة أشد حداثة من سالفتها، وكان الأب دى سان- بيير هو الذي «عمدها» أي أطلق عليها هذا الاسم في سنة ١٧٢٥، إذ كان يجد أن المحبة قد دُنست، وأن هذه الكلمة لم يعد لها قيمة، وكان يريد كلمة أخرى، فابتدعها، وهو في هذا يقول: «منذ رأيت أنه يساء استعمال عبارة المحبة بين المسيحيين في الاضطهاد الذي ينزله البعض بأعدائهم، وأن الهراطقة يقولون إنهم يطبقون المحبة المسيحية باضطهادهم هراطقة آخرين بل باضطهادهم الكاثوليك... منذ رأيت ذلك جعلت أبحث عن عبارة تعيد إلى ذاكرتنا فكرة عمل خير للآخرين، فلم أجد عبارة أقدر على جعل مفهوما

(١) Lessing, Nathan der weise, 1779.

(٢) Voltaire, Art. Tolérance dans Dict. philos, et dans questlons sur l'Encyclopédie.

سـوى عبـارة الإحسان، فليـستعملها من شـاء، ولكنها تعني ما أريد، وليست مبهمة». [1]

الإنسانية - وهي فضيلة جديدة، لأنها تدل على تمام معناها، وهي الفضيلة المثالية عند الأخلاقيين في القرن الثامن عشر مادام أنها تذكرهم في الإنسان، بتلك الحالة التي يعتقدون أنه ينبغي الصدور عنها دائمًا، والتي إليها ينبغي الرجوع دائمًا والتي هي بالتالي تحتوي على كل شيء.

(١) - انظر فيما يتعلق بتاريخ هذه الكلمة قاموس تريفو، ١٧٧٢، مادة إحسان "binfaisance".

# الفصل الخامس

## الحكومة

من أين أخذ ماكيافيلي أننا مصنوعون من تلك العجينة الرديئة؟ ويل لماكيافيلي! وينبغي إحراق كتابه «الأمير»، فهو سفر مشئوم تحركه تلك القاعدة الزائفة التي مؤداها أن صالح الدولة يجب أن يكون هو مبدأ الحكومة وكل فصل من فصوله هوسم. وإذا لم تكن أوروبا تستشفي كل يوم من الماكيافيلية، وهي مرض عقلي. فإنه ينبغي اليأس.

غير أن ذلك السكرتير الفلورانسي، ذلك الشقي، لم يكن هو الوحيد الذي انخدع، لأن مبادئ السياسة الماضية- من بين التنافرات التي تكدست على مر القرون- هي متناقضة بنوع خاص، وفي هذا يقول ما يلي: «إن الأرض كلها يا عزيزي أريستياس، لا تقدم سوى لوحة واسعة من أخطاء السياسة [١]».

لا جرم أن من كان لديهم نصيب من المساهمة في السلطة، وعلى الأخص من ليس لديهم أي نصيب منها. والأشراف الذين كانوا يريدون العثور على مسوغ وجودهم، والبرلمانيين الفرنسيين، والمشرعين الأسبانيين، والنظريين الإيطاليين، ورواد المقاهي في انجلترا، والمتناقشين الجديين في نادي «الطابق الأوسط» [٢].

---

(١) Mably, Entretiens de phocion. 1763, 3 éme entretien.

(٢) هو ناد أسسه في سنة ١٧٢٠، جماعة من الأرستقراطيين المثقفين ومن علية الأجانب. وكان أعضاؤه مجتمعون في شقة الأب دالارى الواقعة في الطابق الذي يلي الطابق الأرضي، وكانوا يتناقشون في الأنباء اليومية، وفي الأحداث الأوربية ويستمعون إلى محاضرات علمية وتاريخية وأدبية. (المترجم).

ورجال الكنيسة الذين كان عليهم أن يدافعوا عن سلوك روما أو أن يهاجموه بإزاء السلطة الدنيوية، والكتاب والمؤرخين الذين كانوا يفكرون في الغد عندما كانوا ينظرون إلى الماضي، والروائيين، والمحاولين، والفلاسفة، وهم في الصف الأول، بل حتى السوقة في بعض المدن إذا كان ينبغي أن نصدق هوليبرج. والصورة الكاريكاتورية التي تركها لنا عن صانع الأوعية القصديرية الذي- بمعونة رفاقه: الصباغ والحلاق والمدرس- قد أسس ناديًا كان يجب أن يصلح حالة أوروبا، بعد حالة هامبورغ: كل هؤلاء قذفوا بأنفسهم في السياسة النظرية، إلى حد أن الأمراء أنفسهم، وقد أصيبوا بهذا عن طريق العدوى، انتهوا إلى أن شرعوا في إصلاحات، ولو أن ذلك كان غالبًا للاحتفاظ بجذور سلطتهم (١).

ولو صحت أحلام هؤلاء النظريين، لأوشكت السياسة ألا تفترق عن الأخلاق المحضة، ولصارت مبدأها وغايتها. ولما وجد شيء خفي، بل لأضحى كل شيء مكشوفًا تحت السماء. ولنظم حسن النية العلائق بين الرعية والأمير، وبين الدولة والأجانب، ولما كان هناك إذ ذاك مجموعتان من القوانين. إحداهما للحاكمين، والأخرى للمحكومين، بل إن مجموعة واحدة هي التي كانت ستفرض على الجميع احترام الخير، وكان الهناء هو الذي سيكون الجزاء اليقيني لميزات الجمهورية، كما أن التعاسة ستكون هي العقوبة المحتومة على رذائلها. وفي هذا يقول فوسيون أحد أبطال «مابلي» لصاحبه أريستياس: «إذا ظفر جارك بمدينة أو بإقليم، فاظفر أنت بفضيلة جديدة فإنك ستكون أقوى منه ...»

وهنا أيضًا سيتحول الأخطبوط إلى علم، وستنبثق من القانون الطبيعي بضع قواعد بسيطة سيفرض المنطق فيها نفسه على الوقائع.

كان في كل هذا حرارة، وبراءة، وسذاجة، وجهل بديع بالضرورات التي تفرض نفسها على رجل الحكومة، وحماس خطابي، ومزايدة في التوكيدات

---

(١) Holberg, Den politiske Kandestober, in Comédies, t.l, Copen. hague 1824, trad, fr. in théâtre européen, Théâtre danois et suédois, 1835 et 1891.

المجانية، وبالإجمال لا يوجد شيء واقعي. ولقد كان ذلك رد فعل لكبوت طويلة، ومسارات إلى الورق، وكانت هناك أيضاً حرارة خليقة بالحواريين، واعتقاد يسرى بالعدوى، وإجتياز تقدمى من المبادئ المجردة إلي المحيط العملي. وأخيراً إنه استحثاث جديد قد قدم إلى حكومة الأناسى.

* * *

إن فكرة العقد البدائي قد تسربت إليها فروق عدة دون أن تنمحي، إذ أن الإنسان في ذات يوم- وقد أحس بأنه مجهد من احتمال آلام الفوضى- ضحى بأقل حقوقه لكي يؤسس سلطة لم تكن سوى وديعة قابلة دائماً للإلغاء إذا كان من تلقاها، قد قصر في واجباته.

وهذا العقد من الممكن أنه كان أول الأمر ضمنياً، ومن الممكن أنه كان قد وضع كتابه، عندما قدمت المدينة وسائل ذلك. ومن الممكن أيضاً أنه كان عقداً مثالياً، لأنه من العسير أن يتخيل المرء أن فريقاً من الناس- لما شعروا بمواطن ضعفهم وحاجاتهم- قد اجتمعوا يوماً في أحد السهول الواسعة وعينوا أقواهم رئيساً عليهم. ولكنه على كل حال كان عقداً، وكان هو رأي الأغلبية، كما وضحه «و. بلاكستون» على النحو التالي: «بالرغم من أن أصل المجتمعات لم يأت على التحديد من اتفاقات أفراد دفعو إلى التصميم على هذا بوساطة الحاجة والرهبة، فإن شعورهم بضعفهم ونقصهم هو الذي مع ذلك يستبقي الناس في المجتمع، وهو الذي يبرهن لهم على ضرورة هذا الإرتباط، والذي هو بالتالي الأساس المتين والطبيعي للمجتمع الأدبي كما أنه ملاطه. وذلك هو ما نقصده بكلمة العقد البدائي الاجتماعي»[1].

غير أنه بقدر ما كان مفهوم كلمة الطبيعة يظفر بالاتساع والقوة، فإن الذي كان يعظم إلى حد أن صار إحدى الفكر السائدة في العصر، هو الارتباط بالحرية

---

(1) W. Blackstone, Commentaries on the Laws of England, 1765- 1769.

السياسية. ولما لم يكن أحد قد تلقى عن الطبيعة، حق أمر الآخرين، فإن الحرية كانت ثروة غير قابلة للانتقال، أو حقًا مسجلاً على جميع القلوب. ولقد كان الناس يعتقدون، مغتبطين، أن تلك الحرية كانت تامة وسامية. ومما لا ريب فيه أنه حتى التقييدات التي تفرضها الحياة الاجتماعية وحتى إطاعة القوانين، وحتى الإجبار الخفيف الذي كانت الحكومة تتطلبه، لم تكن ألبتة إلا اختيارية ومقبولة، إلى حد أنها بقيت في مبدئها، عن مظاهر الاستغلال الذي ينظم نفسه، ومن ثم فإن دولة الفيليسيان كانت حرة بأسمى معاني الحرية تحت سلطة قوانينها المطلقة [١]. وفي هذا يقول ديديرو: «إن لكل عصر روحه التي تميزه، وإن روح عصرنا، يبدو أنها روح الحرية.» [٢]

كانت فكرة المساواة تحاول أن تتخذ مجراها، وكانت تعظم بوساطة سواعد جد مختلفة. وكان لديها، وفي صالحها عاطفة تمرد قديمة بقدم العالم، ضد جور الامتيازات، وكانت تظفر بثناء الحالمين الذين كانوا يحددون حكمها بالوقت السعيد من العصر الذهبي، أو في محيط الأوهام أو في تلك البلاد التي كان الرحالون الخياليون هم وحدهم الذين يستطيعون الوصول إليها. وكان البعض يظن أنه رآها تنشأ في العالم الجديد في باراجواي فكانوا يهنئون اليسوعيين بإنشائهم هناك الحقل الذي كان كل سكان البلاد يزرعونه ويحصدونه أي الحقل الجماعي. ولقد كان يلجأ إلى هذه الفكرة لتسويغ المنزلة الآخذة في النمو والتي كانت المرأة تظفر بها في المجتمع، لأنه - بالنسبة إلى الجنسين- كان ينبغي التساوي في الحقوق والواجبات. وكان من المستطاع أيضًا انتزاعها من مفهوم الطبيعة لو أريد ذلك، وهذا هو ما كان يعمله هيلفيسيوس حين كان يحاول أن يظهر أنه في لحظة الولادة، لم يكن هناك فرق بين إنسان وإنسان، وأن التربية

---

(١) L' heeuruse nation des féliciens, peuple souveaiment libre sous I' Empire absolu de ses lois, 1792 par Lemercier de la Rivière.

(٢) Diderot à la princesse Dashoff, 3 avril 1771.

وحدها، هي التي كانت تضع طوابع غير متساوية على ممثلي النوع الذين هم متساوون في الأصل.

كانت فكرة المساواة تنبجس أيضاً من منبع أشد عمقًا، بل من إرادة العصر، حين استولى عليها بانتام بعد عديدين آخرين. وصاغها في عبارة مشهورة هي: «أعظم سعادة ممكنة، لأعظم عدد ممكن» وإذن فالسعادة وإرادة الشؤون العامة التي تتعلق بها السعادة في جزء عظيم منها، لم يعد من الواجب الاحتفاظ بها لاختيار المصطفين، بل قد صارت حقًا للجميع.

ومع ذلك فإن هذه الفكرة كانت أقل نقاءاً عندما كانت تستعملها الحكومات التي كان يروقها أن تقرها، حين كان الأمر يتعلق بالمساواة أمام الضريبة التي كانت تجنيها، وبمساواة رجال الكنيسة والأشراف أمام الملوك حين كان الأمر يتعلق بالعمل على احترام قوة السلطة الملكية أو زيادتها، وبالمساواة بين الموظفين أشرافًا كانوا أو غير أشراف حين كان الأمر يتعلق بخدمة الرؤساء على وجه أفضل. ولكنهم كانوا يجحدونها ويحاربونها عندما كانت تتجه إلى مهاجمة سلطتهم.

بيد أن هذه الفكرة كانت أقل قوة لأنها لم تلبث أن التقت بشيء من التجديد، فقد أُقِرَّت المساواة السياسية. ولم تُقَرَّ المساواة الاجتماعية. ولقد كان الباحثون يوضحون بكثير من الحجج، أن هذه الأخيرة لم تكن ممكنة التحقق في الحياة العملية. وأنها لم تكن منطقية، وذلك عيب أكثر جدية، ففي الواقع أن المساواة الهندسية لم يكن من الممكن وجودها بين الأناسي. وحيث كان الأمر كذلك، فماذا تملي علينا منفعتنا وعقلنا في الوقت ذاته؟ إنهما يمليان علينا أنه- لكي نصير سعداء على التبادل- يجب أن نكتفي بهذا النوع من المساواة الأخلاقية التي تنحصر في إبقاء كل واحد في حقوقه، أي في حالته الوراثية أو المكتسبة، وفي ملكيته ومنزله.

ويرى دالامبير أن من الحماقة العظمى، أن يتهم الفلاسفة- أو على الأقل من يستحقون منهم هذا الاسم- بالتبشير للمساواة، لأنها وهم.

وعند البارون دولباك أن الطبيعة قد أقرت تفاوتًا ضروريًا وشرعيًا بين أعضائها، وأن هذا التفاوت يتأسس على غاية المجتمع التي لا تقبل التغير وهي بقاؤه وسعادته.

ويرى فيلانجيري، أن الأمن هو متحد اتحاداً وثيقًا مع السعادة، وأن البقاء والاطمئنان هما مسجلان في منهجه المثالي. وبالإجمال أنه لن يتساوي الإنسان الفاضل أبدًا مع الوغد، ولا ذو العقل مع الغبي، ولا الشجاع مع الجبان، أي أنه يوجد تفاوت معنوي بين بني الإنسان، على نحو ما يوجد من التفاوت المادي بين الشاب والشيخ، وبين الصنديد والمقعد، وأنه يكون من البله أن يريد المرء التسوية بين الطبقات، بل يكفي أن يكون الناس متساوين أمام القانون، وأن المولد لا يمنحهم أي امتياز، ففي هذا فقط تنحصر المساواة (١).

ولا غرو فإن محافظية (٢) اجتماعية معينة كانت تحس بالخطر عندما جعل الأمر لا يتعلق بسالانتا (٣) بل بباريس أو برلين، وطفقت تنتج نوعًا من الاطمئنان الآلي، فكما أنه في محيط العلم كان العلماء يرون الكون ينتظم تبعًا لدرجات سلم الكائنات حيث كل حيوان وكل نبات وكل حجر كان في مكانه الدقيق والثابت، وأنه كان ينبغي بذل مجهود ثوري ضخم لإدراك التحول. كذلك كان الناس يحسبون أن ثبات الطبقات يستطيع وحده أن يؤكد ما يدعى بدوام المجتمع. إذ أن الطبقات هنا تمثل درجات السلم، وهي التي تحتفظ بالنظام، وأن من يريد أن يقبلها

---

(١) D' Alembert à frédérie II, 8 juin 1770- Baron d'Holbach, La politique naturelle, 1773, para 32- pietro Verri, Modo di ferminare le dispute, défia. du mot Aquaglianza- Gaétano Filangiéri La scicnza della Légis lazione, 1783 live 1.

(٢) – المحافظية الاجتماعية هي الهيئة المعنوية التي تمثل المحافظة الاجتماعية. (المترجم)

(٣) – سالانتا هي مدينة من مدن إغريقا العظمى منحها الحكيم مانتور أحد أبطال رواية تيلماك تأليف فينيلون، دستوراً مثاليًا دان فيه، الحرب، والرفهنية، والحكم المطلق والامتيازات، وما إلى ذلك من نموذج السمو السياسي والاجتماعي. (المترجم)

يكون في الوقت ذاته، قد تحدى إرادة السماء، وعرّض سعادة البشر للخطر.

ولنتبع تعقل ڤولتير تحت كلمة «مساواة» من القاموس الفلسفي إذ يقول ما ملخصه: «إن كل الأناسي المستمتعين بقوى مرتبطة بطبيعتهم، وهم متساوون، وهم متساوون حين يحققون وظائفهم الحيوانية، وحين يزاولون إدراكاتهم. ولكن لديهم حاجات، ولإرضائها يكون بعض التنظيمات ضرورياً. وإذن فهم يخضع بعضهم لبعض. إنه من المستحيل في كوكبنا التعس أن البشر الذين يعيشون في المجتمع. لا يكونون منقسمين إلى طبقتين إحداهما طبقة الأثرياء التي تأمر. والأخرى طبقة الفقراء التي تخدم. هاتان الطبقتان تنقسمان إلى أقسام كثيرة. وهذه الأقسام بينها فروق متباينة».

أما الحاجز الذي لا يمكن تخطيه فهو حاجز الملكية. لأن قانون الملكية هو بالضرورة متناف مع المساواة (١). وفي الحق إن بعض الجرآء كانوا يدهشون من الطابع المقدس الذي كان الناس يحتفظون به لها، وكان أولئك الجرآء ساخطين على ما يعرض من تغيير الحالة السياسية دون تغيير الحالة الاجتماعية، وكانوا يتنبأون بأنه ستنتج من ذلك ثورة فظيعة وغير نافعة (٢). وفي الحق أيضاً أنه في سنة ١٧٥٥ قدم موريلي كتابه «مجموعة قوانين الطبيعة» الذي وجدت فيه مبادئ تلك الثورة الاجتماعية. وبرنامجها المفصل على النحو التالي:

إن الملكية التي لا ترحم، هي أم الجرائم التي تغمر العالم، وينبغي محوها، وينجم عن ذلك مايلي:

١- لا شيء في المجتمع يجب أن يعزي إلى أحد على أنه ملك، إلا الأشياء التي يستعملها كل فرد استعمالاً مؤقتاً، سواء أكان ذلك لحاجاته أم لملذاته، أم لعمله اليومي.

(١) Lemercer de la ltivièrw, L'ordre naturel et essentiel des sociétés politique, 1767.

(٢) Dom Deschamps, Le vrai Systéme ou le mot de l'énigme, publié par J.Thomas et F. Venturi, 1939.

٢- كـل مواطـن سـيكون شـخصًا عـامًا يطْعَمُ ويُتَعَهَّدُ، ويُشغَل لحساب المجموع.

٣- كل مواطن سيساهم بنصيبه في الصالح العام حسب قواه، ومواهبه وسنه، وعلى هذا الأساس ستنظم حاجاته حسب القوانين التوزيعية ... »

وحينئذ يكون قد قضى الأمر بالنسبة إلى ذلك العملاق الهائل الذي طالما أقامت له الأرض المعابد في كل مكان. يخيل إلينا أن قدميه تنحدران إلى ظلمة العدم وتعتمدان على كومة من العظام والجثث، وله ألف رأس وعدد عظيم من الأذرعة قد امتلأ بعض أيديها بأوعية سريعة التحطم مفعمة بالرمل أو بالأبخرة وامتلأ البعض الآخر بالصوالج والتيجان، وقد كتبت على صدره هذه الكلمة، وأعيدت عدة مرات وهي «هل من مزيد [١]».

سيموت ذلك العملاق المخزى، لأن الإنسانية، برجوعها إلى الطبيعة، ستفهم أنه لا يوجد إلا قانون واحد هو «الاجتماعية، وإلا رذيلة واحدة وهي الجشع، وإلا مؤسسة مضرة واحدة، هي الملكية.

وفي الحق كذلك أنه بعد تلك الحقبة بقليل أي في سنة ١٧٧٦ نشاهد أن مايلي، في رسالته «عن التشريع» ينصح بالوصول إلى «الاشتراكية في الثروة» التي هي الدواء الشافي من الآلام الخارجة من علبة باندور [١]. لأن المساواة يجب أن تكون أساس الحياة الخاصة كما هي أساس الحياة الاجتماعية. ومع ذلك فهي تنقطع عن الوجود عندما تثبت الملكية، وهو في هذا يقول: «إنني لا أتردد في أن أنظر إلى

---

(١) naufrage des iles flottantes, poéme héroque traduit de l'indien par Mr. M... 1753. (attribué à Morelly).

(٢) - باندو هي المرأة الأولى في الأساطير الهيلينية وقد خلقها هيفيستوس إله الحدادة ثم منحتها أثينا الروح بالرشاقة والسحر، وخصتّها بمواهب فائقة. وقد أهدى إليها زوس علبة احتوت على جميع الآلام، ثم أرسلها إلى الأرض حيث اتخذها إبيمثيوس زوجة له، غير أن هذا الزوج لم يلبث أن فتح العلبة المشئومة، ففرت منها جميع الآلام لتصيب البشرية، ولم يبق في قاع العلبة سوى الأمل. (المترجم).

تلك الملكية التعسة على أنها السبب الأول للتفاوت في الحظوظ والحالات، وبالتالي لجميع الآلام». ويقول أيضًا: «هل تعرف ماهو المنبع الأساسي لكل التعاسات التي تحزن الإنسانية؟ إنه هو الملكية».

وفي الحق أخيراً إنه في انجلترا قد حدثت بعض محاولات من هذا النوع. ففي سنة ١٧٧٥ كان هناك بائع كتب قديمة يدعى توماس اسبانس وكان عقله ثائراً إلى حد الهياج لما ازدحم فيه من مشروعات. فقرأ ذات يوم في الجمعية الفلسفية مذكرة عنوانها «حقوق الإنسان الحقيقية»، فكان ذلك له بمثابة سلك ثوري مفعم بالأحداث، وانخرط فيه إلى سنة ١٨١٤ وكان يريد تنظيم مجتمع، صانعًا من كل قرية، نوعًا من أنواع الخلايا يطبق المساواة. وفي سنة ١٧٤٨ قام وليم اوجيلفي أحد أساتذة اللاتينية والإغريقية- وهو ذو ثقافة عامة واسعة، وخبرة بعلم المسكوكات- بنشر «محاولة عن حق الملكية العقارية» عرض فيها المبادئ الفلسفية لقانون زراعي كان يمكن أن يمنح كل فرد امتلاك جزء من الأرض.

غير أنه إذا أغضينا عن هذه الاستثناءات التي هي قليلة العدد، والتي هي محاولة منعزلة ظل ما تشتمل عليه عائمًا، والتي لا تذكر بالشيوعية المستقبلة إلا على بعد شاسع، فإن القرن الثامن عشر قد أيد- بوجه عام وفي حزم- الطابع الشرعي الذي كانت الملكية تحتفظ به في نظره. وحجته في هذا هي أن الإنسان في الحالة الطبيعية، ضروري للإنسان، وأن هذا الأخير محتاج إلى شركاء وأنه قد تم بينه وبين المجتمع ميثاق يضمن له فيه المجتمع السعادة، ويضمن هو فيه بقاء المجتمع. وهذا البقاء يتطلب التفاوت الذي يسود الآن، وسيسود دائمًا بين الأناسي. وفي هذا يقول دولباك: «لا ينبغي ألبتة أن نحتج على هذا التفاوت الذي كان دائمًا ضروريًا، والذي هو نفس شرط هنائنا» (١). هذا هو ما يتعلق بالملكية في العموم. وهاك الآن ما يختص بالملكية العقارية بوجه خاص كما كان يدركها اقتصاديو العصر الذين كانوا يدعون «بالفيزيوقراط».

---

D'Holbach ouvage cité. (١)

كان في البدء مجتمع عام، ولكن لما بنو الإنسان قد استمروا يتضاعفون، فإن المنتجات المجانية والناشئة بذاتها من الأرض، صارت غير كافية فأضحوا مكرهين على أن يكونوا زراعًا. ومن الاضطرار إلى الزراعة أتى الاضطرار إلى تقسيم الأرض، وعلى هذا النحو تأسست الملكية في عدالة (١).

أجل قد تأسست على العدالة، فلنحترس من أن نمسها سواء أتعلقت برأس المال أم بالثروات المنقولة أم بالأرض، ولا ينبغي أن نزلزل البناية التي تأوينا، لأنها قد تنهدم علينا. ولندع للواهمين أحلامهم بالمساواة، ولنعز الحرية التي يمكن اللحوق بها وحدها، وليكن هذا الإعزاز للحرية بحماس تزيد حيويته بقدر ما يستطيع مجهودنا أن يتركز لنيلها.

* * *

سيكون الإنسان- لو تحققت الآمال- حرًا في أن يفكر تبعًا لعقله، وفي أن يعبر عن فكرته بالكلام وبالكتابة، وحرًا في أن يختار دينه تبعًا لضميره، سواء أكان الكاثوليكية أم البروتيستانتية أم البوذية أم الإسلام إذا أراد ذلك، وسيكون حرًا في شخصه وسوف لا يفرق القضاة بين الجناة، سواء أكانوا أشرافًا أم أدنياء النسب، وأثرياء أم فقراء، وسيدافع نفس الضمان في كل مكان عن كرامة الإنسان. وسيكون حرًا في حركاته، فيبقى في بلاده أو يجتاز حدودها دون عائق، وسيظفر بحرية الملاحة والتجارة والصناعة. ولقد كانت كل تلك الحريات المرجوة تتأسس وتنتظم في صورة واحدة، وهي صورة الدولة الحرة.

ليجلل الاستبداد بالعار! ولكن لما كان من غير المستطاع مهاجمته، فإن الكتاب جعلوا ينقَضُّون على القدماء، ولقد كان طماس جوردون العنيف- في كتابه «خطب تاريخية ونقدية وسياسية عن تاسيت» (١٧٢٨)- يقدم المثل حين جعل يقذف بصواعقه على قيصر وأغسطس وعلى جميع أردياء الأباطرة الرومانيين، أي

(١) Lemercier de la Riviére, ouvrage cité.

على أولئك المجرمين الذين اغتصبوا ذلك الحق المقدس من الشعب، وهو الحرية. وأكثر من ذلك أيضاً أنهم جعلوا -تحت ستار الاستبداد الشرقي الممثل في طغاة تركيا والموغول واليابان والفرس- يفضحون الحكومة المستبدة المطلقة المضرة، وكانوا يستطيعون أن يقولوا كل السوء الذي يريدونه، عن ذلك الاستبداد الآسيوي دون أن يتعرضوا لأي خطر، فلم يكونوا يرون فيه شرفًا ولا عظمة ولا مجداً، ولم يكن باعثه سوى الخوف، وكانت معرفته خطراً، والمنافسة فيه شؤمًا، وكانت المواهب فيه مرهفة، وكان الأمير- وهو السجين الأول في قصره- يصير في (سراية) في كل يوم أغبى منه في سالفه، ويكل سلطته إلى وزيره لكي يلقي بنفسه إلى الإفراط في أهوائه البليدة. وعندما تنهار البلاد بوساطة الرذائل المنتصرة، تتحول إلى صحراء. وهكذا كان الاستبداد معادلاً للموت.

ولكن أية صورة ينبغي أن تقبل في موضعه؟ أهي الجمهورية أم الأرستقراطية؟ أم الملكية؟

ومهما يكن من الأمر فإن الاختيار، رغم الظواهر، لم يكن جد هام لأن كل صورة لها مزاياها وكان لها مساوئها، فإن خير الجمهوريات هي أدناها شبهًا بالملكية، بوساطة ثبات القوانين، وتماثل الحكومة، وإن خير الملكيات هي التي لم تكن السلطة فيها أكثر استبداداً منها في جمهورية.

لم يكن أجاتون بطل ڤيلاند- بعد تجارب متتابعة في الدولة المختلفة التي كانت تتألف منها إغريقا- يحب الديمقراطية التي لم تكن سوى طغيان مقنع، ولا الأرستقراطية التي لم تكن تستطيع الاستقرار على أساس قابل للبقاء إلا بوساطة ضغط تام على الشعب. ولا النظام الخليط الذي هو نوع من الكيمياء السياسية، والذي يزعم أنه يستخلص مزيجًا بديعًا من العناصر المتناقضة. وبالإجمال إنه كان يفضل الملكية لأن وجود سلسلة دائمة من أشرار الملوك هو قليل الاحتمال وأن ملكًا واحداً خيِّرًا يكتفي لإصلاح الشر الذي فعله أسلافه.

كان ذلك هو الشعور العام أي أن الناس كانوا ينحنون إجلالاً للجمهورية مضيفين إلى ذلك أن جوها الطبيعي كان هو العصر الأثري، وأنها كانت أكثر مطابقة للدول الصغرى. وبعد هذا كانوا ينعطفون نحو الملكية التي بقيت القلوب وفية لها.

و أيا ما كان فإن الأمر الجوهري هذا، هو أن الحكومة قد تكونت بحيث إن أي عنصر من العناصر التي تؤلفها، لم يستطع أن يسود الأخرى. وكانت الصورة السياسية غير مكترث بها على شرط أن توازنًا عاليًا يحكم الرؤساء ليمنعهم من الإفراط في السلطة، كما يمنع الرعايا من الفوضى. وكان ينبغي لذلك جهاز منتظم إلى حد أنه يجب أن يقف من نفسه عندما تهدد إحدى عددها بالتغلب على الأخريات، أي أن رد الفعل يجب أن يتحرك ضد القوة المتطرفة عند أقل إشارة إلى الخطر. وعلى هذا النحو كان يعار قليل من السلطة لأولئك الذين لم يكن لديهم منها شيء ألبتة، وهم الرعايا، وينزّع منها كثير من أولئك الذين كانوا معتادين على احتيازها وهم الملوك. ومن هؤلاء على الأخص، كان الناس يحتاطون، لأنهم كانوا دائمًا مستعدين للتعدي والإفراط والعنف. ومن ثم فإن الكتاب لم يكونوا يتركون لهم سوى ظل سلطانهم القديم، فكانوا يقصرونهم على دور المراقبين، وكانوا يعتقدون أن الملوك يؤدون واجباتهم لو أنهم- بدلاً من أن يحكموا- كانوا يتصرفون بحيث يصبح الناس أقل ما يمكن أن يكونوا في حاجة إلي حكومتهم. وهؤلاء الفياصل بين السلطات المتباينة في الدولة، يجب أن يكونوا هم أيضًا خاضعين للحكم إذا اشتبكوا في معارضة مع إحدى هذه السلطات. وهكذا كان الملوك يفقدون سلطة الفصل في شؤون الناس، والمقدرة على تنفيذ العقوبات فيهم. ولا يخطئون إلا بالصولجان الذي أراد مواطنوهم تركه لهم كلفتة كريمة أخيرة.

كان في العالم إذا ذاك دولة حرة، وكانت تحيا في رغد، وكانت قد ظفرت بالقوة والسعادة معًا، وهي إنجلترا، وإذن فقد التفت الناس نحوها كما يلتفتون نحو

المثل الأعلى. أما أن دستورها كان موضع الإعجاب لأنه قد ثبّتَ فصل السلطات: التنفيذية والتشريعية والقضائية، فذلك هو رأي إنجلترا نفسها. ومن آيات ذلك أن «ميسينًا» (١) آخر قد أسس في أوكسفورد، كرسيًا للحق الدستوري، لكي يسوغ العالم المشرع وليم بلاكستون- بوساطة التاريخ والعقل- رفعة حكومته. ولقد كان ذلك أيضًا رأي أوروبا، فأولئك الذين كانوا يزورون «الجزيرة السعيدة» ويقصون ميزاتها السياسية كبيا دي مورال، والأب بريڤو، والأب لبيلان، وڤولتير، وكذلك محامي جنيف م. دي لورم الذي ألف كتابًا كاملاً لكي يعرف أوروبا على وجه أفضل، ذلك الدستور الذي لا ينازع. وعنده أن الحرية التي هي في القارة، هي حلم أكثر منها حقيقة واقعية كانت قد لجأت إلى المحيط الأطلانطي الذي كانت فيه قلعتها، بل إن مجد العصر الأول في روما كان يمتقع أمامها، وإن لوندرا كانت تفوق روما، وإن الحرية بفضل إنجلترا قد باحت بسرها للنوع البشري.

ولقد حدد مونتسكيو إلى الأبد تلك الآونة من تاريخ الفكر، وكل الناس يعرفون فصول «روح القوانين» التي أبان فيها كيف أن خير الحكومات هي التي تحقق أكبر قدر من الاستقلال مع أكبر قدر من الأمن، والتي فيها السلطة تقف السلطة، وكان يقول كيف أن انجلترا كانت هي الدولة النموذجية التي تبدو فيها الحرية كأنها في مرآة، وكيف أن القوة العجيبة للدستور الإنجليزي، كانت تؤثر بدورها في الشعب الذي خلقها، وكانت تنتج شخصيات ملحوظة، وإرادات متطلعة، وكائنات منتبهة وقلقة ومتيقظة ومتطرفة في أهوائها، وجامحة، وهي التي ظفرت بالسيادة على البحار، وبمملكة التجارة. وبشذوذ العقل، وبكمال الآداب والفنون.

* * *

إن الدولة هي شخصية معنوية وكما أن الفرد يلتقي بالأفراد الآخرين الذين لا

(١) ميسينا هو أحد أشراف الرومان وأثريائهم وكان صديقًا للأمبراطور أغسطس. وقد استخدم ثروته في حماية الآداب والفنون، ومنذ ذلك الحين قد صار اسمه علمًا على حماية الأدب والفن كما كان اسم حاتم الطائي علمًا على الكرم عند العرب. (المترجم)

يجب أن يحتملهم كأصحاب حقوق متساوية مع حقوقه فقط، بل على أنهم يعتبرون ضروريين له. كذلك الدولة تجد حولها دولاً أخر، ويجب عليها أن تثبت علائقها بها، تبعًا لتطبيق معقول للقانون الطبيعي. لأن العادات التي كانت تنظم السياسة الخارجية في الماضي. والتي كانت تود أن تنظمها في الحقبة الراهنة أيضًا، قد تلاشت. ومن ثم فإن أية فكرة دينية، كفكرة المسيحية، ولا أية تقاليد كتقاليد أمراطورية يمكن أن تجمع تحت علمها جزءاً من دول أوربا، ولا أي تدبير كتدبير خصومة بيتين مالكين عظيمين. لكل منهما مواليه. ولا أي حلم كحلم المملكة العالمية أي أنه لا يستطيع شيء من هذا كله أن يحل محل المبادئ التي أبرزت في النهاية إلى عالم النور. وفي هذا يقول دي ڤاتيل: «وبما أن الأمم مؤلفة من أفراد هم بالطبيعة أحرار ومستقلون، وكانوا يعيشون معًا على الحالة الطبيعية قبل استقرار المجتمعات المدنية. فإن الأوطان أو الدول العليا، يجب أن تعتبر كأشخاص أحرار يعيشون فيما بينهم على حالة الطبيعة [1]».

وإذن فالقانون الطبيعي. يتضمن وجود جمعية للأمم أكثر اتساعًا من الجمعيات الخاصة، ولكنها لا تختلف عنها في الكيفية. وهذه الجمعية مؤسسة على نفس الميثاق. لأن أعضاءها قد اتحدوا بقصد مصلحتهم وفائدتهم، وينتج من هذا أن يكونوا مضطرين إلى الاحتفاظ بميثاقهم البدائي، لأنهم لو مزقوه، لما انتهوا إلا تعاستهم الخاصة. حقًا إن المواطنين في قرية، أو في مدينة. أو في إقليم، لهم حقوق، وعليهم واجبات بإزاء المواطنين الآخرين. ولكن لهم وعليهم منها نفس المقدار بإزاء السكان الآخرين في أوروبا وفي العالم لأنه كما يقول دي فاتيل أيضًا: «مادام أن المجتمع العام للنوع البشري هو مؤسسة من فعل الطبيعة نفسها أي أنه نتيجة ضرورية لطبيعة الإنسان، فإن جميع الأناسي مضطرون إلى أن يتعهدوها وأن يؤدوا الواجبات نحوها. ولا يستطيعون أن يتحللوا منها عن طريق أية جماعة

---

(1) Emmerieh de Vattel, Le Droit des gens, ou principes de la loi naturelle appliquée aux affaires des natious et des Souverains 1768, préliminaires.

خاصة، بل إنهم حتى عندما يتحدون في جمعية مدنية لكي يؤلفوا دولة أو وطنًا منفصلاً، هم يستطيعون أن يتخذوا التزامات خاصة نحو أولئك الذين يجتمعون معهم، ولكنهم يبقون محملين بواجباتهم نحو النوع البشري [1]».

حقًا إن وجود الدول بخلقه فوائد جديدة قد أحدث بين تلك الفوائد جديدة قد أحدث بين تلك الفوائد تعارضات أشد جدية من التعارضات التي تفرق بين الأفراد، لأنه أحدث حروبًا أبدية، وجدولاً من الدماء ينهمر خلال التاريخ، وبقدر ما كانت الجماعة تصير قوية وحاسمة كانت تلجأ راضية إلى الأسلحة، لتفرض قانونها، فهناك مثلاً الحروب الدينية التي قذفت بكل أمم أوروبا بعضها ضد البعض الآخر، وحروب الغزو التي عارضت أوروبا مع آسيا وأفريقيا. وعند ما يجري المرء إحصاء لتلك المذابح المستمرة، يشعر بعاطفة من الحزن والامتعاض واليأس.

ومع ذلك فإن هذا لم يكن داءًا غير قابل للبرء، وإن على «عصر الأنوار» أن يخففه. بل أن يزيله من فوق ظهر الأرض، فهو ككل الأدواء. لم يكن سوى نتيجة لأحد الأخطاء، وعندما سيتبدد ذلك الخطأ سيزول من نفسه. أو سيصبح على وشك الزوال. وكذلك الأمم ستفهم على وجه أفضل. فائدتها الحقيقية مادام أنها جعلت تستنير، وأنها أخذت تصعد من النتائج إلى الأسباب. وأنها بدأت تتبين علة عداوتها الطويلة. وهي أن تدع نفسها بعد الآن تنخدع بالتسرعات التي سلحت الأيدي الشقيقة ضد البعض الآخر. وعما قريب سيسطع فجر السلام الأعظم.

كان ليبنز هرمًا، وكان منهكًا عندما قرأ «مشروع جعل السلام أبديًا في أوروبا» تأليف الأب دي سان- بيير [2]. جَعْلُ السلام يسود أوروبا، هذا هو الذي فتن ليبنز، وهذا هو الذي ظل أحد أحلامه العابثة. ومن ثم فإن مشروع هذا الأب

---

(١) Emmerieh de Vaffel, idid.

(٢) Oeivres de Leibniz, éd. foucher de Careil, 1862, t.4. observations sur le projet d'une paix perétuelle de M. L'abbe de Saint-pirre, revu, d'après le manuscrit de la bibliotheque royale de Hanovre.

لم يكن خارجًا عن غاياته تمامًا. ما دام أنه كان، منذ شبابه مجتهدًا في دراسة الحقوق ولا سيما دراسة حق الناس، ولكن ماذا؟ إن الإرادة تعوز البشر، لكي يتخلصوا من عدد لا يتناهى من الآلام. أي أمير بل أي وزير أراد أن يستمع له؟ إن الأمل في إدخال مملكة إسبانيًا في بيت فرنسا. كان منبعًا لخمسين سنة من الحروب، وإنه لمن المخيف أن الأمل في إخراجها منه سيحدث اضطرابًا في أوربا أثناء خمسين سنة أخرى. لا سيما وأن جميع المحاولات السابقة قد أخفقت. ومحاولته أيضًا. نعم إن حقًا من حقوق الناس قد تثبت بين المسيحيين اللاتينيين، وإن الفقهاء قد بنوا تعقلاتهم سابقًا على الأساس التالي وهو أن البابوات هم الرؤساء الروحيون. وأن الأباطرة هم الرؤساء الدنيويون للمجتمع المسيحي. ولكن الإصلاح الأعظم في الغرب. قد غير حالة الأمور تمامًا، فقد حدث شقاق غير قابل للإصلاح. ومن جهة أخرى فإن عدم الاتحاد في الامبراطورية لم يكن آتيًا من أن الامبراطور كان مفرطًا في السلطة، بل بالحري كان آتيًا من أنه لم يكن لديه القدر الكافي منها. وأخيرًا كان ليبنز، وهو على مقربة من الموت، يعتقد أن هناك أقدارًا تمنع البشر من أن يكونوا سعداء.

بيد أن الأب دي- پيير لم ييأس. وقد ظل إلى وفاته في سنة ١٧٤٣ يتابع مشروعه العظيم التالي [١]. وعندما كان يفكر في القسوة والقتل والحرائق والعنف التي تسببها الحرب، كانت تحزنه التخريبات التي كانت أم أوروبا مرهقة بها. ولقد شرع في البحث عما إذا كان من المستحيل تمامًا جعل السلام ممكن الدوام. وعنده أن اتفاقًا لا يكون سوى صورة حديثة للميثاق الأبدي، يمكن أن يجعل السلام غير قابل للفساد بالشروط الآتية: سيكون منذ ذلك اليوم من أيام المستقبل، اتحاد دائم،

(١) Abbé de Saint- pierre, Mémoire pour rendre la paix perpétuelle en Europe, Cologne, 172- projet pour redre la paix perpétnelle en Europe Ultrech, 1713- Projet de paix perpétuelle entre les Souverains chrétiens, Ultreeh 1717.

بين جميع ملوك أوروبا، ويشمل ذلك قيصر روسيا والسيد الأعظم [1] وسلاطين شواطئ البربر. وستكون الوظيفة الأساسية لهذا الاتحاد هي الاحتفاظ بكل شيء في سكون، وستحتفظ كل دولة بحقوقها العليا، وسيمنع الاتحاد فقط الاضطرابات التي يمكن أن تنشأ بينها. ولن يمكن أن ينتزع من أي بلد في داخل الاتحاد شيء، ولن يستطيع أي أمير أن يكون ملكًا على دولتين. ولا جرم أن الملوك- سواء منهم من سيوقعون على الانضمام إلى اتحاد بوساطة مفوضيهم ومن سيوقعون عليه بعد ذلك - مفروض فيهم أنهم تنازلوا برضاهم، فيما يتعلق بهم، وبخلفائهم عن جميع الادعاءات التي يمكن أن تكون لدى بعضهم ضد البعض الآخر، ولن يوقع أي عضو من أعضاء الاتحاد بعد الآن أية معاهدة بينه وبين الآخرين إلا بموافقة ثلاثة أرباع الأصوات، وأن يكون ذلك في مدينة السلام فقط. وحينئذ سيظل الاتحاد ضامنًا لتنفيذ التعهدات المتبادلة. وكل من سيتصرفون على نحو آخر سيعلن أنهم أعداؤه. وستكون مدينة السلام حرة محايدة، وسيمكن أن يستقر في أولتريك، أو في جنيف، أو في كولونيا، أو إيكس لاشابيل. أما أعداء الاتحاد- إذا بقي له أعداء بعد الوساطات والإصلاحات وأحكام الفياصل- فإنهم سيقاتلون بوساطة قوة مكونة من طوائف من أمم مختلفة، يرأسها رئيس تعينه أغلبية الأصوات. ولن تحتفظ أية دولة بجيش أكثر من دولة أخرى، وسيحدد عدد الجنود الذين لكل دولة الحق فيهم. وقد استمر الأب دي سان بيير متنبئًا بكل شيء حتى تفاصيل التنفيذ، أي باختيار المفوضين وإرسالهم. ولوائح الجمعية والمكاتب. ومقدار الاشتراك الذي يقدمه أعضاء الجمعية المستقبلة.

بهذا المشروع الجرئ انقضى زمن الاقترابات البطيئة. والرسائل العالمة التي كانت تكتب باحتياط. وجس النبض. أي أنه قد انتهى الوقت الذي كان التصرف يترك فيه للزمن.

---

(١) - السيد الأعظم هو لقب كان يطلق في فرنسا على سلطان تركيا حين كانت حليفة لها. (المترجم)

كان المنهج الذي اتبعه ليبنيز قد هجر بالنسبة إلى السلام الدائم كما هو بالنسبة إلى الإصلاح بين الكنائس. كان قد هجر كما هجر ليبنيز نفسه. غاية في الأمر أنه كان ينصح للأب دي سان- بيير بالالتجاء إلى الأمثلة وإلى التاريخ.

بيد أن الأب دي سان- بيير كان يتقدم في عزة دون أن يثقل نفسه بمثل هذا القدر من الاحتياط، إذ أن المبدأ قد وجد، وهو أن الطبيعة تريد سعادة بني الإنسان. وأن الحق الدولي يترجم هذه الإرادة الطبيعية، وأن السلام يجب أن ينتج من الحق الدولي مفهومًا في جوهره الحقيقي، وأن قليلاً من المنطق يكفي لتعيين الوسائل المعصومة لتحقيقه بصورة أبدية.

* * *

بما أن هذه الفكر كانت نتيجة نضوج طويل قد وصل إلى حده. وبما أنها ترتدي طابعًا من البساطة كان يحول السياسة إلى منطق، وبما أنها كانت تتجاوب مع بضع إرادات عميقة من كينونتنا فإنها قد سادت ضمير أوروبا، وبعد أن غزت الجزء المفكر من العالم القديم، منحت العالم الجديد حريته.

وهكذا بعد مائتي سنة من قيام الأب دي سان- بيير بحملته، من أجل «مشروعه»، فإن هذا المشروع فد استؤنف النظر فيه، وإن اتحاد الأمم واجتماع المندوبين، ومدينة السلام، كل ذلك قد خرج من الحلم لكي يصير عملاً. وإن الفرق هو أنه لم تنشأ القوة التي أراد وضعها في خدمة قضية السلام الكبرى.

وفي داخل الدول كانت هذه الفكر نفسها تغير مسلمات المشكلة السياسية، لأن العلاقة لم تعد بين سلطة الأمير والسلطات العليا كالكنيسة أو الأمبراطورية، بل بين الحاكمين والمحكومين.

وكانت تغير أيضًا الصورة الذهنية المأخوذة عن الرعية. على أنه، والحق يقال، لم يكن هناك رعايا وإنما كان هناك مواطنون.

وكانت تغير كذلك، الصورة الذهنية عن الملك، فإن إنجلترا نفسها، كانت

تشعر بالحاجة إلى تحديد طبيعة الروابط التي لم تكن تخضع الأمة للملك، بل تخضع الملك للأمة. وذلك هو ما كان يفعله بولينبروك- ولو أنه كان رئيساً لحزب المحافظين- حين نشر في سنة ١٧٤٩، مؤلفه ورسائل عن روح الوطنية». ينعش حزبه، ولكي يحتفظ بالطابع الوراثي للملكية الإنجليزية، جعل يقوي مذهب الأحرار، ويشرح أن النظام الملكي مشيد على الحق المشترك وعلى الصالح العام، وأنه منبثق من قانونين أنشأهما الخالق وهما: القانون العام للعقل، والقانون الخاص الذي خضعت له كل دولة برضاها. ولكي لا يغتصب هذا القانون الثاني- وذلك لو وقع، لأحدث اضطرابات وفوضى- كانت السلطة تنتقل من الأب إلى الابن، ولم تتماسك الملكية الوراثية إلا لأنها أفضل الملكيات وفوق ذلك يزاولها لا يبقى جديراً بهذه الحظوة الشرعية، إلا عندما يستحق اعتبار من يحكمهم، وثقتهم ومحبتهم. ولا يمكن أن يوجد الآن ملوك آخرون إلا «المواطنون»، أي الذين يفنون في صوالح الوطن، والذين يرتضون الشروط التي يشترطها عليهم هذا الوطن.

في البلاد التي لا تزال هذه الفكر تلتقي بمقاومات عنيدة، هي تحدث ثورات، فمن أمثلة ذلك ثورة أمريكا. ومجملها أن مُسْتَعْمَرَةً رفضت مُسْتَعْمِرَتَها أن تطبق فيها المبادئ التي نشرتها هي نفسها، فصارت تلك المستعمرة هي الولايات المتحدة. وتلك واقعة رئيسية قد سجلت في الوقت ذاته في تاريخ الفكر، وفي تاريخ السياسة العالمي حينما تمردت بوستون في سنة ١٧٧٤، وبهذا التمرد بدأت حرب التحرر، وحينما هبت المستعمرات الثلاث عشرة في ٤ يولية من سنة ١٧٧٦، تعلن أنها مستقلة، وحينما حرر التصريح الذي جزم بأن الحكومات لا يمكن أن تصدر إلا عن السلطة العادلة المنبثقة من لدن المحكومين، وحينما وجب أن تخضع إنجلترا، وأن توقع معاهدة فيرساي، وحينما أعدت «اتفاقية فيلاديلفيا» الدستور الذي صوت عليه في ١٧ سبتمبر من سنة ١٧٨٧.

ولما كانت الجمهورية ذات العلم المنجم، مرتبطة بالقارة العتيقة عن طريق

الجنس، وبوساطة ذكرى الشجعان الذين أسسوا إنجلترا جديدة على الجانب الآخر من المحيط، وعن طريق لغتها وثقافتها ودينها، وعن طريق المذاهب التي استعارتها بهيئة مباشرة من لوك ومونتيسكيو، لكي تكون دستورها، فإنها قد بقيت جزءاً من أوروبا وانفصلت منها في الوقت ذاته. ولقد استمرت تحيا حياتها القديمة في وجود منعزل، فكانت هي نفسها وكانت أخرى. ومع أنها كانت معتزة باستقلالها، ومستعدة لأن تؤكده في كل فرصة، فإنه كان هناك رابط لم تصمم ألبتة على أن تقطعه، وهو الرابط المعنوي، فقد كانت تعود إلى أوروبا عندما كانت تشعر بتهديد تلك الثروة التي كانت أوروبا القرن الثامن عشر قد عرَّفتها ثمنها، وهي الحرية.

ومنها أيضًا ثورة فرنسا ذلك البلد الذي كان يعبر فيه عن النظريات بأعظم قوة، ولكن الجانب العملي فيها لم يكن يريد أن يتنازل عن شيء للروح الجديدة، كما يوضح ذلك أمر «سرير العدل» [1] الذي أصدره الملك لويس الخامس عشر في ديسمبر من سنة ١٧٧٠ وهو: «إننا لم نتلق تاجنا إلا من الإله، وإن حق إنشاء القوانين هو ملك لنا بلا تجزؤ، ولا تعلق بأحد».

ولا جرم أن ذلك تعارض صريح مع «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» الذي صوت عليه في أغسطس من سنة ١٧٨٩ ووضع على رأس دستور سنة ١٧٩١ وهو: «إن الناس يولدون أحراراً ومتساوين في الحقوق: إن التميزات الاجتماعية لا يمكن أن تؤسس إلا على المنفعة المشتركة. إن غاية كل جماعة سياسية هي الاحتفاظ بحقوق الإنسان الطبيعية وغير القابلة للإبطال. وهذه الحقوق هي الحرية والملكية ومقاومة الاضطهاد. إذ أن القانون هو التعبير عن الإرادة العامة، ولا يمكن أن يتهم أحد، ولا أن يعتقل، ولا أن يحتجز إلا في الحالات التي عينها القانون وعلى الصورة التي أمر بها. إن الإعلان الحر للفكر والآراء هو أحد

(١) - سرير العدل هو كناية عن جلسة رسمية كان الملك يعقدها ليكره البرلمان على أن سجل أوامره لينفذها. (المترجم)

حقوق الإنسان الأكثر نفاسة، وإذن فكل مواطن يستطيع الحديث والكتابة والنشر في حرية. إن كل مجتمع ليس فيه ضمان الحقوق مؤكداً، ولا انفصال السلطات مستقراً، ليس له دستور.»

تلك فكر لم تزد على أنها اتخذت هنا صورها المقررة عند إتمام عمل الفلاسفة.

# الفصل السادس

## التربية

قبل ظهور كتاب «إيميل» لجان جاك روسو، في سنة ١٧٦٢ يلاحظ المرء أول الأمر هجوماً من جانب الماضي. ثم تنشأ حركة، تبدأ بطيئة ولكنها تنشط حوالي سنة ١٧٥٠. وفي نحو سنة ١٧٥٦ يقول لاشاتوليه: «يبدو أنه ـ فيما يتعلق بالآراء الخاصة بالتربية ـ يوجد لدى الكافة في أوروبا، نوع من التخمر...»[1] وإذا ذاك يطلب الفلاسفة من المربين أن يؤدوا حساباً عن عملهم، وعندما يجدونه سيئاً يستأنفونه هم، ويستعينون في ذلك بمونتيني وفينيلون، ولوك، وتأثير هذا الأخير هو بنوع خاص، قوي. وتلك حالة شاذة من عمل عام. ولقد كان على الجميع أن يختبروا ما إذا كانت فكَر هذا الحكيم يجب التمسك بها، أو نبذها بإزاء مستقبل قريب. مؤدى تلك الفكَر ما يلي:

١- لم تعد التربية معدة لتكوين «رجال اللياقة» الذين هم حلية المجتمع بل لتكوين مواطنين نشيطين.

٢- إن التربية معدة لإنتاج أجسام قوية كما هي معدة في الوقت ذاته لإنتاج نفوس مستقيمة.

٣- إن التربية معدة لمساعدة القوة التلقائية للكائن، أكثر من أنها يجب أن تكرهها.

* * *

(١) la chatolais, Essai d'éducation nationa'e,1763,p.34.

وها هو ذا شارل رولان، إنه محترف، إذ كان أستاذًا، و(ناظرًا) لمدرسة بوڤيه بل مديراً بديعـاً. ولما كان جديـاً، فقد كان ملونـاً بصبغة الچانسينية، وإذ كان عالمـاً، فقد كان مدرسـاً في المدرسة الملكية. ومن ثم فإنه كان محوطـاً بهالة من المجد التربوي. وإن كتابه «رسالة عن الدراسات» الذي ظهر فيما بين سنتي ١٧٢٦ و١٧٢٨ والذي كان مكونـاً من أربعة مجلدات، قد قوبل بتحية الاحترام من لدن الذين كانوا يحبون الأدب الكلاسيكي، وتقاليد الذوق الحسن.

يرى هذا الأستاذ أن للتّربية ثلاث غايات: فهي تثقف عقول الشبان، وتزينها بجميع المعارف التي هم أهل لها، وتجتهد في أن تصل بعملها إلى حد النهاية، أي أن توجد فيهم الشخصية المسيحية. وأن اللغة اللاتينية وقليلاً من الإغريقية يجب أن يظلا عنصرها الأساسي. ولكم كان شارل رولان، سيشعر بارتياح عظيم، لو أنه كتب رسالته باللاتينية، لأنه - بلا مباهاة - يكتب باللاتينية، خيراً منه بالفرنسية، ولكنه أخيراً كان ينبغي أن يفكر في أولئك الذين لم يكونوا يريدون، من بين تلاميذه، أن يصيروا أساتذة، والذين لم يعودوا يؤلفون خطبـاً شيشيرونية. ومن ثم فإنه صمم على أن يختار الفرنسية. وأن يقدم أمثلة مستخلصة من المؤلفين الفرنسيين.

كان مغرمـاً بالخطابة العتيقة التي يتعلمها الناس عن طريق قواعد القدماء ونماذجهم، وبالإنشاءات الخطابية الجميلة التي تشيد بالالتجاء إلى الطرق المعروفة التي يعددها، وذلك مثل الموازنات والفكر المألوفة.

وعندما كان ينصح بقراءة كتب المؤلفين وشرحها، لم يكن يفكر في الاستكشافات الممكنة، ولا في الأحداث التي تستهوي العقل، وإنما كان فقط يستمتع بإبراز نماذج، لا يكون أمام الناس إلا أن يحاكوها في كل نوع. وعندما تسنح الفرصة، يجعل الأستاذ التلاميذ يلاحظون كيف يمكن جعل السامعين - في فاتحة الخطبة - مستعدين لتقبلها، ويجعلهم يلاحظون أيضـاً، إلى أي حد وصل

الوضوح الذي يسودّ الحديث ويلاحظون ما فيه من إنجاز، وما عليه من مظهر الصدق. وما يحتويه من غاية خفية، لأن سر الفن لا يكاد يكون معروفاً إلا من أساتذة الفن.

وعنده أن الفكر أقل أهمية من الصورة، وأنه يعلن في سذاجة، أن الفكرة محدودة بترويض لفظي. وفي هذا يقول: «إن كلمة الفكرة هي لفظة جد عائمة، وجد عامة، لها عدة مدلولات شديدة التباين كمعادلتها اللاتينية «سانتانسيا Sen-tentia، ويَبِينُ جيداً أن ما نختبره، إنما هو الفكر التي تدخل في منتجات العقل، والتي هي جمالها الأساسي».

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الشعر، فكم من صور يقتطفها المرء عند ڤيرچيل. وعند أوڤيد، وكم من نصوص سامية قمينة بالاستظهار!.

لا ريب أن هذه الكنوز توجد لدى مؤلفين غير دينيين حظر بعض المربين المفرطين في الصلابة صحبتهم، ولكن هل سنكون نحن أشد قسوة من آباء الكنيسة الذين لم يخشوا من أن يذهبوا إليهم لينقبوا عندهم عن عناصر الأسلوب؟

وكما أن الفكرة لم تكن سوى حلية للخطبة، كذلك كانت قراءة القصيدة وسيلة إلى إظهار كيف تستعمل النعوت، وكيف يؤتى بالإعادة، وكيف توجه الخطبة. أما العاطفة الشعرية فلم يرد لهاذكر.

لم يكن شارل رولان جافا، بل يمكن أن يكون أجف من ذلك دون ضرر. وليس عليه ملامح لهجة الأمر، ولكن عليه مظهر المعلم في صورة محببة. وإذا استمعنا إليه، فكل مادة يعالجها، هي هامة إلى حد أنها تستوقف الانتباه بنوع خاص، فمثلاً بمناسبة التعقل والبرهان. هو يقول: «إنما هنا يوجد أشد أقسام الفن الخطابي ضرورة، بل الذي هو منه بمثابة الأساس، والذي يمكن أن يقال عنه: إن جميع الأخريات تتعلق به».

وهو يقول بمناسبة الخرافة: «لا تكاد توجد مادة، فيما يختص بدراسة الأدب، هي أوفر استعمالاً من المادة التي أتحدث عنها هنا، ولا أعظم منها جدارة بدراسة عميقة، ولا أشد اكتظاظاً بالأشواك والعقبات».

إنه مقتنع في إخلاص إلى حد أنه يقنع قارئة، وتلك قوته، إذ لا يمكن العثور على محام أشد منه فصاحة. ومع ذلك فقد كانت خطته، خطة السلطة. ولكي يدافع عن ماض مجيد، فإنه يدعي أنه كان يعاني في ذلك صعود منحدر العصر. ولم يكن يريد، في الدراسات من حيث محتواها، سوى «الإنسانية الكلاسيكية القديمة» (1)، ولا شيء غير ذلك تقريباً. أما من حيث روحها فلا يريد إلا الرغبة في نقل وديعة غير مُجَسَّة. ومن ثم فإن شخصيات التلاميذ لا تقحم البتة في الدراسات، وإن مساهمتهم كلها، ومجهودهم فيها هو محاكاة. ولن يكون في عقولهم، ولا في قلوبهم، ولا في نفوسهم سوى القيم التقليدية التي يكون الأستاذ قد سكبها فيهم.

ومع ذلك فإن شارل رولان لا يدع المدرسة كما وجدها تماماً، بل إنه من وقت إلى آخر يفتح فيها نافذة أو يسدف باباً ليتصل منه بالعصر فقد كان مثلاً يحترم لوك، ولو أن لهذا الأخير مشاعر خاصة لا يستطيع المرء أن يعتنقها دائماً وأنه فيما يبدو، غير متضلع بالقدر الكافي في دراسة اللغة الاغريقية ولا في دراسة الأدب الذي لم يمنحه الأهمية الكافية. ولا جرم أن رولان، عندما يقول كلمته الحاسمة ضد الأبطال الحربيين وضد المستبدين، إنما يقدم شهادة لصالح الفلسفة. وهو يلح أيضاً على أنه إذا كان التلاميذ عليهم واجبات نحو أساتذتهم فإن الأساتذة أيضاً عليهم واجبات نحو تلاميذهم.

غير أنه حين يذكر المرء تاريخ نشر رسالته، ويذكر المطالب التي كان يعبر عنها يومياً، وأنواع العنف، والتمردات، فلا يستطيع شيء أن يتغلب على

---

(1) يريد المؤلف بكلمة الإنسانية، الثقافة الإغريقية اللاتينية. (المترجم)

الشعور بأنه يتجه إلى «رجال اللياقة» السابقين أو يتجه إلى القرن السابع عشر في امتداده ضد التيار.

* * *

أما الحاضر فقد كان يتطلب شيئاً آخر، إذ أن المعاصرين كانوا يسجلون عيوب التربية التي تلقوها، والتربية التي كانوا يرون أنها تقدم إلى أبنائهم. وكان يقول إن الصبي عندما يخرج من المدرسة الثانوية، لا يكون قد عرف شيئاً، أو لا يوشك أن يكون قد عرف شيئاً، بل كان يقرأ في صعوبة، قليلاً من اللاتينية، وبضع كلمات من الإغريقية.

وكان يستظهر شعر پيبراك، وخرافات لا فونتين التي كان يسيء فهمها، وكتاب التعليم الديني الذي لم يكن يفهمه، ولا شيء أكثر من ذلك. وعلى أثر هذا كان يوكَلُ إلى أساتذة لتعليمه الفروسية، والرقص، والمسايفة، والموسيقى، ولكنه لا يتجاوز معرفة العناصر الأولى للهندسة، وهو يسيء عملية الطرح. وكان يتمم تربيته في المجتمع الأرستقراطي، على أشد الطرق سطحية، وفي الغالب أكثرها حمقاً... وإذا وضعه أهله ـ بدلاً من صحبة المدرسة ـ بين يدي مرب هو مكون من حذلقة فظة ووضاعة، فإن جهله يصير أشد عمقاً، وخلفيته أكثر قابلية للتشكك، لأن هذا المربي كان يعوده على الحسد والخبث تحت اسم المنافسة والحيوية وكان يربيه على الإيمان بأن المال هو أنفس ما في العالم، ويقنعه برفعة لص ثري، على رجل ممتاز لا يملك شيئاً، ويشير ج. پ. دي كروزا، إلى الطريقة الغريبة التي كان أولئك المربون يستعملونها لحمل تلاميذهم على العمل فيقول: «يملي المربي موضوعاً طويلاً على الصبي الذي يستعمل ساعتين أو ثلاثة في ترجمته إلى اللاتينية، وذلك وقت سعيد بالنسبة إلى الأستاذ. وأما التلميذ فلا يشكو من طول «واجبه» لا سيما إذا كان لدى المربي من الحكمة ما يمنعه من توبيخه على الأخطاء التي ملأ بها «واجبه»، لأنه ينشىء ـ حسب رغبته ـ سطرين، ويستريح ويكتب سطرين آخرين

أو ثلاثة، ثم يمزح ويعود أيضاً إلى «تمرينه»، ثم يأكل شيئاً من الفاكهة؛ ويذهب للتحدث مع أحد الخدم، ويعود فيلعب، ويتشاجر مع أحد الرفاق. وأخيراً يصل عن طريق هذه الثغرات، إلى الكلمات الأخيرة. وحينما يلتقي الأستاذ، عن طريق المصادفة، بشيء حسن في بضعة سطور، فإنه يهتف أمام الوالد بالمعجزة. أما المواطن التي يهذي فيها فإنها تدفع إلى الضحك وسرعان ما يستغل عدد التصحيحات في البرهنة على عناية المربي. وعندما يصلح كل «الواجب» ينظر إليه الوالد على أنه إنتاج اليد التي كتبته وحدها، وحين يرى الوالد على هذا النحو ابنه يمر من حيث مر هو نفسه، يشعر أنه ولد وشب من جديد مسروراً في هذه الصورة العزيزة[1]».

وإذا لم يتمم الشاب تربيته في المجتمع العالي، فإنه يدخل الجامعة حيث تنتظره تعاسة جديدة، لأنه هناك لا يزيد على كونه يكتب تحت إملاء، دون أن يفهم شيئاً، فأساتذته يدرسون له «المدرسية» التي لا تزاول الحكم ألبتة والتي تثقل الذاكرة، وهم يوجهون إليه أسئلة على طريقة العصور الوسيطة كقولهم: «أيها الببغاء اللطيف كم من الفكر؟» «quotuplex causa?» أو أيها الببغاء اللطيف كم من الأسباب؟ «quotuplex idea?».

لا جرم أن الأستاذ ـ من بين مائة إجابة ممكنة ـ يعتبر أن إجابة واحدة هي الجيدة وهي التي لا يفرض فيها المعنى فحسب بل الصورة أيضاً. وذلك هو إعلان الحرب الصريحة على الفطرة السليمة وفي الحق أنه لم يكن من الممكن، في وسط القرن الثامن عشر، أن يسمى الناس أستاذاً في الفن، رجلاً لا يعرف سوى القواعد اللاتينية، وقواعد القياس «إين باروكو» وإذا كان حقاً أن مقدار النور قد زاد منذ

(١) j.p. de crousaz, Nouvelles maximes sur l´éducation des enfants, 1718.

(٢) idem, Traité de l´é ducation des enfants, lausanne 1722.

مئة سنة، وأننا استنرنا، فيما وراء آمال العصور السابقة وأخيلتها [1] فإنه يكون من الحق أيضاً أنه يجب علينا أن نقلب مألوفات المدارس والمجامع والجامعات. وقد جعل هذا التعقل يتخذ في كل يوم، قوة أعظم حتى انتهى إلى بعض المطاليب الواقعية التالية.

* * *

ينبغي أن تتغير مادة التعليم، وأن نضع في عقولنا أن المواد التي تدرس قد اختيرت، عندما كانت لا تهم سوى شمامسة المستقبل، ثم امتدت إلى أولئك الذين يجب أن يدخلوا في سلك الأستاذية، وهم الذين كان الناس يخلطون بينهم وبين رجال الكنيسة. غير أن هذه الجماعة ليست الآن سوى أقلية. وأن هذه الدراسات محتفظ بجزء عظيم منها لاستعمال الشبان الأشراف الأثرياء العاطلين. أفلا تشتمل الإنسانية على طبقات أخرى؟بل إن أبناء الأشراف، وكبار المتوسطين، يجب عليهم اليوم أن يتعلموا حرفة، فذلك يجعلهم في مأمن من كثير من الرذائل، كالكبرياء والكسل والتبطل. ومهما يكن من شيء. فإن الأكثرية الغالبة من بني الإنسان، مضطرة إلى أن تكسب قوتها. وهي منذ شبابها، تتجه نحو ما يدعوه جوزيف بريسليه «عمل الحياة النشيطة [2]».

وإذن فسيقل نصيب اللغة اللاتينية بهيئة ملحوظة، إذ أنه في الواقع ماذا يفيد الإنسان في حياته أن يكون لاتينياً بارعاً؟ نعم قد لا ينبغي محوها نهائياً، وإن كان الذوق اللاتيني في الواقع، قد جعل يتلاشى. وإذا أريد الإبقاء عليه، فينبغي أن يعثر على مناهج أسرع، وألا تضيع سبعة أعوام في تعلم لغة ميتة، وهي أعوام لا

(١) un âge "enlighten´d beyond the hopes and imaginations of former times", dans william w orthington, au Essay on the scheme and conduct, procedureand Extent of Man´s Rédemption, 1743.

(٢) Joseph Priestley, An Essay correspondance littéraire, mai 1762. Qeuveres, tome v,p,81.

تمثل، لدى أكثر الصِّبْية، سوى متاعب وآلام. ولا جرم أن الوقت الذي يكسبه الصِّبْيَة على هذا النحو، سيخصص ـ على صورة أفضل كثيراً ـ للغة البلد الذي يعيشون فيه. وكذلك التاريخ يطلب مكانته، والتاريخ القديم في هذا أقل من التاريخ السياسي الأوروبي الذي يجهله أولئك الذين ينشغلون بالحكم عندما يصلون إلى مناصبهم.

ومما لا شك فيه أن دراسة التاريخ تستلزم دراسة الجغرافيا. ومن المسلم به أنه لا يمكن إهمال العلوم، وعلى الأخص العلوم الطبيعية. إلى جانب الرياضة وعلم الطبيعة. وأما فيما يتعلق باللغات الأجنبية فقد كان الناس يبدون تردداً أكثر. ومن ناحية أخرى فقد كان البعض ينصح بأن ندخل الأخلاق الطبيعية، مبتدئين بجروسيوس وبوفيندورف، وبإدخال الحق الطبيعي أيضاً. ومنهم كذلك من يعنون في الانشغال بالإعداد العملي إلى حد اقتراح تعليم الفنون الميكانيكية. إذ أنه سيكون أنفس لدى الشاب أن يعرف كيف تصنع الحذاء التي يلبسها، من أن يردد مطالعة أرسطو. ولماذا لا يكون في داخل المدرسة أدوات من أنواع مختلفة؟ وحول المدرسة دكاكين عمال؟ ومتخصص يحرك الآلات عندما يبنيها للصبية، وذلك كآلات النسيج والطباعة وصنع الساعات وحرف أخرى.

وينبغي أيضاً أن تغير روح التعلم. وفي هذا ينشر بازيدو Bazedowفي سنة ١٧٥٢ كتابه «المنهج الطبيعي لتعليم الشباب» -"Méthodus èrudiendae Juventu- tis naturalis" الذي يسبق دوره كمصلح [1].

وعنده أن من المسلم به مرة أخرى أنه لا يوجد في النفس شيء فطري، وأن هذه الأخيرة تنمو بوساطة ما تحمله إليها الأحاسيس التي تتحول شيئاً فشيئاً إلى

(١) Pro summis in Philosophia honoribus rite consequendis inusitatam eamdemque optimam honestioris Juventutis erudiendae méthocum...publice predicandam dabit- Johannes Bernardes. Basedow, k iliae, 1752, Caput II: Mé thodus erudiendae Juventutis naturalis.

فكر مجردة، وإذن التربية يجب أن تتطابق مع قانون الحياة النفسية أي أنها يجب أن تكون تقدمية. وبدلاً من أن تتطبق من الخارج ـ وفي شدة يتفاوت تَخَفُّها كثرة وقلة ـ على نفس في حالة التكوين، هي تتبع من الداخل حركات هذه النفس. ولا ريب أن نتائج هذا المبدأ لا تحصى.

في الواقع أن الإنسان جدير بالاهتمام منذ المهد. وأن والديه ـ بدلاً من يتركاه للخدم وأن يهملاه، بحجة أنه لم يبلغ بعد، سن العقل ـ يجب أن ينحنيا عليه ليوجها نموه، فالوالد مثلاً يعلم الطفل محاسن الآداب قبل أن يعرف ما هي الفضيلة، ويودع لديه بذرات الحكمة التي سينبتها المستقبل. أما دور الأم فإنه سيكون كذلك، جديراً بالاعتبار، لأنه يعزى إليه إظهار كيف أن هذه الفضيلة نفسها هي محببة وعذبة. وكلاهما مجتمعين، يقومان بدور المربي قبل أن تبدأ التربية.

إن للطفل جسماً، ومن ثم فإن طريقة إلباسه وإرقاده لها أهميتها. وينبغي مراقبة طعامه بنوع خاص، لأننا نعرف أكثر مما ينبغي، تلك البنات الصغيرات اللواتي يتركهن أهلهن يتّخمْنَ من الحلوى، وأولئك الشبان من أبناء الأشراف الذين يُتَبِّلُونَ بالموالح المحفوظة، كل موائدهم، والذين يتخذون من وقت مبكر عادة السكر. ولطالما كنا شهوداً لعسر هضم كان يعالج بطب هو أحياناً أسوأ من المرض.

يستطيعون أن يشربوا على المائدة كما يريدون، ولكن يجب عليهم ألا يشربوا بين المائدتين. وينبغي أن يأكلوا اللحوم الشعبية التي تجعلهم أقوياء ويجب عليهم أن يتجنبوا الأطعمة التي تخرج منها عصائر تبل غدة المخ. ويجب أن يجلسوا إلى المائدة مع والديهم إلا إذا كان هؤلاء الأخيرون لديهم مدعوون.

ولا ريب أن هذا الجسم الذي يجب أن يراقب نموه، ينال مرونة وقوة بوساطة التمرينات البدنية وبتربية الآباء أبناءهم هكذا على الإخشوشان، سيرونهم يقوون

يومـاً بعد يوم. ولقد نصح لوك بهذه الوسائل، فلما أتت من انجلترا غزت البلاد الأخرى. وفي هذا يقول الأب پونسيليه: «هناك عالم إنكليزي وهو السيد لوك، قد اقتحم كل هذه التفاصيل الخاصة التي أحترس من أن أقرها بحذافيرها، لأن رقتنا الفرنسية وعُرْفنا، لا يتفقان مع كل أنظمته ونصائحه. ومع ذلك فإنه يذكر من تلك الأمور الحسنة ما يجعلني، على الأقل، أحسب نفسي مضطراً إلى تبيينها في خطوطها العريضة عندما تسنح الفرصة (١).

وأما اختيار المربي فلن يترك إلى المصادفة، لأن كثيراً من المحامد يجب أن تشترط فيه، فينبغي له العلم والخلق والحزم والرزانة أي ينبغي له فضائل الحكيم.

وأما سير التربية فإنه يجب أن يتبع سير الطبيعة. ولكي يطيعه المربى، حسبه أن يلاحظ كيف أن المعارف تدخل في عقول الصبية، وكيف أن الرجال أنفسهم يظفرون به. وفي هذا يقول لاشاتوليه: «إن الشعور الأول هو المعرفة الأولى... وإذن فالمبدأ الأساسي لكل منهج حسن، هو البدأ بما هو مُحَس، ثم الصعود تدريجيـاً، إلى ما هو معقول. وبما هو بسيط للوصول إلى ما هو مركب، والبدء بالتحقق من الوقائع قبل البحث عن الأسباب (٢)».

حقـاً إن الأساتذة القدماء - ولم يكونوا حمقـاً - كانوا يعرفون تمامـاً أنه لا يعلم صبي في السادسة ما يلائم شابـاً في السادسة عشرة أو في العشرين.

غير أن اتجاه عقولهم كان اتجاهـاً قاعديـاً، وأن ما كانوا يفرضونه على جميع الأسنان، كان هو القاعدة، بينما أن أساتذة المستقبل يجب عليهم أن يتبعوا خطوة خطوة، سير العقل الذي هو في دور التكوين. وسيلاحظون تفتحات ملكات الطفولة لإرضاء الملكات التي تظهر أولاً وهي الاستطلاع، وروح المحاكاة،

---

(١) le père poncelet, principes généraux pour servir à l'éducation des enfants... 1763.

(٢) L.3.première époque.

والذاكرة. وعندما يتعلق الأمر بالتاريخ الطبيعي، هم يبينون لهم الأشجار. والفواكه، والطيور، والحشرات. وإذا تعلق بعلم الكونيات فإنهم ستحدثون عن النهار، والليل، والقمر، والنجوم. وحين يتعلق بعلم الطبيعة سيبتدئون بتجارب ملهية. وعندما يتعلق باللغة اللاتينية لا يبتدئون بالقواعد النحوية.

وهكذا، يصلون، في بطء وتبصر، إلى المعارف المجردة.

ومما هو جدير بالذكر أن التربية الحديثة سيصحبها الحب أيضاً. لأن الملاحظات العبوسة، والتأنيبات المستمرة، والقسوة والضجر الذي يصحبها، تقزز النفوس الشابة، بينما أن سرور التعلم والاحترام والمحبة التي يعرف الوالدان والأساتذة كيف يظفرون بها، ستكون هي أيضاً أعواناً طبيعية، على تربية سلك فيها خير المسالك. أما العقوبات البدنية التي كانت تطبق في الماضي بسهولة، فإنها ستهجر، وهي لا تكاد تستعمل إلا في بعض حالات متطرفة، لأنه لا يمكن إدخال المعرفة بضربات السوط وإن العنف لا ينتج ألبتة سوى حقد أو تمرد.

وكذلك ينبغي أن تصير التربية وطنية، فالتعليم شيء، والتربية شيء آخر، وهذه الأخيرة هي الأهم كثيراً، لأنها لو وجهت توجيهاً حسناً لأنتجت مواطنين. وهذه الفكرة التالية تتضح أيضاً بين كثير من الفكر التي تجيش في الصدور، وهي أن المدرسة يجب أن تتخذ طابعاً وطنياً. وفي هذا يقول هيلفيسيوس: «إن فن تكوين الرجال في كل بلد، هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بصورة الحكم فيه إلى حد أنه من غير الممكن إحداث أي تغيير ذي شأن في التربية العامة، دون إحداث تغيير في نفس دستور الدولة[1]». كما تكون الحكومة، تكون التربية. ولا يمكن أن توجد تربية في حكومة استبدادية، والتربية يجب أن تصير شطراً من السياسة، لأنها تكونها، وهي مكونة بوساطتها.

ولقد كان من الممكن أن تضع الدولة يدها على التربية مغتبطة، وكان الأب

(١) Helvétius,De l'esprit, 1758. Discous 4, chap 17.

دي سان ـ بيير يقترح إنشاء مكتب دائم لتوجيهها تحت سلطة الوزير الذي تكون في وزارته الشرطة العامة للدولة. ومعنى هذا باللغة الحديثة، سكرتارية الدولة للتربية الوطنية الملحقة بوزارة الداخلية. ومن المسموح به أن يرى المرء شيئاً اخر غير التوافق المصادفي في واقعة أن لاشاتوليه الذي نطق، ضد اليسوعيين بالاتهام المعروف الذي طلب فيه، قبل كل شيء، أن تنتزع منهم مدارسهم، يكون هو الذي نشر في سنة ١٧٦٣ «محاولة على التربية الوطنية».

وعنده أن الدولة يجب أن تمد الوطن بما تتطلبه ضروراته وأنها يجب عليها ألا تترك التربية لقوم لهم مصالح متباينة مع مصالح الوطن. وأن المدرسة يجب أن تعد مواطنين للدولة، وإذن فيجب أن تكون متعلقة بدستورها، وقوانينها. وهي إلى الآن توجهها فكر تنسكية، فأنا أطلب أن توجهها في المستقبل، فكر مدنية، إذأن الأمر لا يتعلق بملء البلاد بالمدارس الإكليروسية والأديرة، بل هو يتعلق بتكوين مواطنين. وإن الصالح العام، والشرف الوطني يقتضيان أن يعد كل جيل ينشأ، لأن يشغل بنجاح، مهن الدولة المختلفة. ولقد كان لاشاتوليه ـ في رسالته التربوية كما في اتهامه ـ يقصد ما كان يدعوه «برزيلة الرهبنة[1]».

وفي نفس الحقبة تقريباً، كان الأمراء المصلحون، يعملون ما كانت الدولة الحرة تعتزم فعله، دون أن تنشغل بالنظريات كثيراً، أي أنهم كانوا يتخذون من المدرسة، إقليماً مما هو تحت إدارتهم.

* * *

وبالإجمال إنه لا يوجد واحد من أنصار الحداثة لا يتمنى التربية التقدمية، بكل قوته.

إن مسألة إرضاع الأطفال من أمهاتهم، ومسألة معرفة ما إذا كان ينبغي

---

(١) La chatolais,ouvrage cité.

تفضيل المربي الخاص على نظام الحياة المشتركة في المدارس، ومسألة معرفة كيف يختار هذا الأستاذ المسئول إذا كان قد صمم على تفضيله، ومسألة الحرفة اليدوية التي ينبغي تعلمها، ومسألة تقدم التربية على التعليم، كل هذه المشكلات قد ووجهت وعولجت عدة مرات. وكذلك عولجت تربية الفتيات. وكل هذه الفكر كانت تنتظر وتدعو وتتطلب العبقرية التي كانت على مقربة من أن تمنحها الحياة[1].

---

(١) يقصد المولف بالعبقرية التي كانت كل تلك المشكلات التربوية تنتظرها وتدعوها وتتطلبها والتي كانت على مقربة من أن تمنحها الحياة، عبقرية چان چاك روسو مؤلف كتاب «إيميل» الذي قطعت آراؤه في التربية في ذلك الحين، قول كل خطيب. (المترجم)

# الفصل السّابع

## دائرة المعارف

كتب أحد النقاد سابقًا يقول: إن دائرة المعارف كانت عظمى شواغل العصر، والغاية التي كان يتجه إليها كل ما سبقها، والمركز الحقيقي لتازيخ الفكر في القرن الثامن عشر. نعم إن هذا الجزم متطرف من وجهة النظر الأوروبي، ولكن من المحقق أن دائرة المعارف ـ وقد نشأت من نموذج إنجليزي، وتلقت في باريس، صورتها النهائية، ودعيت للهجرة إلى سويسرا، وإلى بروسيا، وسطعت على أشد البلاد اختلافًا، ونقلت وقلدت في كل مكان ـ هي إحدى القوى الممثلة لأوروبا.

كانت تريد في الوقت ذاته علمًا وتعميمًا، وذلك ما لم نعد نقره اليوم. وإذن فهي تمثل أولاً حركة الإذاعة التي تتفق مع إرادة «عصر الأنوار». وكما أن هذا الأخير، في محيط الفكر، لا يخشى جمع فكرة الفلسفة بفكرة الشعب «فلسفة الشعب»، (ذلك عنوان أحد كتب العصر) كذلك في محيط المعرفة بدلاً من إبعاد الأجانب، هو يدعوهم، لأن المضنون به، والعسير، والسر ليست مما يلائم ذوقه. وهذه الطريقة أيضًا تقتاد السير من أرستقراطية العقول إلى الطبقة المتوسطة المستنيرة التي تستولي على العالم أكثر من أنها تريد التغلغل إلى أسرار الأشياء. وفي هذا يقول جروتويسين:

«إن الإنتاج الموسوعي هو استيلاء فلاسفة القرن الثامن عشر على عالم هو في ذاته سيظل غير معروف، وسقبلونه كما هو ما دام أنهم يتخلون عن فهم حقيقته العميقة. وهم يقيدون أنفسهم في حكمة، بجمع الوقائع لترتيبها على أثر ذلك،

في نظام موسوعي. وعندما يكونون قد نظموا ذلك الذي استولوا عليه، سيرون عالم المحسات، يتحول إلى شيء معروف أو إلى مجموع من العناصر العلمية، والوقائع الملحوظة، أي إلى شيء يستولى عليه الإنسان، وهو له ... »[١].

ولقد سجل أحد محرري صحيفة «مذكرات تريڤو» في أغسطس من سنة ١٧١٥ الملاحظة التالية إذ قال: « يحب كل امرئ أن يكون عالماً ولكنه يحاول أن يصير كذلك بثمن رخيص، تلك هي عبقرية عصرنا».

كانت هذه الملاحظة دقيقة، ففي الواقع هل كانوا يريدون أن يتعلموا الهندسة دون أن يلاقوا كثيراً من المشقة ؟ والعلوم في وقت قصير وبلا مساعدة أي أستاذ؟ واللاتينية وهم يلهون؟ والقواعد النحوية في سرعة وبطريقة لذيذة؟وفي كل مرة كانوا يظفرون بما يريدون، لأن هناك كتباً ظهرت حديثاً كانت تعرض عناوين مغرية مثل: «الرياضة صناعة هينة»، أو «منهج جديد به يستطيع المرء أن يصير عالماً بلاأستاذ. وبلا دراسة، وبلا مشقة».

كان هذا الاتجاه ثابتاً لا يتغير. وبعد أربع وثلاثين سنة كتبت «صحيفة العلماء» بدورها في نوفمبر من سنة ١٧٤٩ ما يلي: « يحب الناس أن يعرفوا ولكنهم يريدون أن يتعلموا بلا مشقة وفي قليل من الوقت وذلك بلا ريب هو سبب المناهج المتباينة التي تقدم في كل يوم، وهو السبب الذي من أجله نرى هذه الكثرة من المختصرات».

وفي الواقع كان الناس يرون مختصرات من كل نوع، «وفكراً » منتزعة من منتجات مؤلفيها حين تكون تلك المنتجات وفيرة. وكانوا أيضاً يرون «تحليل بيل» و«عبقرية مونتيسكيو» ولا أدري كم كتاب عنوانه «روح كذا ... » وفي هذا يقول جريم: « إن السيد دي بلانڤيل ـ وهو شاب موسيقي يعلق عليه شيء من الأمل ـ قد نشر آنفاً كتابه «روح الفن الموسيقي» ولا غرو، فهذا العنوان كان إحدى بدع العصر

(١) B.Groethuysen, L'Encyclopédie, dans le tableau de la littérature Française, 17ème et 18 ème siècle, 1939.

فقد كان عندنا من قبل، «روح الأمم» و«روح الفنون الجميلة» و«روح مونتيني» و«روح فونتينيل» وما إلى ذلك. وقد ظهر عندنا آنفاً «روح اليوم» ولا أجرؤ أن أتحدث عن «روح القوانين» ويبدو أنه كان يراد استخلاص جوهر، أو روح كل شيء»(1).

وكانت هناك «أوراد»، ومجموعات وقواميس ـ ولو أريد إنشاء تاريخ لهذه الأخيرة، لوجب بيان التغير التقدمي، ففي عهد النهضة كانت توجد قواميس اللغات القديمة لذوي الثقافات الأثرية. وفي القرن السابع عشر قواميس اللغات الوطنية لاستعمال طبقة ذوي اللياقة. وبعد ذلك قواميس تاريخية ونقدية. ولكن الذي كان يطلب إذ ذاك هو من نوع آخر أي قواميس للفنون وللتجارة وللجغرافيا. وكان المرغوب فيه قاموس يحتوي كل القواميس الأخر، ويكون أهلاً لإرضاء شره المعرفة الذي كان يهيج العقول. وكان المثل الأعلى لهذا القاموس، أن يكون عالمياً وسهل الحمل، وإذا كان هذا مستحيلاً، وكان ثقيلاً فليكن ذلك، ولكن ليكن عالمياً.

أما إفرهيم شامبيرس ـ وكان أسعد من أسلافه ـ فقد جمع المعارف العالمية في مجلدين من القطع الكبير عنوانهما «دائرة المعارف أو قاموس عالمي للفنون والعلوم» وهو الذي أتى له بالشهرة والفائدة والمجد بعد موته، بأن دفن في ويستمنستير، إلى جانب عظماء الإنجليز الذين كانوا قد استحقوا تقدير وطنهم.

كان جريم ـ وهو الذي كان مكلفاً بكتابة التقارير عن كل هذه المنتجات ـ يتذمر كما هي عادته، وكان يقول، إنه لشيء مزعج أن يرى المرء إلى أي حد يتضاعف الكيميائيون الأدباء، وإنها لديدان فراش تلك التي تقضم شجرة الأدب، والتي تأكلها على هذا النحو إلى أصولها وفي الحق أنه لم يكن يفهم التغير العقلي الذي كان يجري تحت بصره. وأنه لم يعد موجوداً ذلك العصر الذي كان فيه الميتافيزيقي متركزاً في نفسه، وكان في ظلمة حجرته يحاول أن يتغلغل إلى سر

(1) Grimm, Corresp, litt, 24 Sept.1754,T.2.PP.187 - 188.

الكائن. ولا ريب أن هذه العملية ـ أشد صعوبة في نجاحها من استكشاف «حجر الفلاسفة» ـ كانت قد هجرت، أو تركت إلى حالمين غير قابلين للإصلاح. أما الآن فقد كان الناس يتجهون إلى استكشاف عالم الظواهر، هذه الظواهر التي صارت هي الحقيقة الواقعية الوحيدة. وذلك كما لو كان بحارة الماضي قد ضيعوا مجهودهم، بهيئة جنونية، في إرادة معرفة أعماق المحيط، وكما لو كان بحارة اليوم- وهم أشد حكمة من الأولين - يكتفون بإنشاء الخريطة النافعة للرياح والصخور والطرق والمرافئ. وكان ينبغي أن يأخذ كل فرد نصيبه من الحادثة الجديدة العظمى! وأن يشعر كل فرد على الأقل بفائدتها! وهي أن العلم سيكون في متناول كل فرد، أي أنه يكون على رفوف: أ ـ ب ـ ج ـ د. وإذن فدائرة المعارف قد طلبتها وأمرت بها روح العصر نفسها.

ذلك هو ما كان يفهمه دالامبير، وأكثر منه أيضاً ديديرو الذي كان يفهم كل شيء. إذ كانا كلاهما يعترفان بأن المناهج، والعناصر، والمختصرات كانت تتكاثر باضطراد، وأن القواميس كانت موفورة إلى حد أنه كان يجب تسويغها أكثر من الثناء عليها. وتلك ظاهرة كانا يعللانها بفائدتها المحسوسة. وكانا يقبلان التطور الذي بدأ، ويريدان أن يصلا به إلى حده، وكانا سيستقبلان رجال القصر، والضباط والأشراف والنساء أيضاً، وهم جميعاً يطلبون أن يتعلموا، بل إنهما كانا سيستقدمان إليهما كل هؤلاء القراء المتعطشين. وكانا سيعالجان العلوم والفنون بطريقة تفرض أن ليس هناك أية معرفة أولية. وكانا سيعرضان ما كانت معرفته هامة في كل مادة، ولاأكثر من ذلك. وكانا سيمحوان مصاعب قائمة الاصطلاحات لكي لا تكون مربكة في أي مكان. وكانا سيترجمان النصوص التي ستكف عن أن تكون هيروغليفية. وكانا سيكتبان مؤلفاً يمكن أن يحل محل مكتبة في جميع الأنواع بالنسبة إلى رجل الطبقة العالية وفي جميع الأنواع بالنسبة إلى عالم محترف، فيكون حسبه حركة لتناول الكتاب، وبضع ثوان للبحث عن الكلمة، وعندئذ سيصير أجهل الناس، أكثرهم تعلماً. ويعرف الكل تلك النكتة التي تخيلها ڤولتير لتصوير هذا المشروع إذ قال:

بينما كان الملك لويس الخامس عشر يتعشى في قصر تريانون بڤيرساي في صحبة قليلة وكانوا يتحدثون عن الصيد وعن البارود، إذ بهم يلمحون أنه لا يعرف أحد منهم بالضبط من أي شيء يتكون البارود، وأن مدام دي پومپا دور، لم تكن تعرف من أين تأتي الأصباغ الحمر التي تزين بها وجنتيها ولا كيف تصنع الجوارب الحريرية التي تلبسها ولكن هذا الجهل كان له دواؤه، فلم تلبث الإشارة أن صدرت، وسرعان ما أحضر الخدم مجلدات دائرةالمعارف، واستعلم الحاضرون عن البارود والأصباغ، والمناول التي تنسج عليها الجوارب. وعلى أثر ذلك انقض كل واحد من الحاضرين على المجلدات انقضاض بنات ليكوميد على حُلى أوديسوس. وفي نفس اللحظة التقى بما كان يبحث عنه، ففيها وجد الخصوم النتائج الحاسمة لقضاياهم، وفيها قرأ الملك حقوق تاجه، وفيما كان الحاضرون مستمرين في القراءة، قال الكونت دي ك ... بصوت عال: مولاي، إنك لجد سعيد بأن يوجد في عهدك رجال قادرون على معرفة جميع الفنون وعلى نقلها إلى الأجيال القادمة إذ كل شيء هنا منذ طريقة صنع الدبوس إلى طريقة سبك مدافعك وتصويبها، أي منذ اللامتناهي في الصغر إلى اللامتناهي في الكبر ... »

* * *

لا جرم أن أوروبا، بدائرة المعارف، كانت ستفتح كتاب حساب جديد، ففي الواقع أن كتاب القديس توماس الإكويني الذي عنوانه « مجموعة لاهوتية فيها وضح المذهب العام للكنيسة الكاثوليكية» "Somma theologica in qua Ecclesia catholicae doctrina universa explicatur" كان فيما يرى الفلاسفة، هو الماضي ومصيره النسيان. بينما أن دائرة المعارف أو «القاموس المتعقّل للعلوم والفنون والمهن، تأليف جمعية من الأدباء» كان بمثابة الفجر والنهار. وفي هذا كان الفلاسفة يكتبون بلغة الأمر، أنه ينبغي إجراء جرد عام لما عرف، ولهذا كان ينبغي اختبار كل شيء، وزلزلة كل شيء بلا استثناء، وبلا مراعاة، وأن تداس بالأقدام تلك الصبيانيات العتيقة، وأن تحطم الأوثان التي كان العقل يستهجنها، وأن توضع على الضد من ذلك، إشارة مجد على القيم الحديثة.

كان أبناء العصر يريدون أن يكونوا أحراراً، وبهذا فإن منتجاتهم لن تكون من عمل الأمير، ولن تشبه تلك المشروعات الرسمية التي تسير في بطء إلى حد أن تكون متأخرة عن تطور الاعتقادات ولن تكون مشروعاتهم مدينة لحكومة معينة وستستغني عن مساعدات كل مجمع، إذ أن المجمع هو دائماً جماعة ضيقة، وإن عاطفة حسن الاستعداد المتبادلة، والصالح العام هما وحدهما اللذان يجمعان المتعاونين.

لم يكن أبناء العصر يريدون أن يكونوا ملهين ولا هواة، ومن ثم فإن دائرة المعارف لم تكن تحتوي شيئاً من الحشو، ولا مما انقضى زمانه، وإنما كل ما فيها سيكون حياً، ولن يكتفى فيها حتى بالشرح ولا بالوصف، بل إن هناك رسوماً ولوحات ستبرز الصور المادية للعمل المتواصل الذي يخلق المدنية.

وكان أبناء العصر يريدون أن يكونوا بنائين ولن يتركوا أنفسهم يحيدون عن غايتهم بتلكئهم في الماضي، ولو كان ذلك لقصد تبيين الأخطاء التاريخية واحدة إثر واحدة، كما فعل بيل، ولكنهم بالحري كانوا يشتغلون بجمع المواد الضرورية للوطن.

وسيكون أبناء العصر أوفياء لإلهيهم: «العقل والطبيعة». أما اليوم ـ ونحن نشاهد أن الفلسفة تتقدم بخطوات واسعة، وأنها تخضع لسلطانها كل موضوعات محيطها، وأن صوتها هو الصوت السائد وأن الناس قد بدأوا يتخلصون من نير السلطة والمثل المحتذى، ليتمسكوا بقوانين العقل، وإنه لا يكاد يوجد كتاب أولي ودجماطيقي، يمكن أن يرتضى تماماً، لأن المرء يجد تلك المنتجات منسوخة من منتجات الأناسي لا من حقائق الطبيعة، وقد أصبح الناس اليوم يجرؤون على أن يثيروا بعض الشكوك حول أرسطو وأفلاطون، وقد أتى الزمن الذي يرى الناس فيه أن المؤلفات التي لا تزال تستمتع بأسمى أنواع الشهرة، ستفقد جزءاً من تلك الشهرة، بل ستهوى كلها في النسيان ... وتلك هي ثمرة التقدم والعقل.

ولا ريب أن النتيجة إذ ذاك ستكون عظيمة، لأن أحداً لا يستطيع أن يعترض

من جهة، بأن القاموس الآن ليس في مستوى العصر، ومن جهة أخرى أنه حتى لو اختفت جميع الكتب في إحدى كوارث الطبيعة وبقي هو، فلن يضيع شيء، وستكون المعرفة البشرية قد أنقذت.

وعندما تحققت لديهم تلك الفكرة الواضحة عن مثلهم الأعلى وجمعوا المعارف المنتشرة على وجه الأرض لكي يعرضوا نظامها العام على معاصريهم، وينقلوه إلى من سيلونهم، بحيث إن أخلافهم بصيرورتهم أكثر تعلماً، يصيرون أكثر فضيلة وسعادة، فإنهم - بدلاً من أن ينزعجوا من ضخامة المهمة - قد ثملوا بفكرة هذه الحصيلة التي لا تتناهى.

من ذلك أتت الحماسة الأولى، والتصريحات الجريئة، والوعود والدعوة المرسلة إلى من يحسب حسابهم في جمهورية الآداب والعلوم. ومما لا ريب فيه أنه لم يكن حب المال هو الذي كان يحرك ديديرو ودالامبير، عندما وضعا نفسيهما على رأس ذلك مشروع. ولكنهما بالحرى كانا يقودان حملة عقيدية وهي حملة الفلاسفة[1].

من هذا نشأ الانتظار الأعظم والارتجاف ساعة نشر التعريف بذلك القاموس في أكتوبر من سنة ١٧٥٠، وظهور المجلد الأول منه في يوليو من سنة ١٧٥١. ومن هذا نشأت الجماعة المعارضة من الخصوم الذين لم يلبثوا أن يشيروا إلى الخطر. ومن هذا أيضاً أتى الانفعال الذي انتشر عندما توقف النشر في المرة الأولى ثم في المرة الثانية. ومن هذا كذلك وقعت الأحداث المعروفة تفاصيلها إلى حد أننا لسنا في حاجة إلى العودة إليها. ولقد وجد على الأخص اليوم الأليم الذي أحس فيه ديديرو بأن ليبريتون تاجر الكتب كان يشوه مقالاته سراً، فجعل يقول: «لقد جرحت جرحاً سينتهي بي إلى الرمس». وأخيراً وفي يناير من سنة ١٧٦٦ أعلن

(١) عبر المؤلف هنا بكلمة «الحرب الصليبية» وأراد الحملة الفلسفية إيماءاً إلى رابط العقيدة الذي كان هو الدافع للقائمين بالحرب الصليبية وهو الباعث لمثيري الحملة الفلسفية. (المترجم)

صمويل فوس النوشاتيلي ـ بحيلة تظاهر الرأي العام الأوروبي بأنه قبلها ـ أن المجلدات الثامن وما بعده، قد طبعت في سويسرا، وأنها تحت تصرف المشتركين.

قد يكون أنه لو لم تكن كل هذه المصاعب، وتلك المعارك، وذلك الانتصار النهائي الذي لم يكن انتصاراً إلا بشرط ألا يظهر كذلك، لكان من الممكن أن تظفر دائرة المعارف بأهمية أقل، لأن صفة فاجعية قد ظلت مرتبطة بتاريخها. إنها كافحت ضد القديم من حيث الفكر والقوى كما يقول النص اللاتيني: «إن الحياة الجديدة تبتدئ» "Incipit vita nova"

* * *

لا جرم أن قاموساً يكون قاعدياً، ويعرض نظام المعارف البشرية وتسلسلها، كان يبدو رأياً غريباً في أي زمن آخر غير القرن الثامن عشر، لأنه كيف ممكن التوفيق بين التحليل المشوش الذي يفرضه النظام الأبجدي، والتأليف الذي كان ذلك العصر يحلم به. نعم إن شامبيرس قد حاول ذلك، ولكن دائرة المعارف الفرنسية قد ربطت مجدها بالنجاح في هذا التأليف على وجه أفضل.

أي مبدأ كان يجب أن يرتب هذا النظام وأن يصطنع هذا التسلسل؟ هل كان ينبغي اعتبار الفكرة اللاهوتية؟ كلا لأن اللاهوت لم يظفر، بين مراتب العلوم، إلا بمنزلة ضئيلة لم تلبث هي نفسها أن تجزأت إذ أن اللاهوت قد قسم إلى قسمين، اللاهوت الطبيعي الذي ليس فيه من المعرفة الإلهية سوى المعرفة التي ينتجها العقل، وهي لهذا ليست ذات شمول كبير، واللاهوت الموحى به، ولكن هذا الأخير ليس شيئاً آخر غير العقل مطبقاً على الوقائع الموحى بها. ويمكن أن يقال إن اللاهوت مرتبط بالتاريخ عن طريق الاعتقادات التي يعلمها، وبالفلسفة عن طريق النتائج التي ينتزعها من هذه الاعتقادات. وبعبارة أخرى إن اللاهوت ـ حين يتعلق بالعقل، أو حين لا يكون إلا تاريخياً أو فلسفياً ـ كان يتخذ صورة ملكة أطيح تاجها. وإذن فالعلوم لا تنظم حسب صلاتها باللاهوت.

وبالتالي كان ينبغي ـ على الضد من ذلك ـ أن تسود واقعة الوجود الإنساني

ما دام أن كل الملأ الأعلى قد أقصى، وكان ينبغي الجزم بصدارة الإنسان، وأن تنظم العلوم حسب علاقتها بنمو سيكولوجيته، ففي الواقع أن الإحساس يعلمنا بوجودنا وبوجود الأناسي الآخرين أمثالنا، وأن المجتمع والأخلاق، والدين تنشأ شيئاً فشيئاً، وأن من الجلي أن الفكرة العقلية المحضة عن الرذيلة والفضيلة، وأن مبدأ القوانين وضرورتها، وروحية النفس، ووجود الإله، وواجباتنا نحوه، وبالإجمال إن الحقائق التي نحن في حاجة إليها هي ثمرة الفكر المتأمِّلة التي تسببها أحاسيسنا. ومن جهة أخرى إن العناية بتجنب الألم، وبالتنقيب عن اللذة، وإن ضرورة الاحتفاظ بأجسامنا، تضطراننا إلى توقى الآلام التي تهددنا، أو التداوى من الآلام التي أصبنا بها، وتدعواننا إلى استكشافات خاصة أو جماعية. ومن هذا نشأت الزراعة والطب أول الأمر، وأخيراً أشد الفنون ضرورة على الإطلاق. وإذن ـ سواء أتعلق الأمر بالنظري أم بالعملي ـ فإن الإنسان هو الذي قد نظم هو نفسه معرفته وحياته. وما دام الأمر كذلك فقد وجد مبدأ التسلسل الذي يكفي عرض تفاصيله، وفي هذا يقول دالامبير: «ينتج من كل ما قلناه إلى هنا أن الطرق المختلفة التي تعمل بها عقولنا في الأشياء، وأن الاستعمالات التي تنتزعها من تلك الأشياء نفسها. هي الوسيلة الأولى التي تتقدم إلينا لنميز بها في العموم، بعض معارفنا عن البعض الآخر. وكل ما في هذه المعارف، يتصل بحاجاتنا. سواء أكان ذلك عن ضرورة مطلقة، أم عن لذة، بل سواء أكان ذلك عن عادة أم عن هوى»،

لم يتخذ دالامبير. أمام مجموع المعرفة، نفس الخطة التي يتخذها بوفون زمام الطبيعة فحسب، بل هو ينضم إلى بوب [١]، وإلى ليسينج [٢] عندما يعلن معهما أن «أنبل موضوعات الدراسة لدى الإنسان هو الإنسان».

ومع ذلك فهل يمكن أن يوجد مبدأ آخر للربط يكون أكثر إنسانية إذا أمكن هذا التعبير؟ في الحق أن النمو التقدمي لأحاسيسنا وتأملاتنا، يسمح بتدخل ظروف

---

(١) Pope, Essay of Man, Epistle,ll.

(٢) Lessing, Oeuvres, éd,Hempel,18.p.25.

أجنبية عنا، لأن تاريخ كسبنا الذي أمرت به حاجاتنا لا يمثل أمامنا حسب خط متواصل، إذ يمكن أن تعترضه عقبات أو أن تقطعه توقفات. وهو يشبه طريقاً ملتوياً، أو متاهاً، أكثر مما يشبه خطاً مستقيماً، لأن الإنسانية تدور في دائرة أحياناً، وترجع إلى الوراء أحياناً أخرى، وأن العلوم يقتحم بعضها محيط البعض الآخر، وأن أحدها يكون متقدماً والآخر يكون متأخراً. وأنه ينتج من ذلك بعض الفوضى والتعقيد العظيم: وينبغي لذلك وجود مرشد أوضح وأسرع وهو التالي.

يلاحظ اليوم، كما لوحظ بالأمس، وعند الباريسيين كما عند الهوتانتو[1] أنه يوجد لدى الإنسان ثلاث ملكات رئيسية وهي الذاكرة، والمخيلة، والعقل. وستكون تلك هي التقسيمات الثلاثة للنظام الموسوعي، فالذاكرة تخلق التاريخ، والعقل يخلق الفلسفة، والمخيلة تخلق الفنون الجميلة. والتاريخ و الفلسفة والفنون الجميلة، تنقسم بدورها إلى أقسام. وأخيراً إن دائرة المعارف ستتطابق مع هذه الوجهة الثانية لأنها وجدتها أكثر بساطة مما كانت عليه وجهة النمو التقدمي لنفوسنا.

هناك إشارات مسجلة بعد كل كلمة من القاموس تسمح بربط الورقة بالفنن، والفنن بالغصن، والغصن بالساق المركزية التي تظل هي الواقعة البشرية الأكثر بساطة وهي وجود الملكات الإنسانية. ومن ثم فإن الأستاذين العظيمين أي أستاذي الفكر والعلم الأوروبيين ـ وهمالوك وبيكون ـ قد طبعا توجيههما على صفحة الفكر المنظم لدائرة المعارف.

وعندما قرأ الناس الخطبة الافتتاحية للقاموس صاحوا قائلين: «ماذا! لم تعد المعرفة تأتي من جانب الإله أو القانون الإلهي لم يعد هو قاعدة الأخلاق! وذلك رغم أن دالامبير قدمنح الموجود الأسمى بضعة سطور حيث قال: إن اتحاد النفس والبدن مضافاً إلى التأملات التي نحن مكرهون على القيام بها حول مبدأي الروح

---

(١) هم سكان أفريقيا الجنوبية ويضرب بهم المثل في التأخر والوحشية ولذلك وضعه المؤلف قبالة الباريسيين إيضاحاً للضدية. (المترجم)

والجسم، تينك المشكلتين الأبديتين، كل ذلك ينتهي بنا إلى فكرة وجود عقل تام القوة، بل إنه قد تحدث عن ضرورة دين موحى به يسد مسد الملحق للدين الطبيعي. وعلى الرغم من أن هذا التعبير بكلمة الملحق، يخلع على تصريحه طابع عدم الاحترام، وبالرغم من أنه يلوح عليه أنه يقول إن الحقائق المبلغة بوساطة ذلك الدين الموحى كانت لاستعمال الشعب لا للحكماء فإنه على الأقل كان يحتفظ ببعض المراعاة، أو يتخذ بعض الاحتياطات. بينما أن ديديرو سيبدو أكثر صراحة، عندما سيصل إلى مادة «الموسوعة» من القاموس، فإنه سيتولى الدفاع عن المنهج الموجه للكتاب، وفي عزم قوي سيضع الإنسان في مركزالكون العام إذ يقول: «إذا أقصى الإنسان أو الكائن المفكر والمتأمل من فوق سطح الأرض، فإن منظر الطبيعة المؤثر السامي لا يكون إلا محزناً وأبكم، فيصمت الكون ويستولي السكوت والضجر.

ويتحول كل شيء إلى عزلة شاملة حيث تمر الظواهر غير الملحوظة، بطريقة غامضة وصماء، لأن حضور الإنسان هو الذي يجعل وجود الكائنات ذا أهمية، وما دام الأمر كذلك فماذا يستطيع المرء أن يعتزم في تاريخ هذه الكائنات، خيراً من أن يخضع لذلك الاعتبار؟ ولماذا لا ندخل الإنسان في مؤلفنا على هيئة وضعه في الكون؟ ولماذا لا نتخذ منه مركزاً مشتركاً؟».

قالت التوراة إن الإله خلق بديئاً، السماء والأرض، وبعد أن خلقهما كون الإنسان، ولكن ديديرو، عندما وصل إلى تعريف الإنسان، تناسى التوراة، وأهمل الإله إذ قال:

«الإنسان اسم مذكر، وهو كائن حساس متأمل مفكر، يسير في حرية على سطح الأرض؛ ويبدو أنه على رأس جميع الحيوانات الأخر التي يسودها، وهو الذي يعيش في جماعة، والذي اخترع العلوم والفنون، والذي لديه خيرية وشرية خاصتان به، والذي اتخذ له سادة، واصطنع لنفسه قوانين وهلم جراً ...»

* * *

ولقد اعتبر الناس أحياناً كشيء جديد تلك المنزلة العظمى التي منحتها دائرة

المعارف للفنون والمهن عندما وعدت بأن تقدم عن كل علم وكل فن ـ سواء أكان عقلياً [1] أم ميكانيكياً ـ المبادئ العامة التي هي أساسه والتفاصيل الأكثر جوهرية، والتي تؤلف جسمه ومادته. وهي بهذه الطريقة تقدم في الوقت ذاته مرشداً للتنفيذ، وعرضاً منهجياً لمعارفنا. وكان ذلك طموحها الثاني.

ولا ريب أن الدهش من هذه الشواغل يكون هو الجهل بأحد الميول العصرية التي رسمت طريق المستقبل، على أكثر الصور مباشرة كما سيكون نسياناً لطلائع هذا الاتجاه كديكارت الذي كانت نصائحه ترمي إلى أن تبنى ـ في المدرسة الملكية، أو في الأماكن الأخرى المعدة للكافة ـ قاعات مختلفة كبرى للصناع، وأن يضاف إلى كل قاعة، حجرة مملوءة بجميع الآلات الميكانيكية الضرورية أو النافعة للفنون التي كان يجب أن تعلم فيها، وكليبنيز الذي كان يعد مشروع نوع من العرض العام الذي كان من الممكن أن يكون فيه ملاه وألعاب وراقصون على الحبل، وبهلوانات ورجل يأكل النار، وخيول راقصة، وغرائب أخرى معدة لاجتذاب الجمهور. وكان هذا الجمهور سيتعلم في الوقت ذاته كيف يعرف أدوات تقدم العلوم أي مجموعات التاريخ الطبيعي، والحجرة المظلمة، والتجارب على الماء والهواء والفراغ، والاختراعات، والالات المكانيكية.

وكان كتاب لوك «محاولة على العقل البشري» من قبل قد أفسح مكاناً لعلم الميكانيكا إذ يقول: «من الميكانيكا مهما تكن حمقاء ومحتقرة (لأن هذا الاسم مغضوب عليه في العالم) أقول من الميكانيكا التي يزاولها قوم ليسوا من ذوي الثقافة، تأتينا الفنون النافعة في الحياة إلى حد بعيد. والتي يزداد كمالها في كل يوم».

ومن قبل أيضاً كانت هنالك قواميس قد أعلنت عن طريق عناوينها، أنها

---

(١) يقابل المؤلف هنا كلمة الميكانيكية بكلمة الحرة libéral ونحن لا نجد مسوغاً منطقياً لهذه المقابلة ولهذا قابلنا الميكانيكية بالعقلية، اللهم إلا أن تكون كلمة الحرة هنا بمعنى «الإرادية التي تقابل الالية وهذا لابأس به. (المترجم)

ستنشغل بالفنون والعلوم، بل إنها ستصير اصطلاحية. وأخيراً كان هناك من قبل أيضاً ميكانيكيون مهرة ينشئون آلات تتحرك من نفسها كفوكانسون الذي قدم إلى المجمع العلمي صنيعه الآلي «الموقع على الناي» بينما كان كامپيلين فاركاس الهنغاري يصنع «الرجل الذي يتكلم».

ولكم كان أهل ذلك العصر يخترعون إذ ذاك من آلات عجيبة! آلات النسيج تسير بسرعة إلى حد أن مصانع الخيط لم تعد تكفي لأن تورد إليها الخيوط اللازمة، ثم آلات للغزل تصنع الخيوط بكثرة إلى حد أن آلات النسيج لم تكن تصل بعد إلى استعمالها، وآلات تستعمل الفحم الحجري لتذيب المعادن الممتزجة بالأحجار. وأخيراً أعجب الآلات، وهي الآلات التجارية، ففي الواقع أن جون كيه في سنة ١٧٣٣ قد اخترع المكوك، وفي سنة ١٧٣٨ نال چون ڤيات ولويس پول براءة آلة النسيج، وفي سنة ١٧٦١ بدأ چيمس وات تجاربه. وفي سنة ١٧٦٧ وجد ضالته وفي سنة ١٧٦٨ نال براءته بدوره. وهكذا بدأت الآلات في أوروبا القرن الثامن عشر، تحل محل الأناسى ولم تحدث في تاريخ نوعنا أية واقعة أكثر إثقالاً بالنتائج من هذه الواقعة.

وإذن فدائرة المعارف كانت تدون في وسط حركة عامة، هي تثيرها وتمنحها رفعة. إنها ستعرف كل قرائها بتلك الفنون الميكانيكية التي كان المفكرون الْخُلَّصُ يجهلونها، أو يحتقرونها في العصر الذي كانت فيه الميتافيزيقية وحدها تبدو جديرة بتأملهم، فكان المساهمون فيها يدخلون الحوانيت، أو يذهبون إلى المصانع فيرون كيف يكسو المجلد مجلداته، وكيف يصنع النجار صناديقه، وكيف ينفخ الزجاج في زجاجة، وكيف يهاجم المعدني فحمه. ولا غرو فإن ديديرو - وهو ابن صانع سكاكين في مدينة لانجر - قد تعهد بنوع خاص بأن ينظر ويستوجب، وكان يحضر معه رسامين ليصوروا أبسط القطع قصد الانتهاء إلى أكثر الآلات تعقيداً.

وفي الحق أن هذا التحول الفكري الذي كان يتجه نحو الفنيات، لم يكن له

بد من أن يصطحب معه تغييراً اجتماعيــاً لأنه عندما ترتفع قيمة الفنون الميكانيكية يجب منطقيــاً اعتبار حالة الذين يزاولونها أكثر ارتفاعــاً .

ودائرة المعارف تشهدنا هذا الترتيب الجديد للقيم إذ تقول : «إنكم لن تحتقروا الصناع بعد اليوم . فهم أقراننا بل هم أرفع منا ، فمن أين كان يأتي إزدراؤكم؟ قد يكون ذلك آتيــاً من حقد مبهم ولا شعوري ، ففي الواقع أن ذلك التفريق البدائي كان مؤسســاً على القوة ، ثم استبدل بتفريق متفق عليه ، أسس على سمو العقل ، ومن ثم فإن العقول تثأر لنفسها من الانتصار القديم الذي أحرزته القوة البدنية . إن احتقاركم قد أتى من فكرة زائفة ، إذ كان الناس يعتقدون أنهم حين كانوا يزاولون ، بل حين كانوا يدرسون الفنون العالية ، كانوا يسفون أو ينحطون إلى أشياء ، بحوثها شاقة ، وتأملها وضيع ، وعرضها عسير ، والاتجاه فيها مخل بالشرف ، وعددها غير قابل للإحصاء ، وقيمتها ضئيلة ... وكان ذلك وهمــاً يتجه إلى ملء المدن بمتعقلين متكبرين ومتأملين غير مفيدين ، وملء القرى بطغاة صغار جاهلين عاطلين مترفعين» . وإذا كان حقــاً أن الفنون العقلية تفوق الفنون الآلية بسبب العمل العقلي الذي تتطلبه الأولى . وبسبب صعوبة الإجادة فيها ، فإن من الحق أيضــاً أن الثانية تفوقها بسبب فائدتها . وأن أولئك الذين نحن مدينون لهم بإتقان الساعات . هم متساوون في الاحترام مع الذين أدخلوا الكمال في علم الجبر» . أو هي تقول أيضــاً في قوة أعظم : «ضعوا في إحدى كفتي الميزان ، الفوائد الواقعية لأسمى العلوم ، وأشرف الفنون ، وفي الكفة الأخرى ، فوائد الفنون الآلية ، فإنكم ستجدون أن الاعتبار الذي قدم إلى الأولى والذي قدم إلى الثانية ، لم يكن قد وزع حسب علائق كل منهما بفوائده ، وأنه قد أثنى على الرجال الذين انشغلوا بدفعنا إلى الاعتقاد بأننا سعداء ، أكثر من الرجال الذين انشغلوا بتحقيق أن نكون سعداء في الواقع» .

وإذن فالرغبة في أن يكون المرء سعيداً ، وفي أن يكون سعيداً على الفور كانت تعود تحت هذه الصورة ، وتعود دائمــاً فيقال مثلاً : إن الشرف هو لمن يساهمون في تحقيق السعادة الأرضية . وإن أداة السعادة ستكون هي التقدم المادي ، وإن التجربة تتطلب نقل درجات التشريف التي كانت تتجه من النظر

إلى العمل، أو من التفكير إلى الفعل، أو من المخ إلى اليد، وعندما كان ديديرو يناصر الفنون الآلية، كان وفياً لمذهبه، وللفكر التي كان يقتسمها مع إخوانه، ولروح فلسفة العصر.

* * *

مما لا ريب فيه أن دائرة المعارف لها عيوب كثيرة تُرى بهيئة أفضل، من يوم إلى يوم، فمنذ البدء كان خصومها يتهمونها بأنها أجرت استعارات واسعة غير معترف بها من الكتب السابقة التي كانت تستعمل فيها المقص وكانت تلك التهمة حقيقية. وكانوا يتهمونها أيضاً بأنها أفلتت كثيراً من الأخطاء، وبضع حماقات، ولم يكن ذلك باطلاً، لأن المتعاونين فيها كانوا من كل نوع، فهناك بعض العباقرة كان وعدهم بالمعاونة أيسر من إنجازهم ذلك الوعد، وكثير من الكتاب الخاملين كانوا يمنحون مايستطيعون، لكنهم لم يكونوا يستطيعون شيئاً ذا بال. ومن هذا نشأ تباين جلي في درجات المقالات. وهناك تباين أيضاً في المذهب الذي هو غالباً متناقض. وفوق ذلك فإن ديديرو ـ وكان ملهماً جديراً بالإعجاب ـ لم يحسن دائماً مهنته كسكرتير للتحرير، وكان ينبغي له صبر طويل، وقد أفلتت منه تكرارات، ولم يلحظ بعض الثغرات.

على أنه بقدر ما كان العمل يتقدم، لم يكن هو الذي يحتمل العبء. وإنما كان هو إيلي دي چوكور. وكان چوكور ينشغل بتحقيق وحدة المذهب أقل من انشغاله بدفع العمل خلال جميع العقبات، وبتقديمه مخطوطات إلى الطابع الذي كان يستحث عليها.

ولكن لنكتف بإيجاز قائمة النقائص، ولنتجه إلى الجوهري ولنحكم على الموسوعيين، فالقاموس الجيد مثلاً يجب أن يغير الطريقة العامة للتفكير، فهل غيروها؟.

لا ريب أن مقال كذا أو كذا هو أورثوذكسي تماماً. وعندما يقرؤه المرء يميل إلى أن يقول ما كتبه الأب الإيطالي زيوررزي في سنة ١٧٧٩ فقال:

«أما أنا فإني بعيد عن رأي أولئك الذين يعتبرون الموسوعيين جمعية من الكفار، بل إنني أنصح لهم بأن يقرؤوا المقال الذي عنوانه «المسيحية» وبضع مقالات أخر من نفس النوع، فإنهم سوف لا يجدون الدين فيها محترماً فحسب، بل مدافعاً عنه في قوة» ولكن لو تعمق الناس في الاختبار لغيروا آراءهم. نعم إن المقالات التي كانت للسلطة الكنسية الحق في الاشتباه فيها، ليست ضارة، غير أنه بين المقالات الأخر يوجد ـ بطريقة أو بأخرى، وبوساطة نمو قصير، بل بوساطة العدول عن التصريح ـ قليل ذلك الذي لا تبدو فيه روح العداء للمذاهب المتلقاة، وللسلطة وللاعتقادات، وإذن فبدل القبول والتسجيل. نرى أن هذا القاموس يعرض عدداً من الشكوك والتمردات. وذلك هو التغيير الأول.

أما التغيير الثاني فهو رئيسي، ففي الواقع أن هذا القاموس هو الذي يلائم «مدينة الأناسي» لأنه ساهم بنصيبه في إحلال الشعور بالمجتمع محل الشعور بالإله. ولكن ليس معنى هذا أن العلوم الاجتماعية التي كانت إذ ذاك تبحث عن صورها، قد وجدت فيه نموها التام لأن الفكرة التي تقررت حقيتها، وهي فكرة أنه، للدراسة الإنسانية، لا ينبغي الصدور عن الفرد، بل عن الجماعة، لم تخطر له. وفي سنة ١٧٦٧ فقط. سيعلن آدم فيرجوسون في مؤلفه الذي عنوانه«محاولة في تاريخ المجتمع المدني» أن كل الشهادات التي نمتلكها ـ منذ أقدم العصور إلى أحدثها، والمجموعة من كل أجزاء الأرض ـ لا تمثل ألبتة الإنسانية إلا تحت صور طوائف وجماعات. ومن هذا الواقع وحده، ينبغي الاستلهام، بحيث إن فيرجوسون ممكن أن ينظر إليه على أنه مؤسس علم الاجتماع الحديث.

غير أن دائرة المعارف، على الأقل قد أنشأت ميزانية العلوم الاجتماعية التي كانت في حالة تكوين، لأنها استخلصت روح تلك العلوم، ورسمت خطوطها العريضة، وبالإجمال إن علم الإنسان بالمعنى الحديث لهذه الكلمة لم يتم فيها ولكنه أعد فيها.

هل ينبغي إضافة تأثير أكثر سرية؟ وهل كانت دائرة المعارف مشروعاً ماسونياً؟ حقاً إن الماسونية كانت تنتوي الشروع في نشر قاموس لكل الفنون

العقلية، وجميع العلوم المفيدة، وقد أعلن ذلك رمسيه الأستاذ الأعظم للجماعة على التحديد في خطبة ألقاها في ٣١ مارس من سنة ١٧٣٧ قال فيها: «لقد بدئ المؤلف فعلاً في لندن [1]، ولكنه ـ بوساطة اجتماع إخواننا ـ يمكن إيصاله إلى كماله في قليل من السنين. وسوف لا تشرح فيه الكلمة الفنية واشتقاقها فحسب، بل سيقدم فيه أيضاً تاريخ العلم والفن ومبادئه العظمى. ومنهج العمل فيه. وبهذه الطريقة ستجمع أنوار جميع الأمم في مؤلف واحد...»

ويروى لنا أيضاً چانسو مربي الكونت دي روس أنه في سنة ١٧٤١ قد حدثه رامسيه عن برنامج اشتراك بعشرة جنيهات عن كل شخص، قد عرض على جميع ماسوني أوروبا، وكانت حصيلته ستستعمل في طبع قاموس عالمي بالفرنسية، وكان يجب أن يشمل الفنون العقلية الأربعة، كما يشمل العلوم التاريخية، ولكن الشهادة المحددة التي كانت ستسمح لنا بأن نحول هذه الإمكانات إلى يقين، لا تزال تنقصنا.

ومهما يكن من الأمر فقد كانت دائرة المعارف تعمل، وكان كتاب كثيرون يحاربونها، وقد حظرت تداولها الكنيسة إذ أعلنت أنها قد أدانت «المؤلَّف الذي هو في عدة مجلدات، والذي عنوانه دائرة المعارف» "Spissum opus in plures to-mos cujus est titulus Encyclopédie" ولقد كان القضاء على ذلك المؤلف هو في جميع صوره، وفي كل مكان يمكن أن يظهر فيه، لأنه كان يحتوي على مذهب وعروض زائفة مضرة فاضحة، تقتاد إلى عدم الإيمان بالدين، وإلى احتقاره.

غير أنه في توسكانا، قد أعيد طبعه مرتين في لوك، ثم في ليڤورنا حيث ظفر بأن يكون تحت رعاية الدوق العظيم پيير ليوبول. وكان ذلك عملاً بديعاً للمكتبات مثمراً إلى حد أنه نشأت عنه مشروعات أخر، وأنه أثار «تخمراً طباعياً». فطبع في چينيڤ أيضاً. وفي بيرن، وفي لوزان، وفي ايڤيردون، ومنذ سنة ١٧٨٢، أجرى پانكوك عليه تعديلاً تحت اسم «دائرة المعارف المنهجية» فسطع خلال أوروبا.

---

(١) يرجع تاريخ موسوعة إيفراهيم شامبيرس إلى سنة ١٧٢٨، وكان شامبيرس ماسونياً.

# الفصل الثامن

# الفِكْرُ والآداب

رأينا أعظم التغيرات التي عناها الأدب فقد صار ميداناً لمعركة الفكر، ولكن «مدينة الأناسي» قد أرادت أن تكون جميلة أيضاً، فمن أي نوع كان الجمال الذي أحبته؟

## الكلاسيكية الزائفة

ليس الإنسان حديثاً تماماً بالقدر الذي يود أن يكونه، وتلك حقيقة لم يعترف بها القرن الثامن عشر، ولكنه قاسى نتيجتها. وعندما وازن بين نفسه وسالفه القرن السابع عشر، شعر بعاطفة مركبة من شيء من الحسد وقليل من الاحترام. حقاً إنه كان يقول عن نفسه، إنه أعظم منه في الفكر والعلوم، ولكنه ـ فيما يتعلق بكل ما هو أدب وفن ـ كان يعترف بأنه لم ينجح في مساواته. ولقد كان يبسط كل ما لديه من أسباب لكراهة لويس الرابع عشر، وعندما كان ينتهي من ذلك، كان يعترف بأن تمثال لويس الرابع عشر قد ظل قائماً، ومحوطاً بعدد من التماثيل الأخر، أي تماثيل العبقريات التي كانت تعيش في عصره، وإذن فقد ناء بعبء ثقيل من المحاكاة. وخضع للقواعد مع مناقشته إياها ومعاناته في احتمالها. وكان يتقيد بالأنواع المقررة، وكان يريد أن يجد أنواعاً أخر، ولكنه لم يكن يجد، فكان الكل يريدون أن يؤلفوا خرافات كما فعل لا فونتين. ومن أمثلة هؤلاء إيريارت، وسامانيجو، وجيه، وچيلير. وكان الكل يودون أن ينشئوا الحوار بين الموتى، كما

فعل فونتينيل وفينيلون. ومن أمثلة هولاء جوزي وفريديريك الثاني، بين كثيرين آخرين. وكان الكل يرغبون في أن يودعوا قصائدهم حماساً مقدراً كما فعل بوالو، وهذا هو ما كان جوتشيد يوصي به الشعراء الألمانيين. وكان الكل يتسابقون في الظفر بمجد الشعر الحماسي. ومن أمثلة هذا النوع «هانريكيدا» تأليف اكساڤيه دي مينيسيس، و«الاستيلاء على غرناطة» تأليف موراتين، و«وهيرمان» أو «هينريك دير ڤوجلير» تأليف أوتوڤون شونيك، ومنتجات كثيرة أخرى في جميع البلاد. وكان ڤولتير هو الذي قدم المثل لهذا في مؤلّفه «الجماعة أو هانرى الأكبر»منذ سنة ١٧٢٣ إذ يقول:

«إنني أمجد المعارك وذلك الملك الكريم الذي أكره الفرنسيين على أن يصيروا سعداء، والذي بدد شمل الجماعة، وأفزع إسپانيا، والذي كان إزاء رعاياه بمثابة الغالب والوالد، والذي - في باريس الخاضعة - جعل قوانينه محبوبة، والذي كان موضوع حب العالم، ومثل الملوك.

أيتها الملهمة قصي علي، أي مقت عنيد ذلك الذي سلّح، ضد هانري، فرنسا الثائرة، وكيف أن أجدادنا - ساعين إلى حتفهم - قد فضلوا الطغاة على أعدل الملوك ...».

لقد صفق إذ ذاك لڤولتير لأن الشعر الحماسي الذي ظل صامتاً زمناً طويلاً، قد عثر على صوته من جديد بوساطة أهلية هذا الفرنسي الذي كان الجميع معتزين به[١].

وكم من المؤلفين الهزليين قد حاولوا أن ينازعوا موليير أو - إذا كانت هذه المحاولة مفرطة في الخطر - كم أولئك الذين قد اكتفوا بمحاكاته! ومن أمثلة ذلك «الفخور» تأليف ديتوش و«الخبيث» تأليف جريسيه، ينحدران من «عدو الإنسانية» و«البخيل» اللذين كانا أبوين لذينك الوارثين الشاحبين.

وهناك مؤلف آخر، وهو لبيرج، كان أمامه نماذج محلية كافية، وكان لديه هو

(١) Journal des savants1724,p.246.

نفسه موهبة كافية لتأليف مهازل مبتدعة، وكانت تلك المهازل ستكون أيضاً أكثر ابتداعاً، لو أنه لم يتجه نحو پلوت وموليير، ولو أنه لم يحسن مخالفة قاعدة الوحدات

في الحق أن المقبرة الأشد ازدحاماً من بين المقابر التي سيرقد فيها كثير من موتى المنتجات إلى الأبد، هي مقبرة المآسي التي اشتهرت كمأساة «زهير» لڤولتير، والتي قاومت بضعة أمسية، والتي ظفرت في مرة واحدة بالصفير وتاج الشهداء[1]. ولا جرم أن تلك المآسي، لم يعد لها من ذكريات على قبورها، سوى أسماء نسيت، كأن يكتب على تلك القبور مثلاً: هنا يستريح «كوسرويس» وهنا يستريح «أريستومين»، وهنا يستريح «بريزيئيس»، وهنا يستريح «أودوكس»، وهنا يستريح «زاروكما».

وجد كثير من المآسي، والماسي الهزلية إلى حد أنها كانت كافية لتأليف قاموس عنها في سنة ١٧٦١ ولقد نظمت أوروبا مسابقة عامة للمأساة واقترحت شخصية «كاتون» الروماني الشهير كموضوع لها، ثم استأنفت ذلك عارضة شخصية «ميروپ»[2]. وفي هذه المرة كان الذي ظفر بالجائزة الأولى إيطالي يدعى شيبيون مافي، أو على الأقل هذا هو الذي حكم به مواطنوه عندما مثلت المسرحية في مودينا في ١١ يونيو من سنة ١٧١٣، فكانوا يعتزون بأن يجدوا فيه مأساوياً كلاسيكياً بالمعنى الكامل. وفوق ذلك فإن مواطنه لويچي ريكوبوني كان رئيساً شهيراً لجماعة من الهزليين كانت تتكون مؤلفاتهم من الأهواء والضحك والمزاح. ومع هذا فإنه في الوقت ذاته كان يولول لأن المسرح الإيطالي، لم يكن قد تكون إلى الحد الكافي.

---

(١) من مأثورات المسيحية أن المؤمن الذي يقتل في سبيل دينه يظفر بتاج الشهداء على أثر استشهاده، وقد أراد المؤلف أن يشير هنا إلى أن المآسي الرديئة كانت ترزأ في الليلة الأولى بصفير الجماهير، والموت العنيف الذي يشبه موت الشهداء. (المترجم).

(٢) ميروپ هي في الأساطير الهيلينية ملكة ماسينيا وزوجة الملك كريسفونت. (المترجم).

كان الناس في خارج فرنسا يطلقون هذه الصيحة الساذجة وهي : أن كورنى، وراسين قد تقدمهما غيرهما، وفي فرنسا كانوا يقولون إن القدماء قد فاقهم المحدثون. ولكن هل كانوا يعتقدون ذلك؟

مما لا ريب فيه أنهم كانوا يقبلون شروط النوع الأدبي على حالتها التي صيغت عليها متخيلين أن بضعة تغيرات خفيفة ـ كالإقلال من الحب أو الإكثار من الألوان في المأساة، أو اتخاذ موضوعات مستعارة من كل عصور التاريخ ـ كانت ستسمح بإدراك الكمال. ولما كان المؤلفون لم يعودوا يكتفون بإنضاج بعض المنتجات المنتقاة، ولما كان القلم قد جعل يجري على الورق بسرعة معروفة في الماضي، ولما كانوا يطبعون مجلداً إثر مجلد، ولما كانت الحمى قد حلت محل الهدوء العظيم الذي كان سابقاً، فإنه كانت تنشأ وتفنى مئات من الكتب التي لم تكن تساوي قيمة التجليد الذي جملت به. ولقد كان ذلك بحيث يشعر المرء أنه مدفوع إلى ألا يسجل سوى خطأ طويل، وانحطاط ضخم، حين يلاحظ هذا الاستمرار للماضي.

وإذن فقد كانت هناك جرأة، ولكن عندما كان أحد يلم بالأدب الخالص كان هناك الحياء.

ومع ذلك فلو أن المرء وقف عند هذه الفكرة، لكان مخطئاً، لأن بقاء الكلاسيكية لم يأت فقط من القوة المحتومة للنماذج الشهيرة، ومن سطوع هالاتهم، ومن كسل الناس الذين يميلون إلى استئناف ما قد يكون قد نجح مرة، ولكنه يتضمن منطقاً، واتفاقاً وقبولاً. وهو نتيجة للنظام الذي كان العقل يستكشفه في كل مخلوق.

وكان يجب أن توجد روح عقلية للأدب كما كانت توجد روح للقوانين[1]. وكانت الكلاسيكية تمثل العلائق الضرورية التي تنبثق من طبيعة الأنواع. وكانت الأنواع في طريقتهم هي الترتيب التصاعدي الذي فرضته السلسلة العظمى

(١) Uz, die Gluckseligkeit, ouvraçe cité

للكائنات. وقد بقيت الفلسفة في هذه النقطة وفية للكلاسيكية، لأنهما كلتيهما كانتا عدوتين للشطط.

ومن جهة أخرى إذا كانت الكلاسيكية، بإنتاجها في فرنسا خير ثمارها، قد أصبحت لا تنتج سوى ثمار لا طعم لها، فإن الأمر لم يكن كذلك في الحقول الأخرى بأوروبا. ولا جرم أن قائمة مؤلفات الفنون الشعرية المؤثرة التي تردد الجوهري من كتاب «الفن الشعري» لبوالو، مع متنوعات ليست بلا أهمية كان تسويغها سيسوء لو لم يفترض فيها بعض النفع. وهاك أمثلة منها:

في سنة ١٧١١ كتاب «محاولة على فن النقد» تأليف پوپ.

وهو يعلن أن «القواعد لا تزال هي الطبيعية ولكن الطبيعة بعد أن صارت منهجاً» ولا ريب أن إنتاج پوپ نفسه، قد أتى فأثبت أن هذه العبارة لم تكن قاحلة.

وسنة ١٧٢٩ كتاب «محاولة نقد الشعر»، تأليف كريستوف جوتشيد.

وجوتشيد هو أقل سلطاناً في الأدب، ولا يمكن الدفاع عنه ـ بوساطة الميزة الذاتية لمؤلفاته ـ إلا بصعوبة. غير أنه إذا كان متحذلقاً ومعتزاً بأنه لا يرى سوى ناحية معينة [1]، ويتشدد في أن يعرض على ألمانيا نماذج المسرح الفرنسي التي لم تكن قد صنعت لها، وإذا كان خطراً لو اتبعه الناس إلى النهايةفإنه لم يكن أقل حقاً من ذلك أنه قد تجاوب مع حاجة العصر، لأنه طلب نظاماً معيناً، ولأن إجباريته هذه كانت إعداداً للتفتح.

وفي سنة ١٧٣٧، كتاب «البويطيقا» أو «الشعر» تأليف إينيازيو دي لوزان.

ولا تزال في هذا الكتاب إغريقا وروما، ولا تزال فيه أيضاً إيطاليا الكلاسيكية، ولا تزال فيه كذلك فرنسا بوالو، أي أنه لا تزال فيه القواعد.

---

(١) إن عبارة المؤلف هنا هي «كان معتزاً بحمل الأوبير "Oeillères" وهي مجموعة جلدتين توضعان على الجانبين الخارجيين من عيني جواد المركبة لكي لا ينظر إلا أمامه. ويرمز المؤلف بهذه العبارة إلى أن جوتشيد كان معتزاً بألا ينظر في سيره الأدبي إلا ناحية فرنسا دون أي اعتبار لغيرها. (المترجم)

ولكنه اشتمل أيضاً على الكفاح ضد عيوب الأدب الذي صار كله ألفاظاً وضد سوء الذوق والبهرج، وكان بمثابة إعادة سبك ضروري لتخليص العبقرية الإسپانية من خبائثها.

ولقد شعرت البورتغال بتأخرها عن الحركة العامة للفكر. ولكنها لم تجد ـ كدواء من الخور الذي كانت تتألم منه ـ سوى اتباع تقاليدها الخاصة التي كانت قد تلاشت، أو محاكاة الشعر الأركادي الإيطالي، وهذا الأخير قد نشأ من الرغبة في إحياء الشعر بنقله إلى وسط الطبيعة لانتزاعه من المنتديات، ولكنه لم يلبث أن انحط إلى تصوير أحاسيس الرعاة المفرطة في التباكي، ففي سنة ١٧٤٦ ظهر كتاب «المنهج الحقيقي للدراسة» تأليف لويس أنتونيو ڤيرنيه الذي اقترح على مواطنيه منهجاً لدراسة أفضل، وتفكير أفضل.

وفي سنة ١٧٤٨ ظهر «الفن الشعري» لفرانسيسكو چوزيه فرير، ومعنى ذلك أن قوة كلاسيكية لم تكن بعد قد نفذت في البورتغال.

ولا ريب أنه يكون من دلائل التسرع، أن يرى المرء في هذا المجهود المتواصل، مجرد حالة من حالات العدوى العقلية، بل على الضد، يحسب المرء أنه يسمع نداءاً يأتي على التعاقب من البلاد التي لم تكن الكلاسيكية قد عملت فيها عملها بعد، والتي كانت تطلب تدخلها. وهكذا صار وجودها على التدرج تاماً، ومانعاً من وجود غيرها، وانقطعت عن أن تكون مبدأ للحرية العقلية لكي تصير ضرباً من التسرع. وإذ ذاك مر كل شيء كما لو كانت قد أمعنت في غزوها، وكما لو كانت قد أعدت رد فعل بسبب الإفراط في سيادتها، وكما لو كانت لم تترك للعقول وسيلة أخرى غير ثورة أدبية، وكما لو كان «عصر الأنوار» قد أنشأ الحركة التي تدعى «هجوم وعاصفة» "Sturm and Drang" (١).

---

(١) معناها الهجوم والعاصفة وقد أطلقت على الحركة الأدبية التي تدعى بحركة ما قبل الرومانتيكية في ألمانيا. (المترجم)

تلك كانت حقبة لم توجد فيها عاصمة بل مدينة كبيرة من مدن الأقاليم لم تكن تريد أن يكون لديها مجمعها الخاص، بل إن انجلترا نفسها كانت تفكر أحياناً أنه يجب عليها أن تضع أربعين مقعداً تحت قبة[1] . وتلك كانت حقبة ، أعيد فيها النظر في اللغة ، والقواعد النحوية ، والإملاء قصد تجديدها ، حقبة ظهر فيها ـ إلى جانب النقد الفلسفي ـ نقد أدبي لم يلبث أن صار إحدى قوى الوقت . وكان الناس في أكثر الأحايين يحتجون على قسوته لأنه في ذلك العهد ، كان أول أحمق ، قادم ، أو أول شاعر فاشل يعطي نفسه الحق في أن يتحدث بصوت عال ، وأن يصدر أحكاماً جائرة ، وأن يهاجم مشاهير المؤلفين ، وكان أقل هؤلاء كفاية أكثرهم لذعاً ! ومع ذلك فإن تلك الشكايات لم تكن تتجه إلا إلى أن تطلب كرامة أعظم للنقد ، وأن يعترف له بطابع فني لا يكون أخفض من طابع الابتكار ، إذ أنه بوساطة النقد ـ إذا حسنت مزاولته ـ كان المرء يستطيع أن يصير متساوياً في الشهرة مع الخطيب والشاعر والفاجعي . وأياً ما كان فقد نشأ إذ ذاك بضعة من أعاظم النقاد الذين وجدوا ، كپوپ ، وفولتير ، وليسينج . وإذا كان حقاً أن هؤلاء الأخيرين قد ظفروا ببقاء ألقاب أخرى ، فإنه قد وجد إلى جانبهم نقاد بحت ، وكتاب قد زاولوا قضاءهم في النقد إلى حد أن مضوا إلى الخلود ، وهاك مثلين منهم .

إختار چيوزيپو باريتي ، إمضاءاً مستعاراً هو «أريستاركو إسكانابو» ومعناه أريستارك[2] ذابح الثور . وقد اختار لصحيفته النقدية عنوان «السوط الأدبي» . ولطالما ألهب بسوطه هذا ظهور أردياء الكتاب عندما عاد إلى إيطاليا بعد إقامته

(١) يريد المؤلف أن يقول إن انجلترا تفكر في محاكاة فرنسا في إقامة قاعة ذات قبة ، وشغلها بأربعين مقعداً لأعضاء مجمعها اللغوي الذي كانت تتوق إلى إنشائه ، وتحلم بأن تراه على غرار مجمع فرنسا ، ليكون لها مثلها علماء تطلق عليهم اسم الخالدين . (المترجم)

(٢) أريستارك هو أحد أعلام النقاد في العصر الإسكندري في القرن الثاني قبل المسيح . وقد صار اسمه في المحيط الأدبي الحديث علماً على الناقد القاسي ، ولكنه في الوقت ذاته عادل ومستنير . (المترجم)

الطويلة في انجلترا! وقد أعلن الحرب على الشعر الأركادي[1]، وعلى الأثريين الذين لم يكونوا يهتمون إلا بالموتى، وعلى المغرورين الذين ـ إذ حسبوا أنهم يجعلون كتبهم التافهة تمر على وجه أفضل ـ كانوا يزينونها بإهداءات فخمة، وعلى مؤلفي القصائد الكبرى في الموضوعات الضئيلة، وعلى منشئي المقطوعات. وكان هؤلاء يعتبرون أن أربعة عشر بيتاً، هي مفرطة في الكثرة بالنسبة إلى ما عندهم. ولا ريب أن الطبيعي والتلقائي هما اللذان كان يريدهما في الفكر كما في الأسلوب، وأن الفطرة السليمة، هي التي كانت مبدأ أحكامه. ولما كان حاداً، محباً لضوضاء المعركة، فقد كان قليل الاهتمام بأن يتلقى الضربات، على شريطة أن يعطي منها، وكان يمثل النقد الخالي من الرحمة. ولو أنه كان يكتفي بأن يكون في عداد موردي أوبرا لندن، وبأن يعطي دروساً في اللغة الإيطالية، لسيدات الطبقة العالية الإنجليزية، بل بأن يكتب ذلك القاموس الإيطالي الإنجليزي الذي ظل مستعملاً زمناً طويلاً، لنال منزلة متواضعة بين المؤلفين الذين كانوا يحاولون الصعود إلى البارناس[2] إذا جارينا الخيال الذي كان ذا حظوة خاصة في عصره، ولكنه إذ يرفع ساعده بسوطه، يخترق جمهور الكتاب، ويوجد لنفسه مكاناً ممتازاً على مقربة من أبولون[3].

رسم المصور رينولس صورة صمويل چونسون للأجيال المقبلة فقال:

«إنه كان عريض ما بين المنكبين، ذا عنق مدفون بين كتفيه، ووجه سميك، وذقن مليئة، وجبهة ضيقة متغضنة، وشفتين صفيقتين، ونظرات مستجوبة وعابسة، ومظهر جدي مُرَكَّز وفيه قليل من المرارة[4]...»

---

(١) انظر إشارة المؤلف إلى هذه الكلمة، وتعليقنا عليها في موضعها من هوامش هذا الكتاب. (المترجم)

(٢، ٣) إن البارناس هو الجبل الذي يقيم فوقه أبولون، وهو في الأساطير الهيلينية إله الأدب والفن وهو يقيم فوق ذلك الجبل تحوطه عرائس الإلهام التسع. ولذا كان الأدباء يصفون كل من نجح في نثره أو شعره أو فنه، بأنه قد اتخذ مكاناً إلى جانب أبولون، ولكنه قبل هذا ينبغي أن يبذل جهداً جباراً في صعوده جبل البارناس. (المترجم)

(٢) Louis Cazamian, Histoire de la littérature anglaise,L,8,CH,I, Le classissisme doctrinal:Johnson

يجلس صمويل چونسون إلى مكتبه ليدرس ميلتون، فما عسى أن يكون منهجه؟ إنه يبتدئ بتاريخ حياته على صورة جد متيقظة يتبعها اختبار شديد الضبط لمنتجات المؤلف المختلفة. ثم يستجمع قواه لأن الكتاب العظيم يتطلب عناية عظيمة، وها هو ذا الآن سيختبر «الفردوس المفقود»، الذي يستطيع ـ من بين أعاظم المنتجات ـ أن يطالب بالصف الأول، إذا اعتبر بالنسبة إلى مشروعه، وبالصف الثاني بالنسبة إلى التنفيذ. وفي الواقع إن الشعر الحماسي هو الذي بالاتفاق العام، يستحق أسطع المجد، لأن الشعر هو الفن الذي يجمع السرور إلى الحقيقة، وأن الشعر الحماسي على التحديد، يتصدى لتعليم أهم الحقائق، بألطف الوسائل. وإذن فإن صمويل چونسون يريد، تبعًا لوجدانه، أن يحتفظ بالنسبة بين نقده والأهمية الرفيعة التي نالها «الفردوس المفقود». وإليك مجمل هذا النقد.

يصيب الأب ليبوسو إذ يقول: إن الخليقة تعتبر قبل كل شيء، وإن الخرافة يجب، على الأثر أن تصورها، وهنا ينتصر ميلتون، لأن الخلقية عند الآخرين ليست ألبتة سوى حدث أو نتيجة. بينما أنها عنده مبدأ محرك، ما دام أن مشروعه كان إظهار كيف تصرف الإله بإزاء الإنسان، وكيف أن طابع الدين المسيحي هو كونه متعقلاً، وكيف يجب علينا أن نطيع القانون الإلهي، وأن قصصه الأسطوري قد تناول وجود العالم، وأنه لم يختص بقصة هدم مدينة فحسب أو بالحديث عن تثبيت مستعمرة، أو امبراطورية وأن أشخاص أشهر الملاحم، تبدو شاحبة أمام أشخاصه، وأن الطباع التي صورها جديرة بالإعجاب كطباع أخيار الملائكة وأشرارهم، وطباع الإنسان قبل هويه وبعده. ولا يكاد المرء يجد ما يقوله عن المعقول والعجيب لأن المعقول عند ميلتون هو عجيب، والعجيب معقول.

وكذلك لا يكاد يوجد ما يقال عن الوسائل الصناعية، ما دام أن كل شيء يجري حسب التدخل المباشر من السماء.

يعتنق صمويل چونسون وجهة نظر النقد التقليدي وهو ينطق تبعًا لمظاهره

وهي الأجزاء المؤلّفة، والأهواء والعبارات، ثم يختتم القسم الأول من نقده معلناً رفعة ميلتون.

ومع ذلك فهناك نقد نزيه يجب أيضاً أن يعين الثغرات والنقائص، وإذ ذاك يقيم القسم الثاني من الميزان.

إن برنامج «الفردوس المفقود» يشف عن سوء عدم اشتماله على الأفعال والطباع البشرية، ومن ثم فإن القارئ لا يشعر ألبتة ـ ولو في أعاظم النتائج التي يتصرف فيها الشاعر وهي السرور والفزع ـ بوجود الطبيعة الإنسانية.

وأكثر من ذلك أن الموضوع يتطلب وصف ما يستحيل وصفه، وأن رمز «الخطيئة والموت» يتقدم سيئاً. وفي هذا يقول چونسون: «يخيل إلي أن هذا الرمز الأخرق هو أحد العيوب الأكثر بروزاً في القصيدة».

ويمكن أيضاً أن توجه بضعة مآخذ إلى مسلك القصة، فميلتون متقلب كما لاحظ ذلك أديزون. على أنه كان ينبغي أن يعود أحياناً من السماء إلى الأرض. ولقد أفرط في محاكاة الإيطاليين، وكانت رغبته في أن يتبع أريوست تقوده إلى أن يضع في كتابه، حادثاً في غير موضعه. وهو «فردوس المجانين». وهو لم يتجنب اللعب بالألفاظ، ولا المبهمات. وتلك عيوب يمكن وضعها في الميزان قبالة كمالات جديرة بالإعجاب. ولا ريب أن من يحكم أن كفتي الميزان متعادلتان، يرثى له...

إن هذا المنهج، وإنه لسير هادئ ومؤكد، في طريق رسم مرة واحدة.

يحكم صمويل چونسون على كل كاتب حي أو ميت بنفس المقياس. وجديته تشبه الجدية البابوية، وهو يتبع مبادئ أملاها عليه العقل، ومجموعة من القوانين تحتوي على القواعد الكلاسيكية، وفقهاً مكوناً من أحكام السابقين. وإذا حدث له أن شعر بأن ارتباطه بالقواعد أقل ضيقاً، فسيقول لماذا كان ذلك. ولا

جرم أن العقل أيضاً هو الذي ينصح له بالابتعاد عن كذا أو عن كذا، إنه لعقل أكثر استقلالاً، وأقل استنتاجاً، ولكنه يحذر دائماً من الأخيلة والأحلام والحرارات. وإن واجبه الذي يشتمل على خلقية مثالية، هو إبعاد تلك القوى المعادية. على أنه لا يعرفها إلا عن طريق نتائجها وهو لا يحملها في ذاته، وهو لم يشعر بنفسه قط مضطرباً منها.

وعندما يلم بشكسبير، يصل إلى ذات جوهر الكلاسيكية، وإلى الاهتمام بالحقيقة الأبدية الكونية التي أراد هذا الأخير أن يحوزها. وهاك الجانب الجوهري من نقده.

إن دوام إنتاج ما، مؤسس على ما ثبت له عند الناس من إعزاز. وتلك هي حالة مسرح شكسبير، لأنه هزم الزمان، فإلى أي المحامد هو مدين بهذا الإعزاز؟ ذلك لأن شكسبير قد عرف ـ أكثر من أي شخص آخر ـ أن يعكس المعالم الثابتة للطبيعة البشرية. ومن ثم فإن فاجعته هي المرآة الكاملة للحياة. أجل، لقد قيل إن رومانييه لم يكونوا رومانيين وإن ملوكه لم يكونوا ملوكاً حقيقيين، فإذا كان ما يقولونه حقاً فذلك ليس منقصة، بل هو ميزة لأنه فضل العام على العارض. وهناك مأخذ آخر، يتطلب اعتباراً أكثر، وهو أن شكسبير قد خلط الهزلي بالمأساوي. ولكن أليس ذلك لكي يمثل هنا أيضاً على وجه أفضل، الحياة كما هي؟ حقاً إن له هنات، فهو يبدو أنه يكتب بلا غاية خلقية، وإنشاؤه مهمل، ولا يهتم بالطريقة التي تنتهي إليها مسرحياته، وهو لم يتجنب التأنق، ولا المزاح الفظ، والجينتيلمان في مسرحياته لا يختلفون عن البهلوانات في طرائقهم ولكن هناك نقطة لا يجزم چونسون بأن يدين شكسبير من أجلها، وهي عدم الإذعان لقاعدة الوحدات الثلاث، لأن تلك القاعدة قد وضعت لكي تدنى المسرح من الحياة، ولكن إذا كان شكسبير قد مثل واقعية الحياة بغيرها، فبأي حق يمكن أن يلام.

ولقد كان المسرح إذ ذاك في انجلترا قد جعل بالفعل يقدم إلى النظارة مؤثراً

جديداً، فكانت الرواية تذرف دموعــاً لا ترفــاً، وكان الشعر يحدث انفعالات القلوب وينظم مسرات النظرات. وكان قد انتهى الشعر الباهت السائر على وتيرة واحدة، والقصائد التي تحاكي القدماء، وتتبسط أحداثها في طبيعة صناعية، وكذلكالمأساتان الشهيرتان وهما «بوزيريس» ليونج، و«ماريان» لفانتون، وكافة المآسي المنظمة، إنها كانت ميتة، وميتة وسط التصفيق. وفي نسق التتابع الذي يمضي بنا إلى التقزز مما أحببناه، وإلى اشتهاء خير غير معروف. كان هناك عصر قد جعل يتبين وكان التمرد على الكلاسيكيةقد بدأ. غير أن چونسون كان يقاوم، لأنه كان يمثل مبادئ لم تنمح قط، فلنمنحه نوع العظمة الذي يلتئم مع رئيس قلعة محاصرة يعرف كيف يدافع عن حياته، ولا يسلم نفسه ولنمنحه في البرنامج العام، نوع المنفعة الذي يوجد في العقبات حين تكره المحاصرين على إجادة التحقق من قواهم. ولنمنحه على الأخص، ميزة أنه من جانبه، قد احتفظ بحقوق العقل الأبدي. وأنه جزم بما سيقال دائمــاً، وهو أنه ـ لكي يجيد المرء الكتابة ـ ينبغي له وجود مفردات محددة، وقواعد نحوية متينة، وأنه لا ينبغي للمرء أن يستعبد للنماذج العظمى، ولكن ينبغي أن يفهم ما أنشأ عظمتها، وأن الخلط، وعدم الاتساق ليسا من العلائم الضرورية للموهبة، وأن الأسلوب والروح والنفس تتطلب نظامــاً قاعديــاً.

وأيــاً ما كان فإن وطنه ـ ولو أنه كان قد اتجه نحو آلهة آخرين ـ قد فهمه، فاعترف له بجميل بنائه حجراً حجراً، منذ سنة ١٧٤٧ إلى سنة ١٧٥٥، ذلك «القاموس» الكبير الذي معناه الشرف والوضوح وثبات اللغة المحددة بوساطته، واعترف له كذلك بمنحه المؤلفين الإنجليز الذين اختبرهم، ألقابهم النهائية الدالة على الشرف. وفي حانة «أولد شيشير شيز "old cheshire cheese" ـ وهو يشرب قدحــاً من الجعة أو كوبــاً من النبيذ ـ كان ينطق بالتنبؤات التي كان بوسويل الأمين يجمعها في تقوى. وكان يقول أنه لم يحي عبثــاً، ما دام أنه مهما يكن حكم الإنسانية النهائي في شأنه، قد حاول على الأقل، أن يستحق إحسانها، ما دام أنه

قد عمل على صقل اللغة الإنجليزية إلى نقائها، بل أنه قد أضاف شيئاً إلى رشاقة بنائها، وإلى انسجام إيقاعها، وما دام أنه قد قدم المثل على الاستقامة والشرف. ولقد أقر معاصروه حكمه على نفسه، ولم يكذب هذا الحكم أخلافه. وفي القرن التاسع عشر وضع كارليل، صمويل چونسون، بين الأبطال الممثلين لانجلترا، واليوم أيضاً نحن نحسبه- مستعملين عباراته الخاصة- «في عداد الكتاب الذين خلعوا الحماس على الفضيلة، والثقة على الحقيقة».

## أدب العقل

عرف العقل في تلك الحقبة آونة لذيذة، فلم تكن هناك عقبات في طريق حريته، حيث لا تقاليد ولا احترام ولا سر. وعند إحدى الأسر البشرية[1]، أن القلب هو ملكة جعلت تحرم نفسها منها بعدم استعمالها إياها، وعندها أن الخيال ليس سوى حماس مجنون، ولم يبق إلا العقل أي الماسة النقية، وإلا السرور الأعظم بالتفكير، والتفكير السريع، وإلا البهجة التي يمنحها المرء للاخرين ويمنحها لنفسه عندما يفهمون ويفهم كل شيء.

كان الناس فيما مضى يهدفون إلى شيء من التوازن لم يكن العقل سوى عنصر من عناصره، ثم كفوا بعد ذلك عن أن يكونوا عقليين ما دام أنهم قد صاروا متحمسين للحساسية، وفيما بين هاتين الحقبتين، جعلوا ينفقون بيد مبسوطة، عملة العقل المتلألئة. وبين السماء التي لم يعد أحد يحاول اختراق قبتها، وأعماق اللاشعور الذي رفض الناس أن يسبروا غوره، استقروا في بلد بلا سر، حيث شعروا بأنهم مستريحون، وقد أضاؤوه ليجعلوه أكثر جمالاً.

وكان العقل إذ ذاك يقيم في البلاط، وبوساطته احتفظت خليلات الملوك بسلطتهن عندهم بعد أن سحرنهم وكان يقيم في المدن حيث أغرم به المتوسطون

(١) المراد بهذا التعبير الفريق البشري الذي لا يعنى إلا بالعقل. (المترجم)

أنفسهم فجأة، وقد جعل يجوس خلال الطرقات، وتغلغل في الذوق والفن والأدب الذي صار روحه الخفيفة.

وعلى الرغم من اختلاف الأفراد والأوطان، كان الناس يجدون بين ممثليه معالم القرابة، أي نفس الوضوح، ونفس السهولة، ونفس الدقة. وكان جدهم هو فونتينيل الشيخ الذي كان لا يزال عائشًا، وكان أحد أوائل الأسرة الجديدة هو ماريفو الذي بحث عن التعبير عن عبقريته في جميع الجوانب أي في الصحافة، والرواية العادية، والرواية ذات الأبطال التافهين، وفي الجانب العاطفي، والذي لم يجد هذا التعبير إلا في المسرح، وفي المسرح العقلي. ولقد اختار المحيط الضيق الذي يتجه من الانعطاف الناشئ، إلى الاعتراف المؤكد، ومن الحب الذي يتباطأ في أن يعرف نفسه أو الذي يحاول أن ينكر نفسه، إلى الحب الذي ووفق عليه. وهذا المحيط يكفيه حقًا أنه بين أحد جانبيه والآخر، يضاعف المنعطفات ليسر بأن يجد الخيط [1] بعد أن تظاهر بأنه فقده.

وكما أن الطبيعيين يدرسون إعدادات بطيئة لاستحالات الحيوانات، كذلك هو اكتشف الحركات الدقيقة التي يبدو أنها تبعد الأشخاص عن مصائرهم، بينما هي لا تعدو أنها تقودهم إليها. إنها لعجيبة مهازله التي لا تباغت فيها المفاجآت أحدًا، ما دام أنها لا تعد إلا عن طريق اللباقة التي يعرف أنها تشرح بها. إنها لمهازل بلا أحداث، وبلا تعقيدات تقريبًا. وفيها فرسان، ومركيزات ليس لهم حتى أسماء خاصة، وفيها وُصَفاء ووصيفات، أخذوا أسماءهم من قائمة المهازل القديمة، كفرونتان، وليزيت. وإذ تخلص على هذا النحو من كل ثقل، اقتحم بنجاح هذه الحادثة الوحيدة، وهي وضع شيء من العقل في الحب، فالفتيات

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى الخيط المرشد الذي ورد ذكره في الأساطير الهيلينية وقصته أن البطل تيزيه قد أراد قتل الوحش «المينوتور» وكان يقيم بقصر اللابيرانت في جزيرة كريت، ولكن الأميرة أريان خشيت أن يضل محبوبها في هذا القصر فيهلك، فأرشدته إلى متابعة خيط ثبتته هناك ليسترشد به فينجو. وقد صار ذلك مثلاً يضرب لكل من يتعرض للعقبات ثم يهتدي إلى وسيلة يتخلص بها من مصاعبه ويصل بفضلها إلى مبتغاه. (المترجم)

والفتيان الذين يقومون بالأدوار الأول، والآباء الرحماء، والخدم والخادمات، كل هؤلاء أذكياء حتى بعض الأفظاظ الذين يتظاهرون بأنهم حمق لإيجاد شيء من الاختلاف بين هذا العدد الكبير من العقول الدقيقة، وحتى أرليكان [1] الذي يسلم نفسه لأضاحيك مهنته، ولكنه حين تفلت منه إحدى الهفوات، يظهر في الوقت ذاته، أنه ليس مخدوعاً فيها، وأنه يقوم بتضحية كبيرة، لكي تبدو عليه ملامح الحمق. وحينما لا تكون هناك ريب، ولا حيل ممكنة، وحينما تصير العواطف جلية، تسدل الستار، وتنتهي المسرحية.

على الضد من ذلك كان جولدوني يقبل وسائل المسرح الصناعية القديمة والجديدة والجيدة والمتوسطة والرديئة، إنه مؤلف يتبع فرقته التمثيلية الجوالة التي بغيرها لا يستطيع أن يعيش، والتي لا تعيش بغيره، ومهمته ثقيلة لأنه ينبغي أن يقدم مهزلة بعد مهزلة، وقد يتفق له مثلاً أن يقدم ست عشرة مهزلة في كارنڤال واحد. وينبغي أن يكون القلم في يده بلا انقطاع لأن الممثلة تنتظر دورها في الغد أو في هذا المساء، إنه يعاني وإنه فقير. وفي كل مساء يتعرض لتلقي صفير الإخفاق. وإذا هوت مسرحية فلا بأس بذلك إذ أن غيرها ستنجح في مرة أخرى.

لا ريب أن هذه الظروف المحدقة به وهي السرعة والارتجال، مختلفة عن الظروف الاعتيادية، إن فرقته لم تعد هي فرقة «المهزلة الإيطالية» المستقرة على أحد مسارح باريس، ولم تعد هي فرقة الكوميدي فرانسيز، وإنما هي مركبة تيسبيس [2] العتيقة التي تذهب من مدينة إلى مدينة. وفي نهاية المطاف تأتي الشيخوخة البائسة ... غير أنه بالرغم من ذلك هو من أسرة المتبصرين، لأنه تلقى من السماء ومن عصره تلك النظرة السريعة الأكيدة التي هي حقاً لا تذهب إلى أعماق القلوب

---

(١) أرليكان هو شخصية نموذجية من شخصيات المهازل الإيطالية. (المترجم)

(٢) تيسبيس هو شاعر هيليني يقال إنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد قبل المسيح ويعزى إليه أنه هو الذي ابتكر فن المآسي في بلاد الهيلين وكان يطوف القرى الإغريقية متجولاً على مركبة تصحبه فرقته ليقوم معها بتمثيل مبتكراته من المآسي البدائية. (المترجم)

ولا تميز فيها أنواع العنف الخليقة بأن تنفجر بغتة في وسط الضحك، ولكنها تنتزع ما يطفو على السطح وتستولي عليه، وذلك أيضاً إنساني.

ولقد كان مثلاً يتنزه في ميدان «بيازيتا» بمدينة البندقية، ويثرثر مع مُسنٍّ من أعضاء مجلس الشيوخ، ويأوي إلى أحد المقاهي، ويقوم بإحدى الزيارات. وحسبه هذا لكي يسجل المعالم المألوفة لرفاقه وأخلاقهم وأهواءهم. وهو ينقل كسبه الذي ناله منذ لحظة إلى مهزلته، ويضعه في موضعه المضبوط ويمنحه القيمة الدقيقة التي تلائمه. ولم تكن نتيجة هذا غير مكترث بها، بل في الغالب كان ينشأ له من ذلك إنتاج رئيسي.

يشبه رامون دي لاكروز قريبه الإسپاني، فلديه نفس الدقة، ونفس البساطة مع شيء من الهجاء أشد لذعاً. وهو في اللوحات الكبرى، يظفر بنتائج سيئة، ولكنه في الصغرى يبدع، إنه أستاذ في وصف الكافة من الشعب، وهو يلاحظ طباع صعاليك شعب مادريد في الطرقات، وفي الميادين، وفي سوق روسترو، أيام الأعياد، والأيام العادية، وهو يرسمها قائلاً: «إنني أكتب والبيع يملى».

وفيلاند! أليس حاذقاً في الذكاء؟ لا جرم أن لديه منه أكثر من اللازم، وهو يرتبط بالأشياء الارتباط الكافي، لأنه يبين في وضوح المميزات والنقائص لكل شيء إلى حد أن صار ارتيابياً. إنه يقتبس من جميع كبار المؤلفين، ولكن دون أن يحتفظ بكسب محقق، إنه يخضع لجميع التأثيرات، ولكنه في كل واحد من تفضيلاته الحائلة يلتقي المرء بأسف على ما كان يستطيع اختياره، ولكنه لم يختره، إذ ليس تلاؤم الفكر هو الذي يعنيه بل اختبارها. وعندما يعرف الطريقة التي صنعت بها تصبح ولا فائدة لها عنده، ويهجرها، بل إن سخريته خفيفة ولا تعتبر جدية تماماً، لأنها لو صارت غضباً، لافترضت عدم فهم ما يسخر منه. وعدم الفهم عنده عيب رئيسي أي هو منقصة الحمق. وإذا كانت رواياته لا تكاد تنتهي، فذلك لأنه هو السائر الذي لا غاية له، والذي يصل إلى مسكنه على أتم ما يمكن تأخراً لكي يضاعف المسرات التي تقدمها إليه إمكانيات الطريق. وإذا كان شعره

سوى نثر ساحر، فذلك لأنه لم يكن بالنسبة إليه سوى لعبة محببة. إن وطنه ليس هو إغريقاً، وإنما هو بالحرى تلك الجماعة الأوروبية التي اتخذت العقل شارة من شارات الالتئام. إنه لم يتغن باسم «الرشيقات» (١و٢) وقد استجبن له بل يوشكن أن يكن، قد أفرطن في الاستجابة.

كانت النكتة زهرة ذلك العصر، وتلك هي الروح الدقيقة التي كانت تتركز في اللذعات، وتنتشر في الهجاء، وتنزلق في الروايات، والتي كان الناس يتنسمونها في كل مكان. كانت النكتة وحدها- ولو لم تكن مصحوبة بموهبة أخرى تكفي لتحقيق الشهرة بل المجد تقريباً، فالأب جالياني السكرتير القصير لسفير نابولي في باريس مثلاً يدخل عند مدام ديبينيه أو عند البارون دولباك- والكل ينتظر مجيئه، فيغوص في مقعد وثير وينتزع شعره المستعار الذي يضايقه ويضعه فوق قبضته ثم يبدأ في الحديث والهياج والإفراط في الحركة، فيقول إن دور الشاعر الذي نشر آنفاً طبعه مصورة من منتجاته، فنجا من الغرق بفضل تعلقه بلوح بعد لوح (٣).

ويقول إنه قد قرأ أفكاراً عن الخطط الحربية للسيد دي سيلڤا الذي يريد أن تطول الحربة، وتقصر البندقية ليحسن الجندي الهجوم، وذلك كما فعل اليسوعيون الذي أطالوا قانون الإيمان، وقصروا الوصايا العشر. ويقول إنه ينبغي وضع الأوبرا الفرنسية في حاجز سيقر بإزاء معارك الثيران، لأن الجلبة

---

(١) الرشيقات هن في الأساطير الهيانية ثلاث إلهات بلغن في السحر أقصاه وفي الفتنة غايتها، ولا يستطيع أي إنسان أن ينجو بقلبه من غرامهن. وتدعى أولاهن «أجلائيه» وثانيتهن «ثاليا» وثالثهن «أوفروزينا». (المترجم)

(٢) Musarion, oder die philosophie der Drazien, 1768.

(٣) لما كانت كلمة «بلانش» تدل في اللغة الفرنسية على اللوح الخشبي، وعلى لوحة التصوير والنقش في الوقت ذاته، فقد تيسر لصاحب هذه النكتة أن يقول إن هذا الشاعر الرديء قد استعان بلوحات الصور التي في ديوانه لينجو من هلكة النقد، كما يستعين الغريق بالألواح الخشبية لوحاً بعد لوح لينجو من الغرق. (المترجم).

الكبرى يجب أن تكون خارج المدينة . ويقول إن المغنية سوفي أرنولديها أجمل ربو سمعه في حياته . وإذ يســـمع الناس ، يأسفون لنقل الأوبرا من القصر الملكي إلى قاعة تويلرى ، لأن هذه الأخيرة صماء ، يقول : ما «أســـعدها» . ويقول إن سفيره غبي وكســـول ، وهذا أفضـــل ، لأنه لو كان غبيًا ونشـــيطًا ، لكان ذلك خطراً وأي خطر ! .

وعندما كان الناس يأخذون عليه غرائبه كان يقول : إنه معتاد أن يوجد في الخطأ إلى حد أنه يشعر بنفسه فيه كالسمك في الماء .

وعنه يقول ديديرو : «دخل الأب جالياني ، فدخل مع هذا الأب الظريف ، المرح والخيال والنكتة والجنون والمزاح وكل ما ينسى مشقة الحياة» .

بيد أن أشهر الممثلين لهذا النوع هو ڤولتير ، وهو ذكي ذكاء جديراً بالإعجاب إلى حد أنه حين لا يفهم ، يكون معنى ذلك أنه لا يريد أن يفهم . ويبدو أنه قد أضاف إلى النكتة ، محمدته الأشد ندرة ، وهي الطبيعة . أما كيف كانت هذه النكتة التي كان ثريًا بها إلى غير قابل للنفاذ ، فقد قال ذاك هو نفسه : «إن ما يدعى بالنكتة هو تشبيه جديد حينًا ، وإشارة دقيقة حينًا آخر ، وهي هنا إساءة استعمال كلمة يقدمها الناس في معنى ، ويدعونها تفهم في معنى آخر ، وهي هناك ، علاقة دقيقة بين فكرتين قليلتي الانتشار ، وهي مجاز غريب ، وهي بحث عما لا يقدمه الشيء بديًا ، ولكن عما هو فيه في الواقع ، إنها فن الجمع بين شيئين متباعدين ، أو تقسيم شيئين يبدو أنهما منضمان ، أو معارضة أحدهما للآخر ، وهي فن عدم تعبير المرء إلا عن نصف فكرته لكي يدعها إلى التنبؤ . وأخيراً كنت سأحدثك عن مختلف الطرائق بإبداء النكتة لو كان لدى عنها أكثر من ذلك» .

لم يكن المعنى الشعري هو الجانب القوي لهذا الأدب ، فهو في الحقيقة كان يتطلب النثر ، وهو في الواقع كان يخلق نثراً جديداً كما يحطم الجملة المصوغة على النظام القديم ، والتي كان يجدها ثقيلة ، حتى عند أسلافهم الذين عرفوا كيف

يستعماونها استعمال المعلم . وكان يستبعد التشبيهات ، والصور والمجازات كما لو كان يريد أن يجرد الفكر عن كل ما لم يكن هو هي ذاتها . وكان يخلص مجموع المفردات من الكلمات غير المؤكدة وغير المضبوطة ، والتي هي موضوع الريبة ، وكان يبتدئ صورة هي على الفور قابلة للمعرفة ببساطتها المثالية ، وطريقة نشيطة هي دائماً مباشرة ودائماً سريعة ، وهي تنبذ المعنى المخالف الناشئ عن إبهام العبارة ، وعن تحميل الأسلوب بما لا يطيق . وكان يتجه إلى غايته السريعة ، وكان أحياناً يلغى الروابط العابثة والتنسيقات الشديدة البطء ، بل العبارات الوساطية التي لا تفيد إلا ذوي العقول السميكة .

كان مجرداً إلى حد أن المرء حين يعجب به كان يعاني مشقة في أن يجد بواعث هذا الإعجاب ، وكان يجب أن يكتفي بأن يردد كلمة إنه كامل . إنه كان الخادم الطيع للفكرة الجلية ، وكان الوسيط الذي لا يخدع ، بل إنه لم يكن وسيطاً إلا لماماً ، طالما أنه كان مطابقاً للروح التحليلية التني كان عصر الفلسفة المحظوظ يطبقها على كل شيء .

في فرنسا صار النثر هو الصفاء ذاته ، بل إنه كان مفرطاً في الصفاء وكان ذلك عيبه إذ كان فيه عيب ، فقد بدأ يفقد الألوان .

وفي ألمانيا كان يتم العمل الذي يجب أن ينتهـــي إلى تركز أســـلوب ليـــسينج وقوته .

وفي إيطاليا كانت الحرب ، فالمجددون لم يكونوا يخشون أن يغيروا جُملهم حسب بدعة باريس وأن يحملوا مفرداتهم بالتعبيرات الخاصة باللغة الفرنسية . والمتزمتون كانوا يستنزلون عقوبة السماء على أولئك الكفار ، ويقينا أن هؤلاء الكفار كانوا مغالين وأن أولئك المتزمتين كانوا مغالين من جانبهم . ولا جرم أنه بوســـاطة مجهوديهم المتناقضين المتضافرين في إيطاليا ، كما في كل أوروبا ، قد نشأ النثر الحديث .

## أدب الابتهاج الاجتماعي

هناك عصور أخرى ستهتم بالفرد فيما لديه مما لا يقبل الاشتراك. أما هذا العصر فإنه يعني بما لديه من المشترك بينه وبين إخوته. وهو يعتقد أن تشابهات بني الإنسان تأتي من الطبيعة، وأن النباتات تأتي من العادة تسطع بوساطة حق السابقية وحده. وإذن فتلك الحقبة تجتهد في دراسة ما يوحد، لا ما يفرق، وتشير إلى المعالم التي كان المصريون والفرس بواسطتها قد دخلوا فعلاً في مجتمعاتنا الراهنة، لا إلى المعالم التي كانت تحتفظ بهم بعيداً عنها، وتشير إلي المعالم التي كان للأوتانتو بوساطتها أحاسيس نفسية كأحاسيسنا لا إلى العلائم الخاصة التي تجعلهم أو تانتو بصورة نوعية.

وهكذا كان توثيق الرابط الاجتماعي إحدى وظائف الأدب. وفي هذا تتحدث أميلي [1] دوقة دي ڤيمار، عن ڤيلاند فتقول: «إنه يبدي فيما يكتبه أن معرفته بالقلب البشري بوجه عام تعظم بقدر ما تضؤل معرفته بتفاصيل القلب البشري والأفراد».

يمكن أن تنطبق هذه الكلمة على كثيرين آخرين عندهم طموح إلى الابتكار فإن لم يكن لديهم قلوب متحدة، فلديهم على الأقل روح عامة.

لم تتخذ عبارة «المكاتبة»، ألبته، معنى عميقاً إلى هذا الحد، فالرسائل هي استمرار المحادثة، وهي التي تحفظ حيويتها. ومؤلفوها يعتقدون أنهم لا يزالون يتحدثون بعيداً عن المنتديات التي ينقلهم إليها حنينهم، وهاك رسالة منها وصلت

---

(١) أميلي هي دوقة ڤيمارو وابنة شقيق فريدبريك الثاني وقد صارت أيما منذ التاسعة عشرة وبقيت وصية على عرش ابنها شارل أوجست سبع عشرة سنة وظل سلطانها قائماً أثناء حكمه وقد كانت حامية للآداب والفنون فاجتلبت إلى بلاطها وإلى جامعة يينا التابعة لدوقيتها أكثر من تحتويهم ألمانيا من كتاب كڤيلاند وهيردرليشت وشيلينج وشيرجوت ومن إليهم. (المترجم).

آنفًا، فشكلت الدائرة في النادي ثم تليت على الحاضرين كما تصور ذلك الرسالة الأخرى التالية: «إن رسالتك ساحرة يا عزيزي الفارس، ولقد نالت إعجاب جميع الذين تلوتها عليهم، وإنني أجدك كما كنت في أجمل أيامك. . . إني استقرأت رسالتك بوساطة دالمبير أمام مدام دو شاتيليه، ومدام دي ميريپوا، فطلب المستمعون استئناف تلاوتها مرتين أو ثلاثًا، ولم يتسطيعوا أن يملّوها، ففي الواقع إنها إنتاج رئيسي» (١).

كانت تعالج جميع الموضوعات، تلك الرسائل التي كانت بساطتها دائمًا جديرة بالإعجاب، فهي لا ترفع الصوت بما فيها ألبتة، لأنها لو كانت تحمل أقل أثرًا من آثار الخطابة لفقدت نتيجتها ولدفعت الناس إلى الابتسام. إنها تروي صغار أحداث اليوم، والتمثيل الأخير في الأوپرا، والمأساة الجديدة، وأخبار الحلول والارتحالات، أو أن مدام پومپادور جد مريضة وأنه يقال إنها ستموت، وأن الملك متحير في شؤونه المالية، وأن هذه ليست هي المرة الأولى.

إنها تصدر أحكامها على الكتب التي تظهر مثل «تقريظ الأب دي پراد» أو مجلدات دائرة المعارف، ورسائل ڤولتير الهجائية، أو روايات ريشار دسون: «باميلا، وكلاريس، وجرانديسون. التي تطلق عليها اسم رسوم الطبقة العالية كما يدركها صاحب مكتبة،: واسم قصص حب كما يستطيع أن يكتبها واعظ من شيعة «الميتوديست» البروتيستانتية(٢).

وهي تعلق على السياسة، وتناقش شؤون الدين. ولكن من يقبض على القلم - فيما عدا بضعة استثناءات- لم يكن ليتحدث عن متاعبه، ولا عن يأسه،

---

(١) Madame du Deffand au Chevalier d'Aydie, 14 jnillet 1755.

(٢) ريشاردسون كان أول الأمر صبي طباع في لوندن ولما نجح في مهنته تزوج ابنة صاحب المطبعة ولم يلبث أن صار تاجر كتب ثريا وكان متطرفا في الميل إلى مهاجمة أخلاق عصره ويخيل إلى من يقرأ كتبه أنه أمام عظة رسمية لواعظ ديني حقيقي ويرمز المؤلف هنا إلى أن رسائل القرن الثامن عشر كانت تشير إلى مهنته كتاجر كتب وعظاته المتطرفة في الأسلوب الديني. (المترجم).

ولا عن شذوذ أحاسيسه النفسية، ولا عن استثنائية طويته، ولا يقول كيف أنه أبأس بني الإنسان، ولا أنه ولد على برج أشد الحظوظ قتوماً، وكيف أنه لا يفهمه أحد، وكيف أنه منعزل في وسط عشيرته، وكيف أنه يقيم في جزيرة غير ممكنة الدنو قضى عليه الحظ بالثواء فيها دائماً، بل على الضد من ذلك توجد محاكاة طبيعية تجمله على ملاءمة من توجه إليه الرزانة وعلى اتخاذ لونه ومزاجه، وإعطائه معلومات، مجنباً إياه عدم الفطنة الممثلة في الأنانية.

كانت هذه الرسائل تصدر عن باريس ولندن وبيرلين وميلانو وروما. ومن هذه المراكز إلى المدن البعيدة التي هي في حدود أوروبا، إنها تثبت شبكة من الخيط تمر منها دورة الفكر ذهاباً وإياباً. وذلك كرسائل مدام دو ديفان التي تحمل روح منتداها إلى أعماق روسيا، ورسائل مدام دي جرافيني، ومدام دي استال، وقد وجد في العالم منذ ذلك الحين جمهور من مثيلات مدام دي سيڤينييه مع قسط أوفر من البساطة، كرسائل فاني بورنيه، ورسائل مدام دي مونتاجو التي ترسل أخبار القسطنطينية والشرق، ورسائل الأب جالياني الذي عاد إلى ناپولي وجعل يضاعف الإشارات نحو باريس، ورسائل هوارس والپول الإنجليزي، ورسائل فريديريك الثاني التي كان من الممكن أن تكون أكثر الرسائل حيوية وأشدها قوة لو لم تكن هناك رسائل ڤولتير. ويمكن أن يقال بلا مغالاة. إن كل كاتب قد ترك إلى جانب إنتاجه، مجموعة من الرسائل هي غالباً متساوية مع ذلك الإنتاج. وأحياناً أسمى منه. حقاً إن الرواية المؤلفة في صورة رسائل، تبدو لنا اليوم صناعية، ولكنهما كانت طبيعية في الوقت الذي لم تكن فيه الرسائل كلفة، بل كانت لذة كل يوم.

هناك لون اخر له الحظوة في تلك الحقبة، وهو الدوريات. وقد كتبت عنها دائرة المعارف، تحت كلمة «الأسبوعي» تقول: «إنه ما كان في كل أسبوع، فمثلاً أخبار أسبوعية، وصحف توزع في كل أسبوع. وكل هذه الأوراق هي غذاء الجهلاء، وهي موئل أولئك الذين يريدون أن يتحدثوا وأن يحكموا بلا قراءة، وهي كارثة من يعملون، وتقززهم. وهي لم تنتج ألبتة، سطراً واحداً لعقل جيد ولم تمنع

مؤلفًا رديئًا من إنشاء كتاب رديء». ولكن ذلك كان حدة عابثة، إذ يمكن وقف الغزو: مادام أنه قد استدعته الحاجة المتزايدة إلى الترابط؟ ففي انجلترا نشاهد أخلاق استيل[1]، وأديسون[2]، قد أنشأوا ثروة في بلادهم الخاصة، لأن أكثر من مائة وخمسين دورية، كانت تقدم إلى حب الاطلاع لدى جماهير القراء من الإنجليز، حين أخرج صمويل جونسون، في سنة ١٧٥٠، صحيفته «الرامبلير». ومن انجلترا، جعلت الصحف الأخلاقية تنتشر في كل مكان حتى اقتحمت البلاد التي وصلت متأخرة إلى الحركة العامة كهونغاريا، پولونيا، ولكن هذه الصحف لم تصادف، في أي مكان، جواً ملائمًا لها إلا في ألمانيا، فمنذ سنة ١٧١٣- حيث ظهرت في هامبورج، أولى تلك السلسلة من الصحف، وكان عنوانها «المعقول» - إلى سنة ١٧٦١ قد أحصى الباحثون ١٨٢ مائة واثنتين وثمانين مجلة من نفس النوع. وكان ذلك أيضًا نوعًا من التراسل بين الناشر والقراء، ورابطًا بين أعضاء الطبقة الواحدة. الذين هم جميعًا يتبادلون التربية فيما بينهم والذين كانوا جميعًا يتدارسون، المجددات العقلية حقًا، وكانوا يتلذذون بالآراء المشتركة عن احتقار الثروات، وعن قيمة الفضيلة، وعن الطريقة اليقينية للحوق بالسعادة. ولما كانت هذه المجلات القومية لم تكف، فإن أخريات دولية، كانت تنشط حركة الفكرة التي صار تبادلها هو الطموح والقانون.

غير أن النوع الصغير لم يلبث أن جعل يحل شيئًا فشيئًا محل النوع الكبير، أي لما لم يعد من المستطاع النجاح في الملاحم، فقد أخذ الشعراء يكتفون بقصار القصائد الإطرائية، وبقطع شعرية صغيرة تحل محل القصائد الطوال. وإذ كان أهل الطبقة العالية قد تعبوا من تمثيل المهازل والمآسي في حفلاتهم، فقد انتبهوا إلى مسرحيات شديدة القصر، أطلقوا عليها، اسم «الأمثال» وقد جعلت الأوپرا تنزل

---

(١) و(٢) استيل وأديسون هما كاتبان انجليزيان ظفرا بالشهرة على الأخص لامتيازهما الصحفي، فقد أسس استيل صحيفة «المهذار» وساهم أديسون في هذه الصحيفة في سنة ١٧٠٩، وفي سنة ١٧١١ خلفت صحيفة «الاسپكتاتور» صحيفة «المهذار»، وصارت أشهر منها وقد كتب فيها أديسون، أشهر مقالاته. (المترجم).

إلى «أوپرا - هزلية» وتحولت الأغاني العظمى إلى أغنيات صغيرة. وكما أن الناس في المباني يفضلون المنازل البسطية على القصور الرحبة المصحوبة بأجنحتها الجليلة، وفي الرسم طفقت اللوحات الصغيرة، تخلف كبريات الصور الناطقة المرسومة على الحوائط. وفي الأثاث، جعلوا يفضلون المقاعد الوثيرة على الكراسي الخشبية الواسعة، وفي ترتيب الحياة، بدأ الجميل يأخذ مكان العظيم، كذلك في الأدب لم يعد الذوق يتجه إلى التشبيهات الرسمية. حقًا قد استمر الجميع يعزون الفكر، ولكنهم كانوا يبدون نوعًا من التدلل في أن تلوح عليهم ملامح أنهم لا يفكرون بهيئة جدية، بل إنه في وقت فوران الفكر أي وقت ظهور «محاولة على الإنسان» ودائرة المعارف، كان هذا التناقض يظهر، أو بالحري، لم يكن ذلك تناقضًا، وإنما كان امتزاجًا غريبًا فُقُدَسرُهُ، حتى لكأنه يقال إنه كان يوجد لدى هذا المؤلف أو ذلك رجلان، أحدهما متصنع ومتعاظم، والأخر كله ابتسام وسهولة، فكان «الجريسيه» مثلاً شخصيتان إحداهما هي التي كانت تؤلف تلك القصيدة الطويلة التي عنوانها «إنكار الجميل» والتي منها ما يلي:

«أية إلهة مرعبة ذات وجه شاحب، تلك التي تنفث السم الأسود في هذه الأمكنة؟ ويدها تقبض على هذا الحديد الذي يقتل الوالدين، والذي شقَّ قلب أجريپين[1]. إن النسيان الذي لايحس، والوقاحة والمقت الكامن، كل هذه تحوط في صمت، ذلك الوحش الماجن، وأيديها البربرية كل واحدة بدورها ستملأ كأسها في الجحيم من ماء نهر «ليتيه»[2] البارد».

والشخصية الأخرى هي التي كانت تؤلف القصيدة التي عنوانها «أخضر-أخضر» والتي منها ما يلي:

«إنني قاهر الغم المذهل، بوساطة استعداد سعيد، وإنني أعرف أن

(١) أجريپين هي والدة الإمبراطور نيرون. ولما طغى ابنها وداس العدالة جعلت تؤنبه في قسوة فلم يسعه إلا أن يأمر بقتلها. (المترجم).

(٢) نهر ليتيه هو في الأساطير الهيلينية نهر في الجحيم يصاب كل من يشربون من مائه بالنسيان. (المترجم).

أصنع لنفسي تسلية هزلية من المشقة التي أرسمها. ومن ثم فإن الشعر المحبب - وهو الذي في بقية جوانب الحياة، يحمل قليلاً من الفائدة- يأتي ليلطف قسوة أقل الموضوعات سروراً ولينقذنا، ولو على الأقل بوساطة الخرافة، من أضجار الحقيقة».

وأكثر من ذلك أن العبقريات نفسها، كانت تتبع البدع إذ كان لمونتيسكيو شخصيتان ألفت إحداهما «روح القوانين» بينما كانت الأخرى تبتدع التنكيت على القوانين.

وكان الناس يشاهدون مناظر غريبة، ومن أمثلة ذلك أن ألمانيا الممزقة قد شعرت بنفسها فأرادت أن يكون لها أدب قومي على غرار الدول الأخرى. ومع ذلك فقد تخرج في جامعة هال التي كانت إحدى قلاع الفكر الألماني، ثلاثة طلاب أصدقاء وهم چوان لودڤيج، وڤيلهيلم جليم، وچوان پيتر أوز، وچوان نيكولوس جوتز الذين كانوا مؤسسي الشعر الغنائي، وأي شعر غنائي ؟ إنه شعر أناكريون، إذ أن هذا الأخير كان أستاذهم، وكانوا يمجدون معه باكوس الملطخ بالثمالة، ويتغنون بالنبيذ والموائد والجميلات والحب.

أما كارل ڤيلهيلم راملير، فقد كان تجسدا للكلاسيكية العقلية، فماذا كان نموذجه؟ إنه هوراس، ولم يكن هناك شيء يسبب له سروراً أشد قوة من أن يدعى هوراس الألماني.

ولقد كانت حالة فريدريك ڤون هاچيدورن أيضًا أكثر إدهاشًا، فقد اقتاد الكلاسيكية إلى أعلى إمكانياتها، فعمل على تنقية اللغة والأسلوب. وعنده أن الابتكار الشعري ليس هو مجهود النفس التي تعلن عن ذاتها للكون، أو التي تستولى على الكون لكي تحصره فيها، ولكنه للعلاقة المعقولة بين الأجزاء والمجموع. إنه وضع نفسه في المدرسة الفرنسية ثم في المدرسة الإنجليزية، وعرف كيف يستفيد من هذا الدرس المزدوج، لأنه ظفر بالمعنى الجلي البسيط المعقول، ولكن هناك معنى لم يظفر به . وهو معنى العمق، والطيش لا يبدو له متنافراً مع

جديته، بل إن لديه للأول حبًا يعترف به، وقد كتب في هذا كريستيان لودڤيج ليسكو في ٨ ديسمبر من سنة ١٧٣٩ يقول: «إن أنوار اللذات هي الوحيدة التي تنقصك والتي بها تكون إنسانًا كاملاً».

كانت هناك إيطاليا جدية وذات إرادة، قد أعدت، بمعونة مفكريها، إصلاحًا اقتصاديًا وإصلاحًا ريفيًا. وفي الوقت ذاته كان هناك شعب من الكافة ينشغل بأن يصنع شعراً بلا قيمة، أو بإنتاجات أخرى تافهة. فالأعراس والموالد والتعميدات، ومناسبات التحاقات الفتيات بالرهبانية، والإمتحان الذي مر في نجاح، والشفاء، وأعياد الميلاد، كان كل ذلك هو الموضوعات الضئيلة التي كانت تستثيرهم للكتابة. ومن ثم فإن البلاد كانت مغمورة بقصائد من جميع الأنواع كـ «إيليچيا» و «كانتات» و «أوديه» و «ســـونيه». ولقد كانت هناك سهولة مؤسفة تحمل العاطلين على اتخاذ الأقلام، وجعل القصائد تسيل منها، فكانوا يتلهون بإنشاء الشعر كما الناس يتلهون في فرنســـا بفك خيوط الأنســـجة أو بمزاولة لعبة «بيلبوكيه». ومن تلك القصائد ما يلي:

«إلى السيد المركيز پيير ماريا ديلا روزا الذي- ولو أن الخريف قد أتى- استمر يعيش في الريف» و «في سبيل مشبك كان يغلق خماراً على صدر نيريه، وقد أخذه ڤيلاند» و «إلى عروس محبوبة من عرائس الغابات كانت ترتدي جونلة وردية وبلوزة زرقاء» و «على كاناريا كريناتيه الجد جميلة» و «على إرسال كلبة صغيرة جميلة إلى السيدة التي يحبها...».

أية موضوعات جميلة! كان الشاعر يقدم قصيدة صغيرة أنشئت في الصباح، كما كانت تقدم علبة نشوق، أو ملبسة، وكان الناس يتبادلون الشعر، كما كانوا يتبادلون المدائح أو التبجيلات. وكانت تلك هي الإشارات الطقوسية لمجتمع كان أعضاؤه يشبهون ممثلين في المسرح بمساحيقهم وأصباغهم، بدخولهم وخروجهم في آنات معينة، وبأجويتهم وأدوارهم. كان الشعراء ذوو الألقاب الذين يتناولون أقواتهم غير المؤكدة والآتية إليهم من مهنهم كمنتسبين إلى البلاط،، والشعراء

الهواة الذين لم يكونوا، لأي سبب في العالم يتنازلون عن أماكنهم الصغيرة في الموكب الذي كان يحاول الصعود إلى الپارناس، والشاعرات أيضاً، كل أولئك كانوا ينظمون. وكانوا يعملون على طبع قصائدهم على ورق جميل أو على حرير بلون الورد، ثم كانوا يجمعون ياسمين، منتجاتهم الرئيسة كـ « دموع على موت هير».

لم يكن مقلدو أناكريون وهوراس في إيطاليا أقل عدداً منهم في ألمانيا. غير أنهم كانوا يتوهمون أنفسهم أقل من أولئك، وأن فروجوني- وهو أحد ممثلي أولئك الشعراء القصيري الأعمار- كان يسائل نفسه قائلاً: «من أنا؟ إنني نظام لا أكثر، ولست شاعراً» - وكان يعرف جيداً أنه حين يموت، سيموت شعره معه في النسيان.

ذلك لأنه كان ينبغي الاستمتاع على الأقل بهذه الحياة الأرضية، وأن اللذة، مهما فرضت واهنة، لم تكن تستحق الازدراء ما دام أنها كانت تجعل الوجود أكثر عذوبة. لأن تلاؤمات عابرة قد دخلت من جانبها في الإيقاع السعيد الذي كان يجب أن يصعد من الأرض، ذلك لأن أناكريون كما يقول جليم- كان يطرد الهموم والذعر و ولأن هوراس- كما يقول هاچيدورن - كان فيلسوفاً محبباً، وأنه أريستيپ [1]، وليس ديوچين» [2] وأنه صديق للإنسانية، ولأنه كان يمثل التنعم واللذة كما يوجه إليه ڤولتير الحديث في غير كلفة، فيقول:

«إنني أكتب إليك اليوم يا هوراس اللذّي، إليك أنت الذي تتنسم التنعم والرشاقة، والذي أبرزت نفسك ليناً في شعرك، ومرحاً في خطبك، والذي تغنيت بأوقات الفراغ الحلوة، وبالنبيذ والحب».

---

(١و٢) أريستيب هو مؤسس المدرسة القورينائية وكان يعيش في القرن الخامس قبل المسيح وكان يبشر بأنه لا توجد سعادة إلا في المسرات الوقتية الناشئة عن أحاسيسنا الراهنة، وبأن الفضيلة هي التنقيب عن المسرات. وأما ديوچين فهو أحد أعلام المدرسة السينيكية وقد عاش في القرن الرابع قبل المسيح وكان يبشر بأن الحرية هي غيبة الرغبات، وأن أحكم الناس هو من كان أقلهم حاجة. (المترجم).

ولأن الحوادث أيضاً عندما تعاظمت، طلبت مكانتها. وأخيراً لأن بضع فكر رئيسية من فكر العصر التي عبر عنها قادته، قد نزلت إلى الجماهير التي كانت تتبعهم، وذلك كفكرة أن السعادة يجب أن تقتنص في جميع صورها، وفكرة أن اللذة هي العنصر الجوهري للسعادة. «ولقد كان الأدب في ذلك العصر، كما يقول السيد لانسون، زخرفاً من زخارف الحياة، وإحدى المتع التي تتكون منها السعادة التي هي غاية طبيعتنا، وكانت اللذة هي القانون الأعلى»(١).

إن أدب اللذة كان يمكن أن يكون قصائد غرامية، وقصصاً خليعة، وروايات داعرة. غير أنه أحياناً كان يصل إلى أن يظفر بالرشاقة. وعندئذ يكون نجاحه الأسمى. ولم تكن تلك رشاقة تلقائية، بريئة جاهلة بسحرها، ولكنها رشاقة عالمة كانت ميزتها أنها رقيقة ودقيقة إلى حد أن سرها قد غاب عنا. إنها كانت لحظة من لحظات الموسيقا ذات الأجنحة، أو رؤية سريعة لنقوش تنتشر، أو انعكاساً على مرآة من الماء.

وصلت هذه الرشاقة إلى حد الانبجاس من مجموعة وسائل ضخمة على نفس النحو الذي ينبغي لجهاز معقد، لكي ينتج البروق واللموع. وفي الواقع أنها كانت جهازاً ضخماً، تلك الأوبرا على الصورة التي وصل بها إليها ميتاستاز (٢) Métastase عندما أبلغها حد كمالها.

لنذكر بديًا أن النَّص الكلامي للمسرحية الغنائية التي هي الأوبرا، هو أشد الأنواع تصنعاً، وهو كما لاحظ ذلك باريتي - خاضع قبل كل شيء، لجميع مطالب الموسيقا. ثم لأهواء المغنين، ثم للقواعد الضيقة التي تطلب أن يكون، في فصل معين، أمكنة لمحاورة ومناجاة غنائيتين، ومناجاة إنشادية، ثم لتضييقات مجموعة المفردات الخاصة التي لا تستطيع احتمال كلمة غير عادية أو التي ينقصها

---

(١) G.Lanson,Voltaire, 1910, oh.4,Le gout de Voltaire.

(٢) ميتاستاز هو شاعر إيطالي ولد في مدينة أسيز في سنة ١٦٩٨. وقد ألف في عالم المسرح مآسي جديرة بالملاحظة، وكان أسلوبه سهلاً يسيراً منسجماً يفهمه كل من يقرؤه، وتعسر محاكاته على ما يحاول تقليده. وقد توفي في سنة ١٧٨٢. (المترجم).

الانسجام. ولنضف إلى ما تقدم، مصاعب أخرى أتت من ميتاستاز نفسه، فقد كان يريد أن يشبه النص الغنائي مأساة، وكان يدافع عنه باسم أرسطو، وكانت الحرية الخفيفة التي استطاع أن يتخذها، مؤسسة كلها على العقل. كل تلك، شروط للمضايقة، ومع ذلك فإن الرشاقة ستنقذ هذه المجموعة من الجفاف. وفي بعض الأحايين تصير جميلة وأخاذة إلى حد أن توجد الانفعال والدموع، وفي هذا يقول استاندال: «إن عبقرية ميتاستاز الرقيقة كانت تحمله على الفرار من كل ما يمكن أن يسبب أقل غم ولو على البعد لنظارته. وقد أبعد عن عينيه كل ما يشتمل عليه غم العواطف من مؤلمات، وليس عنده ألبته نهاية تعسة، وليس لديه ألبته شيء من واقعيات الحياة المحزنة. وليس في مسرحياته تلك الريب الباردة التي تأتي فتسم أعطف الأهواء. ولم يتخذ فيها من الأهواء إلا ما كان ينبغي لجعلها شائقة، وليس فيها شيء مر، ولا وحشي، ولقد صير اللذة نبيلة».

أو تخيل - بوساطة تجربة أخرى - أداة صغيرة وهي بيت ذو ثمانية مقاطع، ونفسًا جافة وهي نفس ڤولتير، وموضوعًا من أكثر الموضوعات عادية، وهو فرار الزمن، والشيخوخة التي تدنو، والموت الذي يصل ليطالب بما وجب له، كل ذلك ستنقذه قوة الرشاقة التي لا يمكن تجنبها، والتي توجد في هذين البيتين:

«إذا كنت تريد أن أحب مرة أخرى، فرد إلى سنّ الحب...».

كما كان ڤيلاند مؤلف كتاب «موزاريون أو فلسفة الإلهات الرشيقات» (١٧٦٨)، كذلك كان أهل تلك الحقبة، إذ كانت الرشاقات في قلوبهم وصورة الحب للرسام كوابيل، أمام عيونهم [١].

(١) Heinse en parlant de wieland. Cité par Victor Michel, wieland, 1938

# أدب الوقائع أو التاريخ

وهنا يوجد أحد أعوص مشروعاتهم وهو تعقب الوقائع في الماضي اللائذ بالفرار، ولا بد أنهم حاولوه ليكملوا تصورهم للعالم. وعندما ينظر المرء إليهم، يرى تحقق ما لا يخشى المؤرخون من أن يدعوه ثورة في فكر الغرب[1]:

ولا جرم أن أولئك الذين كانوا يريدون أن يعيدوا إنشاء التاريخ، لم يكونوا ليلقوا عناء لو أنهم لم يواجهوا إلا الأعداء الخارجيين الذين كانوا كثيرين، ولكنهم قليلو الثبات وهم الخطباء الذين لم يكن التاريخ بالنسبة إليهم سوى سلسلة من الأحداث العجيبة، والأعمال الجديدة الغريبة، والفواجع المتنوعة، كالحروب والتمردات و، الفتن والقضايا وأحداث الحب. ،كان هؤلاء الخطباء يتغلغلون في مكاتب الموتى من الملوك، ويرون مناقشاتهم، ويرددون خطبهم، ويرسمون صورهم. إنه كان «تاريخ – مأساة».

وعلى أثر هؤلاء أتى السطاؤون [2]. كرولان الذي اعترف بأنه – لكي يجمل ويُغنى كتابه «التاريخ القديم» – لم يتردد في السلب من كل مكان بل كان ذلك في الغالب بلا ذكر أسماء المؤلفين الذين ينسخهم، ما دام أنه كان يمنح نفسه الحرية في أن يغير نصوصهم حسبما تسنح الفرص.

أتى بعد ذلك الجرآء – أو قد يكونون هم السذج- الذين واجهوا بلا تردد، التاريخ العام والمدني والطبيعي والسياسي والديني لجميع شعوب العالم، والذين- على الطرف المضاد- كانوا يركزون التاريخ كأنهم يضعونه في حبوب، كالأب بوفييه الذي أثنى على استعمال الذاكرة الصناعية، فمثلا بفضل كلمة «رابيسماف» وحدها كان المرء يتذكر سلسلة جميع ملوك أراجون، بل استقراراتهم وفتوحاتهم

---

(١) Friedrich Meinecke, Die Entstehung dea Historismus, Berlin, 1936

(٢) السطاؤون هم طائفة من أدعياء الكتاب كانوا يسطون على منتجات الغير فينتقون منها ما يحشون به مؤلفاتهم، دون ذكر منتجيها الحقيقيين. (المترجم).

لأنه عندما كانت الإشارات تعطى، كانت الأسماء تأتي من أنفسها، إذ أن «رابيسماف» تُذَكِّر رامير والفونس، وبارسلونا (١١٣٨) وچاك وصقليا (١٢٧٦)، ومارتان والفونس الخامس، وفيردنان الخامس الكاتوليكي.

وهناك مقلدون للأب بوفييه قد وضعوا مثله، تاريخ فرنسا شعراً على النحو التالي:

«إن فرامون، منذ بدء الإمبراطورية الرومانية، قد أسس الدولة «الفرانجية» حوالي سنة ٤٢٠، كان ملكًا وثنيًا، ولكنه عرف بكونه مشرعًا حكيمًا، فأقر القوانين وأبان استعمالها، ولم يدخل هذا المؤسس ألبتة بلاد الجولوا. ولقد منع النساء من أن يخلفن الملوك بوساطة القانون «ساليك»[٢] الذي اتبع دائمًا...».

وهناك مربون آخرون كان لديهم كتب تعليمية ألفت على صورة أسئلة وأجوبة على الطراز التالي:

سؤال - ما هي سجية الملك لويس الحادي عشر؟.

جواب - كان سياسيًا، سيدًا لأهوائه، شجاعًا، معتدلاً في لذائذه، تقيًا في الظاهر، ولكنه سيء الظن، حقود، شديد الاختفاء، وكان ملكًا قويًا مطلقًا وأن الأجيال التي تلت عهده وضعته في عداد الأمراء.

وأخيراً كان هناك مؤلفو قوائم الاصطلاحات والملخصات الزمنية التي كانت ترص بلا مراجعة، أحداثًا موضع ريبة وتاريخ غير يقينية أما المؤرخون الحقيقيون، فلم يكن يوجد منهم أحد.

غير أن أولئك المجددين، كانوا يجدون أعداءهم في داخل أنفسهم. ذلك

---

(١) القانون ساليك هو شريعة وضعها فارامون ملك الفرنجة، وهي تمنع النساء من وراثة العرش وقد كان هذا التشريع منشأ لحرب المائة عام حين طالبت انجلترا بعرش فرنسا باسم وراثة النساء العرش فرفضت فرنسا ذلك استناداً إلى القانون ساليك. (المترجم).

بأنهم كانوا يعرفون جيداً أن صبراً طويلاً كان ضروريًا لهم، ومع ذلك فقد كانوا معجلين، ولم يكونوا يستطيعون الاعتماد إلا على التبحر في العلوم، وكانوا لا يحبون هذا التبحر. وفيما يتعلق بالقراءة والبحث والاستعلام، كانوا على وفاق، ولكن التنقيب في السجلات وجمع المستندات وتحطيم أبواب مستودعات المصادر، إذا لم تنفتح من نفسها، كل ذلك كان يبدو لهم عملا من أعمال التحذلق، وكانوا يمقتون أمثال بالدوس[1] وشيوبيوس[2] وليكسيكوكراسوس واسكريبليروس. وكانوا يميلون إلى الخلط بينهم وبين العلماء الحقيقيين. وفي هذا يقول الأب كواييه: «إننا لم نعد في عصر ڤوسيوس[3] وهويه[4] وكيرشيرس[5] وبورشاردس، وإن التبحر والبحوث الشيقة تتعبنا وإننا نفضل أن نجري في خفة، على سطوح الأشياء، على أن نحصر أنفسنا في الأعماق»[6].

ويروي الرئيس بيبروس أنه حين كان في مدينة مودينا وجدت لديه ساعة من الفراغ فمنحها للمكتبة ولموراتوري «Muratori» العالم الشهير الذي انتزع من الظلام آثار العصور الوسيطة الإيطالية ثم قال: «لقد وجدنا ذلك الشيخ الخير بشعراته الأربع البيض ورأسه الأصلع والذي كان يعمل رغم البرد المفرط، بلا دفء عاري الرأس، في ذلك الرواق المتثلج، في وسط كومة من الآثار، والمحفوظات العتيقة الإيطالية لأني لا أستطيع أن أصمم على أن أمنح اسم الأثر لكل ما يتصل

---

(١) بالدوس هو قنصل روماني كان صديقًا لشيشيرون وقد ألقى لصالحه مرافعة ظلت شهيرة على الزمن. (المترجم)

(٢) شيوبيوس هو عالم لغوي ألماني وكاتب ممتاز بخصوبته ووفرة إنتاجه. (١٥٦٩ - ١٦٤٩). (المترجم)

(٣) ڤوسيوس هو عالم ألماني ولد على مقربة من هيديلبيرج من سنة ١٥٧٧ وتوفي في سنة ١٦٤٩. (المترجم)

(٤) هويه هو عالم متبحر فرنسي ولد في مدينة كان سنة ١٦٣٠. وتوفي في سنة ١٧٢١. (المترجم)

(٥) كيرشيرس هو عالم طبيعي يسوعي ألماني (١٦٠١ - ١٦٨٠). (المترجم)

(٦) Abbé Coyer, Dissertations pour étre lues, 1755

بهذه القرون الدميمة الجاهلة، وإني لأتخيل أن هناك - فيما عدا اللاهوتية الجدلية- شيئًا مثبطًا بمقدار هذه الدراسة »[1].

حقًا إن الرئيس ديبروس كان يوافق على أن قومًا مثل موراتوري يقذفون بأنفسهم في هوة التبحر بفدائية كورسيوس[2] ولكنه لم يكن شغوفًا بمحاكاتهم.

ولا جرم أن مثل هذا البذل يكتبه المرء مع الزمن ويعتاد عليه، ولكنها عملية دقيقة، أن تجرد الوقائع وأن تُنقى وتخلص من كل اختلاط.

بيد أن هناك ميزة لم تكن لتعزى إلى تلك الوقائع، ومع ذلك فقد ربطها بها الباحثون ربطًا محكمًا إلى حد أنها تبدو كأنها من جوهرها، وهي العنصر الأخلاقي. إن التاريخ يجب ألا يكون غير مكترث بالأفعال البشرية، بل ينبغي أن يبرز انهزام الرذيلة، وانتصار الفضيلة، وإن الأخيار ينبغي أن يكافأوا دائمًا، والأشـــرار يجب أن يعاقبوا دائمًا. ذلك هو الذي كان يردده الآباء والأجداد، وإن جيل ما بعد ســـنة ١٧١٥، لم يجحد وراثته، وإنما عدلها فحسب مضيفًا إليها أن الأخلاق- معلمة على هذا النحو - يجب أن تكون فلســـفية، بحيث يحل تسرعها محل التســـرع القديم، وإنه لم يصل إلى الظفر بالبقايـــا الموضوعية التي كان مع ذلك يشتهيها.

وعند ذلك الجيل أن التاريخ، بدلا من توجيه درسه إلى الرعايا، سيوجهه إلى أولئك الفنانين التعساء الذين ندعوهم بالأمراء، وأن هؤلاء الأخيرين مقضى عليهم بألا يروا الأناسي ألبتة إلا تحت القناع. وسيوجهه قطعًا إلى الكنيسة، وسيكون ضد الإكليروس، وضد البابوية. ولما كان هناك وجود مستمر يقض

---

(١) Ch. Des Brosses, Lettres familiéres sur I' Tialie, 53, 1740

(٢) كورسيوس هو شخصية أسطورية رومانية. وتحدثنا الأسطورة أن هزة أرضية في غابر الزمان قد فتحت هوة في ميدان الفوروم. وهو أعظم ميادين روما، وأن الوحي قد أخبر بأن تلك الهوة لا تنسد إلا إذا ألقى فيها بأنفس كنوز روما، ولما كان كورسيوس يعتبر أن قوة روما هي في الأسلحة والشجاعة، فقد ألقى بنفسه وسلاحه و، جواده في وسط الهوة التي لم تلبث أن انسدت. (المترجم)

مضاجع المؤرخين الجدد، فقد أرادوا أن يكونوا ضد بوسويه في كل حدود قوتهم، أي أنهم لن يبحثوا عن اتخاذ العصور الوســـيطة على أنها واقعة تاريخية يجب فهمها، بل على أنها خطأ ينبغي نقضه، وعندما سيـنبغي بسط وقائع الإسلام، سيكون عملهم هو الانتقام له من افتراءات المسيحيين، وعندما سيتحدثون عن الحروب الصليبية، سيعتبرونها كتطرف في جنون خطير، وهم يطرون النهضة لميزاتها الشخصية أقل منها لأنها افتتحت عصر العقل. وفي هذا يقول بولينبروك: «إن التاريخ هو الفلـــسفة التي تعلمنا بوساطة الأمثال كيف يجب علينا أن نســـير في جميع ظروف الحياة العامـــة والخاصة، وبالتالي يجب علينا أن نتجه إليه في روح فلسفية»[١].

ولكن أصعب العادات قهراً كانت هي التي تتألف من تطبيق الماضي على الحاضر، ومن القضاء على أهل الماضي بأنهم اقترفوا خطأ أن يكونوا من زمانهم كما يقول قسيس ساذج: «لنضع أنفسنا في العصر الأول من العالم، ولنختبر ذلك اختبار الملاحظ المتنبه...».

لم يكن هذا القسيس يرتاب في أن العصر الأول للعالم كان يجب أن يحكم عليه حسب قواعد القرن الثامن عشر، ما دام أن تلك القواعد كانت تحتفظ بقيمتها احتفاظًا أبديًا، إن العقليين – دون أن يتأملوا كما لو كانوا قد ناقضوا المعنى– حولوا مسائل الأصل إلى مسائل منطقية ولقد كان التجرد يراقبهم في الزمن حيث كان المتحيز هو الذي يريدون اللحوق به. ولكي يظفروا بالشعور التاريخي، كان ينبغي لهم تغيير تام في الفكرة التي كانوا يتمثلونها عن الحقيقة، وانقلاب في سلوك عقولهم. وفي هذ يقول ديديرو: «إن البرهان الطبيعي والرياضي يجب أن يتقدم البرهان الأخلاقي، كما أن هذا الأخير يجب أن يفوز على البرهان التاريخي»[٢]

(١) Bolingbroke, Letters on the Study and use of History, 1752. Lettre 3.

(٢) Introduction aux grands principes, Le prosélyte répondant par lniméme, Oeuvres, II, p. 81

ذلك اعتقادهم العميق، فهل كانوا سينجحون في قلب هذه السلسلة التصاعدية ضد أنفسهم، وفي أن يردوا إلى البرهان التاريخي كرامته؟.

ولقد كانت أولى إرادتهم الواقعية هي ما يلي: «إن التاريخ لن يكون بعد اليوم خرافة بل علماً، إذ قد حدث طلاق بين التاريخ والخرافة» كما يقول عنوان أحدمؤلفات العصر. وإن أولئك الذين زاولوه في الماضي، لم يصنعوا منه سوى مرآة كدرة، ولم يدركوا ما كان يحمل بين طياته من تناقضات عندما لا يكون مثبتاً على دعائم متينة، وكان كله مفعماً بروح الكذب التي جعلته أقل قابلية للتقبل، من قصص المواضع التي تستعمل لصغار الأطفال. ولعلاج هذا الخطأ كان المهم أولا تثبيت نقد الشهادة، ومن ثم فإن المناهج قد تضاعفت، وكانت كلها ترجع إلى نفس التوكيدات التالية: «إن التاريخ معناه قصة أمينة دقيقة صادقة لأحداث معتمدة على شهادة العيان أو على أفعال يقينية ليست محلا للشك، أو على تقريرات أشخاص جديرين بالتصديق» «وإن كل واقعة تاريخية يجب أن ينظر إليها على أنها حقيقية ومؤكدة حين يكون مشهوداً عليها من عدد من كتاب العصر، أو كانت منتزعة من كتب مؤلفين معاصرين لها، على أن يكونوا أفراداً متعلمين خليقين بالتصديق، ولم يهدم شهادتهم كتاب ذوو سلطان أدبي معادل».

هكذا فعل لانجليه دو فرينوا في كتابه الذي عنوانه «التاريخ المسوغ ضد الروايات» (١٧٣٥).

لقد ذهب فريديريك الثاني إلى حد القول بأن الأفضل بلا ريب هو ألا يروي المرء الوقائع إلا إذا كان قد رآها مباشرة، أو قد كابدها، لأنه كان يعتقد أن قادة الدول، ورؤساء الجيوش هم وحدهم في خير الأوضاع لمعرفة قصص الأحداث التي وجهوها، وبالتالي لوصفها. وعند انعدام الرؤية، يكون المرء مضطراً إى الاعتماد على الشهادة، ولكن على شرط أن يعاملها على أنها موضع ريبة، وألا تصدق إلا إذا كانت قد قدمت حججها الحقيقية. ولقد عرض هارتليه. ومن بعده

بريستليه قواعد رياضية لإثبات أحد الحدين الأعلى أو الأدنى للإيمان الذي يستحقة جزم ما، وعلى هذا النحو كانوا يطيعون شيطانهم الهندسي الذي كان يثأر لنفسه، وكان هذا الشيطان ذاته يثأر لنفسه عندما كان ينصح بالاستمساك بالمعقول على أنه هو القياس الوحيد للحق.

بيد أن الناس على الأقل كانوا يحاولون ألا ينخدعوا بعد الذي كان، فكانوا يتساءلون ماذا كان الشهود؟، وماذا كانت قيمهم؟ وهل كانوا مستنيرين؟ وهل عاشوا مثلاً في مدينة كبيرة تحت عيون جيرانهم الذين كانوا يستطيعون أن يكذبوهم لو أنهم رأوا زيفًا؟ وهل كانوا معاصرين للأعمال التي سجلوها؟ ولنحترس من تصديق الوقائع الصغيرة الغامضة ذات الصبغة الروائية، والتي كتبها مؤلفون مجهولون في أعماق أحد الأقاليم الجاهلة والبربرية، أو لنحتفظ بالحري، بالوقائع التي لا يتطرق إليها الريب، أو بالوقائع الساطعة التي لا يستطيع أي فرد ذي فطرة سليمة أن يضعها موضع الشك، كمعركة فارسال أو استيلاء الترك على مدينة القسطنطينية.

كان أولئك المتعطشون إلى الحقيقة يذهبون بعيداً إلى حد أنهم، في حالة حماسهم، قد يضحون راضين، التاريخ القديم. ولقد أذهل ليڤيك دي وپي موريبان الناس حين تلا في سنة أمام مجمع الآثار مذكرته عن عدم الاستيثاق بالقرون الأولى من تاريخ روما فقال: «إن غيبة الآثار والجهل أو سوء النية لدى المؤرخين الزمنيين، تضطرنا إلى القول بأننا لا نعرف شيئًا يقينًا عن موضوع رومولوس، والملوك الأولين وانهزام الجولوا والوقائع البطولية كواقعة ريجولوس»[1].

---

(١) ريجولوس هو قنصل روماني عاش في القرن الثالث قبل المسيح وقد وقع أسيراً في قبضة القارطاچانيين فأرسله أعداؤه إلى روما ليفاوض مواطنيه في تبادل الأسرى، وكان ذلك اعتماداً على وعده لهم بالعودة فلما وصل إلى روما نصح مواطنيه برفض عروض قرطاچانا، ثم قاوم توسلات زوجته وأبنائه وأصدقائه وعاد إلى قارطاچنا حيث كان التعذيب ينتظره. (المترجم)

ومع ذلك فقد أعلن رأياً كان عما قريب سيتبع بصورة عامة، لأن الريبة كانت تتقدم في عدم الاستيقان بالأزمنة الأولى، وبالعصور الوسيطة ومعنى هذا أن التاريخ يجب ألا يبتدئ إلا في القرن الخامس عشر، وأن كل ما نعرفه يقيناً هو أننا لا نعرف شيئاً.

غير أن المؤرخين عندما وصلوا إلى هذه النقطة، توقفوا عن غلوائهم، لأنهم كانوا يشعرون بأن خطراً آخر يتهددهم، وهو البيرونية [1] وإذن فقد جعلوا يقولون: إننا لا نعرف شيئاً سوى ما تأيد بشهادة اختبرت، وإننا سنركز مجهودنا في أن نجتلب لأنفسنا هذه الطمأنينة.

أما إرادتهم الواقعية الثانية فهو أن يضع المؤرخون لأنفسهم حداً، لأن المنتجات التي تعد، هي التي لم تكن تريد أن تقذف بأنفسها في الأمكنة التي لا تتناهى، وفي الأزمنة التي لا تحد. وهاك شيئاً منها على سبيل التمثيل:

١ - مؤلَّف متين البنيان «كالمؤسسات التاريخية والكنيسية، في أربع مقالات» تأليف جوان لورانز ڤون موشيم، والذي نشرت الطبعة الأولى منه في سنة ١٧٢٠.

٢ - دراسات على شخصية واحدة كتاريخ «شارل الثاني عشر»، و «تاريخ عصر لويس الرابع عشر» تأليف ڤولتير، و «تاريخ حكم الإمبراطور شارل الخامس» تأليف وليم روبيرتسون.

٣ - تاريخ شعب واحد كتاريخ عظمة الرومان وتدهورهم» تأليف مونتيسكيو، و «هبوط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» تأليف إيدوارد چيبون (١٧٧٦ - ١٧٨١).

(١) البيرونية هي مدرسة فلسفية ارتيابية تنتسب إلى مؤسسها بيرون الذي عاش فيما بعد أرسطو والذي كان يقول لا شيء يستمتع بمرتبة الوجود أكثر من استمتاعه بمرتبة العدم وإذا أردت مزيد إيضاح فارجع إلى كتابنا «الفلسفة الإغريقية» الجزء الثاني. (المترجم).

٤ - تآريخ قومية كتاريخ بريطانيا العظمى و «تاريخ إنجلترا تحت حكم بيت تودور» تأليف داڤيدهيون (١٧٥٤ - ١٧٧٨) و «تاريخ إيكوسيا» تأليف وليم روبيرتسون (١٧٥٩).

٥ - تاريخ محلي كتاريخ أوسنابروك» تأليف چوستوس موزير (١٧٦٨).

وأما إرادتهم الثالثة فقد كانت هي التخلي عن العجيب، وقد أدخلوا في العجيب، ما فوق الطبيعي. ولا ريب أنه لا يوجد مؤرخ إغريقي ولا روماني لم يتحدث عن الإيحاءات ، والعجائب، والتنبؤات، والمعجزات، وكثير من الكتاب الجديين قد شهدوا على صحتها في حد لا يتزعزع وقد صدقهم الدهماء في عصورهم، ومع ذلك فلا يمكن أن تكون أية واحدة من هذه الخرافات موضع قبول، على أنها ذات طابع معقول، وإنما قد صنعت للمناسبة ثم جُمِّلت فصارت موضع عقيدة. غير أنها اعتقادات غير معقولة يجب أن تنبذ دفعة واحدة، بل إن التوراة كان يجب أن تسجل في قائمة الإقصاء.

كتب بورك إلى چيبون يقول: «إن خريطة الإنسانية في الوقت الراهن قد بسطت». وفي الواقع كان ذلك أيضًا أحد مطالبهم وهو أن التاريخ كان يجب أن يكف عن أن يكون مقصوراً على الإمتلاء بوصف المعارك، وبتحليل مناورات السياسة، وبالنشائد الموجهة إلى الأفراد الذين وصلوا إلى فصيلة الأبطال. وأن موضوعه الأساسي يجب أن يكون دراسة المدنية، وفي هذا يقول بولينبروك: «إن الإنسان هو موضوع التاريخ الحقيقي»، ويقول دوكلو: «لو لم يكن التاريخ الذي أكتبه عسكريًا ولا سياسيًا ولا اقتصاديًا. . . لسألني الناس ما هو إذن التاريخ الذي أعتزم كتابته، إنه تاريخ الأناسي والطباع». ويقول أيضًا ڤولتير: «ليس هذا مجرد قصة عن حملات حربية، ولكنه بالحري تاريخ للطباع والأناسي».

ولا جرم أن هذه التوكيدات المعادة هي لافتة للنظر وأن التغير الذي تعبر عنه هو رئيسي، وهو لا يبدو في أي مكان بقوة أكثر منها في كتاب «محاولة على

الطباع» لڤولتير. ولو أن هذا السفر قد زيف بوساطة المشروع المحدود لاتخاذ الوضع المضاد لبوسويه، وأنه لذلك قد هوى في العيوب التي يدينها، وهي السرعة والاستعلام عن مصادر الدرجة الثانية أو الثالثة، والسطو، إنه يبقى رغم ذلك أحد مشيدات العصر التي سيحتفظ بها المستقبل لأنه يحمل على مقدمة هذا الشعار التالي: إنني أريد أن أستكشف ماذا كان مجتمع بني الإنسان، وكيف كان الناس يعيشون في داخل الأسر، وأي الفنون كانوا يتعهدونها، بدلاً من أن أردد هذا المقدار من التعاسات ومن المعارك، وهي موضوعات التاريخ المشئومة، والنعوت العادية للشر الإنساني».

وبعد كل هذا، هل سمح لهم «حماسهم التاريخي» (١). أن يسيروا - إلى آخر الخط وبلا وهن- مشروعهم الذي هو إقامة التاريخ إقامة نهائية؟ وهل كانوا قادرين على إحلال فكرة التطور محل إيمانهم بالثبات؟

وعندما كتب مونتيسكيو، ملاحظاته الخاصة، عني بإحدى نظريات ڤيكو وهي نظرية السير واستئناف السير «Corsi, - Recorsi» وإليك مجملها:

بديًا كانت الشعوب بربرية فاستعملت الغزو. وصارت دولاً ذوات شرطات، وهذه الشرطات جعلتها تكبر، ثم صارت دولا مصقولة، وهذا الانصقال أضعفها، فغزيت وصارت بربرية، وكل أمم العالم تقريبًا تدور في هذه الدائرة...

يتمسك مونتيسكيو في كتابه «نظرات في أسباب عظمة الرومان وتدهورهم» بفكرة النشوء والتقدم والسقوط. ولقد لفت هذا العبور من العظمة إلى التدهور نظر العصر إلى حد أنه لا يوجد إلا قليل من المؤرخين الذين لم يقروا هذه الفكرة، وذلك أحد الآثار الأكثر بروزاً لهذا العقل العظيم.

ولقد حسب ڤولتير- في قلق جعل عدة صفحات من إنتاجه التاريخي

---

(١) J.C.Adelungs, Pragmatische S aatsgeschichte Européens, Gotha, 1762. page II.

مؤثرة- أنه قد عين تطوراً قد انتهى إلى التقدم. حقًا إنه تقدم جد بطيء، وجد عسير، وهو مهدد بلا انقطاع. ومع ذلك فإنه، أثناء بعض العصور الممتازة، كان يظهر في عالم النور.

كم من الاضطرابات، والبأساء، والدم المراق! إذ أن روح الحرب والقتل والهدم، قد سادت الأرض دائمًا. ومع هذا فإنه في وسط ذلك السلب كان يبدو حب للنظام يحرك النوع البشري في الخفاء ويحول دون دماره التام: «وهو لولب من لوالب الطبيعة يستعيد قوته، وهو الذي كون مجموعة قوانين الدولة، وبوساطته يحترم القانون وخدام القانون في التونكان، وفي جزيرة فورموزا كما هو في روما».

يتنفس ڤولتير الصعداء، ويسترد الشجاعة ويشعر بأنه مسروراً عندما يصل إلى أحد العصور العظمى التي تشبه المساكن في وسط الصحراء الوحشية، كعصور الإسكندر وأوجوست وليون العاشر ولويس الرابع عشر. وهو معترف بالجميل لأولئك الرجال العظماء الذين سمحوا له بالعمل.

أما ليسينج [1]، فعنده أن تربية النوع البشري ليست سوى صيرورة بطيئة، وأن العقل حتى حين يسطع من الخارج، يتشربه العقل الداخلي الذي لا يعاني ألبته انهزامًا كليًا، والذي يتابع في صلابة، سيره التقدمي إلى اليوم الذي ستنتشر فيه الحقيقة الإلهية، والحقيقة الإنسانية ولن تؤلفا سوى الحقيقة الوحيدة، . وبعد ليسينج يمكن أن يظهر هيردير.

وهل أدرك هؤلاء المؤرخون ذلك المتحيز الذي كانوا جد بعيدين عنه عند نقطة بدئهم؟ لم يدركوه تمامًا لأن التاريخ لم يعد بعد، بالنسبة إليهم بحثًا، ففي الواقع أنه سواء، أكان بدافع الذوق الفاجعي الذي لم ينجحوا في محوه من أنفسهم، أم كان بوساطة الجفاف عند بعضهم، أم بسبب الفصاحة عند الآخرين،

(١) إذا أردت في هذه الفكرة بسطًا أوسع فانظر الفصل الذي عنوانه ليسينج من القسم الثالث من المجلد من هذا الكتاب.

فإنهم لم يحققوا البساطة الحية للواقعي، وإن الأشياء لم تتقدم إليهم في مادتها الجسمية. حقًا إن الذي دنا من التاريخ الحقيقي هو جوستوس موزير لأنه لما كان معتمداً على أرض وطنه الصغير، وكان يفهم أن من يفكك النغم الذي يؤلف الإيقاع، لا يستمتع بعد بالإنفعال الموسيقي التام، وكان يعرف أنه يدخل من الجبن إلى الشجاعة، ومن الأنانية إلى الغيرية، فإنه وجد لديه الشعور بالمركب شيئًا فشيئًا بمقدار ما كان يتقدم في كتابه «تاريخ أوسنابروك». غير أنه قد بقي أقل الجميع أوروبية، بمعنى أن شهرته التي كانت عظيمة في ألمانيا، لم تتسع، وأنه ظل غير معروف بالقياس إلى مونتيسكيو، وڤولتير وروبيرتسون وچيبون.

وهل تخلوا- بقدر ما كانوا قد صمموا - عن الشروح بوساطة قوانين عامة مشفقين من أن يتعرضوا بهذه الطريقة إلى التردي في الميتافيزيقا التي قد استبعدوها؟ إنهم لم يتخلوا عن ذلك، وعندهم أن قانون التاريخ قد يكون هو الفائدة وقد يكون هو وثن التجارة، كما كان الأب رينال يقصد في كتابه «التاريخ الفلسفي والسياسي للمؤسسات الأوروبية في الهندين». وقد يكون أحد أرواح العصر، وقد يكون اجتماعًا للنتائج كما يقول في كتاب «محاولة على الطباع» لڤولتير ما يلي: «هناك ثلاثة أشياء تؤثر في الإنسان وهي المناخ والحكومة والدين. وهذه هي الطريقة الوحيدة لشرح لغز هذا العالم»[1]. وقد يكون ذلك قدراً ينم عن نفسه بوساطة تفاوت جلي في النسب بين أسباب جد صغيرة تكاد ألا ترى. ونتائج توشك ألا تقاس. لعظمها..

كانوا يريدون أن يشرحوا الأحداث دون صعود إلى العلل الأولى، وإذا كانوا يعلنون ذلك. كانت العلة الأولى هي التي يصرون على التنقيب عنها.

والنتيجة من كل هذا أنهم لم يكتبوا التاريخ كاملاً، على أنه منذا الذي سيكتب التاريخ الكامل؟ ولكنهم قد أتموا مهمتهم على ما بها من صعوبة كبرى وفي

---

(١) Easai Sur moeurs, chap 197.

شرف عظيم. حقًا إنهم لم يكونوا يحبون التبحر إلا حين يكون مشتملاً على شيء من المرح، ومع ذلك فقد فهموا قيمة الشهادة فهمًا تامًا، وحاولوا البناء على أساس مستندات حقيقية. ولقد عبّدوا طرق المستقبل، حين شذبوا ونظفوا وأزالوا النقاب عن الكذب.

ولما كانوا موزعين بين فلسفتهم التي كانت تريد أن تكون تجريبية، والتي لم تكن تقر إلا الوقائع، وبين ميلهم الطبيعي الذي كان يحملهم نحو التجرد، ونحو القبلية [1]. «a priori» ونحو المذاهب العظمى التي ينبغي أن يخضع لها الواقعي طوعًا أو كرهًا. فإنهم لم يضحوا دائمًا ولكنهم ضحوا غالبًا تفضيلهم الخاص في سبيل المنهج الذي عرفوا كيف ينتزعونه. وقد تركوا منتجات ممتازة، وتلك هي القيمة الدقيقة للعقل الذي خلع طابعه على كل أدب العصر.

---

(١) القبلية هي أحكام مقدمة على التجربة. (المترجم

# الفصل التاسع

## الفكر والعادات
## الأفاّق

لم يبق في تلك الحقبة أحد في مكانه، فمونتيسكيو قد ارتحل قصد التنقيب عن الدساتير، وديديرو بعد أن قاوم زمنًا طويلاً- قام، مع ذلك بالرحيل إلى روسيا. وفي أحد الأيام صمم الشاب جولد سميث على أن يسافر إلى القارة، وقد سافر فعلاً، بلا مال، وبلا حماية، وبلا نهج محدد، عازفًا على الناي أمام أبواب الأكواخ، لكي يظفر من القرويين بإناء من الحساء، وبمبيت في أحد المخازن. وهو لبيرج يغادر الدانمارك، ويتخذ طريقًا إلى غير غاية معتمداً على صوته الرخيم كما اعتمد جولد سميث على نايه، فجعل يمضي من بلد إلى بلد، ففي باريس يتعلم الفرنسية، وفي أكسفورد يعلمها، ولا تضايقه مثل هذه التفاهات. ولا جرم أن هؤلاء الكلفين بالمعرفة، والذين لا يشبعهم شيء، والذين لا يكتفون ألبتة بما يرون، هم الحركة ذاتها، وأن المنفى ليس مريراً لديهم، وأنهم لا يألمون من صعود سلم الغير، وأن خبز الأجانب ليس له طعم الملح في أفواههم. وعندما قذفوا بأنفسهم خارج أوطانهم، جعلوا يستفيدون من الفرص لكي يصطنعوا لهم نفوسًا جديدة، ففولتير لم يكن شديد التعاسة في لندن، إذ سيعرف لغة انجلترا، وأدبها، وطباعها، وكل ذلك ربح، والأب پريڤو، لم يكن جد شقي في هولندا حيث ينزلق، في جنون الشباب. وهو أقل منه بؤسًا في الجزيرة السعيدة التي لا يغادرها إلا آسفًا

مترنمًا، بنشيد، في عظمتها. ويولينبروك، يصير، بلا عناء، كأنه أحد الأشراف الفرنسيين، له قصره وحدائقه وأتباعه، وهو يقوم على كل ذلك. وفينكلمان يجد إيطاليا، وطنه الحقيقي وكم من الفلاسفة المضطهدين، لم يغتبطوا بأن يتجمعوا حول فريديريك الثاني في برلين؟. وهكذا جعلت صورة الالتجاء المأساوية، تتجه إلى الانمحاء، وأصبح لا يوجد بعد، منافٍ، وإنما توجد مواطن عالمية» أو كوسموپوليت. «Cosmopol te».

ظهرت هذه الكلمة في القرن السادس عشر، ولكنها لم تظفر بالنجاح، وفي القرن السابع عشر، قد اختفت تقريبًا. ثم دخلت في الاستعمال الجاري في القرن الثامن عشر، وقد وضع لها قاموس تريڤو، تعريفًا في سنة ١٧٢١، وهي تشتمل إذ ذاك على فرقين دقيقين في المعنى، أحدهما سيء وهو نعت للإنسان الذي ليس له مسكن معين، والآخر حسن وهو وصف الإنسان الذي ليس أجنبيًا في أي مكان كان، وهذا المعنى الأخير هو الذي سيتغلب. وفي سنة ١٧٥٥ يتحدث چان چاك روسو، عن «عظائم النفوس الكوسموپولتية التي تجتاز الحواجز الخيالية التي تفرق بين الشعوب، تلك النفوس التي- على مثال الدولة العليا التي خلقتها- تحتوي كل النوع البشري في خيريتها». ولا جرم أن الكوسموپوليت، قد اجتاز الاحتقار القديم الذي كان محجوزًا فيه، لأنه لم يكن له وطن، إلى الاحترام الذي يوضع فيه لأن له عدة أوطان.

ما دام الأمر كذلك فإنه لا يباغتنا أن نلاحظ أن المخاطرة الأبدية قد جعلت تتخذ لون العصر، فلم تعد المسألة مسألة الارتحال للاستيلاء على قبر المسيح، بفضل طر د الأتراك من الأماكن المقدسة، بل إن الحملات الاستكشافية، عبر البحار البعيدة قد وضعت لها قواعد وصارت طرائق للتجارة، وكشوفًا منظمة. وإن الجانب البطولي لم يبق له إلا الانحصار في الأنواع الأدبية التي احتفظ له بها، والتي كانت ملجأه الأخير. بينما أن الجانب المخاطري قد صار مهنة ملونًا بالسرور والأناقة. وإن الأفاق المخاطر الذي يحمل سيفًا صغيرًا، ويرتدي الحرير والدانتيلا، قد صار شخصية اتخذت لها مكانًا في المجتمع.

نعم قد يكون من أسرة مبجلة، ولكنه في العموم كان يعتقد هو نفسه، أن من الأكثر يقينًا أن يصطنع لنفسه ألقاب الشرف. ومن أمثلة ذلك أن لورانزوداپونت -وهو من أبناء «الجيتو» أي من الحي اليهودي- قد اتخذ اسم الأسقف الذي عمده، والذي أدخله المدرسة الأكليروسية، ومنها أن والد الأفاق كازانوڤا وكان ممثلاً فرصيًا، وأن والدته كانت ابنة صانع أحذية. ومنها كذلك أن چوزيف بلسامو قد ولد في صقليا من والدين متوسطين وكان شبابه شباب فتى رديء. وقد استبدل اسمه المنخفض، باسم، رنان وهو كاليوسترو، لأن الحروف الهجائية هي خير مشترك بين الناس جميعًا.

ليس موضع مفاخر الأفاق سهول أمريكا ولا المحيط بل هو العواصم التي يجد فيها المحتال دائمًا مخرجًا من ورطاته، وذلك ما لم يفضل صغار القصور التي يضجر فيها أربابها، والتي يكون محضره فيها مُسَلّيًا. ولما كان شديد النسيان لمطلع حياته العسير، وكان مجردًا من محاسبة الضمير، ومزدانًا بظاهر لامع، فإنه يصل في أحد الأمسية دون أن يدري أحد من أين يأتي. وبعد بضعة أيام يرتحل تاركًا لضائقه العناية بدفع الحساب وبإصلاح الخسائر. وليست إقامته طويلة ألبتة، فهو يجوس خلال أوروبا، ويذهب إلى مصر وإلى الشرق، كالمركيز دي بونيڤال على نقيض رجل الحروب الصليبية إذ يعود برتبة الباشوية، وإلى العالم الجديد كـ«لورانزو داپونت» الذي يصير استاذًا للغة الإيطالية في نيويررك.

من أين يأتي نجاح الأفّاق الحائل؟ الحق أنه هو نفسه لا يعرف عن ذلك شيئًا، فمركبته ليست ملكه، وإذ كان عنده خادم فهو شريكه في المؤامرة وملابسه نفسها لم يدفع ثمنها، وليس له أي ضامن يتعهد بالتزاماته، وإذا استعلم أحد عن ماضيه كانت المعلومات سيئة إلى حد أنه ينبغي طرده في الحال. ولكن مظاهره ساطعة، فعليه طلاء من الثقافة، إذ يقول إنه يعرف اللاتينية واللغات الأجنبية، وهو يجيد الفرنسية التي هي جواز مرور في كل مكان. وبما أن ذاكرته عجيبة فقد تصيد واستبقى عن طريق الفرص، مهلهلات من المعارف التي يزين بها الخطب في

مهارة. وهو أحيانًا شاعر، بل هو قدير على تأليف نصوص كلامية للأوبرا الغنائية، وهو يعرف الموسيقا والرقص، كما هو حاضر النكتة. ويطيل المحادثة برواية عظائم الأنباء وصغائر الأقاصيص. ولنضف إلي ذلك أن لديه أنواعًا من المجون والجرأة، وقوة الشخصية لا تخشى الناس ولا الإله.

يستغل الأفَّاق رذائل ذلك العصر الذي يتفكك، والذي لم تعد الدرجات الاجتماعية فيه متبعة، والمبادئ العتيقة صارت موضع السخرية، والجدية قد مضى وقتها، وأصبح الناس يفضلون رجلاً يعرف كيف يلهو، على آخر ذي فضيلة ضجرة. إنه يتخذ مكانه بصورة طبيعية إلى مائدة اللعب حيث تكون اللعبة قد بدأت عندما يأخذ مكانه، فإذا غش في الورق فليس هو الوحيد، ولا يغضب أحد إلا إذا ضبط مزلقًا إحدى الورقات إلى كمه دونه أن يستتر، وهو ليس أخرق حتى يفعل ذلك.

يعرف الأفاق كيف ينفق، فهو ليس شحوحًا بل هو على الضد من ذلك يعرف كيف يمنح في المناسبات ماسة، أو عقداً من اللؤلؤ، أو يلقى إلى خدم الأمير كيسًا مليئًا في إشارة علنية، وحين يخسر لا يتخذ مطهراً مكتئبًا بحجة أن ضده اليوم حظًا سيصلح غداً، وهو يمضي من جميلة إلى جمبلة، ومن فوز نسائي إلى فوز كجميع الناس. وهو في التحول لا يكاد يزيد عن أصدقائه العابرين، كالضابط الشاب المعتز بأحداثه الغرامية، وكالشيخ الداعر الذي لم يعد يحس تلك الأحداث. إنه هو الحركة ذاتها في اللذائذويعزى إلى أحد أفاقي القرن الثامن عشر، وهو كازانوڤا أنه كان تجسداً. جديداً لدون چوان. ويعزى إلى آخر أنه استبقى طول حياته الأبهام التالي، وهو : هل كان الفارس ديون رجلاً أو امرأة.

ولم يكن ذوو السلطان يحتقرون أن يتخذوا الأفاقين أحيانًا مندوبين سريين للسياسة الدولية. وهم في الغالب أعضاء في الجمعيات السرية، ولقد استطاع الناس أن يروا في تلك الحقبة، أفاقًا دينيًا، وهو رامسيه، قد صار أحد رؤساء الماسونية. وأكثر من ذلك أن هؤلاء القوم الذين لديهم شيء، خفي، والذين

يقولون إنهم قد درسوا في كل الجامعات، وحاربوا في كل الجيوش، وعرفوا معرفة ألوفة، جميع عظماء الأرض، هؤلاء القوم الذين يبدو أنهم ينتسبون إلى فصيلة الكائنات التي تظهر بغتة، وتختفي بغتة كأنها الآثار العلوية، هم أرباب القوى ألما فوق الطبيعية. وهنا، أيضاً يستغلون دخيلة من دخائل سرعة التصديق الخرافية التي لم يكن العقل قد محاها بعد، والتي بقدر ما كان القرن يتقدم، كانت تأخذ بثأرها من العقل. إنهم رقاة وكباليون ومنجمون ومنومون وأنبياء وسحرة، وهم يستكشفون الكنوز ويتنبأون بالمستقبل. ويركبون ألوانًا من الشراب تعيد الشباب إلى عجائز السيدات وترد إليهم شباب سن السادسة عشرة، ويبرئون المرضى، ولا ينقصهم إلا قليل لكي يحيوا الموتى، فهذا يملك الدواء العالمي، وذلك قد وجد حجر الفلاسفة، والآخر قد قهر الزمان، فهو يسأل خادمه قائلاً: «أتذكر يوم أن صلب المسيح»؟ فيجيبه الخادم بقوله: «هل نسي سيدي أني في خدمته منذ ألف وخمس مائة سنة فقط؟» وكاليو سترو القبطي الأكبر بينما أن زوجته هي ملكة سبأ، قد شرب الأكسير الذي استطاع العثور على سره وهو إكسير الخلود. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يموت في السجن بعد أن جن أو تصنع الجنون لأنه هو وأمثاله لا يسيرون بهزلتهم إلى النهاية، وختامهم محزن، فهم فقراء بعد أن أسرفوا، ومساجين بعد أن كانوا هم الحرية نفسها، ومهجورون في غد اليوم الذي يحتفى بهم فيه. وليس عندهم التبكيت لاستعادة الضمير الأخلاقي بل ليس لديهم سوى الأسف. وأحيانًا تريد سخرية القدر أن يجر جروا شيخوخة طويلة مفعمة بالتذمر والشراسة. وقصارى القول إنهم معاقبون في قسوة.

إن المجتمع يسترد حقوقه بإزائهم عندما يلمح فيهم عوامل الانحلال الذي يدينهم. ومع ذلك فقد قدم إليهم بيئة ملائمة ما كانوا ليسعدوا بعيداً عنها. إنهم أمعنوا- إلى حد التطرف والشذوذ والرذيلة - في تنمية بضع من فكر العصر. إنهم بمثابة الرصائع من ذلك «القرن الذي يسطع» [1]. وبما أنهم كانوا من عصر الذكاء

(١) ذلك هو عنوان كتاب انجليزي من منتجات ذلك العهد. (المترجم)

فإنهم لم يسلبوا مركبات المسافرين، ولم يسرقوا بأيد مسلحة، وإنما استخدموا دقتهم ونكتتهم، وإدراكهم النفسي، مضيفين إلى ذلك شيئًا من الاحتقار لأولئك الأغبياء الذين تركوا أنفسهم ينخدعون. وفي هذا يقول الفارس دي جريو [١]: «إن حماقة الأثرياء والكبراء هي منبع فخم للإدرار على الأصاغر». وبالإجمال إن الأفاقين كانوا فنّاني حياتهم الخاصة [٢].

استغل الأدب هذا النموذج البشري، ففي المسرح نشاهد أن جولدوني، يرصد الموضوعات، فكما اتخذ ذات يوم كمادة، النتائج العجيبة «للأم- الطبيعة» وكما وضع في يوم آخر على المسرح «الفيلسوف الإنجليزي» تلميذ لوك ونيوتون، كذلك قد أخرج «الأفاق المحترم» في سنة ١٧٥١. غير أن الأدب قد بقي باهتًا وظل نجاحه موضع ريبة إذا قيس بالأفاق الحي لأن هذا الأخير قد أنشأ إنتاجًا رئيسيًا من الأيام التي أعطى إياها، إذ استعملها كما كان يريد، ولأجل الغايات التي كان يرغب فيها، عندما نحت بصورة غرامية تمثاله الخاص.

لا جرم أنه توجد مشيدات من كل نوع، وأن «روح القوانين» واحدة منها، وأن «محاولة على العادات» واحدة منها كذلك، وأن «المذكرات» لكازانوفا واحدة أخرى، وهي حاملة دائمًا طابع القرن الثامن عشر.

## المــرأة

هناك عدة كتب قد خصصت للمرأة «كمعبد جنيد» و «رحلة إلى پافوس» وأكثر من ذلك أيضًا «مؤتمر سيتير . . . [٣] وهاك إلماعة عنه.

اختفى إله الحب من الوجود، فاعتزل في جزيرته، ودعا مجلسه لموضوع

---

(١) هو بطل رواية «مانون ليسكو» الشهيرة تأليف الأب پريڤو (المترجم)

(٢) استعنا في هذه الصفحات بمحاولة استيفان زويج على كازانوڤا وعنوانها:
"trois poétes de leur vie" psris 1937

(٣) لعلك تذكر أن سيتير هو اسم لجزيرة سيريجو المخصصة لإله الحب إيروس ابن أفروديتيه إله الجمال التي كان لها معبد عظيم في مدينة جينيد. (المترجم).

نزاع قد أثير حديثًا وهو : أن الدول المختلفة تتجادل في عنف حول كيفية الحب. ومن ثم فإن كل دولة منها أوفدت منها سفيرة أمام مجلس الحب، فمدام دي چازي تمثل فرنسا، وليدي جراڤيليه تمثل انجلترا، وبياتريس تمثل إيطاليا. وقد وكل دور المقرر إلى اللذة. ومن المتفق عليه أن هناك نقطة قد بقيت بعيدة عن النزاع وهي رفعة السرور الذي سكبت الطبيعة عاطفته في القلوب. إن ليدي جراڤيليه، في ألفاظها مرارة لأن مواطنيها يستخفون بالنساء ويضجرونهن. وإن مدام دي چازي تثني على الحب المتنقل وتنبذ الهوى الرجعي، إذ أن أفضل منه هوى مجمل بالأناقة والتكتة أو «لذة بلا حزن» على حد تعبير كتاب إيطالي. أما بياتريس فإنها تطري عبادة الجمال المثالي. ولكن لم تدافع أية واحدة منهن عن الفكرة الصحيحة، ومن ثم فإن اللذة تلخص المحاورة وتبلغ إرادة إله الحب. وهي أنه ليس بملك الرجل أن يختار المرأة التي يحبها، لأنه مقود نحوها بوساطة القدر، وإذن فمهمته الوحيدة هي أن يروقها بثنائه عليها وبنقده عيوب خصيمتها كصوت كلوويه أو أسنان ليسبي، وباجتهاده في ألا يناقضها لأن المحب يصير هو السيد بمجرد تظاهره بالعبودية وبتسليته إياها وباستعمال وسائل الظفر كالرسائل اللبقة وكالاستعانة بالوصيفات أو كالنزهات والحفلات، وباختياره اللحظات الملائمة، بمعنى أنه ينبغي أن يحذر من أن يلقي تصريحه بالحب في اليوم الذي رأت فيه جميلته على خصيمتها فستانًا[1] مصنوعًا بطريقة جديدة. وبهذا يحدث أن يتوهم المرء أو يلوح عليه تصديق أنه يستطيع أن ينال اللذة دون أن يحزن. وحينئذ لم تعد اللذة مهينة ولا مسموعًا بها سرًا عن طريق الطواطؤ ولا مكفرًا عنها بالندم، وإنما صارت مفخرة بقدر ما هي فكرة العلنية أي حرية الأخلاق. ولقد جعلت الحواس من جانبها تحتج على قسوة الماضي وقد أبعدت بقدر الممكن، تلك الفروض السيئة، والقدر المحتوم، والخطيئة العنصرية، وقد أقر أن كل ما كان في الطبيعة كان خيرًا، وأن

(١) لا نرى بأسًا من استعمال فستان وفساتين كبستان وبساتين ولطالما أخضع العرب لموازينهم وأقيستهم كلمات أجنبية. (المترجم)

السرور كان في الطليعة، وأن أعظم المسرات هي اللذة، وأيًا ما كان فليس كل النساء، بل نساء الطراز الحديث هنّ اللواتي يلائمن هذا الفن الجديد للحب.

إن هؤلاء الإلهات الطائشات ذوات المساحيق والأصباغ، والشامات الصناعية، والفاى والساتان والديباج والدنتلة والحلي، قد تقدمن إلى الصف الأول بخطواتهن الخفيفة، وإن الترف قد تنظم لهن، وقد تكون حولهن فوران من المال، وإن المراقص، ومآدب العشاء، والهزيع الأخير من الليل هي لحظات العيد الأعظم الدائم للنساء. ولا ريب أن الكل يبادر إلى إرضاء رغباتهن بشرط ألا يكون ذلك سوى هوى متنقل.

بينما أن الهوى عير المتعقل، وعهد الوفاء، واحترام الزوجية، كل ذلك لم يعد موجودًا في قاعدة الفن الجديد للحب. ولقد لاحظ أوسبيك[1] أنه لا يوجد بلد من العالم كان فيه الأزواج الغيورون أقل عددًا من الفرنسيين. وليس هذا لأنه كان لديهم ثقة في فضيلة النساء، فهم على الضد من ذلك. ولكنهم كانوا يعتزون بسوء حظهم إلى حد أنه لم يكن في وسعهم سوى الإذعان. وهاك مثلين من أمثلة تحلل أخلاق العصر: كان الأمير أنجولا عاكفًا على تلقي التربية الاجتماعية، وأوصاف صديقه المائير بالدواء الوحيد ضد الضجر وهو التغيير، وعلى أثر ذلك جعل ينظر إلى جميلات النساء كأنهن سفاتج تجارية، تحول من يد إلى يد، فيقول لإحداهن مثلاً: «إننا ارتبطنا بوساطة اللياقة واحتفظنا بعلاقتنا عن طريق الاتفاق، وإنني أتخيل أننا سنفترق بلا مشقة»[2] ولقد باغت الإغماء إيجليه في دار التمثيل لأنها اقترفت إثمًا جديًا ضد الحشمة إلى حد أن شعرت بأنها فقدت كل شيء، ولم يبق لها إلا أن تعتزل المجتمع، أو أن تلجأ إلى التقوى، وفي الواقع أن زوجها قد أتى يتحدث إليها في شرفتها فنسيت نفسها إلى حد أنها نظرت إليه في حنان، وابتسمت

---

(١) لعلك تذكر أن أوسبيك هو أحد أبطال الفرس في «الرسائل الفارسية» تأليف مونتيسكيو (المترجم).

(٢) Angola Histoire indienne, avec privilége du Grand Mogol, Agra, 1749

له، وضغطت على يده [1]. وبالإيجاز «إن الحب الرقيق الوفي لم يعد يوجد إلا في الروايات العتيقة»[2].

إن الأمر الواقع هو أن الخليلات قد صرن نوعًا من منظمات الدولة، فكانت هناك خليلات الملوك، ومن بين خليلات لويس الخامس عشر، مدام دي پومپادور. وخليلات العظماء، وفي هذا يقول المحامي باربييه: «ماذا! إن خمسة عشر من عشرين من السادة رجال البلاط، يعيشون مع نساء أخريات غير زوجاتهم، وما دام الأمر كذلك، فماذا يجد الناس ما يقولونه عن سلوك الملك؟.

وهناك خليلات الفلاسفة بل كل الفلاسفة كڤولتير، ودلامبير وديديرو، وهيلڤيسيوس، والبارون دولباك، ولا تندرج تحت حصر خليلات الماركيز دارچانس الذي يلعب دور فوبلاس قبل الأوان. ولقد كان الحياء - كما تقول مادموازيل كينو [3]- ليس سوى عادة صناعية دانتها الطبيعة، واخترعها بلا ريب قزم أحدب نحيف ودميم، لأن الإنسان لا يفكر في أن يختفي، عندما يكون حسن التكوين».

لا ريب أن المجتمع الباريسي كان أكثر تقدمًا على جميع معاني هذه الكلمات. ومع ذلك فإننا لا نرى أن المكاتبات والمذكرات تقدم إلينا شواهد على ما كان يحدث في البلاد الأخرى تباين ما رأيناه. ولا يوجد أحد يؤيد أن الأخلاق في برلين وپوسدام. كانت نقيه، فأمراء بلاطات ألمانيا، كانوا يتخذون بدورهم، خليلات، نعم قد يكون ذلك كرهًا أحيانًا، ولكن لم يكن ينبغي الشذوذ.

كان في انجلترا جفاف أكثر. وفظاظة أشد، وإدمان أعظم، وفساد معترف به في صراحة أبلغ منها في أي مكان. ما دام أن الفساد قد صار وسيلة من وسائل الحكم، بل إن بولينبروك كان يخشى أن الرذائل التي كان يساهم فيها والتي قدم فيها المثل، تنتهي بإفساد الدستور. ولكن الفرق لم يكن إلا في تفاوت درجات الرقة.

---

(١) Les usages par M. Tr. D.V. citoyen de Bordeaux, Genéve, 1762

(٢) Mad de puisieux ou la nécessité d être inconstant, á Cologne et se vend á paris,

(٣) مادماوزيل كينوهي إحدى شهيرات ممثلات الكوميدي فرنسيز في القرن الثامن عشر (المترجم).

ويروى أن كارولين ملكة انجلترا، كانت على سرير موتها، تلح على جورج الثاني أن يتزوج بعد وفاتها، فيجيب الملك باكيًا بقوله: «كلا، وإني سأتخذ خليلات». فتقول المحتضرة: «إن هذا لا يمنع».

أما إيطاليا، فقد كانت تردد نفس الدور أي كانت تثني على العاشق الذي ليس له هوى ولا أوهام. وفي هذا تقول الأغنية: «كانت المرأة في الماضي، تختار عشيقًا واحداً، ولكن ذلك الوقت لم يعد موجوداً» وتقول أخرى: «ألا تعرف أن النساء ينظرن إلى عشاقهن، نظرهن إلى أوراق اللعب؟ إنهن يستعملنهم بعض الوقت حتى إذا ربحن، نبذنهم وطلبن آخرين . . . » وفوق ذلك فإن الرحالة قد سجلوا المنزلة التي كان «الفرسان التابعون» يشغلونها في الحياة الزوجية، ومجملها أن الفارس التابع يجلس إلى جانب الزوج بل في موضع الزوج، ويشاهد عملية تزين الزوجة ويقيم في حجرة استقبالها، ويقوم معها بزيارات، ويصحبها إلى دار التمثيل، ويسكب لها مغلي الشوكولاتا، ويحفظ لها علبة مساحيقها، ومروحتها، ويجلس في مركبتها، ويدخل حجرتها في حرية، ويصدر الأوامر في المنزل. وإلى جانب هذا «الفارس التابع»، يمكن أن يكون هناك آخرون كالأدعياء والأخلاف والمؤقتين. ومن أجل ذلك كان الأخلاقيون يرعدون، والشعراء يسخرون، والشعب يسخط أو يستهزئ. ولكن الفارس التابع كان يصمد.

غير أنه ينبغي على الفور ولكي لا تخون الحقيقة أن نقول: إنه ليس فقط - بوساطة حرية صارت دعارة، ودلالاً أضحى إثارة - أن تغيراً قد حدث في حالة النساء، فبين المعالم المتعارضة التي تؤلف لوحة عصر من العصور، تظهر معالم أخرى وألوان. فقد كانت النساء يشتركن في حركة العقول، بل كن أحيانًا يوجهنها. وقد احتللن موضع المساواة إلى جانب الكتاب والعلماء وكن أقل حذلقة، لأنهن كن بالطبع أكثر ذكاءاً. ولقد كن في أغلب الأحايين، يخرجن من الأديرة جاهلات، ثم يتعلمن فيما بعد، لأنهن كن شديدات الحرص على التعلم، ولم يركزن حماسهن في الحب، بل في المعرفة. هكذا كانت ما دام دوشاتيليه التي

كان ڤولتير يتخذ منها رفيقة لحياته حيث اعتزل كلاهما العالم وظلا يعيشان فيما كان الناس يدعونه: «وحدة قصر سيريه المزعجة». وهناك كانا يمدان - إلى أبعد حدود الإمكان - دائرة معارفهما التي كانا يجدانها دائماً مفرطة في الضيق. وكانا يقرآن مؤلفات لاتينية، وإغريقية وانجليزية وإيطالية، وكانت تلك السيدة تدعو إليها عالمًا ألمانيًا هو صموئيل كونيج، لتتعمق في الرياضة، ولتتابع الدروس التي تلقتها على موپيرتوي وكليرو. وبينما كان ڤولتير يعنى بالطبيعة ويساهم في مسابقة مجمع العلوم عن طبيعة النار، كانت هي تسابق من جانبها، وقد صارت منافسته على المعنى الدقيق لهذه الكلمة. وكانت أيضًا تتعلم الفلسفة، وكان هو يجتذبها نحو لوك. وهي تجتذبه نحو ليبنيز، ولم تكن قناتها تلين في شيء.

كانا رفيقين غريبين ذانك اللذان يمضيان أمسيتهما مع المعادلات الرياضية. وتلك صورة تمثل مظهراً من مظاهر العصر، بمقدار ما ستمثل صورة حبيبين حالمين باكيين تحت أشعة القمر من صور الرومانتيكية.

وهناك صورة أخرى يمكن أن تبرز مظهر ذلك العصر بهيئة لاتقل يقينًا عن الأولى، وهي التي تمثل منتدى، كمنتدى مسس مونتاجو في لندن، ومنتدى كاترينا دوفين ترون في البندقية، ومادام نيكير في استوكهولم، ومن بين جميع منتديات أوروبا، منتدى فرنسي، ومن بين جميع المنتديات الفرنسية التي جعلت تتعاقب كأنها أسر ملكية إلى عهد الثورة، منتدى ما دام دوديفان بـ «فوبور سان هونوريه» فلو تمثلنا هذا المنتدى، لرأينا فيه حجرة ليست واسعة ولا رسمية، ولكنها تشعر من فيها بالألفة بوساطة حوائطها المغطاة بنسيج الذهب وستائرها المشتملة على ذات اللون، والمحلاة بأشرطة على لون النار. ومن أحد الأبواب يستطيع المرء أن يرى في الحجرة المجاورة طنافس زرقا، ورفوفا وأطقما من الصيني الدقيق. وهناك تجلس إلى جانب المدفأة- متخوفة من البرد مستقرة على مقعد وثير مستدير تسمية برميلها- تلك التي ملكت أوروبا العقلية، والتي عرفت كيف تدعوها إلى مواعيدها، ففي الواقع أن خفة روحها، وحيويتها، وتنوع ثقافتها وتعمقها

النفسي، والطابع الخاص بالجماعة العالمية التي كانت تقلب فيها الفكر، وسحر المحادثة التي صارت في الوقت ذاته لهواً وفنًا، كل ذلك كان معروفًا إلى حدود العالم المثقف. وعندما عرفت أن قارئها مادموازيل دي ليسبيناس (١) . قد أسست في منزلها الخاص ندوة منافسة لندوتها، تجتمع فيها خيرة أصدقائها قبل الذهاب إليها، يئست ولكن يأسها لم يأت فقط من الغيرة النسائية ولا من الحقد الناشيء عن إنكار الجميل، ولا من مرارة الخيانة، إذ أن ما سلب منها هو منشأ وجودها، وأخرى كانت تؤلف بين النفوس. إن أخرى قد اختطفت منها امتياز إدارة أنغام العقول.

وفي تصوير تأثير النساء يقول الأخوان جونكور: «كل عصر إنساني، وكل قرن يبدو للأجيال التالية أنه - كحياة الأفراد- يسوده طابع أو قانون داخلي رفيع فريد دقيق منبثق من الطباع، مسيطر على الوقائع، ويظهر على بعد أن التاريخ ينساب منه.

لا جرم أن الدراسة تبرز في القرن الثامن عشر ذلك الطابع العالم الثابت الجوهري، أو ذلك القانون الأسمى لمجتمع هو تاجه وصورته وسره، أي أن روح تلك الحقبة ومركز العالم فيها، والنقطة التي منها يصدر كل شيء، والقمة التي منها ينحدر كل شيء، والصورة التي منها يتخذ كل شيء نموذجه، هي المرأة» (٢).

## رجل الأدب

سنكون لأنفسنا عن رجل الأدب في القرن الثامن عشر فكرة عالية، إذ أنه يكون من التجديف، أن يقال إن رجل الأدب ليس أنفع للدولة من لاعب الكرة، بل قد صار، على الضد من ذلك «مواطنًا هامًا» كما يلاحظ الأب رينال.

---

(١) انظر - فيما يتعلق بمادموازيل دي ليسبيناس، ذلك المقال القيم المؤيد بالمستندات الذي نشره عميد الأدب السيد الدكتور طه حسين في مجلة الكاتب المصري ثم سجله في كتاب: «ألوان». (المترجم)

(٢) E, et J. de Goncourt, La femme au 18 éme Siécle, 1862. ch.g.

إنه يعيش من مهنته، وهذا هو التغير، وإن الكتاب قد صار أداة ربح، فهو لم يعد يمنح لصاحب المكتبة، وإنما يباع له، ويحرر بينه وبين المؤلف عقد، هو مربح للأول، ولكنه ليس عديم الإنتاج بالنسبة إلى الثاني، فإن دريدان تسلم في سنة ١٦٩٧ مبلغ ألف وأربعمائة جنيه لترجمته فيرچيل، وأديسون ظفر من جماهير القراء بجزء من قوته. وپوپ جلب لنفسه السعة، فترجمته للإلياذة والأوديسا وحدهما قد أدرت عليه مبلغ تسعة آلاف جنيه استرليني تقريبًا، فهو مدين لموهبته، بفلته في تويكانهام، وحديقته وكهفه الصناعي. وجولد سميث وإن كان لم ينعم بوجود ذهبي، إلا أنه مع ذلك قد يشعر بتقدم حالته ويعلن اعترافه بالجميل لأصدقائه الأخيار الكرماء من القراء.

ومما لا ريب فيه أن كل عضو مثقف من أعضاء المجتمع، بشرائه ما كتبه رجل الأدب، يساهم في مكافأته وأن بدعة الحديث المازح الذي يصور المؤلفين على أنهم بؤساء، أو جياع، يمكن أن تكون خفة روح في الماضي ولكنها كفت عن أن تكون كذلك، لأن الأمر لم يعد بعد حقًا، فالمؤلف يستطيع الآن أن يرفض دعوة إلى الغداء دون أن يخشى غضب حاميه، أو مغبة الجوع عند عودته إلى منزله، بل حتى إذا لم يستطع أن يتباهى بأنه ثري، فإنه يستطيع أن يطالب بكلمة الاستقلال. . .

إن ليساچ، فيما يقال، هو الفرنسي الأول الذي ربح قوته من رواياته، ومسرحياته. وإن ماريڤو الذي دمرت ثروته بوساطة مشروع لاس المالي، قد نجا من الخراب بفضل إنتاجه. أما ڤولتير، فقد كان أحد رجال الأدب بل أحد عظماء الأشراف، حقًا إنه كان ماليًا أيضًا، ولكنه في هذا نفسه، قد فكر أنه ينبغي فصل المعنيين، معنى الكاتب، ومعنى العامل.

وفي ألمانيا، صارت الأمور بصورة أكثر بطئًا غير أن المسرح والترجمات، ووسائل العيش التي صارت عامة، وهي التي تدعى بالصحف، قد سمحت للكتاب بأن يتخلصوا من وثائقهم. ولقد قدم الناشر نيكولائي مركزًا إلى ممثلي «عصر الأنوار».

أما في إيطاليا فقد كان يوجه إلى كتاب مجلة «المقهى» (١) السؤآل التالي: «لماذاكان رجال الأدب مبجلين في الماضي، ولم يعودوا كذلك اليوم؟» ولكن هذا السؤال قد أسيء وضعه، لأن رجال الأدب ليس لديهم ما يشكون منه في الوقت الراهن، فالذوق الأدبي، قد انتشر في اتساع، وقد استفادوا هم من ذلك، لأنهم عرفوا كيف يقدرن تقديراً عادلاً، شيبيون مافيئي، ولودوڤيكو موراتوري، وفرانشيسكو الجاروتي. ولقد منح بلاط ڤيينا، امتيازات وثروات لميتا ستاز.

وقصارى القول أنه - فيما يتعلق بحالة الأدب في أوروبا - يجب الاعتراف بأنه لم يمنح ألبتة، مثل هذا القدر من التشريف للأناسي الذين ساهموا في إثارة الرأي العام، وفي نشر الحقائق النافعة . . .

لم يكن هذا التحول بلا نتيجة فيما يتعلق بمحتوى الأدب، بل بصورته، ففي الواقع، حين كان المؤلف ينشر للذته، أو لمجده، كان لديه كل الوقت الضروري لذلك. ولكنه حين كان ينشر ليدفع ثمن الخبز أو إيجار المسكن، كان ينبغي أن ينتج كثيراً وسريعًا. وعندما كان يسلم مخطوطًا، يفكر فيما يسلمه على أثر ذلك. ولا ريب أن الدوريات تلتهم المخطوطات ولم يعد لديه الوقت اللازم لترك الإنتاج يتكون من نفسه بعد نضوج متمهل ومن جهة أخرى هو على اتصال بالقراء أكثر مباشرة من ذي قبل، وهو يساهم عن قرب، في حياتهم، وعلى الأخص وهو يتخيل نفسه، أعظم حرية ذلك هو الجانب الجوهري.

حقًا إنها لحالة شاقة، أن يكون المؤلف بلا «ميسين»! (أي بلاحام) ويحدثنا ماريڤو، أن إحدى أميرات إسبانيا دخلت باريس في احتفال، وقد ازدحمت الطرقات بالجماهير لمشاهدة موكبها، وكان هناك صانع أحذية بقي وحده في مصنعه، فدخل عنده أحد الصحفيين فدهش من هذا، وإذ ذاك جعل يشرح له أنه ينبغي أن يكدح وأن لديه أحذية يجب أن يردها إلى أربابها، وأنه ينبغي أن يكسب

(١) II Caffé, Degli onori resi ai Lwtterati, 2 éme trim. 1765.

قوته، وعلى هذا النحو كان الصحفي نفسه، أو رجل الأدب الذي يميل إلي أن ينشر بنظام. لا يكف عن العمل حتى حين يستريح الآخرون [١]. ولكنه يرتضى هذا الحظ العسير، لأنه يجده أكثر نبلاً وأنه يرى ما فيه من عظمة، مع ما يشتمل عليه من مضرة. وهو يحب مهمته تحت مظهرها الجديد، وكان صمويل چونسون يقول: «إن جريه رجل غريب، فهو يزعم أنه لا ينشئ شعراً إلا حين يشعر بأنه ملهم!» أما جونسون ذاته فإنه كان ينتهي من عمله سعيداً بأن يعتقد أن الأدب قد صار مهنة، وأنه قد انتهى من الحماية.

وكان يقال: «إن كون المرء مؤلفًا هو اليوم حالة، ككونه عسكريًا أو قاضيًا، أو كنيسيًا، أو ماليًا» [٢]. وإن عملاً من أعمال الفكر يتم حول هذه الجملة على النحو التالي:

كان المؤلفون يكتبون بإيجاز، تاريخ رجل الأدب خلال العصور وكانوا يحاولون أن يجدوا له تعريفًا ولم يكن ذلك من أهون الأمور، وكانوا ينشئون لا ئحته المعنوية. وكانوا يعودون دائمًا إلي القول بأن جمهورية الأدب كانت تتألف سابقًا من الهواة الذي ينشغلون بأمور لا تعبأ بالصالح العام بينما أن أعضاءها في الوقت الحاضر يشغلون وظيفة. وإذن فلن يكونوا منذ الآن في خدمة العظماء.

وكان الفلاسفة يرون الحالة كما يلي:

كان ذوو السلطان في هذا العالم في الوقت ذاته حلفاء رجل الأدب من حيثية إنهم كانوا يطعمونه، ويحمونه، وينفقون عليه، وكانوا أعداءه من حيثية إنهم كانوا يوجهون قلمه. نعم إن الكتاب لا يريدون أن تكون القطيعة تامة، ولا يرفضون المزايا والمكاسب. ولكنهم لم يعودوا يريدون أن تكون العلاقة بين سيد وخادم. فهم يعتقدون أن اصطحاب الأثرياء والأشراف له فائدته ما دام أنه يسمح بملاحظة جزء هام من الأفعال البشرية، بشرط ألا يكون عبودية على أية درجة. على أنه،

(١) Marivaux, Le Spectateur feancais, 1722 1723, feuille 5.

(٢) Almanach des auteurs, 1755

أليس المؤلف مساويًا لأولئك الذين سادوه زمنًا طويلاً؟ بل أليس هو من بعض النواحي أسمى منهم؟ أو ليس هو الذي يوزع أكاليل الغار التي تحول بين الناس والفناء؟ أو ليس هو ممثل السلطان الجديد الذي يدعى بالعلم؟ أو ليس هو أميراً من أمراء العقل؟

ليغير إذن. عبارات حلفه القديم. وليتخذ كبار الأشراف على ما هم عليه في أكثر الأحايين أي جهلاء، وقضاة أردياء ليس لديهم ذلك الشرف المحزن بأن يكونوا جائرين عارفين بجورهم. بهذا الثمن فقط يظفر بمعرفة قيمته الخاصة.

إنه لجنس صاخب إلى أقصى حد، جنس مغرور يتخم من الثناء، جنس منقسم على نفسه، وأبناؤه، بدلاً من أن يتحدوا هم يتبادلون التقاضم فيما بينهم، جنس خليط يحتوي على أعظم الأشياء وأخسها. ومع ذلك فهناك كرامة لا نظير لها قد وعد بها هذا الجنس على شريطة أن يصلح من عيوبه، إذ أنه يعزى إليه أنه مربى الذوق وموئل الفكرة، بل رئيس العمل.

كان كينيه الاقتصادي، موجوداً عند مدام دي پونپادور الذي كان طبيبها، فسمع رجلاً ذا مكانة يقترح وسائل عنيفة لتهدئة المشاحنات الدينية معلنًا أن الحرية هي التي تقتاد المملكة ثم تساءل كينيه عمن يقتاد الحربة ثم أجاب نفسه فقال: «إنه هو الرأي، وإذن فينبغي التأثير في الرأي»، ولا جرم أن الكتاب هم سادة الرأي ما دام أن عملهم بالضبط هو التأثير فيه كل يوم، وأن قوتهم تأتي من ذلك، وأن كبار الأشراف، أو أردياء الرجال قد بدأوا يعرفون ذلك لأنهم يرهبونه كما يرهب اللصوص مصابيح الطرقات. ومهما يكن أولئك الكبار أقوياء أو مهما تصوروا أنهم كذلك فإنه يجب عليهم ألا يخلقوا ألبتة لهم أعداءاًيستطيعون بجرة قلم، أن يحققوا انتقامًا جليًا وباقيًا لأنهم يستمتعون بميزة أن منتجاتهم مقروءة في أوروبا من أحد طرفيها إلى الآخر، ومن ثم فإن الأمراء- بدلاً من أن يعاملوهم بازدراء- يجب أن يتخذوهم مرشدين. وبالإجمال إن رجال الأدب كانوا يرون أن لهم من التأثير في حظ الأجيال المقبلة، أكثر مما للملوك أنفسهم في الأحياء.

# رجل الطبقة الوسطى

إنها لواقعة مسلمة بوجه عام أن القرن الثامن عشر قد أقر قوة طبقة جديدة هي الطبقة المتوسطة، وليس يعنينا هنا أن نختبر هذه الواقعة من الوجهة الاقتصادية، بوساطة الأرقام، أو دراسة نقل الثروة أو انخفاض الأثمان أو ارتفاعها أو تنوع الميزانية، ولكنه يعنينا أن نرى في ماذا هي تتفق مع تاريخ الفكر.

تظهر أول الأمر أرستقراطية ساطعة ذات بهرج تدعى أنها تظل هي الجسم الأول للدولة. وهي لا تريد أن تتنازل عن شيء من الألقاب ولا من التشريفات ولا من الامتيازات. ولكنها في نفس الوقت الذي تسرف فيه في الثروات التي تسمح لها بالاحتفاظ بمنزلتها، هي تفقد تلك المنزلة أثناء إعادة الفحص الذي يتصدى للقيم الأخلاقية، ففي الواقع أن قادة الفكر ينكرون سبب وجودها. وهي أحيانًا لا تحسب لمجهودهم حسابًا وتصر على أن تعتبره عدمًا، وأحيانًا تساعده بتحالفها مع الفلاسفة. وهناك قسم من الأرستقراطية قد أحب دائمًا أن يعمل للقضاء على نفسه. وهي على أي حال تسيء الدفاع عن نفسها، فلا ترد ألبتة. أو ترد ردًا منحرفًا على المآخذ المؤسسة على الفكر المحضة، والتي تتجه في كل يوم إلى تجريدها من صدارتها، والتي لم تعد تقف عند حد الموضوع الذي لاكته ألسنة الأخلاقيين، وهو أن نبل المولد لا يفوق نبل القلب، وأنه ينبغي احترام عتال شريف أكثر من أرستقراطي يعيش بلا شرف، ففي الواقع أن هناك تعقلاً لم يعد الأمر فيه يتعلق بموضوع مطروق من الجميع. وهو أكثر إنتاجًا من المطروقات لأنه متطابق بصورة مباشرة مع الإدراك الحديث للدولة والمجتمع، هذا التعقل قد جعل يتثبت وينتشر ضد تصور طبقة ممتازة امتيازًا أبديًا، وهو : أن للدولة الحق ألا تكافيء إلا المؤهلات الراهنة. وأن المجتمع لا يعترف بالجميل إلا لمن يعملون لهناءته بصورة مباشرة. ولو أن الامتيازات التي يمنحانها كانت تنتقل مع الدم، لكانت مضادة لقانون العدالة الذي يجب أن ينفرد بتنظيم العلائق بين المواطنين. وإن الشخص

الوحيد النبيل حقًا، هو الذي يستحق تقدير الوطن والإنسانية وليس هو الذي استحق ذلك أجداده سابقًا من جماعة هي نفسها لم تكن منظمة بوساطة مبادئ عقلية. وفوق ذلك فإن السلطة تعزى إلى الجميع، وأنها ليست سوى تفويض لا يراد إسناده إلا إلى ممثلين معنيين، ولم يكن لديهم ألبتة إلا سلطة مؤقتة قابلة للانتزاع. وما دام الأمر كذلك فإنه لا توجد بعد، ميزات وراثية، ففي الحق أن الناس يرتضون الاحتفاظ بأحد أجناس كلاب الصيد الجيدة، عندما تستمر جيدة، ولكنها حين تفسد يغرقونها. وفي هذا يقول دولباك: « هل الألقاب والنسب الأسرية الكتابية التي انقضى زمانها، والمحفوظة في قصور عتيقة تمنح الذين ورثوها الحق في أن يتوقوا إلى أرفع مناصب الكنيسة والبلاط والقضاء والجيش دون أن يكون لديهم، مع ذلك أية موهبة ضرورية لشغلها كما يليق؟ وهل لأن مقاتلين نبلاء قد استطاعوا سابقًا أن يساهموا، مخاطرين بحياتهم في فتح إحدى الممالك أو في سلب بعض الأقاليم، ينبغي أن أخلافهم بعد هذا العدد من القرون يظلون يعتقدون أن لهم الحق في أن يسيئوا معاملة أتباعهم ؟ »[1].

ومن حيث إن سبب وجود الحكومة الإقطاعية، لم يعد مفهومًا حتى من الوجهة التاريخية، وأنه لم يعد يعتبر إلا على أنه «لصوصية منظمة» وما دام أن أوروبا – في الأمور النظرية، كما في العملية – تعمل على محو آخر آثارها، فإن دور الأرستقراطية قد انتهى.

إننا نرى بعد ذلك طبقة لا تعتبر بعد، قادرة على ملء الفراغ المتروك على هذا النحو، لأنها لا تساهم في « الأنوار» بالمقدار الكافي. وفي الواقع أن المحافظين يرون، لعدة أسباب، أن الصعاليك، حيث هم الآن، هم في موضعهم الصحيح، ولو رفعوا لكان أمن المحافظين نفسه في خطر. أما الأحرار، فإنهم لا يعتبرون أولئك الصعاليك إلا على أنهم أدوات لأنه ينبغي وجود قوم للعمل، ولو وجب أن يتألموا من ذلك.

أما الفلاسفة، فإنهم يترددون حين يرونهم، ويفكرون على النحو التالي:

---

D' Holbach, Ethocratie, 1776, ch, 10.(١)

حقًا إنه عدد ضخم من الفقراء في طرقات لندن، وفي القرى الفرنسية والإيطالية، وحقًا إنه يوجد تمرد القرويين في النمسا وفي بوهيميا، وفي هونغاريا، وأن أولئك الذين شرعوا في إصلاح العالم قد أشفقوا من ذلك الألم وهم يقولون: إنها لمسألة عظمى، أن يعرف المرء إلى أية درجة يجب أن يعامل الشعب كأنه قردة. ومما لا ريب فيه أن الطرف الخادع لم يختبر ألبتة هذه المشكلة الدقيقة، وخوفًا من أن يخطئ التقدير، قد كدس أكبر قدر ممكن من الأوهام في رؤوس الطرف المخدوع ولكن الطرف الخادع، مع ذلك، ألم يعمل إلا بوساطة الغش؟ لا جرم أن الإنسان خليق بالتقدم في حدود استنارته، وأنه يوجد كثير من الأناسي ليسوا مستنيرين ولا تمكن إنارتهم إلا على صورة جد بطيئة، أو قد لا يكونون جديرين بالإنارة، ولا يستفيدون ألبتة.

وفي الحق أن رفق الفلاسفة يمتد راضيًا إلى الحالة الثالثة وهي حالة الصناع. ولكنه لا يصل إلى الحالة الرابعة، وهو يميز - فيما يدعى بالشعب- بين الحرف التي تتطلب تربية شريفة، والحرف التي لا تتطلب سوى عمل السواعد والتعب اليومي. والناس الذين ينتسبون إلى هذه الفصيلة الثانية، لا يذهبون البتة- من حيث كل تسلية وكل مسرة - إلا إلى الصلاة العظمى وإلى الحانات، لأنه يرتل الأولى، ولأنهم يغنون في الثانية. بينما أن الصناع الأكثر تربية، والذين هم مقودون بنفس مهنتهم إلى التفكير، هم خليقون بأن يتعلموا، وفي الواقع قد بدأوا يتعلمون في جميع البلاد. وفي الحق أن الأشخاص المحترمين الجديرين بالاهتمام، هم الذين يمكن اجتذابهم إلى شيء من الثورة العقلية، ولكن السفلة ستبقى دائمًا هي السفلة.

حقًا إننا نسمع بضعة احتجاجات باسم السعادة موجهة إلى الفلسفة على النحو التالي:

إنكم تقولون إن السعادة يجب أن تكون مقسمة تقسيمًا عامًا، ولكن هل السوقي سعيد؟ إنكم تعرفون جيدًا أن الإجابة بالنفي، ففي الواقع أن عبد الإقطاعية أو المرتزق الحر ليس له من حصة سوى المشقة والبؤس والمرض، وأن العامل يخضع لقانون الرؤساء العاطلين والجشعين الذين تلقوا سلطة تشغيله بلا

مقابل . إنكم تعاملون السوقي كما لو كان بلا عقل ولا فضيلة ، وإنما له غرائز فقط . إنه عندكم شبيه بالحيوانات ، وإن صورته الإنسانية ليست سوى وهم .

غير أن هذه الاحتجاجات لم تكن آتية إلا من أصوات منعزلة ، وستكون فيما بعد إحدى شكايات روبيسبيير ضد «الموسوعيين» لأنهم ظلوا دون الصعود إلى مرتبة حقوق الشعب . (١) .

بين طبقة الأشراف التي يطلب خفضها ، والسفلة التي لا يصمم المصلحون على إعلاء شأنها ، تستقر طبقة لم تنتظر القرن الثامن عشر لكي ترتفع ، ولكنها انتهت إلى العثور على ألقابها في بعض فكر الآونة الراهنة ، وعلى هذا النحو اجتمعت طريقة الوجود مع المذهب . وبالتالي فإن بعض الفكر التي تصطحب هذه الواقعة تظهر في جلاء ، وإن الطبقة المتوسطة لم تكن على ما هي عليه الآن إلا حين وصلت هذه الفكر إلى آونة قوتها وصارت غير قابلة للمقاومة . وهي فكرة أنه

---

(١) Abbé Coyer, Dissertations pou être lues.... sur la nature du peuple, 1755, La Haye - Abbé Raynal, Histoire philo, et poli.: des étbissements et du Commerce européens, 1770, L. 17. ch. 31 - Robespierre, Discours du 18 floréal an 2, paru au Moniteur universel, 19 floréal, an 2, 8 mai 1794:

ويقول هذا الأخير : «إن أهم الشيع وأشهرها هي الشيعة التي عرفت باسم شيعة . «الموسوعيين» ، فقد كانت تشتمل على بعض الرجال الجديرين بالاعتبار . وعدد أكثر ، من الدجالين أرباب المطامع . وقد صار عدة أفراد من رؤسائها ، مواطنين ذوي أهمية في الدولة . ومن يجهل تأثير هذه الشيعة وسياستها فلن يكون لديه فكرة تامة عن مقدمة ثورتنا إنها في محيط السياسة قد ظلت دائمًا أخفض من الصعود إلى مرتبة حقوق الشعب . وفي محيط الأخلاق ، ذهبت إلى ما وراء التصورات الدينية . ولقد كان أعضاؤها يخطبون أحيانًا ضد الاستبداد ، وكان ينفق عليهم من المستبدين ، وكانوا يؤلفون أحيانًا كتبًا ضد البلاط ، وينشئون أحيانًا أخرى إهداءات الملوك ، ويلقون خطبًا لرجال القصر ، وينشئون قصائد غزلية للمومسات ، وكانوا معتزين بمؤلفاتهم ، ولكنهم كانوا يزحفون حبوا في حجر الانتظار . ولقد نشرت هذه الشيعة ، بحرارة عظيمة رأى المادية الذي تغلب على العظماء وذوي العقليات المثقفة . ولا جرم أن الناس مدينون لها بذلك النوع من الفلسفة العملية التي - بتحويلها الأنانية إلى نظرية - تنظر إلى المجتمع البشري على أنه حرب حيلة ، وإلى النجاح على أنه قاعدة العدل والظلم ، وإلى الشرف على أنه مسألة ذوق أو أدب ، وإلى العالم على أنه تركة الأنانيين المهرة» .

ينبغي هجران الأسمى للاشتغال بالواقعي، وترك الجدل النظري حول العالم من أجل امتلاك العالم. ولقد قال چوبير ذلك في عبارات لا تنسى حين كان يتأمل الأناسي الذين سبقوا جيله مباشرة: «إن الإله قد انزوى في نفسه، واختفى في جوهره، كما تختفي شمسنا بالنسبة إلينا عندما تعكرها سحابة. ولا جرم أن شمس العقول هذه لم تعد مرئية بالنسبة إليهم... وفي تلك الغيبة، غيبة الانجذاب والمشاهدة العليا، لما كانوا لا يستطيعون النظر إلى الموجود، فقد انشغلوا بالعالم» (١).

وكذلك فكرة الحرية التي رأينا قوتها، وفكرة أن الملكية كانت تصنع المواطن. وسواء أكانت الملكية تجارية أم عقارية أم صناعية، فإن هذه الفكرة لا تتغير فكل امرئ يملك شيئًا في دولة، يكون معنيًا بخير الدولة، وأيا كانت المنزلة التي تمنحه الظروف الخاصة إياها، فإنه دائمًا، بوصف أنه مالك، وإنه بسبب ممتلكاته، يجب أن يتكلم أو أن ينال الحق في أن يمثل كما كانت تجزم دائرة المعارف.

ومن ثم فإن أكثر المدافعين عن الفلسفة، هم من الطبقة المتوسطة، ومن ثم فإن صوراً جديدة من الأدب تتجه إلى جمهور المتوسطين. ومن ثم فإن الأدب يصف الصعودات السريعة نحو طبقة غير معينة الحدود، ولكنها تتميز بالثراء. وهاك أمثلة من ذلك الأدب: «القروي الذي وصل» و «القروية التي وصلت» و «القروية الجديدة التي وصلت» و «الجندي الذي وصل».

ومن ثم فإن المسرح يطري: «تاجر لندن» بصورة أيسر مما يسخر به من المتوسط الأرستقراطي (٢).

---

(١) Les cahiers Joseph Joubert, Twxtes recucillis sur les manuscrits autograpbes par André Beaunier, 1938, t.1,p. 102.

(٢) يشير المؤلف هنا إلى مسرحية «المتوسط الارستقراطي» لموليير وهي صورة لسخرية المؤلفين في القرن السابع عشر من أهل الطبقة الوسطى الذين كانوا يتظاهرون بالأرستقراطية وتلك صورة لم تعد مألوفة بعد في القرن الثامن عشر. (المترجم)

إن تاجر تلك المسرحية الشهيرة هو رجل ذو كرامة، وهو يتحدث بالحكم، ولديه قواعده المشتملة على الشرف التاجري، والتي توضع فوق القواعد العادية، وإن ليلو يجعله يقول (في هذه المسرحية): كما أن اسم التاجر لا يخفض ألبتة اسم الأرستقراطي، كذلك الأرستقراطي ليس مبعداً بالضرورة عن التشريف التجاري. ومن ثم فإن الفاجعة المبكية - في ذات الوقت الذي تمنح فيه العاطفة مكانًا- تسجل تطوراً اجتماعيًا هو أن رجل الطبقة المتوسطة قد ظفر بألقابه، كما ظفر بالحياة. ومع ذلك فإن مجيء الصناعة العظمى لا يترجم بعد في الأدب، وإنما سيكون ذلك في القرن التاسع عشر.

## الماسوني

تبدو الماسونية في تلك الحقبة كأنها نوع من الشذوذ. إذ أن الذين لم يعودوا يريدون الكنيسة جعلوا يختلفون إلى كنيسة صغيرة مظلمة، والذين لم يعودوا يرغبون في الطقوس والرموز، أخذوا يلتجئون إلى الرموز والطقوس كالتدشين والأعمدة، واللوحة: المصورة التي تمثل معبد سليمان، والنجمة الساطعة، والزاوية، والبرجل، وميزان الماء، والذين لم يعودوا يألفون الأسرار والحجب والذين يطلبون أن تكون المفاوضات الخارجية نفسها تجري صريحة يتعهدون بالسر المطلق في قسمهم التالي: «إنني أتعهد وألزم نفسي أمام المهندس الأعظم للكون، وأمام هذه الجماعة المحترمة، ألا أفشي ألبتة أسرار الماسونيين والماسونية، وألا أكون السبب المباشر أو غير المباشر لإفشاء تلك الأسرار أو نقشها أو طبعها بأية لغة أو أية إشارة كيفما كانت. إنني أتعهد بذلك مرتضيًا- عند عدم قيامي بتعهدي- قطع وريدي وانتزاع لساني وتمزيق قلبي، وأن تدفن هذه جميعها في هوة البحر العميقة، وأن يحرق جسمي ويحول إلى رماد تذروه الرياح حتى لا تكون لي بعد ذلك ذكرى بين الناس وبين الماسونيين».

والعقليون الذين سيبحثون في أعماق العصور عن عناصر تنسك هو فيما بعد، وعند بضعة منهم، سيحل محل العقل. وأعداء الشيع يؤسسون شيعة.

غير إنه - فيما وراء الظواهر - إنما هي روح العصر تلك التي توجد فيهم، فهم يلتئمون مع الإدراك الجديد للوجود، وهو الذي ينبذ الجدية والأحزان واليأس. وهي الأمور التي تنتهي إلى الأمل فيما وراء هذا العالم وإلى هذا تشير أنشودتهم التالية:

«بوساطة طريق مغطى بكثير من الزهور، يجتاز الماسوني الحياة منقبًا عن اللذة فأرًا من الألم. وهو دائمًا يتبع القوانين العذبة من أخلاق إيبيكور. . . »

ومن أجل ذلك هم، في اجتماعاتهم الأولى، ينظمون ولائم ومآدب، ويديرون الكؤوس، ويترنمون بمقاطع باكوسية[1]. وهم يلقون أكاليل الشوك، ويحيطون رؤوسهم بأكاليل الورد.

إنهم يريدون تغيير المجتمع، ولكن ليس لديهم السلطان. وإذن فينبغي لهم مؤامرة، ومؤامرة دولية. إنهم سيتحدون وسيصيرون إخوة، وإن وفاءبعض أعضاء الجماعة للبعض الآخر، سيكون أحد قوانينهم، وإن أحد الأشياع عندما يصل إلى مدينة، يجد المواساة عند الأشياع الآخرين، وإذا كان في ضيق، فإنه سيتلقى المعونة. وإذا كان في إحدى المصاعب فإنه سينتزع منها وليس عليه إلا أن يقوم بإشارة، ليكون معروفًا. ومما لا ريب فيه أن «الأصدقاد الحقيقيين» و «الصداقة الحسنة» و «الصداقة الكاملة» هي أسماء تتمثل غالبًا بين أسماء المحافل. وإذا كان حقًا أن هناك فروقًا محلية قد تبدو، إذا كان حقًا أن كل بلد يتجه إلى أن يمنح هذه الجماعة العامة مظهرًا خاصًا، فإنه حق كذلك أن الرؤساء سيبذلون جهودًا في إعادة استقرار الوحدة التي هي شرط سلطتهم.

وليس هناك أحد أظمأ منهم إلى الحرية السياسية التي كان ذلك العصر فيها جشعًا. وإلى ذلك تومئ مقطوعتهم التالية:

---

(١) الباكوسية نسبة إلى باكوس إله الخمر عند الرومانبن وهي أناشيد مرحة تتغنى باسم اللذه والنبيذ. (المترجم)

«إن صرخة الطبيعة أيها الصديق هي الحرية، ذلك الحق الذي هو جد عزيز على الإنسان، هو هنا محترم إننا متساوون بلا فوضى، وأحرار بلا شذوذ، وإن إطاعتنا لقوانينا هي التي تضع استقلالنا . . . »

لتعلن الحرب على الطغاة المستبدين، ولتعلن الحرب على الامتيازات وعلى كل سلطة ليست هي السلطة التي يقرونها : «إن هذا الميزان الذي نحمله في أيدينا يعلمنا كيف نقدر الأناسي، ولكي نجل الإنسانية في أشخاصهم، ولكي لا تبهرنا الامتيازات الاجتماعية» . «إن الماسوني رجل حر، وهو صديق الثري والفقير على السواء إذا كان من ذوي الفضيلة» .

بقي الماسوني على مذهب المؤلهين زمنًا طويلاً وكان يجب ألا يكون «داعراً غير متدين ولا ملحداً غبيًا » ومن الممكن أن هذه الوصية الأولى تشرح كيف استطاع بعض رجال الكنيسة أن يبقوا إلى جانبه حتى وقت متقدم من تاريخ التطور . ومع ذلك فإنه كان ضد المسيحية . إنه كان يتشيع لذلك الدين العام الذي اتفق عليه جميع الناس، وهو الدين الطبيعي، وعندما أقبل عليه الملاحدة، ولما تبينه الفلاسفة - بعد أن فهموا أنه كان في طلائع صفوف معركتهم - ألفوا في شخصه أنفس الحلفاء، وحينما مثلوا في محفله، مؤلهين كانوا أم ملحدين ، فإنه استقبلهم بسرور .

ولا ريب أن هذه المشابهات في الفكر والنيات والإرادات وتلك المساعدات المتبادلة، قد حققت من جانبها سرعة إذاعة الماسونية وامتدادها . وفي ٢٤ يونيو من سنة ١٧١٧ كان أعضاء المحافل الأربعة - وقد اجتمعوا في حانات : الأوزة والمشواة، والتاج، والتفاحة، والروماني، والعنب -كانوا يتكونون ليؤلفوا محفل لندن الأعظم، وفي سنة ١٧٢٣ ، قدم انديرسين إلى الجماعة لوائحها . ومنذ ذلك الحين صارت الماسونية إحدى خمائر «عصر الأنوار» فانتشرت في القارة، وعمت كل بلاد أوربا واحداً بعد الآخر ولو استطاع المرء يومًا أن ينشئ خرطة لذلك الزحف التقدمي لرأى فيها المدن التجارية العظمى، ومرافئ البحر والعواصم، أما

تخطيط الطرق فهو يتعلق أحيانًا بالمصادفة والعدوى، ولكنه أحيانًا أخرى ينتسخ على غرار الطرق التقليدية للأسواق، والمهاجرات والغزوات. ولا جرم أن الماسونيين الذين كانوا يتجولون تجاراً وسياسيين وبحارين وجنوداً كانوا يؤسسون محافل في مواضع مرورهم أو إقامتهم وكذلك أسرى الحرب الذين كانوا يرسلون من معسكر إلى آخر وكذلك فرق الهزليين الجوالين.

إن الاسم الإنجليزي « فري. ميسونس» قد بقي بعض الوقت وأن المحفل الأول في روما في سنة ١٧٣٥ قد أسس بوساطة أنصار استوارتس الذين التجأوا إلى روما يعلنون في لوائحه أن معرفة الإنجليزية ضرورية لطلب القبول. وبعد ذلك ترجمت كل لغة قومية تلك الكلمة عندما تبنتها.

وأيا كان فإن الحكومات قد استبعدتها وأن الكنيسة قد دانتها. ومن أمثلة ذلك أن محفل فلورانسا الذي أنشأه الإنجليز في سنة ١٧٣٣ قد أبلغ أمره إلى محكمة «سان - أوفيس» فأغلق، وعوقب الشاعر كروديلي الذي كان عضواً فيه. وأخيراً فقدت الماسونية كلها، منزلتها في العالم المسيحي بوساطة براءة قذف بها البابا كليمان الثاني عشر في سنة ١٧٣٨. وفي سنة ١٧٥١ جدد البابا بينوا الرابع عشر الإعانة. غير أن الماسونية أخذت تتحدى الحكومة والكنيسة. وأن للأعيان والمتوسطين الميسورين، وأعضاء المهن الحرة، الذين هم دائمًا أكثر عدداً، قد جعلوا يشتركون في المحافل. ومنذ سنة ١٧٣٨ قد سجل قاموس شامبيرس كلمة ماسوني بين مقالاته وهو يضيف إلى ذلك التعقيب الآتي: «إن الماسونيين هم الآن جد جديرين بالاعتبار من ناحية عددهم وأخلاقهم».

لا جرم أن هذه الحركة قد قويت بفضل انتساب الأشراف إليها. فالمركيز دي بيليجارد- وهو أحد أشراف بلاط شارل - إيما نويل الثالث - قد أقام المحفل الأول في مدينة شامبيري وهذا المحفل نفسه هو الذي سيصير الكاتب چوزيف دي ميستر فيما بعد عضواً فيه وهو الذي سيكون المحفل الرئيسي لإقليمي ساڤواي وپيمون.

وريموندودي سانجرو أمير سان سيڤيرو صار «الأستاذ الأعظم» لمحفل ناپولي. ودوق دانتان، والكونت دي كليرمون، ودوق دي شارتر، هم «الأساتذة العظماء» للماسونية الفرنسية. وأرفع من هولاء ڤرانسوادي لورين الذي تزوج فيما بعد ماري تريز أمبراطورة النمسا، قد التحق بالماسونية في هولاندا. وفريديريك الثاني انتسب إليها في سنة ١٧٣٨، عندما لم يكن بعد سوى ولي العهد، وفي سنة ١٧٤٤ صار هو الأستاذ الأعظم في محفل «الكرات الثلاث» في برلين. وماري - كارولين ملكة ناپولي كانت ماسونية.

حقًا إن النساء في المبدأ كن مبعدات عن تلك الجماعة، ولم يكن يقبل فيها سوى «رجال محترمين مستقيمين، ذوي مولد كريم، وسن ناضجة ومتبصرين»، ولم يكن يقبل فيها عبيد ولا نساء، ولا رجال بلا أخلاق، أو ذوو سلوك مستهتر. وكان الصعاليك يجدون أبوابها موصدة أمامهم على الدوام. ولكن النساء لم يلبثن أن قبلن في محافل خاصة.

وفي ٧ أبريل من سنة ١٧٧٨، طبعت هذه القوة الماسونية بطابع التشريف الفخم. وكان ذلك في التاريخ الذي صار فيه ڤولتير عضواً في محفل «الأخوات التسع» الذي أسس في باريس في سنة ١٧٧٦ والذي كان يحركه هيلڤيسيوس ثم لالاند. وفي الواقع أن ڤولتير - وقد أعفي من رسميات الالتحاق- قد أدخل إلى القاعة بوساطة لجنة المندوبين التسعة التي كانت قد ذهبت لإحضاره، فدخل متكئًا على فرانكلان، ولقد أجاب على الأسئلة الأخلاقية والفلسفية التي وجهت إليه من «المحترم» في وسط صيحات إعجاب الحاضرين، وعلى أثر ذلك زحزحت الستارة السوداء، فظهر «الشرق» مضيئًا في لألائه. وهنا أقسم المبتدئ الجديد اليمين فقبل كمبتدئ، ومنح منطقة هيلڤيسيوس. وهكذا دخل الماسونية الرجل الذي دهش المحفل من أنه - رغم أنه عمل معه زمنًا جد طويل - لم ينتسب إليه حتى الآن.

## الفيلسوف

ليس لفيلسوف القرن الثامن عشر، علاقة بالدكتور أتكوي، والدكتور «إذن» إيرجو[1] الشرهين في القياس والانتيميما[2]، واللذين كانا يتلذذان بالباريرا والبارا ليبتون[3]، أي أنه لاعلاقة له « بالمدرسيين» الذين - إذ يشبهون محامي القضايا الخاسرة - كانوا يخصصون فنهم لخلط أبسط المعارف بوساطة مماحكات دقيقة أو تصريحات فخمة، ولا علاقة له بتلك النصب[4] المفزعة المرتدية الملابس السود ذات الأكمام الواســعة والمغطاة رؤسها بأغطية ذات قنابر تشبه قنبرة الهدهد، والتي كانت تتردد على المدارس لتعلم الشـبـاب فن تحويل الفروض إلى يقينيات، واليقينيات إلى فروض.

كان أولئك الفلاسفة ينتسبون إلى العصور المظلمة فليحتفظ الماضي بهم وليدفنهم، فلا يأتوا ليلقوا ظلالهم على الأيام الراهنة، وليس لهم صلة أيضًا بالميتافيزيقيين أولئك الاختصاصيين في السحب. ولاصلة لهم كذلك بالأنانيين الذي يطالبون بأسماء[5] هي مفرطة في الشرف بالنسبة إليهم بحجة أنهم يتقبلون بغير اكتراث أي بجبن كل شؤون الحياة.

---

(١) الدكتور انكوي والد الدكتور إذن هما رمزان لطريقة العصور الوسيطة في الجدل المنطقي الذي كان مطبوعًا بطابع الافراط في استعمال القياس على اختلاف صوره وتباين أشكاله. (المترجم)

(٢) الأنتيميما هو أحد أشكال القياس الأرسطو طاليسي وهو الشكل المؤسس على مجرد الاعتبار، أو مايحتمل المعقولية. (المترجم)

(٣) الباربارا والبارا ليتتون هما عبارتان وضعهما المدرسيون في العصور الوسيطة لمظهرين مختلفين من مظاهر الشكل الأول من قياس أرسطو (المترجم)

(٤) أراد المؤلف هنا أن يشبه فلاسفة العصور الوسيطة بتلك النصب السود التي يقيمها الزراع في حقولهم ليفزعوا بها الطيور الساطية علي ثمارهم (المترجم)

(٥) يشير المؤلف هنا إلى ذلك الفريق الذي كان يتصنع مقابلة كل شؤون الحياة باستهتار ليعتبر في عداد الفلاسفة الرواقيين الذين اشتهر عنهم احتمال كل كوارث الزمن في سخرية وابتسام. (المترجم).

لكي لايخطئ الناس في معنى كلمة فلسفة التي كان ينبغي الاحتفاظ بها، ما دام أن معناها حب الحكمة. ولقد أضافوا إليها نصًا مميزًا، فأصبح الفلاسفة الجدد يدعون بالفلاسفة العمليين. والآن وقد وجد نموذج جديد للإنسانية وهو الفيلسوف الذي أعقب تلك النتائج التي تتابعت على التوالي وهي: القديس، والفارس الشجاع، ورجل البلاط، ورجل اللياقة.

إن تعريفات الفيلسوف، لاتعوزنا فلنقض فقط عند أكثرها وضوحًا وهو الذي سنطلبه إلى دائرة المعارف.

لاجرم أن حياة خاملة، وشيئًا من العزلة، وبعض مظاهر من الحكمة مع قليل من القراءة لاتكفي لجعل المرء فيلسوفًا بل ولا التخلي عن كل وهم في محيط الدين الموحى به، لأنكم في هذه الحالة، تتخذون النتيجة، على أنها علة، ولكن العلة هي أشد عمقًا وفي هذا تقول دائرة المعارف.

«إن الفيلسوف مكينة إنسانية كأي رجل آخر، ولكنه مكينة، «وهو بواسطة تكوينه الميكانيكي، يتأمل في حركاته وهو ساعة تمتلئ أحيانًا من نفسها إذا أمكن أن يقال ذلك».

وإذن فإن روح الفحص، هي الطابع الجوهري، ولايوجد أي رأي لايجب إخضاعه لذلك الإختبار الأولى، إن الروح النقدية- وهي التي تعوز أكثر أشباهنا حين يعملون بلا معرفة الأسباب التي تحركهم، وقد حملتهم أهواؤهم خلال الظلمات ـ هي مختصة بالعقل. وهذا الأخير هو بإزاء الفلاسفة، كأنه هو الغوث بإزاء المسيحيين في مذهب القديس أوجوستان الذي يقول متحدثًا إلى تلاميذه: «انتشروا كما ينتشر النحل ... وعلى أثر هذا ستعودون إلى خلاياكم لتكونوا شهدكم.» وفي الواقع أن المبادئ لايمكن أن تأتي إلا من ملاحظة الوقائع، فمن الوقائع ينتزع العلم الذي هو في الوقت ذاته، يقيني ومحدد. إنه توجد يقينيات عندما يشعر المرء أنه تلقى من الأشياء، الانفعال الخاص الذي يفترضه كل حكم.

ويوجد حين تشعر طبيعة الأشياء أو ضعف أعضائنا، بوجود حدود، فهذا اليقين، يستمتع الفيلسوف، وبذلك التحديد لايغتم إنه لايستطيع الجزم بغير المدركات المجتلبة إلى نفسه، وهو مضطر إلى الاحتفاظ بالصمت بإزاء الحقائق الذاتية. قد يكون ذلك مؤسفًا، أو لعله هو الأفضل، إذ أن الفيلسوف يرى نفسه على ماهو عليه في الواقع، لا على مايبدو للخيال أنه يمكن أن يكون. ودون أن ينطق بالكلمة الحاسمة في أمر يتجاوز حدود قواه، هو يميل إلى الإيمان بأنه ليس مؤلفًا من عنصرين هما المادة والعقل، بل من عنصر واحد هو المادة المزودة بالفكر، وإذ كان الهواء وحده قادراً على أن ينتج النغمات، والنار وحدها تثير الحرارة، والعينان وحدهما تريان، والأذنان وحدهما تسمعان، فكذلك مادة المخ قادرة على التفكير.

إن العقل الفلسفي ـ وهو العلم باخطاء الأهواء ـ والوهم والتخمينات، والعارف أن الحقيقة لاتنال إلا بالمنهج اليقيني الذي حدده ـ «هو عقل ملاحظة وضبط يرجع كل شيء إلى مبادئه الحقيقية».

ولكن هذا العقل، إذا لم يكن إلا تأملاً، وإلا سروراً منعزلا ناشئًا عن إصلاح الخطأ العقلي الذي كان قد دام عدة قرون، فإنه يكون كمن يعمل في الخواء، غير أن «فيلسوفنا لايعتقد أنه منفي في هذا العالم، ولايعتقد أنه في بلد معاد، وهو يريد أن يستمتع كحكيم مقتصد، بالخيرات التي تقدمها إليه الطبيعة، وهو يريد الفوز بالسرور مع الآخرين، وللعثور على هذا السرور ينبغي أن يصنعه. ومن ثم فإنه يحاول أن يتلاءم مع أولئك الذين جعلته المصادفة، أو جعله اختياره يعيش معهم، وهو يجد في الوقت ذاته، مايلائمه. إنه رجل شريف يريد أن يروق غيره، وأن يكون نافعًا. ، وهو يعرف كيف يقسم نفسه بين العزلة التي تسمح له بالتفكير، وعشرة الناس التي تسمح له بأن يعيش. إنه مليء بالإنسانية ... وإن المجتمع المدني هو ـ إن صح أن يقال ذلك ـ الألوهية الوحيدة التي يعترف بها على وجه الأرض».

وبينما أن التقى يعمل بباعث الحماس، أو بدافع الفائدة، نرى أن الفيلسوف

يعمل مبعوثًا بروح النظام وبالعقل، وأن البواعث التي تنظم سلوكه هي قوية بقدر ماهي نزيهة وطبيعية. ولذا كانت فكرة الرجل الوغد متعارضة مع فكرة الفيلسوف كما تتعارض فكرة الغباوة.

إن لديه طموحًا تام الشرعية إلى مد سلطانه، ولو أن إدارة الأرض قد وكلت إليه. لصارت الأرض بذلك أفضل مما هي عليه. ومن ثم فإن تفكير الأمبراطور الروماني أنتونان كان كامل الضبط إذ قال: «إن الشعوب ستكون سعيدة عندما سيكون الملوك فلاسفة أو يكون الفلاسفة ملوكًا» ففي الواقع أن الخرافي يسيء شغل الوظائف العالمية، لأنه يعتبر نفسه منفيًا على الأرض، إذ أن مملكته ليست من هذا العالم، وأن الحكيم، على الضد من ذلك، عندما يسمو إلى المناصب العالية. لايعمل إلا للخير العام.

وهو لا يخجل من أهوائه أكثر من أنه لايحتقر الفوائد المادية. «وهو يريد الظفر برفهنية الحياة العذبة. وفوق الضروري المحدد، ينبغي له الكمالي الذي هو ضروري للرجل الشريف والذي يكون به سعيداً. وذلك هو أساس اللياقة واللذة».

وفي الحق أن احترامنا إياه لايقل إذا بقي فقيراً ولكننا نقصيه عن مجتمعنا إذا لم يعمل على التخلص من عبء بأسائه. وأن المعوز الذي يحرمنا نعيم العيش الشخصي، هو يقصينا أيضًا عن كل ترف حسي، ويبعدنا عن معاشرة الأناسي المتمدينين. وبالإجمال «إن الفيلسوف هو رجل شريف يتصرف في كل شيء بمقتضى العقل، وهو ـ إلى روح التفكير والضبط عنده ـ يضيف الطباع والمحامد الاجتماعية». وعلى هذا النحو رأى نفسه.

## على مقربة من النصر

وحدث بين سنتي ١٧٢٠ و١٧٥٠، حقبة تردد لم تكن كلمة الفيلسوف أثناءها قد حملت كل معناها بعد. ثم تبلورت هذه الكلمة، وقد انتسبت إلى حزب حربي سجلها على رايته. وروسو ـ عندما نبذها بالنسبة إليه ـ قد نبذ في وضوح أن

يكون له مذهب ، وإذا كان هناك عنصر يزيد في ثروتها بعد ذلك، فإنما هو لون من الكبرياء. وبعد سنة ١٧٦٠ يبدو أن أوروبا قد غزيت، وأن المعركة قد كسبت.

ذلك هو مايؤكده الفلاسفة أنفسهم، ومايرد دونه وهم يسيرون قائلين إن المنعرج العسير قد انتهى، وأنهم على مرأى من «الأرض الموعودة» وأن التخمر العام لم يكن قد ضاع سدى، وأنه قد نمّى نتائجه، وأن أزمته البربرية بعيدة، وأن العصر قد استنار، وأن العقل قد تنقى، وأنه قد جعل يملأ أكثرية المؤلفات. وأن زماننا ـ مهما يقل الحسد عنه ـ هو زمن الكائنات المفكرة، وأنه يعدنا بمستقبل أفضل، لأن النور التقدمي يصل قريبًا أو بعيدًا إلى أعين أولئك الذين يعتقدون أن لهم مصلحة في إطفائه. ومن المحقق أن الملوك هم الآن أكثر تسامحًا منهم في أي وقت مضى، وأنه ينشأ جيل ينظر إلى التعصب في امتعاض، وأن المناصب الأولى سيحتلها الفلاسفة في يوم ما، وأن عهدنا هو في الإعداد، ولا يتوقف إلا علينا أن ندني تلك الأيام الجميلة.

وهناك تعبيرات أخرى مشابهة لهذا كانت تبدي ذات الشعور بكسب يقيني، وبعمل جد قريب، وسرور شامل. إنهم ينظرون إلى إنجلترا ـ وطن الفكر الحر ـ على أنها قد فتحت نهائيًا. وأما في فرنسا، فإن أكثر النقط الاستراتيجية ـ كالمنتديات، والمجمع ـ قد ربحت، بل إنه كانت هناك صدمات في كتلة السوربون الصفيقة، وأن بدعة العصر ذاتها كانت في جانب الفلسفة.

وأن أكثر أجزاء سويسرا ثروة، أي أن جنيف التي كادت تنبذ كالڤان ولوزان «كانتا تبديان كثيراً من الرضى» وكذلك أقاليم هولاندا السبعة المتحدة.

بيد أن البلاد اللاتينية كانت تبدو أكثر تأخراً، فروما كانت تقاوم وكانت تغمر باللعنات، غير أن ميلانو ونابولي كانتا تؤلفان مركزين منيرين وأن توسكانا وبارما لم تكونا مثمرتين، وأنه كان هناك إيطاليون يلاحظون أن الفلسفة عندهم أيضًا كانت تتقدم من يوم إلى يوم. أما إسبانيا فإنها كانت قد بدأت تتخلص من الأوهام التي استبقتها في الطفولة، رغم قواها الطبيعية.

بيد أنه في هذه النظرة العامة قد استقرت العيون عند بلاد الشمال بصورة أكثر اغتباطًا، كما يقول أحد شعراء ذلك العصر: «إنما من الشمال اليوم يأتي النور إلينا»، لأن اسكاندينافيا، كانت قد تحولت إلى جانب العقل. وفي مدى عشرة أعوام من ذلك العهد ستكون بولونيا قد نبذت نيرها تمامًا. وكان فريديريك الثاني، وكاترينا امبراطورة روسيا يسيران على رأس الحملة الفلسفية، وهكذا كان ينبغي في النهاية، أن ينهزم المتعصبون الأخيرون في الجنوب، إذ كان الانتصار آتيًا ... وفي هذا يقول ڤولتير: «إن أوروبا كلها تقريبًا قد تغير مظهرها منذ خمسين سنة»[١] ويقول شاتيلوكس.

«أيها الذين تعيشون وعلى الأخص أنتم الذين بدأتم تعيشون في القرن الثامن عشر، هنئوا أنفسكم»[٢].

---

(١) Voltaire, Treité de Tolérance, ch, IV

(٢) Chastellux, De la féijcité publfque

# الجزء الثاني

## القسم الثالث

## إنحلال

## الكتاب الأول

# الفصل الأول

## الصيرورة

سنشاهد الآن منظراً آخر يبرز لنا- من خلال المشروعات المتسقة التي درسناها آنفًا- ذلك التنافر الذي يفسد بعض نواحيها، وعلينا في الواقع أن نرى كيف تحقق ذلك المنحى الذي يجعل من تاريخ الفكر تغيراً دائماً: وكيف أن مذهباً ما لاينهار بوساطة تدخل أعداء خارجين، بل من داخله نفسه، وكيف استمر الغموض في نظرية كانت تبدو من أوضح ما يكون، والتناقض في مذهب كان يبدو منطقياً تماماً، وكيف أُعلن انتصار لم يكن محققاً، وكيف يُخفق مرة أخرى مجهود ضخم بذل لإدراك السعادة البشرية:

أكان أولئك البناؤن موقنين أن مشروعاتهم لم تكن تحتوى على أي خطأ؟ أو كان أولئك الفلاسفة موقنين أن فلسفتهم عثرت في النهاية على الحقائق الأزلية؟ أوكانوا متأكدين أولا من أنهم حصروا النفس في تعريفة بلغ من الكمال حداً يجب أن تبقى حبيسة فيه إلى الأبد؟

لم يكن ذلك رأى ابن حَذّاء كونيسبرج الذي، قبل أن ينتهوا من عرض مذهبهم، دَمَّره بدوره. فقد أعاد «إيمانويل كانت»"Emmanuel Kant". التفكير في نظريات «لوك» و«بركلي» و«هيوم» "Loke Berkeley, Hume". وهو يتفق معهم في أن الميتافيزيقي لايمكن أن تكون شيئًا آخر غير علم حدود العقل البشري. إلا أنه كان يرى أنهم أهملوا في التحديد، الميزة الخاصة لتلك القوة التي تحيط بها

هذه الحدود وأوصافها الجوهرية بحيث إن كل شيء كان في حاجة إلى إعادة البناء بعد أولئك الفلاسفة.

وقد بدأ بجمع أكثر مايتسطيع من المعرفة البشرية، فدرس العلوم الطبيعية، والهندسة والميكانيكا، والفلك، وانتهى برد جميع المشكلات إلى واحدة كان يظن أنها قد حُلّت، ولكنها لاتزال تتطلب حلا، وهي مشكلة المعرفة. وأخيراً حين استعد، نشر في سنة ١٧٨١ كتابه «نقد العقل الخالص»، وعلى أثره تحولت النفس من حجرة مظلمة، كل عملها أن تسجل ما ينفذ إليها من أشعة خارجية، على منشور يعكس ما يرد إليه من عالم لايعد عالمنا إلا بعملية الانعكاس هذه. ذلك لأن الإحساس يتم تبعًا لصور أولية، والإدراك يتم بمقتضى مقولات أولية، والمعرفة تعتمد على عنصر أولي ينظمها. وعلى هذا لسنا عبيداً للقانون الطبيعي لافي الأخلاق ولافي السيكولوجية، بل إن نفوسنا هي التي تضع هذا القانون. إنها ثورة جائحة إلى حد أن الفلسفة السابقة بدت كأنها تنهار، وأخذ الناس يزدرون من كان يُدْعى لوك الحكيم، لوك الجدير بالإعجاب، لوك المفكر الوحيد الذي كان يحسب حسابه منذ أفلاطون، فكيف تم هذا التغير؟ وبأية طريقة بدأ تحلل المذهب التجريبي الذي ظن في آونة معينة أنه ساد أوربا؟ وأين كانت التصدعات؟ ومن أي الأخطاء أفاد فعل الزمن؟ ألا يكون قد أفاد من خطأ أولي في فكرة الطبيعة التي تثار دائماً، والتي لم تحدد ألبتة وبقيت قابلة لجميع المعاني؟.

ومن المتفق عليه أن القلب لم يعد له مكان، ولم يكن يخفق إلا ببطء، فأُسكِتَ تقريبًا ذلك المضايق. وبالرغم من هذا:

في عام ١٧٣١ ظهر «تاريخ الفارس دي جريوومانون ليسكو» للأب بريفو "Abbe´ Pre´vost".

والمؤلف -وهو راهب هجر مسوحة والتجأ إلى هولندا، ثم إلى انجلترا حيث كان بينه وبين القضاء مشاكل خطيرة كادت تنتهي بشنقه- عرف كيف يخلع على أبطاله عواطف قوية ورقيقة؛ وكيف يمزج بعباراته موسيقى تهز المشاعر إلى حد أن

المرء لايستطيع أن يمنع نفسه من البكاء حين يقرأ روايته. وهكذا انهار عقل دي جرپو بوساطة ابتسامة من مانون.

وفي سنة ١٧٤٠، ظهرت «باميلا أو الفضيلة المضطهدة» لريتشاردسون "Richardson"

ومؤلف هذه الرواية أحد رجال المطابع في لندن، وقد رغب أولاً في أن يكون كاتبًا فنشر مجموعة من الرسائل تعرض لجميع ظروف الحياة، وأجرى على قلم باميلا السيال، وهي شابة قروية، ما وصفت به ذلك الاضطهاد الطويل الذي أرهق شرفها به أحد اللوردات الشبان. ولاتوشك هذه الرواية أن تظهر حتى تجهش انجلترا بالبكاء ثم لاتلبث تعاسة «كلاريس هارلو» أن تفوق شقاء باميلا.

وفي سنة ١٧٦١، ظهرت «هيلوئيز الجديدة» لجان جاك روسر - "Jean Jacques Rousseau"

وقد ورد فيها: «يا جولي! إن النفس الحساسة لهدية مشئومة من السماء!»

والمؤلف أفاق همجي أتى من سويسرة، وموسيقى ناشىء. لم يعن بدراسة القواعد قبل البدء في الكتابة. إنه مخلوق عجيب يعتنق عكس جميع الأفكار المقررة، فيعلن أن الآداب والفنون أضرت بالإنسانية، ويحتج على عدم تحقق العدالة الاجتماعية ويمجد الهوى ويعتد به. بل منذ عهده لم يعد الهوى نباتًا مستأنسًا، بل أضحى قوة غاشمة لايستطيع شيء أن يقف نموها الذي لايحد، وستمزق وتنسف البنيان الذي كونه العقل، وتمرح بين أطلاله.

وفي سنة ١٧٧٤ ظهرت «آلام الشاب ڤرتر» لجوت "Goethe".

وفيها يقول: إنني أنطوي على نفسي فأجد فيها عالمًا! ولكنه بالأحرى عالم مشاعر مبهمة، وآثار غامضة، أكثر منه عالم صور واضحة».

ومؤلفها جوت الشاب يعرض، بخلقه ڤرتر، نموذجًا إنسانيًا جديداً.

وعند ڤرتر أن الحب لايصنع شـيئًا أكثر من أن ينضم إلي الاضطراب العنيف الذي بلى به فـرد يثيره المجتمع، وترهقه الحياة، ويود فيما وراء قبره، أن يفنى في النفس الكونية.

وفي سنة ١٧٨٤ ظهرت «دراسات في الطبيعة» لبيرناردان دي سان بيير "Bernardin de Saint-Pierre"

والمؤلف أناني شـرس حاد الطبع وإن تظاهر بالرقة والوداعة، ماهر في أن يضـع فوق مسرح الجـزر، ذلك الحب المثالي الذي لم يلتق به في الأرض المتمدينة. ويقول في كتابه: «إنني أحارب ذلك المبدأ المزعوم، مبدأ الأنوار التي نسميها العقل ...»

ظهر كل ذلك في نفس الوقت الذي كانت تتعاقب فيه المؤلفات التي تثبت سمو العقل، فكان هذا الغليان، وذلك الخصب، بل ذلك العنف في نفس الوقت الذي كان فيه جدب عظيم. وهنا ظهر أيضًا أثر الصيرورة التي تفسد ماظن أنه مكتسبٌ. فبأية صيرورة سيكولوجية، وبأية عملية دقيقة خفية تعتريها، وبأية معونة لاخصومة، وبأي اتفاق أو سوء تفاهم استطاع الفيلسوف أن يحرر خصمه ويطلق رجل العاطفة ويهيج ثائرته؟

يقول الكاتب الهنغاري جيولا سكفو: «من لوك إلى فريدريك الثاني، ومن نيوتن إلى جوزيف الثاني، ومن دالامبر، وڤولتير إلى كريستيان ڤولف وجوزتوس موزير، كان لابد للفكر أن يختار منْحنىً يوشك ألا يتناهى، لكي يجمع بين أفراد متباينين إلى هذا الحد. ومع ذلك ينبغي أن نعتبر مجموعة هذه الطائفة على أنها ممثلة لاتجاه واحد لأنهم جميعًا -في شيء من التفاوت- أعداء للقديم، أعداء للعصر السابق، وهم جميعًا يحترمون العقل بدرجات متفاوتة أيضًا، وهم جميعًا يبحثون ويرحبون بالشرائط التي تجعل الحياة البشرية سعيدة وميسورة ...[(١)]» وصحيح أن

---

(١) Gyula Szekfu, Les Lumie´res, Dans I,Histoire hongroise par Valentin Homan et Gyule Szekiu, t.5,Livre 6,18 e´me Sie´cle, 3e´me partie.

هؤلاء الأفراد يؤلفون طائفة، بل أخوة تقريبًا، لأنهم كانوا يلتقون في إرادة مشتركة، ويعتقدون أنهم يسيرون بخطى متحدة نحو غاية بعينها، وكان هدفهم «الأرض الموعودة» بل كانوا يلمسونها.

وليس ثمة طائفة لاتنحل. وبقدر ما تكون الشخصيات التي تؤلفها قوية، فإن التئامها يكون أقل يسرًا، لأن كل واحد منها- في حرصه على الكشف عن الحقيقة أكثر حقًا- يأبى أن يقبل حقيقة جاره. وفي هذه الحال أيضًا كانت تبحث دون انقطاع الصلات بين الإنسان والألوهية، وهي التي يخضع لها كل شيء، وقد كان يظن أنها نظمت نهائيًا، وكانت تتناول بلا انقطاع لكي تختبر من جديد، وكانت النتائج التي انتهى إليها متباينة، بحيث اتضحت وحدة حركة الأنوار». «أوف كلارنج» Aufklarung نفسها مهددة.

وفي سنة ١٨٠٢ ستفتح الكنائس مرة أخرى، وستدق النواقيس كما لو لم تكن ألبته قد كفت عن أن تسمع. وسينثر شاعر ويستدعى كل أنواع سحر الخيال وجميع ملذات القلب» لكي يكتب «عبقرية المسيحية» ولاريب أن شاتوبريان في نبذة للأنوار سيبرز نثروات الظلام إذ يقول: «إنه لايوجد شيء جميل وعذب وعظيم في الحياة سوى الأشياء الخفية، وأن العواطف الأكثر جدارة بالإعجاب هي التي تثيرنا في صورة يشوبها شيء من الاختلاط. ولاريب أن الحياء والحب العفيف والصداقة الفاضلة مليئة بالأسرار. وكأن القلوب المتحابة تتفاهم فيما بينها بالتلميح، ويتفتح بعضها لبعض. أوليست البراءة بدورها، وهي ضرب من الجهل الطاهر، أشد الأسرار استعصاء على الكشف؟ أوليست الطفولة سعيدة كل السعادة لأنها لاتعرف شيئًا؟ أوليست الشيخوخة تعسة كل التعاسة لأنها تعرف كل شيء؟ ولحسن حظها عندما تنتهى أسرار الحياة تبدأ أسرار الموت ...».

وهكذا كان يبعث ماشاء الفلاسفة أن يقضوا عليه. ولكن هل ثأر العاطفة هذا، وهي التي تقود إلي الإيمان، كان يمكن أن يكون واضحًا بهذه الدرجة لو أن مذهب التأليه كان كافيًا لسد حاجات الضمير؟ أولَو أنه قاوم مقاومة مذهب متسق

مع نفسه أكمل اتساق، ومشتمل على طبائع الوحدة؟ أولَو أنه لم ينقسم على نفسه؟ أولو أنه لم يسمح- تبعًا للأفراد والشعوب- بحرية اختيار كان مصيرها أن أضحت فوضى روحية؟

أولو أن القيمة العالمية التي كان يدعى أنه يملكها اتجهت نحو تكوين كاثوليكية أكثر شمولاً بدلاً من التشتيت والتَّفْريق؟

وإذن بقي علينا أن ندرس أولاً النقائض التي تشتمل عليها فكرة الطبيعة ملهمة العصر، ثانيًا الأصول الفلسفية لرجل العاطفة، ثالثًا المعتقدات المتباينة المحتواة في مذهب التأليه. وعلى هذا النحو تجزأت فلسفة الأنوار تاريخيًا.

# الفصل الثاني

## الطبيعة والعقل

كان المتفق عليه أن الطبيعة والعقل مرتبطان بعلاقة ثابتة، وليس هناك شيء أبسط ولاأوكد، ولاأكثر ترددًا على ألسنة الحكماء من أن الطبيعة عاقلة، وأن العقل طبيعي، والوثام بينهما تام. أما المعاني السيكولوجية التي لاأساس لها من الطبيعة، فهي تشبه تلك الغابات الشمالية التي لاجذور لها، والتي تقتلعها زوبعة من الرياح. وعلى عكس هذا تبقى ثابتة في النفس البشرية لاتتزعزع تلك المعاني التي أملتها الطبيعة وجاءت ترجمة لنواميسها. ومع ذلك من أين يأتي أنه لايزال هناك شيء من الإرتباك في نفس الوقت الذي كان يظن فيه أنه عثر على المعادلة التي تمنح المعرفة الطمأنينة؟

ذلك لأن الطبيعة مفرطة الثراء في محتوياتها، مفرطة القوة في نتائجها، مفرطة التعقد في كيانها إلي حد يحول دون إمكان حصرها في عبارة. ولذا فإن العبارة تذوب أمام مجهودها. ورغم المحاولات الكثيرة التي أجريت لإيضاحها بالتحليل وامتلاكها بالعلم، وقصرها على أن تكون تصورا ميسور التعقل، فإن الحكماء أنفسهم الذين كان ينبغي أن يطمئنوا إلى يقينهم منها، ظلوا يعيرونها معاني متباينة، بل متعارضة. إنهم يشعرون بذلك، ويعثرون فيها على السر الذي يريدون أن يقصوه عن العالم. وكان ذلك مبعث تضايقهم وسخطهم.

هم يقولون حينًا إنها أم عاكفة على تدبير حاجات أبنائها، وحينا آخر إنها

تزدري الأفراد ازدراء عميقًا، لأنها لاتعنى إلا بالأنواع. وحينا ثالثًا، إنها لاتعبأ بشيء وإنها تتابع سيرها بلارحمة. ويقولون إنها غامضة كالمشعوذ الذي لايبدي لنا إلا نتيجة لعبته، ويقولون كذلك إنها تكشف عن نفسها في سهولة، وإنها واضحة وبينة إلى حد أنها تقرأ في القلوب. ويقولون إن لها إرادات وانتباهات وضميراً حيًا، وأنواعًا من الدقة، وألوانًا من الرقة. كما يقولون أيضًا إنها مستهترة تمامًا أو معادية.

وعندما يضع المرء هذه المعاني المتعارضة بعضها إلي جانب بعض، ينتهي إلى سلسلة من المتناقضات، ويجد نفسه أمام قائمة لايمكن تصفحها بلاشعور من السخرية أو من اليأس.

وليس ذلك في الغالب سوى صور من الأسلوب، وعادات لغوية مألوفة، ومجازات. ومع ذلك كان الناس يكتفون بها كأنها شرح من الطراز الأول أو كأنها حجة قاطعة، أو كأنها الإجابة الأخيرة. وبقدر ما كان الناس يرددون أنهم يتبعون الطبيعة ويخضعون لها. كانوا أكثر رضى وأقل اتفاقًا. ولم يقلق الضمير الغربي- كما سجل ذلك في دقة بالغة أحد مؤرخي الفكر [1]- شيء أكثر مما أقلقه ذلك الالتجاء العادي إلي كلمة واحدة كانت حسب الأزمنة والأفراد تترجم عن النقائض. ومن المحقق أن فلاسفة الأنوار نموا هذا الخلط بدلاً من أن يزيلوه. وفي الواقع أن الطبيعة والخير والسياسة الطبيعية، كل تلك صلات مشكوك فيها، ومشكوك أيضًا في المبدأ الذي قامت عليه وهو أن الطبيعة تساوي العقل.

فهل منطقنا في الواقع هو دائمًا نفس منطق الطبيعة؟.

بسط ڤولتير- وهو «المحقق الأعظم [2]» في الأفكار الغامضة- هذه الفكرة

(١) Prolegomena to the History of Primitiviam par A.O.Lovejoy- Primitivism and related ideas in Antiquity par A.O.Levejoy et G.Soas Baltimore,1935.

(٢) المحقق الأعظم لقب كان يخلع على رئيس القضاة في محاكم التفتيش، وقد شبه المؤلف ڤولتير برئيس محكمة التفتيش ليشير- في شيء من السخرية- إلى أنه كان الناقد الأعظم للفكر الغامضة. (المترجم)

أمام محكمته، فلاحظ أنه مادام أن أذرعتنا تستعمل قوة توازي خمسين رطلاً تقريبًا لكي ترفع ثقل رطل واحد، ومادام أن القلب يستعمل قوة ضخمة لكي يستخرج قطرة من الدم، ومادام أن البلطية تضع آلافًا من البيض لكي تنتج بلطية أو بلطيتين، ومادام أن السنديانة تثمر كمية لاتحصى من ثمار البلوط لاتنشأ منها في أغلب الأحايين سنديانة واحدة، فإن هذه القوة الغالبة ليست ألبتة متمشية مع العقل في إنفاقها المختل وإغداقها. ويلاحظ كذلك أن الطبيعة أفسدت في ثلاثة أرباع العالم لذائذ الحب بداء مفزع لايصيب سوى الإنسان وحده، مع أنه لم ينشأ عن دعارتنا، ولالإفراطنا، بل نشأ في الجزر التي كان يعيش فيها الناس في براءة خالصة. فهل نستطيع أن نقول بعد ذلك إن هذه الطبيعة غير المفهومة لاتحتقر إنتاجها، ولاتناقض برنامجها؟ ولقد كان الفيلسوف ڤولتير نفسه يستجوبها ويتوسل إليها قائلاً" : «من أنت أيتها الطبيعة؟ إنني أعيش فيك وأبحث عنك منذ خمسين سنة ولم أستطع أن أعثر عليك حتى الآن!» فأجابته بأن المصريين، ذلك الجنس القديم وجهوا إليها هذا المأخذ، وكانوا يدعونها إيزيس "Isis" ووضعوا على وجهها نقابًا لم يستطع أحد بعد أن يحسره.

الفيلسوف- أمي العزيزة، قولي لي: لماذا أنت موجودة؟ ولماذا وجد شيء؟

الطبيعة- سأجيبك مما أجيب به منذ قرون عديدة، أولئك الذين يستجوبونني عن المبادئ الأولى:

«إنني لاأعرف عن ذلك شيئًا(1)».

غير أن أكثرية الجوقة أصرت على أن ترتل نشيدًا يعثر فيه على نفس النغمات، وهي أن الطبيعة لاتبتعد ألبته عن الحقيقة، أو أنها والحقيقة هما هما في مكان، وأن العقل يبرزها دائمًا متماثلتين، أو أنها لاتقول ألبته شيئًا يختلف عما تقول الحكمة، فاتبع سبيلها الواضحة ولن تخطئ.

---

(١) Voltaire,Nature, Dialogue entre le philosophe et la nature.Dans les, Questions sur l,Encyclope´die,1771.

وأصرت أكثرية الجوقة على أن ترتل أحد أناشيد إبداع الطبيعة التي عنيت بأن تخلق، حيث ينعدم القمح بمختلف أنواعه والشعير نباتات تحل محلها، بل إنها في بعض الأماكن المجدبة في النرويج وألمانيا- علمت الناس كيف يصنعون خبزاً يبقى أربعين سنة دون أن يفسد، وتلك احتياطات جديرة بالإعجاب هدتنا إليها الطبيعة لنتدارك نقص تلك الأراضي الفقيرة.

وأصرت أكثرية الجوقة على أن تعيد تلك الأقوال السائرة القديمة مثل «إن الطبيعة لم تعد تكره الخلاء، وقد عدل عن هذا إلى القول بأنها إن كانت تكره شيئاً فإنما تكره الملاء.» ومثل: «إنها لاتفعل شيئاً عبثاً، وإنها تصل إلى غرضها عن أقصر الطرق.» وبالإجمال كان كل شيء عبارة عن سلسلة من المدائح.

بيد أنه كانت هناك أصوات تشذ عن ذلك فتقول: «سنتبع الطبيعة عندما تبينون لنا ما هي بالضبط، ولن تفعلوا وإنما تلتجئون إلى لفظة وتمنحون أنفسكم حرية تامة في استعمالها دون أن تعرفوا مدى دلالتها. إنكم تبسطونها في صورة فخمة على رؤوس مؤلفاتكم، ولايلوح عليكم الارتياب في أنكم أنتم أنفسكم تستعملون تلك الرطانة الميتافيزيقية التي ترفضونها. لنفرَّ من أولئك الذين- بحجة أنهم يشرحون الطبيعة- يعطوننا نظريات غير قابلة للتعقل شيدوها في أخيلتهم على أنها مبادئ حقة للأشياء ...»

كان أولئك المعاندون يضيفون إل ما تقدم أنهم- في كل مرة يقفون فيها أمام الواقع يشعرون بنوع من الدوار حين يشاهدون الفوضى في النظام، وحين يسجلون أهواء طبيعية مسرفة ومقترة في آن واحد. وحين يحسون أنهم مغمورون في كثرة لانهاية لها من الظواهر المتناقضة والطبيعية.

كان من الممكن أن يخرج عُبّاد الطبيعة من الورطة لو أن أسوأ الصعوبات لم تأت من المذهب التجريبي نفسه.

* * *

وبما أن المذهب يقرر أنه من المستحيل علينا تمامًا أن ندرك الجواهر وأن نصدر بالتالي أي حكم يتصل بها، فكيف تجرأ أحد على منح صفات لتلك الجواهر ذاتها؟.

وكان ينبغي للتجريبيين، لكي يكونوا منطقيين، أن يظلوا في جهلهم الذي طالما نادوا به، والذي لم يخرجوا منه إلا بأقل اعترافاتهم قابلية للصفح. وفوق هذا مادامت معرفتهم تختلط بالإحساسات التي يشعرون بها في أنفسهم، فلاحق لهم في أن يفترضوا وجود شيء خارج عن أنفسهم، يدعى بالطبيعة، أو بأي اسم آخر.

وإنهم لكذلك وإذا بمفكر عظيم يخلع صورة على هذا الاعتراض، فقد نشر بركلي عام ١٧١٣ كتابه «محاورات بين هيلاس وفيلونوس» الذي تُرْجِمَ وعبر المضيق إلى فرنسا متأخراً بعض الشيء وهو محير لأن فيلونوس صديق العقل يتنزه متأملاً عند الفجر قبل شروق الشمس، فالتقى بهيلاس صديق المادة وأخذا يتناقشان، وهل كان ممكنًا أن يؤيد فيلونوس بحسن نية، أنه لايوجد جوهر مادي؟ نعم كان ممكنًا، بل غير قابل للنقض عند فيلونوس الذي كان يقدم أدلته بمهارة جدلية معدومة للنظير فيقول: إننا لانستطيع أن نستنتج من إدراكاتنا وجود الأشياء الخارجية، لأننا متأكدون فقط من هذه الإدراكات فإذا كانت الحرارة المفرطة تحرقنا وتؤلمنا، فهل سنقول إن الألم في الجسم الذي أحرقنا لمسه؟ وإذا كنا نجد السكر حلواً والشيح مراً، فهل سنقول إن الحلاوة في السكر، وإن المرارة في الشيح؟ كلا، إن الإحساسات فينا نحن، وتتغير حين نمرض. وكذلك الأمر بالنسبة للروائح والأصوات، فهل سنقول عن حركة الهواء الذي يقرع صماخ آذاننا، إنها رقيقة أو ضخمة؟ وكذلك بالنسبة للألوان نعرف أن الأشياء ليس لها اللون الذي نعزوه إليها، فهي صفراء حينما نكون مرضى بالصفراء.

وعبثًا كان يثور هيلاس ويبحث عن حجج قديرة على الانتهاء بمحاوره إلى الصمت. ولكن هذا الأخير يستمر يقول: إن الوجود هو الإدراك وكون الشيء مدركًا، ولاشيء أكثر من ذلك، والألفاظ والاستعمال القديم والتخيلات غير

المعقولة هي تدفعنا إلى أن نجد موضوعًا للصفات التي ليست إلا في أذهاننا والأحرى بنا أن نعترف بخطئنا وقد عرفنا بصفة نهائية أنه ليس لدينا أية فكرة قاطعة أو نسبية عن المادة، وأننا نجهل على حد سواء حقيقتها في ذاتها والصلات التي يمكن أن تكون بينها وبين الأغراض وعلى هذا ينبغي أن نبقى في الحدود التي رسمناها لأنفسنا أو كما قال هيلاس مقتنعًا في النهاية- لنحتفظ باللفظ الذي ألفناه منذ زمن جد بعيد، وهو المادة. ولكن مع تحديد مدلوله، أي أنه لاتوجد مادة إذا أريد بها جوهر مسلوب التفكير خارج الذهن وتوجد إذا قصد بها شيء محس، كل وجوده أن يكون مدركًا. وفي إصرار هادئ تابع بركلي المثالي برهنته بعد ما حاول أن يؤسس في العالم الجديد مدرسة إكليريكية يلتقي فيها شباب الإنجليز بشباب الأمريكان على خير التعاليم المسيحية. وبعد أن عاد إلى أوروبا، عين أسقفا لكلوين في وطنه أرلنده. وفي سنة ١٧٤٠، في مؤلفه «سيريس أو تفكير وبحوث فلسفية حول منافع ماء القطران وموضوعات أخرى مختلفة ومرتبطة فيما بينها بحيث ينشأ أحدها عن الآخر». كان يرتفع إلى أسمى القمم حيث يشاهد في غبطة جمال النفس الكلية. أبان منفعة ماء القطران الذي تُعَلَّمُ عند المتوحشين قوته العجيبة، فهو يبرئ من جميع الأدواء كفساد الدم والقرحة والسعال المنهك، والتورمات الجلدية والانهيار العضوي والعصبي وحصاة المثانة، والاستسقاء، والنزلات الشعبية، والجدرى، والنقرس، وأنواع الحمى. إنه كان يبرئ الجميع: أطفالاً، وشيوخًا، ورجالاً، ونساء ملاحين ومقيمين. وانتقل من القطران إلى الأملاح التبخرية التي يحتويها، ومنها إلى الهواء، ومن الهواء إلى الأتير، ومن الإتير إلى الحكمة التي توزعه، وهي نار نقية وغير مرئية، لأن الإنسان لايستطيع أن يخطو خطوة واحدة في شرح الظواهر دون أن يسلم بالوجود والأثر المباشر لفاعل غير مادي يرتبط ويحرك ويصرف جميع الأشياء حسب القواعد ولأجل الغاية التي يجدها ملائمة.

أما الفلاسفة الميكانيكيون فإنهم كانوا يبحثون عن طريقة العمل وقواعده، لا عن علة لأنه ليس في الميكانيكي شيء يصلح أو يمكن أن يكون علة، والذهن وحده هو الذي يمكن أن يكون علة حقيقية.

لم ينكر بركلي الجاذبية النيُّوتونية، وإنما كان يؤولها، فعندما يقول العلماء إن كل الحركات والتغيرات التي تحدث في الكون وليدة الجاذبية، وإن مرونة الهواء، وحركة الماء، وهُوِيّ الأجسام الثقيلة، وصعود الأجسام الخفيفة، كل ذلك يرجع إلى المبدأ نفسه. وعندما يستنبط هؤلاء العلماء الالتئام، والتحليل، والتجميد، والإفراز الحيواني، والتخمر، وكل العمليات الكيميائية، عندما يستنبطون ذلك من الجاذبية التي لاتحس بين أقل الجزئيات في أصغر المسافات، وعندما يضيفون إليه أنه بلا مبادئ كهذه لايمكن أن تكون في العالم أية حركة، وأنها لو وقفت لوجب أن تنقطع كل حركة. عندما يقولون كل ذلك لايعرف المرء ولايفهم شيئًا آخر غير أن الأجسام تتحرك حسب نظام معين وأن حركتها لاتصدر عنها...

كان بركلي يضايق الفلاسفة، لابالقسم الدفاعي من إنتاجه، وإنما- وهو العدو الأكبر لأولئك الأذناب من أحرار الفكر- كان يريد أن ينتهي مذهبه بصورة مباشرة إلى برهان جديد على وجود الله. وهو أنه لما كانت المحسات لاوجود لها إلا في الذهن، فإنه ينبغي أن نسلم بحقيقة ذهن أعظم هو الله.

غير أن قراءه المرتابين لم يكونوا يمنحون هذه الحجة قيمة ذات بال ويعتبرونها أمرًا عرضيًا. ومع هذا كان بركلي مضايقًا أعظم لهم، لأنه كيف يمكن أن يردوا على رجل لايختلف عنهم إلا بأنه يمعن في نتائج مبدئهم الأولى إلى نهايتها. وكان من الميسور أن يسخروا منه فيقال مثلاً: إن عشرة آلاف رجل يقتلون بعشرة آلاف قذيفة مدفع ليس في الحقيقة إلا عشرة آلاف وهم أبلاها عقلنا، وإنه عندما يمنح رجل زوجته طفلاً، لايخرج الأمر عن حلول فكرة في فكرة، وعنهما تنشأ فكرة ثالثة. وأيسر من ذلك أيضًا أن يسخطوا ويقولوا إلى أي حد تصل أخطاء العقل البشري؟

إنه لشذوذ كبير أن ينكر وجود العالم الخارجي ولايكفي معه قطعًا مجرد السخرية أو السخط. فمثلاً كان على رأس الترجمة الفرنسية لمحاورات هيلاس وفيلونوس صورة تمثل طفلاً عندما رأى وجهه في المرآة، جعل يحاول أن يمسكه ثم أخذ يضحك من خطئه. ولكن العبارة الموضحة لتلك الصورة، أبانت أنه كان على

خطأ في ضحكه وهي: لماذا تضحك؟ إن هذه الصورة الخرافية تمثلك "Quid rides? Fabula de te narratur".

بأي صبر طوال ثلاثة أرباع قرن، بحث العلماء عن واقعة غير قابلة للنقض تسمح بمعرفة ما إذا كان الإحساس ذاتيًا بحتًا أو متصلاً بحقيقة خارج ذواتنا فمثلاً من يدري لو أن الأعمى الذي رد إليه بصره بغتة، سيشعر بالمسافة على أنها حقيقة حسية. تخيل العالم مولينو أولاً هذه التجربة ثم أو عز بها إلى لوك في رسالة كتبها إليه بالصيغة الآتية:

«تمثل أعمى منذ ولادته هو الان رجل تام التكون، وقد تعلم أن يميز باللمس مكعبًا أو كرويًا من نفس المعدن وبنفس الحجم تقريبًا بحيث إنه حين يلمس أحدهما أو الآخر. يستطيع أن يقول ما هو المكعب. وما هو الكروي. وافترض أن المكعب والكروي موضوعان على المنضدة، فإن المرء يتساءل بشأن هذا الأعمى الذي استمتع بالصبر، عما إذا كان- إذ يراهما دون أن يمسهما- يستطيع أن يميزهما، وإن يقول ما هو الكروي، وما هو المكعب... ولقد أجاب مولينو بأنه لايستطيع ذلك. وأجاب لوك بأنه لايستطيع ذلك أيضًا. وأجاب بركلي كذلك بأنه لايستطيعه. لأن الذي ولد أعمى ثم بدأ يرى. لن يظفر لأول وهلة بفكرة المسافة. وأن الشمس والنجوم تبدو له كأنها في عينه. أو بالحرى في نفسه.

لم تكن هذه الفكرة بعد سوى فرض، ولم يكن أحد يعرف ما سيفعله أعمى موجود بالفعل عندما هب الطب التجريبي لمساعدة الفلسفة، فقد اهتدى الجراح شيزيلدين إلى طريقة إزالة ابيضاض الغشاء العيني. (الكاتاراكت).

وفي سنة ١٧٢٨، وصف هذه العملية التي أجريت لشاب بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، ففتح له إحدى عينيه ابتداء، فلم يكن يرى المسافات، وكان يحسب أن الأشياء تلامس عينيه، كما أن الأشياء التي يحسها تلامس جلده. وقد مضى شهران قبل أن يقتنع بأن اللوحات تمثل أجسامًا جامدة. وعندما لمح صورة

والده على غطاء إحدى الساعات دهش من أن وجه إنسان يمكن أن يحتويه مكان صغير إلى هذا الحد، وكان يعتقد أنه لايوجد شيء فيما وراء حدود ما كان يراه.

حدثت عملية العين الأخرى بعد مضي سنة على السابقة، وكان الشاب الذي أجريت له يرى الأشياء أكثر كثيراً مما كان يرى بالعين الأولى، إذ كان يلزمه شيء من التعود. وأخيراً طبقت تجارب مماثلة لذلك على أشخاص متباينين، فأحدثت نفس النتائج، فكانت فكرة المسافة لاتكتسب إلا بوساطة عمل طويل من أعمال الذهن.

كان أعظم المفكرين يشغلون بمن ولدوا عمياً ثم ظفروا بالإبصار. وتلك تجربة لم يكن لهم الحق في الإغضاء عنها، ولم يكونوا يريدون ذلك. ولقد حسب ديديرو أنه فاز بفرصة مواتية، إذ وضع العالم ريومور تحت حمايته، طبيب العيون البروسي هيلمير الذي كان هو أيضاً بعملية إزالة «الكاتاراكت» وحرص ديديرو على أن يحضر في اللحظة الحاسمة، ولكن خيبة أمله كانت عظيمة، إذ خيل إليه أن الأمر ليس إلا مجرد تزييف، لأن العملية أجريت سلفاً، ورأى الأعمى من قبل. وفيما يتعلق بالملاحظة الفلسفية ينبغي أن يستأنف كل شيء. ومع هذا ينبغي نقض بركلي واستكشاف عيب ذلك المذهب الذي يعتبر من دواعي الخجل للعقل البشري وللفلسفة، أنه صار أعسر المذاهب محاربة، ولو أنه أبعدها جميعها عن المعقوليه.

كان من الأفضل أن يلجأ إلى اختصاصي في العقل البشري يستطيع أن يستكشف النقطة المحددة التي انحرف فيها فيلونوس [1]. وعلى هذا الأساس دُعِي كوندياك Condillac إلى معونة الطبيعة التي يحفها الخطر. وقد شرع في العمل فنقض بركلي، أو حاول ذلك على الأقل [2]. وكانت محاولته على النحو التالي: إن كل معارفنا آتية من الحواس. هذا أمر متفق عليه، وإحساساتنا ليست إلا أحوالاً وأعراضاً، وذلك أمر متفق عليه أيضاً. وإذن كيف نستطيع أن نجزم بوجود الأشياء

(١) Diderot, Lettre sur les aveugles, al usage de ceux qui voient

(٢) Condillac, Traite des Sensations, 1754. Pre´cis de la 2 e´me partie 1749.

التي هي خارج ذواتنا. في الحق أننا لاندرك إلا حالات لنفوسنا في صور مختلفة... وكنا سنظل في حيرتنا لو أن إحساساتنا لم تكن سوى الشم، والسمع، والذوق والبصر وكنا سنحسب أنفسنا رائحة وصوتًا وطعمًا ولونًا. ولم يكن اللمس نفسه ليبدد جهلنا فيما يتعلق بكل ما هو خارجي لو أننا بقينا ساكنين، وكنا لاندرك سوى الإحساسات التي يمكن أن يحدثها فينا الهواء المحدق بنا، وكنا سنصير حرّانين أو برادنين، ونشعر باللذة والألم. ولكن هذا أيضًا سيكون من صور الوجود التي لاندرك فيها الهواء المحدق ولاأي جسم آخر، ولانحس إلا أنفسنا، وإلا أننا نتحرك. وحينما نضع أيدينا على أنفسنا، وعلى ما يحيط بنا نشعر بإحساس من نوع خاص، أي أننا نشعر بمقاومة، وهنا يجب أن تتحطم نظرية بركلي، لأن تلك المقاومة لايمكن أن تعترّضنا إلا بوساطة أشياء خارجة عن ذواتنا. وإذن فالعالم الخارجي موجود.

حقًا إنه نوقشت حاسة اللمس وخاصيتها التي أعارها كوندياك إياها. ولكن المحقق الذي كان ضد رغبة ديديرو، والذي زاد الموقف حرجًا بدلاً من أن يخففه، هو أنه بقدر ما كان كوندياك يتعمق في فكرته، كان يتخلى عن الاكتراث بإيزيس وفيزيس لكي يتفرغ للنفس، وينحو منحى المذهب الروحي عن طريق مذهبه التجريبي الأول. إنه كان تلميذًا للوك، وكان يعترف بدينه عليه. ولكن دون أن يقدر أن هذا الدين لايكاد يحتمل. ولقد أصلح مذهب أستاذه بعدة وسائل، وخاصة غموضه المتصل باعتبار الأفكار تارة صوراً لحقائق، غير قابلة للمعرفة، وتارة أخرى تنظيمًا داخليًا لإحساساتنا. وليست الحقيقة إلا ملاءمة العلاقات بينها، وقد ركن كوندياك إلى هذا الجانب وتعلق به مختاراً، وشغل بالمنظر العجيب لباطن النفس، ولم يجتذبه ما يجري خارجها، فالإحساس وهو أمر روحي، وتعدد الإحساسات التي لايعيننا تدرجها بقدر ما يعنينا تنظيمها، ذلك التنظيم الذي يتم بوساطة رموز تمنحها طابعًا عامًا. ومعرفة هذه الرموز التي تقدمها اللغة، ومنطق النفس، وعلم الجبر النفسي، تلك في نظره هي العلم الحقيقي.

وفي اختصار لم يكن نقد بركلي إلا أمرًا عرضيًا في حياة كوندياك، وقد هجره. ولكن الطـريق الذي اعتبره طريقــه الخاص أبعــده عن الفلاســفة الذين دعوه إلى معونتهم.

* * *

وإذ ذاك تدخَّل في شرح الطبيعة شخص لم يكن خصمًا كبركلي، ولا صديقًا مشكوكًا فيه ككوندياك، ولكنه صديق حقيقي وأخ يخشى أن يهدم منزل الأسرة من الداخل، ونعنى به داڤيد هيوم.

إنه كان أحد فلاسفة الأنوار من نواح متعددة أولها ذلك القرار الذي اتخذه، وفيه ما فيه من شجاعة، بأن هجر في الرابعة والعشرين من عمره اسكتلاندا مسقط رأسه، وهجر معها حقوقه وتجارته وأقام في فرنسا ليعمل في حرية على تثقيف عقله واتجه إلى الأقاليم، فسكن لافليش من سنة ١٧٣٥ إلى سنة ١٧٣٧ حيث كتب «رسالة الطبيعية البشرية» التي نشر منها الكتابين الأول والثاني في سنة ١٧٣٩ والثالث في سنة ١٧٤٠.

كان فيلسوفًا بما فطر عليه من حب استطلاع شامل ورغبة في أن يجد حلا لجميع المشكلات التي تثار حوله بلا انقطاع. ولا يستطيع أحد أن يقول إنه كان أكثر منه تعلقًا بالواقع، وبالواقع وحده. وكان بعيداً عن الأحلام الميتافيزيقية. وكان -ككثيرين من معاصريه- يأمل أن ينتزع من الوقائع، تلك الواقعة الوحيدة، أو الواقعة المركزية التي تبيح لنا توضيح الأشياء جميعها، وتجعل منه نيوتن الفكر (على غرار نيوتن الكون).

لم يكن متحذلقًا، فلم يستشهد بنصوص الأقدمين. ولم يُفرط في استعمال الكلمات الفنية. وهكذا كان ينطق بلغة العصر. ولئن كانت فيه جذلقة ما. فإنما كان ذلك في ركوب الخيل. ولما كان اجتماعيًا ومترفًا، فإنه لم يبتعد عن الشؤون العامة. وبالعكس كان لديه مقدرة تامة على توجيهها. إنه كان ضد التحمس،

وضد العاطفة، وضد الخرافة، وضد الاعتقاد في المعجزات، وضد العقيدة بوجه عام. إنه كان مجموعة أضداد. وكانت طريقته في البرهنة والكتابة هي الوضوح بعينه ويحب أن يتلاعب بالأفكار. ويبدو كأنه يطبع عليها جميع الحركات التي يريدها. ولكن هذا التلهي كان مخيفًا. وبعد هذا البدء الأدبي الذي لم يتجاوب مع ما كان يتوقعه، وصل بصبره إلى الجد فحينما عاد في سنة ١٧٦٣ إلى باريس سكرتيراً لسفير إنجلترا، قوبل في شبه حماس، فدعى واستقبل واحتفى به، وكان وجهه مألوفًا في المنتديات، وكان ضيفًا مثابراً على الموائد، فكان الفيلسوف المنتصر، ومع ذلك فإنه هدم الفلسفة فلاحظ فيها مبدئيًا أن المؤهلين هووْا صرْعى تحت سلطان التشبيه كدهماء المتدينيين، ولقد بدأ هيوم فنحا نحوهم، وكانوا قد أعلنوا بحق ضرورة الدين الطبيعي لكي يدفعوا عن أنفسهم تهمة الشك الشامل الذي لايلتئم مع العمل، ففي الحق أن البيرونية مؤسسة على هذا الخطأ الذي مؤداه أن الإنسان هو بطريقة دائمة في الحالة التي يوجد فيها في بعض اللحظات، وهي الحالة التي لاتقاوم الزمن، ومن ثم فإن أشد بني الإنسان بيرونية، يجب أن يجزم أحيانًا، أو أنه لايحيا، وبالتالي فإن من الضروري الوصول إلى إيمان ما. ولكن كيف تخيل أولئك التأليهيون موجودهم الأعلى؟ إنهم كانوا يعترفون بأنه لم يكن لديهم أية تجربة عن الصفات الإلهية، وأن جوهر ذلك الموجود، وكيفية وجوده، ومحامده، ظلت غير معروفة لهم، وكان يجب أن يقفوا عند هذا الحد. غير أنهم أدركوا العقل الإلهي حسب نموذجهم الخاص. وعندما تأملوا العالم والأجزاء التي تؤلفه، رأوا أن هذا العالم لم يكن شيئًا آخر سوى ماكينة ضخمة مقسمة إلى عدد غير متناه من الماكينات الصغيرة، هي نفسها تحتوي على انقسامات لاتحصى، وأن هذه الماكينات المتنوعة، قد أحكم بعضها في البعض الآخر إحكامًا يغمر في الإعجاب كل من نظر إليها، وأن ذلك التلاؤم العجيب بين الوسائل والغايات في كل الطبيعة، يشبه بالضبط- ولو أن ذلك إلى درجة أكثر اتساعًا- منتجات اللباقة البشرية، وحظوظ الناس وفكرهم وعقلهم وحكمتهم، وإذن فما دام أن النتائج متشابهة، فإن المؤلهين قد استنبطوا، مدفوعين بالمجانسة، أن العلل أيضًا متماثلة،

وأن صانع الطبيعة هو من بعض الحيثيات، يشبه الأناسى ولو أن له ملكات أقوى كثيراً ومتناسبة مع عظمة عمله. وبهذه الحجة المؤسسة على التجربة وحدها "aposteriori" أيد أنصار الدين الطبيعي قضيتهم دون أن يلمحوا أنها ضعيفة ومضحكة.

بنفس هذه الطريقة الهادئة- وهي ملاحظة وتوضيح أن الأشياء هي كما هي وليست غير ذلك، وهذا هو كل شيء- كان هيوم يهاجم العقل البشري. نعم إننا نتخذ فكرة العلية على أنها شيء جوهري لفهمنا، وأن علاقة العلة بالمعلول هي دعامة علمنا وفلسفتنا. ولكن هذه العلاقة في الحقيقة ليس لها ما يسوغها. فلننظر في الواقع في أنفسنا، فإنها تحتوي على أحاسيس راهنة، وعلى انفعالات هي حالات الذكريات، وهي التي ندعوها بالفكر. وإن مقدرتنا تتحد في جمع هذه الأحاسيس وتلك الفكر، وفي حالة جمعها نفترض بينهما علائق منطقية لايوجد شيء يضمن لنا وجودها الحقيقي. وهكذا نحول، غير محقين إلى قانون العلية، ما لم يكن قط، ولايكون، ولن يكون أبداً سوى تتابع في الزمن، إذ أن العلة هي شيء متبوع بشيء آخر إلي حد أن وجود الأول يحملنا علي التفكير في الثاني. ولكننا لانستطيع أن نجزم بأن بين الاثنين علاقة ضرورية، فهاتان القضيتان الآتيتان مثلاً ممكنتان على درجة واحدة وهما: الشمس ستشرق غداً، والشمس لن تشرق غداً. إننا اعتدنا أن نجمع الحدين دون أن نتأكد من أن اجتماعهما مشروع. وأن الميتافيزيقية لاتشتمل على شيء أظلم من فكر القدرة والقوة والنشاط والعلاقة «إن العالم الذي نسكنه هو مسرح عظيم اختفت عنا أجهزته، فنحن لانرى المحركات الأولى، ونجهل علل الأحداث، وإننا نحن المهددين دون انقطاع بعدد ضخم من الآلام، يعوزنا دائماً إما الذكاء للتنبوء بها وإما القدرة على دفعها. وإننا على الدوام عائمون بين الحياة والموت، والمرض والصحة، والرغد والجدب. وإن علة خفية تصب على الجنس البشري هذه الخيرات وتلك الآلام. وهي تعمل غالباً في أقل الأوقات توقعاً لها. «وطريقتها في العمل سر من الأسرار».

ومادام الأمر كذلك فإنه لايوجد علم، وإنما توجد فقط إعادة غير يقينية لحالات خاصة. ولاتوجد فلسفة وإنما توجد فقط تفسيرات استبدادية لغير القابل للمعرفة. ولاتوجد طبيعة، وإنما يوجد فقط مجهول عظيم، ولاتوجد قوانين للطبيعة، وإنما توجد فقط ظواهر نؤولها تأويلاً خاطئًا. ولايوجد عقل، وإنما يوجد فقط أخطبوط من الأحاسيس. ولاتوجد أحكام، وإنما توجد فقط انفعالات تبدو لنا أكثر قوة، ولهذا نحن نفضلها على غيرها. ولاتوجد أنية، وإنما توجد فقط ذبذبات وجودات غير ممكنة الشرح، فينبغي ألا نتحدث عن كون تنظيمه حكمة يَصير انعكاسُها حكمتنَا. ولنتحدث فقط عن عدد لايحصى من الأحداث.

وإذن فقد كان السيد هيوم الشهير ارتيابيًا مطلقًا. وقد جعل يزاول مهمة التفلسف متتبعًا قواعدها فانتهى إلى الدمار التام، وكان أعوانه أكثر المفلسفين خسرانًا. ومع ذلك فلم يكن حزينًا، ولم يبد عليه أي أثر للمرارة. وكانت تعقلاته- إذا كانت هذه الكلمة لاتزال تحتفظ بشيء من المعنى- تبدو ساذجة فقد كان الناس يتبينون في مظهره البريء قليلاً من المكر، وهكذا أخذوا ينحدرون شيئًا فشيئًا نحو الهوة دون أن يتنبهوا إلى أنه كان مغتبطًا بأن يقتادهم إليها على مهل.

غير أنه في الحياة العملية، كان يتوقف في الوقت المناسب لكي لايحدث ثورة، ولكي لايدع أعمدة المبادئ تنهار فوق رأسه. وكان ينصح بشيء من الحكمة المعتدلة التي يقدم لها هو المثل، فهل كان ذلك من البصر؟ في الواقع أنه كان يعرف أنه من الخطر أن ينقب في المستنقعات التي تنشر العفونة حولها، وأن ينتزع الطاعون من السراديب التي هو حبيس فيها. وكان يبشر بأن الحقائق الضارة بالمجتمع- إذا كانت هناك حقائق ضارة- يجب أن تتخلى للأخطاء النافعة والمنقذة، وإلا فإن الناس يضطهدونك. وإذا لم يستطيعوا أن ينقضوك، فإنهم يتفقون على أن يدفنوك في نسيان أبدي. وقد يكون ذلك احتقاراً أو أن ارتيابيته كانت ستذهب إلى حد ألا تبقى وفية له، إذ أن الوهم الذي يعلل به الناس أنفسهم ليس له من الأهمية مايستطيع أن يمنع المتبصر عن التصميم على المساهمة فيه.

* * *

ولكن المناقضين والمنشقين والهدامين كانوا قليلي الأهمية، لأنه يبدو أنهم لم يكونوا يستطيعون شيئًا ضد الاقتناع الذي لايقبل التزلزل وهو أن الحقيقة- حين تنتزع بوساطة العقل- تشمل على قيمة سامية. ولاجرم أن من مقومات اليقين تلك الميزة، وهي أنه لكي يسطع، ليس في حاجة إلى سلطان القدماء، ولاإلى سلطان المحدثين، وهو يجتلب إلي جميع الأفراد اقتناعًا داخليًا في أسمى درجات التوكيد. إنه ملزم، وإن من يلمحه، يصير غير قادر على جحوده، لأنه كما يتعلق بنا القول بأن الليل موجود، حين يكون النهار موجودًا، كذلك لانستطيع أن نتخلص من قوته. إن حريتنا بإزاء الأمور اليقينية لاتوجد، وليس علينا إلا أن نذعن لها، وأن نعلن لها موافقتنا التامة. ولكن هذه الفكرة - وهي منعدمة التطابق مع التجربة انعدامًا تامًا، وهي مع ذلك جد مألوفة لدى التجريبيين- من أين أتت إن لم تكن من ديكارت "Descartes"؟

قلنا إن لوك كان مبعث الحياة في جميع أنواع النشاط العقلي، ونحن نعيد ذلك في حزم. أجل نحن نعترف أن ديكارت، في كثير من الحالات، يمثَّل كأنه أسير مربوط في مركبة المنتصر [1] وأن نصوصًا عدة تجزم بانهيار المنهزم. فمن ذلك مثلاً «يقتضي قانون الشؤون الإنسانية الذي يريد أن يحل الجديد محل القديم، أن ديكارت لابد أن يكون قد تخلى عن دوره. إنه قد صعق أعلام «المدرسين»، والآن قد هزم. إنه قد مضى زمانه، فليختف محملاً بما حمل به المدرسين. إنه كتب رواية النفس، ولم يكتب تاريخها. إنه لم يعرف أصل الفكرِ ولامنشأها. إنه بزوابعه، قد عكس المعنى المستقيم للطبيعة.» ولاريب أن هذه النصوص ذاتها تسخر من رينيه الخيالي، وتفتئت عليه بأنه: «لم يكن يتمسك بيقينياته، بينما كان يستعد لبناء مذهب، وكان يؤسسه على نظرية الخواء، ولكنه، حين أنبأه أحد أصدقائه بأن هذه

١ - كان من عادات أباطرة الرومان وقوادهم إذا انتصروا في إحدى المعارك أن يربطوا المنهزمين في مؤخرات مركباتهم، ويطوفوا بهم طرقات روما، وقد شبه المؤلف هنالوك بالقائد المنتصر وديكارت بالأسير المنهزم. ومما لاشك فيه أن هذه سطحية جائرة لأن ذلك الانتصار كان مؤقتًا لم يلبث أن تلاشى «فأما الزبد فيذهب جفاءًا وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض». (المترجم

النظرية الفرضية، ليست مألوفة في البلاط، غيَّر من منهجه، وفضل الملاء». وهذه الشهادات كلها تتفق على أن ديكارت قد أطفأه في الطبيعة نيوتن وفي الفلسفة لوك، وأنه إذا قبل التاريخ الذي حدده معاصروه أنفسهم فإنه حوالي سنة ١٧٣٠ قد هجرت أوهامه كما كان يقال.

ولكن هناك شهادات أخرى لاتقل صحة عن سابقتها، ترينا أن وجوده أكثر أثراً مما تسمح الوهلة الأولى برؤيته. وفوق ذلك أفلسنا نعرف معرفة تامة أن الناس لايهاجمون الموتى [١]؟

في الحق إن القرن الثامن عشر كان لوكيا وديكارتيا، وإذا كان هناك شيء من التفكك؛ فإن ذلك لايتعلق بنا ويجب أن نسجله. لاينبغي أن تقول فقط إن ديكارت قد بقي خلال ماليبرانش الذي بقي تأثيره جديراً بالإعتبار لاسيما في الفكر الفرنسي، لأن ماليبرانش- مع أنه قد انتهل من ديكارت، وبقي وفيًا لبعض مبادئه- قد انتهى على هذه الصورة، إلى مثالية بركلي، بل إلى الإسبينوزية التي سنعنى بها هنا. وإنما بقي ديكارت موجوداً على اعتبار أن ديكارت وبطرائق عدة، فنحن نلمح أولاً للدفاع عن روحه، الكتاب القدماء كفرنتينيل Fontenelle الذي لم يلق سلاحه، والأب تيراسون "abbe´ Terrasson" الذي كان يقول: إن أي شخص لايفكر كديكارت- وليس ذلك في الرياضة فحسب، بل الأدب أيضًا- ليس جديراً بالزمن الراهن وميران "Mairan" الذي أيد الآراء الديكارتية أمام مجمع العلوم إلى وفاته.

وبعد ذلك يأتي الروحيون والماديون لأسباب متباينة، ولكنهم يصدرون عن مذهبه صدوراً متوازياً. فأما الروحيون فقد ظلوا مدينين له بأنه برهن على وجود الإله، ولامادية النفس، وبأنه هزم حرية الفكر بتحالفه مع العقل [٢] وهناك أب

١- يريد المؤلف أن يقرر هنا أن المفكرين الذين ماتت منتجاتهم لايهاجمهم النقاد وبما أن يديكارت هو موضوع هذا الهجوم، فتلك شهادة ناطقة بعدم موت أفكاره وبتسجيل خلودها رغم هذه المهاجمات الجاهلة أو المغرضة. (المترجم)

٢- ليس المراد هنا بكلمة حرية الفكر معناها المألوف المعتدل، وإنما معناها الحرية المفرطة التي كانت تهدف، باسم العقل، إلى الإلحاد. (المترجم)

يدعي جينيست "Genest" قد وضع مذهب ديكارت في شعر سعيداً بأن يتحصن خلف هذا الحصن من أصول العقيدة فيقول:

«إنني أسير بفضل نور سعيد، إذ أن أسرار الطبيعة ستخرج أمامي من غموضها. إن رجلاً من بيننا يقدم نفسه ليقتادنا، فعندما يبتدئ المرء بأن يتعلم من منهجه، ينكشف له طريق أكثر وضوحاً ينتهي به إلى الحقيقة...»

وهناك يسوعي هو الأب بارادو فانجاس يتحدث عنه على النحو التالي: «ظهر ديكارت وقد جرؤ وحده، وكان مسلحًا بكل قوى العبقرية، على أن يكافح بفضل الفلسفة والعقل ضد الكون الخاضع للمشائية. إن ديكارت- وهو عقل واسع سام عميق، ولكنه قد يكون متطرفًا في الجرأة- سيظفر ظفراً أبديًا بمجد اجتذابه العالم المفكر إلى استكشاف الحقيقة، إذا لم يكن هو نفسه قد فاز بمجد إدراكها، فالفلسفة مدينة لهذه العبقرية السعيدة، باستقرارها وتقدمها الضخم.»

ولقدنشر يسوعي آخر هو الأب بوليان كتابًا في ثلاثة مجلدات عنوانه: «معاهدة السلام بين ديكارت ونيوتن» لأن اليسوعيين، بعد أن أقصوا الفلسفة الديكارتية عن تعليمهم، وبعد أن قاوموها زمنًا طويلاً، انتهوا بأن اتخذوها على أنها حليفة لهم. وكان الأب أندريه يقول: «فيما عدا ماليبرانش وديكارت، لايوجد في الفلسفة إنقاذ.» وكان الأب أنطوان جينار يقول: «إن ديكارت قد أتى يعلن للأناسي الآخرين أنه. لكي يكون المرء فيلسوفًا، لايكفيه أن يؤمن، بل ينبغي له أن يفكر.»

ومع ذلك فإن اللادينية كانت تذكر من جانبها أن ديكارت قد نبذ السلطة، وثبت حق العقل الأعلى. وأن المادية كانت تذكر أن ديكارت، قد تعهد ببناء عالم على شريطه أن تقدم إليه المادة والحركة. وكذلك لاميترى كان يتولى الدفاع عنه ضد صغار الفلاسفة من أذناب لوك، وضد جودان الذي كان يستشيط غضباً حين نقده، وضد ديلاند الذي لم يكن يفهمه فهما جيداً، وعند لاميتري أن ديكارت لم يكن في الواقع سوى مادي ماهر لم يكن حراً في أن ينشر فكرته، وأنه لم يتحدث عن النفس

إلا لأنه كان مضطراً في زمن كانت فيه أهليته نفسها أقدر على أن تسيء إلى مجده من أن تتقدم به. إنه كان منشأ ذلك النقاش الذي لايتناهى عن النفوس الحيوانية، ولم يكن عنده الفــرق بين الحيوان- الآلة، والإنسان- الآلة، جد بعيد. ولما لم يكن ديــكارت قد وضع عنوانًا على فندق اليقين، فقد كان لكل واحد الحق في أن يسكن فيه رأيه.

هناك دراسات حديثة- سواء أتناولت منتجات رئيسية «كروح القوانين» و «دائرة المعارف» أم اتبعت تيارات الفكر خلال مختلف البلاد الأوروبية- تنم عن أثر مستمر «لفيلسوف فرنسا العظيم» أو «لرينيه ذلك العبقري الكبير المبتدع» أو «لذلك العبقري الممتاز الأسمى».

وهي تكشف كذلك عن المجهود الذي بذل لكي لايضحى بتجريبية لوك ولابتعقلية ديكارت.

وفي سنة ١٧٦٥، أي في الحقبة التي كان يبدو فيها أن الأول قد ربح الموقف، قدم الناس إلى الثاني تكفيراً كان عظيم الشبه بالانتصار، فالمجتمع الفرنسي وضع الدفاع عن ديكارت في مسابقة، وظفر بالجائزة اختصاصي في هذا النوع وهو أنطوان ليونار توما، وفازت قراءة خطبته بنجاح جد فائق. وفي عبارة بليغة خلابة، جعل توما يذكر سامعيه بأنه منذ مائة عام أعيد رماد ديكارت من استكهولم إلى باريس، وأنه في ذلك الحين حظر النطق بالتأبين الجنائزي للفيلسوف. ولكن الوقت حان اليوم للتكفير. حقًا إن كثيراً من الفكر التي عبر عنها، كانت قد هجرت، ولكن الذي لم يهجر هو سير عقله الذي اتبعه الناس في أمانة. إن ديكارت حقق ثورة لم تقف نتائجها بعد، إذ أن بين أرسطو وبينه فراغًا ساد ألفي سنة. وقصارى القول إن مؤلف «خطبة على المنهج» كان موجوداً في كل مكان، في لوندن، وفي برلين، وفي ليبزيج، وفي فلورانسا. وكان يتغلغل في سان بتير سبورج.

وفي سنة ١٧٧١، عندما قدم ملك السويد إلى باريس، واستقبل في المجمع

استمتع بمحاورة بين ديكارت وكريستين "Christine de sue´de" ملكة السويد في «الشان- ايليزيه [1]» .

وفي الواقع أن شبحه كان له الحق في أن يستمتع بالشأن- ايليزيه، لأنه إذا كان من المقبول في يسر أنه قد أخطأ في بعض النقط، فإن من المعترف به أن الأسلحة التي كانت تستخدم لمحاربته هي أسلحته . وأن الناس مدينون له بالأضواء التي كانت فجر عصر الأنوار . إنه علم الشك المنهجي، وطريقة قيادة الأفكار بالنظام والتحليل، والإيمان باليقين، والقيمة السامية للعقل، وإن الدَّين الذي ثبت له، ظل ضخماً ... غاية ما في الأمر أن الفلاسفة قد نسوا أنه أسس القيمة السامية للعقل على الصفات الإلهية . بيد أنهم كانوا كثيراً ما أعلنوا أن الصفات الإلهية كانت غير قابلة للإدراك عندهم، كان لابد للضمان الديكارتي من أن يهوى . ومعنى هذا أنهم كانوا يجحدون المبدأ . ويحتفظون بالنتيجة في سذاجة .

قد يكون من الممكن أن يجد المرء في الواقعة التي تقررها، وسيلة لإنهاء مناقشة لاتزال مطروقة . وهي أن الناس يعرفون بأية قوة رأى تين "Taine" في فكر القرن الثامن عشر تجرداً محضاً . ويعرفون أيضاً كيف أنه اعترض على تين بحق، بأن هذا الفكر ذاته لم يكن لديه هم أعز من الصدور عن الوقائع الملاحظة، ومن الرجوع إلى الوقائع، والانتهاء إلى إصلاح عملي للمجتمع . أفلايكون من الحق القول بأن هذا الفكر كان على التضاد عقلياً وتجريبياً، أي أنه كان كلا الاثنين في آن واحد؟ فمن حيثيـــة إنه تجريبي، نادى بأنه لاتوجد في نفوسنا أية سابقية على التجربـــة . ومن حيثية إنه عقلي آمن بسابقية العقل . وبما أنه تجريبي، اعتقد أن الطبيعة لم تكن سوى أحاسيسنا مسجلة . وبما أنه عقلي، اعتقد أن الطبيعة كانت هي العقل .

* * *

---

١ - الشان ايليزيه هو في الأساطير الهيلينية المثوى الممتاز الذي يقيم فيه أشباح الحكماء والأبطال ولذا من الطبيعي أن يلتقي فيه ديكارت وكريستين حامية الفكر الفلسفي في عصرها . (المترجم)

ليبنيز "Leibniz" وكذلك اسبينوزا "Spinoza" يطالبان بمنزلتيهما. كان رفض قبول آراء ليبنيز يتبدى على نفس الحالة التي ألمت بديكارت وأحيانًا في صيغ أكثر عنفًا، فكانت آراؤه تنعت بالهذيان وأوهام المتذهب وأحلام الرجال الغامضة وبتلطفات أخرى من هذا النوع.

بيد أن الأمور في الحياة العلمية مرت على نحو آخر. وإذا زاول الباحثون يومًا دراسة وافية لهذا الموضوع العظيم، فليسمحوا لنا بأن نبين هنا بعض الاتجاهات التي يمكن أن تتخذها هذه الدراسة.

إنها بديا، يجب أن تعيد إلى الذاكرة كيف أن وضعي ديكارت وليبنيز ليسا متماثلين في الزمن، لأنه بينما أن الأول يمثل حركة قديمة أتت عليها الحركة التي بدأها لوك، فأقامت فوقها دون أن تزيلها، نرى أن نقطة صدور الثاني تتحدد في عصر كان فيه القرن الثامن عشر قد ابتدأ. بحيث إن الأمر بالنسبة إلى أحدهما كان يتعلق باستغلال ثروات مكسوبة، وبالنسبة إلى الآخر بثروات حديثة، فليبنيز توفى في سنة ١٧١٦، وكتابة «الإلهيات» ظهر في سنة ١٧١٠، أي بعد مرور ثلاث أرباع قرن على «خطبة على المنهج»، وبعد مرور عشرين عامًا على «محاولة على العقل البشري»، وكتابة «مونادولوجيه» أي نظرية الذرات اللامادية» "Monadologia"

نشر للمرة الأولى في ليبزيج في سنة ١٧٢١، ولكي تستخلص مقالات ليبنيز من الدوريات العالمة التي كانت مطمورة فيها، ولكي يعرف كنه الفكر الليبنيزي للملأ أكثر اتساعًا من ملأ تلاميذه المباشرين، بذل مجهود وتتابع إلى مدى بعيد في العصر، بفضل عمل الناشرين والمعممين والأنصار كجو تشيد، وإيلي دي جوكور وكونينج، ودينانس، وراسب وآخرين. "Gottsched, Elie de Jaucourt, Konig, Dutens, Raspe". وليس معنى هذا أن أثره كان أقل عمقًا من أثر ديكارت، ولكنه كان أقل بروزًا على الفور، وأكثر مدعاة إلى التنقيب عنه، وأنه أسيء اعتباره أحيانًا لأن العثور عليه كان شاقًا بعض الشيء في وسط المذاهب التي وصلت إلى نضوجها بل تجاوزت هذا النضوج.

وهذا التحقيق لو حدث، لوجب أن يسجل أن أوروبا كانت تريد أن تكون أمة واحدة، ولكن بحيث تحتفظ كل دولة بمفضلاتها الخاصة، ومن ثم فإن فرنسا بقيت- كما لو كان ذلك عملاً غير إرادي لها- مرتبطة بديكارت على صورة أشد عمقًا، وإن انجلترا ظلت أكثر وفاءًا للوك، وألمانيا أعظم أمانة لليبنيز، وكلما كانت هذه الأخيرة تعمل على إشعاع فكرها، لم يفت وجدانها الليبنيزي أن يعمل معها. لم يلهم ليبنيز، مذهب العاطفة الشخصية ولاقصيدة جوتشيد التي أهديت إليه، ولا إلهيات أوز "Uz" فحسب، وإنما كان ثاويًا في الروح الجيرمانية.

ولوجب أيضًا أن يسجل هذا التحقيق بعد ذلك، عاطفة معقدة وهي عاطفة وجود عبقرية قوية بهيئة استثنائية إلى حد يشعر المرء معه بما يشبه الندم على أنه لم يفهمه الفهم الكافي لتقديره أتم تقدير. ومن آيات ذلك أن الأب كاستيل كان يدهش من ملاحظة أن رجلاً لم يكد يعمل أكثر من أنه نشر في الصحف آراءًا عارضة، ومشروعات، ووعودًا، وكتب «إلهيات» لم تكن سامية إلي هذا الحد، يكون مع ذلك قمينًا بكل هذه العناية، فدالامبير الذي كان جد بعيد عنه، لم يستطع أن يأبى عليه الإعجاب الذي كانت تستحقه عظمة نظراته في كل نوع. والامتداد العجيب في معارفه، وعلى الأخص الروح الفلسفية التي بها عرف كيف ينيرها.

انتهى ديديرو أيضًا بأن أعجب به، وكان الناس قد شكوا- وقد يكون ذلك في شيء من الحق- من أنه لم يؤد إلى ليبنيز الإجلال الذي هو خليق به، فأصلح هذا الخطأ في شيء من السرور، لأن ديديرو كان مفرطًا في الغيرة على مجد الجنس البشري إلى حد يمنعه من عدم التفكير في أن يغمط عظماء الرجال حقوقهم. على أن مؤلفاتهم التي تنتقل إلى الأجيال الآتية، ستشهد بقيمتهم، فلايراهم أحد أقل مما هم عليه، وسيرى الناس أولئك الذين أهملوهم جد صغيرين. ولقد حدثنا بوفون Buffon – وقد نقل إلينا هيرودي سيشيل نصوصه- «أنه لم يكد يوجد سوى أربعة أو خمسة عباقرة شرفوا الإنسانية، وهم نيوتون وبيكون وليبنيز ومونتسكيو وأنا»، "Newton, Bacon, Leibniz, Montesquieu" ففيما يتعلق بنيوتون، أنه كشف

مبدأ عظيمًا. ولكنه أمضى كل حياته في إجراء عمليات رياضية ليبرهن عليه، أما أسلوبه فإنه لايمكن أن يكون ذا منفعة كبيرة. وكان بوفون يعتبر ليبنيز أكثر من بيكون نفسه. ويدعى أنه يتناول الأشياء فوق سن حرية عبقريته.

ويجب أن يظهر هذا التحقيق أيضًا، أنه إذا كانت آثار ليبنيز تبدو في هيئة غير متوقعة غالبًا، عن أكثر العقول تنوعًا، كعقلي موراتوري الشيخ، أوتورجو Turgot الشاب، فذلك لأن هذه العقول في الغالب، تبنت نظراته الخاصة دون أن تحسب نفسها مضطرة إلى ربطها بمجموع مذهبه.

ويجب أن يلتفت أيضًا إلى المعونة التي طلبت منه ضد عمل بيل "Bayle" السلبي، وإلى المنزلة التي يشغلها من التطور التاريخي، وإلى الدور الذي قام به في إذاعة التفاؤل كما سنحاول أن نبينه في الفصل التالي، وإلى التواتر الذي التجئ فيه إلى مبادئه الشهيرة: أي مبدأ العلة الكافية، ومبدأ اقتصاد القوى، ومبدأ غير القابل للتعيين. وأكثر من هذه كلها، مبدأ الاتصال الذي أتى جازمًا بالإيمان بوجود سلم الموجودات الأعظم.

وهكذا فمن أحد الوجوه نشاهد أن ليبنيز - وهو الذي كان رياضيًا وفيزيقيا ولكنه لم يكن طبيعيًا - كان مبعث حياة التاريخ الطبيعي. وفي هذا يقول شارل بونيه: «لقد وسَّع استكشاف السيد ترامبليه رقعة معارفنا الرتبية العجيبة التي كان بعض الفلاسفة قد لمحوها في المنتجات الطبيعية، فقد قال ليبنيز، إن الطبيعة لاتسير بوساطة الطفرات، ولاجرم أنه من الجدير بالملاحظة أن ميتافيزيقي هذا الرجل العظيم، قد انتهت به إلى الاشتباه في وجود كائن كالبوليب أي الحيوان النباتي ... ومن الندرة أن تظفر الميتافيزيقي بالسعادة إلي هذا الحد في شرحها للطبيعة [1]».

وعلى هذا النحو يصل المحققون إلى دوره الجوهري، وهو أن ليبنيز كان

---

(1) Charles Bonnet, Conside´rations sur les corps organi: e´s, premice partie ehap.12. Cf..sa Vue du Leibnizianisme, Oeuvres, Ed 1783, t. VII.

معناه الثأر للميتافيزيقي، فإن دوره كان يتمثل في أن يعيد إلى الأذهان أنه- رغم أن جميع اللعنات قد وجهت إليها- لم يستطع أحد مع ذلك، أن يمنع نفسه من أن يستشيرها في سر الموجود بل من أن يطلب إليها الكلمة الأخيرة فيه. ونحن لانتحدث فقط عن أولئك الذين- بعد أن تبنوا في الوقت ذاته ديكارت ولوك دون أن يتضايقوا كثيراً- تبنوا فوق ذلك الحل الليبنيزي. إننا نتحدث عن أنصار الأنوار الواضحين الذين صاروا في وقت معين، هراطقة، لأنهم كانوا يشرحون عبثًا المادة بالمادة، والحركة بالحركة. وإنها لحالة عجيبة، حالة مدام دو- شاتيليه "Mme du Chatelet" التي حين ابتدأت سفراً طبيعيًا محضًا، أزلقت إليه الميتافيزيقي فصارت ليبنيزية. وأعجب من هذا أيضًا حالة موبيرتوي "Maupertuis" الذي يصدر كتابه «محاولة على تكوين الكائنات العضوية المنظمة» (١٧٥٤) عن المادية، ويستعين بالروحية الليبنيزية. وفي الواقع أن موبيرتوي يبدأ بقوله إنه سيحاول بدوره أن يشرح الطبيعة مادام أن هناك محاولات سابقة لم تنجح. وعنده أن الطبيعة تتضح بوجود العناصر أي أسرار أجزاء المادة التي تقبل إمكان القسمة والتي يؤلف امتزاجها الأجسام. وهنا تبقى معرفة كيف تنتظم هذه الذرات. ولايرى المرء كيف أن الذر الفظ الذي تخيله إيبيقور ولوكريس "Epicure et Lucre´ce" من بعده يمكن أن يقدم حل المشكلة بل إن قوانين المادة كالجاذبية لن تكفي لفهم ظواهر الحياة. وإذن ينبغي افتراض «مبدأ لتعقل أي شيء يشبه ماندعوه بالرغبة والنفور والذاكرة ...» وينبغي ألا ننخدع في ذلك، فالذي يبدو هنا هو «الموناد» أو الذرة اللامادية. ومن ثم فإن لاميتري كان جد ساخط لأن الليبنيزيين في رأيه قد صيروا المادة روحية بدلاً من جعل النفس مادية. إن الجميع يعرفون هذه «الموناد» منذ الكسب الساطع الذي ظفر به الليبنيزيون عن طريق مدام دوشاتيليه.

جعلت هذه الشيعة تتزايد كل يوم، وينبغي أن يأتي ديكارت جديد، ليطهر الميتافيزيقي من العبارات الغامضة التي يتغذى منها العقل في أغلب الأحايين.

* * *

إن نفس إشارات التقزز، ونفس صيحات الجحود، ونفس الامتعاض، قد استقبلت قصة حياته، وتبعت الالتقاء الأول بمؤلفيه «رسالة اللاهوت والسياسة» و«الأخلاق». وجهت ذات الإهانات إلى ذلك الملحد، ذلك المجرم، ذلك الكلب النافق، وذات الازدراءات لتلك النظرية، نظرية الجوهر اللامتناهي التي لم يكن الناس يستطيعون إلا أن يحتقروها ويمقتوها، ولذلك المذهب الذي يطرح لامتناهياً من لامتناه وينتهي إلى صفر، والذي هو أشد الأفكار بعداً عن المعقولية منذ أن فكرت الفلسفة. وأخيراً وجدت ذات الطريقة للتبرؤ من أقل اتصال بالإسبينوزية كما لو كان المرء يتبرأ من مرض مخجل.

لم يكن المسيحيون، كاثوليكيين وبروتستانتين وحدهم هم الذين يخشون هذا الطاعون بل كان أكثر الفلاسفة يكتفون بأن يتبعوا بيل، ويتحولون عن إسبينوزا. ولم يكن بولينيروك ولافولف يحاولان أن يجتازا حاجز عدم الفهم. أما كوندياك، فهو يرى أن إسبينوزا لم يكن لديه أية فكرة عن الأمور التي كان يقدمها، وأن تعريفاته كانت عائمة، وأن مبادئه الأولية كانت قليلة الضبط، ونسبه كانت إنتاج أهوائه، ولم تكن تحتوي على شيء قمين بأن ينتهي إلى معرفة الأشياء. وبعد أن ينتهي كوندياك من هذا القول، يتوقف ثم يعلن قائلاً: « ولقد كنت أغدو قليل التعقل لو أني هاجمت الأشباح التي تنشأ من تلك النسب كما كان الفرسان الأفاقون الذين كانوا يقاتلون الأشباح والسحرة.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يكون البارون دولباك "Baron d,Holbach" قد فهمه على نحو أفضل، إذ يقول: «إن جميع الأسباب تحمل على الإيمان بأنه لولا اضطهاد الحاخام لإسبينوزا، لما تخيل قط مذهبه».

حقًا إن الناس يريدون أن يقروا أنه لم يكن ذلك المنافق الذي كان يخفي -بمهارة جديرة بالإعجاب- زندقة قواعده وراء جدية أخلاقه، وبواسطة السطوع الخادع لفضيلة مزيفة، وأن حياته على الضد من ذلك. كانت طاهرة، ولكن فلسفته

كانت تتعرض لمأخذ كان من المستحيل أن تبرأ منه وهو أنها لم تكن واضحة. وإذن فهي ليست حقيقة، إنها كانت غير قابلة للتعقل، وكان ذلك من حسن الحظ، لأنها لو كانت قابلة للتعقل، لكان لها أشياع بينما أنها، لكونها مبهمة. قد بقيت خافتة.

بيد أنه في الوقت ذاته كانت الحشرات الحافرة تعمل عملها، فكانت مخطوطات سرية تتداول دون السماح بقراءة منتجات اسبينوزا كاملة بل بتراخيصها. ونحن نعرف اليوم أن كثيراً من هذه المخطوطات- تحت عناوين متباينة- كانت تستخدم كوسيلة لنقل آرائه. ومن هذا عدة نقوض مزعومة، تحت لون محاولة إعدامه، قد وجدت وسيلة التعريف به، وذلك مثل «نقض أخطاء بينوادي اسبينوزا» تأليف م. دي فينيلون، والأب لامى البينيديكتي، والكونت دي بولانفيليبه، بروكسيل ١٧٣١. وفي هذا المؤلف نشاهد أن الكونت دي بولانفيلييه- متظاهراً بنقض اسبينوزا- يؤوله.

كان هناك ضالون وثائرون، يجدون فيه غذاءهم، وكانت هناك طوائف صغيرة من المستقلين، أو بعبارة أفضل، خلايا نشيطة، ومن حين إلى حين كان يظهر في فضيحة كبرى مثيراً نبذه المجتمع، لأنه يتباهى بأنه كان تلميذ الملعون، ولكنه لم يكن يستسلم.

وفي نحو منتصف القرن حدث تغير، فبدلاً من المعركة التي كانت تتسم بطابع، مؤداه أنه لاأولئك الذين كانوا يهاجمون إسبينوزا، ولاتلك الأقلية القليلة التي كانت تدافع عنه، كان لديهم الأهلية للتقدير الدقيق لقوة مذهبه، وبدلاً من هذا، قد وجد نوع من الفضول القلق الذي انتهى بالدنو من منتجاته لمعرفة جوهرها على وجه أفضل. ففي الواقع إن بعض شراح التوراة الذين لاتقوى الصعوبات على قهقرهم، والذين اعتادوا على استخراج خلاصة النصوص التي يدرسونها، قد وصلوا إلي معرفة كتاب «الأخلاق» عن طريق «الرسالة» فصار الكتابان موضوع تأملاتهم. وإذ ذاك كفوا عن اعتبار إسبينوزا ملحداً، ورأوه على ما كان عليه أي حلوليًا. وفي جو صار ثوريًا، جعل تخمره يسترد بعض القوة، ويعمل.

إنه يعمل، وينزلق إلى عقول دعاة الأنوار من شعراء وكتاب وفلاسفة إنه يتغلغل في شرح الكون الذي سينتهي أعظمهم جميعًا وهو ليسينج بأن يقدمه. وكان من النادر أن رأى الناس في تاريخ الفكر بعثًا كهذا.

❊ ❊ ❊

ليست الطبيعة موازية للعقل، ذلك ما يقوله لنا اليوم المفكرون والعلماء، ومن بينهم بيولوجي شهير وهو شارل نيكول "Charles Nicolle" الذي يقول: «إن الطبيعة ليست جميلة، ولاخيرة، وهي لاتعرف عدم المنطق ولاالعقل، إنها هي هي ... إن أشد مواطن ضعف العقل انتشاراً، هو عزوه خاصيته وهي عنصر التعقل، إلى الظواهر التي يدرسها.»

لقد تجاوزنا العمل الأخرق أي عمل الملاحظة السطحية، والخيال الزائف، ثم طبقنا هذا العقل على كل شيء، بهيئة جنونية، لأننا أعرنا الواقع قوانين لم تكن سوى قوانين عقلنا، وهو في هذا يقول: «إن استقامة الرابط هي أحد منشآت عقلنا، أو هي ضرورة يجد هذا الأخير نفسه فيها ليتمثل الوقائع في صورة عقلية وإن الفلاسفة- على غرار إنسان العصور الأولى الذي كان يقذف بنفسه الفظة في الأشياء والكائنات التي تحوطه- قد وضعوا في هذا الحطام الأخير صوراً إلهية عفت عليها السنون، وجزءاً منهم اعتبروه أسمى الأجزاء، ونظروا إليه على أنه روحي محض وهو صورة عقلهم (1)».

وإذن ففي نفس داخل «فلسفة الأنوار» يوجد تنافر جوهري لأن هذه الفلسفة قد أذابت في مذهب واحد، التجريبية، والديكارتية، والليبنيزية بل الاسبينوزية أيضًا. ونحن لانتخيل فكرة واحدة نقول عنها إنها فكرة العصر، ونحملها هذه التنافرات، لأن الفلاسفة أنفسهم، هم الذين تباهوا بأنهم كانوا ملفقين، ونحن لانعدو أن نسجل اعترافهم. ومن ذلك ما

(1) Charles Nicolle, La Nature, Conception et morale biologiques, 1934.

يقولـــه ڤولتـــير: «يا صديقي، إنني كنت دائمًا موفِّقًا، وقد أخذت من جميع المذاهب كل ما بدالي قابلاً للتعقل».

ولقد عرَّفت دائرة المعارف الموَّفق على النحو التالي: «الموفق هو الفيلسوف الذي- إذ يدوس بقدميه الوهم والتقاليد والأقدمية، والموافقة العامة، والسلطة- يجرؤ على أن يفكر من نفسه، ويصعد إلى أوضح المبادئ العامة فيختبرها ويناقشها، ولايقبل شيئًا إلا على أساس تجربته وعقله. ومن جميع الفلسفات التي حللها بلا تفضيل وبلا ميل، هو يجرؤ على أن يصطنع لنفسه فلسفة خاصة تعزى إليه ...»

ومن ثم فإن أوربا- لكي تقر النظام في نظرية المعرفة- كانت في حاجة إلى «كانت».

# الفصل الثالث

## الطبيعة والخيرية

### التفاؤل

إن الطبيعة هي الخيرية، ذلك ما حسبه الفلاسفة أول الأمر، وذلك هو أيضًا ما كفوا عن الإيمان به بعد أن فكروا فيه على صورة أفضل.

لماذا يوجد من الألم على الأرض إلى هذا الحد؟ ولماذا يوجد هذا القدر من المظالم والجرائم؟ وإذا كان يوجد إله حكمة وخيرية، فلماذا تسامح في الشر وأنشأه؟ فمنذ أيوب، ومن الممكن أن يكون ذلك منذ آدم، قد ارتفعت هذه المسألة نفسها نحو السماء.

بيد أن إرادة نقلها من المحيط الديني إلى المحيط الفلسفي المحض قد ارتسمت منذ سنة ١٧٠٢. وإذا كان كتاب وليم كينج "William King" الذي عنوانه «عن أصل الشر»، قد ظفر حينئذ بنجاح، وأثار شيئًا من الانفعال، فذلك لأنه كان يترجم، بطريقة أشد حزمًا، آراءً كانت لاتزال عائمة ومشتتة، ولأنه كان يأبى أن يتحدث باسم المسيحية التي كان المؤلف مع ذلك أحد مدافعيها الحازمين. وفي لاتينية لاتزال «مدرسية»، وعلى صورة ثقيلة وقوية، كان الأسقف الأنجليكاني يستنجد بعقول قرائه، لابعقيدتهم، فكان يبرهن على أن الإله لو لم يسمح بالشر، لما كان تام القدرة ولاغير متناهي الخيرية، لأن الشر ليس سوى حرمان وغيبة هما ذات شرط وجود الكائنات المخلوقة. ومادام أن الإله، بتأثير خيريته، قد صمم

على أن يخلق، فإنه لم يكن يستطيع خلق الكمال بل فقط للإكمال الذي هو على الأقل أسمى من العدم.

ومع ذلك فإن بيل عندما قرأ تحليل كتاب كينج تأليف بيرناركون الشكوك التالية: هل يمكن أن يقال أن الإله قد خلق العالم لمجده؟ وهل يمكن أن يقال إن الشر كان ضرورياً حقاً؟ أولاً يكون هناك مبدآن يتنازعان امبراطورية العالم، وهما مبدأ الخير ومبدأ الشر؟ ولكن هذا الفرض نفسه أهو ممكن التأييد؟ وأي مذهب يمكن قبوله في حيرة كهذه؟ إن أصل الشر غامض، وإن العثور عليه أصعب من منابع النيل، وإنه بعيد عن متناول عقلنا.

ولما كان قد استمر يفكر، فقد بدأ مع نفس بيرنار نقاشاً جديداً، وسرعان ما وصل إلى صورة أخرى من ذات المشكلة، مجملها: أن هذه الطبيعة التي بدأ الناس يصكون بها أسماعنا، وهذه الطبيعة التي يجزمون لنا بأنها حكيمة وخيرة، يكون من الخير مع ذلك اختبارها عن قرب أكثر. ليُقلْ لنا إذن من جهة، «ما هو بالضبط الشيء الذي ينبثق من الطبيعة.» ومن جهة أخرى ما إذا كان– لمعرفة أن الشيء خير– يكفي أن نعرف أن الطبيعة تعلمنا إياه.» فمن ذلك مثلاً أن يروي لنا أن الأبناء يجب أن يشرفوا آباءهم لأن ذلك موجود في الطبيعة، غير أنه لاتوجد كلمة تستعمل بهيئة أكثر تموجاً من كلمة الطبيعة، فهي تدخل في كل نوع من أنواع الخطب، تارة بمعنى وأخرى بمعنى آخر ولايكاد أحد يربطها بفكرة محددة.» وحيث كان الأمر كذلك، فكيف يميز ما هو طبيعي مما هو مكتسب؟.

ولكن الذي ليس يقينياً على الأخص، هو النتيجة الآتية: «هذا آت من الطبيعة. إذن هذا خير وعادل.» إذ أننا نرى في النوع البشري كثيراً من الأشياء مفرطة في السوء ولو أنه لايمكن الارتياب في أنها من صنع الطبيعة الخالص. ولايوجد شيء لنيل الحكمة أكثر ضرورة من عدم اتباع إيحاءات الطبيعة في محيط الانتقام والكبرياء وعدم الحياء. أفلم ينْبَغِ أن تضع القوانين الإلهية والبشرية زماماً للطبيعة؟ وماذا كان سيصبر الجنس البشري دون ذلك؟ إن الطبيعة هي حالة مرض (١).

---

(١) Re´ponse anx questions d,un provincial,I,ch. 74.,qq,ch.95 sqq.

وفي الواقع كيف يمكن قهر مقاومة أشد كينونتنا داخلية وجحود اليقين ذاته، والإقلاع من بشاعة الحروب والمذابح، وجعل المرضى يظنون أنهم يتألمون أقل مما يتخيلون، والأمهات يعتقدن أنهن مخطئات في أن يبكين أبناءهن الذين ماتوا في مهودهم؟ ومن ثم فإن شافتيسبوريه "Shaftesbury" -لكي يجتاز القسوة المسيحية، إلى السكينة العقلية- يتدخل بدوره.

ولقد رأينا كيف لطف مأساوية الحياة، وكيف رد الإلهي إلى الإنساني، وكيف كتب «أن الطبيعة ليس لديها خبث، ورأينا كيف أنه- في قدر قليل من السنين أي من سنة ١٧٠٧ إلي سنة ١٧١١- قد عمل على تغيير وجهات النظر، فعنده لم يصبح شيء له اعتبار، سوى الحرية والاستئناس، واليسر والسعادة على أرض يطمئنها جمال قوس قزح.

بيد أن هذا الأمر لم يكن يكتفي فيه جهد هاوٍ، ولو كان عمله قويًا. ولكن ليبنيز قد أتى لمعونته، إذ أنه لايوجد من بين جميع أجزاء مذهبه أي جزء قد استهوى الأرواح المتعطشة إلي الطمأنينة بهيئة أشد وضوحًا، من الجزء الذي يحتوي على الحجج التي أقامها ليؤلف منها حاجزًا لارتيابية بيربيل ولمانويته أيضًا، وهو الجزء الذي يوجد منتشرًا في منتجاته: أي في مقالاته، وفي رسائله، وفي مناقشاته، وفي أجوبته، وأخص من ذلك في كتابه «محاولات في الإلهيات على خيرية الإله، وحرية الإنسان، وأصل الشر» (١٧١٠). قلل بديًا من شأن الكوارث الطبيعية. والألم المضايق، واستخدم في التعبير عنه، عبارة قديمة فسماه بالشر الجسماني. وقد بدا ذلك أقل إيلامًا. أما الشر ألما وراء الطبيعي- وهو ماتسميه شرًا من وجهة نظرنا الخاصة- فهو ليس كذلك في النظام العام للأشياء، فالخط يمكن أن يكون فيه منعرجات، وارتفاعات، وانخفاضات، وانقطاعات، وتنوعات أخرى بحيث لايرى فيه أي مسوغ عقلي لاسيما حين لايلاحظ إلا جزء من الخط. ومع ذلك هو لايمنع من المعادلة التي يمكن أن يجد فيها الهندسي، سبب هذه الشذوذات المزعومة، والتئامها مع المعادلة. والأمر كذلك بالنسبة إلى مايبدو لنا من عيوب

مخجلة في الكون. ولكي نحكم على المجموع، فإن نظرنا قاصر قصراً مفرطًا. وإذا كنا نشكو من هذا التفصيل أو ذاك، فذلك لأننا لانميز البرنامج.

بقي بعد ذلك الشر المعنوي، فإنه كان ينبغي أن نُسوّغ عيوبنا ورذائلنا، ونذالاتنا، وجرائمنا، وذلك الانعطاف الفظيع، بل ذلك الذوق المريض الذي هو لدينا نحو الخطيئة، والفسق الذي يفسد أنقى النيات في الظاهر، وعمل جراثيم الشر التي فينا. ولكي يشرح ليبنيز هذا الشر، رسم لوحة عظيمة مثل فيها لانهائية العوالم الممكنة، كما أمكن أن يتمثلها الإله قبل أن يختار منها واحداً كان خليقًا بالمرور من العدم إلى الكينونة، وقد أبان نفس اختيار هذا الإله حين أبرز بغتة من بين عوالم المستقبل، ما بدا له أجدرها بالوجود وهوما كان أقلها اشتمالاً على النقص. وفي هذا الهامش من النقص- وهو ما يفهم العقل ضرورته، مادام أنه يؤلف الفرق بين المخلوق والخالق- يثوي الشر الذي يجب أن يكون أحد الأجزاء المؤلفة للكل.

إن الحكمة السامية -منضمة إلى خيرية لانهائية مثلها- لم تكن تستطيع أن تتخلف عن اختيار الأفضل، لأنه كما أن أقل الشر نوع من الخير، كذلك أقل الخير نوع من الشر، إذا كان عقبة في سبيل خير أعظم، وكان من الممكن أن يكون هناك شيء يستحق الإصلاح في أفعال الإله، لو أن هناك وسيلة لعمل ما هو أفضل.

وإذن فعالمنا هو أقل العوالم الممكنة سوءاً أو- لكي نعبر بعبارات إيجابية- هو أفضل العوالم الممكنة.

كان في معبد مانفيس هرم عال مؤلف من كرات موضوع بعضها فوق بعض. وقد سأل أحد الرحالة كاهن المعبد عن هذا الهرم، وتلك الكرات، فأجاب بأن هذا يمثل جميع العوالم الممكنة، وأن أكملها هو في القمة. ولما كان الرحال يدفعه الفضول إلى رؤية أكمل العوالم، فقد صعد إلى أعلى الهرم، فكان أول شيء لفت نظره، هو تاركان أثناء اغتصابه لوكريس [1].

---

١- لوكريس هي سيدة رومانية انتحرت على أثر اعتداء تاركان ابن الملك تاركان ملك روما على عرضها بالقوة وقد دفعت هذه المأساة الرومان إلي بغض الملوك والثورة بهم وكان ذلك سببًا في إنشاء الجمهورية الرومانية في سنة ٥٠٩ قبل المسيح وقد تغلغل هذا المقت في نفوسهم إلى حد جعلهم لايستسيغون سماع أسماء الملوك. (المترجم)

إننا نتعجب من هذا، ولكننا لانلبث أن نفهم المعنى العميق لذلك الرمز، وهو أنه لو لم يغتصب تاركان، لوكريس، لما نشأت الجمهورية الرومانية. ومعنى هذا أن المدنية الرومانية، لم تكن لتأخذ صورتها، ولالتبسط جناحها على الأرض، ولالتعير إطاراتها للمسيحية الناشئة وهكذا كان يجب أن تشغل تلك الجريمة الفظيعة مكانها في عالم هو من حيث الجوهر ناقص. ولكن كان يجب أن تكون في الوقت ذاته عنصر خير أعظم. وكان هذا التطبيق العقلي للشر، يقبل، بل يعزز كأنه صديق منتظر. وكان جان كريستيان ڤولف، يضعه في صيغ، ويقدمه إلى أساتذة الجامعات الألمانية، بينما أن الفرنسيين كانوا يستطيعون أن يقرأوا في منتجات مدام دوشاتيليه أن «هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، إنه هو الذي يسوده أكثر التنوعات، مع أكثر النظام «وإن جميع الاعتراضات المنتزعة من الآلام التي ترى سائدة في العالم، تتلاشى بوساطة هذا المبدأ[1]».

إن الشر أقل امتداداً، وأقل عمقاً، وهو قابل للتعقل. وقد وجدت هناك إذ ذاك حجة مقاربة من هذه، وإن لم تكن شبيهة بها تماماً، وكانت لاتزال تتقدم إلى المعاصرين لكي تعمل في نفس الاتجاه، وهي أن سلسلة الكائنات العظمى التي تمثل تدرج الكون، تتضمن فكرة الاستمرار المشروع لما هو موجود، وقيمته المنطقية. ومن ثم فإن الفلسفة، صارت نوعاً من الشعر في: «محاولة على الإنسان» ليوب Pope» وصارت انفعالاً عاطفياً، وفي هذا يقول بوب:

«أيها المعتوه الذي لايرى أن الحكمة الإلهية قد اختارت من بين جميع العوالم الممكنة أفضلها! وأنك في منزلتك من سلسلة الكائنات العظيمة التي تبدأ من العدم لتنتهي إلى الإله! أنت تسأل لماذا لم يصنعك هذا الإله أكبر، فسائل نفسك بالحرى لماذا لم يصنعك أصغر. أنت تعرف أنك محدود، وأنك لاتستطيع أن تلمح إلا جزءاً صغيراً من ضخامة الأشياء وتدعي أن لك الحكم على العدالة! ولو كنت قد ظفرت بملكات أدق لكان من الممكن أنها تساهم في شقائك. وإذن فالتزم

(١) Mme dn Chatelet, Institntions de Physique, 1740.

الصمت، واقبل، إذ أن كل تغير في البرنامج المنزه عن الأخطاء، والذي هو ترجمة النظام المراد للطبيعة- كان سينتهي إلي هدم الانسجام العام، ويقتاد إلى الأخطبوط.»

وفوق ذلك، فإن بوب كان يذكر القارئ بالخشوع الذي يتفق مع مكانته. وكأنه يريد أن ينقش في أعمق أغوار قلبه، قانون إيمانه إذ يقول:

«إننا نطالب بالسعادة، ولا شيء أكثر شرعية من هذا، ولكننا نفهم فهمًا جيدًا أن هذه السعادة يجب أن تكون اجتماعية، وليست فردية بحيث إن ألمنا الخاص، يمكن أن يدخل فيها كمقدار من السم في الدواء ثم لنشاهد هذه السعادة التي يتوق إليها نوعنا بوساطة نيل الصحة والاحتفاظ بها، وهدوء النفس والفضيلة. حقًا إن الأشرار ينعمون، وحقًا إن العادلين يختطفون قبل الأوان. ولكن ليس أقل من ذلك حقية، أن في البرنامج العام الذي يتجاوز أفهامنا، كل ما هو موجود، حسن...»

جعل الشاعر يردد هذه العبارة التي ظفرت بقيمة رُقْيَةٍ، كما لو لم يكن هناك وسيلة لانتزاع قبولنا: «كل ما هو موجود حسن...» ومع ذلك كم من التعقدات، كان مختبئًا تحت هذه البساطة الظاهرية! لأن بوب لم يأخذ من ليبنيز كل شيء، وأن بوب لم يكن يتفق مع ليبنيز تمامًا، فهذا الأخير يقول: «كل موجود هو أقل الممكنات سوءًا» وبوب يقول: «كل موجود حسن.» والعبارتان تتضمنان اختلافًا محسوسًا. غير أن الفروق في ذلك التاريخ كانت تمتزج في التيار العام.

وفي ذات الوقت تقريبًا أي في سنة ١٧٣٤، خصص أدب اللغة الألمانية هو أيضًا قصيدة للبحث عن أصل الشر. ولم يكن مؤلفها ألبريك ڤون هالير "Albrecht von Haller" طبيبًا ونباتيًا وفسيولوجيًا فحسب، وإنما كان أيضًا يتعاطى الشعر بل إنه كان يريد أن يظهر للإنجليز أنهم لم يكونوا هم الوحيدين القديرين على كتابة شعر فلسفي. ولاجرم أن قصيدته العاطفية التعليمية التي عنوانها «جبال الألب»، والتي أبان فيها أن الجبل لم يكن بشعًا كما كان الناس يظنون. ولكنه عظيم وجميل قد جلبت إليه الشهرة فاستمر في سلكه، وعن طريقه

أخذت سويسرا بنصيب من المناقشة العظمى بعد كثير من بلاد كانت قد خاضت غمارها فعلاً. ومن ذلك قصيدته ذات الأجزاء الثلاثة التي عنوانها «عن أصل الشر» والتي يقول فيها: حينما تكون في موضع مرتفع يسوده الصمت، فإذا تأملت المنظر الذي يمتد عند قدميك. فإنك لاتلاحظ إلا سروراً. وتشعر بأن العالم قد خلق لكي يكون قاطنوه سعداء. إذ أن هناك خيراً عامًا يحرك الطبيعة. ولكنك إذا استمعت إلى صيحة نفسك، وإذا فكرت، وإذا اعتبرت الحياة كما هي، فكم تبدو لك السعادة وهمية وزائفة! « أيتها المخلوقات التعسة، نحن مقضي علينا بالعناء، بينما نسير نحو الموت!»

كل شيء يتغير في نظر العيون المتنبهة، فهي لم تعد ترى سوى الشر، حتى في المواطن التي يبدو أن الخير قد ثبت فيها سلطانه، وإذا كان نشيد المرح لايلبث أن يتحول إلى استجواب حارٍ يوجد فيه كل مصير الإنسان قيد البحث، ومجمله: أيها الإله الخير، أيها الإله العادل لماذا اخترت عالمًا. مؤبد العذاب، ومؤبد الإجرام؟ ذلك لأن هذا الإله- مستجيبًا لنصيحة حكمته الخاصة- لم يستطع أن يختار إلا العالم الذي كان أقل العوالم ابتعاداً عن الكمال، ذلك لإنه اتخذ أعظمها قيمة ليجتاز به الإمكان إلى الكينونة.

هكذا استؤنف المبحث وهو ذاته دائمًا، أي أن الإله قد خلق منطقيًا، سلسلة طويلة من الكائنات التي تسير من لدنه إلى العدم في طائفة من المراتب، إننا جزء من مجموع ضخم لسنا أهلاً لفهمه في نسبة وفي انسجامه. وضع اللّه على مقربة منه الملائكة، وفي أسفل من ذلك قليلاً، وضع الأناسي، وهم ملائكة وحيوانات منتسبون في الوقت ذاته إلى الخلود وإلى العدم. ولقد منح الأناسي وجداناً جسدياً، وضميراً معنويًا، منح الأناسي قوتين باطنيتين أي حب أنفسهم وحب الغير، وهما كلتاهما تدفعانهم إلى البحث عن سعادتهم، ومع أن كل شيء قد نظم للخير، فإن الشر قد أتى من أن الإله ترك الحرية للمخلوقات. ومن ذلك أتى سقوط الملائكة الذين أفرطا في الطموح إلى الكمال. ومن ذلك جاءت خطيئة آدم

وهويه، ومن ذلك أيضًا ضعفت مقاومتنا، ونشأت آثامنا، ولكن سعداء أولئك الذين- بوساطة تأدية الواجب- ظلوا على البرنامج الإلهي! .

نحن هنا في آن من أندر آوان تاريخ الفكر يبدو فيه وجود اتفاق، وقبل أن تتفرق أطرافه وتسترد حريتها في عراكها. ولقد أجهدت الفلسفة نفسها في العثور على الشرح المعقول للغز مؤلم، وحسبت أنها نجحت في ذلك، ووافقها عليه الأتقياء، وشكرها الأخلاقيون على أن طمأنت الفضيلة، وجعل الشعراء يسرفون في انتاج الـــوردي والأزرق من ألوان التفاؤل، ولم يعودوا يستعملون الأسود لإبراز التعارض، ووضعوا نشـــائد عرفان الجميل موضع اللهجات المكتئبة التي خلعها ماتـــيوبريور على ســـليمان لكي يعبر عن بأساء الإنسان «الذي ولد ليبكي، ويعاني ويموت».

وهناك محافظون من الإنجليز جد مزودين بالثروة، محافظون بالمزاج وبالعقيدة وبالتقاليد، هبُّوا لمعاونة حركة التفاؤل [1]، وهم يقولون: إن سير العالم ليس سيئًا إلي هذا الحد رغم ما يقال، إذ ينبغي أن يكون هناك فقراء، وعمال وخدم، فبغير ذلك كانت سلسلة الطبقات ستنقلب، وكان «الجينتيلمان» سيبقون دون أن يخدمهم أحد، وإذ ذاك يجلب الكسل الفساد والحاجة والخراب. وكان هذا الاتفاق العام الذي جمع في وقت معين، بين الأفراد والدول، لاتزال تنقصه كلمة واحدة وهي: التفاؤل: Optimisme.

ولاريب أن هذه الكلمة التي خلقها المذهب، قد ظهرت للمرة الأولى في «مذكرات تريفو» في فبراير من سنة ١٧٣٧، وقبلها «قاموس تريفو» في سنة ١٧٥٢، وأقرها قاموس المجمع اللغوي الفرنسي بعد هذا التاريخ بعشرة أعوام. غير أنه في هذا التاريخ الأخيرة، كان مجمع برلين قد قبله عن طريق إحدى تلك المسابقات التي كانت تلعب دورًا عظيمًا في الحياة العقلية للعصر، إذ عرض في سنة ١٧٥٣ الموضوع التالي لمسابقة سنة ١٧٥٥ وهو «اختبار نظرية بوب المحتواة في

(١) Soame Jenyns, esq, A Free Enxquiry into the Nature and Origine lo Evil, 1767.

قضيـة كل شيء حسن . والمراد أولاً تحديد المعنى الحقيقي لهذه القضية حسب افتراض مؤلفها . ثانيًا مقارنتها بنظرية التفاؤل ، أو اختيار الأفضل لإبراز ما بينهما بالضبط من صلات وفوارق . ثالثًا إيراد الأسباب التي يعتقد أنها أخص ما يهدم أو يثبت النظرية . »

ومن هذا يرى أن مجمع برلين كان يريد أن يرد إلى كل ذي حق حقه ، أي إلى ليبنيز ، وإلى پوپ ، مالپوپ . وقد منحت الجائزة لأدولف فريدريك ڤون رينارد الذي لم يلبث بحثه أن ترجم ونشر بالألمانية [1]. وكان ذلك في سنة ١٧٥٥ وهي سنة زلزال ليسبوا .

* * *

في تلك السنة لم تحدث الطبيعة فقط طاعونًا ما ، أو عاصفة ما ، لكي تتخلف بطريقة استثنائية ، عن نواميس خيريتها الدائمة بل زلزلت الأرض ، فليسبوا ، تلك المدينة الساحرة ، ذات الموقع الفاتن ، والتي كان سكانها ظرفاء وودعاء ، تلك المدينة الهانئة التي كان مَرْفؤُها هو الثالث في أوروبا بعد أمستيردام ولندن ، تلك المدينة المسيحية المليئة بالكنائس والأديرة ، والمشغولة بالصلوات والمواكب الدينية ، ليسبوا التي هذا شأنها قد خربت ، في أول نوفمبر -وهو يوم عيد جميع القديسين- ألقى الزلزال على الأرض بالمنازل والاثار والحصون ، وتبع ذلك ارتفاع في البحر ، وأخيراً فعلت الإنسانية ما استطاعت أن تضيفه إلى الكارثة بالنهب .

أهاج هذا النبأ العلماء الذين شرعوا بحرارة في البحث عن السبب الخفي للزلازل ، فمثلاً في إسبانيا المجاورة ، شرحها الأب ڤيجو "Feigoo" بالمادة الكهربائية [2] ، وأزعج الفلاسفة الذين كانوا مشتغلين بمحو الشر ولو كان ماديًا ، والذين وجدوا أنفسهم قد وضعوا أمام حقيقة واقعية كان يبدو أنهم نسوها في

(١) Herrn Adolf Friedrich Rheinards, Vergleichung des Lehrgebaudes des Herrn Popes von der Vollkommenheit der Welf..., Leipzig 1757. Abhandling von der Lehre der besten Welf, aus dem franzosischen, Wism, 1757.

(٢) Nuevo Systhema sobre la causa physica de los terremotos, 1756.

تأملاتهـــم النظريـــة. وقد أهاج على الأخص ذلك الذي نلتقي به في كل مناسبة وهو ڤولتير.

بدأ ڤولتير باحترام ليبنيز حين كان لايعرفه إلا بالشهرة. وقد نظر إليه عن قرب عندما شغفت مدام دوشاتيليه، بهيئة غريبة، بمذهب ذلك الميتافيزيقي الألماني بهوى أحدث لديه قليلاً من الغيرة العقلية، وهلا كان يجب أن تكتفي بلوك ونيوتن العظيم؟ ومن ثم فإن ڤولتير لم يكن يحبه. بيد أنه إذا كان هناك جزء من نظريات ليبنيز يبدو له مقبولاً، فإنه ذلك التفاؤل المنقد، فهو الواقع كان يعتبر أنه يوجد في هذا العالم خير أكثر من الشر مادام أن قليلين من البشر هم الذين يتمنون الموت، وأن المرء يكون مخطئًا في أن يشكو باسم النوع الإنساني، وفي أن يجحد مولى الكون، بحجة أن بعض رعاياه كانوا تعساء، بحيث إن ليبنيز في هذه النقطة كان له بمثابة شيء من العون. حقًا إن «موناده» أو ذراته اللامادية، فيما يرى، كانت من الجنون المحض، ولكن تفاؤله الذي كان مؤسسًا على تعقل متين لم يكن كذلك.

كانت شكوك تأتي إليه، وكان في حاجة إلى أن يطمئن هو نفسه على قيمة هذا الاعتقاد. إنه كان شبيهًا ببابوك بطل كتابه «العالم كما يسير» (١٧٤٦) ذلك البطل الذي لقي مشقة في أن يحزم أمره.

يوجد كثير من الأشياء يستحق النقد في باريس - بيرسيبوليس [١] وايتورييل وهو أحد الجان الذين يرأسون الإمبراطوريات، يتساءل عما إذا كان لايحس هدم هذه العاصمة الخاطئة. ولما كان بابوك هو المرسل إلى ذلك المكان في مهمة، فإنه يتردد، ويزن ما لهذا الأمر، وما عليه. وأخيراً صمم. «فصنع بوساطة أفضل مثالي المدينة، تمثالاً صغيراً مكونًا من جميع المعادن والأتربة والأحجار الأكثر نفاسة، والأشد وضاعة، ثم حمله إلي ايتوربيل وقال له: «هل ستحطم هذا التمثال الجميل لأن كل ما فيه ليس ذهبًا ولاماسًا؟» ففهم ايتورييل هذا التلميح، وصمم حتى على

١ - حين يذكر المؤلف «بيرسيبوليس إما يقصد[illegible]ة باريس وهو يتخذ هذا الاسم المخترع علمًا عليها (المترجم)

ألا يفكر في إصلاح بيرسبيوليس، وأن يدع العالم يسير، لأنه كما يقول: «إذا لم يكن كل شيء حسناً، فكل شيء محتمل.»

إن روايات ڤولتير، هي دائماً من الفكر، وفي «زاديج» (١٧٤٧ - ١٧٤٨)(١) نشاهد أن جميع خرافات الشرق لاتخلصه من شواغله، فزاديج حكيم وخير وعادل، وهو تعس. إنه ثري ولديه الصحة والجمال، وعقله حاذق وهو يملك قلباً مستقيماً ومخلصاً. وإذن فلديه كل ما ينبغي لاستحقاق السعادة.

غير أنه لا النساء، ولا الحياة المنعزلة، ولا العلم، ولا السلطان، تهيئ له الهناءة التي ينقب عنها، لأن الحسد والغيرة والحمق والقسوة قد اغتصبت ضده. وجعلت تنتقل به من كارثة إلى أخرى حتى انتهت به إلى أتعس الحالات. وإذن. أفليست الحياة سوى نوع من المسخرة القاسية التي لم تظفر حتى بالأهلية لأن تكون منطقية، وهي مكونة بهيئة غريبة إلى حد أن أكثر الأسباب فقداناً للدلالة، تنتهي إلى أرهب النتائج، ومن ثم فإن زاديج- منغمساً في تفكيراته- يصل إلى أن يرى الناس «على ما هم عليه في الواقع أي أنهم حشرات يلتهم بعضها بعضاً فوق ذرة صغيرة من الطين.» وحينئذ يتدخل الناسك ذو اللحية البيضاء رفيقه في السفر، ذلك الناسك الذي يتفوه بأعقل الأحاديث ويسلك أغرب المسالك، إذ يسرق حوضاً من الذهب مرصعاً بالزمرد والأحجار الكريمة من منزل ثري أكرم رفادة الأفاقين، وإذ يعطي هذا الحوض الذهبي إلى بخيل كان قد أبى عليهما كل شيء، وإذ يوقد النار في منزل ضائف كريم. وإذ يغتال شاباً قريباً لأرملة مسنة فاضلة كانت قد آوتهما. عند هذا يدهش زاديج. غير أن الناسك يبدل صورته فيبدو في ملامح الملك جيسراد، ثم يعطي في النهاية الشرح الذي كانت كل حادثة من القصة تجعله أشد ضرورة.

لاريب أن هذه الجرائم غير القابلة للفهم أمام عقلنا، ليست كذلك في النظام

---

(١) نقل هذه القصة إلى اللغة العربية عميد الأدب العربي الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين في الكاتب المصري.

العام، وهي ستكون مخصبة، وستزيد في مجموع الخير لأن المزدهي بثروته، سيكون أكثر انتباهًا، والبخيل أكثر عناية بضيوفه، ولأن كنزًا ضخمًا مخبأ تحت المنزل المحترق، وأن الشاب القريب، كان سيقتل عمته، وإذن فهذه الآلام الظاهرة لها أسباب وجودها في أفضل العوالم الممكنة ...

غير أن زاديج ليس راضيًا عن هذا الشرح كل الرضى، وهو يسأل قائلاً: «ولكن إذا لم يكن هناك إلا خير ولايوجد شر فماذا يكون؟» فيجيب جيسراد: حينئذ كانت هذه الأرض ستكون أرضًا أخرى، وكان تسلسل الأحداث سيكون نظامًا آخر من الحكمة، وذلك النظام الآخر الذي سيكون حينئذ كاملاً، لايمكن أن يكون إلا في دار الأبدية للموجودة الأسمى الذي لايمكن أن يقترب منه الشر ... فرد زاديج قائلاً: «ولكن ... وبينما كان ينطق بكلمة لكن، كان الملك قد شرع في الطيران نحو الفلك العاشر. وعند ذلك ركع زاديج على ركبتيه عبادة وإذعانًا للعناية الإلهية».

وإذن ففي سنة ١٧٤٨، كان ڤولتير لايزال على استعداد للإذعان.

بيد أنه حين علم بكارثة ليسبوا، وحين رأى أن مشكلة الشر - وكانت قد استبعدت أكثر من أنها قد حلت - عادت إلى الظهور تحت هذه الصورة المأساوية، تزلزل اعتقاده غير الثابت، وتألم.

إن قصيدته «عن كارثة ليبسوا» خرقاء، ومع ذلك هي جد مؤثرة، وقد جاء فيها ما يلي: لننظر إلى هذه الحرائق، وتلك الأطلال، ولنستمع إلى هذه الأنات، وتلك الصيحات، ولنلاحظ أن الأبرياء والعادلين هم الذين نكبوا، فهل لانزال نجرؤ على أن نقول بصوت مولول: «إن كل شيء حسن». لاجرم أن التلميح إلى أن ورثة أولئك الموتى سيزيدون من ثرواتهم، وأن البنائين سيربحون مالا بسبب إعادتهم بناء تلك المساكن، وأن الحيوانات ستتغذى من الجثث المطمورة تحت الأنقاض، سيكون نوعًا من التجديف.

حقًا إن بوب جدير بالاعتبار والإعجاب، ولكن المرء لايستطيع أن يبقى وفيًا لمبدئه. وينبغي الانتهاء إلى تلك الحقيقة المخزنة، والتي هي أقدم من ذلك المبدأ، وهي أنه يوجد شر على الأرض، وأن كلمة «كل شيء حسن» إذا أخذت على معنى مطلق وبلا أمل في المستقبل، لاتكون سوى إهانة لآلام حياتنا.

ومن جانب آخر، إن ڤولتير في رسائله الأشد داخلية، ينبذ عبارة پوپ المطلقة إلي أن يأتي اليوم الذي لايكتفي فيه بعبارة ليبنيز النسبية، وفي هذا يقول في عشرين يونيو من سنة ١٧٥٦: «لابد أنك تشعر بأن عبارة: «كل شيء حسن» لپوپ، هي فكاهة ليس من الخير توجيهها إلي التعساء، ففي كل مائة إنسان يوجد على الأقل تسعون يرثى لهم، وإذن فعبارة: «كل شيء حسن» لم تخلق للنوع البشري ...»



ظهرت رواية كانديد بالعنوان التالي: «كانديد Candide» أو التفاؤل مترجمة من الألمانية عن السيد الدكتور رالف مع الإضافة التي وجدت في جيب الدكتور عندما توفي بماندين في سنة ١٧٥٩.»

وعلى أثر ظهورها، أعلن فريديريك الثاني «أنها تاريخ أيوب مرتديًا ثوبًا حديثًا.» بينما صرح ... الكاردينال دي بيرنيس بأن: «رواية كانديد، قد جعلت التفاؤل مضحكًا.»

يمتاز كانديد برقة الأسلوب، وتركز الفكرة، فقد اشتمل على ملاحظات دقيقة وعميقة تسترعي الانتباه بحقيقتها السيكولوجية، ولكنها معدة على صورة مهملة، وبطريقة سريعة إلى حد أنها لايلوح عليها أنها تتخذ بهيئة جدية. إنه لفن متفرد، أن يشير المرء بلا تفصيل، وأن يلمح إلى أشياء، وأن يمضي سريعًا كأنه رجل ثري ينثر كنوزه دون أن يعنى بأن يلتفت إلى الوراء. إنه لوفرة من سهام خفيفة تتهزهز، وعمل عقل لايلين، وسخرية بلا رحمة، فجميع الطرائق القديمة أي

الرحلات، والأنظمة الخيالية، والأحداث في العالمين القديم والحديث، وغرق السفن والأعمال العقيدية» Auto da fe´[1] والدورادو أي البلاد الوهمية التي يتوفر فيها الذهب، كل ذلك قد رُدَّ إليه الشباب والحياة بوساطة خيال متلألئ. «إن كانديد» نوع من الحمى نشأت من انمحاء جميع ألوان الثقل، وجميع الوسائط غير المقيدة. إنه رقصة جنائزية لدمى هزلية.

غير أن كل ذلك يخفي تحته، حزنًا عميقًا. أجل إن المرء مضطر إلى الضحك أمام عدد كهـــذا من الدعابات، ولكن تلك المضحكات مجتمعة، تنتهي إلى اليأس. وبينما هو منبهر، يرى عودة ظهور النهر العظيم الأسود الذي تبتلع فيه آمالنا وأخيلتنا.

مسكين كانديد! وأشد منه بؤسًا كونيجوند! ومضحك بانجلوس الذي يتشبث بأن يردد أن «كل شيء حسن»، وأن يعلن أنه لايوجد شيء غير ممكن الشرح بوساطة مبدأ العلة الكافية ومبدأ الانسجام السابق الإقرار، لا الأمراض، ولا الغرق، ولا الحرائق، ولا المظالم، ولا الجرائم. وهو أي بانجلوس إذ ضرب وعلق وأحرق ومزق وهوى في الأسر، وجدف في السفن التركية، لم يبق أقل ثباتًا في شعوره الأول، بل هو يقول: ذلك لأني رغم كل شيء، فيلسوف، ولايتفق معي الرجوع في قولي مادام أن ليبنيز لايستطيع أن يكون مخطئًا.» حقًا إن المشهد الذي تقدمه الأرض مزعج، إذ أنه ليس سوى حروب، ومذابح، ومظالم، وسرقات، واغتصابات، وقد كان كذلك دائمًا في الماضي، وسيكون كذلك دائمًا في المستقبل، مادام أن الصقور قد أكلت الحمائم كلما وجدتها، وأنها كذلك ستأكلها دائمًا. ولكن كل شيء يرمي إلى الأفضل في أفضل العوالم.

بهذا التصوير الساخر هزئ التفاؤل، فمن ذلك أن كاكامبو أحد أبطال الكتاب يسأل قائلاً: «ما هو التفاؤل؟» ويجيبه كانديد بقوله: «هو مرض تأييد كل

---

١- انظر إلى ما علقنا به على هذه الكلمة في أحد هوامش الفصل السادس من الجزء الأول من هذا الكتاب. (المترجم)

شيء حسن، عندما يكون كل شيء سيئًا.» وكان كانديد يقول أيضًا: «إنه يوجد مع ذلك حُسْن.» فيجيب مارتان: «قد يكون ذلك، ولكني لا أعرفه.» ومن ذلك مثلاً هذا السؤال: «إذا كان هذا هو أفضل العوالم الممكنة، فما هي العوالم الأخر؟»

وأخيراً عندما تعب ڤولتير من جذب الخيوط التي كانت تحرك شخصيات كتابه، كان يجمع تلك الشخصيات بنفس السهولة التي فرقها بها، وحينئذ كانت الفرقة توجد مجتمعة في إحدى الدساكر. إن كانديد في حالة سيئة، وإن كونيجوند الجميلة صارت ذات لون أسود، وجف نحرها، ووجدت ثنايا حول عينيها، واحمرت ذراعاها، وتقشر جلدها، وبانجلوس هو متسول مغطى بالدمامل، وعيناه ميتتان، وطرف أنفه متأكل وفمه معوج، وأسنانه سود، ويعذبه سعال عنيف، وهو يبصق إحدى أسنانه مع كل مجهود. هكذا صيرتهم الحياة. وفي النهاية عثروا على السر الأعظم الذي سيسمح لهم بأن يمضوا في هدوء، ما بقي من أيامهم التعسة وهو أن يغرسوا حديقتهم، وليست هذه نهاية أيًا كانت، لأنها تحتوي على فكرة إذعان ضروري، ودعوة إلى العمل الذي يبعد عنا الآلام العظمى الثلاثة، أي الضجر والرذيلة والحاجة. وهذه الحديقة ذاتها، هي رمز تحديداتنا. ولكن هل من الممكن أن يغرس المرء حديقته دون أن يضايقه جيرانه، وأن تداعبه أو تعذبه الرياح، أو يصيبه المطر، ودون أن ينظر إلى ما وراء الأسوار، ودون أن يشاهد الأفق، ودون أن يرفع رأسه نحو الكواكب؟.

حقاً إن الدواء يتجاوب جيداً مع أحد مظاهر الفكر التجريبي. ولكن هذا ليس إلا أسوأ ما يمكن أن يكون. إنه اعتراف بهزيمة، أو طريقة من طرق الانكماش للإقلال من تمكين الشر المنتصر. إنه قبول لعالم غير ممكن الفهم، لم تعد «العلة الكافية» تكفي لشرحه.

* * *

ومنذ ظهور كانديد، حكم في القضية وفقدت. حقاً إن التفاؤل لم يختف بغتة، لأن مذهباً ما، يحيا زمناً طويلاً ولو كان جريحاً.

ولكن أكثرية المعاصرين لم تكن تنطق بهذه الكلمة إلا بابتسامة السخرية، بل بلهجة الاحتجاج والحفيظة. ولقد أبان سكرتير مدام دي ايبينيه في رسالة بتاريخ ١١ نوفمبر من سنة ١٧٧١ أنه لما كانت المركيزة مريضة، فإنه يسمح لنفسه بتقديم أنباء صحتها، ويضيف إلى ذلك قوله: «يقال إن كل شيء حسن، وأنا لا أدرك شيئاً من هذا المبدأ الجميل، لا أدرك شيئاً إطلاقاً في هذه الآونة ... كل شيء حسن، وأنا أقول ليس هذا حسناً». ومع ذلك فإن مدام دي ايبينيه نفسها، وهي تتحدث عن بصق السيد ديمورا الدم، كانت توضح للأب جالياني، أنه كان من طبقة أولئك الذين يجب أن يموتوا شباناً ذلك بأنه من الزيف أن يقال: إن كل شيء حسن (٦ يونيو سنة ١٧٧٢). ولقد كان الأب المازح من جانبه يتحدث عن أفضل جميع العوالم المستحيلة.

كانت الروابط قد بدأت تتفكك، فالمدافعون عن الدين جعلوا يحذرون المسيحيين من الجبرية التي كانوا يتبينونها في مبدأ «كل شيء حسن» والماديون أخذوا يفكرون على صورة أخرى وهي أن الطبيعة تجهل مقولتي الخير والشر، وأن كل ماهو موجود، يوجد بالضرورة، وأن الإله لم يخلق هامشا يتخذ النقص فيه مكانه، ما دام أنه لا يوجد خلق ولا إله، وأن النواميس الأزلية قد أرادت حفظ الأنواع ولا شيء أكثر من هذا. وأن ألم الأفراد ليس له معنى في حسبانها. وطائفة العاطفيين التي كانت تستعد لأن تخلف طائفة الفلاسفة، طفقت تطلب أن يتركها الناس تتغنى باكتئابها، وتتلذذ بحزنها. والارتيابيون أخذوا يعودون إلى خطتهم الأولى. وفي هذا يقول فريديريك الثاني: «من أين يأتي الشر؟ آه! إني بقدر ما أمعن في اختياره، يضؤل تبيني لأصله[1]».

(١) راجع الشعر الذي أنشأه فريديريك الثاني في عدم وجود الإله قبل وفاته ببضعة أعوام. Oeuvres, teme 14, 1848.

وعلى أثر هذا ظل الناس يتألمون بكل بساطة، فذلك الذي شاهد موت عشيقته، والذي عرف السعادة معها، ولو أنها كانت سعادة مضطربة[١]، كان يلعن عزلته فيقول: «عندما أشعر بالعناء من العمل أو من المجتمع - وسرعان ما يحدث لي ذلك. وحين أجدني مع نفسي، ومنعزلاً كما أنا في هذا العالم الذي هو أفضل العوالم الممكنة، فإن عزلتي تروعني وتثلجني، وكأني أشبه رجلاً أمامه صحراء طويلة، عليه أن يجتازها، وفي نهاية هذه الصحراء توجد هوة الفناء بلا أمل في أن يجد كائناً واحداً يغتم لأن يراه يسقط في هذه الهوة، وأن يتذكره بعد سقوطه فيها[٢].

بقدر ما كان القرن الثامن عشر يتقدم، كان يترك وراءه ما كان قد أحبه، فهناك مطامع تجديدية كبرى كانت تنبذ التواطؤ الذي كان التفاؤل يمثله في رأيها. ومن ذلك أن «كانْت» قد تطور على أشد الأنساق دلالة، فهو قد آمن أول الأمر بأن كل شيء يهدف إلى الأفضل في أفضل العوالم الممكنة. والزلازل لم تحمله على تغيير رأيه. وإنما كانت تبدو له على أنها نتيجة منطقية لشرائط حياتنا على الأرض، وأنها شر، منه يمكن أن ينشأ خير ما، لأن سكان توبليز التي تضاعفت منابعها المائية الشافية، كان لديهم من الأسباب ما يحملهم على الترنم بنشيد الشكر «Te Deum» بينما كان سكان ليسبوا يرتلون أناشيد جنائزية. وفي سنة ١٧٥٩ كان، في رسالته «محاولة على بضعة اعتبارات حول التفاؤل» لا يزال يحمل إلى ليبنيز معونة التدليل الدقيق. ولكنه سيتغير، بل إنه فيما بعد سيجحد المنتجات التي تعزى إلى تلك الحقبة من حياته، ويطلب ألا

(١) يشير المؤلف هنا إلى دالا مبير الذي كان يبكي عشيقته ماديموازيل دي ليسبيناس التي ماتت قبل كتابة تلك الرسالة بسنة أي في سنة ١٧١٦ وإذا أردت في هذا بيانا أوفى فارجع إلى كتاب ألوان تأليف عيد الأدب العربي الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين. (المترجم)

(٢) D'Alembert a Frédérie II 27 Février 1777.

يعيرهـــا الناس أقل اهتـــمام. وأخيراً يعلن عدم نجاح جميع المحاولات الفلسفية في «الإلهيات»(١).

ومع ذلك فليس هو الذي سيكون الفاصل الأعظم في هذه النظرية، كما كان في نظرية المعرفة. إذ أن چان چاك روسو، عندما قرأ قصيدة ڤولتير عن كارثة ليسبوا، جرح في إيمانه العميق بالخيرية الطبيعية للإنسان، وتناول القلم ليرد رداً طويلاً على المؤلف. وفي رسالة تاريخها ١٨ أغسطس من سنة ١٧٥٦، أبان الاضطراب الذي قذف به إليه تغيير رأي ڤولتير إذ قال: «كان پوپ وليبنيز يقولان لي: أيها الإنسان تذرع بالصبر، فآلامك في الواقع ضرورية لطبيعتك، ولفطرة هذا الكون، والموجود الأزلي المحسن الذي يحكمه، كان يريد أن يقيك إياها وقد اختار من بين الصور الممكنة الصورة التي تجمع أقل الشرور وأكثر الخيرات؛ أو... لكي يعبر عن ذات المعنى بلا مداراة إذا كان لم يفعل أفضل مما فعل فذلك لأنه لم يكن يستطيع أن يفعل.

والآن ماذا تقول قصيدتك؟: إنها تقول: تألم إلى الأبد أيها الشقي، إذا كان يوجد إله وهو الذي خلقك فإنه بلا ريب تام القدرة، وكان يستطيع أن يمنع كل آلامك. وإذن فلا تأمل ألبتة أنها تنتهي، لأنه لا يستطيع أحد أن يفهم لماذا وجدت إذا لم يكن ذلك لكي تتألم، ولكي تموت».

ولكنه بقوله هذا، لم يضر الدكتور پانجلوس، -وإنما هو بالحرى قد غير

---

(١) 1756, Von der Ursachen der Erdschutterung bei Gelegenheit des Unglucks, weiches die westliche lauder Von Europa gegen das Ende. des vorigen jahres betrof-en hat- Geschichte and Naturbeschreibung der mer Kwardigsten Vorialle des Erdbebens weiches an dem Ende des 1775 Stem. Jahres einen Gressen Theil der Erde erschuttért hat. 1759, Versuch einiger Betrachtungen uber den Optimismus. 1791, Ueber das Mislingen aller Philosophischen Versuche in der Thèodicee. 1793, Die Religion Innerhalp der Greazen Biossen Vernunft.

وضع المشكلة، لأنه إذا كانت الطبيعة قد بقيت خيرة، فإن الأناسي قد صاروا أشراراً. وإن الدواء الذي سيعرضه للبرء من شرية الأناسي، وهي شرية مكتسبة، هو «العقد الاجتماعي».

ومن ثم، فهذا سر أن أوروبا عادت إلى صوابها، ولاحظت أن كل شيء لم يكن حسناً، وأرادت أن تزاول إعادة تنظيم صورة العالم الذي لم يكن أفضل العوالم الممكنة- كانت في حاجة إلى ﭼان ﭼاك روسو.

# الفصل الرابع

## السياسة الطبيعية
## والاستبداد المستنير

لننظر الآن في صعوبات السياسة الطبيعية ...

يحدثنا مونتسكيو أن حكيمًا شيخًا من شعب تروجلوديت[1] . . «Teoglodytes» كان يذرف سيولاً من العبرات لأنه يقدم إليه السلطان، فإخوته التروجلوديت، قد عاشوا حتى الآن في مساواة تامة. والسلطان، فيما يرى، هونير كان يراد فرضه على الفضيلة.

ويروي لنارامسيه أن سيريوس قد أمضى أربعة وعشرين عامًا ليتعلم الملكية، وذهب إلى الميديين الذين كان من الممكن أن تفسده رفاهيتهم وليونتهم، ولكنهما لم تفسداه، وذهب إلى شواطئ الخليج الفارسي حيث عرفه زرودستر شخصياً حكمة المجوس، وإلى مصر أرض الحكمة حيث بعثت من أجله ذكرى «هرمز مثلث الحكمة» Hermés Trismégiste، وإلى إسبارتا حيث يبين له ليونيداس النظام العسكري، وإلى أثينا حيث يعلمه سولون قوانين دستور أثينا، وإلى كريتا لكي يعرف قوانين مينوس، ويتحدث مع فيثاغورس الذي يشرح له مذهب أورفيوس

(١) التروجلوديت هم سكان الكهوف وقد أطلق جيوغرافيو العصور الأثرية هذا الاسم على شعب جعلوا مقره الجنوب الشرقي لمصر. (المترجم)

الذي يتناول العصر الذهبي، وإلى قبرص التي لا يكاد يمكث فيها لأنه كان يفر من معبد بافوس[1]، وإلى تيرا حيث تزهر التجارة. وهكذا صار فيلسوفاً، وتملك في سهولة على شعب سعيد، وافتتح كل الشرق بوساطة هيبة فضائله أكثر منه بوساطة قوة أسلحته.

وكذلك في مصر سيتوس[2] وعلى نفس النحو في أكيتين نشاهد الكونت ميناندر دي ريڤيرا بطل رواية ڤون لون. وهو جميل متعلم وعاقل تماماً. وقد دعى إلى البلاط فذهب إليه متأسفاً لأنه كان يعرف أن الأمير الشاب، دون أن يكون شريراً، قد ترك نفسه للمتملقين يفسدونه، وأنه تخلى عن إدارة المملكة لوزير من رجال البلاط، فجعلت الدولة تنهار. وأخذ الصانع يئن، والحراث يغادر محراثه، ويهرول نحو المدن حيث يتعلم الفنون غير المفيدة، ويستبدل براءته بمرا آة مربحة. وقد وصل الكونت دي ريڤيرا في أوانه فهزم الليكاسيان ووقف المعركة في اللحظة التي تلت انتصاره، وأنقذ الملك المريض إذ نصح له بالتمرينات البدنية، وبالحياة في الهواء الطلق، ونظام الحرمان في الطعام، وهدأ أهواءه، ورد إليه معنى الواجب. ولما كان جندياً مسالماً فقد أفشل المؤامرات، وكشف الخونة، ونسج من الحب والصداقة خيوط أيامه، ولم يعرف بعد ذلك سوى الهناءة.

إنها لمفرطة في السذاجة تلك التآريخ[3] وهاتيك الأمثلة! ففي رأيها، كل سياسة لم تكن ملهمة من الفضيلة بهيئة دقيقة، كانت تتهدم من نفسها. وبقدر

(١) معبد بافوس هو أحد معابد افروديتيه إلهة الحب عند الهيلين. ولما كان حكيمنا يهدف إلى الحكمة وحدها فقد كان من الطبيعي أن يفر من كل ما يمت بصلة إلى افروديتيه وفتنتها. (المترجم)

(٢) أنظر أحداث الأمير سيتوس بقلم الأب تيراسون في الفصل الرابع من الجزء الأول من هذا الكتاب. (المترجم).

(٣) Moutesquieu, Letters Persanes, L. 14, 1721- Ramasy, a Lanouvelle Cropédie. ou les voyages de Cyrus, 1727- Abbé Terrasson Séthos, 1731- Johann Michaël von loen, Der redliche Maun am Holfe, oder die Bégeben- heitem des Grafen von Rivera 1740. La théorie du “il capitano filosofo’ de Paolo Mattia Doria, 1739.

ماتكون الدولة حرة، تكون مثقفة، وبقدر ما تكون مثقفة تكون قوية، وكانت أربعة أو خمسة قوانين جيدة، تكفي لاستقرار الفضيلة. إنها لأنواع من الأسف مفرطة في السذاجة تلك التي تقول مثلاً: لماذا لم يكن بضعة فلاسفة يجتمعون ليشرعوا فيقضوا بهذا العمل على الظلم والشر؟

ومع ذلك كان ينبغي أن يلاحظ أن الملوك في الواقع لم يكونوا متقززين من كونهم ملوكا، ولا «الاستاتودير[1]» ولا «الدوچ[2]» كانوا ممتعضين من كونهم رؤساء جمهوريات، ولا الوزراء ولا مساعدي الوزراء، ولا الوكلاء، ولا الموظفين، كانوا متأففين من وظائفهم، أيا كانت أنظمة الحكم، بل على الضد من ذلك كان من يزاول أسرار الأوامر أيا كان شأنه - بعيداً عن أن ينبذ باكياً هذه السلطة المشئومة- هو يستبقيها بحزم حسب أكثر العادات تأصلا في نوعنا. من الممكن، ما دام الأمر كذلك، ألا يكون هناك حق آخر غير حق الأقوى وأن العالم هو دار الأقوين. ومن الممكن أيضاً أن ينحصر القانون الطبيعي في واقعة أن الأضخم يأكل الأصغر. بل إنه لم يكن من المؤكد أن الحرية السياسية- لو كان من المستطاع نيلها - كانت هي الدواء العام، بل قد يكون من الخطر أن ينتظر المرء منها كل شيء دون التفكير في عبودية أخرى كانت باقية. وهكذا كان الإصلاح الاجتماعي يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع الإصلاح السياسي، وسينتج اضطراب عظيم في يوم ما من تباينهما، بل إن البعض ذهب إلى حد القول بأن العبودية القديمة لا تزال باقية. ولو أنها اتخذت اسماً أرق، لأن الأيدي العاملة، ومياومي الريف والمدن، هم من العبيد وكل ما ربحوه من تغيير الاسم هو أنهم يحاربون على مر اللحظات بالخوف من الموت جوعاً.

يقال إنهم أحرار، والواقع أنهم لم يعودا يرتبطون بأحد ولكن أحداً لم يعد يرتبط بهم. ولم يكن بعيداً ذلك الوقت الذي يهاجم فيه روبيسپيرRobespierre

---

(١) و (٢) الإستاتودير هو رئيس جمهورية هولاندا، والدوچ هو رئيس جمهورية البندقية. (المترجم)

أصحاب دائرة المعارف، لأنهم نسوا الطبقة الأشد بؤساً، والأكثر أهلية من جميع طبقات الدولة.

ولكي يقف المرء حرباً قد ابتدأت، ليس حسبه أن يقذف بنفسه بين جيشين متشتبكين ممسكاً بإحدى يديه غصناً من الزيتون، وبالأخرى حمامة، إذ ليس لمجرد سماع خطبة جميلة، يهجر الجنود بنادقهم، ويحطم الضباط سيوفهم. وإنما الواقع أنهم إذا وقعوا معاهدة ما، مزقها الأمراء بكل بساطة.

في سنة ١٧٤٢ قبل وفاة الأب دي سان پيير بسنة واحدة، بعث أيضاً إلى ملك بروسيا كتاباً يحتوي وسيلة إعادة إقرار السلام في أوروبا، وتمتينه إلى الأبد، وكان الناس إذ ذاك في وسط حرب التوارث في النمسا.

وفي سنة ١٧٦٦ وضعت نفس خيرة جائزة قدرها ستمائة جنيه لأفضل خطيب يجيد الحديث عن السلام. ولم يكن المراد خطيباً واحداً بل ثلاثة، ولا جائزة واحدة بل ثلاثاً تلك التي كان يجب أن يمنحها المجمع اللغوي الفرنسي وجمعية الطباعة ببيرن، وإحدى الجمعيات الأدبية بهولاندا. ولما كان الفرنسيون هم الأكثر حيوية، فقد كانوا أول الجميع استعداداً لإصدار حكمهم، وقد منح المجمع الجائزة للسيد دي لا هارب. ولكن، رغم هذا القدر من الفصاحة، لم يكن السلام ألبتة إلا من نصيب الغد أي كان السلام مصراً على ألا يجيء.

لم يكن كل شيء يتحقق بسرعة جدية في اتجاه الخير بوساطة قوة بضع فكر، وبضعة بحوث ونيات كريمة، وإنما لكي يحدث أقل تحسن ينبغي الوقت وبينما كان البعض يتخيلون أنهم سيحدثون في سهولة تغييرات على الأرض، إذ بهم. يشعرون فجأة أنهم يكافحون عبثاً ضد ضخامة من القوى الغامضة.

وفي بعض الأحايين كان جريم «GRIMM» يقف في وسط المشروعات الجميلة التي كان يزلقها في تقريراته الأدبية، وحينئذ كانت فكرته تتخذ مظهراً مكتئباً، فهو يفكر في عجز بروتوس وكاسيوس وشيشرون وكاتون «'Brutus, Cassius, Ciceron caton» إذ أن الصيحات الجميلة التي هتف بها أولئك الرجال

العظماء، لم تقف التدهور الروماني. إننا نتباهي بعصرنا حاسبين أنه أكثر استنارة من العصور التي ظهرت، وإننا مخدوعون. إنه لخطأ أن نظن أن امبراطورية الفلسفة السلمية ستخلف تلك الزوبعة الطويلة من فقدان التعقيل، وستحدد إلى الأبد سكينة النوع البشري وهدوءه وسعادته.

حقا إنه خطأ عذب، ولكنه خطأ يضطر المرء إلى الاعتراف به، وهو في هذا يقول: «مهما تكن المحاسن التي نعزوها إلى عصرنا، فإنه يرى أنها ليست إلا لعدد قليل من المصطفين، وإن الشعب لا يساهم فيها ألبتة. إن روح الأمم تتبدل بلا نهاية، ولكن العمق يبقى هو دائماً في الإنسان، وبأساء حالته هي إلى درجة أنه بقدر مايبدو أن الحقيقة والسعادة جوهريتان لوجوده، يكون منجذباً في جميع العصور نحو التعاسة والكذب». وعلى أثر هذا يتساءل جريم كيف أن التاريخ منذ زمن طويل لم يخلص أصدقاء الفلاسفة ولم يخلص نفسه من وهم الكمال المثالي الذي سيبقى دائماً غير ممكن اللحوق. ولكي يطمئن ذهب لرؤية صديقه ديديرو الذي يدعوه بسقراط الحديث، فجعل ديديرو يحدثه بفصاحة عن سلطان الفضيلة، وعن امبراطورية العقل، وعن تقدمات الروح الفلسفية. وبينما كان يتحدث، دخل الغرفة خادم، وصاح بصوت مضطرب قائلاً: «مات الملك» وكان ذلك يوم اعتداء داميان[1].

* * *

هناك مظهر آخر من مظاهر العصر كان يتمثل كأنه صورة من رقصة المينووية[2]». وهو انحناء الأمراء للفلاسفة والفلاسفة للأمراء. كما لو كان ذوو السلطان قد نسوا أنهم اضطهدوا ولا يزالون يضطهدون الكتاب الذين كانوا

(١) داميان هو شخص حاول اغتيال الملك لويس الخامس عشر فطعنه بمطواة في سنة ١٧٥٧ فاعتقل وبعد تعذيبه مزق أشلاءا. (المترجم)

(٢) المينوويه هي رقصه ارستقراطية محتشمة من رقصات العصر كان الراقصان أثناءها يتبادلان الانحناء قصد التحية والإجلال على نحو ما كان متبعا في البلاط. (المترجم)

يحاولون أن يدمروا سلطتهم. وكما لو كان الكتاب قد نسوا التصايحات الحانقة التي كانوا ولا يزالون يقذفونها ضد الطغاة، وكانوا يقولون إن الملوك منذ عدة قرون لم يعملوا شيئاً آخر غير صنع السلاسل التي كانت الشعوب تكبل بها، وكانوا يتقوسون انحناءاً أمام أولئك الملوك أنفسهم. وهكذا تغير معنى الاستبداد على أن يضاف إليه فقط نعت، فيدعى بالاستبداد المستنير.

يقيناً أن الأمر هنا يتعلق بواقعة مركبة. ويمكن أن توجد بين هذا الاستبداد المستنير وفلسفة الأنوار نقط اتحاد تشرح من بعض الوجوه سوء التفاهم.

كان المستبدون المستنيرون يكافحون ضد الامتيازات، ومن هذا ينشأ اشتراك في العمل. وكانوا يزاولون إصلاحاً واسعاً في المساواة، وكانوا يهدمون آثار الإقطاعية التي كانت لا تزال جد بارزة. ولما كانوا من أنصار التقدم، فقد كانوا يتخذون كل الإجراءات الاقتصادية التي كانت ذات طبيعة تساعد على رفاهة شعوبهم. وكانت الأنوار نافعة لتلألؤ عهودهم، وعلى الأخص كان التركز الإداري الذي يحققونه، يثبت النظام في موضع الفوضى، وكان النظام هو انعكاس العقل العام. وإذن فقد كانوا يجعلون الدولة عقلية. وعندما كانوا يستعينون بالعقل، كان يبرر سلوكهم؛ ومن ثم فإن أوكليد أيضاً كان مستبداً. بل من الممكن أن يقال إن من خصائص العقل الأقوى والذكاء الأوضح، والفهم الأثبت أن تسود. وقد نجم عن ذلك أن الحق الوراثي، كان يوجد معتمداً في شخصهم بوساطة الحق الطبيعي. وفوق ذلك، فإذا لم تكن هناك أخلاق أخرى غير أخلاق المنفعة، فلماذا لا يكون مسموحاً لدولة أكبر أن تخضع دولة تمثل درجة أقل في الخير العام؟ وكيف تنعت بالغدر إذا كانت غزواتها نفسها تحقق في نهاية المطاف مجموعة أوسع من السعادة؟

ولكن مهما تكن إمكانات التوفيق، فإنها لم تكن تصنع إلا برقعة خصومة غير ممكنة الإنقاص. وهي إما الدولة المطلقة التي تدير كل النشاط الإنساني، وإما الدولة الحرة. ولا ريب أن ممثلي الدولة الحرة الذين كانوا يتحالفون مع ممثلي الدولة الاستبدادية، كانوا يخونون فلسفتهم السياسية، إذا إما أنه ينبغي إجبار الطبيعة،

وإما أنه ينبغي تركها تفعل. وإما أنه ينبغي أكبر قدر ممكن من التدخل، وإما أقل قدر. وإما أنه ينبغي وجود الفضيلة التلقائية للقوانين الأزلية، وإما وجود إرادة رجل واحد يسود كل شيء حتى القانون.

كانت هناك صورة من صور الحكومة تفرض نفسها على أوروبا القارية، صورة ليس لها علاقة بالدساتير، ولا بتوازن السلطات ولا بالخوف المرتاب من أن إحدى هذه السلطات تتغلب على الأخريات. وقد وجدت هذه الصورة في سنة ١٧٤٠ عندما خلف فريديريك الثاني والده الملك الجاويش[1] منذ هذه اللحظة، ودع ميوله المعادية لميا كياڤيلي «Machiavelli». إن إتمام تعلمه، وإصلاح اندفاعه، والتغلب على نفوره الفطري من ميدان المعركة، وعلى خوفه، ومعرفة مواطن الضعف من الناس لإجادة استخدامهم. والسيادة على كل شيء حتى بدنه، وتعويده على السير عندما تقول له نفسه: سرْ، والاستفادة على أفضل الوجوه، من مواهب عقل لا ندله، وصيرورته شيئاً فشيئاً الماهر بين الماهرين، والقوي بين الأقوياء، والقبض بيده على زمام السياسة الخارجية، وتوجيه الحرب، والإدارة والمالية والصناعة، بل التربية ذاتها، والانتهاء بجميع الأشياء حتى أسرار تفاصيلها، إلى إرادة وحيدة، ونقل تركته الضئيلة إلى إحدى قوى أوروبا الأولى، بل جعلها هي الأولى إذا كان هذا ممكناً. ذلك كان إنتاجه وكان عن إدراك، لأنه لم يكن خادم الدولة فحسب، وإنما كان هو الدولة. إنه لم يكن في القرن الثامن عشر كله شخصية أخاذة أكثر من شخصيته، وكان ذلك القرن يتجه نحوه بإعجاب.

في الحق أنه بين شاعر رانس بيرج وموسيقيها، وهاويها، وبين «فريدس الهرم» «Le vieux Fritz» في الملابس القذرة، والأعضاء التي شوهها داء النقطة، والأنف الملطخ بالنشوق. كم من الكائنات قد اجتمعت في واحد! فمن ذلك مثلاً: القائد الذي، في عشية المعركة، يقرأ شعر «راسين» ويعتقد أنه هو نفسه بطل

(١) الملك الجاويش هو فريديريك الأول ملك بروسيا من سنة ١٧١٣ إلى سنة ١٧٤٠ وقد لقب بالملك الجاويش لشدة عنايته بتطبيق المسائل العسكرية في دقة وحزم. (المترجم)

راسيني. والرحال الذي يدعو إلى باب مركبته العمد والقضاة، والذي يستجوب الريفيين عن الأراضي القابلة للزراعة، وعن البقر وعن الملح. والساخر والمحتقر والغماز والمستهزئ والشحوح الذي يحاول أن يقتصد مليمين، ورجل العبقرية، والموظف الذي لا يتعب، والذي يستحضر مرءوسيه إلى مكتبه، والذي يطالبهم بقدر ما يطالب به نفسه تقريباً، وفيلسوف القصر الذي لا هم فيه[1] «Sans Son-cis». والسياسي المحتال الذي يربح اللعبة ضد النمسا وفرنسا وانجلترا، ولو أنه يستعمل الطرائق المحظورة. وتجسدات أخرى كثيرة تتجه كلها، بوسائل متباينة نحو نفس الغاية وهي: تكون بروسيا العظمى.

وفي مواجهته كانت تنتصب خصيمته ماري - تيريز إمبراطورة النمسا، وعندما ذهبت هذه الأخيرة لتتخذ مكانها من كنيسة الكابوسان في قبور أسرة هبسبورج، خلفها ابنها چوزيف الثاني. وكان هذا الأخير مستبداً يود أن يكون أبا لشعبه، ويتخذ دوره على أنه رسالة مقدسة، ويصعد الزفرات لأنه يحاول عبثاً أن يجعل كل الناس سعداء. إن تحقيق الوحدة والتركز والتعقل، ذلك ما كان هو أيضاً يدعو إليه في حمى عندما كان يجري من ڤيينا إلى بودابست، وإلى براغ، وإلى بروكسل، لكي يرى ويراقب ويغير كل شيء. إنه واثق من القوة التامة للمراسيم التي يكفي أن يعلنها، لكي يتحقق الإصلاح على الفور. إنه يقلب ليحسن وهو مؤثر في تحمسه للخير العام، ولكنه كان مهوشا وعصبيا ومندفعا ومريضاً من العناء والإجهاد ومستعداً للموت في سبيل مهمته يائساً من مشاهدة أن الناس يأبون أن يكونوا ملائكة، وأن يعتبروا كرئيس من رؤساء الملائكة إمبراطورهم ذا الأكليل المزدوج أي أكليل الأنوار والأكليل الإلهي. ومع ذلك فقد فعل ما يمكنه ليخضع كل شيء لسمو الدولة حتى الكنيسة. وفي سنة ١٧٦٣، عندما كان لا يعمل شيئاً إلا التمرن على السلطان، ظهر كتاب جعل يصلصل إلى بعيد، وعنوانه

(١) لا هم فيه: الذي لاهم فيه أو قصر بلاهم، كما كانوا يسمونه هو قصر فريديريك الثاني قد دخل قصر ڤيرساي. (المترجم)

«حالة الكنيسة والسلطة الشرعية للبابا في روما» (De statu Ecclesiae et Legiti- ma postestate Romani Pontificis) وتحت اسم فيبرونيوس اختفى - بدرجة من العناية بلغت حدا قل أن يظفر مجهول بأفضل منه - المؤلف هُو نْتيم أسقف تريف. وكانت النظرية التي يؤيدها، من طبيعة تحدث أزمة في المسيحية. إنها كانت تتلخص في القول بأن مَلَكيَّة البابا، لم تكن سوى تتابع من الاغتصابات، وأن الوقت قد حان لاستبدالها بأرستقراطية من الأساقفة، موفدة هي ذاتها من ديموقراطية القسس والمؤمنين. وإذ ذاك يحتفظ البابا بالسلطة التنفيذية، ولكن السلطة التشريعية لن تكون له. أما حق إعلان المذاهب المتعلقة بالكنيسة العالمية، فسيكون محتفظا به للمجامع العامة. ولتحقيق هذا الإصلاح، كان يجب أن يتدخل البابا نفسه، والأساقفة، واللاهوتيون، والأمير. وإلى هذا الأخير كان يعزى أكبر الأدوار، لأنه -كسيد أعلى لرعاياه- يدافع عنهم ضد التعسفات البابوية والكنيسة ...

كان ذلك الكتاب مزيجاً من الچانسينية والحق الطبيعي مقوى بكل الحجج التي كانت قد برزت بالفعل ضد روما وبالنسبة إلى الملوك الذين كانوا يريدون ألا يكون الدين قوة منعزلة بل أن يصير نظاماً يوجهونه هم أنفسهم، فإن هذه الفرصة كانت مفرطة في الجمال إلى حد لا يمكن معه عدم اقتناصها. ومن ثم فإن أفضل تلاميذ فيبرونيوس، كان هو جوزيف الثاني.

أما كاترين الثانية امبراطورة روسيا، فقد تركت الطبيعة تتصرف فيما يتعلق بسلوكها الخاص. وكان محظووها يعرفون كم أن الطبيعة عندها كانت ملحة في مطالبها. ولكنها لخدمة الدولة الروسية، ولخير روسيا العظمى، كانت تخصص ذكاءها الرفيع، ومهارتها السياسية، وإرادتها، وكانت لا تريد أن تفقد قبل أن تلحق غايتين وهما: في الخارج، هدم بولونيا وإضعاف تركيا، وقص أجنحة السويد، وفي الداخل إحلال سلطانها محل الفوضى التي ترك فيها أسلافها المباشرون الأمبراطورية، وحينئذ ستتولى كاترينا العظمى مهمة بطرس الأكبر وكان

الكونت دي سيجور يقول إنها كانت امرأة عبقرية، وكان أمير دي ليني يقول: إنها معتزة بنفسها، وعطوفة ومنتصرة كلويس الرابع عشر.

هناك ملوك آخرون قد عدوا من بين المستبدين المستنيرين كجوستاف الثالث في السويد، وكريستيان السابع في الدانيمارك، واستانيسلاس - أوجست في بولونيا، بل شارل الثالث في إسبانيا. وعندما كان الملوك لا يكفون، كان وزراؤهم الذين يساعدونهم كالكونت دارندا إلى جانب شارل الثالث، وبوملبال إلى جانب چوزيف الأول في البرتغال، ودوتيوفي پارما، وتانوشي في ناپولي، وكان هؤلاء شخصيات قوية على الضد من أبناء تيليماك[1] الباهتين الذين كان الفلاسفة يصفونهم على أنهم نموذج الملوك.

إلى أولئك الآمرين، وإلى أولئك الواقعيين الذين لا يعرفون باعثا آخر للعمل غير صالح الدولة، إلى أولئك المنحدرين من «الأمير» لما كياڤيلي، كان المعجبون بالدستور الإنجليزي يوجهون بسماتهم وكان ذلك يتجه بهيئة أقل رضى، إلى چوزيف الثاني، ولكنه برضى إلى پومپال الذي أبعد اليسوعيين، لأنهم كانوا دائماً يرجعون إلى هذه النقطة، ولأن صيحة الحرب ضد الكنيسة كانت تربط بينهم، وبرضى أيضاً إلى الكونت داراندا ودوتيُّو وتانوشي. وعندما كان الأمر يتعلق بكاترينا الثانية. كان يذهب إلى حد الإغراق في الإطراء، بل كانوا أكثر إظهاراً للثناء من أشد رجال البلاط خنوعا، إنها كانت في رأيهم ساميراميس الشمال. وإن الجاروتي قد عثر على الفردوس في جليد روسيا. وإن كارلو چاستون ديلاتوري دي ريزونيكو قد أهدى إلى الإمبراطورة كتابه: «تفكيرات في فلسفة القرن الثامن عشر» (١٧٧٨) فكان ذلك بمثابة حلف وقع بين الفلسفة والسلطان:

أبدت كاترينا اعتزامها تقديم مجموعة من القوانين إلى رعاياها. ولهذه الغاية

---

(١) يقصد المؤلف الملوك الباهتين الذين ليس لهم شخصيات بارزة، والذين صور ڤينيلون نموذجهم في بطل روايته «تيليماك» بن أوديسوس. (المترجم)

جمعت في موسكو، نوابا أتوا من جميع أقاليمها، وجعلت تقول لهم: إن الدولة لم تخلق للملوك، ولكن الملوك خلقوا للدولة.

كانت تفكر في أن تصلح العدالة، وأن تنظم تربية تكون حديثة. وكانت تدعو الفنانين أن يأتوا ليزينوا قصورها وعاصمتها. وكانت تنقب عن موسو ليكون مربيا لحفيدها. ولما عجزت عن اتخاذ دالامبير، فقد اتخذت سويسريا جمهوريا. وكانت تزاول مراسلة شهيرة مع مدام چوفران Madame Geoffrin صديقة الفلاسفة. وعندما نشر روبير تسون، كتابه: «تاريخ شارل الخامس» بعثت إليه علبة نشوق ذهبية، وعرفته أن هذا الكتيب هو رفيق أسفارها. وكذلك «روح القوانين» لمونتسكيو. وقد أمرت بترجمة «بيليزير» لمارمونتيل. «Marmontel» وعلى الأخص كان ينبغي أن نستمع إلى ديديرو -وهو محسوبها وتابعها الذي لم يرد قط أن يقوم إلا برحلة واحدة هي رحلة سان بتيرسبورج- حين يعبر عن تحمسه فيقول: إذا كان فيها عيب، فهو أنها متطرفة في الخيرية وليس لديها على الإطلاق شيء من الاستبداد في خلفها، ولا في إرادتها ولا في تصرفاتها. إن المرء يشعر بنفسية عبد في البلاد التي يدعى أنها حرة، ولكن هناك على مقربة منها، في البلد الذي يدعى أنه بلد العبيد، يتنسم المرء الحرية.

غير أن محظو الفلاسفة، كان هو ممثل الدولة العملاقية: وهو فريديريك الثاني. إنه كان، فيما يقولون، أعظم من أعاظم أباطرة الرومان «إنه حقق هناء شعبه، وقدم نموذجا لأوروبا، وأعد سعادة أجيال مقبلة.

بما أنه هو نفسه فيلسوف عنى بدراسة المذاهب التي تحاول استكشاف معنى الحياة، وأن لديه -بهيئة جد واقعية- حب الأدب، بل إنه من بعض الحيثيات. رجل محترف الكتابة، وبما أنه التقط في مجمعه المضطهدين بسبب حرية الفكر. وأنه ساهم لحسابه في سحق الكنيسة، وأنه كان مؤلها بل كان في أعماق روحه أكثر تقدماً من المؤلهين، أي أنه ملحد، وأن لديه عبقرية. لكل هذه الأسباب، يتجه إليه دالامبير قائلاً: «إن الفلاسفة ورجال الأدب من جميع الدول ينظرون إليك منذ زمن بعيد يا مولاي، على أنك رئيسهم ونموذجهم[1] ...».

---

(١) D'Alembert à Prédéric II, 7 mars 1763.

يعرف الناس على أية طريقة سيسير أولئك الأمراءً وأخلافهم، عندما ستبرز الثورة الفرنسية إلى حيز العمل، مبادئ الفلسفة. ويعرفون كذلك وحدتهم التي كانوا يطلقون عليها اسم الحلف المقدس[١].

بيد إنهم في اتصالاتهم الخاصة، وحين كان أولئك المدافعون لا يتجهون إلى الملوك أنفسهم كانوا مضطرين إلى أن يضعوا بعض الشكوك حول الطريقة التي كان حلفاؤهم يزاولون بها السياسة الطبيعية. ومن ذلك مثلاً أنه لم يكن من الميسور لهم تسويغ غزو سيليزيا. وكما أن المرأة المتناسخة في هرة، تجري وراء الفأر، كذلك الأمير يقذف بمعطف الفيلسوف، ويتناول السيف عندما يرى إقليما يروقه، وسليمان[٢] إذا نظر إليه عن قرب، تسبب في شيء من خيبة الأمل، إذ أن لغته تكون في حاجة إلى تأويلها بوساطة قاموس خاص، فمثلا كلمة «صديقي» معناها «عبدي»، «وصديقي العزيز» معناها، «أنت بالنسبة إلى لست إلا شخصاً لايكترث به» وكلمة «سأجعلك سعيداً» يجب أن يفهم منها «أنني سأحتملك طالما سأكون في حاجة إليك». وفوق ذلك فإن هناك شائعة كانت تنتشر إذ ذاك، مؤداها أن كاترينا الثانية قتلت زوجها لتستولى على السلطان، وكانت تلك شائعة سيئة، من الملائم أن يقضي عليها وبالإجمال لم يكن يجب أن يتباهى الفلاسفة بتلاميذ من هذا الطراز... هذا مؤسف ولكن كان ينبغي أن يحب المرء أصدقاءه كما هم، ولو كانوا يزاولون حروبًا للغزو، ولو كانوا يستعملون أفضل ثروات رعاياهم للاحتفاظ بجيوش قوية دائماً، ولو أنهم أخلفوا العهد المقسم عليه، ولو أنهم كانوا يتقاسمون بولونيا. وفي الحق أن العيب كان في أن الفلسفة كانت تحسب أنها تستخدم الملوك، بينما كانوا هم الذين يستخدمونها.

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى تلك الوحدة التي ألفها ملوك أوروبا ضد الثورة الفرنسية للقضاء عليها بحجة أنها مؤسسة على مبادئ هدامة تقوض دعائم الدين. ولذلك أطلقوا على وحدتهم هذه اسم «الحلف المقدس» الذي يحمي العقيدة. (المترجم).

(٢) يقصد المؤلف هنا بسليمان، أي أمير من أولئك المستبدين المستنيرين اشتهر بالحكمة حتى صار مضرب المثل كسليمان، فإن حكمته الظاهرية لا تحول بينه وبين أغراضه الخفية. (المترجم).

# الفصل الخامس

## الطبيعة والحرية

## القوانين علاقات ضرورية

## صادرة عن طبيعة الأشياء

والآن لننظر في صعوبات الأخلاق الطبيعية ...

هل من المؤكد أن الطبيعة تنتهي دائماً بأن تجازي إما بالخير، وإما بالشر وأن القنوع لا يكون مريضاً ألبتة؟ وأن الشهواني يصير مريضاً دائماً؟ وأن الشرير يكون معاقباً دائماً بندمه؟ وأن اللص، عندما يستنير عقله، يفهم خطأه ويبادر إلى رد ما أخذه؟ وبالإجمال أليست الخلقية الحقيقية احتجاجاً ضد الطبيعة الفظة وضد استهتارها وعماها؟

وهل من المؤكد كذلك أن المصلحة الخاصة هي مرتبطة بالصالح العام بلا استثناء؟ وأن صالح النحلة لا يتميز ألبتة عن صالح الخلية؟ كان هناك من يدعى مانديفيل الذي في «خرافته»، أيد عكّس ذلك على التحديد، ولم يكن أحد على مقربة من أن ينسى تلك الأمثولة، وحتى دون أن يستشير المرء الكتب، وعندما ينظر في الحياة اليومية، أليس من الجلي أن خراب أحد التجار، يقتاد زبائنه إلى جاره؟ وأن مصائب قوم عند قوم فوائد، كما تقول حكمة الشعوب؟ وأخيراً إذا ذهب المرء إلى مبدأ الأشياء ذاته، فإن الخلقية والفائدة حتى الفائدة العامة تبدوان كأنهما من صنفين مختلفين، ففي الواقع أن النزاهة تدخل في الأخلاق النقية كأنها عنصر

ضروري إذ القاعدة هي: إعمل الخير لمن لا تنتظر منه شيئاً، بل لمن يريد بك شراً، وليست هي: اعمل الخير لمن تنتظر منه فائدة على ذلك.

هل كان إبيقور معلماً جيداً؟ وأين يجب أن يقف بالضبط تعقب اللذة التي رد إليها اعتبارها؟ وصرامات الماضي، ألم يكن لها من الأسباب ما يسوغ وجودها؟ وهل كان بلا باعث، أو عن مزاج سوداوي، أو بوساطة بغض الإنسانية، إن معتوهاً ما، قد فرضها على الضمير الإنساني؟ والآن يوجد مؤلفون يعالجون الأخلاق كالهندسة البنائية الجديدة التي تبحث عن اليسر، ولا تبحث عن العظمة، فلم يعد أحد يريد أن يلزم نفسه، ولم يكن هناك شيء أقل في ذوق العصر من الإلزام.

نشأت من ذلك رخاوة سريعة كان المرء مضطراً إلى الاعتراف بها، وفي هذا يقول مونتسكيو: «إن نوعاً من روح المجد والقيمة، يتلاشى شيئاً فشيئاً من بيننا. حقاً إن الفلسفة قد تقدمت، ولكن الفكر القديمة عن البطولة والشهامة، والفكر الجديدة عن الفروسية قد فقدت ... إن عدم الاكتراث بالحياة الأخرى الذي يجتذبنا إلى النعومة في هذه الحياة، يجعلنا غير حساسين، وغير قادرين على كل ما يفترض مجهوداً»(١).

هذا فيما يتعلق بالفرنسيين. والآن هاك شيئاً عن الإنجليز: «إن حب الحرية والتحمس لشرف الوطن وهنائه، والشوق إلى المجد، كل ذلك قد تحول إلى استهتار عام، وإلى خضوع وضيع، ورغبة عنيفة في الثراء»(٢).

وأخيراً إليك ما يمثل العصر كله: «وبما أنني لا أريد أن أتحدث إليكم عن موضوعات قائمة، وأنني أرى كل شيء بكثير من عدم الاكتراث، فإني لن أقول لكم، إنه لم يوجد قط قرن فاسد كهذا القرن، بل من الممكن أنه -لكي يكون المرء

---

(١) Montesquieu, Cahjers, E. Grasset, P. 53.

(٢) Bolingbroke, letters on the Spirit of Patriotism, 1751.2.

عادلاً- ينبغي أن يطّرح من فساد هذا القرن ما يعزى إلى الجنون. ولكني أحسب أنه لا يوجد أكثر منه منافاة للأدب»(١).

ظلت مجموعة القواعد الأخلاقية غير تامة بسبب ارتباك أولئك الذين عندما زاولوا وضعها، أحسوا بالصعوبات القصوى في هذا العمل. كان الناس ينبذون الأخلاق الدوجماطيقية، وكانوا يدينون ما فيها من صلابة، وكانوا يأخذون عليها أنها تصدر عن أمر خارج الإنسان. ولكن حين وضعت هذه الأخلاق جانبا، كان من المفهوم أنها ستستبدل بأخلاق الطبيعة. وحينئذ عاد ذلك السؤال الخالد وهو: مامعنى تلك الطبيعة التي كان كل واحد يؤولها حسب طريقته؟ ومن ثم فإنه لم يعد هناك علم أخلاق، بل علوم أخلاق أي أنه توجد علوم أخلاق بقدر ما توجد تأويلات معنية بترجمة الوحي المبهم. ولا ريب أن كثرة المحاولات التي تتابعت إذ ذاك، تظهر أن الضمائر كانت في اضطراب، فكما أن أشد الرسائل حداثة، كانت تبدأ دائماً بتصحيح أو بهدم حجج أسلافها، كذاك الأخلاقيون كانوا يهدمون ماكان غيرهم قد حاولوا بناءه، في انتظار أن إنتاجهم يُهْدَمُ في دوره، وكان ذلك إنفاقاً ضخماً من المهارة وحسن النية للانتهاء إلى اخطبوط. وكان الناس يتمنون أن تحدث إحدى الوثبات العظمى التي تجر وراءها قبولاً إجماعياً، والتي تنتهي بأن تمنح النفوس الشعور بالحقيقة وعذوبة الهدوء بينما كانوا على الضد يشاهدون معارك المذاهب والأفراد وكانوا يحسبون أنهم يرون في وضوح، أي المبادئ تلك التي يجب ألا تتبع، ولكن المبادئ التي كان ينبغي اتباعها لم تعد ترى.

لننظر في بضع فقط من هذه الرسائل التي قدمت كل منها حلا نهائيا، ولكنه متباين عن الآخر، ففي سنة ١٧٢٦. قدم فرانسيس هوتشيسون «Francis Hutcheson» أستاذ الأخلاق والفلسفة الطبيعية في جلاسجو كتابه «تحقيق حول أفكارنا عن الجمال والفضيلة».

---

(١) Duclos, Mémoires sur les moeurs de cc Siècle 171.

ظلت نقطة الصدور ثابتة أي أن الجميع كانوا متفقين على أنه لا توجد حقيقة هامة إلا الحقيقة التي تساهم في جعلنا سعداء. ولكن الصعوبة كانت تبتدئ عند موضع اختيار الوسائل، فلم يكن أحد يستطيع أن يتجه إلى العقل. وأولئك الذين كانوا قد أرادوا أن ينتزعوا منه قانونا أخلاقيا كالرواقيين مثلاً، لم ينجحوا. ولا إلى الشعور التقى البسيط ما دام أنه لا يتوقف علينا أن يكون سارا أو محزنا. إنه كان سلبيا، ولكن كانت توجد حاسة أخرى أشار إليها شافيس بوريه، حاسة من نوع خاص، حاسة سادسة، حاسة داخلية وجدت خصيصًا لتسمح لنا بأن نقول الكلمة الحاسمة في محيط الخلقية والجمال وهو في هذا يقول: «إن منشئ الطبيعة، قد وجهنا إلى الفضيلة بوسائل أوثق كثيراً من الوسائل التي راق الأخلاقيين أن يتخيلوها، أريد أن أقول، بوساطة غريزة توشك أن تكون شبيهة في القوة، بتلك الغريزة التي تدفعنا إلى السهر على الاحتفاظ بكياننا ...».

وفي سنة ١٧٣٦، نشر چان لويس ليڤيك دي بويي «Jean-Louis Lésvesque de Pouilly» كتابه «أفكار عن العواطف السارة وعن المسرة المرتبطة بالفضيلة».

وفي الواقع أن الغريزة والعاطفة تستعملان كوسيلتين أكثر إنتاجًا من العقل لكي تقتادنا إلى الفضيلة. ولكنهما قد لا تكونان من المحيط الروحاني. ودون أن نستطيع التعبير عن شيء آخر سوى الفروض- ما دام أن الطبيعة تسعّر عنا بنقاب- نحن نستطيع أن نحسب أن الشيء السار، يحرك ألياف المخ، دون أن يضعفها، أو يستنفدها. وأن المؤلم يجرحها، وأن المضجر يدعها معطلة. وهكذا تضاءل الشعور بالجمال والخير إلى حركات من المادة.

وفي سنة ١٧٤١، نشر داڤيد هيوم كتابه «محاولات أخلاقية وسياسية».

يعلن هيوم أن هوتشيسون على حق حين يبرهن على بطلان الأخلاق العقلية، وأن الملكة التي تجعلنا نميز الحق من الزائف، ليست هي نفسها التي تجعلنا نميز الخير من الشر، إن الأخلاق - بدلا من أن تنثبت على العلائق التي لا تتغير،

والتي يجب أن تبدو للعقول حقة بصورة تشبه في الحقيقة التي لا تتنوع، قضايا الهندسة- تتعلق بالذوق الروحي لكل كائن على حدة. ولكن هوتشيسون لم يتابع السير إلى نهاية مبادئه، إذ بماذا تعرف استقامة هذه العاطفة الفردية؟ إنها تعرف بقبول أو بمعارضة يلاحظان عند الغير، وهو في هذا يقول: «إننا سنطلق كلمة الفاضل على كل عمل سيرافقه استحسان اجماعي من الناس، وسننعت بالرذيلة كل عمل سيكون موضوعا للوم والتقريع ...» ولو أن داڤيد هيوم كان يريد أن يسخر من هوتشيسون، لما تحدث على نحو آخر، ولكنه لم يكن يسخر، وإنما هو يستمر في طريقه ويفكك الأخلاق كما فتت العقل.

وفي سنة ١٧٥٩ نشر آدم سميث «Adam Smith» كتابه «نظرية العواطف الأخلاقية».

يعلن المؤلف أنه: ينبغي العثور على شرح الواقعة الأخلاقية، وإلى هنا كان المفتاح غائبا، وكان هوتشيسون مخدوعا، وقد لمح هيوم الحقيقة، ولكنه لم يستول عليها، إذ أن الخلقية لا تنحصر في الاستحسان أو الاستهجان المقدمين من أندادنا، ولكنها في الانفعال الذي نشعر به، والذي يَجِدُ أولاً يَجِدُ انفعالاً مشابها في قلوب الآخرين. ونحن سنسمي هذا الانفعال بالجاذبية بالمعنى الاشتقاقي لهذه الكلمة[1] ...

إن هذه القائمة الصغيرة من المؤلفات مؤثرة، فالأخلاق ترتسم، كما رأينا، حسب منطق فلسفة الأنوار التي تحتوي في ذاتها عنصراً مزدوجا: العنصر العقلي الذي مؤداه لتكن فضلاء لأن الفضيلة هي انعكاس نظام الكون، والعنصر التجريبي الذي مجمله: لنكن فضلاء لأن مشاعرنا تنذرنا بأنه يجب علينا أن ننقب عن الخير،

---

(١) كلمة الجاذبية Sympathie تتألف من كلمتين اغريقيتين معناهما: «مع القلب وهذا يشرح ملاحظة المعنى الاشتقاقي هنا». (المترجم)

وأن نفر من الشر، ولأن قانوننا الأول هو قانون الاحتفاظ بكياننا، ولأن كياننا لايستطيع الاحتفاظ بنفسه إلا إذا التجأ إلى المجتمع الذي هو عضو فيه، وأنه سيرد إليه فائدة رأس المال الذي سيعيره إياه.

غير أن هناك في الوقت ذاته فلاسفة آخرين -بقبولهم نفس المقدمات- كانوا يصلون إلى نتائج مختلفة عن هذا تماما، وكانوا يلتجئون إلى غريزة، يغير كل واحد منهم، حسب رأيه، محتواها ومعناها. وفوق ذلك فإن المظهر العام، كان معقدا بصورة غير قابلة للتشبيه، فمن ذلك أن انجلترا وايكوسيا لم تكونا قد أنهتا مجهودهما لتشييد أخلاق مستقلة حتى كانت ألمانيا قد بدأت مجهوداً آخر، وفيما بين تلك المؤلفات الرفيعة التي وصلت إلى أن تكون مرشدة، والتي كانت تقرأ، ويعاد نشرها، وتقرظ وتنقد، ينبغي أن نعني بعدد من الهرطقات الأخرى. ولنذكر أنه في مجموعة كدائرة المعارف التي كانت تريد أن تكون مذهبية، كانت هذه الأخلاق تتجاور دون أن يلوح عليها الارتياب في أنها غير متلائمة، وأن النظريات لم تكن تكف عن التكاثر في الآونة التي نهجر فيها دراستها كنظريات چيريمي بانتام، وچيمس أوسوالد، وتوماس ريد، Jérémy Bentham. James Oswald, Thomas Reid,. وعند ذلك سنفهم ما يحتويه من معنى عميق، تفكير آدم سميث الساذج، وهو أنه لما كانت جميع النظريات التي ظهرت قبل نظريته مؤسسة على مبادئ الطبيعة، فإنها كانت صحيحة من بعض الوجوه. ولكن بما أنها كانت ناشئة عن نظرة مغرضة وناقصة، إلى الطبيعة، فإنها من بعض الوجوه أيضاً كانت زائفة.

ليست الطبيعة فاضلة أكثر منها عاقلة، وأكثر منها خيرة، وليست أكثر منها تفضيلا لهذه الصورة السياسية أو لتلك، ولم يفت خصوم الأخلاق الطبيعية أن يجعلوا أنصارها يلاحظون أنهم يصدرون عن خطأ أساسي، لأن القول بأن الفضيلة طبيعية في الإنسان، هو التعبير عن جزم تعرف البشرية جمعاء أنه زائف، والحق عكس ذلك وهو أن الكفاح ضد طبيعة فوضوية، ليس جنونا ولا قسوة، بل حكمة وحُبًّا، وأن الكائن المدرك يجب عليه أن يخنق أقوى حركات طبيعة عمياء.

وفي الواقع أنه حين كانت الطبيعة تستشار في حالة خاصة، كانت تجيب بنعم وبلا. فمثلا هل الانتحار مشروع؟ نعم لأنه مسموح به من الطبيعة، فإذا رأى أحد الناس أن وجوده قد صار كريها إلى حد أن أصبح بالنسبة إليه غير ممكن الاحتمال، وأنه إذا قتل نفسه، فإنه يتبع إلى النهاية، تلك الإرادة التي إذ فرضت عليه هذا الألم، قدمت إليه أيضاً وسائل إنهائه. ولا ينبغي أن يتحدث أحد هنا عن الميثاق. لأنه في اليوم الذي يصير فيه الميثاق باهظاً، لا تصبح مسألة احترامه موجودة، إذ أن الطبيعة تفترض فوائد متبادلة بين الأطراف المتعاقدة، فبينما تنقطع هذه الفوائد، ينقطع الميثاق أيضاً. وهل الانتحار مشروع؟ كلا، لأن الطبيعة تريد حفظ النوع بحيث إن الفرد الذي يمحو نفسه يعصى هذا القانون. وأن الطبيعة تميل إلى الاحتفاظ بما خلقته، ومن ثم فإن الكائن المخلوق لا يملك الكلمة الحاسمة فيما إذا كان انتهى دوره في مجموع العالم.

وهناك معركة قد امتدت، معركة من المعارك التي طالما رأينا مثيلاتها في ذلك القرن الذي كان يشعر بانتعاش حركته العقلية في كل فرصة، معركة أحدثها كتاب چوان روبيك. الذي عنوانه «عن موت الفلاسفة الإرادي».

والذي يؤيد أنه لا يستطيع أحد أن يتهم بالجبن أو بالجنون بروتوس وكانون. وأقل من ذلك أن يتهما بالإجرام، والذي يجزم بأن موت سقراط كان إراديا أكثر منه إجباريا، أي أن روبيك كان محقا، وأن روبيك كان مخطئاً.



إن المؤثر عند ڤوڤينارج «Vauvenargues» يأتي من تسلسل الصور المؤلمة التي تمثل حياته: فمن الطفل غير المحبوب، إلى المراهق غير المفهوم، إلى الملازم في الألاى الملكي الذي يتعثر في ضجر الحاميات الصغيرة، إلى المقاتل الذي يؤمل أن يجد في الحرب، فرصة لأن يبرز في سطوع، قيمته غير المستعملة، إلى المنهزم والمقعد، إلى المريض الذي هوى من عرش أحلامه، والذي يسعل ولم يعد يرى

شيئاً، ووجهه موسوم بآثار الجدري، والذي يأتي إلى باريس ينهى فيها-في فندق عادي بشارع فقير- حياة مؤلمة يجد نهايتها في السنة الثالثة والثلاثين.

إن نبله وشجاعته والتحفظ في شكواه الدائمة هي مؤثرة عندما يتنزه في حديقة لوكسامبور، وعندما يرى نفسه محاطا بالتعساء المرهقين ببأسائهم المكبوتة، وبين شيوخ يخفون عار فقرهم، وشبان يحدثهم الجد عبثا عن أوهامه، وطموحين يعدون معاً، تهورات غير مفيدة للخروج من حالاتهم الخافتة، حينئذ تهيج نفسه وتضطرب، ويشعر بأنه أخ لأولئك التعساء، ولكن ليست صيحة التمرد تلك التي تنبس بها شفتاه، وإنما هي صيحة الإشفاق. إن كفاحه في سبيل الخلود مؤثر. إنه يلقي بزجاجته في البحر[1] أي يقذف ببعض الفكر والتأملات والمحاولات التي ليس واثقا من أنها ستمنع اسمه من أن يهوى في غرق أبدي. إنها لمؤثرة تلك الصورة التي اختارها وهي أقل الصور شخصية، أي الصورة التي يلوح عليها أنها تريد أن تكون أشد ثباتا في الموضوعية، والتي هي مع ذلك مفعمة بأنواع الاعتراف وألوان الندم، إذ أن كل شذرة منها، ليست سوى جزء منتزع من اعتراف أبدي. إنه لمؤثر نفوذ العصر الذي يعمل على أن يسمه بطابعه، وأن يفرض عليه أساتذته في التفكير، ومطالعاته المفضلة ومذاهبه. ولكنه لا يلحق الانطواء العميق لنفس قادرة على أن تحصر قواها، وأن تنبذ ما لا يلتئم مع جوهرها، وأن تحتفظ فقط بما تحبه وتريده.

ومن ثم فإنه - تحت هذه الصورة الجدّ نقية. والجد مجردة، والتي لا تستطيع أن تمنع نفسها عن الانفعال- يعثر المرء على لحظات تكوين أخلاق تنتهي بأن تكون كلها له. إنه لم يكن لديه أوهام عن الطبيعة. وفي هذا يقول ما يأتي «بين

(١) يقصد المؤلف بالزجاجة الملقاة في البحر، الآراء والأفكار المحتفظ بها وهو يريد أن يشير إلى ذلك الرمز الذي سجله الفريد دي ڤيني في تلك القصة الشيقة التي تتحدث عن ذلك الضابط الذي عندما أحس بإشراف سفينته على الشرق لخص كل أفكاره في ورقة صغيرة وضعها في زجاجة وقذف بها إلى البحر فحفظت من الضياع. وإذا أردت في هذا بيانا فارجع إلى كتابنا أدباء الرومانتيكية الفرنسية. (المترجم)

الملوك والشعوب والأفراد، نرى أن الأقوى يمنح نفسه حقوقاً على الأضعف. وهذه القاعدة نفسها متبعة لدى الحيوانات، وفي المادة والعناصر، بحيث إن كل شيء يمثل في الكون بالعنف. وهكذا النظام الذي نعيبه في شيء من مظاهر العدالة، هو أعم قوانين الطبيعة وأشدها إطلاقاً وأثبتها وأقدمها». وكذلك لم يكن لديه أوهام عن السعادة. فالحياة في رأيه من بعض نواحيها سيئة، إذ أن جور المولد، وعلى الأخص جور الثراء الذي يبدو أنه يُمْنَحُ ويُمْنَعُ بطريق المصادفة، يجعلها قاسية على الذين لا يصطفيهم الحظ. ومع ذلك فينبغي العمل لأن الراهن يفرمنا، ويتلاشى رغم أنوفنا ولأن أفكارنا فانية ولا نستطيع أن نحتفظ بها.

وليس أمامنا عون إلا في النشاط الذي لا يلحقه التعب، والذي يعارض السير الأبدي للأشياء، باستئناف أبدي. وبناءاً على ذلك ينبغي أن يعمل المرء اتجاه الدوام. وينبغي ألا يعمل مساهماً مع القوى الهدامة، بل مع القوى الحافظة للكون. ينبغي أن يعمل في اتجاه الفضيلة التي تكافح ضد المفاسد والتدهورات والتلاشيات، والتي هي في الواقع تنتصر على الشر، لأنها لو أخفقت في معركتها المتجددة على الدوام، لاختفى معها الترياق المضاد للرذيلة، ولجلبت الرذيلة فناء نوعنا. إن الرذيلة موجودة والفضيلة موجودة، وإن المراهنة على الرذيلة هي مراهنة على الموت. وإن المرء يمكن أن يكون ضحية لخداع الرذيلة لا لخداع الفضيلة. وإن أنفع الناس، هو الذي يقدم أعلى أمثلة هذه الفضيلة المنشئة والمصلحة. وهو البطل. إن البطل لا يتسكع في الأماكن الوضيعة. وهو ليس ضحية للعامية التي تجتذب الآخرين نحو الدمار. إنه قد يكون متطرفاً ولكن في العظمة. إنه يظفر بأجمل المكافآت أي الجائزة المشتهاة من نفوس أولئك الذين يتصنعون الحط من قيمتها. والتي تدعى بالمجد. إنه محسن وشفيق. بل ألوف إذا دعت الفرصة إلى ذلك. ولكنه -دون أن يفقد صلته بالإنسانية التي يعلم مواطن ضعفها. ويفهمها ويساهم فيها- هو يعرف كيف يسمو فوقها لكي يرشدها. إنه ينزع العنصر النقي من دنس كينونتنا ويطريه ويجعله يسطع. إنه يصير هو النجمة القطبية التي تهدي البحارة فوق الخضم المظلم حيث ينقبون عن طريقهم.

إنه تَـحَـد قـذف به إلى أولئك الـذين كانـوا فيـما قـبله يجـدون غـبطتـهم في الغض من منزلة البطولة، وإلى الذين كانوا مـن بعده سيستمرون في خفضها. إنه احتجاج روح نبيلة تأبى أن تقبل التساهلات المجتاحة. إنه تذكرة بتلك الحكمة الحقيقية بصورة أبدية. وهي أنه لا توجد أخلاق بلا اختيار الأصعب والأسمى.

أحرية أم جبرية؟ كل شيء يتعلق بالإجابة على هذا السؤال. وفي هذا يقول الأب تيراسون: «إني لا أعرف أخلاقا عامة. مدنية أو مسيحية، دون احتفاظ جدي بعقيدة الحرية[1]».

وكان الناس يحسبون أنهم يستمعون جوقتين متعاقبتين كانت ثانيتهما متفوقة في القوة والجرأة.

فأما الجوقة الأولى، وهي متباينة العناصر، فكانت تقول: «إننا أحرار. وإن الإله قد ترك لنا الأختيار بين الطريقين اللذين ينتهي أحدهما إلى النجاة، والآخر إلى الهلكة. وإننا أحرار، لأن الموجود الأسمى لا يمكن أن يكون قد صنع منا دمى يجتذب خيوطها. وإننا أحرار إذ أننا لو لم نكن كذلك لما كان هناك أية حكومة ممكنة، ولصارت الآراء والتعليمات والأوامر والعقوبات والمثوبات غير مفيدة. بل لكانت موازية لوعظ سندياته لإقناعها بأن تصير برتقالة، وما دام أن التجربة تثبت لنا أنه من الممكن إصلاح الناس، فلنستنتج أننا لسنا آلات. وأننا أحرار، حقاً إن أفكارنا محدودة بأحاسيسنا، ولكن أفعالنا ليست محدودة، وإذن فالحرية تعرف بأنها المقدرة على العمل أو على عدم العمل تبعاً للتوجيهات التي تشير بها علينا أفكارنا. وأننا أحرار، ولو لم نكن كذلك، لمر كل شيء كما لو كنا أحرار، وإذن فلنعتقد أننا أحرار.

إن الأمر هنا يتعلق بإحدى حقائق العاطفة التي يشبه برهانها الوحيد، برهان وجود الجسم، وهو أن الكائنات المستقلة، لا يمكن أن يكون لديها شعور باستقلالها

(١) Abbé Terrasson, La Philosophie applicable à tous les objets de l'esprit et de la Raison, 1754, P.96.

أكثر قوة من الشعور الذي نملكه عن استقلالنا. وحتى لو كنا خاضعين لقوة عالية وضرورية لما مرت الأمور أقل مما تمر، أي لما استمر المهيمنون في الزج باللصوص في السجون وفي شنق القتلة أقل مما يحدث الآن. إن إرادة الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك في هذه المسألة، هو قذف بالنفس في محيط من الظلام(١).

وأما الجوقة الثانية فكانت تقول: «لسنا أحراراً، وإن النفس سلبية. فهي لاتغير العناصر التي تأتي إليها من الخارج، ولا امتزاج تلك العناصر. وما دام أن العمل هو نتيجة لفكر مقيد بشروط، فإنه كذلك مقيد بشروط. وإذن فالإنسان عامل ضروري وإننا لسنا أحراراً؛ لأننا نتعلق بقوة عمياء مادية هي التي تمنح الحياة لجميع الكائنات. والتي تعمل دون أن تعرف أنها تعمل، إذ العالم هو آلة ميكانيكية ضخمة نحن نؤلف أجزاءها الصغيرة، وليس لدينا مميز خاص، ولسنا ننتسب إلى أنفسنا في أية لحظة من لحظات أيامنا، وإن ما سنعمله هو دائماً بقية مما كُنَّاهُ من قبل، وإن القدر هو النظام الذي ثبته الطبيعة. إنكم تنكرون إمكان المعجزة، فكيف تقرون الحرية؟».

كان الفريق الذي يتحدث على هذا النحو، يمتد من انتوني كولينس «Antony Collins» - وهو الذي نشر في ١٧١٧، عرضا وافيا للجبرية يمكن الرجوع إليه دائماً وعنوانه: «بحث فلسفي خاص بالحرية البشرية» - إلى البارون دولباك الذي ظهر كتابه «نظام الطبيعة» في سنة ١٧٧٠. إنه كان يلون إنكاراته بعاطفة من عواطف الكبرياء. كقوله مثلاً: إننا نخضع لضرورات هي أكثر عدداً، وأشد تعقداً من الضرورات التي تفرض على الحيوانات، وذلك هو سمونا عليها فلنستمتع به. وهذا القدر الهائل الذي يُظِلُّ كل شيء في قانونه. لننظر إليه دون أن نضطرب ولانقلد ضعاف العقول الذين يتخيلون أنهم يمتلكون حرية عدم الاكتراث التي لايصلون حتى إلى تعريفها. ولنحمل في سرور، أغلالنا التي لا

---

D' Alembert, Eléments de Philosophie, Vii, Morale. (١)

يمكن تجنبها، وعندما تحين الساعة لنذب في ذلك القطيع الضخم من الموتى. إنه توجد مفاجأة وسرور تقريباً في أن يتعقب المرء - من حدث إلى حدث، ومن خلال النسيج اللامتناهي من النتائج والعلل - فعل واقعة ضئيلة أو كلمة أو إشارة، هي إذ تنمو تصل إلى إحداث ثورات وكوارث، وعندما يشعر المرء بالفقدان المضحك لتوازن النسبة بين النتائج والعلل، ويعرف أن قتل ذلك الملك الحسن هنري الرابع قد تعلق بخطوة خاطئة خطاها أحد البراهمانية على شاطئ نهر الجنجيز Gange. يستطيع حتى أن يسخر القدر[١].

وفي هذا يقول أولير: «إن مسألة الحرية، حجر عثرة في الفلسفة[٢] ...».

لنتجه رأسا إلى الذي هو من بين الجميع، قد التقى به في طريقه ولم يستطع أن يقصيه، ما دام أنه قد أخذ على عاتقه أن يستكشف روح القوانين الذي هو جوهر القانون الأبدي. ولكن هل القانون الأبدي يتضمن جبرية أو هو يترك موضعا لإرادتنا؟.



إن كلمة الفاجعة لا تتجاوب مع طابع مونتسكيو. حقا إنه كان متحساً كما لو

(١) أنظر «محاورة بين برهماني ويسوعي» تأليف ڤولتير فقد جاء فيها مايلي:
البرهماني - أنني أنا الذي تراني كنت أحد الأسباب الأساسية لذلك الموت الأسيف للمككم الحسن هنري الرابع، وأني لا أزال كما تشاهدوني محزونا... وهاك كيف نظم القدر ذلك الحدث عندما قدمت رجل اليسرى، أوقعت، مع الأسف، في الماء صديقي ايريبان، وهو تاجر فارسي، فغرق. وكان له زوجة بارعة الجمال، فلم تلبث أن تزوجت بتاجر أرميني. وكان لها من هذا الزواج فتاة تزوجت إغريقيا وابنة هذا الإغريقي استقرت في فرنسا ثم تزوجت بوالد راڤاياك قاتل الملك. ولو أن كل ذلك لم يحدث، لأحسستم أن الأمور في بيتي فرنسا والنمسا كانت ستجري على صورة أخرى، ولكان نظام أوروبا قد تغير، ولكان للحروب بين ألماني وتركيا نتائج أخرى، ولأثرت تلك النتائج في فارس، وأثرت فارس في الهند، فأنت ترى أن كل شيء كان يتعلق برجلي اليسرى التي كانت مرتبطة بكل حوادث الكون الأخرى الماضية والراهنة والمستقبلة».

(٢) Voltaire, Dialogue d'un Brachmane et d' un Jésuite.

كان ذلك قسر إرادته. وأما أن يكون فاجعيا فلا. ولنقل بكل بساط، إنه كان لديه شعور بأنه موجود في ارتباك لم يخرج منه قط.

إنه يُعَـرِّفُ القوانين، على النحو التالي: «القوانين هي العلائق الضرورية التي تنبثق من طبيعة الأشياء»(١).

إن كلمة ضرورة، كلمة خطيرة، معناها أنه توجد بين مناخ معين وفرد معين، علاقة لا يمكن محوها. وأن الفرد سيكون هو ما يتطلبه الوضع الجغرافي، وطبيعة الأرض ومسطحها ومنتجاتها والسماء والريح، أي أن الصيني سيكون هو من يتطلبه المناخ الصيني، ولن تغير الصينيين، ولا الأفريقيين، ولا الأمريكيين ولا أي واحد من سكان عالمنا، ولا القمر ولا الشمس ولا المجرة.

ليست هذه الضرورة الوحيدة، إنها ليست سوى واحدة من تلك الضرورات التي لا تحصى، والتي تنوء علينا، فانظر مثلا إن كثيراً من الإنجليز ينتحرون وتلك واقعة مشاهدة، فلماذا؟ إن هذه اللوثة تأتي من نقص في ترشيح العصارة العصبية، فعندما تتوقف العصارة عن الترشيح، تبقي القوى المحركة للمكينة البشرية، بلا عمل، وتكون الماكينة متعبة من ذاتها، أجل إن النفس لا تحس بالألم. ولكنها تشعر بصعوبة في وجودها، وحينئذ ينتحر الإنجليزي.

إن شعوب الشمال نشيطة بينما أن شعوب الجنوب رخوة، وتلك مسألة ألياف. وهذه الأخيرة تتنوع بفعل البرد أو الحر أي: أن الهواء البارد يكلس أطراف ألياف جسمنا، وذلك يزيد في قوتها ويساعد على عودة الدم من الأطراف نحو القلب. وهو يقلل من طول تلك الألياف. وعن طريق ذلك هو يزيد إذن أيضاً من قوتها. وأن الهواء الحار على الضد من ذلك، يحدث ارتخاءاً في أطراف الألياف ويطيلها، وإذن فهو يقلل من قوتها ومقدرتها على العمل... وهذا هو السبب في أن

---

(١) Euler, Letters á une princesses d'Allemagné, Letter 83, 13 décembre 1760.

الشرقيين هم دائمـاً متأنثون وشهويون وخاضعون للسلطة الاستبدادية، بينما أن الشماليين هم دائمـاً أقوياء ونشطاء.

وإذا كنا ندهش من هذا التدخل للألياف في «روح القوانين» فإننا سنحزن مونتسكيو لأنه كان يتمسك به كثيراً، إذ يقول مثلاً: إن القول بأن الإحساس هو أصل كل نشاطنا، هو قول يسير، ولكن كيف أن الإحساس يصير قوة نشيطة؟ إنه يصير كذلك بوساطة الألياف، فالألياف تستولي على الإحساس وتذكر به، فبقدر ما تكون مرنة ودقيقة، هي تنذر النفس على صورة أشد حياة، بما يجري في الخارج، وهي تمثل لها في هيئة أيسر، أحاسيسها الماضية. إن النفس كعنكبوتة في وسط نسيجها، وهي مُنْذَرَة، عن طريق خيوط رقيقة، بالأحاسيس التي تهزها. وبوجود الأجسام الأجنبية التي ترجمها، والتي هي قادرة أيضـاً على أن تحدث حركة ضرورية. ولكي يتأكد عضو مجمع بوردو العالم، قد أسلم نفسه للتجارب، وينبغي أن يراه المرء هنا في مظهر مدهش منحنيـاً على لسان كبش يختبر جزيئاته بالمنظار المعظم، وهو في هذا يقول: «لقد لاحظت النسيج الخارجي للسان كبش، في الموضع الذي يبدو فيه للعين المجردة، مغطى بالنواتئ، فرأيت بالمنظار المعظم فوق هذه النواتئ، شعراً صغيراً، وبين النواتئ كانت أهرام تؤلف بأطرافها شيئـاً يشبه الفرش الصغيرة. ويظهر ظهوراً واضحـاً أن هذه الأهرام هي الأعضاء الأساسية لحاسة الذوق، فجمدت نصف هذا اللسان، فوجدت بالعين المجردة أن النواتئ قد نقصت بهيئة جديرة بالاعتبار، بل إن بعض صفوفها قد انغمست في قرابها. واختبرت النسيج بالمنظار فلم أر أهرامـاً. وبقدر ما كان يزول التجمد عن اللسان، كانت النواتئ تبدو للنظر المجرد كأنها ترتفع، وبدأت الفرش الصغيرة تظهر».

وسواء أتعلق الأمر بلسان الكبش أم بأحد السيبيريين، فإن التجمد يؤثر في طرف الألياف، وإن هذا التأثير يكيف حالات الكائن. إن المحاولة كانت قوية عند مونتسكيو في آونة معينة لشرح روح القوانين بوساطة المادة. ولكن هذه المحاولة قد

نبذها بوضوح، فإن لم يكن ذلك في تفصيل نشرها، فهو على الأقل حين فاه بالتصريحات التي قرر فيها المبادئ على النحو التالي:

«إن الذين قالوا بأن قدراً أعمى هو الذي أنتج كل النتائج التي نراها في العالم، إنما قالوا بتناقض عظيم، إذ أي تناقض أعظم من أن قدراً أعمى يمكن أن ينتج كائنات عاقلة؟».

إن قدراً أعمى، لا يستطيع أن ينتج كل ذلك، ليكن هذا، ولكن حينئذ يعرض خطر آخر أدق من الأول، وهو محتوى في العبارة المجاورة التي يعارض بها مونتسكيو العبارة الأولى وهي:

«إنه يوجد عقل أولى، وإن القوانين هي العلائق التي توجد بينه وبين الكائنات المختلفة، وعلائق هذه الكائنات المتباينة فيما بينها ... وعلى هذا النحو فإن الخلق الذي يبدو عملاً استبدادياً، يفترض قواعد غير متنوعة كقدر الملحدين».

كانت هذه الفكرة عزيزة على مونتسكيو وقد عبر عنها منذ «الرسائل الفارسية» واتخذ منها سنداً لنظراته» وها هو ذا قدره العقلي يشبه قدر اسبينووزا.

ذلك بالضبط هو ما فهمه المدافعون عن الأرثوذكسية منذ ظهور كتابه العظيم، ولقد أخذوا عليه أنه أعاد الحياة إلى روح «الأخلاق» لاسبينوزا. وحين اضطر مونتسكيو إلى نشر دفاعه ضد النقد الذي كان يثار ضده، اضطر كذلك إلى أن يوضح رأيه في هذه النقطة وهي: أنه لم يكن سبينوزيا. وكانت لهجة رده حارة: وكيف يكون سبينوزياً، وهو الذي اعتني بأن يميز في وضوح، العالم المادي عن العالم الروحي، وهو الذي قال بأن للإله علاقة بالعالم من حيث إنه خالق، ومن حيث إنه حافظ؟ ولا جرم أن إلهاً خالقاً وحافظاً، هو متعارض مع وحدة الوجود، وهو في هذا يقول: أبعدوا عني هذه التهمة، فإني لم أكن اسبينوزياً قط ولن أكونه أبداً.

الحق أن شخصيته القوية تمتعض من مذهب لا يميز الأنية من الجوهر،

اللامتناهي، ويدركه فقط على أنه مظهر من مظاهر ذلك الجوهر، وأن «مذكراته الداخلية» تظهره لنا يتزود بالحجج في هذا الموضوع على الصورة التالية: ياللعجب! إن عبقرياً عظيماً يستعمل كل نوع من التعقلات الرياضية التي يقولون إنها جد قوية، والتي ليست إلا جد غامضة، لكي ينزل نفسي إلى قيمة جسمي، وليقنعني بأني سأموت كحشره! إنه ينتزع مني كل ما كنت أحسب أنه بالنسبة إلى شخصي! إنني بهذا الاعتبار سأكون في الامتداد، أكثر ضياعاً من قطرة ماء في البحر! إن هذا الفيلسوف نفسه يريد لصالحي أن يهدم فيّ الحرية! إنه ينتزع مني باعث جميع أعمالي ويخفف عني كل الأخلاق إنه يشرفني إلى حد أنه يريد أن أكون شريراً بلا جريمة، ودون ألا يكون لأحد الحق في أن يجد ذلك سيئاً. الواقع أن على أن أؤدي كثيراً من الشكر إلى هذا الفيلسوف.

بهذه العبارات يتعقل، وبهذا الهوى يثور ضد اسبينوزا. لا ينبغي ان نرتاب في قول رجل عظيم، ولا أن نعني بالعاطفة المؤثرة، ولنسقط من حسابنا أن المذهب الذي يستهجنه، ينم عن نفسه في «روح القوانين، ولو بالأثر على الأقل إذا لم يكن في حالته التامة. ومع ذلك، فإننا سنكون مضطرين إلى الاعتراف بوجود آخر في ذلك الكتاب وهو وجود الرواقيين الذين كان العالم في رأيهم عقلاً وضرورة. ولقد دفع مونتسكيو عن نفسه أيضاً، بنوّة بينه وبين الرواقيين، ولكن الدفاع هذه المرة، كان رخواً وضعيفاً، كأنه دفاع رجل، إذ يتبرأ من أصدقائه الأعزاء، ولا يقلل ذلك من ارتباطه بهم:

حقاً إنه لطالما أثنى على أخلاقهم في أغلب الأحايين، وأطرى أشهر ممثليهم، وأعجب بالأباطرة الرومانيين الذين اتبعوهم، واعترف على الملأ بأنه لو لم يكن قد نشأ في الدين المسيحي، لعد من تلاميذهم، ولطالما اقترب منهم اقتراباً ألوفاً أثناء عمله لإعداد منتجاته حتى أنه تبنى إحدى عباراتهم التي عثر عليها عند شيشيرون وهي «إن القانون هو عقل جوبيتر الأعظم»، طالما فعل ذلك إلى حد يجعل من العسير عليه أن يتخلص منهم، فعنده وعندهم كان الكون معلولا لعلة

عقلية، علة واحدة تشتمل في ذاتها على تسلسل العلل، وعنده وعندهم، كان كل شيء علاقة ضرورية، أي علاقة نتيجة وعدالة.

أي مجهود عملاقي لا بد أن يكون قد بذله لكي يسمح للحرية البشرية بأن تفر من ذلك السياج! أي فقرة تنم عن العناء تلك الفقرة الأولى التي يكره نفسه فيها على أن يسوغ الاستثناءات التي يأتي بها لقاعدة غير قابلة للتغير! وهي:

«إنه لا يعوز العالم العقلي كثيراً، أن يكون النظام سائداً فيه بدرجة سيادته في العالم المادي، لأنه، ولو أن الأول له أيضاً قوانين هي بطبيعتها غير متغيرة، إلا أنه لا يتبعها على الدوام كما يتبع العالم المادي قوانينه. والسبب في ذلك هو أن الكائنات الشخصية العاقلة هي محدودة بطبيعتها، وبالتالي هي معرضة للخطأ، ومن ناحية أخرى أنه من طبيعتهم أنهم يتصرفون من أنفسهم. وإذن فهم لا يتبعون قوانينهم الأولية، بل إن القوانين التي يمنحون أنفسهم إياها، لا يتبعونها دائماً».

إنها للرواقية أيضاً تلك الفكرة الأولى وهي أن مثال قوانين العالم المعنوي هو انتساخ على نموذج كمال قوانين العالم المادي. إن الكائنات الشخصية العاقلة هي محدودة بطبيعتها وبالتالي هي معرضة للخطأ، وتلك فكرة يمكن أن تكون ليبنيزية، إذ لو كانت الطبيعة البشرية كاملة، للحقت بالطبيعة الإلهية. إن من طبيعة الكائنات أنهم يتصرفون من أنفسهم، وذلك بالضبط هو موضوع النقاش، إنه يوجد ذات الاجتماع الصناعي في العرض التالي الذي يتجه فقط إلى أن يضع في مدخل «روح القوانين» إيوانا فخماً، ولكنه مشيد في مشقة عظيمة تشييداً صناعياً.

«إن الإنسان بوصف أنه كائن مادي هو محكوم بقوانين غير قابلة للتغير، ككل الأجسام الأخر. وبوصف أنه كائن عاقل، هو يتعدى بلا انقطاع على القوانين التي ثبتها الإله، ويغير القوانين التي أقرها هو نفسه. أجل إنه ينبغي أن يقتاد نفسه، ومع ذلك، فإنه كائن محدود، وإنه معرض للجهل وللخطأ ككل العقول المتناهية. وإن المعارف الضعيفة التي لديه، هو يفقدها أيضاً، وهو، بوصف أنه مخلوق حساس، يصير معرضاً لألف هوى. ولا جرم أن كائنا كهذا كان يمكن في جميع

اللحظات، أن ينسى خالقه. ومن ثم فإن الإله ذكره بنفسه عن طريق قوانين الدين. إن كائنا كهذا كان يمكن في جميع اللحظات، أن ينسى نفسه، ومن ثم فإن الفلاسفة قد أنذروه بوساطة قانون الأخلاق. ويوصف أنه مخلوق ليحيا في المجتمع، فإنه كان يمكن أن ينسى فيه الآخرين. ومن ثم فإن المشرعين قد ردوه إلى واجباته بوساطة قوانين سياسية ومدنية. ليس هذا هو كل شيء لأن الإنسان أخيراً كان يستطيع أن يدخل تحسينا على «عقل چوبيتير الأعظم» وأن ينشئ قوانين تكون أسمى من القوانين البدائية، فكما أن الطبيعة البشرية في زمن الرواقيين، قد بذلت مجهوداً لكي تنتج من نفسها شيعة جديرة بالإعجاب، كانت كتلك النباتات التي أنشأتها الأرض في مواضع لم ترها السماء قط كذلك عصر مونتسكيو لم يكن ليدع الأشياء كما وجدها. بل كانت الطبيعة البشرية ستبذل مجهوداً جديداً. إنها كانت ستقلل، بل يمكن أنها كانت ستمحو التعسف الذي أطال العصر بقاءه. إنه كان سيعلم الناس كيف يحترمون حقوق الفرد، وكان سيحيطها بالضمانات إلى حد أن تصير غير قابلة للاغتصاب. وكان الرعايا والأمراء سيكونون معتدلين على التساوي، وكانت حكمة عملية ستضاف إلى مجهود العقل الذي سيبدد الأخطاء.

ودون أن ينشغل مونتسكيو، أكثر من ذلك، بهذه الجبرية التي كان من الممكن أنها تحكم علينا بأن لا نكون إلا نتائج لا عللا، هو يعين مكانه الخاص في حملة كسب الحرية. وهو لو أنه كان يستطيع أن يعمل بحيث يكون لدى كل واحد أسباب جديدة، يحب بها واجباته وأميره ووطنه وقوانينه، وأن المرء يستطيع أن يشعر على وجه أفضل، بسعادته في كل بلد، وفي كل حكومة، وفي كل وظيفة يكون فيها، وأن الذين يهيمنون، يُنَمُّونَ معارفهم فيما يجب أن يأمروا به، وأن الذين يطيعون، يجدون سروراً جديداً في أن يطيعوا، لو كان يستطيع كل ذلك لمات وهو أكثر الفانين سعادة.

حقاً إنه كان سيموت أسعد الفانين، ولكنه كان سيدع للآخرين العناية بتوفيق القدر، ولو كان عقليا، مع التقدم.

# القسم الثالث

## انحــــلال

# الكتاب الثاني

# الفصل الأول

## العاطفة والقلق

### قوه العاطفة الإنسانية

إنسان العاطفة. وإنسان العقل، هاهما ذان نموذجان بشريان يتعاقبان، أحدهما يحل. والآخر يرتحل... ومع ذلك، لو أن الأمور لم تكن قد مرت بهذه البساطة الهيكلية ولو أنه كان بين الاثنين شيء من التعاون أي لو أن الفلسفة كانت قد أعانت العاطفة على أن تعبر عن نفسها، أو حتى لو كانت قد ساهمت في انتصارها:

أما أن هناك مؤلفين شديدي الجفاف أفسحوا أمكنة في منتجاتهم للحساسية، وأن المأساة استغلت -على صورة واسعة- الهوى وأحياناً الحنان، وأن شيريدان مثلاً، استعمل على التعاقب الانفعال، والنقد الحاد، وأن جولد سميث صور «قسيس واكفيلد» وأسرته في صورة هي وسط بين الباسم والمؤثر. فذلك ما لانعتزم الاعتماد عليه، لأننا لو اعتمدنا عليه، لعدنا إلى القول بأن الحالات السيكولوجية معقدة، وأن كتاب العصر قد تذكروا ذلك أحيانا. وتلك تكون حقيقة مفرطة في الوضوح. ونحن لا نعتمد أكثر من ذلك، على واقعة أنه إذا كان العاطفي قد أدار ظهره للفيلسوف في حزم، فإن الفيلسوف قد مد إليه يده في تهيب. إن الفيلسوف كان فصيحا، وتلك كانت طريقته في أن يكون عاطفيا، ولم يترفع عن أن يسجل الارتجاف في إنتاجه، إن الفيلسوف كان لديه ألوان من السخط المؤثر وعلى الرغم

من أنه كان عدو الحماسة، فإنه كان لديه تحمسات مدوية للفضيلة، ولم يكن يسأل نفسه في أكثر الأحايين ما هي بالضبط أَنّيَّتُنَا الغريبة التي كانت عناصرها دائماً في انحلال، والتي هي مع ذلك كانت، تحتفظ بوحدتها، والتي هي دائماً متغيرة، ودائماً هي ذاتها. ولكنه كان أحياناً يوجه ذلك السؤال: وقد أجاب عليه بأن هذه الأنية الخفية. قد لا تكون واقعة يدركها العقل، بل هي ديناميكية يشعر بها المرء، فحسب الفيلسوف أن الحقيقة كانت تمتلك قيمة حدْسية ...

غير أننا لن نعتبر نقط الالتقاء النادرة هذه، إذ أننا نتقب عن أعمال أكثر أهمية وأشد عمومية.

* * *

إن علم المتحيزات قد فتح العيون. فلكي يجمع المرء النباتات، كان ينبغي له الذهاب إلى المروج والغابات، وتسلق الوعور الأولى للجبال. ومن هذا نشأت حركة دفعت العقول إلى ملاحظة صور الموجود، وجعلتها جديرة بالنظر أول الأمر، ثم بالإعجاب. فعندما يصمم لينيه – وهو في الخامسة والعشرين من عمره – على أن يدرس نباتات لايونيا في مواضعها. وعندما يغادر أوبسال في ١٢ مايو من سنة ١٧٣٢، من باب الشمال، يتنسم الربيع، وهو في هذا يقول: «السماء صحو وحارة. وهناك ريح غربية خفيفة تلطف الجو في دعة هنا سحابة قائمة تصعد في الأفق الغربي وبراعم الصندر بدأت تتفتح، والأوراق الأولى جعلت تظهر في الأشجار. ولكن أشجار الدردار لا تزال عارية. والقنبرة تتغنى في الهواء. وبعد ميل ندخل الغابة. وهنا تهجرنا القنبرة. ولكن الشحرور على قمة الصنوبر، يبتدئ قصته عن الحب». إن ذلك العالم الشاب الذي هو قادر إلى هذا الحد على تذوق ربيع السويد الذي كان لا يزال هيوباً ومرتعداً، لن يصير فقط أكبر علماء النبات في العصر، بل لما كان رساماً لما في الهواء الطلق، فإنه سيعد في تاريخ الإحساس بالطبيعة.

ومنذ سنة ١٧٤٠، سيتابع بوفون مجموعة من الصور لم ير الرأي العام مثلها قط. وعلى أثر ذلك سيأتي الرسامون ليقدروا هذه الصور.

غير العلم وجه العالم وأعماقه. إنه كان صغيراً ذا منابت مخصبة تتعارض مع بضع صحراوات فأظهره عظيماً باستكشافاته، وميز فيه كثرة من الحيوانات والنباتات المدهشة. وجعلها تفيض بالحياة. إنه كان حديثاً، ولم يكن يرجع إلا إلى بضعة آلاف من السنين، وهو عدد ضئيل، فزوده بماض عجيب هو الأخطبوط البدائي، وعمل المياه العظمى، والمحيطات التي ينخفض مستواها، والقمم الأولى التي كانت تبرز إلى عالم النور، وفعل النار، والبراكين في فورانها، والـهُـوَى التي تنشق بغتة، والانخسافات والاضطرابات الأرضية التي تؤدي فجأة إلى بروز أو إلى اختفاء قارات بتمامها. إنه زوده بكثرة لا تنحصر من الكرات التي يحتويها هذا الكون الواسع. إنه زوده بكل الممكنات حين كان يستعيد إلى الأذهان الكائنات البشعة التي كان ينقصها عضو أساسي، والتي منذ ولادتها، كانت مقضياً عليها بالموت. وحين كان يعرض مناظر تتحدى مناظر أبو كاليبس[1] «Apocalypse» أي قذوفاً لا تحصى كانت تحدث في كل مرة، أبنية عملاقية، وتهدمات كأنهار أو سيول من الذر تقذف بها مادة لا ينتابها التعب بلا بدء ولا انتهاء. كان العالم ثابتاً، بينما أن هذا العلم ذاته، كان على الضد من ذلك. يطلب إلى المرء أن يتعود على منظر تطوره المستمر أي أن الطبيعة قد كفت عن أن تكون مستقرة، وفي هذا يقول بوفون. وعلى الرغم من أنه يبدو للنظرة الأولى أن أعمال الطبيعة لا تسوء ولا تتغير، وأنها في منتجاتها حتى أقلها متانة وأسرعها زوالاً، تظهر على الدوام وبصورة ثابتة هي ما دام أن نماذجها الأولى، تبدو في كل لحظة أمام أعيننا في تمثلات جديدة، فإن المرء مع ذلك، حين يلاحظها عن كثب، سيلمح أن سيرها ليس متشابها إطلاقها، وسيعترف بأنها تقر تنوعات محسوسة

(١) أبو كاليبس هو رواية القديس يوحنا الإنجيل عن المسيح الدجال نهاية العالم. (المترجم)

وبأنها تتلقى تغيرات متعاقبة، بل إنها تنعطف نحو ترتيبات جديدة واستبدالات بين الصورة والمادة...

إن الطبيعة توجد في حالات مختلفة، وإن سطح الأرض قد اتخذ على التعاقب صوراً متباينة، بل السماوات نفسها قد تغيرت، وإن كل أمور الكون المادي هي - كأمور العالم المعنوي- في حركة مستمرة من التنوعات المتتابعة»[١].

لنلاحظ هنا أصل أحد الموضوعات التي ستصير عزيزة على الشعر الرومانتيكي. إذ لو أننا قذفنا إلى الأثير بهذه الحركات للقوى الطبيعية، لظفرنا بالتمثلات اللامارتينية. ولو أننا تخيلنا سلم الكائنات الأعظم الذي يتجه من أصغر أجزاء الخلق إلى الإله، ولو أننا تابعنا التطورات والتناسخات. لظفرنا كذلك بالتمثلات التي تتعقب فلسفة فيكتو هو جو.

* * *

إن خطة التمرد الشعري التي كانت هي خطة أوجو فوسكولو، ووردوورث، وكولبريدج إبان مبدئهم، وكيتس أحياناً، وبيرون دائماً «Ugo Foscolo, Wordsworth, Coleridge, Keats, Byron». تأتي من أسباب أخر يقينا. ولكنها أيضاً تأتي من فكر القرن الثامن عشر.

إن إحدى «رسائل چاكوبو أورتيس الأخيرة»[٢] تحمل في مبدئها النص الآتي: «إنه يتجه منقباً عن الحرية، الحرية العزيزة». بهذه الحرية ذاتها هام أسلاف چاكو بو أورتيس، ومعاصروه، وأخلافه، ففي الواقع أن مذهب التعقل أراد ألا يعتبر في الكائن البشري إلا القيم العامة التي كان هو ممثلها. ولكنه حين خلصه من السلطان والتقاليد والقاعدة الآتية من الخارج حل عقاله أي أن الكائن البشري صار

---

(١) Buffon, Les époques de la Nature, 1774.

(٢) رسائل جاكوبو أورتيس الأخيرة هو كتاب من تأليف الكاتب الإيطالي أوجو فوسكولو، وقد ظهر في سنة ١٨٠٢. (المترجم)

سيد أفعاله دون أن يكون في حاجة إلى إلهام آخر غير الإلهام الذي كان آتياً إليه من نفسه. ولم يكن عليه أن يجاوب عنها إلا أمام محكمته الخاصة، وكانت الحرية الأولى تجتذب كل الأخريات. إنه يوجد منطق أكثر مما كان يظن أول الأمر في هذا القول التالي للأب رينال وهو: «إن كلاريس[١] كان يقول للوفيلاس[٢]: إذا مددت يدك إلي، فسأقتل نفسي، وأنا سأقول لمن يود أن يعتدي على حريتي، إذا دنوت فسأطعنك بالخنجر، وسأكون حين ذاك أحسن تعقلا من كلاريس[٣] ...».

إن الفرد حر، والفكر حر، والهوى حر، والتعبير الأدبي حر. وإنه لمن الإفراط أن نصر على التنقيب عن سلطة ما، وعلى اتباع نماذج عند أجدادنا، فلنجرؤ على أن نمثل أنفسنا كما نحن.

لم يعد من الزعم الغريب أن يجزم المرء بأنه إذا كانت هناك رومانتيكية قد وجدت روابطها في ماض بعيد، وكانت تيوقراطية في المحيط الديني، ومحافظة في المحيط السياسي، وبالتالي قد نبذت تراث «الأنوار»، فإنه قد وجدت أيضاً رومانتيكية حرة بل فوضوية، وهي رومانتيكية شيليه واستندال «Schelley, Stendhal».

لنسجل هذه المعارف، ثم لنشهد عملاً آخر وهو عمل الدراسة السيكولوجية الذي يجتهد في أن يستكشف -بوساطة مجهود مستمر- وجود قوة غير عقلية تسمح بالإحساس بالجمال، بل بإيجاده.

* * *

ما هو الجميل؟ ها هي ذي أيضاً مشكلة أخرى تصير أشد صعوبة بقدر ماكان ينضم إلى علماء النفس، والمناطقة والميتافيزيقيين المعاندين، رسامون ومثالون

(١) و (٢) كلاريس ولوفيلاس هما الشخصيتان الأساسيتان لرواية ريشاردسون التي عنوانها كلاريس هارلو. (المترجم)

(٣) Histoire Philosophique et politique des établissements et du Commerce des Eu-ropéeus c'ans les deux indes, 1770, Livre XI.

وحفارون. بل كاريكاتوريون كانوا يريدون أن يعبروا عن آرائهم. وعلى هذا النحو كان الخلط يصير أشد كثافة. وإذا أردت التحقق من ذلك فاسأل في أية جماعة. ماهو هذا الجميل الذي يسحر إلى ذلك الحد، وما هو جوهره، وطبيعته، وتصوره المحدد، وفكرته الحقيقية، وما إذا كان مطلقا أو نسبيا. وما إذا كان يوجد جميل يروق في الصين كما يروق في فرنسا أي جميل أعلى، أو قاعدة نموذجية للجميل الأدنى الذي نراه في هذه الدنيا. فعندئذ تختلط الأفكار وتتقسم العواطف، وتنشأ ريب كثيرة حول أمور العالم التي كان الناس يحسبون أنهم يعرفونها أفضل المعرفة. ولو أنك أمعنت في استجواباتك تجعل سامعيك يعبرون عن أنفسهم، لما عرف أكثرهم كيف يجيبون(١).

حقا إنه كانت هناك طريقة للخروج من الحيرة، بل لعدم الدخول فيها، وهي أنه كان يكتفي التشبث بالمذهب القديم أي أن الجميل هو أحد انعكاسات الحق. أما بعد ذلك، فلم يكن على المرء إلا أن يصمت، وبالتالي إن قيمته هي في جميع الأزمان وجميع البلاد، إنه فريد كما أن الطبيعة فريدة. إن المرء يظفر بالحق عندما يحاكي الطبيعة أو عندما يحاكي المعلمين الذين حاكوا الطبيعة، وكانوا نماذج كاملة. وحتى لو ترك المرء هذه الشدة ولو أنه -بدلا من الحق- كان يوحي بالمعقول الذي يتعلق بمنطق داخلي، فإن الجميل كان يحتفظ دائماً بمميز عقلي. وعلى أي حال كما يقول كروزا، فإن التنوع الملطف بالوحدة، والتقعيد والنظام والنسبية ليست أوهاما(٢).

ولكن هذا هو بالضبط ما كان الهراطقة يعترضون عليه، لأنه كان هناك هراطقة كان الأورتودوكسيون كالأب ليباتويستشيطون غضبا ضدهم في قوة. ولما كانت المسألة الأساسية قد انقسمت هي ذاتها إلى عدد من المسائل الثانوية، فإن الفتن الموجهة ضد الاعتقاد القديم كانت تنزلق في مجموعة من الأجوبة التفصيلية

---

(١) Le Père André, Traité du Beau, 1741, Premier Discours

(٢) Crousaz, Traité du Beau, 1715

التي يساهم كل واحد منها في زلزلة الإيمان الأول، فمن ذلك مثلا أن الذوق هو صاحب الكلمة الحاسمة في الجمال، ولكن ما هو الذوق؟. كان من العسير الاستمرار في القول بأنه لم يكن ألبتة شيئاً آخر سوى عملية عقلية محضة. وما هو المعنى الذي يعبر الناس عنه بقولهم «ولا أدري ماذا» تلك العبارة التي يلتجئون إليها حين يعوزهم الشرح، والتي تشتمل في ذاتها على شيء من السر، والتي -بوساطة اسمها نفسه- تقلق العقل؟ وما هو الأعلى الذي يبدو أنه يتحدى الإدراكات؟ وماهي العبقرية؟ وما هو الشعر في حقيقة الأمر؟ وما هو الشعر الحقيقي بالنسبة إلى الزائف؟ وهناك صور وفيرة تأتي من الخارج لا تلتئم مع صورنا، وفي أعماق العصور نحن نلمح صوراً لا تلتئم مع صورنا. ومع ذلك فتلك الصور تطالب باسم الشعر. وما هو الرسم؟ والحفر؟ والهندسة البنائية؟ لا ريب أن التعريفات القديمة لم تعد تكتفي.

على هذا النحو كانت تنشأ تمردات عدة ضد الحالة الفكرية كان أنتونيوكونتي -وهو أحد علماء الأدب العالميين- يشير إليها عند المهيمنين على البارناس إذ يقول: «إنهم أدخلوا في الأدب روح السيد ديكارت ومنهجه وهم يحكمون على الشعر والفصاحة مستقلين عن الصفات الحسية». مع أن الصفات الحسية كانت تتطلب أن يعترف بها اعترافا حقيقيا، وأن البلاد التي- ولو أنها كانت تخضع للكلاسيكية المزيفة- لم تكن تستطيع أن تمنع نفسها من أن تحتفظ لها بشيء من التفضيل كانجلترا وإيطاليا، تلك البلاد كانت تغتبط بأن تسجل عندها الوجود الأبدي لتلك الصفات الحسية. وبينما أن النظريين الإنكليز -وهم شقاقيون بميلهم- كانوا يضاعفون شروحهم المتمردة، كان هناك شاعر وهو مارك أكانسيد Marc Akenside يتغنى في سنة ١٧٤٤ بـ«مسرات الخيال» وذلك كان شعراً ضئيلاً، أجل إني أقر هذا، كان شعراً تعليميا معتزاً بمحاكاة ڤيرجيل، وهوراس، وسعيداً بالعثور على أنغام پوپ. ولكنه رغم ذلك كان يحل عالما مصنوعاً من صور جميلة. محل عالم عقلي.

ويستخلص خاصية السرور الوحيدة التي يثيرها فينا ذلك الجمال. ويحلل السحر القدير على تحريك قلوبنا الموافقة، وأخيراً يتغني بملحمة إلهة جديدة هي الخيال[1].

وأنت أيتها الملكة الباسمة لكل صدر منسجم. أيها الخيال الرحيم بالأناسي[2]... !».

أما المتمذهبون الإيطاليون. ولو أنهم كانوا مرتبطين بالعقل الأسمى. فإنهم لم يكونوا يريدونه طغيانيا إلى حد أنه لا يدع شيئاً يحيا في النفس إلى جانبه، وإنما كان على الضد يطالب بمكان للملكات أخرى خيالية وإحساسية، كان يبرز عملها، ومن الممكن أن تكون رسائلهم ومكاتباتهم قد ألهمت هذا التمرد الذي زاوله بودمير وبويتينچير في سويسرا، ضد عقم چوتشيد.

كان ينبغي أن الجمال، بدلاً من كونه موضوعيا، يصير ذاتيا، وبدلا من كونه مطلقا، يصير نسبيا، وبدلا من تعلقه ببضعة تصورات تجردية، يتعلق بخاصة من خاصيات كينونتنا ما دام أن التجربة تتطلب ذلك.

ما هو الجميل؟ أجاب الأب دوبوس بأنه، هوى مطهَّر. حقا إننا في حاجة إلى الأهواء، ولكنها في أغلب الأحايين تؤلمنا. وإن وظيفة الفن هي جلبها إلينا مجردة من الآلام التي تجتذبها معها أي أن الرسامين والشعراء يثيرون فينا تلك الأهواء الصناعية حين تقدم إلينا محاكيات الأشياء التي هي قمينة بأن تثير فينا أهواءا حقيقية، فمثلاً في دار معدة لتروقنا إذا وجدت لوحة تمثل التضحية البشعة لابنة يافتا، فإنها تفرينا أكثر من لوحة ضاحكة. حقا إن منظر السكين والضحية والدم

(١) لما كان الخيال في اللغتين الأنجليزية والفرنسية مؤنثا، فقد تمثله الكاتب الأصيل في الأولى، في شخصية إلهة وملكة ثم ترجم ذلك عنه مؤلفنا في اللغة الثانية وقد اضطررنا نحن هنا إلى وضع اسم الإلهة للخيال. رغم أنه في اللغة العربية مذكر. (المترجم)

(٢) The Pleasures of imagination, Book 1, vers 9-10.

الذي يسيل، يجعلنا نمتعض، ولكن تمثل هذا المشهد الأليم، يحتفظ بصفته التي تبعث على الانفعال، مع محوه ما عساه يكون شاقا في الواقع[1].

لم يكن بد من أن يحدث هذا الجواب طريقاً طويلاً في النفوس. فقد نوقش ونبذ وقبل. ومن أمثلة ذلك أن بييترو ڤيري قد أعلن فيما بعد أنه لو كان الناس أصحاء ومسرورين، لما وجدت الفنون الجميلة ولكنها تلهينا عن أحزاننا الخفية، وسواء أكانت هذه الآلام المجهولة آتية من الفعل المادي للأجسام في أعضائنا، أم كانت ناجمة عن مشاعر معنوية تبقى بالنسبة إلينا غامضة، فإنها تعذبنا في خفوت، وهي حاضرة ولو أنها تفلت من بحثنا. ومن ثم فإن موسيقى جميلة، ولوحة جميلة، ومسرحية جميلة تنتزعنا من ذلك الحزن، بل إن نهاية المهارة عند الفنان، هي أن يحدث في لباقة، مشاعر صغيرة مؤلمة، هادفا من ذلك إلى غاية واحدة هي كفها[2].

ما هو الجميل؟ أجاب فرانسيس هوتشينسون - وهو نفسه الذي كتب ضد الأخلاق العقلية، بقوله: لنصدر منطقيا، عن الواقعة الأولية، أي لنصدر عن الأحاسيس. وبين تلك الأحاسيس ما هو من طبيعة خاصة لا يمكن أن يكون مماثلاً لأية طبيعة أخرى، إنها تمس عاطفة فينا هي عاطفة الجمال. وهذه الملكة الداخلية، تجلب سروراً متباينا تماما مع المسرات التي تأتي من معرفة المبادئ والنسب والعلل، أو من استعمال الأشياء. ويستطيع العقل أن ينضم إلى هذا السرور بإبرازه لنا فائدة ما ويجلبه إلينا البهجة التي ترافق واقعة المعرفة، ولكن العقل ليس من جوهر ذلك السرور. والنتيجة هي أننا لو كنا محرومين من هذه العاطفة الداخلية، لوجدنا أن البنايات، والحدائق، والملابس والمركبات، هي لائقة ونافعة ومريحة. ولكننا لن نقول أبدا إنها جميلة[3].

---

(١) Réflexions critiques sur la poésie et la peinture, 1719

(٢) Discorso sull' indole del piacere e del dolore, 1773

(٣) Inquiry into the original of our ideas of beauty and virtue, 1725

كان الناس يستأنفون، وفي الغالب يرجعون إلى الوراء. وكان الحجر يفلت من الأيدي ويهوى. غير أنهم كانوا يصعدونه من جديد بالإصرار الذي ألفينا له سابقًا، كثيرًا من الأمثلة. وفي سنة ١٧٣٥. كان ذلك العلم الذي يبحث الناس عن تشييده، يتخذ اسمًا لأن الإسكندر جوتليب بومجارتين «Alexandre Gottlieb Baumgarten» تلميذ ڤولف، وشقيق الشارح. كان يدعو هذا العلم: أستيتيك «Aesthetica» أي علم الجمال في رسالته للدكتوراه التي عنوانها: «تأملات فلسفية متعلقة ببضع قصائد Méditationes philosophicae de nonnulis ad poema pertinentibus وهذه الكلمة التي كانت مطمورة، قد تخلصت ووضعت على رأس رسالة أتم. وقد نشر بونجارتين المجلد الأول منها في سنة ١٧٥٠ وعنوانها «استيتيكا». حقًا إنها لم تكن تحفة، بل إنها من بعض جوانبها، كانت إنتاجًا أقل جرأة من إنتاجات سبقتها. ولكن المهم كان هو ذات الاسم الذي يترجم عن إرادة تشييد نظام على حدة، أي نظرية فن حر Theoria libéralium artium وكذلك فكرة أن هذه المعرفة المشاعرية -ولو كانت أدنى من المعرفة العقلية، كما كان بونجارتين لا يزال يفترضها- تتلقى صكها، وتطلب بحقها.

هناك مجهود عظيم قد بذل لينتزع من العقل دعواه أنه هو وحده الذي يخلق الجميل ويحكم عليه. وهناك نشاط قوي قد أنفق لعزو هذا الامتياز إلى قوة خاصة من قوى روحنا، وذلك استكشاف أعلنه الأب ڤيچو على الرأي العام الإسباني في كتابه الذي عنوانه «استكشاف ملكة جديدة أو قوة الحساسية في الإنسان» استكشاف ملكة جديدة كما يعلن رصاد السفينة عن أرض جديدة.



چوان چواشيم ڤينكيلمان «Johann Joachim Winckelmann» ذلك الابن المنحدر من صانع أحذية فقير، والذي يعمل قائدًا لأعمى لكي يكسب قوته، ذلك الغلام الذي، رغم هذا، يصل إلى الجلوس فوق مقاعد إحدى المدارس، والذي يأخذ على أساتذته ألا يكونوا أصدقاء «الموسا Les Muses أي الملهمات، لأن

مغرفة الإغريقية عندهم أندر من الذهب. ذلك الشاب الذي حين يعلم أن مكتبة العالم فابريسيوس تعرض للبيع في هامبورج، يسلك طريقه إليها بلا أكل إذا لزم ذلك لكي يشهد المزايدة، ويشتري أحد المؤلفات الإغريقية. ذلك المدرس الذي يعلم القراءة لأطفال جُرْبٍ، ولكنه ينسى متاعبه حين يؤدي صلاته في منتجات هوميروس، ذلك الأمين للمكتبة الذي ليس لديه سوى هوى واحد، هو إتمام معرفته بالتراث القديم، والذي يعيد قراءة الإلياذة والأوديسا ثلاث مرات في شتاء واحد، ذلك اللوثري الذي تكثلك لأن لديه أملاً في أن يشغل وظيفة صغيرة في روما. ذلك البراندبورجي[1] الذي يعتبر أنه لا يبدأ حياته إلا في اليوم الذي يطأ فيه الأرض اللاتينية، إيطاليا إيطاليا! هو مدفوع نحو التراث الكلاسيكي كما لو كان ذلك بدافع حركة قدرية، وليس هذا الميل هو وحده المدهش، وإنما هي الطريقة التي يسير بها نحو أكمل أنواع الجمال الإغريقي، وهو ينبذ دفعة واحدة، كل الهيلينية الضئيلة القيمة التي كانت تروق معاصريه. وحين شاهد تماثيل عصر بيريكليس «Periclés» النبيلة يصيح قائلاً: «ها هو ذا الجمال الحقيقي، فاعترفوا بوجوده في طابعه البسيط الذي يميزه. كما أن أعماق البحر تبقى هادئة حتى لو كان سطحه غاضباً، كذلك وجوه هذه التماثيل في وسط الأهواء، تترجم دائماً عن نفس لم تتزلزل، ولا شيء يحدث اضطرابا في انسجامات تلك الوجوه المفعمة بالسكينة.

حقاً إن استكشاف آثار مدينة هوكولانوم قد أحدث تأثيراً كبيراً في العقول، ولكنه لم يوجد إلا في بطء، والناس لم يقفوا أنفسهم دفعة واحدة أمام إطار الحياة المادية، وكان البعث يمتد على مدى طويل من الزمن. وعلى الضد من ذلك كتابا ڤينكيلمان المعنونان: «Gedanken uber die Machahmung der Griechischen Werke in der Malarei und Bildhauer Kunst Geschichte der kunst des Alterthums» كانا كأنهما إنارتان مباغتتان، فإغريقا لم تظهر نقية على حقيقتها فحسب، ولكن كل إدراك الفن قد تبدل، إذ أن الفن يساهم في التطور العام

(١) البراند بورج هي إحدى مقاطعات المملكة البروسية. (المترجم)

للخلائق، فيولد ويشيخ ويموت كالإنسان والنبات. ولكي يفهمه المرء جيداً، كان ينبغي أن يتتبعه في مجهوده التقدمي، وأن يحب مظاهره الأولى حتى لخرقه ذاته، ويحب ثمار خريفه، ولكن مع الكآبة التي ترتبط بالتدهورات. وبين البدء المتردد والنهاية المحزنة، ينبغي أن يحب المرء حباً تاماً مدفوعاً بالوفاء، تلك المنتجات الفنية الرئيسية التي احتفظت على الأرض بصورة الكمال. وهكذا لم يعد الفن هو ذلك الإنتاج الذي لا يشرح طريقة جيدة التطبيق، بل جعل الناس يرونه ينبت ويزهر ويذبل. إنه ظاهرة حيوية.

هناك شيء غريب يستحق التفكير، وهو أنه قبل أن ينحل عقال العواطف إلى حد تحطيم توازن ملكاتنا. ونبذ القواعد العقلية. وقبل أن يظهر على المسرح أولئك الأبطال ذوو الأهواء الذين ذكرنا القراء بأسمائهم. ومنذ سنة ١٦٩٠. أي منذ ظهور «محاولة خاصة بالعقل البشري»، قد ظفر رجل الهوى بإعلانه عن حقوقه. ففي الواقع أن لوك قد قرر أن النفس كانت سلبية، وأن هذا الجزم الأول كان مثقلاً بالنتائج التي لم تكن قد تمت بعد.

غير أنه قرر أيضاً أن النفس كانت إيجابية، ما دام أنها كانت تعمل معتمدة على المعارف التي تقدمها الحواس. وأن مبدأ هذه الإيجابية هو القلق أو الرغبة، وهو في هذا يقول:

«إن القلق الذي يشعر به الإنسان في نفسه عند غيبة الشيء الذي كان سيمنحه سروراً لو أنه كان حاضراً، هو الذي يدعى بالرغبة. والذي يتفاوت عظمة كثرة وقلة حسبما يكون هذا القلق أكثر أو أقل حدة. وهنا قد يكون من العبث أن يلاحظ المرء ملاحظة عابرة، أن القلق هو المهماز الأساسي إن لم نقل إنه هو الوحيد الذي يثير عمل الناس ونشاهم!».

إن كوندياك خليفة لوك ومصلحه يلح في تحليل العوامل السيكولوجية للرغبة فيقول:

«الرغبة هي أكثر حاجاتنا دفعاً، ومن ثم لا تكاد رغبة تشيع حتى تكون رغبة أخرى. وفي غالب الأحايين نحن نطيع عدة رغبات في الوقت ذاته. وإذا لم نستطع ذلك، فإننا نحتفظ -إلى وقت آخر- بالرغبات التي لا تسمح لنا الظروف الراهنة بأن نفتح لها نفسنا. وهكذا تتجدد أهواؤنا، وتتعاقب وتتكاثر، ونصبح لا نعيش إلا لكي نشتهي، وإلا أثناء الوقت الذي نشتهي فيه».

يضيف كونديـاك إلى هذا، العوامل السيكولوجية للضجر، فيشرح كيف أن التمثال الرخامي الذي دبت فيه الحياة، عندما تلقى ملكة الإحساس، يذكر الحالات السعيدة التي كان يوجد فيها، وحينئذ تبدو له حالة عدم الاكتراث غير ممكنة الاحتمال، والحزن الذي يشعر به إذ ذاك، يدعى بالضجر. وهذا الضجر يستمر ويزداد ويصير مرهقاً كالألم، فتتجه النفس دون اختيار. نحو الوسائل القمينة بتبديده إذ أن الخوف من الضجر يحمل أكثر بني الإنسان على العمل والتفكير، وهو يدفعهم إلى التنقيب عن الانفعالات القوية، حتى لو كانت هذه الانفعالات تحركهم بإفراط، وتجعلهم يتألمون. الضجر هو الذي يدفع الشعب إلى الهرولة إلى ميدان تنفيذ أحكام الإعدام، والطبقة العليا إلى المسارح والضجر هو الذي يحمل النساء العجائز على التقوى المكتئبة ومزاولة عقوبة الندم. والضجر هو الذي يقذف برجال البلاط في حمأة الدسائس. «ولكن على الأخص في المجتمعات التي تكبل فيها الأهواء الكبرى -سواء أكان ذلك بوساطة الأخلاق أم بوساطة نظام الحكم- يشاهد أن الضجر يلعب أعظم الأدوار. وحينئذ يصير هو الباعث العام».

إن العقلاء أدنى من ذوي الأهواء، وإن المرء يصير بليدا عندما يكف عن أن يكون ذا هوى، وإذا لم يكن ذا هوى، فإنه لا يستطيع أن يكون شاعراً لأن: «العاطفة هي روح الشعر». عمن هذه الجمل؟ عن أي رومانتيكي مقتنع؟ إنها مسجلة في كتاب هيلفيسيوس «عن الروح».

وجملة القول أنه في الطبيعة، كان يمكن العثور على كل شيء حتى الرومانتيكية.

# الفصل الثاني

## العاطفة

## البداوة والحضارة

في بعض اللحظات يشعر الإنسان المتمدن بأنه منهك من أن يكون على ماهو عليه، ويود أن ينبذ العبء الذي يثقل كاهليه، والذي لم يحمل نفسه إياه شخصياً. إن المجهودات التي مضت عليها آلاف السنين، والانصقال والتعقد، تؤلف هذا الجرم الذي يصير بالنسبة إليه غير قابل للاحتمال. إنه لم يعد سوى نتيجة لنوع من التصنع. حقاً إن حياته عذبة ولكنه يجدها زائفة أو أن هذه العذوبة نفسها تضايقه، وهو يدعوها بالرخاوة. إنه يتوق إلى البساطة، ولا ينفره أن يلحق التعسف عاداته الرقيقة، كأن ينام على جسم صلب، أو أن يتعشى بحساء أسمر، ولكن أين المياه الجارية التي تطهره؟

شعر إنسان القرن الثامن عشر بهذه العاطفة التي هي- ككثير من العواطف الأخريات- تعود وتختفي في صورة تموجات، ففي منتداه المؤثث بأثاث من صنع لانكريه، أو جانسبروج، وبول أو شبپيندال، قد جعل يتمنى الهواء الطلق. وفي أثناء استقراره في معقده في دار التمثيل، صفق لمزاج أرلكان الهمجي.

لم تكن وسائل الفرار قط عديدة، بل لم يكن يوجد منها في ذلك الوقت إلا القليل، لأن اختلال أقيسة الحواس، وأنواع الجنون التي بوساطتها أمل الناس في استكشاف ما لايمكن وصفه، وفي إدراك الغريب، لم تكن قد اخترعت بعد. لم

يكن إنسان القرن الثامن عشر، يوشك أن يجد تحت تصرفه إلا القصص الأجنبية أو العجائب، ومن ثم فإنه- مع سخريته من السحرة- كان يرى المستقبل في كوبة من الماء، ويدعو الموتى إلى عقد محادثة معه، وتلك أغذية ضئيلة.

على هذا النحو كان يحلم بأنه يصعدإلى مبدأ الزمن فكان يعيش مع الاسبارتيين، وقد كف عن أن يرى في هو ميروس الشاعر الذي لم ينقصه إلا قليل من الفن ليلحق الكمال. إنه كان يتطلع إلى عادات إغريقا القديمة كالملوك الذين يعرفون عدد أبقارهم ومعيزهم وكباشهم، والذين كانوا هم أنفسهم يعدون أطعمتهم، وكالملكة أريتيه التي كانت تغزل هي نفسها الأقمشة التي يرتديها زوجها، وكالأميرة «Nausicaa» التي كانت تغسل ملابس أهل دارها. وأبعد من ذلك أيضًا في العصور الماضية، كان يلتقي بالمتوحش الخير ويحبه.

كان ذلك المتوحش الخير خارجًا من يد الطبيعة، وكان لايزال من الممكن الالتقاء به كما كان في مبدأ العالم، في مناطق يصعب الوصول إليها، حيث كان يراد يومًا بعد يوم أن تفرض عليه العادات الأوروبية غير المعقولة. وفي تلك الحقبة بالتحديد، كان أحد الرحالة قد قدم إليه ألوانًا أكثر بروزًا، وخاصية أشد هجومًا، كما لو كان يريد أن يقدمه هدية إلى القرن الجديد. وهذا الرحال هو البارون لاهونتان Le baron de la Hontan الذي كان قد أنهى في سنة ١٧١٥، حياته المليئة بالأحداث. كان ذلك المتمرد قد عمل في جيوش الملك بكندا، ثم هجر البيض ليمضى إلى جانب ذوى الجلود الحمر، وكان يجمع في صورة ساطعة، أبرز الملامح التي لم يرسم بها قط أصدقاؤه المتوحشون، فكانوا حسب تصويره، حسانًا مرنين أقوياء جلدين، سعداء، لأنهم ظلوا أوفياء للأخلاق والدين الطبيعي، وكانوا لايعرفون ملكك ولاملكى، ويجهلون المال منبع الآلام، ويحتقرون العلوم والفنون. ولإبراز التعارض قد رسم لاهونتان صورة كاريكاتورية للمتمدين مضحكًا في سترته الزرقاء، وجوربه الأحمر، وقبعته السوداء، وريشته البيضاء، وأشرطته الخضر. إنه كان مهزليا بأدبه وتحياته وانحناءاته ولهجته الفخمة، وكان

جسمه منهكًا بالتوابل والعقاقير، وكانت نفسه على الأخص مسممة بالخرافات. يالهم من أغبياء أولئك الفرنسيون الذين يعتقدون أنهم يهينون عدوا حين يدعونه متوحشًا! بينما أن الإنسان العارى تتجسد فيه الفضيلة والحقيقة والسعادة.

لم يكن يكفى المرء أن يطرى الصينيين أو السياميين الذين قد فسدوا فعلاً، مادام أنه كان لديهم قضاة وكهنة بونز «Bonze» وعلماء ماندارن «Mandarin»، وإنما الذي كان ينبغى هو أن يقول المرء وداعًا للعالم القديم، وأن يجعل نفسه هورون[1].

هناك شخصيات رمزية اقتحمت الأدب بعد المتحدث بلسان لاهونتان وهو آداريو الفوضوى. فمن ذلك أن أول بطل أسود، وهو أورونوكو قد أدخل إلى إنجلترا بوساطة الروائية مسس أفرا بيلم «Mrs. Aphra Belm» ثم تجاوز الرواية إلى المسرح. ولكن تعاسات أورونوكو التي كان غدر البيض يشغل منها مكانًا عظيمًا، هي شئ قليل إلى جانب تعاسات باريكو المتوحشة. ومجمل هذه الرواية، أن تاجراً شابًا إنجليزيًا يدعى إينكل ذا بشرة غضة، وشعر أشقر، حسن التربية، ولديه طرائق مهذبة، تزح من لندن ليتجر في الهند الغربية، وكان رفاقه قد ذبحوا في جزيرة ألموا بها في مرورهم، بينما أن يوريكو الجميلة قد التقطته وضمدت جراحة وأحضرت له أطعمة، وأبقته مختبئًا في كهف، وكان كل ذلك بدافع الحب. وأخيراً ظهرت في الأفق سفينة إنجليزية، ثم دنت فصعد إينكل إلى ظهرها، ولكنه لما كان قد تأثر بهوى هذه الشابة، فقد أخذها معه، ثم فكر في الوقت والمال اللذين فقدهما في تلك الحادثة، وعلى رغم أن ياريكو حملت منه، قد باعها لأحد تجار الرقيق. ولاجرم أن روايات ومآسي وفواجع وأوبرات وقصائد ورسائل وخرافات وأغنيات وصوراً ورسومًا ونقوشًا قد نشرت هذه القصة وعمتها. وكانت هناك

(١) أنظر، فيما يتعلق بالهورون، ماعقبنا به في بعض هوامش الفصل الأول من المجلد الأول من هذا الكتاب. (المترجم).

لوحتـان تتـقـدمـان إلى الأنظار تمثل إحـداهمـا الخـائن والوضـيع والنذل، وهي الأوروبي، وتمثل الأخرى النفس النبيلة الكريمة التعسة، وهى ابنة الطبيعة.

إن فكرة الانحراف الذي به صيرت الإنسان نفسها جانية، واحتملت عقابه، والذي هو دائماً أكثر حيوية بقدر مايبتعد عن حظه الحقيقي، وإن الجزم بقيمة البسيط والتلقائي في تعارضه مع المركب والمتأمَّل، وإن إرادة التنقيب عن نموذج مثالى في أصول الخلق، أوفى الأمكنة التي لاتزال محفوظة من الدنس، وأن الأمل في العثور على السعادة بالتقهقر، وإن عواطف أخرى كالتمرد على الحالة الراهنة، وكعدم التطابق والأسف والانقباض، وإن الصور التي تعكر الواقعي، والتي تنقل إلى الماضي جمال الأحلام، كل ذلك هو العناصر التي تدخل في القوة المعقدة التي تدعى بالبدائية.

* * *

هنـــاك صـور وعـواطف وإرادات وفكـــر تتـمـم في الوقت ذاته تكوين المركب المتعارض.

كـانت الحـالة الأولى للإنســان هي الفظاظة. ولاجـرم أن من يحـاول أن يستكشف مامر في الزمن البدائي، فإنه- بدلا من أن يلمح المخلوقات النبيلة التي كانت تتفتح في النور- يستطيع كذلك أن يتخيل كائنات لم تكن تمتاز كثيراً عن الحيوان، أي بلا لغة ولادين ولاتاريخ، وكانت تتيه في غابة الأرض العظمى. وهي طوائف بربرية كانت تنازع في فرائسها الحيوانات المتوحشة.

وفي الحق أن الأناسى الذين بقوا في الحالة الطبيعية- فضلاً عن بعدهم عن الجمال الذي يخلع عليهم- هم مقززون ولايوجد همج أكثر همجية في الحقيقة من الأوتانتو، وهؤلاء الأوتانتو، ذوو أنوف فطس، وأجسامهم مغطاة بطلاء من الشحم والرماد، وشعورهم تنبعث منها عفونة الزيت العطن ومن ذلك أن «تكواسو» يعجب بمحاسن «كنومكايها» الجميلة التي يصورها للمؤلف إذ يقول: «إنه افتتن بلون بشرتها البراق الذي يلمع كالسواد الذي يغطى شعر خنازير هساكا،

وقد ملئ إعجابًا حين شاهد أنفها الأفطس، وقد أراح عينيه في انسحار على جمال ثدييها المترهلتين المتدليتين إلى سرتها».

تضيف كنومكايها، زينة عالمة إلى فتنها، وهي : «أن وجهها الذي كان يلمع كأحسن الأبانوس انصقالاً، كان منوعًا بعلائم صنعت بالتراب الأحمر، وكان يشبه أقنعة الليل السود حين تكون النجوم منتشرة فيها، وقد ذرت الرماد على أعضائها، وعطرتها برماد السنور، وحول ساعديها وساقيها قد حبكت أمعاء لامعة لعجلة وعلقت حول عنقها كيسا صنع من معدة جدى، وغطت بجناحى نعامة ردفيها البدينين، ومن الأمام تحمل مئزراً صنع من أذنى أسد منتفشتى الشعر (١)».

أية صورة كاريكارتورية قد تعارضت مع الصورة المثالية للمتوحش الطيب!

على أن العلماء قد لاحظوا أنه لايوجد ولم يوجد قط نموذج واحد للمتوحش الطيب، إنما على الضد من ذلك قد لاحظ التاريخ والرحالة وجود كثير من أنواع المتوحشين جد متباينة فيما بينها، وأن أكثرها لايزال مفترسا ومن أكلة اللحوم البشرية كلما سنحت الفرصة. وأمام هذه الواقعة كان الذين يؤيدون أن الإنسانية الأولى كانت بهيمية، ينتصرون على خصومهم، ويسجلون فوزاً.

كان الاستثناء ذا شهرة سيئة، ولكن الفن كان مقدسا، إذ أن الاستثناء يكتم أنفاس الطبيعة ولكن الطبيعة في حاجة إلى أن تصلح بوساطة الفن. ولقد كان هذا الاعتقاد عميقا إلى حد أنه نفخ روح الحياة في مظاهر الجمال الفني والأدبي، وانتشر في رسائل لاتندرج تحت حصر، وأملى قواعد التأليف، بل قد حاول الباحثون أن يجمعوا المفهومين في مفهوم واحد وهو: من حيث إن التصورات التي نمتلكها طبيعية، فإن الفن طبيعي. ولقد حسب الناس في سهولة، أن الطبيعة الحقيقية هي التي حولها الفن، وبالفن كانت تمتد وتنصلح وتنصقل وكانت تزيل الحسك والعوسج، وتكثر من الورد والعنب أى أن الطبيعة الحقيقية ليست هي الجبل

---

(١) Lessing, Laocoon, 1766, par. 25

القاحل ولكنها بالحرى هي الحقل المزورع. ولقد صنع الناس أحيانًا من الطبيعة فنانة، لأنها تعمل حسب برنامج حددته لنفسها، وأنها تعد في صمت، جراثيم إنتاجاتها، وترسم صور كل كائن حى وتكمله بحركة مستمرة وفي زمن معين. وعندما أخفقت عملياتها الأولى، جعلت تستأنف دون يأس لكى تصل إلى هذا النظام العالم الذي نعجب به.

ومن يدرى ما إذا كان المثل الأعلى الذي كانت الحاجة إليه تقلق الناس هو تراث من الماضي، أو هو على الضد من ذلك أمل؟ وما إذا كان خط مصيرنا نزوليًا أو صعوديًا؟ وما إذا كان يجب علينا أن ننقب عن الزمن السعيد عند حدود طريقنا، بدلا من البحث فيما وراءنا عن ذلك الزمن السعيد الذي لانستطيع بأية طريقة أن نبعثه؟ وهنا تتدخل فكرة التقدم التي لوحظت بحق قيمتها المحركة في فكر العصر وقد أعيد إلى الذاكرة إعلانها الرسمى الأول الذي نطق به تورجو أمام السوربون في ١١ ديسمبر من سنة ١٧٥٠ والذي يقول فيه:

«إن الطبيعة تولد وتموت بلا انقطاع. وعلى الضد من ذلك النوع البشرى إذا نظر إليه منذ مبدئه، يبدو في عيني الفيلسوف كلا ضخما له هو ذاته ككل فرد. طفولته وتقدماته ... إن الطباع تتلطف، والعقل البشرى يستنير، والدول المنعزلة يدنو بعضها من البعض الآخر، وأخيراً تجمع التجارة والسياسة، كل أجزاء الكرة الأرضية، والسواد الأعظم من النوع البشرى- بوساطة تعاقبات من الهدوء والهياج والخيرات والآلام- يسير دائمًا، ولو بخطوات وئيدة، نحو كمال أعظم».

لنحاول أن نرى من أى المنابع انبجست المياه التي اجتمعت لتكون هذا التيار الجارف. إن معركة القدماء والمحدثين قد أنكرت على الكلاسيكيين الإغريقيين واللاتينيين امتيازاتهم، وأعمق من ذلك أنها وصلت إلى البواعث التي كانت تسوغ التمرد، وتلك واقعة قد تقررت بصورة كافية. وإن ليبنيز قد أطرى فكرة الاستمرار، وقد يكون ذلك أحد الأجزاء التي ألفت التقدم الذي كان يتطلب فعل الزمن. وإن العلم كان ينمو، وذلك أمر غير قابل للمعارضة، إذ أن أى صبى في

المدارس كان لديه منه في مادة الهندسة، أكثر من فيثاغورس نفسه، وإن النموذج الجديد للمعرفة، وهو التاريخ الطبيعي في جميع صوره، لم يفد فقط في أن يرجع حدودنا إلى الوراء، ولكنه جلب إلينا منهجًا سمح لنا بأن نذهب إلى اللانهائي، وفي الوقت ذاته أكد سلطتنا.

وإن التقدم المادي كان يقينيًا كذلك. ولقد كان لدينا في متناول أيدينا عدد من الفوائد التي لم يكن أجدادنا يتصورونها، والفنون الميكانيكية، كانت تضاعف وفرتها، وتقلل ثمنها، وإن التقدم السياسي كان أكثر حداثة، وكانت الحكومات قد بدأت تعثر على مبادئها الحقيقية، في عصر فيه الاعتدال الداخلي والحكم العام، يؤكدان بصورة نهائية أمن جميع المواطنين.

كان هناك أيضًا التقدم الاجتماعي الذي كان مظهره أكثر جدة، والذي كانت نظريته على الأقل، تتكون: فالشعور بالحاجة التي لدى بعضنا إلى البعض الآخر، كان من شأنه أن يجعلنا أكثر إنسانية. والسعادة- دون أن تكون موزعة بالتساوى- كانت ستمتد إلى كمية أكبر من الأفراد، والرفهنية، كانت تصير أكثر عمومية، وتوزع العمل كان سيقلل المشقة.

كان الجو قويًا إلى حد أن كان الخصوم عندما يتنمسون هواءه، يسلمون، فذكرى الخطيئة العنصرية، وطرد آدم من جنة عدن، واللعنة التي كانت تتأبد على ذريته التعسة، جعلت تتضاءل، وطفق إله الخيرية يتغلب على إله العدالة، وأخذ بعض المسيحين يرتبطون بتقدم لم يكونوا ليصلوا ألبته إلى حده الأعلى، ولكنه كان سيكبر إلى حد أن يدنو من المسرات الفردوسية. والكمال الإلهي قد جعل يوجب على نفسه أن يسمح على الأرض بكمال أعظم في اطراد دائم. ولم يكن العلم الإلهي يجهل أن ماكان الأول في نظام الطبيعة، هو أقل نجاحًا مما يأتي بعده. والحكمة الإلهية، إذ خلقت الوسائل التي وضعتها تحت تصرفنا لتحسن مصيرنا، لم تكن تستطيع أن تحظر علينا الانتفاع بهذه الوسائل. وفي الواقع أن الحقيقة الإلهية قد ساعدت التقدم الديني، فالتعدد أعقبه التوحيد، والتوحيد أعقبته

اليهودية، واليهودية، أعقبتها المسيحية. واختيار الشعب الذي كان يجب أن توكل إليه الوديعة المقدسة، كان قد أعد في عناية، والعقيدة الحقيقة لم تنتشر إلا قليلاً قليلاً، وكان الانتشار لايزال أمامها، والكنيسة لابد أن تكون قد ظفرت بفتوحاتها تدرجًا. وكذلك كانت النفس الفردية، تجتاز ظلماتها إلى أنوار متتابعة. وإذن فمن الزندقة الاعتقاد بأننا كنا نعيش في أزمنة أشد فساداً من زماننا. ولماذا، بدلا من ذلك لم نساهم في الحركة العامة مادام أن الإيقان بأن الحقبة الراهنة كانت أكثر استنارة من العصور السابقة، كان يجب أن يعجل تقدمنا.

إنما من انجلترا كان يأتي هذا التوسع، وإن المدنيين والرعاة الذين كانوا يتحدثون على هذا النحو، كانوا مقتنعين بأن تدليلهم كان ينفع في نقض الزنادقة، ولاسيما تيندال «Tindal» الذي جعل الناس يلاحظون أنه من غير المعقول أن يحسب المرء أن الإله قد انتظر عهد حكم تيبير[١]، لكى يتجسد.

كان تيندال وأتباعه يقولون: إنه لاتوجد حقيقتان، أى إما إن المسيحية تمتزج بالحقيقة الأزلية. وإما أنها زائفة. وكان مناقضوهم يردون على ذلك بقولهم: نعم إنه لاتوجد حقيقتان. ولكن توجد حقيقة تدرجية، ولايوجد شيء يعمل إلا تدرجًا، لاشيء حتى المسيحية، لاشيء بل حتى الوحى. والتقدم هو قانون عالم النفوس[١].

وأخيراً إن العقل التجريبي، قد بدأ يعمل مضيئًا مظاهر الفكر إنه لم يكن فطريًا. ولكنه يتكون ويقوى، ويتم هو ذاته ببعض الطرق، ولقد كان ليسينج أيضًا يساهم بطريقة حاسمة، في فكرة التقدم، حين نقل إلى تاريخ النوع سير النمو الفردى، وحين شرح العقل على أنه تطور بطئ.

كانت كل هذه العناصر مجتمعه، تجتذب اليقين، وفي هذا يقول جان

---

(٩) تيبير هو إمبراطور روماني حكم إبان ظهور السيد المسيح. (المترجم).

(٢) Roaalds, `Crane, Anglican Apologe´tica and the idea. of `Progress. Modern Philology, 1934.

فرانسوا دي بواسي السويسرى: «إن قيمتنا تزيد على قيمة أجدادنا زيادة لاتتناهى. إذ توجد أخلاق وأدب وأنوار، وإنسانية أكثر من ذي قبل وإن آباءنا في عهد فرانسوا الأول. كانوا في بربرية، وإن أخلاقهم كانت وحشية، واليوم تحول كل شيء إلى أفضل، ونحيل إلى أن السيد الأب ديسانيي محق تمامًا فيما يقوله عن التقدمات التي حققها النوع البشرى شيئًا فشيئًا نحو العقل العام.» ولاجرم أن المرء- من هذه الكلمة الصادرة عن ملاحظ أوروبي جاس خلال فرنسا وألمانيا، وعاش في هولاندا- يفهم لهجة توكيد حازم ولن يبقى بعد ذلك إلا العبور من التقدم المنقطع إلى التقدم المستمر أو من التقدم الذي هو إيمان، إلى التقدم الذي هو نظريات. و وسيكون ذلك فيما بعد، عمل كوندورسيه «Condorcet» في كتابه: «هيكل لوحة تاريخية لتقدمات العقل البشري» (١٧٩٤).

* * *

لم يكن لنا بد من أن نثبت شهادات تعميد لكلمات ناشئة. وهاك أيضًا واحدة منها:

في اللغة الفرنسية، كانت كلمة «مدنية» اصطلاحًا فقهيًا يعين عملية تحويل القضية من الجنائي إلى المدنى. ودون أن تفقد نهائيًا معناها الفقهى، تبين للمرة الأولى من القرن الثامن عشر، القرق بين حالة وحشية، وحالة خاضعة للقوانين في الكتاب الذي عنوانه: «العصر القديم كما تنم عنه عاداته» متوحش، متمدينًا، لاينبغي وضع حد لعمل المدنية بإعطائه قوانين محددة وغير قابلة للإلغاء. وينبغى أن يحمل حملا على نظر التشريع الذي يقدم إليه على أنه مدنية مستمرة ...».

ولما كان كتاب السيد بولانجيه قد نشر بوساطة البارون دولباك، فإنه لايدري أحد إلى أى الاثنين تعزى أبوته، ومهما يكن من شيء، فإن المعنى الدارج لتلك الكلمة في السنين التالية، قد صار هو المعنى الذي لانزال نمنحه إياه اليوم. إنها

استقرت فوق قمة سلسلة المراتب التي أدناها الوحشية، وتليها البربرية، ثم الأنس أو الأدب، وتلى ذلك شرطة حكيمة، وأخيراً المدينة التي هي «انتصار العقل وتفتحه، لافي المحيط الدستورى والسياسى والإداري فحسب، بل في المحيط الأخلاقي والديني والعقلى أيضاً»[1].

ولو أننا- بدلا من تلك الكلمة المجردة وتعريفها- نريد صورة حية روحية حادة تنفع في رسم الفقر الأعظم للحالة البدائية للعالم، لعثرنا عليها في وقت أكثر تبكيرا، في كتابي «رجل الطبقة العليا» (١٧٣٦) و «دفاع رجل الطبقة العليا» (١٧٣٧) تأليف ڤولتير.

كان آباؤنا فقراء، ولكن هل للإنسان فضل في أن يكون فقيراً؟

وكانت حياتهم زهيدة، ولكن ذلك بسبب الجهل أكثر منه بسبب الفضيلة. فقد رجع سانسيتاتوس[2] إلى محراثه، لأنه لم يكن لديه مايعمله أفضل من ذلك. أن يتحدث إلينا أحد بعد عن إيتاك[3]. وسالانت[4] المثنى عليهما من فينيلون. لأننا لانريد لأي شئ في العالم، أن نعيش فيهما. والعصر الذهبي بالنسبة إلينا، لم يكن سوى عصر حديدي. وسعادة الزوجين الأولين في الجنة التي لم يكونا قد ذاقا فيها ثمر شجرة علم الخير والشر، هي وهم. وفي هذا يقول ڤولتير:

«عزيزى آدم، أيها الشره. وياوالدي الخير. ماذا كنت تصنع في جنة عدن؟ هل كنت تكدح من أجل هذا النوع البشرى الأحمق؟ وهل كنت تداعب السيدة حواء أمي؟ إعترف لي بأن أظافر كما كليكما كانت طويلة وسوداء وقذرة، وشعركما سيء التنظيم. ولونكما أسمر، وجلدكما مدبوغ. وبلا نظافة لايكون

---

(١) Luclen Febvre, Civilisstion. Evolution d'un not ot d un groupe d'id e´ea193

(٢) سانسناتوس هو روماني شهير عاش في القرن الخامس قبل المسيح وقد وقع عليه الاختيار ليكون ديكتاتورا لروما فقبل هذا المنصب مرتين ولما نجت روما بفضل حكمته ترك منصبه راضياً وعاد إلى محراثه مغتبطا. (المترجم)

(٣و٤) إيتاك هي الجزيرة التي كان أوديسوس والد تيليماك ملكا عليها، وسالانت هي إحدى مدن إغريقا الكبرى في إيطاليا الجنوبية وقد صورهما فيميلون في رواية تيليماك تصويرا كله إطراء وثناء. (المترجم).

أكثر أنواع الحب سعادة حبًا، وإنما يكون حاجة مخجلة. وبعد قليل يتعبان من حادثتهما. فيتعشيان تحت سنديانة، عشاءاً لطيفا بشوشا بالماء والدخن وثمر البلوط. وعندما تنتهي المائدة ينامان على الأرض. تلك هي حالة الطبيعة المحضة.»

إن السرور يتقدم إلينا اليوم في ألف صورة سعيدة ورقيقة، فنحن نستمتع بالمنتجات التي يبعث بها إلينا العالم كله، والفنون الجميلة تتنافس في أن تسخر عيوننا، ونحن نقيم في دور جميلة، ونتنزه في حدائق بديعة، ولنا المركبات والحمامات المعطرة، والموائد المعدة في أناقة. والأطعمة اللذيذة، والمشروبات والعشاءات الخاصة. فلنعترف بما لانستطيع أن ننكره دون نفاق، وليجرؤ كل منا على أن يصيح قائلاً: إن الفردوس الأرضية هي هنا حيث أوجد.»

* * *

كان الناس يترددون بين اتجاهين لاسيما حين كان الأمر يتعلق بحالة خاصة، فمن ذلك مثلاً نفع الأدب والفنون أو ضررها. حقًا إن هذا الإنتاج من الثروة، كان يفسد الأخلاق، وإن فساد الأخلاق كان يسبب خراب الإمبراطوريات. ولم يكن أقل حقية، إن هذا الإنتاج للذوق، كان يجمل الأيام، وإن الإنسان بلا مسرات الجمال يكون أتعس الحيوانات. وإذا واجه أحد مسألة الترف، فإنه يغرق في خضمها، وكان أى واحد يتناول القلم وينشىء دفاعًا أو اتهامًا، وكانت تلك ثرثرات لاتنتهى ألبته، ومنجماً من الحماقة غير قابل للنفاذ. ومن ذلك أن الترف خطر في ذاته، وأن الترف لايصير خطراً إلا في الدول التي يسوء الحكم فيها. وأنه يوجد ترفان أحدهما مجرم والآخر فاضل، وترفان أيضاً أحدهما أرستقراطية، والآخر شعبي. وترفان أيضاً أحدهما البادئ وهو شرعي، والآخر مايصير غير شرعي منذ اللحظة التي فيها الرغبة في السطوع تدفع المرء إلى أن يجتلب لنفسه زينات لم يعد يستطيع دفع ثمنها. وهناك اخرون كانوا يستنبطون أن الناس يتناقشون عبثًا حول الترف، مادام أنه حقيقة واقعة. وسواء أكان حسنًا أم سيئًا، فإنه ينبغي قبوله.

كـان هيلفيسيوس من أنصار الأخلاق البدائية، والمساواة في الحالات والترف. وكان البارون دولباك ضد الترف ونصير المدينة.

هناك سبر عصري للغور نشأ من تحقيق واسع عن البدائية زاوله المحققون آنفًا في الأدب الإنجليزي المنخفض في القرن الثامن عشر أى الروايات الشعبية والمنشورات الرخيصة، وقصائد صغار الشعراء، هذا السير يشف فيه عن ذيوع الفلسفة التي كانت بدعة العصر، والتي قبلت على صورة غامضة في جميع اتجاهاتها. ولقد فوجى الباحثون بأن وجدوا في نفس المؤلفات- جنبًا إلى جنب، متآخيتين- فكرة أن العالم كان يتدهور، وفكرة أن العالم يتقدم (١).

كان ذات البطل وذات البطلة، دون أن يشعرا بأنهما تمزقا، يتجهان نحو طبيعة سعيده قد اختفت، أو نحو طبيعة سعيدة ستأتى.

غير أنه ليس في تلك المحيطات المظلمة، بل في وسط النور أن أنصار الطبيعة يتجابهون، وفي الآونة التي كان فيها أنصار الطبيعة أي فيزيس « Physis» يظفرون بالانتظار في شعور أوروبا، كان خصومها، أي انتيفيزيس « Anti-physis»، يفرضون أنفسهم على عملها.

وفي الواقع أنه حوالى منتصف القرن قد حدث تغيير كبير في الاقتصاد اليساسي. ومجمله أن الفيزيوقراطية (٢) « La physiocratie» قد جعلت تخلف مذهب التجارة العامة « Mercantilisme» وأن هذه الأخيرة لم تمض أقل من ثلاثة قرون، لكى تستنفد قواها. فقد استقرت وظفرت بموافقة الحكومات، وعثرت على وزير عظيم وهو كولبير الذي طبقها بنظام. وأخيراً أنشأت نظريين وضعوها في

(١) A.Documentary History of Primtivism and relatedideas, vol. l,par Arthrur O.lovejoy, Qeorge Boas, Baltimore, 1935-Primitivism and related ideas in Eaglish Popular literature of the Eighteeuth Centuury, by Lois Withney, Ba;timore, 1934.

(٢) الفيزيوقراطية هي مذهب فريق من علماء الاقتصاد كان ينظر إلى الأرض على أنها - هي المنبع الوحيد للثروة. (المترجم).

صيغ . وعندهم أن الثراء القومي لم يكن يستطيع أن يأتي إلا من سياسة ماهرة عن المعادن النفيسة ، ونتيجة هذا أن غزو تلك المعادن كان يجب أن يوكل إلى الدولة . وأن هذه الأخيرة ستؤيد الإصدار وتقلل الاستيراد ، حتى يكون الميزان التجاري بحيث يمكن الاستفادة منه . وبما أنه لايمكن أن يربح الناس جميعًا في الوقت ذاته ، فإن الدولة ستتخذ جميع الإجراءات الضرورية للقيام بمباراة منتصرة مع جيرانها ، وستفرض عليهم سيادتها .

ولقد حدث عند ذلك أن فريق أنصار التجارة العامة - وهم مليون . ودوتو ، وڤيرون دي فوربونيه ، ومحاولاتهم ، وتفكيراتهم عن التجارة - قد أخذ عن مكانه لفريق آخر مؤلف من جورتيه ، وكينيه ، وميرابو ، وتورجو ، وليموسييه دي لاريڤير
Turgot, Lemercler de la Riviére Cournay, Mirabeau, Quesnay,

ولاجرم أن هذا الفريق الأخير العالم الفصيح المتأثر بعقيدة الغيورين ، كان يدافع في الوقت ذاته عن أمر عملي جديد ، وعن فلسفة جديدة ، وكان يطرى الطبيعة . ولقد حسب الناس زمنًا طويلاً ، أن الذهب والفضة كانا يكونان الثروة . ولكن الأرض ، والأرض وحدها هي التي كانت تملك القوة الإنتاجية . أما الصناعة ، فقد كانت عقيمة ، لأنها غير ثابتة ، ويمكن نقلها إلى البلاد الأجنبية ، وأنها دائمًا مهددة بشيء من التغير ، بل حتى حين تكون ناجحة ، هي لاتفعل غير تحويل ماتقدمه الأرض ، مادام أنها عمل اليد الثانية ، والتجارة عقيمة ، إذ لم تكن تفعل سوى نقل ماتقدمه الأرض . ودخل رؤوس الأموال عقيم إذ لم يكن سوى استقطاع باهظ ومفرط .

وعلى الضد من ذلك ، كانت الأرض تخلق ، وتخلق سنويًا ، وكانت القوة التي تضاعف ثرواتها ، هي الزراعة . وكان رغد العالم آتيًا من الملكية العقارية . وعلى هذا المبدأ كان يتأسس تنظيم السياسة والأخلاق ، بل التربية ذاتها أي كل شيء .

كان مذهب التجارة العامة يحمل على التفضيل ، الطابع الإنجليزي ، وكانت

الفيزيوقراطية تحمل الطابع الفرنسي، ومن ثم هذه الأخيرة فإن كانت أحد مذاهب الفكرة، فجميع الفكر التي أبناها في سيرها كمذهب الأحرار الذي يدع القوانين تعمل من نفسها، مع أقل قدر ممكن من الإلزام والاستبداد المستنير الذي- بسبب أنه مستنير- يعمل في اتجاه العقل، والطابع المقدس للملكية وفكرة أن فائدة كل واحد هي فائدة الجميع، كل هذه الآراء، كانت تردد في عظات مزاولى الفيزيوقراطية.

كل هذه الفكر، ولاسيما فكرة أن الإصلاح العام يتم في سهولة، قد اعترف بها أخيراً بفضل بضعة مبادئ، ففي الحق أنه لاشيء أيسر من ألا توضع العقبات في طريق الخير الذي يتجه إلى أن يتحقق من نفسه والقواعد التوجهية الكافية لتحقيق سعادة أعظم إمبراطورية، يمكن أن تحتوى في خمسين صفحة أوستين على الأقل. ولذا فإن الطبيعة كان يجب عليها أن تتدخل هنا أيضًا، وإنها قد تدخلت فعلاً، فكانت الأم الخيرة المطعمة التي تنذر. بوساطة أمر الفصول، أن الوقت وقت البذر أو الحصاد، والتي ترسل المطر إلى المروج، والشمس إلى الحدائق، والتي تضاعف دون عناء، الخيرات الحقيقة على شرط أن يتلمسها الإنسان، وقصارى القول إن «الفيزيوقراط» هو الذي يشعر بأنه محتوى في القوانين الجوهرية للنظام الطبيعي، وأن الفيزيوقراطية هي مجموعة قوانين الطبيعة.

كانت «الصحيفة الاقتصادية» - وهي لسان حال ذلك الفريق- تسجل في سرور اعتناق البلاد المجاورة، ففي فلورانسا كان أنصاره يقيمون مجمعًا للزراعة. والدولة السويدية كانت تدفع الناس إلى الإعجاب بحكمتها حين كونت مجمعًا كانت عنايته الأساسية، دراسة طبيعة البلد وممتلكاته وتوجيه استغلاله. وألمانيا كانت تتحمس في محاكاة إنجلترا في دورها الاقتصادي. وهولاندا كانت قد فهمت أنه ينبغي أن تمنح مكانًا كبيراً في جمهوريتها لملاك الأراضي.

ومن ثم فإن أوربا كانت متنبهة تمامًا حين حاول لويس الخامس عشر التجربة التي بواساطتها كان سيتحدد مصير الإصلاح، ولكي يبرز هذا الأخير ثمرته كان ينبغي أن تكون الحبوب ذات أثمان مرتفعة، ولكى تكون الحبوب مرتفعة الأثمان،

كـان ينبـــغي أن يسـرى قـانون العـرض والطلب أي «دعـوا الكل يعـملوا، ودعـوا الكل يسيروا».

هناك تصـريح ظهـر في مـايو من سنة ١٧٦٣. وأمـر صـدر في بوليـة من سنة ١٧٦٤ قد ثبتا حرية تداول الحبوب في داخل المملكة؛ وحرية التصدير إلى البلاد الأجنبيـة. غـير أنه قد نجمت عن ذلك صعـوبات، ومـجاعـات في عدة أقليم، وتسببت في إجراءات تقهقرية، ولما عين الأب تيريه مراجعًا عامًا في سنة ١٧٦٩، وضع حـدًا للإجـراءات التي اتخـذت آنفًا، دون العـودة تمامًـا إلى نظرية حـمـاية المنتجات المحلية. ولقد سقط من سلطته في سنة ١٧٧٢، فبعث في النفوس أمل عظيم عندما عين تورجو في مكانه وكان صديقًا لجورنيه الفيزيوقراطي، وقد قدم البراهين على مهارته في الإدارة الاقتصادية لمدينة ليموج وكان فيلسوفًا وصديقًا للخير العام. وقد سجل في برنامجه أنه لن يكون في حكومته إفلاس. ولازيادة في الضرائب، ولا استدانة.

قوبل تورجو بالحماس، ولكنه سرعان ماهوجم وجرد من شعبيته، ودعى بالمجوع ثم فقد الحظوة فسقط في ١٢ مايو من ١٧٧٦، وتقوضت الفيزيوقراطية بسقوطه، ولو أن اراءه لم تكن هي مبادئها تمامًا، فهذه الأخيرة لم تكن تشرح كلها بأسباب خاصة بفرنسا، ففي الواقع أن سنة ١٧٧٦، كانت هي السنة التي نشر فيها آدم سميث، كتابه الذي عنوانه «بحث عن الطبيعة وأسباب رغد الدول».

كان آدم سميث يصدر عن الطبيعة كما كان الجميع يفعلون، ومرة أخرى لم يكن على الإنسان إلا أن يتبع قوانين الطبيعة. غاية مافي الأمر أن قوانين الطبيعة عندها كانت تتحدث بلهجة أخرى، لأن القيمة العليا قد صارت هي العلم. وإذ ذاك كـانت ضوضـاء النسيج قد بدأت تسمع، ولـم تعد الخلية هي الأسـرة، وإنما صـارت هي المصنع. وكـان مركـز استـقـرار الحياة الاقـتـصـادية، قـد زحـزح عن موضعه، وكان عصر الصناعة قد بدأ. وبوساطتها كـانت مقدمات قد جعلت تنشأ وكذلك آلام أخرى للعالم.

# الفصل الثالث

## ديديرو « Diderot »

«عندما نحاول أن نعرف روسو، عن طريق تعارضه مع فلاسفة عصره، يضايقنا رجل واحد هوديديرو ذلك العابد للطبيعة، أو الماكينة التي تصنع الأحاسيس، أو منبع الحماس. فعندما يتحدث المرء بالعبارات العامة، يبدو أنه غطاء لروسو، أو نسخة منه، وفي الغالب هو يختلط به (١) . . . » وفي الواقع أنه إذا أريد إيجاد تقسيمات حاسمة- كأنه يكون العقل هنا والعاطفة هناك- فإن ديديرو يكون متعبًا. غير أنه بالنسبة إلى من يحاول أن يتبع تطور العقول والنفوس، يكون ديديرو نافعًا، ويكون ديديرو ضروريًا، لأنه يبرز الارتباط الحائل والمؤقت في وجود القوتين اللتين لاتلبثان أن تسيرا في اتجاهين متباينين.

كم يشعر المرء بالسرور من الحياة في رفقته! إنه لجد شاذ حين يرتدي معطفه الطويل المصنوع من القطيفة الرمادية وذا الجيوب المفعمة بالكتب، أو رداءة المنزلي العتيق الذي نقله إلى الأجيال المقبلة لوصفه إياه. إنه لجد بسيط وجد صريح، وقليل التعمل، ولاتلوح على المرء بإزائه علائم الداخل الذي يريد أن يغتصب أسراره، بل حسبه أن يستمع إليه، فهو يعترف بدخيله نفسه طول اليوم. ومن ثم فإن «جارا» حين زاره، لم يستطع أن يقول كلمة واحدة، فبعد أن رسم ديديرو برنامجًا للتشريع، وقدم إليه خمسة أو ستة موضوعات لفواجع أو مآس، للاختيار من

(١) Gustave Lanson, Histoire de la Littérature frncaise.Jean. Jacques Roussau, Début

بينها، وبسط آراءه في تاسيت المؤرخ، وفي الترجمات، ومثل منظراً من مسرحية تيرانس، وغنى أغنـية كان قد ارتجلها على مائدة عشاء، وأخيراً تلا مهزلة، أعلن أن محادثة ذلك الشـباب «جارا»، كان لها كثير من القيمة، ثم افترق عنه مع كثير من الألم.

كان دائماً على درجة الغليان، إذ أنه كان مشتملاً على خليط شديد الجلبة من الفكر والمشروعات وشواغل الأحلام. ولقد كتب بشأنه روسو الذي كان يعرفه جيداً، إلى مدام ديبينيه فقال: «ويل لي إذا نجح في أن يأتي لزيارتي، ولكنه سيعد مشروع هذه الزيارة مائة مرة، ولن أراه مرةواحدة، إنه رجل ينبغي حمله من منزله، وأخذه بالقوة لدفعه إلى تنفيذ مايريد». ولقد كتب إليها أيضاً مرة أخرى فقال: «أما أنا فإنني أعتقد أن ديديرو الصباح يود دائماً أن يذهب ليراك، وأن ديديرو المساء لن يستطيع أن يراك أبداً. إنك تعرفين أيضاً أن الروماتيسم يقعده أحياناً، عندما لايكون محلقاً بجناحيه العظيمين على مقربه من الشمس، يجده المرء فوق كمية من الأعشاب كسيح القوائم الأربع».

وأيا ماكان، فإن ديديرو الصباح وديديرو المساء وديديرو الذي يُحلق، وديديرو الذي يمشي على أربع، قد لوحظ ملاحظة جيدة أنه كان عظيم السخاء أيضاً، مبذراً في جميع ثرواته، يمنح ماله ووقته ومجهوده، بل نثره. إنه واحد من أولئك النادرين من رجال الأدب الذين لم يكونوا مرتبطين بمنتجاتهم ارتباط اليائس. إنه كان قادراً على أن يدعها جانباً وألا يطبعها، وأن ينزل عنها لأصدقائه، وأن يهجرها كأنها ثمرة سقطت بين مائة ثمرة من شجرة مخصبة، وكل من يريدها، يستطيع أن يلتقطها. إنه كان سميكا وعادياً بعض الشيء، وكان يشرب في عشاء واحد عدة زجاجات من الشامبانيا الحمراء والبيضاء، ومن نبيذ جزيرة كنرى دون حسبان نوعين أو ثلاثة أنواع من الكحول. وكان طائشاً، وسريع التدخل فيما لايعنيه، وكان ألوفاً مسرفاً في العناق وفي الربتات الودية، وقصارى القول كان مزاحماً، ولكنه لم يكن قط صغير النفس، ولامنافقاً، ولاحسوداً، بحيث أن

نقائصه نفسها لم تكن محزنة. وكان مخصبًا ومسرفًا في المعارف وفي الأفكار إلى حد أنه قد يمكن العثور على عبقرية أعمق منه، ولكن لاأكثر ثراءاً.

إن هذه الثروات، هي عنده متعارضة في سلام، وهو يقدسها دون تألم من تباينها ولماذا يتألم؟ إن على العكس مسرور بأن يشعر بقوى متباينة إلى هذا الحد تزدحم نحوه، وتنبثق منه.

* * *

كتب ديديرو يقول: «إن والدي قد تركا من بعدهما ابنا يدعى دينيس الفيلسوف وهو أنا».

إنه دينيس الفيلسوف، وكان عضواً في جماعة إخوان الفلاسفة، وكان يعرفهم جميعًا مادام أنه جمعهم حوله، وهو صديق حميم لعدد منهم مثل جريم، وهيلفيسوس، ودالامبير، وكوندياك، ودولباك، وهو معجب بمونتسكيو الذي عبر له عن إجلال علني. إنه لايجب ڤولتير لأن خلقه جد متباين معه، ولكن ڤولتير يحترمه لأنه يعتبره أحد أوائل جماعة الفلاسفة. ومن ثم كان يود أن يدخله المجمع ولو أن أتلاس [1] دائرة المعارف، كان معدوداً من بين الأربعين لصار الحزب قوياً.

فيما يتعلق بالفيلسوف، كان لدى ديديرو جميع المطامع، إذ يقول مثلاً: إن القاضي يرد العدالة، وإن الفيلسوف هو الذي يعلمه ماهو العدل وماهو الظلم. وإن الجندي يدافع عن الوطن. وإن الفيلسوف يعلمه ماهو الوطن. وإن الكاهن يوصي الشعب باحترام الآلهة وإن الفيلسوف يعلم الكاهن من هم الآلهة، وإن الملك يأمر الجميع، وإن الفيلسوف يعلمه أصل سلطته وحدودها. وبالإجمال لو أن ديديرو كان هو السيد المسيطر، لزين رأس الفيلسوف بالتاج الوطني «من أجل المواطنين الذين أنقذهم» «Ob servatos cives».

---

(١) اتلاس في الأساطير الهيلينية، هو التيتان الذي يحمل العالم على كتفيه، وقد شبه المؤلف به ديديرو لأنه هو العملاق الذي يحمل عبء دائرة المعارف على كاهليه. (المترجم)

إنه هو الذي وجد ذلك التعبير المجازي الذي ذكرناه، والذي يقول إن الأنوار ستبدد شوائب الظلام الكبرى التي كانت لاتزال تغطي سطح الأرض. وهو الذي وجد ذلك الرمز الذي أشرنا إليه، والذي أبان أن التجربة قد صارت عملاقة، جعلت تزلزل أعمدة معابد الخطأ. ولقد تتبع نفسس تطور العلم، حين اجتاز الهندسة إلى الطبيعة الرياضية، والطبيعة الرياضية إلى التاريخ الطبيعي. وكان مفتونا بعلمى بنية الأجسام، ووظائف الأعضاء، فدرس الألياف والأنسجة والأعصاب والعظام، ورأى اللحم يهتز والدم يسير. وانتزع من الميتافيزيقي حق الحديث عن الإنسان ليكله إلى الطبيب.

إن دراسة أخلاقة تكاد تعادل العثور على جميع توكيدات الفلسفة وترددداتها. وكان لديه مايدعى بذوق المسائل الخلقية أي الأخلاق علما، والأخلاق العقلية، والأخلاق الغريزية، والأخلاق التي تربط الفائدة الخاصة، بخير النوع. ولكنه أيضًا كان يحس بالأسف على أنه لم يصل إلى إنشاء مجموعة قوانين للأخلاق، والشعور بنسبية الأخلاق، والخوف من أن ذات الأخلاق تكون ملائمة للحكيم وللجمهور. وأخيراً كان لديه- أكثر من كل شيء اخر- انعطاف إلى الجبرية المجتاحة التي كانت تنبذ حتى امكان الأخلاق وعلى هذا الأساس كان سَيِّدُ جاك الجبري، يود أن يحسب نفسه حراً، ولكن الحجج التي يقذف بها جاك إلى الميزان، تجعله يميل إلى السلبية. وهاك شيئًا منها: إننا مكونون تكوينا يتفق مع النظام العام، ومع التنظيم الخاص لكل كائن. وإننا لانستطيع أن نغير شيئًا من القوانين التي تحدد حالتنا. ومادام الأمر كذلك، فإذا كانت الحرية من الحيثية الفلسفية، كلمة خالية من المعنى، فإنه لايوجد عمل يستحق المدح أو الذم، ولاتوجد فضيلة ولارذيلة، ولايوجد شيء ينبغي مكافأته أو معاقبته.

وديديرو هذا، هو نفسه الذي احتج ضد الطغاة، والذي أعلن أن الإنسان يملك حقًا غير قابل للنقاش في الحرية السياسية، وأن المواطنين قد أرادوا طوعًا أن يتجردوا من جزء من استقلالهم، ليكلوه إلى سلطة لم تكن سوى مندوبة عنهم، وهو الذي دافع عن الأمن والملكية. إن ديديرو هذا هو ذاته الذي- في محيط

التربية- قذ زكى نوعًا من تربية الدولة إلزاميًا و مدنيًا، ليحل محل التربية الديرية، تربية تتنازل فيها اللغة اللاتينية عن مكانها للغات الحية، ويتبع فيها الأساتذة تطور عقول الأطفال متجهين من بسائط الأمور إلى معقداتها، وبها يمكن تكوين رجال علم، وزراع واقتصاديين، وبالإجمال مواطنين نافعين للدولة وفيها تكون الفنون الميكانيكية التي يحميها هو، موضع الشرف.

وديديرو هذا هو الذي كان شغوفًا بالإطلاع العام، والذي نقب عن مبدأ الفنون الجميلة كما كان يفعل الجميع في ذلك العصر، والذي قرأ أفلاطون، والقديس أو جوستان، وشافيسبوريه، وهوتشسون والأب ليباتو، والأب أندريه، وڤولف، وهاجيدون، وكل من كانت قرائتهم مستطاعة، وشرذمة أخرى أيضًا- وهو الذي، بعد كثير من الآراء المتباينة إلى حد كبير- كان يجد نفسه شديد الحيرة، والذي صمم على أن يحد الجميل بالعبارت الآتية: «إني أدعو جميلاً، فيما هو خارج عني، كل ماكان يشتمل في ذاته، على مايوقظ في عقلي فكرة العلاقة، وأدعو جميلاً فيما يتصل بي، كل مايوقظ هذه الفكرة».

وعنده أن العلاقة هي عملية من عمليات العقل تعتبر الكائن أو الخاصية من من حيثية إن هذا الكائن، أو هذه الخاصية تفترض وجود كائن آخر، أو خاصية أخرى.

حقًا إن ديديرو هذا، لم يتخذ عداء الإكليروس الشغل الشاغل في حياته، ومع ذلك فقد كان أحد أشد متهمي المسيح عنفًا في القضية الكبرى. إنه أولاً بشر بالتأليهية، ثم لم يلبث أن اجتازها، لأن المرء إذا لم يؤمن بالآلهة: فلماذا هو يقصيهم إلى مواضع الفراغ من العوالم، إن من الأفضل إنكارهم في صراحة، وقد فعل ذلك، فصار ملحداً. وقد امن- كما آمن أيضًا نيجون الذي كان يتبعه، كما يتبع الكلب الصغير، سيده- بأن الأرض عندما يسودها السلام، ستكون سعيدة لو محيت منها صورة الإلة. إنه قد شعر ضد الإله بالغضب والمرارة والهياج. ومن آيات ذلك خرافته عن عدو الإنسانية الذي التجأ إلى كهف حيث جعل يفكر تفكيراً عميقًا في وسائل الانتقام من النوع البشري. على أثر ذلك خرج من كهفه صائحًا:

الإله الإله! «فامتد صوته من أحد القطبين إلى الآخر، وسرعان مابدأ الأناسى يتشاجرون ويتباغضون ويتناحرون، ذلك مافعلوه منذ أن نطق بهذا الاسم، وذلك ماسيستمرون في فعله إلى نهاية القرون».

ولما كان ديديرو ماديا، فقد آمن بذر إبيكور ولوكريس، وأعاره الحساسية والعقل المهيمن اللذين زوده بهما موپيرتوى وقد أسبغ على نفسه، السرور بمشاهدة نشأة العوالم وفنائها.

ولو أننا حصرنا أنفسنا في هذا المظهر من مظاهر طابعه، لوجد من أعماق مملكة الأشباح، الوسيلة للاحتجاج. وحينما صنع الرسام ڤان لو. صورته، لم يكن مسرواً، لأن ڤان لو، لم يبرز سوى منظر واحد منه، وكان ديديرو يقول: «إن لدي مائة منظر في اليوم حسب المزاج الذي يلم بي فقد كنت هادئًا، وحزينًا، وحالمًا، وعطوفًا، وعنيفًا، وخاضعًا للأهواء، ومتحمسًا، وكانت انفعالات نفسى المتعددة تتعاقب في سرعة على وجهى إلى حد أن عين الرسام كانت تجده مختلفًا من لحظة إلى أخرى، وكان يعوزه تحديده». وكان الأمر كذلك بإزاء عقله إذ كان يحب كل شيء، وكانت صورته الأدبية المفضلة، هي التدفق، وبعد التدفق المحاورة، أي الصوت الذي يجزم، والصوت الذي ينقض، أي هو وغيره. ولنلاحظ، دون أن نهوى في المغالاة، أنه كان يبقي دائمًا قليل منه في الغير، وقليل من الغير فيه إذ أنه يوجد دائمًا ابن أخي رامو ومحادثة (١).

وليس معنى هذا أنه كان مترددًا، وأنه- كتلك الشخصية التي سيتحدث عنها مانزونى فيما بعد - كان بين الإيجاب والسلب ذا رأى متضاد. وإنما كان في الواقع ينحاز في وضوح، إلى ناحية معينة، ولكن عقله كان فهامًا إلى حد أنه كان دائمًا يأسف على جزء مما كان يجب أن يهجره. ولقد قيل في صواب، إن الحقيقة البسيطة الساذجة التي كان كثيرون من معاصريه، يحسبون أنهم حدودها، كان هو يعارضها بحركة الحياة التي تجعل هذه الحقيقة غير ثابتة، وأن فكره حين كان يهجم على المعرفة التي تتقدم إليه، كان ينتزع منها طابع المقاومة فيها، إلى أن يسود سيادة

---

(١) ابن أخي رامو هو عنوان أحد مؤلفات ديديرو وهو أحد شخصياته الأساسية. (المترجم).

مطلقة على عالم يحوله حسب إرادته. ذلك شرح عميق لجميع شخصيات ديديرو التي هي في ديديرو. فلندع الآن جانبًا، ديديرو الذي عن طريق دائرة المعارف، كان هو الناطق بلسان عصر الأنوار، ولننظر في ديديرو الذي- بوساطة التأثير المعترف به والذي أحدثه في طلائع الحركة الألمانية «هجوم وعاصفة» « Sturm und Drang» -ا كان أحد المعدين للرومانتيكية الأوروبية.

* * *

هاهي ذي عبارة أخرى صور بها نفسه فقال: «إذا كانت الطبيعة قد صنعت نفسًا حساسة، فهي نفسي أنا كما تعرفون ...»

وفي الحق أن نفسه قبل كل شيء خيالية. إن لديه انبجاسًا دائمًا للرسوم التحضيرية، والموضوعات، والعروض، والاستطرادات العزيزة على نفسه، أي أنه توجد عنده طائفة من المنتجات في إنتاج واحد. إنه قوة حية تجد أن الواقع ضئيل بالقياس إلى مايبتكره ذلك الرجل الخيالي- وهو مستقر في إحدى زوايا منزله- يضاعف أحلامه، فهو ليس في حاجة إلى الارتحال إذا أراد الاستكشاف ولماذا ينزل المرء إلى أسفل طوابق المنزل، ويصعد إلى أعلاها، بينما هو يحلم على هذا النحو الجيد دون أن يغادر مقعده؟ فإذا قبل ديديرو الذهاب إلى الريف تلبية لدعوة، فإنه يحمل إليه خيالا روائيًا قد اشتمل على ألوان دقيقة، فهو مثلاً من نافذته بقصر جرانفال ينظر إلى الغابة الصغيرة التي تدفع عن المنزل ريح الشمال، وإلى الجدول الذي يتدفق خلال العوسج والخيزران والطحلب والحصباء، ويبدو له المنظر شاذًا ووحشيًا، وفي الليل حتى في سريره، يجد السرور في الاستماع إلى الريح التي تدمدم في عنف، والمطر الذي يصطك بالمزاريب، والعاصفة التي تهز الأشجار في ضوضاء، والرعد الذي يجلجل. إنه لن يرتحل إلى ماهو أبعد من ذلك فيما عدا مدينتي لانجر وبوربون، وفي شيخوخته رغم أقسامه، يذهب إلى روسيا، ومع ذلك فقد ساهم بقوة في إدخال الطبيعة الشاذة في المكاسب البشرية. وعن طريق استعمال اللوحات سيوجد وصف المناظر التي رآها الشمس وأنوار القمر، وعلى

الأخص مشاهد غرق السفن – إلى حد أن المحظوظين الذين يقرأونه، ينتهون إلى أن يتأثروا بالاحتكاك به. منذا الذي قدم النصائح التالية إلى الفنان وهي: «لاتغادر قاعة الرسم إلا لكي تذهب لاستشارة الطبيعة، واسكن الريف معها، واذهب إلى رؤية الشمس حين تشرق، وحين تغرب، والسماء إذ تكون ملونة بالسحب، وتنزه في المروج حول القطعان، وانظر إلى الأعشاب البراقة من تلألؤ قطرات البرد[1] ...». إن الذي قدمها هو ديديرو. ومنذ الذي أرشد الشعر على النحو التالي؟ وهو: «إن الشعر يريد شيئًا ضخمًا وبربريًا ووحشيًا [2]». إنه ديديرو. إن قلبه فائر، إنه يقشعر، ولايدري ماذا يشعر، ولاكيف يحس بأنه حزين، ولا بأنه سعيد! وإن كل كيانه يهتز، وإن هياجه يترجم عن نفسه بالدموع. فمثلاً يزوج ديديرو ابنته، . وبما أنه يفقدها، هو يبكي حزنًا، ثم يراها سعيدة، فيبكي حنانًا، وهو يفكر في وفاة أبوية فيبكي يأسًا. وهو يستسلم للغضب إلى حد أن ينتزع شعره ويضرب الحائط برأسه. وهو لايبقى في الحالة الهادئة التي يستدعيها العقل الراضي. ومزاجه العادي متطرف، وهو يحترق من حمى الحساسية.

وهذه الحساسية – فضلاً عن بعدها عن أن تحمر من نفسها – هي معتزة بحدتها، وإذا كان هناك أحد لايقاسمه تلك الحدة، فإن هذا الشخص يرثى له. وتلك الحساسية تعلن عن نفسها صائحة «هيا ياصديقي!» وهي تناشد الأحياء، «هيا ياسوفي» والأموات «هيا ياسينيك» إنها تؤنب وتعنف وتغضب وتغالى في انفعالها، وهي تنظر إلى نفسها وتستمع إلى حديثها في سرور، إنها خاصة وفريدة وجبرية، تتفوق على الفاجعة العادية، وتلحق الفاجعة الرومانتيكية المتطرفة.

ولاجرم أن هذه القوى عندما ينحل عقالها، تجعله يتباين مع أصدقائه كدالامبير مثلاً تتباين النار مع الثلج، وهذه القوى تلهم الملحد الثناء على التعبدات الكاثوليكية، فحين يشهد صلوات الجمعة المقدسة، أو موكب عيد الإله؛ وحين

---

(١) Salon de 1765, Lauterbourg

(٢) De la poésie dramatique,ch.18,des moeurs,

يرى جلال هذا الموكب ويسمع أناشيد القسس؛ وأجوبة الجماهير؛ هو يتأثر بالعظمة والقتومة والأبهة والانقباض التي تنبعث من الطقوس الدينية إلى حد أن عدو المسيحية يشترك على عجل، في حركة الدفاع التي تريد أن تبين الدين حق لأنه مؤثر.

إن هذا المادي كان يؤمن في صورة جازمة، يسمو الروح، هذا الجبري حين كان يفكر في حبه لسوفي ڤولاند « Sophie Volland» لم يكن يريد أن يقر أن هذا الحب كان نتيجة لأسباب مستقلة عن اختياره الشخصي؛ وكان يستشيط غضباً ضد نيچون الذي كان يريد أن يجعله متعلقاً بمرور أحد الكواكب، وكان يسخط على تلك الفلسفة الجبرية التي لم يكن قلبه يستطيع أن يمتنع عن تكذيبها. هذا العدو للطغاة كان يتحمس لكاترين إمبراطورة روسيا. هذا المناصر للأخلاق النفعية، لم يكن يطبق سوى أخلاق العاطفة، وكان يبشر بهذا المثل الذي كان الأب پريڤو قد صيره مع الأسف شهيراً، وهو أن كل شيء مباح لمن هو خير. هذا المؤيد للجمال قد قصر الجمال على العلاقة العقلية، وكان في الوقت ذاته يحدث ثورة لأنه من خلال مجموعة أوهامه- كأوهام النافع والأخلاق والفلسفة والمثالى وأوهام كثيرة أخرى - قد وصل إلى الدفاع عن الإخلاص ضد التصنع، وعن الملهم الداخلى للفنان ضد الاتفاقات، وإلى إعلان القيمة الانفعالية للفن إذ كان يقول: كانوا منفعلين، على حين كان الآخرون يقولون: كانوا متعقلين وبنفس الطريقة كان يطرى القيمة الانفعالية للمسرح إذ يقول: «أيها النظار غير الحساس، لماذا أتيت إلى المسرح، إذا لم يكن ذلك لتبكى؟ إنه كان يبكي بلذة، كان يبكى حين يقرأ قصة باميلا وكلاريس»، ومن خلال المسافات، كان يعانق ريتشارد سون باكياً.

وعنده أن كل شيء يخضع للتحليل إلا أن تكون حياتنا النفسية محركة بوساطة قوة الشعور الصغيرة المظلمة التي تفر من التحليل وأن كل شيء كان يجب أن يعمل بمنهج إلا أن يكون المنهج وسيلة فاترة وسميكة، وشديدة الانخفاض بالقياس إلى العقل الابتكارى الذي يهتز ويتحرك بطريقة خاصة. والمنهج بالنسبة

إلى العبقرية هو كصيحة اليمامة بالنسبة إلى شدوة البلبل، وكم كان ساراً أن يقذف المرء بنفسه بين النظريات الفرضية، والمذاهب العظمى التي يمكن ألاتكون يقينية تماماً، ولكنها كانت فاتنة!.

كان ديديرو يعير حساسيته لأصغر الأشياء، أي للأجزاء التي لاتتجزأ من المادة، ويقذف بها إلى النجوم وبوساطتها كان يأمل أن يتحدى الموت، فمن ذلك مثلاً أن التابوت الرخامي الذي احتوى جسمي الحبيبين، سيتفتت، وسيختلط بالأرض وأن الأرض ستغذى خلايا النبات، وأن النبات سيغذى الخلايا الحية، وأن اثنتين من هذه الأخيرة، حين تتعارفان، ستجتمعان في يوم ما. ولقد كان نظره الفلسفي، يتخذ مظهراً عاطفياً حماسيا حين يقول:

«إن القسم الأول الذي تبادله كائنان ذوى جسدين، كان إلى جانب صخرة تتساقط أغبرة وقد أشهدا على ثباتهما سماءاً ليست شبيهة بنفسها لحظة واحدة، وكان كل شيء يمضى، فيهما وحولهما ولكنهما كانا يحسبان أن قلبهما قد تحررا من التحول [(١)] ...».

إن هذا الشعر يعوزه فقط النظم الذي سيعيره إياه موسيه في قصيدته «الذكرى»:

نعم إن القبل الأولى، نعم إن الأقسام الأولى التي تبادلها كائنان من الفانين على الأرض، كانت تحت شجرة جردتها الرياح من أوراقها، وفوق صخرة تفتتت أغبرة. واتخذا شاهداً على سروهما الحائل، سماءاً محجبة دائماً، وهي تتغير في كل لحظة وكواكب، بلا أسماء، ونورها الخاص يلتهمها بلا انقطاع.

* * *

وإذا أردنا أن نجمع المعاني المتباينة التي رأيناها تتكدس حول كلمة الطبيعة، فإنه يكون من الميسور لنا أن نجدها، أو على الأقل عدداً كبيراً منها قد سجل بقلم ديديرو.

---

(١) Jaques le Fatallste, oeuvres, tome vi,p.117

فعنده أن الطبيعة- تبعًا للحظة واليوم والمزاج والهوى والتفكير والنظرية والنظام- هي مجموعة من الظواهر الخارجة عنا، وأن عقلنا هو الإطار الصغير الذي ترتسم عليه صورتها. إنها هي المخلوقة بمعنى الكلمة. وينبغي أن يقام لها معبد عظيم يظهر فيه ممثلو جميع الحيوانات وجميع النباتات. إنها خيرة مفعمة بالانتباهات، ويروقها أحيانًا أن تضع نفسًا حساسة، وقلبًا جد رقيق في إنسان ينتسب إلى أشد الحالات عادية. إنها فنانة فاحتفظت بالزرقة للسماء، ونسجت من الخضرة معطف الأرض في الربيع، وإن الفن يحاكى الطريقة الدقيقة التي بها تخفي عنا روابط نتائجها. إنها تعرف ماتفعله، وإنها لاتنتج أية صورة ليس فيها علة وجودها، ولايوجد لديها داء بلا دوائه، ولاتوجد حكومة لاتضع حدوداً لتعاسة الشعوب. إنها ماهرة، فقد أرادت أن يكون الحب والبغض جديرين بالرهبة، لأن غايتها هي إنتاج الكائنات والاحتفاظ بها، وأن قوة أهواء الإنسان هي دائمًا مقيسة بهذه الغاية. إنها تعنى بأسرار التفاصيل، وتعد أنساج الخلايا، فتسصنع الأغشية، ويساعدها حقًا في ذلك، المرض والمصادفة، إنها عادلة؛ فهي تعاقب الجنايات التي تقترف ضد المجتمع، فإذا كنت داعراً مثلاً، فإنك ستكون ذا حبن (١).

إنها مستهترة، ومادام أن النوع يمتد، فإنها تكون راضية، وهي تجهل الخير والشر. إنها تابعة للهوى، فمع أن النوع مؤلف من أفراد، إلا أنها ليس لديها أي اكتراث بالأفراد. إنها غير ثابتة، فتارة تبقى زمنًا طويلاً منكمشة كأنها استنفذت قواها. وتارة أخرى تبذل جهداً لإيجاد رجال عظماء. إنها خليفة باقتراف أخطاء كبيرة، وهي لاتنصح دائمًا بسلوك الطريق الجيد في ساعة الخطر. إنها خائنة، فاحترس من أن تأمن دائمًا لجاذبيتها. إنها قاسية، فهي تبيد الكائنات التي يسوء تكونها مع نواميس الكون. إنها العدو الذي لايتعب، والذي يتعقب الإنسان منذ مولده. وإذا أراد أن يعيش، فإنه يجب عليه أن يكافح ضدها متحداً مع الأناسى

(١) الحبن هو مرض الاستسقاء. (المترجم).

الآخرين من إخوته. إنها غير أخلاقية، لأن من يحيا فيها، ينقب عن خيره على حساب الآخرين. إنها متناسقة وعمياء. إنها لاتريد وإنها موجودة بكل بساطة، بل هي موجودة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة؟ وبما أنها عدد كبير وتسلسل من مجموعات الممكنات، وليست مشتملة في ذاتها على أسباب وجودها. هل تستطيع حواسنا أن تدركها؟.

لاجرم أن بعض علل الظواهر الحسية ليس لها علائق بحواسنا ...

بيد أنه – بين الكثير من المعاني التي لاندعى أننا استنفذنا قائمتها– يوجد معنى واحد يبدو أنه تغلب على الآخر، وهو أن الطبيعة هي الغريزة العميقة التي تنشىء الحياة في الفرد، وتمنحه الأبهة، وتخلع عليه عظمته التي هي امتيازه، ولو كان ذلك متعارضًا مع جميع الكون. وبغير هذه الغريزة، لاتوجد طوابع قوية، لانماذج أصيلة، لاعباقرة. وبغيرها كنا سنحمل مع تيار الأشياء الجارف، لأننا نمر دون أن نستطيع معرفة المكان الذي نشغله، ولاالحدود الحقيقية للزمن الذي منحناه. ولأن العالم مؤلف يتجه بلا انقطاع إلى فنائه، ولأنه سلسلة من الكائنات تتتابع، وتتدافع وتختفي، ولكن الفرد على الأقل يظفر– عن طريق شدة قواه– بما يأباه عليه الزمن. وبغير هذه الغريزة كان كل واحد منا سيكون عبدا في قطيع من العبيد. إن الفرد يستطيع أن يحاول إيجاد حد وسط بين التلقائي والمكتسب، وبين البربري والفاسد، إنه يستطيع أن يريد أن يشيد لنفسه مسكنا وسطا بين الكوخ والقصر، غير أنه في نفس اللحظة التي يفكر فيها أن يكتفى بهذا التوسط، تنبعث منه صرخة ويهتف قائلاً.

«إن ابن الطبيعة يمقت العبودية. ولما كان عدواً لدوداً لكل سلطة، فإنه يسخط على النير، وإن الإجبار يهينه، وإن الحرية هي أمنيته، وصيحته هي الحرية. وفي إغضائه عن روابط المجتمع، وهو يطالب سرا بإقطاعيته القديمة. وإن التطبعات وتصنعات العادة، عبثًا استعملت لتكون نقابًا لوحشيته، لأن ادبًا منافقًا ومرونات

نمر مكيل في قفصه، لايخدعان عني الحكيم بل هو في أسوار المدينة يتبين الإنسان البدائي، يهيج في الحديد الذي هو مصفد به (١).

هكذا يوجد الإنسان البدائي وراء المدنى. ، وهو ينتفض عند مايقرأ القصة التي ألفها بوجانڤيل عن إقامته في المدينة السعيدة التي رست بها سفنه. إنه يشعر بتحرك شيء، «لاأدرى ماهو» يبقى في أعماق نفسه، إنه يود أن يصير من جديد، ذلك الذي يذوق جميع اللذائذ الأولية. ولكنه يعرف تماماً أنه لايستطيع ذلك. وإذ ذاك تبتدئ المعركة، لاضد المجتمع فحسب، بل ضد نفسه، تلك المعركة التي تمزق الإنسان الرومانتيكي. وفي هذا يقول ديديرو:

«أتريد أن تعرف التاريخ الموجز لبأسائنا تقريباً؟ إن كنت تريد ذلك فهاكه، كان يوجد إنسان طبيعي، فأدخل فيه إنسان صناعي، ونشبت في ذلك الكهف حرب مستمرة دامت طول الحياة، فحيناً يكون الإنسان الطبيعي هو الأقوى، وحيناً يلقى على الأرض بوساطة الإنسان الأخلاقى والصناعي، وفي كلتا الحالتين يكون ذلك الممسوخ المحزن، متجاذباً كأنه بين شقي الكلابة متألما ممدواً على عجلة التعذيب، تعساً على الدوام، منتحباً بلا انقطاع، سواء أكان تحمس مجد زائف يثيره ويثمله أم كان خزى زائف يثنيه ويهزمه (٢)».

عندما ذهب روسو لزيارة ديديرو حين كان سجينا في برج ڤانسين، وانبأه بموضوع مسابقة مجمع ديچون التي عنوانها «ما إذا كان تقدم العلوم والفنون قد ساهم في إفساد الأخلاق أو تطهيرها» عندما حدث ذلك هل نصح له ديديرو المبتكر أن يختار نقيض الرأى المقبول من العموم، وأن يبدأ على هذا النحو العمل الذي يجب أن ينتهى به إلى قلب الدراسة السيكولوجية في أوربا؟ حقًا إننا لن نعرف أبداً ماحدث بالضبط في ذلك اليوم، ولكن تدخل ديديرو هو في منطق الإمكان، لأن چان چاك روسو قد قال: «إنني منذ تلك اللحظة قد فقدت.» وفي الواقع أنه مذ ذاك قد اتخذ خطة جديدة إزاء الحياة.

---

(١) Les Fleuthéromaues. 1772

(٢) Supplément au voyage de Bougainville, 1772, oeuvres, t,ll,p.246

# القسم الثالث

## انحلال

# الكتابُ الثالث

# الفصل الأول

## المذاهب التأليهية

### بولينبروك وپوپ Bolingbroke et pope

هكذا بان أن فلاسفة الأنوار، لم يحلوا المشكلات التي كانت تنشأ من التجائهم إلى الطبيعة . هكذا اتضح أن قوى متعارضة مع قوى «الإله- العقل» قد انحل عقالها تحت عيونهم، وفي وسطهم، وأحيانًا بفضلهم. والآن نصل إلى أخطر أنواع ســوء التفاهم التي فككت مذاهبهم، مادام أن الأمر يتعلق بالصلات بين الإنســاني والإلهــي. أجل إن الدين كان لايزال يســتطيع البقاء بينما أن الملحد هو العدو.

ولكن هل يمكن وجود دين بلا قاعدة اعتقادية وبلا كنيسة؟ وإذا كان هو الذي يربط، فهل يمكن وجود دين لايربط؟ وفي هذا يقول ديديرو: «هناك مسألة عظيمة في حاجة إلى الحسم، وهي معرفة ما إذا كان هذا الجزء من الجيش يؤلف هيئة ... لأنه لاتوجد هنا معابد، ولامذابح، ولاتضحيات، ولامرشدون، ولايتبع الناس راية مشتركة، ولايعرفون تعقيدات عامة، والكافة منقسمة إلى طوائف تتفاوت كثرة وقلة، وهي غيورة على استقلالها (١)».

الواقع أنه - بدلا من العمومية التي كان يراد الوصول إليها- كان الناس ينتهون إلى التشتت، وإلى العزلة، وإلى تباينات غير قابلة للانقاص حتى إزاء الجزم

(١) Diderot. La Promenade du sceptique, 1747

البسيط وهو: «إنني أؤمن بالإله» لأنه كان ينبغي معرفة أي إله ذلك الذي يجب الإيمان به. إذ أن المرء حين ينظر عن كثب، يلاحظ أنه لم توجد تأليهية واحدة بل تأليهيات متعددة متباينة، بل في تعارض، بل نزاع فمثلا تأليهية پوپ، ليست هي تأليهية ڤولتير، وتأليهية ڤولتير جد بعيدة عن تأليهية ليسينج. وحيث كان الأمر كذلك، فإن وحدة الإيمان كانت قد فقدت قطعاً.

* * *

كان بولينبروك في شبابه، داعراً ماجناً، لايكلف نفسه مشقة إخفاء رذائله التي كان يقول عنها: إنه يأمل أن تقابل بفضائله. إنه كان رجلاً محظوظاً لدى النساء وصديقاً لهن، بل حتى عندما استقام احتفظ بميله إلى النساء، واتخذ في يسر، مظاهر دلال قوى. إنه كان لورداً إنجليزيا يعرف ما كان يجب عليه لطبقته، وهو الحياة المترفة، والإنفاق، والإسراف؛ والقصور، والحدائق والولائم، والاستقبالات والأصدقاء، والموالى، والمؤانسة التي لم تكن تنبذ الطرائق المترفعة بالقدر الكافي للإشارة إلى الفوارق الاجتماعية. وكان سياسياً من النوع الحصيف، وقد زاول السلطة زمناً طويلاً. وعندما سقطت حكومته، اتخذ وضعاً قد يكون أفضل من الأول، وهو وضع رئيس المعارضة، فلم يكن يجهل الوسائل التي بها تدار الأحزاب، كما يعرف التسعيرة الدقيقة للضمائر. ومن ذلك- بالإضافة إلى استعداده الطبيعي- كان يجئ هذا الاحتقار الذي لايكاد يلحظ، نحو الكائنات البشرية الذين هم، بوجه عام، أمثال أولئك الذيم كان يأمرهم، أو يشتريهم.

كان ذا عقل مثقف لاسيما في الشؤون السطحية، وذكاء سريع وساطع، وذاكرة تسمح له بأن ينتفع في الوقت الملائم بما قرأه، وقد قرأ كثيراً وكان أيضاً خطيباً مبدعاً ويبدو كذلك إنه كان محدثاً عجيباً وكم كنا لوسمعناه، لأن كتبه تخيب الأمل قليلاً. ففي أثناء حياته نفسها، كان القارئ يلوح عليه أنه مفتون عند القراءة الأولى، وأنه صار أقل من ذلك قليلا عند القراءة الثانية. كان يهمل منتجاته أكثر مما يعنى بنشرها، وكان يقدم خطابات، ومحاولات، ورسائل صغيرة أكثر مما يقدم كتباً ضخمة.

كـان عـمـوميًـا ، أى كـوسـمـوپوليت « Cosmopolite» اسـتفـاد من النفـيين الطويلين لكى يتخذ من فرنسا وطنه الثاني ، وكـان يجيد التحدث بالفرنسية كلغته الأصليـة . كـان فيلسوفـا ، ولكنه كان ينظر إلى مـذهبـه على أنه أكـثـر التئامـا مع الكائنات الممتازة منه مع الجماهير ، ولم يكن يستعمله دائمًا في الحياة العملية . وكان يترك أفكاره تذهب إلى أبعد ما كانت تريد ، ولكن دون أن ينسى أن محافظًا هو روح حزبه ، يجب عليه مع ذلك أن يحتفظ بشيء . هكذا كان ألفيكونت سان-چون الذي بفـضل منحـة الملكة آن ، صـار اللورد بولينبـروك . وكـان هناك قـليل من الأسماء إذ ذاك هو الذي ظفر بشهوة أكثر من هذا الاسم .

كـان شـاعـرا ، وحين كـان صـبـيـا لـم يعش إلا في رفـقـة الشـعـراء الإنجليـز والفرنسين والإيطالين واللاتينيين والإغريق ، وحين كـان شابا ، لم يكن يكتب إلا شعرا ، وكـان شعره يمر من يد إلى يد ، مثيرا تمتمة من الإعجاب . كـان مدهشًا إلى حد أن اعتبر أول كتاب عصره ، وهو لايزال في الثالثة والعشرين . حقًا إن الإله لم يزوده بفكر عميق ، بل لم يمنحه خيالاً قويًا مبتكرًا ، ولكنه منحه النظم والانسجام . كان حساسًا متطرفًا وقلقًا ، فكان يرى في هبوب الريح عاصفة ، وعاصفة لاتزمجر إلا ضده ، والمداعبة نفسها كانت تبدو له كأنها خدوش المخالب .

أما حياته بلا أحداث ، ومرئية من الخارج ، تامة السعادة ، فقد كانت مع ذلك عـذابا مستمرا . ولما كان منجرحا على الدوام ، فإنه كـان يجرح الآخرين ردا على ذلك ، بل لـم يكـن ينتظر حتى يجرح ، فكان يظفر بقصب السبق ، وبعد ذلك كـان يشكو من الظلم الذي وجه إليه .

ولما كـان ابنا لكاتوليكي ، وكـان هو ذاته كـاتوليكيا ، فإنه لم يكن قد ربى في المدارس الأرستـقـراطيـة ، وإن الإطراءات والنجـاح والثـروة لم تستطع أن تمحـو الذكرى الأولى لحياته وعزلته . وفوق ذلك فقد كان نحيلا ومشوها . كـان يستقبل ويحتـفى به من جانب العظماء ، ولو أنه كـان بكـل بساطة ، ابن تاجـر جـوخ وكـان يجعل رجال الأدب يدفعون ثمن سوء مزاجه ، فهؤلاء كـانوا في رأيه هم المجرمون

الذين يسممون بغيرتهم كل واحد من انتصاراته المتعاقبة . وكان يستعمل لباقته في أن يصيبهم في المواضع الحساسة ، كما كان يتخيل أنهم كانوا يريدون أن يصيبوه هو نفسه . وكان يطلق كلمة أعدائه على الذين كانوا أعداءه بالفعل ، والذين قد يكونون كذلك ، والذين كان من الممكن أن يصيروا أعداءه في يوم ما ، والذين لم يكونوا يقولون له شيئًا . إنهم لم يكونوا يقولون له شيئًا ، وإذن فهم يضطهدونه بصمتهم .

كان السيد دي سلويت أحد المترجمين الفرنسين لپوپ يقول إن هذا الأخير كان أعظم شعراء انجلترا وكان من أجمل العباقرة الذين ظهروا .

عرف بولينبروك منذ وقت مبكر ، وقد جددت هذه المعرفة ، ووثقت عندما استقر هذا الأخير بعد عودته من فرنسا ، في دوليه بإقليم ميدولسيكس . ولم تكن تويكانهام- وهي موضع إقامة پوپ- بعيدة عن ذلك البلد ، فكانا يتبادلان صلة الجوار . ولم يكن يعوز الشاعر سوى الإلمام بالفلسفة ، وكان ذلك استثناء غريبًا وغير قابل للغفران تقريبًا ، إذ أن من لم يكن يفلسف الشعر ، لم يكن يؤدي كل واجبه .

أسمعه بولينبروك كل ذلك ، وصار أستاذه ، رادا بهذا على دعوته التي توشك أن تكون قلقة ، والتي يقول فيها :

«تعال حينئذ! ياصديقي! يامهلمي! تعال سريعًا! ياأستاذ الشعراء والشعر!»كان اللورد والكاتب يتنزهان في البستان الواسع . كان بولينبروك قد صيرته السن بدينا ، وكانت متاعب العمل والملذات قد ارتسمت على وجهه ، ذلك الوجه الذي شوهه السرطان فيما بعد- كان بوب- وهو السريع التأثر بالبرد ، الضعيف الصحة ، المتألم- يستمع إلى الدرس في تقوى . وهذا الدرس هو مايلى :

لتستمر ملهمتك في أناشيدها التي لانظير لها ، ولكن لاينبغي أن تكتفى بأن تسلى الناس وأن تلهيم ، بل ينبغي أن تعلمهم وتكونهم ، لأن هناك مهمة أجدر بها ، يجب الشروع فيها الآن . لقد استشرت كثيراً من المؤلفين : المدرسين ، ذلك الإنتاج إنتاج العصور المظلمة هذه الطيور الليلية ، والقديس توماس ، هذا المزهو

بنفسه، ذلك الرأس المجنون بالميتافيزيقي، وليبنيز، وهو أحد العقول الأشد عبثا، والأكثر وهما، والتي توجد بين المفكرين وكثيرين اخرين من جميع الأنواع، وأفلاطون الذي اقترف خطأ إلقاء أشباح المثل على حوائط الكهف، وسقراط ذلك الوهمى، والرواقيين الذين هم مفرطون قي القسوة، والإبيقوريين المتطرفين في التأنث. ولكنني لم ألتق بالحقيقة.

حينئذ نزلت إلى نفسي، فهناك كان ينتظرني مرشد أكثر يقينا من تلك النيران الجوية (١). التي كنت قد اتبعتها بلا تفكير، وقد انتزعت جميع الفكر الثانوية التي من العبث العكوف عليها، واتجهت إلى المبادئ البسيطة، إنى استمعت إلى عقلى، أفليس من الأفضل إحلال سلطته محل سلطة الناس الذين أظهروا أنهم غير قديرين على الحكم بالنيابه عنا؟ لنحكم بوساطة أنفسنا، فالمعرفة الحقيقية ليست هي النتيجة التي لاتقبل الشرح لوحى فوق طبيعي، والعلم لكي يكون علما، يجب ألا يأتي من أعلى، بل من أدنى ولاينبغي أن يكون إلهيا بل إنسانيا.

وفـــي هذه الحقيقـة ينطق بولينبروك بعبارة حاسمة وهي: إن حقيقة الوجود هي حقيقة المعرفة، وإذن فالواقع، الواقع وحده هو الذي يدير المعرفة، ويقود إلى الحقيقة.

فلنتفاهم جيداً في هذا العقل الذي تبدى لنا الملاحظة الداخلية وجوده- إنه ضعيف ومحدود إلى درجة أن يحظر علينا البحث في الموجود الأعلى. لنجزم على الدوام بهذا الضعف وتلك المحدودية بمجرد استكشافنا إياهما، لأن أخطاءنا وتعاساتنا تأتى من ادعائنا أننا نتجاوز أنفسنا. لو كان نوعنا يوجد منذ آلاف الأجيال، ولو أنه كان يتتبع بحوثه أثناء جميع الأزمنة التي تفترضها تلك الأجيال،

---

(١) النيران الجوية هي التهابات خفيفة حائلة تندلع من أجسام مشتملة على الفوسفور، وهي تنبعث من الأمكنة التي تتحلل فيها المواد الحيوانية، وكان الناس يعتقدون أنها أرواح الموتى، لكثرة ظهورها بين المقابر، ثم أظهر العلم بطلان هذه الخرافة فشبه بها بولين بروك الفلاسفة السابقين إشارة إلى مافي آرائهم من أوهام وخرافات في رأيه. (المترجم).

لكن دائمًا غير قادر على أن يتغلغل إلى سر الأشياء، وعلى إدراك ذوات العلل الأولى، وجواهرها. ولو أن الإنسانية كانت مقضيًا عليها بانقطاع الوجود، لاختفت من فوق سطح الأرض وهي تجهل «المادية» العالم، والحياة والأجسام التي ارتدتها. إن العقل بوصف أنه آلة للعمل الفكرى، هو ثروتنا الجد نفيسة، ولكنه من حيث إنه يريد فهم القيم الفوق الطبيعية، هو رب الخطأ إنه متناسب مع الوقائع التي يمكن إدراكه إياها، ولاشيء غيرها.

وإذن فمعرفتنا يجب أن تكون سطحية لكي تكون حقيقة، إنها لاتستطيع أن تعرف من هو الإله، ولكنها تستطيع أن تعرف أنه يوجد إله. إنها تشعر في الواقع، بقانون طبيعي بجزم وجوده بنفسه في خارج نفوسنا.

من ذلك تأتى عبارة جديدة ليست أقل حسما، ولاأقل تحملاً بالنتائج وهي: «أن الطبيعة والحقيقة هماهما في كل مكان، وأن العقل يبرزهما في كل مكان متماثلين». إن العقل يثبت لنا نظامًا في الوقائع، وهذا النظام هو ضمان الحقيقة، وهو أيضًا ضمانٍ وجود الإله. إنه لايمكن افتراض خلق منظم بلا عقل أراد هذا النظام، وهذه الملاحظة تكفى لحاجة حياتنا الأخلاقية، ففي الواقع هي تقتادنا إلى أن ترد إلى الإله مايجب له علينا. ومطابقة للعواطف التي تحملها فينا ولصالحنا، وهي تلزمنا بأن نعامل الغير كما نود أن نعامل كون بولينبروك لنفسه منذ شبابه، هذه العقيدة، وقد أنضجها أثناء متفاه. ورغم أنه تجرد من الإيمان فقد نبذ الإلحاد الذي عرضه عليه ليڤيك دي پويي، وهو عالم فرنسي. وقد وصل إلى الفلسفة المتوسطة التي سيتولى پوپ نشرها الآن.

* * *

ظهرت الرسالة الأولى من كتاب «محاولة على الإنسان» في فبراير من سنة ١٧٣٣، وظهرت الثانية والثالثة أثناء السنة نفسها. وكانت هذه الرسائل بلا إمضاء، لأن پوب لم يكن مستيقنًا من نجاحه.

أما الرسالة الرابعة فهي موقعة هذه المرة باسمه، وتاريخها هو يناير من سنة ١٧٣٤ .

كان هذا الكتاب اعترافًا ساطعًا بعقيدة مؤلفه. وفيه صارت التأليهية للمرة الأولى شعرًا، إذ خرجت من معقل الفلاسفة واتجهت نحو الجمهور مزدانة بالجمال. كانت «محاولة على الإنسان» مكتوبة بلغة نقية إلى حد أن قبلتها انجلترا على أنها إنتاج رئيسي، وقبلها الأجانب كذلك، وشرعوا في ترجمتها. ولم يكن يتوقف عن ذلك. وعندما كانت تظهر ترجمة شعرية أو نثرية، أو محاكاة أو شرح مسهب، كان تأويل اخر يتقدم ليحاول نفس المشروع، ففي سنة ١٧٦٢؛ نشر مجلد قدم ترجمة في عدة لغات، وقد أعيد نشر هذا المجلد عدة مرات. وذلك حظ نادر. ولاجرم أن شعبية «محاولة على الإنسان»، قد دامت إلى نهاية القرن، وإلى ماوراء ذلك أيضًا.

إنها كانت إقرارًا بالدين الجديد، وإن الرأى العام لم ينخدع، فمنذ سنة ١٧٣٧. هب جان- پيردي كروزا «Jean-Pierre de Crousaz» - وهو راع من راعاة لوزان لم يكن بلا شهرة في بلده وخارج بلده، فخصص كتابًا كاملاً لنقضها. وزاد ذلك النقض جدية بكتاب آخر ضد أحد الشراح الفرنسيين للمحاولة. وهو الأب دور ينيل. ومجمل هذا النقض: أن پوپ كان مخطئًا في أن يساهم في تفاؤل ليبنيز، وأنه تبع مذهب الجبرية، وأنه كان من قبيلة الكفار، وقد يكون ذلك دون أن يفطن إليه تمامًا. ولكن واربورتون الجامح الذي كان أول الأمر يسيء معاملة مواطنه، قد تحمس له، عندما رآه يهاجم، وصار محاميه العنيد، ثم نقض نقض كروزا.

مسكين لويس راسين[1]. «Louis Racine» ذلك الذي ورث أحد الأسماء المتطرفة في العظمة، إنه كان مفعمًا بحسن النية، ولم يكن ينقصه سوى العبقرية.

(١) لويس راسين هو ابن چان راسين شاعر فرنسا المأساوي الأعظم الذي كان أحد مخلدى الشعر التمثيلي في القرن السابع عشر. (المترجم)

ولما كان مسيحيًا جدو في ، فقد كان يرى تقدم عدم الإيمان، ويريد أن يعارض هذا السيل، وكان يستلهم من بوسوية، وباسكال، فبالشعر كان يعرض مذهب الإغاثة الربانية، وبالشعر كان يدافع عن العقيدة. وبقصيدته عن «الدين» التي نشرها في سنة ١٧٤٢ ، عين بعض المسؤلين وكشف النقاب عن كتاب «محاولة على الإنسان»، بل شرف پوپ بأن خصص له رسالتين. وكان يشرح لجان- باتيست روسو « Jean-Baptiste Rousseau» الذي كان يحبذ آراءه من هولاندا، أنه لم يسعد بأن يستطيع أن يطالع في اللغة الأصلية، مؤلفات السيد پوپ أعظم شعراء انجلترا. هكذا لم يكن يزعم أنه يهاجم عواطفه الحقيقية التي لم يكن متأكداً منها، ولكنه كان يهاجم العواطف التي صارت مشتركة منذ قراءة «محاولته» التي أحسن أو أسى فهمها.

لم يكن شعر لويس راسين جيداً. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقدر ويعاد نشره ويترجم.

كان الفارس دي رامسبه- وهو الذي اهتدى سابقًا بوساطة فينيلون- يتولى الدفاع عن «هوميروس الإنجليز» فيقول إن مشروع پوپ كان فقط إبراز أن كل شيء- ابتداء من الطبيعة المتدهورة- هو مقدر بالوزن والقياس والانسجام بالنسبة إلى حالة كائن قد هوى، وهو يتألم، ويستحق أن يتألم، وهو لايستطيع أن يقيم نفسه من جديد. ولما كان الأب ج. ب جوتييه چانسينيا، فقد كان ضد پوپ الذي كان يدعوه تلميذ اسبينوزا، أما الأب، تورنيمين، فإنه كان من أشياع «المحاولة» وكان يقول إنها تؤذي فقط العقول الفاسدة التي تحول كل شيء إلى سم. وبالإجمال كانت تلك معركة حامية، وقد دامت زمنًا طويلاً.

كان پوپ يتألم كما هو مفهوم. ولما كان مضطربًا بسبب كل هذا الضجيج، فقد شكر في حرارة، وربورتون على أن دافع عنه ورجارامسيه أن يتدخل، وكتب إلى لويس راسين ليشرح أفكاره. ومجمل هذا الشرح هو أن مبادئه هي متعارضة على وجه الإطلاق مع مبادئ اسبينوزا، بل مع مبادئ ليبنز. بينما كان يراها

متطابقة مع مبادئ السيد باسكال، والسيد رئيس أساقفة كامبريه أي السيد فينيلون، بل إنه، لكي يقدم برهانًا ساطعًا على حسن نيته، قد نشر نشيدًا عنوانه «الصلاة العامة» (١٧٣٨) منه سيتبين الحاملون عليه، أنه كان وفيًا لروح الإنجيل.

ولكنه كان يخفق في مشروع التهدئة لأن الإله الذي كان يدعوه، إذا كان هو أبا كل شيء، وأنه قد وجد قبل الخلق، فإنه أيضًا كان هو الإله الذي عبده القديسون والمتوحشون والحكماء، بلا فارق، وإن اسمه كان في الوقت ذاته چيوڤا، وچوبيتير، ومولانا المسيح.

وهكذا لم يزد على أنه أثار العقول أكثر من ذي قبل، وقد أطلقوا على نشيده اسم «صلاة المؤله».

وكان كتابه اعترافًا بالعقيدة. كان صلاة، وكان القارئ يعثر فيه على كل تعاليم بولينبروك تقريبًا، ولكن كم كان المجموع متباينًا وعلى الأخص في اللهجة. وكما كانت الفكرة ذاتها غير يقينية، ومضطربة!

لاتزال «محاولة على الإنسان» تؤثر فينا رغم تغير ذوقنا، لأننا نشعر فيها بحساسية مرتعدة، وهي حساسية نفس لم ترض نهائيًا عن القواعد التي يمليها العقل.

وعلى أثر قولها لنفسها إنها مقتنعة، تكون في حاجة إلى الاقتناع من جديد.

يتجه پوپ إلى محادث يود بأي ثمن أن يكسبه، وأن يستجوبه، وأن يؤنبه، وأن يسخط عليه حين يلفيه معاندًا. وفي الحق أن هذا الخصم الذي لايتولى الكلام ألبته والذي يشعر القارئ بوجوده من أحد طرفي الكتاب إلى الآخر، لم يكن سوى الشاعر نفسه، أو لم يكن سوى ذلك الجزء من وجدانه الذي يأتي أو يفر.

إننا متأثرون بهذه التناقضات، وبهذا اليأس الذي يأتي ليحدث اضطرابًا في أمن هو دائمًا مجزوم به ولايدرك ألبته. إن العبارات التي تعاد غالبًا، هي في وضوح مطلق. إنها تحوي، في سلسلة من الشعر، أو بيت واحد، بديهيات لايمكن التعبير عنها بعبارات أشد قوة، وأعظم انسجامًا. ومن الممكن ألا يكون في

العالم شعر تعليمي ينتقش في الذاكرات بصورة أكثر يسراً، ومن ذلك مثلاً: «الإنسان يجب أن يقبل، الإنسان يجب أن يكتفي. الإنسان هو في منزلته الدقيقة من الكون. الإنسان يجب أن يقر بعقل أسمى من عقله سمواً لايتناهى، وبأنه يجيد معرفة مايعرف، وبأنه يجيد عمل مايعمل. الإنسان يجب أن يؤمن بوجود كائن أعلى لايمكن أن يكون قد نظم العالم لغاية أخرى غير الخير العام. إن كل جزئية من جزئيات المذهب تجد صورة نهائية للتعبير عنها، وإن هذا الحزم في الصورة يؤلف تعارضاً غريباً مع التذبذبات، والترددات، والارتيابات، وأنواع الدعاء، وألوان الرفض.

إنها تأليهية شعرية، تأليهية في حالة التكوين. فقد أراد پوپ أن يسبح بين أطراف المذاهب المتعارضة في الظاهر ... وأن يؤلف- مستعيراً منها جميعها- مذهباً أخلاقياً يكون معتدلا دون أن يكون غير صلب، وقصيراً دون أن يكون غير كامل. ولكنه خليط غير صلب، ذلك الذي نجح في أنتاجه، لأن النقد قد استشف عنده بحق، وثنية، وحلولية، وجبرية، وكاثوليكية، لأنه كان يتحدث عن حالة الطبيعة التي كانت في أصلها سعيدة تماماً، والتي فسدت، وذلك مايجعلنا نفترض الإيمان بالخطيئه العنصرية. وفي هذا يعلن نوماس دوكانسيه: «أن ذلك هو تحقيق الفوضى» ويصرح تين «Taine» بأنه «مزيج من فلسفات متناقضة» ويصفه لويس كازاميان «Louis Cazamian» بأن «أقوى بحوثه الفلسفية- وهو «محاولة على الإنسان» - مصنوع من مطروقات مجدة مزدانة بإلهامات عصرية ...».

إنها لتأليهية غير نقية، تأليهية كانت تقطن فيها بضعة من عناصر المعرفة السيكولوجية التي كان يراد بالضبط إقصاؤها. إنها كانت مجهود إرادة، أكثر منها يقيناً عقلياً، وكانت قبولاً للسر.

# الفصل الثاني

## المذاهب التأليهية

## فولتير Voltaite

لولم يكن ڤولتير قد وجد، هل كان القرن الثامن عشر سيكون له ذات المميز الذي كان؟

إنه قد وضع على التأليهية طابعة الذي لاينمحى. إنه هو الذي كيفه على الصورة الجديدة، أو إذا أريد استعمال مجاز آخر، إنه هو الذي صفى الشراب. وعندما انتهى عمله كانت خلاصة نقية وشفافة هي التي بقيت فقط. وإذا أريد التدليل على هذا، فإنه ينبغي استعادة قراءة ذلك الكتاب الذي كان إحدى خلاصات التأليهية الإنجليزية وعنوانه «دين الطبيعة مرسومًا» تأليف وولاستون. ولاجرم أن الكتاب الذي نشر للمرة الأولى في سنة ١٧٢٢، قد ظفر بنجاح عظيم في نصه الأصلي وفي ترجماته. ومع ذلك فإذا قورن بالمركزات الڤولتيرية فإنه لايبدو إلا إطنابًا وتشويشا، فعنده- بدلا من تلك العروض الطويلة- تظهر بضعة تحقيقات عقلية سريعة، وبضعة تعبيرات بسيطة إلى حد أن يفهمها الطفل ذاته، وعنده تبدو قواعد آمرة تتخذ قوة القانون.

إنه هو الذي ألح على حجة العلل الغائبة، وبوساطته كان الإنسان وفيًا

للموجود الأسمى الذي لم يكتف بأن يضعه في منزلته الدقيقة، بل منحه السرور، وهو في هذا يقول:

«أيها الفانــون تعالوا إليه، ولكن عن طريق عرفان الجميل. إن الطبيعة المعتنية بتحقيق رغباتنا، تدعوكم إلى هذا الإله عن طريق السرور. وإنه لايوجد أحد حتى الآن قد أطـرى خيريته كلها. إنه بالحركة وحدها يقتاد المادة، ولكنه بالابتهاج يقتاد البشر [١] .»

إنه هو الذي حدد مواطن الرفض إذ يقول: لنؤمن بالإله، ولكن لنرفض أن نتحدث عن طبيعة، ونرفض أن نتحدث عن كيفية أفعاله. وهو يضرب لهذا مثلاً بصرصار يلقي نفسه أمام قصر إمبراطوري فيتعرف بأن هذه البناية من عمل كائن أعظم قدرة من الصراصير، ومع ذلك فهو ليس مجنوناً إلى حد أن يقول كلمته عن ذلك الكائن [٢]، فلنحاك هذه الحكمة، وفي هذا يقول:

«سواء أكان موجود غير معرف- وهو موجود بذاته- قد انتزع، منذ قليل من الزمن، الكون من العدم، أم نظم المادة الأزلية التي تسبح في ذاته، أو التي هو يدبر بعيداً عنها، وسواء أكانت النفس- وهي ذلك المشعل المظلم غالبًا- هي إحدى حواسنا، أم هي توجد بغيرها، فإنكم تحت يد هذا الموجود غير المرئي [٣] ...)

وإذن فسيحظر المرء على نفسه، تحكيم العقل في النفس، وفيما وراء هذا العلم، إذ ماذا نعرف عن ذلك؟ فكل مرة يريد فيها المرء الجزم، يلاحظ نفس العجز، المعترف به كأنه واقعة أولية.

إنه هو الذي عبر عن المادة الاعتقادية، كريدو «Credo» من المذهب وإن صفحة واحـدة تكفي لاحتوائه في القاموس الفلسفي» في مادة المؤله»، على النحو التالي:

---

(١) Cinquiéme discours sur l' homme, 1639

(٢) Voltaire, Catéchime chinois, dans le dictionnaire philosophique, 1764

(٣) Id., poéme sur la loi naturelle, 1756. Début prmiére partie

«المؤله هو إنسان مقتنع بوجود الكائن الأسمى الذي هو خير كما هو قادر، والذي كون كل الكائنات المتمددة والنامية والحساسة والناطقة، والذي يديم أنواعها، والذي يعاقب الجرائم بلا قسوة، ويثبت الأفعال الفاضلة بخيرية. لايعرف المؤله كيف يعاقب الإله ولاكيف يمنح الحظوة، ولاكيف يصفح، لأنه ليس متهوراً ليتباهى بمعرفة كيف يعمل الإله. ولكنه يعرف أن الإله يعمل، وأنه عادل. إن الصعوبات التي تنتصب ضد وجود العناية، لاتهزه في عقيدته، لأنها ليست سوى صعوبات كبرى، وليست براهين. إنه خاضع لهذه العناية لايلمح منها إلا بضع نتائج، وبضعة ظواهر. وبما أنه يحكم على الأشياء التي لايراها حسب الأشياء التي يراها. فإنه يعتقد أن تلك العناية تمتد في جميع الأمكنة وجميع القرون.

ولما كان متحداً بهذا المبدأ مع بقية الكون، فإنه لايكون عضواً في أية شيعة من الشيع التي تتناقض كلها. ودينه أقدم الأديان وأكثرها اتساعًا لأن العبادة البسيطة لإله ما، قد سبقت جميع مذاهب العالم، وهو يتكلم بلغة تفهمها جميع الشعوب، في الوقت التي لاتتفاهم فيه فيما بينها. وله وإخوة من پيكين إلى كايين، وهو يعد جميع الحكماء إخوة له. إنه يؤمن بأن الدين لاينحصر في آراء ميتافيزيقية غير قابلة للتعقل، ولا في أجهزة عابثة بل ينحصر في العبادة والعدالة. إن عمل الخير هو عبادته، وإن الخضوع للإله هو مذهبه. إن المسلم يقول له: «ويل لك إذا لم تؤد فريضة الحج في مكة» والقسيس يقول له: «ويل لك إذا لم تقم برحلة إلى سيدتنا اللوريتية»، فيضحك من لوريت ومكة، ولكنه يعين المحتاج، ويدافع عن المظلوم».

إن ڤولتير هو الذي منح مذهب التأليهية معونة فنه، حين شرحه بالتصوير فقال متجهًا إلى المؤله: إذا كنت تقول إنك ترفض كل تأليهية مشخصة فسيكون حظك قليلاً في أن تفهم من كافة القراء، ولكنك ستسليهم بكتابتك مايلى: «ينبغي أن أقص عليكم ماحدث لى ذات يوم. كنت قد انتهيت حديثا من بناء حجرة صغيرة

في طرف من أطراف حديقتي، وإذ ذاك سمعت «أبا حفار» يتجادل مع الخنفساء، فيقول الأول: «هاهى ذى صناعة جيدة، فلا بد من أن يكون «أبو حفار» قوى، وهو الذي أوجد هذا العمل»، فأجابت الخنفساء قائلة: «إنك تسخر، وإنما خنفساء مليئة بالعبقرية، هي منشئة هذا البناء» ومنذ ذلك الوقت صممت على ألا أناقش ألبته [(١)]». وإذا كنت تقول إن مذهب التأليهية له في رأيك، قيمة عالمية، فإنك ستبقى في محيط التجرد، ولكنك ستكون واقعيًا ومفهومًا لو كتبت مايلى: «لقد استشرت جميع النصوص التي بها يثبت المؤلفون في وضوح، أن كل الذين لم يقيموا في حي السوربون، كالصينيين مثلاً والهنود، والإغريق والرومان، والجيرمان، والإفريقيين، والأمريكيين، والبيض، والسود، والصفر، والحمر، وذوى الرؤوس العِهْنِيَّة، والرؤوس ذوات الشعر، وذوي الأذقان الملتحية وغير الملتحية، هم جميعهم مقضى عليهم بالشقاء الأبدى دون رحمة. كم أن هذا عدل؟ وأنه لاتوجد إلانفس قاسية وبغيضة تلك التي تستطيع أن تظن أن الإله يمكن أن يكون لديه إشفاق على هؤلاء القوم [(٢)]».

إنه هو الذي من بين الجميع، قد صنع من الحقيقة مرادفًا للوضوح. إنه كان فيلسوفًا من حيثيةأن فنه كان متشعبًا بالفكر، ومن حيثية إنه كان يتساءل بلا انقطاع: «ماهي الروح، والمكان، والمادة، والأزلية، والزمان والنور؟ وتلك أسئلة غريبة [(٣)].

كان فيلسوفًا من حيثية إنه لم تكن توجد فلسفة بعيدة أو قريبة. قديمة أو حديثة، لم تستثر رغبته في الإطلاع، ولم تبد له جديرة بالانتباه. ولكن إذا كان المراد من كلمة الفلاسفة، أولئك الجرآء الذين يتجاسرون على أن يصنعوا من فروضهم خلقًا متوازيًا مع خلق الكون. أولئك الذين يحاولون أن ينحوا سجننا

---

(١) Dictionnaire philosophique,1764,article: Dieu

(٢) Seconde anecdote sur Bélisaire, 1767

(٣) Deuxiéme discours sur I, homme, 1789

نوافذ مطلة على المجهول، وعلى مالم تسمعه أذن، أولئك الذين يعرضون عليه شرحًا تامًا للسر، إذا كان المراد هم هؤلاء، فإن ڤولتير لاينتسب إلى تلك القبيلة. إن الذي نطق على أوضح الصور برفض الميتافيزيقي، هو دائمًا هو. إنه اقترب من اسبينوزا ثم تقهقر قائلا له:

ياباروخ اسبيتوزا، إني أعرف أنك قضيت حياة مثالية، مهما يقل المشهرون بك. أعرف تمامًا أنك لم تكن ملحدًا بالمعنى الفظ الذي يعزى عادة إلى هذه الكلمة. أعرف تمامًا أن لك تحليقات تسبب الدوار، ومع ذلك فإني أرفض أن أتبعك، وأني أنكرك لأنك لست واضحًا. وأنت ياليبنيز، إني أعرف تمامًا أنك كنت عبقريًا، وأعرف تمامًا أنك نقبت في كل مكان عن الانسجام، وأنك رأيت في كل مكان الاستمرار، وأنك لم تخش مهاجمة الشر نفسه لكى تشرحه. ولكني لا أحبك، بل إني أقول إنك مضحك قليلاً، ودجال بعض الشيء، وإنك لم تكن تفهم نفسك. إنني أسخر منك لأنك تحدثت عن المشاعر الغامضة، ولأن «مونادك» ليست واضحة. وأنت ياڤولف، إنك منتفخ ومطنب وسميك. وإني أرفض أن أعتبرك- ولو أن الأمير وارث عرش بروسيا يكن لك شيئًا من الاحترام- لأنك لست واضحًا. ولكن لوك بسيط وواضح، وإنني أمسك نفسي عند حكمة لوك..

إنه كان يذهب بعيداً في هذا الاتجاه إلى حد أنه لم يعد متسقًا، وكان حسبه أن تكون كل جزئية من مجموعته شفافة، ولم تكن تتفق تمامًا مع الجزئيات المجاورة. ولما كان لوكيا، فإنه كان يجزم بأنه لايوجد شيء فطري في نفوسنا. اللهم إلا أن يكون فيها مع ذلك استعدادات فطرية، وذلك مايعيد كل شيء إلى بساط البحث. إنه كان يؤمن إيمانًا جازمًا بقوة القاعدة الأخلاقية، ولكنه بقدر ما كان يتقدم في تأمله، كان يقينه بالحرية يقل، ففي الواقع أن الخلقية والجبرية كانتا تبدوان له مبدأين واضحين على التساوى، وإذا كانتا تتفقان سيئًا، فلا حيلة. حقًا إن الإله المجهول الذي وضع ڤولتير فيه ثقته، كان يحب أن يثيب الأخيار، ويعاقب الأشرار، ولكنه كان يرتاب في وجود حياة أخرى يثاب فيها الأخيار ويعاقب الأشرار وعنده أن الحق الوحيد هو الواقعة التي يجردها التحليل لكي لايدع لها

طابعًا آخر غير الوضوح بحيث إن «الخليط من الأفكار الواضحة» هو أحد التعريفات الأكثر ضبطًا والتي وضعت لمجموع أفكاره.

وكما كان يشعر بضيق عندما كان يصل إلى جوار المبهم، وغير القابل للإدراك واللاشعور، كذلك كان يجهل التطورات، ودوافع الزمن الغامضة ومجهود الصيرورة. وعنده أن القابل للتعقل هو المحدد كتحدد اللغات. وتحدد الأنواع، وتحدد الطبيعة. وأن العقل محدد، وأنه لم يكن له قط صورة أخرى غير الصورة التي منحه إياها معاصروه، وهو نفسه، ولن يكون له أبدًا صورة أخرى، وأن الحاضر كان يوضح الماضي. ولاجرم أنه إذا كان هناك لغتان غير ملتئمتين، فإنهما لغة ڤيكو، « Vico» ولغة ڤولتير.

إن هو الذي انتزع من التأليهية الطابع الأرستقراطي، بل الإرتيابي الذي طبعها به بولنبروك، والطابع الشعرى الذي خلعه عليها پوپ، وقد أراد ڤولتير بهذا أن يمزجها بالحياة والعمل. إنه لم ينخدع بوهم في شأن الحياة، بل إنه طالما نظر إليها بعين العاطفة المؤلمة التي تصور نقصها، فيسأل قائلاً: ماهي السعادة؟ « Quid est felicitas » . الأعداء يحملون عليك في إصرار، والأصدقاء يغدرون بك، والنساء اللواتي تحبهن، يخنك، أو يمتن. والتاريخ البشرى فظيع إذا نظرت فيه، وإذا جمع المرء بضع جمل مما كان مؤلف «محاولة على الأخلاق» قد استعمله ليصور به ذلك التاريخ، فإنه يظفر بعريضة اتهام: مذابح في الشرق، ومذابح في العالم الجديد، حروب من كل نوع، ومن بين أشأم هذه الحروب، الحروب الدينية. «وإليك بعض تلك الجمل، هل هو تاريخ الثعابين والنمور ذلك الذي كتبته آنفًا؟ كلا إنه تاريخ الأناسى، لأن النمور والثعابين، لاتعامل نوعها على هذا النحو ... قد وجدت أوقات لم تكن فيها الأرض سوى مسرح للمجزرة، وتلك الأوقات مفرطة في الكثرة ... إن تاريخ كبريات حوادث هذا العالم، ليس سوى تاريخ الجرائم ... كانت الحالة البشرية مؤسفة إلى حد أن أسمى الأدوية، قد تحولت إلى سم».

ماهي العدالة؟ « Quid est justitia» إن المجرمين يكافأون، والعادلين

يألمون، وإن الشبـان والأطفـال يموتـون دون أن يستطيع أحد أن يقـول لماذا. توجـد أضحوكة في فقدان التناسب بين النتائج والأسباب: أغرورة الأغارير، كل شيء غرور.

ماهي الحقيقة؟ «Quid est Veritas» جهل أبدى. إن حدود عقلنا هي عند نهاية أنفنا. إن الأنهار لاتتجه نحو البحر، بمقدار من السرعة يوازى إسراع الأناسى نحو الأخطاء. قال پيلات المسيح، ماهي الحقيقة؟ وعلى أثر قوله هذا خرج. ومن المحزن للنوع البشرى، أن پيلات قد خرج دون أن ينتظر الإجابة، لأننا حينئذ كنا سنعرف ماهي الحقيقة (١)». حقًا إن أيقن مابين أيقن الأمور هو الارتياب، غاية مافي الأمر أن الريب محزنه. وبالاختصار لو أن الطبيعة لم تنمح ڤولتير ترياقين بديعين وهما حب العمل والمرح، لمات من اليأس منذ زمن بعيد.

ولكن ما دمنا لانستطيع تغيير شيء من الآلام التي لسنا مسئولين عنها، فلنلطف على الأقل الآلام التي نصنعها نحن أنفسنا، ولندافع عن أنفسنا بالحكمة والاعتدال، ولنستفد، بهيئة أكثر تنبها، من الخيرات التي قدمت إلينا، أي كمالات المدينة، واستقلال العقل. وهنا يتدخل ڤولتير بصورة مباشرة، في توجيه الحياة، وذلك مالم يعمله أسلافه إلا قليلاً. ففي الواقع هو يكافح في الوقت ذاته، في سبيل مبادئه العامة، وفي سبيل تطبيقاتها العملية التي بمناسبتها تعرض مسألة نتيجتها وقيمتها. وهو يعتبر أنه لم يؤد مهمته إذا لم يعمل على أن يظفر بأفضل إنتاج في الثروات، وبأقل الإدارات سوءاً، وبأكثر القوانين عدالة، وإذا لم ينقذ التعساء الذين قضى عليهم ظلما، أو إذا لم يرد الاعتبار إلى ذكراهم. إنه يستعمل ترياقًا ثالثًا وهو العمل.

* * *

إنه هو الذي أراد أن يجـابه باسكال (٢) «Pascal». ولم يكن ذلك منه

---

(١) Questions sur I' Encyclopédie, article Véité, 1778

(٢) Lettres Philosophiques, 1734. Lettre 25. Remaques sur les Pensées deM. Pascal..

(٣) - Adam Smith, cite pascal pari "those mélancholy moralists, who are perpetually reproaching us with our Happiness." The theory of moral sentiments, 1759.

لم يكن باسكال قد مات من الضربات التي صوبت إليه، وإنما كان ڤولتير يود أن يقتل باسكال، وأن يصنع بذلك مجده. كان سيتحداه في ميدان معين، وكانت أوروبا ستكون هي النظارة وهي الحكم. كان سيُحْضِرُ باسكال إلى ذلك الميدان، وكان سيهزمه ويجهز عليه إذ يقول: «هلم، هلم يا بسكال دعني أفعل!».

كان يعرف أن باسكال كان عظيماً هذا أفضل، إذ أنه بمقلاعه سيلقى بجالوت على الأرض (١).

إنه يدنو، إنه يقفز، إنه يثب إنه يحاول عبثاً أن يكبح هوى سينتقل إلى السباب بعد احترام ظاهري. ولكي يبتدئ، يُكْرِهُ نفسه على أن يتحدث في لين: إذ يود أن يسمح لنفسه فقط بأن يهذب بعض «الفكر» لأنها كانت قد تركت في حالة من حالات النقص. وعلى هذا النحو سيؤدي خدمة للمؤلف، بل سيؤدي خدمة للدين بإصلاح تلك الفكر، ولكنه لم يكن قادراً على الاحتفاظ بتلك الخطة، وكانت كل حجة من تلك الحجج التي يأتي بها تجعله يرتعد، وتثير غضبه، ولا يلبث هدوؤه الظاهري أن ينتهي، فيناقض باسكال كلمة كلمة، كأن يقول باسكال مثلاً: هذا ضد كل نظام فيرد ڤولتير قائلاً: هذا تابع للنظام كله. و، يقول باسكال: يا له من مشروع أحمق، ذلك الذي اتخذه مونتيني ليرسم نفسه، ويجيب ڤولتير ياله من مشروع ساحر ذلك الذي اتخذه مونتيني ليصور نفسه في سذاجة كما فعل. إنه يستجوب خصمه قائلاً: كيف أن رجلاً مثل السيد باسكال كان يستطيع أن يقبل عبارة لاكتها الألسنة، فوق أنها زائفة كهذه العبارة؟. إنه يهاجم أسلوبه فيصفه بالخلط واللبس. وأخيراً يصل إلى أفكاره فيقول: إن هذه الفكرة هي غير معقولة بقدر ما هي ميتافيزيقية، وهذه الأخرى يشوبها شيء من عدم الاحتشام والسذاجة،

(١) -جالوت هو أحد عمالقة التاريخ القديم، وتحدثنا التوراة أن داوود، وكان لا يزال صبياً، هو الذي قتل جالوت بمقلاعه، فكان هذا الحادث- لبعد الفارق بين القاتل والمقتول في القوة والعظمة- مضرب المثل لكل صغير يقهر عظيماً. (المترجم)

وهي الأخرى أيضًا صادرة عن متعصب. قال باسكال: إن الإنسان ليس مَلَكًا ولا حيوانًا، وإن الشقاء هو أن من يريد أن يكون ملكا، يكون حيوانًا. وڤولتير يقول: إن من يريد أن ينقص الأهواء من أن ينظمها، يريد أن يكون ملكًا، وبهذا يدع ساخراً، قراءه يفهمون أن باسكال يصير حيوانًا.

وهكذا يأخذ طابع التعارض الذي لا يقبل الانكماش، يتكشف شيئًا فشيئًا. فمن جانب هذه «الأفكار» التي لا تزال تحمل آثار القلق والانزعاج اللذين أنشئت فيهما تلك الشذرات التي تدين بعمقها لتجربة بشرية مؤلفة من الحياة الداعرة، فالقلق، فالبحث، فالمرض فالهدايا، فالعلم والثقافة الواسعة اللذين أتيا لمعونة العقيدة. وكذلك الابتهاج الذي قد وجد في النهاية، والذي يثب في ثقة نحو المسيح ذي الذراعين الضيقتين، والذي يملك منذ الآن اليقينيات الأزلية. فمن جانب، ذلك العهد بالإيمان الذي يعرض على إخوته الحل الذي قدمته التجربة المؤلمة المنتصرة، إلى نفسه المجررة من الريب. من جانب، ذلك الرجل الذي زاول من جديد، حشرجة جبل الزيتون، والذي تسلق منعرج الجلجلة. من جانب، شر ديني للعالم أي البأساء التي فينا، والموت الذي يدعونا نحن السجناء الذين يخرجون من محابسهم ليذبحوا كل في دوره، والخطيئة العنصرية التي تفسدنا، وما نحن فيه من استحالة الشفاء بل استحالة تخفيف هذا الفساد الذي هو في أعماق كياننا، والذي لا يترك لنا وسيلة أخرى إلا أن يحول رؤوسنا، وأن يلهبنا لكي ننسى. إن عظمتنا قد صنعت من تذكر ورغبة.

إن الشرح الوحيد الذي يسمح لنا بأن نحل هذا التناقض وأن نوضح ذلك السر، هو الدين المسيحي، إن حالتنا السعيدة حين خرجنا من يدي الإله، وحرية الاختيار التي منحناها، واختيار الخطيئة، والفداء. إنه الدين الوحيد الذي يؤكد لنا الحقيقة لأنه ينظر في جميع عناصر المشكلة. ولأنه يدلل على وجوده في الوقت ذاته بالعقل والشهود. وأخيراً إنه تأيد بالنبوات وبالمعجزات. إنه مجموعة ترتبط كل أجزائها وحل يرد إلى مضيرنا معناه.

ولقد رد من الجانب المقابل، ذلك الخصم الذي أوجد نفسه. فقال: تلك كلها أخيلة «العضو سام من أعضاء البشرية». إذ أن عاطفة الخطيئة ليست سوى وهم بين الأوهام الأخر. نعم إننا نتألم أحيانًا ولكن هذا القانون ليس ذا سلطان إلى حد أنه لا يستطاع الوصول إلى تلطيفه. وإن حب الذات قد أعطى لنا للاحتفاظ بكياننا، وإن مسرات جديرة بالمحبة تنتظرنا. فهل باريس ولندن تانك المدينتان الثريتان المتمدينتان تشبهان سجنًا انفراديًا، أو جزيرة قاحلة؟ إنه لا يوجد أي لغز، وإن الإنسان هو في منزلته الدقيقة من نظام الخلق، وإنه لا يكون فاقد العقل إلا حين يحاول الخروج عن هذا النظام. إنه يجب أن يقبل حالته على أنها واقعة، فإن الحكيم لا يشنق نفسه لأنه لا يعرف كيف يرى المرء الإله وجهًا لوجه، ولأنه لا يستطيع شرح الثالوث، وينبغي للمرء مثل هذا القدر من اليأس، لأنه ليس له أربع أرجل وجناحان. إنه لا توجد غريزة خفية باقية من عظمة طبيعتنا الأولى، تحملنا على التنقيب عن التسلية، ولكن بالحري توجد غريزة غير خفية تدفعنا إلى السير نحو الأناسي الآخرين، وإلى تأسيس مجتمع معهم. وهكذا لا توجد أية حاجة إلى تخيل تدهور أو سقوط، اللهم إلا أن تكون مصائب جواد المركبة، تثبت أن الجياد كانت كلها فيما مضى بدينة وسمينة، وأنها لم تكن تتلقى ألبتة ضربات السياط، ولكن منذ أن خطر لأحدها أن يفرط في أكل الشعير، قد قضى على نسله بأن يقتاد المركبات. إنه لايوجد رهان يخشى أن ينتهي بنا إلى فقدان كل شيء بحجة أننا لانريد إلا المطلق. وما هو المطلق؟ إنه لا يوجد إلا النسبي. وإذا وجد رهان، فإن بضعة مختارين هم وحدهم الذين سيجدون فوائد، وإذا لم يكن الإله قد أتى إلا لعدد صغير من الأشخاص، فإن من الخير ألا يؤمن الناس بالإله. لا جرم أنه أعظم من إله المسيحيين، ذلك الإله المنزه عن الغضب، والذي يعبده الكون، والذي يدرك بوساطة تمرن العقل. إنه لا يوجد في الرأس المتزن مكان للشهود والانجذاب. إنه من غير المعقول القول بأن للقلب أسبابًا لا يعرفها العقل، فذلك تناقض في العبارات. إنه لا توجد تقاليد مالم تكن تقاليد شعب فظ غبي، ولا توجد نبوءات ولا معجزات ألبتة. وإذ كنا أقوياء بهذه الاعتقادات - وهي الاعتقادات الوحيدة

التي يسمح لنا بها المقياس الدقيق للقوى المحدودة لعقلنا ولحقائق وجودنا- فإننا نفهم المعنى الحقيقي لوجودنا.

ومنذ ذلك الحين، لم يعد يوجد فرار ممكن. وكان ينبغي أن يعرف المرء إلى أية أسرتي الروح يود الانتساب، وكان ينبغي له أن يختار بين تأويلين من تأويلات الحياة. ومادام أنه كان هناك نور، فقد كانت الأنوار الطبيعية مع ڤولتير، والفوق الطبيعية مع باسكال.

* * *

كان يبدو أنه شاب بصورة أبدية. إذ كان- وهو في السبعين بل في الثمانين من عمره- يثب وثوب الطفل ولو أنه كان على حافة القبر؛ وهو في هذا يقول: «إنني مرن كحية الماء، ونشيط كالوزغ، وأعمل دائمًا كأنني سنجاب [1]. وكذلك ظل مرنًا ونشيطًا واستمرت العجلة في الدوران [2]. وفي الظاهر كان نحيلاً كالهيكل، ودميمًا كالخطيئة»، ولكنه لم يكن قد فقد شيئًا من حركة نفسه النارية. وهو يصور هذا فيقول: «كان السيد بيجال يجب أن يأتي لينحت صورة وجهي، ولكن كان يلزم أن يكون لي وجه، وكان تبين وجهي يوشك أن يكون تنبؤًا بمكانه، لأن عيني داخلتان فيه ثلاثة إبهامات، وخداي قطعتان من الجلد قديمتان لصقتا على عظام لا ترتبط بشيء والقليل الذي كان لدي من الأسنان قد ذهب.

بيد أنه كان يحتفظ بقوته كمحارب، وبإرادته كرئيس، فكان يوجه الفلاسفة، ويعظهم بالاتحاد، ويعين لهم الخطة. كان مولى ضيعة فيرنيه بكل الامتيازات الإقطاعية المرتبطة بهذه الملكية كحق الضرائب والعدالة، وهو مالم يكن به قليل الاعتزاز. ولكنه كان معتزًا على الأخص بشعوره بأنه أحد أمراء أوروبا، فهو لم يكن يكتب رسالة دون أن تمر من يد إلى يد، ولا صفحة دون أن تعمل

---

(١) - يشير المؤلف هنا إلى ڤولتير كان دائب العمل كالسنجاب الذي يدير من داخل القفص عجلة أبدية الدوران. (المترجم)

(٢) Voltaire au Comte d'Agental' 26 octobre 1739

عملها في العقول، ولا كتاباً دون أن يظفر بالشهرة، وكان يتباهى بأنه قد فاز بالورق الرئيسي في لعبه، إذ أنه كان موقتًا بأنه سيربح لعبته ضد الزمن. وكان كل من يسافر يعتبر أن من واجبه الإتيان إليه لتقديم إجلاله، وكان الآباء يحضرون إليه أبناءهم لكي يستطيع هؤلاء أن يرووا يومًا أنه كان لهم شرف مشاهدة ذلك الرجل العظيم. وإذا كان هناك أحد الناس قد فاته هذا الحج، وإذا كان مثلاً الكونت دي فالكينستين الذي كان يختبئ تحت اسم امبراطور النمسا المقبل جوزيف الثاني، قد مر دون أن يتوقف، فإن فولتير كان يستشيط غضبًا كما لو كان يعتبر ذلك نوعًا من عدم الاحترام. وفي الحق منذا الذي كان أكثر منه يقينا بأنه خالد؟

غاية ما في الأمر أن ظواهر الجحود قد حدثت في عقله. ولقد لاحظ نورمان. توريه [1] بحق، أنه حوالي سنة ١٧٦٠ - قد زاول اختبار وجدانه، فلم تكن النتيجة أنه قد تغير ولكنه قد تصلب. إنه انغلق وتركز، وأبى أن يستمع إلى الدعوة العاطفية التي قذف بها ريتشاردسون. ولم يعد يتبع تحول العقلية الإنجليزية التي كان طليعتها منذ ثلاثين سنة مضت، ولم يعر الحركة الويسلية أدنى التفات، بل إن شيكسبير نفسه قد كف عن أن يكون بربريًا ذا عبقرية، لكي لا يكون سوى بربري فحسب. وإن دانت الذي كان ينظر إليه على أنه مؤلف من مواد فظة، وإن كان الذهب والماس مع ذلك، يتلألآن فيها. لم يعد سوى نوع من أنواع المجانين. وإن الإيطاليين المعاصرين كانوا يبدون له أنهم قد انحصروا في بضعة كتاب ذوي مميزات لديهم من حسن الذوق ما يجعلهم يفكرون مثله، وذلك بيتينيلي "Bettinelli"، وفي بضعة وفي بضعة نقاد أغبياء كانوا قد رزئوا بخطأ نقده كباريتي "Baretti" الذي كان يأخذ عليه تغيره فيما يتعلق بشكسبير. لم يكن يهتم أي اهتمام بمجهود إيطاليا التي كانت تنقب عن الطريق الذي كان يجب أن ينتهي بها إلى البعث، وكذلك يقظة الأدب الألماني قد بقيت غير ملحوظة منه.

وفي الوقت ذاته كانت معارضته للمسيحية، تبرز وتصير فكرة مسيطرة.

(١) Norman L. Torrey, Vcltaire and the English Deists, 1938

كانت هذه العقلية الساحرة، الدقيقة القنوعة كانت تتحول إلى عنف وتطرف عندما كان الأمر يتعلق «بسحق المرذولة» كما كان يدعوها.

وسواء أكان انتصار قضيته النهائي الذي كان يأمل أنه قريب، هو الذي صيره جريئًا ومهتاجًا، أم أن المقاومة العنيدة التي كان لا يزال يشعر بها، هي التي كانت تغضبه، أم أن هذه المقاومة كانت متغلغلة في أعماق نفسه وضد ذاته، بحيث إنه حين كان يعلن في كل مساء أن العدو قد انهزم نهائيًا، كان في كل صباح يشعر بالحاجة إلى أن يبدأ المعركة لكي يهزمه، سواء أكان هذا ذلك، فإنه- إلى حد الغضب المفرط- قد أمعن في الجفوة التي كانت لديه أثناء شبابه، والتي صارت الآن مسيطرة عليه.

من مصنع فيرنيه- وهو أشد إرهابًا من مصانع [1] أمستيردام ولندن وباريس وبرلين- كانت تصدر بلا فتور، تلك اللواذع التي تبدو فيها في الوقت ذاته عبقرية الفنان، وحماسة المتشيع. وكان لا يعبر عن جحوده عشر مرات، ولا مائة مرة، بل تحت ألف صورة مختلفة، بحيث إن الملازمة- وهي الطابع العام للعصر- قد صارت عنده حالة من حالات وجوده، فلم يكن يريد، ولم يعد يستطيع أن يتخلص منها. فالتوراة عنده لا عظمة فيها ولا جمال، والإنجيل لم يأت إلا بالتعاسة على الأرض، والكنيسة كها بلا استثناء، فساد أو جنون، وكل المجاهرين بالعقيدة، متعصبون، وأنقاهم وأنبلهم قد سحبوا في الأوحال، بل إن القديس فرانســوا داسيزنفسه في رأيه، قد انتزعت منه هالة قداسته الوديعة، وصار مخبولاً مسكينًا.

كان ذلك من جانب ڤولتير تبسيطًا كاريكاتوريًا للحقيقة.

كانت إرادة عدم التغلغل إلى بواعث الخصم، وإرادة سدل الستار أو التشويه و الإعادة بلا فتور، هي بعض طرائقه. وعندما يقرأ المرء واحدة أو أخرى من

(١) -يشبه المؤلف قصر فيرنيه، وهو مقر ڤولتير، وكذلك امستيردام ولندن وباريس وبرلين بمصانع تخرج كمية من الهجاءات اللاذعة والمهاجمات القارصة المصوبة إلى المسيحية. (المترجم)

العظات، أو الخطب، أو المحاورات، أو القصص التي كان يقذفها بيد مليئة، خلال العالم، يعجب منه بطريقة يبدو أنها دائمًا أكثر يسراً وشذوذاً هو أشد لذعًا، وأسلوب هو دائمًا أدنى إلى الطبيعي، ولكن حين يقرأ منها عشرة أو عشرين يلمح طريقة سير الدعاية.

إنه مبتدئ هذا النهج الوضيع الذي لا يليق به والذي ينحصر في القول بأنه لا ينبغي الإيمان بإنه قد جاء في الكتب المقدسة أن الشيطان قد نقل المسيح إلى قمة جبل حيث أطلعه على كل ممالك الأرض بينما أنه من المستحيل أن يرى المرء جميع ممالك الأرض من أعلى جبل، أو لأن الكنيسة أيضًا تطلب إلى المؤمنين الامتناع عن اللحوم في أيام الجُمَع. وعند الحاجة كان يصل إلى النذالة، وذلك ما قد يكون التمثيل له ميسوراً لو لم يكن قذراً. وعندما كان يهوى من مرتبته على هذا النحو، كان يبدو غير وفي لذكرى أستاذه بيل الذي أظهر عداءه كذلك للتقاليد والسلطة والعقيدة، ولكنه بقي دائماً مظهر العظمة.

ولقد كان مايلي يقول عنه: «كم اتخذ من صور أشخاص مختلفة ليعلمنا؟ إنه لم يكن يوشك أن يظهر تحت اسمه، فقد كان على التعاقب لاهوتيًا، وفيلسوفًا، وصينيًا، ورائداً لملك بروسيا، وهنديًا، وملحداً، ومؤلهًا. وأي شيء لم يكنه؟ إنه يكتب لجميع العقول حتى العقول التي تتأثر بالتعقل (١)».

الواقع أن سلاحه المفضل هو السخرية، وأنه كان يستعمله بطريقة لا يعادله فيها أحد، ومن الممكن أنه لن يعادله أحد، وأنه كان جد محق في أن يستخدمه ضد المغاليات، وأنه قد انتهى بأن يستخدمه بلا تمييز ضد جميع الأمور، ولم يكن ذلك ضد الأوثان فحسب، بل ضد القيم التي يحط فقدها قدر الإنسانية ويفقرها، وهي الوثبات والتحمسات. ولقد ورث هذه السخرية لجنس أخرى فظ سيسلك عادة الضحك بإزاء مالا يفهم.

---

(١) Du Développement, des progrés et des bornes de laraison, Oeuvres t. 15, p. 7

كان يتخذ مظهراً فوق طبيعي، وكان هو المسيح الدجال كما كان ديديرو يسميه. ولكنه عندما وصل إلى هذه النقطة، كان جزء من أوروبا لم يعد يعتبره، ولم يعد يرى فيه سوى عبقرية الكراهية [1]، ولم يره كذلك فقط أولئك الذين كانوا سيطلبون إلى القلب اللذة التي كان العقل يأباها عليهم، ولا أعداؤه الذين لا يندرجون تحت حصره، ولكن عدداً من أصدقائه قد هجروه في شعور من الفزع، فمن بين المدافعين عن الأنوار، كان جينوفيزي "Génovési" يأخذ عليه أنه أثار بين الأناسي عنفًا هو ضد الحكمة التي يدعو إليها، والتي مؤداها «ليحب بعضكم بعضًا» وكان أليساندرو فيري "Alessandro Verri" يتحدث عن هؤلاء الفلاسفة الفرنسيين الذين لو استطاعوا. لأسوا محاكم تفتيش ضد أولئك الذين ليسوا على آرائهم. وكان نيكولائي، وماندلسون، وأجوست ولهلم، شليجيل، وجوان أجوست إيبيراد "Nicolai, Mendelssohn, Augus Wilhem Schlegel, Johann August Eberhard." يعتبرون أن ڤولتير يخاطر بأن يفسد قضيتهم، وقد انتهى بأن يخيفهم.

* * *

كان دالمبير يحلم ذات يوم أنه يقيم بناية أخرى أمام ذلك البيت العتيق الذي رفع فوقه الصليب، والذي اعتاد الناس أن يلجأوا إليه ضد آلام الحياة. وكان سيظهر فوائد تلك البناية، ويبرز قيمة منطق رسمها والرفهنية التي سيستمتع بها في دُورها، وبعد ذلك كان الاختيار سيبقى حراً، وكان من يريد سيدخل إما في إحداها، وإما في الأخرى. وفيها لم يكن أحد سيلقى اللعنة على الماضي، ولا سيمزق البعضُ البعضَ، وكان كل واحد سيتبع تصميم ضميره، محترماً تصميم ضمائر غيره. كان ذلك مفرطًا في الجمال بلا ريب، وكانت تلك خطة

(١) "Voltaire ist der Genie des Hasses". H.A, Korf, Voltaire im literarischen Deutschland der 18, 1918. Zweiter Buch, p. 235 sqq.

متطرفة في البعد عن عادات نوعنا، إذ أن التأليهية الفرنسية التي كانت -فيما وراء بوب- تلتقي بتأليهية تولاندو كولييس كانت هجومية بضورة جوهرية عن واقعة أنه قد وجد في القرن الثامن عشر، جنس من البشر لم يعد له من الغذاء الروحي سوى المعاداة الإكليروسية، وقد اتخذ من ذلك برنامجه الوحيد، وحسب أن هذه المعاداة تكفي لإعادة تكوين الحكومات، ولتصير المجتمعات كاملة، ولقيادتها إلى السعادة، وأن هذا الجنس من البشر قد استمر. عن هذه الواقعة يوجد كثير من المسؤلين، وليسوا جميعاً من معكسر الموسوعين. ولكنه لا أحد مسئول عن ذلك بدرجة ڤولتير.

# الفصل الثالث

## المذاهب التأليهية

## ليسينج «Lessing»

كان جوتلوب إيفراهيم ليسينيج، يشبه مفكري انجلترا وفرنسا في بعض المعالم الأخوية. الوضوح، منذا الذي كان يشتهيه أكثر منه؟ إنه لم يكن يصل إليه وهو يلهو بفضل مصادفات سعيدة، ولكن بوساطة عمله وصبره وإرادته. النقد، ومنذا الذي كان يطبقه بهيئة أكثر استقامته منه؟ إنه كان يحس بأن النصوص تتحداه شخصياً، فكان يهاجم مؤلفيها بلا إشفاق على الضعف البشري. ولم يكن يبقى من خصومه شيئًا لأن الأناسى لم يكونوا يمثلون في رأيه سوى فكر، ولأن الفكر الزائفة لا تستحق الصفح. وكان هو نفسه يقول: «إنني لست أحد أولئك الأشخاص الممتازين يخلقون الجمال تلقائياً. ولست ساحراً، وإنما أنا ناقد، وإنني بالنقد وحده أصل إلى الفن».

كان هناك كثير من التوكيدات الملقاة على عواهنها، تجوس خلال العالم إلى حد أنه - لكي يعيد استقرار التعادل - كان يتخذ راضيًا، جانب المعارضة فكان يتمرد تلقائياً بإزاء الآراء المقررة. وحين يقرأ كتبا لصالح الدين، وتلك كتب عديدة إلى حد أنها كانت تؤلف ثلاثة أرباع الإنتاج الألماني. كان على الفور يشغف بمعرفة الربع الآخر، ولقد كان بإزاء كل حكم يصدر ضد إنتاج ما، يطلب الاستئناف.

وكان كأخوته أيضاً، قد قرأ ودرس وبحث بهيئة لا تكاد تصدق. وعندما

كان تلميذاً كان أحد أساتذته يقول: إنه جواد شاب ينبغي له حصة مضاعفة من الشعير، وقد استمر يلتهم حصة مضاعفة أو أربعة أضعاف وكان كل ما هو مطبوع، يبدو له جيد القراءة، ولكنه كان يحب على الأخص ما لم يكن مجبراً على معرفته، وما لم يكن الآخرون يعرفونه، أي ما كان إلى جانب الموضوع، أو ما كان على هامشه. ولقد بلغت به كثرة تقديس غير المعروف وغير المتوقع، بجانب العادي إلي حد أنه انتهى إلى امتلاك مخزن أسلحة ضخم كان يستعمله في سعة في معاركه.

كان كأخوته لا يفتر ألبتة وكان ذلك بدافع الضرورة ما دام أنه في كل الزمن الذي استطاع فيه الكتابة، كان يعيش من قلمه، وبدافع الذوق أيضاً لأنه كان فاجعياً، ولاهوتياً، وفيلسوفاً، وصحفياً، وعالماً بفنون الجمال. ولقد ترك من بعده أيضاً، طائفة من الشذرات والمحاولات والمواد المعدة لمنتجات كانت في مرحلة المشروعات أو بدئ فيها ولم تتم. ولم يكن للكتب ولا للمخطوطات كل تذوقها عنده، إلا حين كان يعود إليها بعد أن يكون قد تركها ليتنسم هواء الحياة الهائجة والزاخرة بالمعارك، الحياة التي - لكي تكون مليئة تماماً - يجب أن تحمل إلى الكائن البشري كثيراً من التجارب، ومن بينها تجربة حياة الأفاق والمتشرد، وكم كان يعز تلك الحياة!

كانت الوزارة تنتظره، وكان قد أرسل إلى جامعة ليبزيج لكي يزاول فيها الدراسات التي ستقتاده نحو الجماعات الدينية. ولكن أسرته التقية كانت تعلم في شيء من الخجل، أن الناس كانوا يرونه في كواليس مسرح مدام نوبيرج أكثر مما يرونه في قاعة المحاضرات، وأنه كان يترجم فيه مسرحيات، ويؤلف هو نفسه عدداً منها. ذلك لأن الطالب جوتلوب إيفراهيم، كان قد صمم على ألا يكون حيياً بعد الآن ولا أخرق، وألا تلوح عليه منذ اليوم ملامح مرشح مسكين للاهوت، وأنه سيتردد على مجالس الطبقة العالية، وسيبدأ بتعلم استعمال السيف والرقص. وعنده أن الكتب - وكانت إحدى يقينياته التامة الاستقرار - تستطيع أن تصنع عالماً

حسنًا، ولكنها وحدها لن تكون رجلاً، وأن العلم الفاتر الناشئ عن الكتب، لا يطبع في الرأس إلا حروفًا ميتة.

لا جرم أن هذه الأزمة الأولى ستتبعها عدة أزمات أخرى. إذ لا يلبث أن يتملكه دافع مؤداه أنه ينبغي أن يغير مكانه، فينتقل من مسكنه بلا توديع تاركًا خلفه بعض الديون. إنه سيرحل. إنه ارتحل بالفعل. إنه لا يكاد يستقر أول الأمر في ليبزيج، ويبدأ أن يُكوِّن له اسمًا، حتى ينتقل إلى برلين، ثم يهجر برلين ليعود إلى ليبزيج، ويغادر لكي يقوم برحلة تقفها الحرب عند مرحلتها الأولى. ذلك الرجل ذو المظهر العسكري، والمستريح تمامًا بين الجنود، ذلك السكرتير للحكومة البروسية لدى القائد تويتزين رئيس جيش مدينة بريسلو، هو أيضًا ليسينج، هو في المساء يلعب الورق بحرارة، وإذا أخذ عليه أحد هواه في هذا أجابه بأنه لافائدة من اللعب إذا كان بفتور. ولايمنعه ذلك من أن يقرأ دائمًا ومن أن يدرس، وأن يفكر، وأن يلاحظ من حوله النماذج التي تقدم إليه طبائع أشخاص أفضل مسرحياته التي عنوانها «مينا ڤون بارنهيلم».

على أثر ذلك يحدث انزواء جديد، فلا يكون له صلة بالحكومة ولا بالجيش، إذ قد صار مستشار مسرح هامبورج. ولاجرم أن هذه التنوعات ليست هوى، وإنما هي حماية لحريته، لأن الضعفاء يَدَعون أنفسهم يسجنون في إذعان أو في سرور بوساطة المهنة أو العادات أو البطانة. بينما أن الأقوياء، عندما يشعرون أنهم مهددون بالانبلاع، يفرون. وكأنه يقول: لنحطم الأغلال ولنجتز الأبواب، ولننفض غبار أقدامنا على ما أحببنا، ولنصر نحن، نحن في كل مرة من جديد! يجب ألا ننقب عن الثروة. وفي الواقع أن ليسينج في كل حادثة كان يصير أقل ثراءً لأن المال ليس له قيمة عنده، إذ أنه ينفقه، ويقذف به، وفي كل حادثة يصير أكثر ثراءً بالإنسانية..

كانت بعض المواهب الداخلية تنقصه، كالأهواء والمرونةودقة التمييز، كان قاسيًا، وكان في طبعه لون من آلوان الحذلقة التربوية. كان كأنه حراث اختار

حـقله، وتابع خطوطه دون نظر إلى المروج أو إلى الجـبـال، ولا إلى الأشـجـار والزهور. كان معجباً بصديقه إيڤالد كريستيان ڤون كليست الذي كان يجد في مشاهدة الطبيعة راحته وسروره. أما هو فعندما يكون في حاجة إلى التسلية. فإنه كان يذهب ليتحدث عن الأدب أو عن الفلسفة مع أصدقاء من نوعه في الحانة.

حقاً إنه لم يكن جامداً، وإن سخرياته وغضبه واستشاطاته تبرهن على ذلك بصورة كافية، ولكنه بكل توكيد، لم يكن عاطفاً إذ أن كلوپستوك يثيره وكذلك الشعراء الملائكيون الآخرون، وهو لم يكن يشعر إلا بجاذبية عادية نحو آلام الشاب ڤرتر. إنه قد منح الحب مكاناً ضئيلاً. إذ هل أحب حقاً ذلك الرجل الذي كان يقول: إنه لم يكتب قط إلى امرأة رسالة لم يستطع أن يظهرها لأي شخص كائناً من كان؟ وهل أسر إلى أحد بمكنون آخر غير عقلي؟ بل هل سبح في بحار الأحلام؟ ومع ذلك فقد أحب بلا أسرار وبلا أحلام. وقد تزوج متأخراً بصاحبة اختارها على أنها أفضل الممكنات، من نوع يتعسر فهمه. والطفل الذي ولدته زوجته إيڤا كونيج، توفي بعد بضع أيام من مولده. وتبعته أمه، فمزق هذا الحادث قلب ليسينج، وسمع الناس منه شكوى مؤثرة، مجملها: أنه لم يكن يطلب شيئاً صعب المنال، وإنما كان يطلب فقط ذلك القدر الضئيل الذي كان قد منح للأناس الآخرين، وها هو ذلك القَدْر قد أُبيَ عليه. إنه سيحمل عبئه. ولكي يحاول أن يصيره أقل ثقلاً، سيعود إلى الشروع في العمل. وكانت كمية من المسكن مكونة من الشواغل اللاهوتية والأدبية تساعده على قضاء يوم بعد آخر، ولايلبث أن يصير ما كان قد صار، أي عقلاً عاملاً.

ولقد كان ميليوس أحد أصدقائه ينشر صحيفة عنوانها «العقول الحرة»، وكان هذا الاسم يمكن أن يتفق مع ليسينج نفسه لأنه كان من أسرة أحرار الفكر.

* * *

بيد نه إذا كان ليسينج يحمل طابع عصره، فإنه مع ذلك ليس من أولئك الذين يظلون مختلطين مع مجموعة الطوائف، وإنما هو يأمر، ونراه يتمرد وتلوح

عليه علائم الازدراء لبعض الفكر والإرادة العامة، فيقول مثلاً: هل لوك مفكر قال الكلمة الأخيرة في الفلسفة؟ وهل پوپ ميتافيزيقي؟ ثم يهز كتفيه، ويترك هذين الأخيرين في بلاد الأقزام من جوليڤير وهو يصطحب رفاقًا آخرين ذوي قامات أخرى كليبنز واسبينوزا. أما ڤولف، فإنه يدع سخريته تنصب عليه إذ يقول: «في العموم لا تعوزنا في ألمانيا المؤلفات المذهبية، ففي الواقع إن اختيار المرء بضعة تعريفات مقررة، لكي يستنبط منها -على أجمل الأنظمة- كل ما يروقنا أن نضعه، هو فن نستطيع أن نتحدى فيه جميع دول العالم».

يعترف ليسينج أن بعض البراجمية ضروري، فحين يتلقى المشلول التيار الكهربائي النافع، لا يتساءل عما إذا كان الأب توليه هو المحق أو فرانكلان أو لا هذا ولا ذاك. ولكن لا تحاول أن تجعله يعتقد أنه، لكي يشرح المرء حدثًا، فإن حسبه أن يلاحظه. إنك تحاول أن تغزو الجماهير، ليكن هذا إذا كانت تلك موهبتك. ومع ذلك فإن الذين يؤثرون في من سيؤثرون في الجماهير، هم من نوع رفيع، لأن بهر اللوامع، حقيقية كانت أو زائفة شيء، والبرهنة المتينة التي تجتلب مناصرة المفكرين، شيء آخر. والإنسان الذي انشغل بالأدب وحده، أو الذي قضى كل زمانه في العزف على الناي، هل يكون راضيًا عن نفسه حين يصل الى نهاية حياته؟ وهل يحسب أنه يجتاز باب القبر، مرفوع الجبهة؟ إن اليقين ليس في حاجة إلى أن يزدان بالدانتلة، وإنما هو يروق أو ينفر، ولا أهمية لأولئك الذين لا يروقهم، لأنهم غير قابلين للبرء، ولأنهم كفار، وعبثًا يحاولون، فإن المرء إذا استعمل إسفنجة قذرة يكون من العبث أن يتابع التنظيف.

كان ينتظر بفارغ الصبر، كتاب ڤينكيلمان الذي كان يجب أن يحمل إليه البيانات التي كان يتمناها عن الجمال القديم، وكان على أتم استعداد للإعجاب به. غير أن الإعجاب عنده لم يكن ألبتة حاراً إلى حد أن يضعف من حدة روحه. ولقد حدث أن ڤينكيلمان كان قد أضاف أيضًا إلى تاريخه عن الفن نظرية عن الجمال قال فيها: إن مبادئ الفن، بعد كل ما كتب فيها، لم تدرس في تعمق بالقدر الذي يلتئم

معها، وإن الجمال قد بقي أحد أسرار الطبيعة، وإنه أخيراً كان سيمنح ذلك الإيضاح النهائي. وإذ ذاك جعل يقحم الجوهر الإلهي الذي كانت تلك المنتجات الجميلة هي التعبير البشري عنه وهو في هذا يقول:

«إن الجمال الاسمي يثوى في الإله، وإن فكرة الجمال الإنساني، تنال من الكمال بمقدار شبهها وانسجامها مع الموجود الاسمى، مع ذلك الموجود الذي تميزه لنا عن المادة فكرة الوحدة وعدم الانقسام، وهذه الفكرة عن الجمال هي، كجوهر مجرد عن المادة يفعل النار، كالعقل الفردي الذي يحاول أن يخلق لنفسه كائناً على صورة مخلوق العقل الأول المكون بوساطة العقل الإلهي».

وحينئذ لبس ليسيينج درعه، ونزل إلى الميدان، وكان يروقه أن يهاجم مبارزاً بحزمه، إذ كان من المستحيل عليه أن يقف موقفاً سلبياً، وأن يدع زيفاً كهذا يمر. ومن المستحيل أن يقر بأن يكون الفن الإغريقي هو نموذج الجمال تحت أية صورة وجد، وبأن يراد فرض مبادئه على جميع الفنون، ولاسيما على الشعر.

مما لاريب فيه أن لاوكون [1] Laocoon وأبناءه الذين خنقهم ثعبان ضخم، يحتفظون- في وجوههم وحركاتهم وخطتهم العامة- بشيء من الجلال، لأن النحت لايستطيع، لأسباب مشروعة، أن يمثل الألم الذي بتشويهه الملامح، سيكون منظره دميماً. ولكن فيلوكتيت سوفوكليس، لايخشى أن يعبر عن آلامه بوساطة أنات، وأبطال هوميروس، يصيحون ويولولون ويستشيطون غضباً. وإذن فينبغي أن يكون هناك فرق بين الفنين. ذلك لأن الرسام والحفار يمثلان لحظة واحدة، وأن وسائل فنهما تفرض عليهما هذا الاختيار. وبما أن تلك اللحظة تتلقى منهما قيمة ثابتة، فإنهما يجب عليهما ألا يمنحاها شيئاً مما نعتبره حائلاً. أما الشاعر فإنه لايتركز في آونة واحدة. إنه حر في أن يتخذ عملاً منذ مبدئه، وأن يتابعه ويقتاده إلى نهايته. وإذن فالشعر لايمكن- بلا إساءة الاستعمال- أن يكون مماثلاً

(١) لاوكون هي مجموعة شهيرة من التماثيل الأثرية، تمثل لاوكون بن برياموس ملك تروادة، وأبناءه عندما خنقهم ثعبان ضخم. (المترجم).

للفنون الصناعية. وليس الفرق زمانياً فحسب، وهو لايشرح فقط بواقعة أن الأقدمين لم يكونوا يحبون سوى الجمال الهادئ إلى حد أن الرسام تيمانت- في لوحته عن التضحية بإيفيچاينيا- قد وضع نقاباً على وجه أجاميمنون الذي لم يكن يستطيع أن يرسمه إلا متكلساً وشنيعاً، بينما أن المحدثين قد وسعوا ذوقهم. وإنما الفرق هو نوعي[1].

استأنف ليسينج حجته في عدة صوره وانتهى إلى نفس النتيجة وهي: إن مبدئي يبقى في قوته، أي إن التعاقب الزمني هو محيط الشاعر، وإن المكان هو محيط الرسام والحفار. كان لابد من قوة ليسينج وحدته القتالية، وثباته العنيد لكي يمكن قطع العلاقة القديمة بين الرسم والشعر، وقلب الفكر المقررة حول عدد من موضوعات الجمال، وفي الواقع أن هذا المكافح قد استمر في الإطاحة بالأوثان. وعنده أن الشعر- وهو أكثر مرونة من الفنون الأخرى- يستطيع أن يمثل الدمامة، وأن يستخدمها كعنصر من عناصره، ففي المضحك تكون الدمامة العاجزة، وفي الرهيب تكون الدمامة القاسية. وأن الشعر - وهو أكثر ثراء من الفنون الأخرى- لم يكن في حاجة إلى صفة أسطورية، كموازين العدالة، والعمود الذي عليه يعتمد الحزم وزمان الاعتدال. إنه لم يكن محروماً إلى هذا الحد من وسائل التعبير عن نفسه. إنه لم يكن مقصوراً على أن يعود دائماً إلى نماذج معروفة بصورة عامة كڤينوس، ومارس، وجوبيتير Vénus, Mars, Jupiter إن الابتكار بمعناه الكامل، هو بالنسبة إلى الفنان قليل الأهمية، وإن الموضوع العادي يعينه أكثر مما يضايقه. وأما بالنسبة إلى الشاعر، فإن الابتكار على الضد من ذلك، له من الأهمية أكثر من التنفيذ.

كان ليسينج يرد إلى شكسبير اعتباره، ويضحد القواعد ويتهم الدوجماطيقية، ويثبت حقوق التلقائية، ويطلب السماح للأحياء بأن لايكونوا مماثلين للموتى، ولو كانوا أمجاداً ولكن العمل الذي كان يحققه على الأخص، هو

---

(١) Laokoon , order uber die Greazem der Malerel and Poesie, 1766

تحرير الشعر، ففي رأيه أنه ليس من جوهر الشعر أن يكون تعليميًا. وليس من جوهره أن يصف الأشياء في أدق تفاصيلها، فهالير في قصيدته «جبال الألب» قد أفاض في الوصف إلى حد أن خيال القارئ لم يعد لديه مجال للعمل. وآريوست Arioste– بدلاً من أن يشتت في عدة مواضع ملامح صورة ألسين[1]– يجب أن يعين لنا بضعة معالم خفيفة كان من الممكن أن تدع لنا الحرية في أن نحلم. كان في الشعر ما كان يقوله، وكان فيه أيضًا عنصر أقوى، وهو ما لم يكن يقوله، أو ما كان يلقنه عن طريق الإيحاء، لأن الشعر الحقيقي، هو غير قابل للتعبير عنه.

على هذا النحو كان ليسينج دائمًا على استعداد لأن يقوي سيادته، ولكن لم يكن هناك شيء يشغله أكثر من حل المشكلة الدينية التي يتعلق بها كل شيء.

* * *

فيه كانت تحيا نفس والده الراعي، ونفوس الرعاة الآخرين أجداده، إنهم كانوا مؤمنين، وكانوا رسلاً، ولم يكونوا يكتفون بأن يشغلوا وظائفهم بصورة آلية، وبأن يرددوا المواعظ في معابدهم. ولكنهم قد اتخذوا من الإيمان الغذاء الوحيد لحياتهم الروحية. إنهم كانوا مدافعين عن العقيدة، وكانوا أبناءً للإله. إن المرء لايتخلص من تراث كهذا كما يشاء، بل إنه في اليوم الذي يخرج فيه من الأورتودوكسية، هو يحتفظ به ويحبه، لأن الدين شيء خطير، ولأن من يهزأ به هو دائمًا ذو عقلية صغيرة، ولاشك أن ليسينج لم يتغير بإزاء هذا الجزم. وعنده أن الدين لايحتمل المزاح، لأنه صورة من صور الحقيقةو والحقيقة لاتعرف ضحكة السخرية. حقًا إنه قد حسب أن من الواجب تخليصه من الأدناس التي انزلقت إليه، ومن ثم فإنه كان عضوًا في الجماعات التي شهرت بالخرافات، وقد قذف بكلمته ضد الحروب الصليبية التي قال عنها إنها الإنتاج الرئيسي للسياسة البابوية، وإنها انتهت إلى أفظع أنواع الإضطهادات التي جعل التعصب نَفْسَهُ بها جانيًا.

---

(١) هي ساحرة جميلة وكانت ملكة إحدى الجزرفي الملحمة التي عنوانها «رولان مخبولاً» تأليف الكاتب الإيطالي الكبير آريوست (١٤٧٤– ١٥٣٥) (المترجم).

ولقد أعلن أنه كان يعيش في عصر كان فيه صون العقل السليم يجلجل جلجلة مفرطة في العلو إلى حد يحول بين كل متعصب هائج كان يقذف بنفسه أمام الموت بلا ضرورة وبقلب مرح، وبين استطاعة الظفر بعنوان الشهيد. ولقد رسم في معالم سود، أولئك الرهبان الجهلاء، والأساقفة المنافقين. ولكن فرسان الحروب الصليبية، والشهداء الذين أتوا في غير أوانهم، والقسس الأردياء لم يكونوا في نظره مجسدين لجوهر الدين الذي كان في ذاته يمثل قيمة أبدية.

ولما كان مؤلها على طريقته، فإنه كان يطالب بأن يميز عن المؤلهين الآخرين، أي عن أولئك الذين كانوا يتبعون البدعة، والذين لم يكونوا يفهمون شيئاً من الفلسفة العميقة، والذين لم يكونوا يُكَوِّنون مسيحيين متعقلين بل تلاميذ ينحرفون عن العقل.

ولقد شاء الحظ في مبدأ حياته الأدبية، أن يلتقي بڤولتير، وأن يبغضه ومأتى ذلك أنه عندما كان ڤولتير في برلين، قد اتخذ أحد أساتذة اللغة الفرنسية سكرتيراً له يدعى ريشييه، وطلب إليه أن يجد له ألمانيا يكون قادراً على أن يؤدي له مهمة المترجم، فإقترح ريشييه أحد أصدقائه جوتلوب إيفراهيم يسينج وهو شاب جد ذكي وجد فقير، فلم تسر الأعمال سيئًا في بادئ الأمر، ولكن ريشييه قد تسرع فأعار ليسينج مخطوط «عصر لويس الرابع عشر»، وقد طلب ڤولتير مخطوطه، غير أن ليسينج كان قد غادر برلين حاملاً معه الكتاب. ولقد أجاب على مطالبة صديقه برسالة مؤلفة من احترام وسخرية قال فيها: إنه لم يكن لديه ألبتة نية الاحتفاظ بالنسخة، ولكنه لم يكن قد انتهى من قراءتها تماماً، ولم يكن قد استطاع مقاومة فتنة أن يعرف، إلى النهاية، إنتاج كاتب بلغ من الكمال إلى هذا الحد. وأقل من ذلك كانت نيته متجهة إلى ترجمته، لأنه كان يعلم أن مشروع ذلك هو في طريقه فعلاً. وهو يضيف إلى ذلك قوله: لكي يترجم المرء السيد دي ڤولتير، ينبغي أن يسلم نفسه إلى الشيطان.

على أنه كان يخيل إليه أن الأمر يتعلق هنا بغضب عظيم من أجل باعث

صغير، وأنه متأكد من أن ريشييه سيظفر بالصفح عما قريب. وإذ ذاك كتب ڤولتير شخصياً إلى ليسينج متودداً إليه حتى لايختفي بالمخطوط، ومهدداً إياه لينذره بأنه لن يعتبر هذا الأمر هيناً، وأن مستقبل السيد ليسينج سيكون معرضاً للخطر، لو أن ڤولتير يكون مضطراً إلى الإلتجاء إلى العدالة لاسترداد المخطوط. وحينئذ أجاب ليسينج، بدوره مستشيطاً في رسالة باللاتينية فقد نصها، وإن كل قد قيل عنها فيما بعد، إنه لم يكن من صالح ڤولتير، أن يطلع عليها أحد. وأياً ما كان فإن المخطوط قد رد، وإن المشاجرة قد انتهت. ولكن بعد أن تركت في نفس ذلك الناشئ جفوة كان لابد لها من أن تتجسم وتنمو عنده حين ينضج.

* * *

كان ذلك في الوقت الذي يتجه فيه الفكر الألماني إلى إدراك طابع خاص يتعلق الأمر بالجزم به إزاء نفسه أولاً- ثم إزاء الشعوب المجاورة له بعد ذلك وكان لايزال يشعر- في شيء من الغموض، وعند صفوته فقط- بأن الجزم بهذا الطابع وبقيمته، كان يتضمن حقاً في الحياة، وكان يجب أن يكون له كنتيجة الاعتراف العام بهذا الحق.

كانت ألمانيا فتاتاً من ولايات صغيرة متفرقة ومقسمة، ولكنها كانت أيضاً مجهوداً نحو روح مشتركة إلى حد أن السياسة نفسها- في آونة معينة وبعد إعداد طويل- ستكون مضطرة إلى أن تترجمه. كان يراد إبراز الفكرة القومية التي هي الدعوة الأولى من جانب الوطن.

حقاً إن دعاة «أوفكلارانج» كانوا يريدون المساهمة في الحركة التي كانت تجتذب أوروبا نحو الأنوار، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن يتلاشوا فيها، بل على الضد كانوا يحتفظون لأنفسهم فيها بدور خاص. وإذا استمعنا إليهم، فإن الإنجليز في رأيهم، لم يكونوا فلاسفة إلا إلى حد معين يقفون عنده، لأن العزة كانت تأخذهم إلى حد يمنعهم من قراءة كتب الألمانيين، ولأنهم مفرطون في الرفاهة إلى حد يحول بينهم وبين التغلغل إلى أعماق الفكر. أما الفرنسيون، فهم ساطعون

طائشون سطحيون، إن الإنجليز يفلسفون بأحاسيسهم، والفرنسيين بنكاتهم، والألمانيين وحدهم، هم الذي يفلسفون بعقولهم (١)، وفي هذا تكتب مجلة «المكتبة الألمانية العامة »- وهي التي كان عنوانها ،وحده برنامجاً، والتي لا تتجه إلى البيرلينيين، ولا البروسيين فحسب، بل إلى القراء والمساهمين في جميع الأراضي الجيرمانية- فتقول: إن الألمانيين قادرون على أن يحتفظوا بالمكانة التي لايستطيع أي بلد آخر أن يشغلها، لأنهم هادئون ويأبون أن يدعوا أنفسهم ينسحبون بوساطة هوى شديد. إن الطبيعة قد ألهتمهم تذوق البحث، وإنهم مستقرون بين الريب الخادعة التي ليست سوى ضلالات للعقل، وبين التحمسات المتطرفة لخيال حار. ولقد وجه إليهم، بصورة عامة، هذا المأخذ الذي مؤداه أن طابعهم القومي ينحصر في ألا يكون لهم طابع، وعليهم أن يختاروا ما يريدون(٢).

كان ليسنج هو المواطن الأول في هذه الألمانيا المفكرة. ولقد كان يحسب أنه مواطن عالمي، ولم يفته أن يعلن عالميته أو «كوسمو بوليسم». وكان يقول إنه ليس لديه أية رغبة في الاشتهار بالوطنية. بل كانت هذه هي آخر ما يطمح إليه، وإنه لم يكن لديه أية فكرة عن حب الوطن، وإنه يستغني تماماً عن هذا الضعف البطولي. ولكنه كان في الواقع ألمانياً بصورة عميقة، وكان أحد الذين خلقوا الروح الجديدة في ألمانيا. وكل مدينة استقر فيها- تحت تأثير انفعال مباغت، أي ليبزيج، وبرلين، وهامبورج- لها مهمتها في الحدث العظيم الذي هو تكوين الشعب، فليبزيج هي مركز الحياة العقلية، وعاصمة الكتب والتجديدات والرشاقات والمسرح والنقد. وبرلين هي التي تبعث عبقرية فريديريك الثاني فيها الحياة. وهامبورج هي سوق التبادلات الدولية.

إن ليسينج -وهو سكرتير الحكومة لدى القائد تاوينزين، والرجل الذي

---

(١) Moses Memdelssohn à Lessing, 20 février 1758

(٢) Allgemeine Deutsche Bibliothek, 1765, art. I- ibid., 1768, Vol. VI, art . 1, Noch etwaszum deutschen Nationalgeiste, Lindau am Bodensce, 1766.

يشرب كثيراً دون أن يتأثر، والذي يلعب الميسر- يساهم في محنة بروسيا وألمانيا الحاسمة إبان حرب السبعة أعوام.

إن المعلمين الذين لم يعودوا بعد يريدون أن يرددوا مذاهب الأساتذة السابقين، والذين كانوا يوقظون عقول الشبان، وإن الرعاة الذين كانوا يعتبرون أن تقدمات الجحود، آتية من أن كثيراً من زملائهم، حين كانوا يتصورون أنهم يعلمون الألوهية، لم يكونوا يرون سوى شبحها المشوه، وإن العلماء والمفسرين الذين كانوا يدعون أنهم يحبون الشجرة المقدسة، وإن النقاد الذين كانوا ينعشون المجلات التربوية بعقولهم. كل هؤلاء كانوا يشكون من أنهم يرون ألمانيا تختنق تحت ضغط الأورثوذوكسية العتيقة، وقد استجاب ليسينج لدعائهم، فكان تولى الدفاع عن الزنادقة المزعومين الذين قضي عليهم ظلماً، وتأييد قضية الإخوان المورافيين ضد مضطهديهم، والعكوف في كل فرصة على اختيار مناصرة السامري ضد الفاريزي[1]، كل ذلك يحقق غبطته. غير أنه من بين جميع هذه المعارك، معركة واحدة ظلت شهيرة بنوع خاص، لأنها دفعت لذع نقده، وسخط أعدائه، إلى أقصى الدرجات. وقد كان حينئذ في ڤولفينبولتيل حيث قبل- لعدم وجود شيء أفضل- وظيفة أمين مكتبة دوق برونشويج. إنه لم يكن مسناً، إذ كان في الثانية والأربعين، ومع ذلك فقد كان يحس بأنه منهك وشقي بسبب هذه الهزيمة في الكفاح ضد الحظ، وهذه الحالة العادية، وتلك العبودية التي انتهى بأن يقبلها... وفي هذه الآونة نفسها، قذف بتحديه المدوي ضد الأورثوذوكسية اللوثرية.

* * *

كان صمويل ريماروس Samuel Reimarus، أستاذاً حكيماً هادئاً، وكان يعلم

---

(١) السامريون هم سكان مملكة إسرائيل التي كانت عاصمتها سامرى. وقد كانوا محتقرين عند أهل أورشليم الذين اشتهروا بأنهم حراس التقاليد الحقيقية. والفاريزيون شيعة من يهود أورشليم كان تتصنع التظاهر بالفضيلة على حين أن أخلاقها الواقعية كانت منحلة، ويقصد المؤلف هنا أن ليسينج كان يناصر المحتقرين والمضطهدين على الأقوياء المنافقين. (المترجم).

اللغات الشرقية في مدرسة مدينته التي ولد فيها وهي هامبورغ وكان لديه جميع مظاهر الرجل ذي الوجود الناصع الذي يره أن يقضي أياماً بلا عواصف، وكان زوجاً حسناً وأباً طيباً. وقد كتب مؤلفات محترمة لصالح الدين الطبيعي وضد الإلحاد، أظن فيها على الأخص أن نظام الحشرات العجيب، ولم يكن أن يفسر إلا بحكمة الموجود الأعلى.

وقد رأى هذا العادل نهايته تدنو في سكينة. وفي ١٩ فبراير من سنة ١٧٦٨ دعا نصف أصدقائه المصطفين إلى مائدة الوداع، وبعد ثلاثة أيام من هذه الدعوى هوى بين براثن المرض وفي أول مارس توفي.

ولقد بقيت أعماق أفكاره مختفية، إذ أنه أودعها في مخطوط كتب عليه العبارة التالية: «دفاع عن عباد الإله المتعقلين». وكان هذا المخطوط- وهو مظنون أكثر منه معرفاً لدى المقربين- يمكن أن يظل مجهولاً إلى الأبد، لو أن ليسينج لم يكن لديه فرصة معرفته. وفي سنى ١٧٧٤، و١٧٧٧، و١٧٧٨، نشر منه فقرات دون أن يعلن اسم المؤلف، تحت عنوان «شذرات لمجهول».

ليس جان ميلييه [١] "Jean Meslier" هو الذي يعود إلى الكتابة هنا، فريماروس ليس لديه استشاطات جان ميلييه، ولا كراهياته، ولا حفيظته الهدامة، وهو لم يفرغ جعبة نزاع شخصي بين المولى وبينه، ولم يدع نفسه يحترق بالحقد الذي يمتد فيأكل كل شيء، بل هو على الضد من ذلك يعتقد في إخلاص عظيم أنه يتجه نحو الإله، بإبعاده الأشواك والحسك، وبطرده جمهور الكفار والوثنيين، وبكشفه عن أصل الرذيلة والشر، وبتخيله أنه سيطهر الأرض والسماء حينما يكون قد محا الإيمان بالدين الموحى. إنه واثق من نفسه بصورة مدهشة، وهو يردد أنه يرى جيداً، ولديه أيضاً صيغة أخرى يخيل إليه أن المرء بوساطتها يستطيع أن يعبر عن القواعد الأساسية للعقل وهي: «كل شيء هو ماهو، ولا يمكن أن يكون الشيء في الوقت ذاته، موجوداً ولا موجوداً». وإذ يتسلح ريماروس على هذا النحو،

(١) - إذا أردت أن تعرف من هو جان ميلييه، ومانوع كتابه العنيفة، فارجع إلى الفصل الرابع من المجلد الأول من هذا الكتاب. (المترجم)

يشرع في فحص «العهد القديم» وهو لايحرم من أن تتخلل أعماله النقدية تعجبات حارة واستفهامات، واستدعاءات كقوله مثلاً: آه! كم تهوى العقول في الأخطاء بسهولة! وكيف يكون من الممكن أن الناس قد اتخذوا الحقيقة، أثناء أجيال وأجيال، وقائع ظاهرة التناقض إلى هذا الحد؟ إن الدين الخير والحكيم في جوهره، لا يمكن أن يكون له إلا وسطاء أخيار وحكماء، فانظروا إلى أشخاص التوراة، انظروا إلى داوود، إنه لم يكن خيراً ولا حكيماً. إنهم كانوا ميالين إلى الانتقام، وطماعين، وغير أخلاقيين. وإذن فالدين يتأسس على تقاليد اليهودية، لا يمكن أن يكون خيراً ولا حكيماً، وهو لا يمكن أن يكون حقيقياً. إنه لا يوجد تاريخ واحد في العالم يتعلق كل شيء فيه بالإله بصورة مباشرة إلى هذا الحد، ولا يوجد تاريخ فيه أمناء وديعة الأوامر الإلهية أقل من هؤلاء جدارة بتلقيها، وإذا كان كذلك، فإن الأمر يتعلق بتاريخ يهودي، لا بإله. إن ديناً يدعى أنه يمنح الأناسى قوانين سلوك الأخلاق، يجب أن يصوغ قواعد محددة معقولة لدى الجميع، معينة في صياغتها وفي محتواها، والتوراة لا تشتمل على هذا التعليم، بل هي لا تعتبر أن النفس خالدة، وإذن فتعاليمها لا يمكن أن تأتي من وحي إلهي.

ولا يسلك ريماروس طريقاً غير هذا بإزاء الإنجيل، فعنده أن العهد الجديد- وهو الذي كان يجب أن يشتمل على حقيقة واحدة، والذي لأنه قد كتبه أربعة أشخاص، هو يتغير مع الأزمان والأمكنة والخطب الملقاة، والأحداث الواقعة- هو يتضمن تناقضاً، وإذن فهو لا يمكن أن يكون ضماناً للحقيقة. ولقد فحصت البروتيستانتية بدورها، فهل مذهب النجاة بسبب الإغاثة، قابل للتعقل؟ وهل الإيمان بالخطيئة العنصرية قابل للتعقل؟ إن البروتيستانتية هي كالكاثوليكية منحرفة عن قابلية التعقل. إنهما كلتيهما من الخدع البشرية التي شوهت القانون الطبيعي الذي إليه يجب أن يرجع الرجال المتدينون اليوم.

* * *

هذا هو الكتاب الذي نبش عليه ليسينج. ومن ثم فقد استحدث بذلك

فضيحة دامت عدة سنين. وهناك راع يدعى ميلكيور جوتز قد تحدى هذا التحدي. وقد كان هو الضيق والعناد مشخصين، إذ أنه هو الرجل الذي أبلغ حتى عن زملائه، بل عن أصدقائه متهماً إياهم بالكفر. وبالاختصار إنه كان خصماً ذا أهمية، وكان ليسينج يحمل له شيئاً من الاعتبار لأنه كان هو عدم التساهل نفسه.

استعدى جونز على ليسينج انتقام العالم المسيحي، وطالب بالعقوبة للمجدف. غير أن ليسينج قد استمر، وأن المواعظ والشكاوى الكتابية، والرسائل، والكتب، والشتائم، والتهديدات، لم تكن تزيد على أن تهيجه، وكان يقول: «إني نشرت هذه الشذرات، وسأنشرها أيضاً، وحتى لو أن جونز وجميع أشباهه في العالم يقضون على بالدرك الأسفل من الجحيم».

ومع ذلك، فحتى حين كان يتخذ هذه الخطة الساخطة، فإنه لم يكن يحسب نفسه خصماً للدين من حيث هو. ولقد استمر يحتقر المازحين الذين يحولون المقدسات إلى مضحكات. وكانت حيلة الفلاسفة- وهم الذين عن طريق انحراف الخرافة، كانوا يهاجمون الإيمان- تبدو له جديرة بالاحتقار. إنه لم يكن يعتقد أن الأناسي، منذ بدئ العصور، كانوا مخدوعين في عبادتهم وصلواتهم. ولم يكن يساهم على أية درجة في ذلك الرأي الساذج الذي مؤداه أن كنيسة الإله قد تثبتت بوساطة مؤامرة حاكها القسس والملوك متآمرين. وما دام أن حتمية عقيدة ما، هي واقعة بدائية وجوهرية، فإن من يجحدونها أطفال. وغاية ما في الأمر أنه ينبغي تعيين طبيعتها، وإنقاذها مما لم يكن هو هي، وإعطاؤها معناها الحقيقي.

ولكي يفعل ليسينج ذلك، كان يستأنف اتخاذ بعض الفكر التي عبر عنها قبله وحوله، ولكن بعد أن يضع عليها طابع عقله الخاص، كفكرة أن الدين مثلاً لا يتأتى من حروف مملاة في التوراة أو في القرآن [1]. وأنه كان حقيقة داخلية، وأن الإله

---

(١) -يضل هذا الفيلسوف الألماني ليسينج ضلالاً بعيداً إذ يقول هذا عن القرآن، فالإجماع منعقد عند المسلمين على أن كلام الله ليس بصوت ولا بحرف، بل ذلك أصل من أصول العقيدة الإسلامية، وإنما عبر عن معاني هذا الوحي الجليل بالحروف ليمكن نقلها إلى البشر لا أكثر ولا أقل، ولولا ذلك لتعذر الفهم وضاعت الغاية المقصودة من الدين. (المترجم)

كان في نفوسنا هو وجود العقل العام والأزلي الذي لا يستطيع أي فرد أن يرفض ارتضاءه. والاعتقاد هو واقعة وجدانية سابقة على اللاهوت، ومستقلة عنه. والدين كان موجوداً قبل أن يوجد لاهوت، ولو أتى يوم يكون فيه اللاهوت غير موجود لكان الدين موجوداً دائماً.

كان أيضًا يستأنف فكرة أن الخلقية هي من الدين، وفي الواقع، كما كان صديقه نيكولائي الناشر يقول في روايته «حياة الأستاذ سيبالدوس نوتانكير وآراؤه» (١٧٧٣ - ١٧٧٦) إن الراعي الذي يتقيد بالقاعدة العقيدية في أضيق حرفيتها، والذي يؤدي أعمالاً تقية، والذي يجمع ليبني المعابد، سيكون رغم ذلك راعيًا رديئًا، إذا كان قاسيًا نحو الفقراء، وفاقد الإشفاق على التعساء، وإذا كان يتمنى العقاب الأبدي لمن لا يفكرون مثله. وعلى الضد من ذلك حتى إذا أعلن أنك هرطيق وخارجي وكانت حياتك فاضلة، وكنت تطبق الفضيلة حولك، فإنك ستكون كما يجب الإله- العقل الذي هو في الوقت ذاته الإله- الإنسانية. إن جماعة مدرسي «إمستردام» الذين لا ينتسبون إلى أية كنيسة، ولكنهم يقبلون كل الناس في جمعياتهم الأخوية، لأنهم يقولون إنه يمكن دخول مدينة الإله من أكثر من باب واحد. والذين لا يطلبون من رجل يموت جوعًا، شهادة تعميده قبل أن يعطوه ما يأكله، هم أقرب إلى الدين الحقيقي من أشد اللوثريين أورثوذكسية.

كان ليسينج يستأنف أيضًا فكرة الصعود العقلي كما يعرضه صديق آخر من أصدقاء عصر برلين، وهو موزيس منديلسون في كتابه «فيدون» (١٧٦٧). ولكنه فيدون الذي كان قد قرأ هو أيضًا ليبنيز واسبينوزا، والذي كان يعير سقراط أمثال الأقوال الآتية:

«إن لدينا أسسًا وجيهة لأن نؤمن- تبعًا لهذا الاتجاه الذي لا يقاوم من جانب الكائنات العاقلة نحو حالة أكمل- بأن كمال هذه الكائنات هو النهاية العليا للخلق. إننا نستطيع أن نقول: إن هذا الكون الضخم قد أنشئ لكي يكون فيه كائنات عاقلة يستطيعون أن يرتفعوا درجة بعد درجة، وأن يصنعوا شيئًا فشيئًا في الكمال، وأن يجدوا في هذا النمو سعادتهم».

وأخيراً كان يستأنف فكرة سيملير Semler التي مؤداها أنه يوجد في كل دين عنصر محلي قومي وحائل، ولا ينبغي خلطه بجوهره الثابت. ولكن سيملير لم يكن يتبع ليسينج إلى النهاية، بل كان يقف في صف الذين يستنزلون عليه اللعنة، لأن ليسينج كان يتمم في جرأة هذه الإعدادات، وكان يحول تلك المجموعة من الفكر مضيفاً إليها فلسفة الصيرورة.

* * *

وفي الواقع ماذا كان الوحي بالنسبة إليه؟ إنه لم يكن شيئاً آخر سوى التربية التقدمية للنوع البشري. وهذا هو عنوان الكتاب الرئيسي الذي نشره في سنة ١٧٨٠ وهو «تربية الإنسانية».

لا جرم أن ما تمثله التربية بإزاء الفرد، هو ما يمثله الوحي بإزاء الإنسانية. وكما أن التربية لا تقدم شيئاً إلى الإنسان لا يكون فيه من قبل، ولكنها تهيئة له على صورة أيسر وأسرع. كذلك الوحي، لا يقدم شيئاً إلى الإنسانية لا تستطيع أن تلحقه بنفسها، ولكنه يعاونها على استخلاص ثرواتها الغامضة. إن الوحي ليس خاطف اللمعان، وإنما هو يستخدم الزمان. ومع أن الإنسان الأول، كان لديه فكرة إله واحد، فمن المستحيل أن هذه الفكرة المنتقلة لا المستكشفة، تستمر على الحالة الأصلية، وهكذا سلم الإنسان نفسه إلى الوثنية والتعدد اللذين لا ينبغي احتقارهما لو أعيد وضعهما في ترتيبهما الزمني وفي مكانهما، لأنهما، هما الإمكان الفظ لنمو مستقبل. ولقد كان من الممكن أن يبقى هذان الضلالان ملايين السنين لو أن الإله لم يمنحها اتجاهاً جديداً. وقد اختار شعباً، هو أجهل جميع الشعوب، وهو الشعب الإسرائيلي، لكي ينقل إليه فكرة الإله الواحد، وكان هذا التقدم جديراً بالإعتبار ولكن كم كان الإنسان لا يزال بعيداً عن المفهوم السامي للوحدة! ولم يكن هذا الشعب الطفل، يستطيع أن يتلقى تربية أخرى غير التي تتلاءم مع شعب طفل. ومع ذلك فإن الشعوب الأخر، قد تابعت طريقها على ضوء

العقل. وكان كثير منهم متأخرين، وكان البعض متقدماً. ولقد تعلم الإسرائيليون - أثناء عبوديتهم في وسط الدولة الفارسية الحكيمة- أن يقيسوا عقيدتهم بفكرة أسمى الموجودات على النحو الذي كان عقل أكثر مراناً من عقلهم قد عرفه عليه وعظمه.

إن الوحي كان قد أرشد عقلهم، والآن بدوره هو الذي يساهم في تقدم الوحي. وذلك هو العون المتكافئ الذي تبادلته هاتان القوتان. ولا جرم أن تأثيراً مشتركاً كهذا، هو في نظر الخالق متلائم إلى حد أن كان أحدهما، إما الوحي وإما العقل، سيكون عبثاً. وعن طريق هذا الاحتكاك، تعلم اليهود أن يعرفوا الإله على صورة أفضل، لأنه يوجد في كتابهم المقدس إيماءات وتلميحات إلى موضوع خلود النفس، ولكن هذه العقيدةالمتطرفة في السمو بالنسبة إلى الكافة، قد بقيت من امتيازات بعض الخاصة. وفي هذه الإعدادات، تنحصر قيمة التوراة، وهو كتاب أولي كان يجب اجتيازه.

وقد كان ذلك، فأتى المسيح، وكان العهد الجديد، كان هو الكتاب الثاني الأسمى من الأول، إذ أفاد وشغل الفهم البشري أثناء عدة قرون. غير أنه لا يستطيع أن يبقى إلي الأبد، وأن التقدم سيستمر، وستكون لدينا فكر أكثر ضبطاً وأقرب إلى الحق عن الجوهر الإلهي، وعن طبيعتنا، وعن علاقتنا بالإله. وسنسير نحو الخلقية النزيهة التي تجعلنا نعز الفضيلة لذاتها. إن ليسينج يصير حماسياً، ويتخذ لهجة الأنبياء حين يتحدث إلينا عن المستقبل البعيد فيقول: سيأتي ذلك الزمن الذي يفعل فيه الإنسان الخير لأنه هو الخير، دون أمل في المثوبة الاستبدادية الموضوعة أمامه، والتي كانت في الماضي تبدو ضرورية لتعين محط الأنظار. سيأتي يقيناً زمن الإنجيل الجديد الذي منذ الكتاب الأول موعودين به.

تقدمي بخطواتك غير المنظورة أيتها العناية الإلهية! واعملي فقط على أني بسبب هذا الطابع غير المرئي- أكون بحيث لا أيئس منك، حتى لو بدا أنك

تتقهقرين! ليس حقًا أن أقصر الخطوط هو المستقيم، لأن لديك كثيراً من الأشياء التي يلزم أن تجتذب في طريقك الأبدية!

إذا كان ليسينج ذلك الصلب الذي لا تلين قناته، يتحمس على هذا النحو، فإن ذلك بلا ريب لأنه يحسب نفسه في عداد الرسل الذين يعملون ويعانون، بين أنواع العقوق، وألوان عدم الفهم، وأصناف العداوات، لكي يمد للمجتمع المدني الخيرات التي هي بحالـــة الإنبات في الوقت الراهن، والتي سيحصدها المستقبل. وفي الحـــق أنه في نفـــس ليسينج يعمل الإله - الوحي، والإله- العقل، ممتزجين في إله واحد.

ويستطيع المرء أن يعتقد أنه قد مثل عمله الخاص في محاورة [1] تبتدئ كلغز، وتنتهي بالإعلان عن عقيدته في المصير الأخلاقي للإنسانية.

يعلن أحد المتحاورين أنه ماسوني، وليس ذلك لأنه ينتسب إى محفل ولكن بالضبط لأنه لم يخضع لأية مساهمة في الأسرار، ولم يصدر منه أي قسم، ولم يذعن لأي طقس، فما معنى هذا؟ إن المجتمعات المدنية التي تأسست لتحقق سعادة الأناسى، قصرت عن غايتها، ففي الواقع أنها تعرف المنازعات والحروب، وهي تعمل على تعارض بعض الدول مع البعض الآخر، كتعارض الفرنسيين والإنجليز والألمانيين والإسبانيين والإيطاليين والروسيين، بل إن من اليسير حتى في داخل كل دولة، أن يعثر المرء على عيوب، فسوء استعمال السلطة، والإفراطات، والامتيازات مستمرة. وكذلك تعارض الأثرياء والفقراء. وإذن فمن المهم أن يوجد حكماء مجردون من أوهام قبائلهم وعصورهم. ولا ريب في أن تقدمهم سيكون بطيئًا، وأنه سيمتد من قرن إلى قرن، وأنهم سيعملون للسلام وللعدالة والحب، إلى أن يأتي ذلك الزمن الذي تنتهي فيه الأفعال الخيرة بأن تكون تلقائية، والتي يعمل فيها الناس بلا أمل في المثوبة، وبلا خوف من العقوبة.

وعلى هذا النحو كان ليسينج، يرى نفسه في السنين السابقة على موته.

* * *

---

(١) Ernst und Falk, Gespracge Fur Freimaurer, 1778, Fortsetsung, 1780

ليسينج مؤله ولكنه مؤله يضع لنفس الكلمة معنى آخر غير ما سلف لها من معان، مؤله يحتفظ للأديان المقررة، وللدين المسيحي بنوع خاص، بالوفاء والاحترام، ويرى فيها مجهوداً مؤثراً نحو الحقيقة، وحقبة من حقب الغزو الروحي البطيء.

كتب ڤولتير في المحادثة الثالثة من «مأدبة الكونت دي بولانڤيلييه» ما يلي:

«كان للناس بإزاء الدين مسلك مضاد تماماً لما كان لهم بإزاء الملبس والمسكن والغذاء، ففي الواقع أننا بدأنا بكهوف وأكواخ، وملابس من جلود الحيوانات، وأثمار من شجر البلوط، وبعد ذلك وجد لدينا خبز، وأطعمة صحية، وملابس من الصوف والحرير المنسوج، ومنازل نظيفة ومريحة، ولكننا بإزاء الدين قد عدنا إلى ثمار البلوط والكهوف وجلود الحيوانات». وهذه فكرة بدائية، تتعارض معها الآن نظرية من أسمى النظريات التي أدركها المفكرون لشرح سير الإنسانية. وهي نظرية ليسينج.

أجل إن ليسينج هو رسول العقل، ولكنه عقل في الوقت ذاته كامن ومفارق "immanente transcendante" عقل يستعين أحياناً في عمله بالحدس، بل هو لا يرفض حتى لمعاناة الانكشافات الصوفية الذين ينظر إليهم العقل على أنهم أسلاف الحكماء، وأنهم فقط كانوا متطرفين في سرعة المعرفة.

ولقد كان ذلك بحيث إن ليسينج بهذا، قد رد الاعتبار إلى قوى كان سلافه قد جحدوا قيمتها، بل وجودها.

حقاً إن ليسينج هو أحد أساتذة حركة الأنوار الألمانية أو «أفكلارنج» ولكنه غير معنى هذه الحركة. فهي عند الآخرين كانت ميزة عصر الأنوار وعند ليسينج، كانت وميضاً قد لمع من قبل على صـــورة ضعيفة من أعماق العصـــور، ولم يصنع العصر الراهـــن أكثر من أنـــه قواه، وأنه كان يجب أن يصفـــو في تيار مستقبل غير متناه.

كانت عند الآخرين واقعة ثبتت واستقرت بفضلهم، وكانت شيئًا محدداً ونهائيًا وعند ليسينج كانت صيرورة. كانت عند الآخرين رفضًا لكل ما ليس حقًا لديهم، وعند ليسينج كانت قبولاً وشرحًا لكل شيء. كانت عند الآخرين هي الهزيمة غير القابلة للإصلاح للميتافيزيقي والعقيدة، وعند ليسينج كانت ميتافيزيقي وتوشك أن تكون عقيدة.

كان «الإصلاح» "La Réforme" قد أتم وحدة الإيمان وأتمها إلى حد أن كل الجهود التي بذلت لإعادة إقامتها، مهما استمرت، كانت عبثًا.

غير أنه في ذلك الحين كانت حالة أخرى، وأن وحدة الإيمان لم تكن تستطيع أن تكون شيئًا آخر غير ذكرى ضاربة في البعد، لأن كل حكيم كان يؤول حسب طريقته طبيعة الإله الذي كان يقبل الاحتفاظ به، وعندما كانت هذه المذاهب المتباينة تهوى إلى عقلية الجماهير، كانت تخف، وكانت تتحلل ثم تنتهي بأن تختفي. إنه لم تعد بعد توجد مجموعة من المؤمنين بينهم بضعة من المتمردين، وإنما كان يوجد متهاونون، ولم تعد المسيحية تنقسم فحسب، بل كانت تتفتت وتنحل.

كان هناك قطيع لا ينقب عن هناءته إلا في هذه الحياة الفانية، وكان يشرحها على صورة منحطة. ولم يكن يرى السعادة إلا في الرفهنية والترضيات المادية، بل في اللذة. ولم يكن هذا القطيع حتى ملحداً، مادام أن الإلحاد يفترض صيغة الجحود. إنه لم يكن شيئًا، إذ أنه كان قد وكل إلى ضميره الخاص، ولم يكن لديه ضمير. وفيما عدا الواجبات التي فرضتها عليه الحياة الاجتماعية، لم يعد يشعر بواجبات، ولم يكن يذكر سوى حقوقه.

إن آلافًا، بل مئات الآلاف، بل الملايين من الأناسي- حين أصبحوا لا يشعرون بشيء من قلق بوب، وحين صاروا لا يرون في فولتير إلا جانبه الهدام، وحين أضحوا عاجزين تمامًا عن اتباع ليسينج في نظرياته، وعن مرافقته في تحمسه- كانوا يفقدون معنى الألوهية، سواء أكان ذلك من حيث الأصل، أم من حيث الغاية. وكانت تلك نهاية المطاف للتأليهية.

# خاتمة

## أوروبا وأوروبا الزائفة

ماذا كانت أوروبا بالضبط؟ لم يكن أحد يعرف ذلك.

في الشرق كانت حدودها غير مؤكدة. وفي الداخل لم يكن لها نفس التقسيمات بالنسبة إلى الشعوب التي كانت تقطها، بل إن إسمها نفسه كان يشرح شرحًا سيئًا. إذ تحدثنا الأساطير أن جوبيتير قد اتخذ صورة ثور واختطف «أوروبا» ابنة أجينور (Agénor)، بينما كانت تتنزه مع رفيقاتها على أحد شواطيء فينيقيا. ومن أجل هذه الجميلة، أطلق اسمها على أحد أجزاء العالم، وتلك قصة خرافية لم يكن حتى هيرودوت يؤمن بها.

غير أنه لفقد الفكرة المحددة كان الناس يشعرون بعاطفة جد قوية، مؤداها أن أوروبا تفوق أجزاء العالم الأخر في كل شيء. حقًّا إنها أقل سعة من آسيا وأفريقيا وأمريكا، وأن أهلها أحسوا في هذا بشيء من الغضاضة. ومن ثم فإنهم قد أضافوا على عجل، أن هذا الصغر قد عوض بعدد من أسباب العظمة، ورغم أنها غير ثابتة الحدود، هي ذلك تؤلف كلا عجيبًا[1]، إذ كان لها قوانين مشتركة، وكان لها دين مشترك هو الذي صنع منها مجموعة شعوب مسيحية، وتلك ذكرى لاتمحى من أعماق الضمائر المتمردة. إنها تؤلف نوعًا من جمهورية عظمى مقسمة بين عدة ولايات، بعضها ملكية، والبعض الآخر مزيج، وهذه أرستقراطية، وتلك شعبية

---

oh. Ch, Adelung, pragmatische Staatsgeschichte Europens, Gotha 1762 (١)

ولكنها جميعها متصلة بعضها ببعض، ولها كلها دين واحد في أساسه، ولها كلها نفس مبادئ الحق العام، ومبادئ السياسة، التي لاتعرفها الأجزاء الأخر من العالم[1]».

وكان الإغريق يتنازعون فيما بينهم، ولكنهم يحتفظون بالصلات الأدبية، كأنهم سكان مدينة واحدة، كذلك كان الأوروبيون يمكن أن يتقاتلوا، وأن يمزق بعضهم بعضاً، ولكنهم بقوا متماسكين. وبالإجمال «لم يتخذ القرن الثامن عشر شهرته من بلد، ولا من دولة، وإنما هو مدين بها لجميع شعوب أوروبا وبلادها، وهذا هو الذي صير الشهرة عظيمة وشائقة، وحقيقية إلى هذا الحد[2]...».

حقًا لم يكف الناس عن الثناء على الفضلاء الصينيين، والحكماء المصريين، ولكن كان ينبغي الاعتراف بأنه لا الصين ولا مصر قد وفتا بالعهود التي قطعتها مظاهرهما في الماضي، فبقيتا جامدتين، بينما أن العقلية الغربية قد أظهرت شغفًا بالاطلاع لايقبل الفتور، وأنها لم تتوقف قط، بحيث إن الإغريق واللاتينيين أنفسهم قد تفوق عليهم العصر الراهن.

كان في الماضي مراكز منيرة، وإن كانت قليلة العدد. نعم إنه لم يكن شيء إذ ذاك يطفئ أثينا وروما، ولكن باريس، إبان سطوعهما، «لم تكن سوى مدينة بربرية صغيرة، وأمستير دام لم تكن سوى بطيحة، ومدريد كانت صحراء، وكل شيء من شاطئ الرين الأيمن إلى خليج بوتني، كان متوحشا[3]» وهكذا كانت أوروبا الحديثة، أفضل من أوروبا القديمة. وكم من الامتياز كان خاصاً بها! فمن أمثلة ذلك، القوة العسكرية، وما فيها من ضخامة الإنفاق، وعدد الكتائب، واستمرار الاحتفاظ بها. ومنها نمو الزراعة، والجو المعتدل، وخصوبة الأرض باستثناء الأراضي التي توجد في الطرف الشمالي، ورواج التجارة الذي أعانت

---

(١) Voltaire, Siécle de Louis XIV, Intro. chap

(٢) Esprit et génie des écrivains du 18 éme Siécl, Amsterdam Sans date

(٣) Voltaire, L'A.B.C, 1768, Septiéme eatreten

عليه وفرة طرق المواصلات. وازدحام السكان. وثراء المدن. لكن الذي فوق ذلك كله، هو السمو العقلي في العلوم والفنون الجميلة، والفنون الميكانيكية التي كانت تضاعف الثروات، وسلطان العقل الذي كان يتجه إلى العام ويصلح الغرور القومي الأحمق أي إن أوروبا كانت هي الجزء الفلسفي، أو الجزء المفكر.

وليس معنى هذا أن أبنائها كانوا مبرئين من العيوب، كلا فهم كانوا هائجين، وكان تاريخهم تاريخ ثورات غير منقطعة، ونسيجًا من أنواع البؤس وألوان الجنون، وأصناف الجرائم. ولما أفسدهم الترف، فقد كانوا يستغلون في قسوة سكان المستعمرات التي غزوها. ومع ذلك فإنهم كانوا يحتفظون بحق اعتزازهم بأنفسهم، إذ أنه لماذا لم يقتحم الأسيويون والأفريقيون مرافئهم، ولم يغزوا أراضيهم ولم يفرضوا سلطانهم على أمراء البلاد؟ ذلك لأنهم كانوا هم الأقوى، وكانوا هم الأقوى لأنهم هم الأحكم، وحيث إنهم هم الأحكم فإنهم كانوا يمثلون درجة أكثر تقدمًا في المدنية[١].

كانوا يرتحلون، كما لو كانوا يريدون أن يحيطوا ـ على صورة أوكد ـ بممتلكاتهم التي لانظير لها. ولقد تغير طابع السفر، فلم يعد هوى من أهواء شاذ، مفرط في الشغف بالاطلاع، ولكنه تعلم وعمل، وتتميم للتربية. وبالإجمال إنه كان مدرسة الأوروبيين.

كان الإنجليز يحققون «جولتهم العظمى» تحت قيادة مرب. والألمانيون كانوا يعرفون أن تكوينهم لم يكن يمكن أن يكون تامًا لو أنهم لم يذهبوا لينصقلوا في البلاد الأجنبية. والإيطاليون والفرنسيون، كانوا في كل مكان. والروسيون لم يعودوا أولئك الموسكوفيين العجيبين الذين أدهش ظهورهم الجيل السالف، وإنما كانوا يأتون مغتبطين لينفقوا ربلاتهم في المدن الغربية الكبرى، ولاسيما باريس.

---

(١) SSamuel Johnson, Rasselas, 1759, Ch, XI `` Montesquieu, Cahiers, "Grasset. P, 65 sqq.

عندما كان المرء يبتعد عن بلده، لم يكن يفكر في أنه يقذف بنفسه في حملة جريئة معرضاً نفسه للخطر، لأن الطرق قد صارت أفضل، والتراسلات أيسر، بل بدأ الناس يسرون ليلاً، فكان ذلك ثورة. ولم تعد أبواب البلاد تغلق حين يدق ناقوس إطفاء الأنوار، وكان سائقو المركبات يدفعون خيولهم في جرأة إلى الطرق المظلمة، فكان يقتصد نصف الوقت. وكان المترفهون يصطنعون لهم مركبات واسعة، بل إن الدوق دي ريشيليو كان له سرير في مركبته ومخزن للطعام يحتوي ثلاث وجبات، ويروي أنه في سنة ١٧٤٢ في نفس الساعة التي غادر فيها مدينة شوازي ليروا، دفأ الملاءات ونام بمحضر ثلاثين شخصاً وطلب إيقاظه في مدينة ليون.

كل الممثلين الذين أبرزناهم على المسرح[١]، ينبغي أن نستدعيهم من جديد لنظهرهم في تحركاتهم.

لايكاد يوجد رجل من رجال الأدب في القرن الثامن عشر، لم يكن عنده لوثة الأسفار، حتى صموئيل جونسون ـ وهو أسمك الكتاب ـ قد غادر منزله، ومقعده الوثير، ومكانه في حانة «أولد شيشير شيز» لكي يرى القارة بل إن ديديرو نفسه قد انتهى بقبول مغادرة باريس إلى سان بيثير سبور، بل إن الأمراء المرتبطين بأمكنتهم الوراثية كانوا يرتحلون، وهكذا عرف أمير السويد أن وفاة والده، قد جعلته الملك جوستاف الثالث بينما كان موجوداً في أحد ألواج الأوبرا بباريس.

كان الرحالون يزورون شهيرات قاعات التاريخ الطبيعي، وغرائب الأشياء. وكانوا يصيحون صيحة الدهش أمام الأحجار التي تحتوي على الماء، وأمام المطمورات الكائنات البشعة. كانوا يزورون العلماء في منازلهم المتواضعة، ويشهدون جلسات المجامع، ويقيسون الكنائس، ويعدون درجات سلالم الأبراج، ويترددون على المسارح ولم تكن تفوتهم ألبتة تمثيليات أوبرا ولاسيما في

(١) يقصد المؤلف بهذه العبارة جميع الأشخاص الذين تحدث عنهم إلى الآن، وصورهم كأنه أبرزهم على المسرح. (المترجم)

ايطاليا، لأنهم كانوا يتلذذون بالموسيقى وكانوا يسعدون بأن يحملوا في أمتعتهم آخر منتجات بيرجوليز[1] «Pergolése» ليعملوا على تمثيلها في بلادهم بعد عودتهم. وكانوا يدخلون قاعات عمل الرسامين والحفارين، فيشترون لوحات وتماثيل، ويجمعون أيضاً الميداليات الأثرية.

كانت هناك عواصم أوروبية كباريس التي كان المرء يشعر فيها بحرية غريبة، ويستطيع أن يبدو فيها كما يشاء، ويستطيع أيضاً أن يختفي دون أن يلمح ذلك أحد، باريس مجمع العجائب ومزيج مافي كل منطقة من خير ومصدر الترحيب بقاصديها من بين جميع المدن بوساطة وداعة أخلاقها، وبشاشة أهلها، وملتقى الأجانب الذين يقيمون في فنادق، باريس نور الأنوار. والبندقية الحلوة التي هي سرور وفتنة وسحر بكرنفالها، وأنقبتها، ونزهاتها الزورقية، وملاعبها، ومسارحها التي تحمل أسماء كنائس، وأنغامها الموسيقية التي كانت توقع حتى في أديرة الراهبات، ومسارح ميدان سان مارك المتنقلة، ومومساتها اللواتي كن يستقبلن في قصور، البندقية سيباريس، الحديثة[2] وروما وأسبوعها المقدس، ونابولي وربيعها. وفينا التي - وهي في الوقت ذاته جيرمانية، ولاتينية - كانت باب يفتح صوب الشرق.

ذلك الميل إلى السفر، وهو في نمو على الدوام، كان مسجلاً في مراشد، وفي أوصاف وأدلة بل مكتبات بتمامها، وأكثر من ذلك أن الأجنبي قد صار نموذجاً للمهزلة، فاللورد رونيبيل الإنجليزي، والفارس ليبلو الفرنسي، ودون ألفارو دي كاستيليا الإسباني، واالكونت دي بوسكونير و الإيطالي، كانوا يتجمعون على المسرح، وكانت تمثل مسرحية مثل «الفرنسي في لندن» و«الإنجليزي في بوردو».

---

(١) بيرجوليز هو فنان اشتهر بالتأليف في الموسيقا الدينية -(١٧١٠-١٧٣٦). (المترجم)

(٢) سيباريس هي إحدى المستمرات الإغريقية في إيطاليا الجنوبية وقد هدمت في سنة -٥١ قبل المسيح وقد اشتهرت بالمدينة المفرطة في الترف والنعومة. (المترجم)

إن الصور الساذجة التي كان الناس بوساطتها يحبون أن يمثلوا سكان البلاد الأخرى، كانت أحياناً مضبوطة، وفي أكثر الأحايين زائفة، وكانت تظفر بالثبات إلى حد أن الزمن ذاته لم يعد قادراً على محوها. ولقد كان المرء، ولو لم يغادر قط باريس، يرى على المسرح، الإنجليزي الصامت الفيلسوف السوداوي المزاج، والذي هو دائماً ثري. ودائماً سخي. والإيطالي دائماً صديق الفنون الجميلة، والإسباني دائماً شريف معتز بنفسه. وكان المرء يشعر إذ ذاك، بأنه عضو في جماعة غريبة ولكنها غير قابلة للانحلال.

كانت العادات تهاجر، كالأوبرا على النمط الإيطالي وكالمنتدى على النسق الفرنسي، والشاي على النهج الإنجليزي، بل الصباح على النظام الإنجليزي، وقد انتهى الناس إلى التحدث عن العادات المشتركة في أوروبا.

كان الأفراد العاديون يتراسلون ويقدموت أنباءاً عن حركة العقول أكثر من أنباء حياتهم الخاصة وفوائدهم، وأحداث غرامهم، كأنهم يقولوا مثلاً إن الكتاب الفلاني قد ظهر آنفاً، وإن المأساة الفلانية قد قوبلت بالصفير. وكذلك الجمعيات العلمية كانت تتراسل، وكان هناك كتاب مأجورون اتخذوا كمهنة أن يبعثوا إلى أمراء ألمانيا بطليعة أنباء منتجات باريس، والصحف ـ وكانت قبل ذلك فهرساً لثروات بلادها الأدبية ـ قد احتلتها تقارير عن كتب ماوراء الجبال، وما وراء البحار. وهناك صحف أخرى تأسست خصيصاً لتنشيط التبادل مثل «المكتبة الإنجليزية، والمكتبة الألمانية، وصحيفة التجديدات الأدبية الإيطالية، والصحيفة الأجنبية». وهناك أيضاً صحف أخرى كانت تذكر ـ حتى في عناوينها ـ بطابعها الأوروبي مثل «أوروبا العالمة، وتاريخ أوروبا الأدبي ومكتبة علماء أوروبا المتعقلة، والمكتبة العالمية، أو صحيفة أوروبا العظمى، وشذرات من الأدب الأوروبي، وأوروبا الأدبية، والصحيفة الأدبية لأوروبا، والبريد التاريخي الأدبي الاقتصادي العام لأوروبا». وبقراءة هذه الدوريات، كما تقول صحيفة إيطالية «إن الأشخاص

الذين كانوا في الماضي رومانيين وفلورانسيين وجنوبين أولومبارديين، كانوا يصيرون جميعًا أوربيين[1]».

ولو أن اللغات الأجنبية لم تكن تعلم في المدارس، فإن الناس قد بدأوا يتعلمونها حين لمحو أنها صارت في الحياة ضرورية لصحبة العقول.. وعندما كان كتاب قواعد لغة أجنبية يظهر، كان يتنقل من طبعة إلى طبعة، ويستمر فترة طويلة، حتى يأتي مؤلف آخر، فبعد أن يثبت أخطاء سالفه يقذف في دوره بكتاب آخر في تلك القواعد أكثر ربحًا، بل كان يحدث للخصمين أن يمتزجا بدلاً من أن يتناوبا الضرر، لأن كتابين في واحد شيء حسن للمشتري، وحسن أيضًا للبائعين. وكذلك القواميس كانت تظهر عديدة، كما تظهر المقتبسات والقطع المختارة. وكان معلمو اللغات يوجدون على كل الدرجات أي منذ أشد الأفاقين خفوتًا، إلى أعظم الكتاب شهرة: فباريتي كان أستاذًا للإيطالية في لندن وجولدوني كان أستاذًا لها في باريس.

كم هناك من ترجمات! وكم يرى المرء عددهم يعظم لو أنه يتتبع تطورها منذ القرن السابع عشر، إلى القرن الثامن عشر! ترجمات يسجل فيها ـ عن طريق الكبوات، وعكس المعنى المراد ـ جهل الجرآء الذين لايعرفون اللغة الأجنبية ولالغتهم، ومشروعات تجارية يعمل فيها المحتاجون لحال ناشرين جشعين، وكتب رئيسة تعامل «معاملة أولئك التعساء الذين جردهم أحد القرصان من ملابسهم الفخمة، بعد أن انتزعهم من وطنهم، وهو سيبيعهم بعد ذلك في أراض بعيدة محملين بالبؤس والمهلهلات[2]». وتراجمة وقحاء يحسبون أنفسهم أسمى من المؤلفين الأصليين الذين يزيلون عيوبهم، ويبرزون جمالهم بلا حياء. إنها لترجمات جميلة غير أمينة، وهي بالضرورة غير أمينة مادام أنها كان ينبغي أن

---

(١) Caffé, 1764, premier article

(٢) La Barre de Beaumarchais, Lettres sérieuses et badines, 1729. tome il, 2éme partie, Lettre 19

تتجه، بلا تصادم يذكر، من المجهول إلى المعلوم، وأنها تعمل على تذوق طعام أجنبي دون أن توحي بامتعاض، كانت تمر كما هي، وبوساطة تأثيرها، كان يتكون أدب دولي.

وبقدر ما كانت الصلات تتضاعف على هذا النحو، كان النظام يصير أكثر ضرورة، وكان ينبغي وجود مراتب قيمية، وفوق قمتها سلطة مقررة، وفي وقت معين استطاع الناس أن يؤمنوا بأن السلطة التي اختارتها أوروبا لملء هذه الوظيفة العليا، هي فرنسا.

لسبب أنها كان لديها القوة السياسية التي بغيرها لايشعر الأدب بأنه مؤيد، ولأنها كان لديها العدد اللازم، وأنها كانت تنتشر، ولأنها كان وراءها تقاليد ثقافية طويلة، ولأنها كان فيها لويس الرابع عشر، ومجموعة من العباقرة، لهذا كله، كانت قد عرضت نفسها على أنها نموذج منذ القرن السابق. وهكذا، بدلاً من أن يسود الظلام ـ كما يحدث عادة بعد اختفاء ثُرَيَّة العباقرة ـ قد جعلت تظفر بسطوع جديد، فلم يكن كورني، وراسين، وبوسويه، وفينيلون، قد انتهوا من استنفاد قوتهم، حتي كانت نجوم أخرى أخذت تبدو في سمائها. وهؤلاء الكتاب الذين يشرفونها الآن، كان لديهم نفس الميزة التي تثير المنافسة لأنهم كانوا هم الحداثة نفسها. ولم يكن هناك أكثر حيوية، ولاأجرأ ولا أصرح منهم في التعبير عن الفكر والدفاع عنها، وإذاعتها تلك الفكر التي كانت تفرض نفسها على العقليات المعاصرة، بحيث إن فرنسا كانت تحتفظ بالسمو الأدبي الذي تلقته عن طريق الميراث، وكانت تسوغ هذا الامتياز بإنتاج جوهري. وكانت جميع الشعوب تقريبًا، تشعر بأنها متأخرة عندما توازن نفسها بها، وبما أنها كانت تريد أن تتلافى هذا التأخر، فإن حركتها الأولى كانت هي اتخاذ فرنسا مرشدًا، ذلك امتياز نادر لهذا البلد الذي هو في الوقت ذاته ينظم ويلهم، والذي هو في الوقت ذاته أيضًا، يمثل الثبات الذي يطمئن، والحركة التي هي الحياة!

كان الأجانب يحاولون أن يوازوها في الأنواع الكلاسيكية التي أبدعت فيها ولاتزال تبدع، وفي نفس الوقت كانوا يريدون أن يفكروا مثلها سريعاً وفي جرأة. وكان في ذلك العصر الذي كانت التعبيرات الفرنسية الخاصة أو «الجاليسيسم» «gallicisme» تغزو فيه اللغات الأجنبية، والذي، بدلاً من أن يخجل الأجانب فيها من ذلك، كانوا يقولون إنهم يعتزون به، لأن اللغة الفرنسية التي كانت نقية وواضحة ومصقولة، قد صارت نفس تعبير العقل. وفي الواقع أنه، تحت تأثير أي ارتباط باللغة العتيقة الخالصة، وعن طريق أي وهم قومي كانوا سينبذونها. ولماذا كان من الممكن أن يرفضوا الانتهال من مفرداتها؟.

كان ذلك في الوقت الذي كان الناس يكتبون فيه الفرنسية ـ حتى نهر نيفا في روسيا ـ كما تكتب في قصر فيرساي، والذي هجر فيه كثير من الكتاب لغاتهم الأصلية وفضلوا عليها لغة الرشاقة والفلسفة التي كانت تسمح لمنتجاتهم بأن تقرأ في جميع البلاد. كان كذلك هو الوقت الذي يعرض فيه مجمع برلين ـ كموضوع مسابقة لسنة ١٧٨٤ ـ الأسئلة التالية:

«ما الذي جعل من اللغة الفرنسية، لغة أوروبا العامة؟ ومن أين كانت تستحق هذا الامتياز؟ وهل يمكن افتراض أنها تحتفظ به؟» وهو الوقت الذي كان فيه ذلك المجمع يتوج ـ مع خطبة شقاب الألماني ـ خطبة ريفارول «Rivarol» التي ثبتت سمو فرنسا العقلي، وفي هذا يقول فولتير:

«إن الفرنسيين كانوا، منذ أكثر من مائة وخمسين عاماً، هم الشعب الذي عرف المجتمع أكثر من غيره، والذي أقصى عنه كل تضايق[١]..

ذلك امتياز آخر كان يشرح نفس الصدارة في الرفعة، ولو أن أوروبا كان يجب عليها أن تؤلف مجتمعاً، لكانت فرنسا هي التي تقدم إليها المثال.

---

(١) Voltaire, Dictionnaire philo, article Langues

كانت باريس كأنها منتدى عظيم يحلو فيه السمر والسطوع بل حتى الاستماع. ولقد كان الذين يتذوقون حلاوة الحياة، يحتفظون بانقباض الأسف، على الفردوس المفقود عندما يغادرونه بلا رجعة، وذلك مثل الأب جالياني الذي - عندما كان لابد له من الذهاب إلى نابولي رغم إرادته - لم يتعز عن ذلك قط. ولقد كان يخيل إلى الناس أن وجوداً أفضل من الوجود الذي قدم الماضي له المثل، قد تنظم في باريس، وكانت هناك رفقة أكثر إنسانية قد استقرت فيها [1]. وكان الناس يودون أن يتبع هذا المثل في كل مكان. وكانت أرستقراطية الدول المختلفة، وطبقة الأثرياء فيها تفعلان أقصى ما في وسعهما لكي تجتذبا إلى بلادهما أولئك الذين عرفوا كيف يشيدون هذا البناء السعيد. وقد بدأ ذلك الجهد بترتيب المنازل وزينة الأشخاص أي بعمل الطهاة، والقائمين على أمر الشراب، وصانعي الشعور المستعارة، والخائطين. وعندما كان الأجانب يستعملون شعر الفرنسيين المستعار، وملابسهم، كانوا يتخذون مظهريهم المادي والأدبي. وحين كانت خائطات شارع أونوريه، تبعثن إلى المدن الأجنبية الكبرى بالدمى مرتدية ملابس على أحدث طراز في بارس، لكي تعرض في البترينات، فإنهن كن يؤدين نصيبهن من التأثير الاجتماعي، وكذلك كانت صانعات القبعات، ومعلمو الرقص. وقد استمر ذلك الجهد على أيدي الممثلين الهزليين الذين كانوا يمرون بقصور الأمراء وبالعواصم، بل يستقرون فيها أحيانًا، وفي هذا يقول الأب جالياني: «لو كنت تستطيعين أن ترى مسرحنا، لقدم إليك مشهداً جد مضحك، أي لرأيت فيه مدرسة أطفال كل واحد منهم كتابه أمام عينيه، ورأسه منخفض، دون أن يحول عينيه ألبتة ليرى المسرح، وهم يبدون مغتبطين بأن يعرفوا الفرنسية [2]».

---

(١) Lettie ge Frugoni á Algarotti, de parme, le 13 Octopre, 1758

(٢) L'abbé Galliani á madame d' ´pinay Le 16 Janvier, 1773

ولقد استمر ذلك الجهد، بوساطة الفنانين من كل نوع، وكانوا هم أيضًا يعملون في تشييد أوروبا فرنسية في عصر الأنوار[1]. ولو أن الناس كانوا قد رتبوا على فصائل، العبارات الفرنسية الخاصة التي ظفرت إذ ذاك بحق الإقامة في خارج فرنسا، لرأوا كيف أنها تنتسب إلى فن إجادة المأكل، وإتقان الملبس، وإحسان المظهر، واستعمال طرائق الأدب الممتازة والتحدث كإنسان الطبقة العالية، وكيف أنها تترجم أيضًا عن ألوان من المفارقات السيكولوجية والأخلاقية التي تساهم في صقل العقل، . إنها تؤلف مجموعة متسقه بعد فوضى إتيانها الأول. وهي تتضمن فكرة عن الفنون أي الفن العسكري، وفن التحدث، وفن الحفر أو الرسم، وفن التفكير، وفن الحياة.

بل قد نشأ هذا الحادث الغريب، وهو أن الناس قد انخدعوا في معنى كلمة «كوسموبوليت» أي الإنسان العالمي، ففي الواقع أن الكوسموبوليت، قد أصبح، ولو على غير علم منه، هو الإنسان الذي يفكر على الطريقة الفرنسية، لأن هذا الإنسان كان يدخل في قبيلة، وكانت عضواً في نوع، وكان مواطنًا أيضًا في دولة، وكانت تلك الدولة تشتمل على المتمدنيين من جميع الدول، وكان أعضاؤها يشعرون بأنهم متحدون بوساطة جماعية اللغة بل الحياة. ولاجرم أن الحالة القصوى هي ممثلة في الإنسان الذي يكون أشد الجميع سطوعًا، وهو أمير دي ليني[2] Le prnce de Ligne كان هذا الأمير يقول: إن له كثيراً من الأوطان إلى حد أنه لم يعد يعرف بالضبط إلى أيها ينتسب. إنه يشعر بأنه على أتم راحة في فيينا، كما هو في سان بتيرسبور. إنه في حركة دائمة، وإن أوروبا لم تعد بالنسبة إليه سوى طريق طويل ذي فنادق عدة، وإنه يجوبه على جواد مسرع، إنه في الواقع ـ باللغة

(١) Louis Réau L'Europe Francaise au siéclé des lumiéres, 1938

(٢) أمير دي ليني هو قائد بلجيكي لجيش النمسا وكان كاتبًا ممتازاً وحاضر البديهة مشهور بحسن النكتة (١٧٣٥-١٨١٤). (المترجم)

التي يتكلمها والتي يكتب بها، وبميزة عقله، وبأخلاقه، وبكيانه كله ـ هو ينتسب إلى الصفوة التي تخلط بين كلمتي باريس «وكوسموبوليس» أي المدينة العالمية «Cosmopolis».

وفي وصف هذه الحالة يقول الكاتب العصري رودولف ميرز «كان إذا ذاك تيار واحد يجري خلال كل أوروبا الغربية ، فيحقق وحدة روحية تشبه وحدة النهضة والإنسانوية «Humanisme» والرومانتيكية فيما بعد»[1]. أو على الأقل أن هذه الوحدة قد أرادت أن تتحقق، وقد حاول الناس أن يعيدوا تشييد روح أوروبية ، بل إن شعوب الأطراف التي كان بعدها، والطابع الخاص للغتهم وفرديتهم، يبدو أنها تقصيهم عن الحركة العامة، قد جعلوا يرتبطون بها شيئًا فشيئًا. ومن أمثلة ذلك أن السويد ـ وهي التي قضى عليها بأن تنطوي على نفسها بعد ملكها شارل الثاني عشر ـ دخلت أول الأمر في عصر كان كأنه سبات، ولكنه لم يكن سوى عصر استجماع للقوى. وبعد قليل، طفقت تساهم في إنتاج العلم الذي كان إنتاجًا لأوروبا كلها، بوساطة العالم الطبيعي لينيه «Linné».

أما أولاف دالان شاعرها في البلاط فقد كان يعالج الموضوعات الملائمة لذوق العصر والتي هي من الأنواع البدعية. وفي سنة ١٧٥٠ أنشأت مدام نوردان فليشت «Madame Nordenflycht» المنتدى الأدبي الأول الذي عرفته استوكهولم.

وأما هونغاريا، فإنها، بوساطة الجامعات الهولاندية التي كان الطلاب الهونغاريون يتوافدون إليها أفواجًا، وبوساطة الجامعات الألمانية التي كان طلاب آخرون يتعلمون فيها فلسفة فولف، وبوساطة اليسوعيين والبياريست، وعن طريق فينا، وبوساطة الصلات الهونغارية مع باريس، بفضل أولئك الأشخاص المتباينين الممثلين للعقل الذي قد صار ملهم العصر الجديد، قد أصبحت حديثة.

---

(١) Rudolf Mertz, les amitiés francaises de piume et le mouvement des idées, Re-vue, de litt. comparé, 1929

وأما بولونيا ـ وهي المنقسمة على نفسها والفوضوية وغير القادرة على مقاومة مطامع جيرانها والمقضي عليها بالهلاك ـ فإنها كانت تزاول منذ عهد استانيسلاس ـ أوجست، مهمة مؤثرة، فقد كانت تود أن تتخلى عن العناصر السارماتية[1] «Sarmatisme» التي جعلتها راضية عن عيوبها العتيقة، وأن تتخذ من الأجانب سر الإصلاحات الاجتماعية التي قد تنفذها، وأن تغير مناهجها في التربية، وأن تطلب الفلسفة من دائرة المعارف، والمنطق من كوندياك، وعلى هذا النحو ستجد قوة حيوية. كان ذلك مجهوداً ضخماً في وسط الانقسامات التي ستجعلها تختفي من عداد الدول، وكان ذلك كفاح مسابقة في السرعة. كانت تؤمل أن تربحه، وإذا فقدته فإنها على الأقل ستظفر باستقرار إرادة ستكلها إلى المستقبل.

وأما روسيا، فإنها ـ مع تطلعها إلى الشرق ـ كانت تستعير من أوروبا معونة فنانيها، وعلمائها ومهندسيها، وفلاسفتها، لكي تعود إلى تقاليد بطرس الأكبر.

ولقد كان ذلك إلى حد أن رسمت لتصوير هذه الحالة خريطة نموذجية، في المركز منها يوجد البلد الذي كان يعطي أكثر مما يأخذ، والذي كانت لغته تقدم إلى الشعوب المتباينة، وسيلة التخاطبات التي تشتهيها، والذي كان فكره يبهر الجميع، وهو فرنسا، . وإلى جانبيها، كما لو كانت تساعدها، هولاندا بمكتباتها وصحفها، وسويسرا وهي الوسيطة «Helvetia médiatrix».

ولقد كانت الدول الأخرى، توجد على مسافات يتفاوت بعدها كثرة وقلة لقيم منتجاتها ولكنها منجذبة دائماً حولها على تلك الخريطة الكوكبية، وفي هذه المجموعة كان يوجد نظام روحي أو نظام أوروبي.

* * *

(١) السارمات هو شعب قديم من شعوب أوروبا الشرقية وقد تهدم كيانه في القرن الثالث بعد المسيح على يد البرابرة الزاحفين من الشمال ثم لم يلبث أن اندمج في الجنس السلافي. (المترجم)

لم يكن ذلك مجرد ظاهر، وإنما كان أحد مظاهر الحقيقة، ولكنه لم يكن هو المظهر الوحيد.

في الحق أن أوروبا كانت تنقب عن وحدتها ولكن ليس أقل من ذلك حقية، أنها في الوقت ذاته كانت تتبادل التمزيق على أقصى ماتستطيع متبعة في ذلك عادتها، فالكتا ب الذين كانوا يتحدثون مثلاً عن السويسريين أو عن البولونيين أو عن البورتوغاليين أو الموسكوفيين، لم يكن يفوتهم قط أن يضيفوا إلى تعريفهم نعتًا مسيئًا، وكانت كلمة «لكن» تأتي دائمًا لتحدد تعداد المحامد، كما لو كانت آتية لتصحيح أو لهدم نتيجة الثناء. ولو فتح المرء «القاموس التاريخي» لموريري، عند مادة أوروبا، لألفى فيه على الفور مثل هذا التحامل الذي هو عام إذ يقول: «يقال إن الفرنسيين مؤدبون، ولبقون، وكرماء، ولكنهم متسرعون وغير ثابتين، وإن الألمان مخلصون وعاملون ولكنهم ثقلاء الأرواح، ومفرطون في الشرب، وإن الإيطاليين أرقاء، وودعاء في لهجتهم، ولكنهم غيورون وغادرون، وإن الإسبانيين كتومون ومتبصرون ولكنهم صلفون ورسميون، وإن الإنجليز شجعان إلي حد التهور، ولكنهم متكبرون محتقرون ومعتزون بأنفسهم إلى حد الشراسة . . .»، وهكذا كان كل واحد يتلقى نصيبه. والآن لنتصفح تمثيلية بواسي «Boissy» وهو أحد الذين كانوا يحبون أن يضعوا على المسرح أشخاصاً أجانب، فإننا سنجد فيها مايلي: «لقد جبت دون أن أتخذ مثوى، ألمانيا وسويسرا حيث تعلمت بالطبع فن الشرب على التوالي من إبريق واحد يدور على الشاربين، وفن السكر بنظافة في خليط من الجميع ثم رأيت هولاندا حيث تبدو النكتة والتسلية والسرور كأنها من الكائنات الخيالية، وحيث معرفة الحياة أو فن الإرضاء الأعظم هو فن الاتجار على صورة نافعة دائماً. وقد طفت حول إيطاليا، وهناك تغذيت بالأنغام الموسيقية أثناء عشرة شهور، ولم أعش إلا على الحلوى[1]».

---

(١) Le mari garcon, 1742

لنتصفح «رحلة العقل في أوروبا» (١٧٧٢) تأليف كاراشيولي «Caraccioli» وهو أحد الذين اتخذوا من الفرنسية لغتهم الأولى، ففيه نلقى العقل يقول: «لننظر ما إذا كانت الأنوار التي منحت الأوروبين إياها ـ على أنهم أناس أحبهم على التفضيل ـ لم تظلم، وما إذا كانت قوانيني لاتزال مبجلة» وهنا نرى أن العقل المشخص في فيلسوف لطيف قد خاب أمله، لأن هولاندا ـ ولو أنها لاتزال لديها فضائل سامية ـ هي في تدهور لأن التجارة تثير فيها نوعًا من الفائدة المفرطة في الشح، ولأن البورتوغاليين أدقاء، ولكنهم متشبثون بالمدرسين إلى حد العناد، وأن الإسبانيين لديهم بضعة أشخاص نادرون وسامون، ولكن كسلهم صيرهم بلداء...

ومما لاريب فيه أن النقد سيكون قاسيًا أشد القسوة بالنسبة إلى الفرنسيين بنوع خاص مادام أنهم يزعمون لإنفسهم الرفعة. ويل «الجان الفرنسي» الذي يحب الطعام الشهي، والنبيذ والغواني، وويل لذلك السيد الذي يغيظ الناس بأدبه المفرط، وحركاته المصطنعة، وازدرائه لكل مالا يحمل طابع باريس، وويل للـ «مادموازيل» اللعوب الخائبة، وللمحتال الفرنسي، أو الأفاق الذي يتحلى بلقب زائف من ألقاب الشرف، والذي ينزلق إلى أسر المبجلة لكي يخدعها، فكثيراً مايحدث أن أحد الفرنسيين ـ بعدما يستنفد كل موارد عيشه ـ يغادر باريس التي لاتعده بثروة، وحينئذ يترك المحتال ديونًا عليه لخائط ملابسه، ويتخذ لنفسه اسم معلم لغات مقابل «فلورينين» في الشهر في البلاد الجيرمانية[١]... » وبالإجمال إن أولئك الفرنسيين المغرورين، لم يكونوا إلا إغريقي العالم الحديث.

هنا معارك جعلت تشتعل وتبدو من خلالها أحقاد، فكانت باريس تسخر من الإنجليزي الذي كانت تلقبه «باللحم البقري» أو «الروسبيف»، وعندئذ تنتقم لندن لنفسها، فتسخر من الشاب الباريسي الأنيق ذي المزاعم المضحكة، الذي تدعوه «بالمعلم الصغير الباريسي» وتتخذه نموذجًا لمهازلها. وفي الواقع أن هذا

---

(١) il fripon fracese colla dama alla moda, Commedia del marchese Gioseffo Gori-ni corio, Milan, 1730.

الأخير، عندما يجرد من زينته يرى الناس عليه قميصًا من قماس خشن، وحين ينحسر الشعر المستعار عن رأسه يبدو مغطى بالقراع والمراهم، ويجدون في جيوبه قطعة من الخبز اليابس المعضوض، وشيئًا من البصل المقضوم، ومشطًا قذرًا تساقط نصف أسنانه(١).

كان الوزير الإنجليزي والپول، قد وضع قواعد للمسارح اللندنية، ولكنه سمح لفرقة فرنسية بأن تنافس الفنانين المحليين، فبدأ ذلك الفريق عمله في أكتوبر من سنة ١٧٣٨. وعلى أثر ذلك هاج الدهماء فحطموا الأبواب، واستولوا على المقاعد، و صفروا ضد الدخلاء، وقذفوهم برجائم مختلفة وسكاكين، وفي الخارج حطموا النوافذ والمصابيح، وهدموا واجهة المسرح.

وعندما يتعلق الأمر بما يمس إحساس الشعب على صورة قد تكون أعمق الصور، وهو الموسيقا، فإن الشجار غير متناه، ففي سنة ١٧٥٢، استقرت فرقة إيطالية في أوبرا باريس، فحسبت الموسيقا الفرنسية نفسها مهددة حتى في مبادئها، وهنا بدأت معركة كان فيها الخصوم وجهًا لوجه، فإلى جانب الملك، كان الرسميون والمحافظون، وأنصار الموسيقي الفرنسي رامو، وإلى جانب الملكة، كان الفلاسفة والمجددون، وأنصار الإيطاليين. وكانت تلك حرب أغنيات، وهجاءات، وقد أحرق الجمهور في ساحة الأوبرا صورة خشبية كانت تمثل جان جاك روسو نصير الإيطاليين. وحين اضطر هؤلاء الأخيرون إلى مغادرة الميدان، لم تهدأ الأهواء، واستمر الناس في المعركة. وقد استؤنف كل شيء في عنف في سنة ١٧٧٣، وكان الشجار بين أنصار الموسيقي الألماني جلوك، وأنصار الموسيقي الإيطالي بيشيني، ولكن يفرض الصمت على هؤلاء المعاندين، كان ينبغي أن توجد ثورة(٢) سنة ١٧٨٩.

---

(١) Zacharie , Le Mouchoir, poéme héroi- comique chant 3, dans le choix de poésies allemandes de Huber 1766.

(٢) Abbé prévost, pour et çontre, õmbre 80.

وعلى الرغم من هذا كله، يستطيع الناس أن يحيوا حياة لابأس بها كأنهم في أسرة حتى لو تشاجروا أحيانًا. ولكن الأسرة هي نفسها التي تتغير.

وعلى الخريطة التي كنا نتحدث عنها آنفًا، ينبغي تسجيل مراكز عقلية جديدة، كبرلين التي تتجه إلى إطفاء ليبزيج مدينة الكتب، ودريسد مدينة الفنون، وهامبورج مدينة التجارة، ولندن التي تنعطف إلى إطفاء باريس. ولقد استمر الناس زمنًا طويلاً وليس لديهم سوى الاحتقار لألمانيا الأدبية. أما أن يكون لها العلم والقانون! فنعم، ليكن ذلك، وأما الشعر فلا. وكيف يجرؤ برابرة الشمال على أن يطالبوا بمكان في الأدب؟ فعقليتهم فظة، ولغتهم غير قابلة للنطق، ولم يكن لديهم مؤلف واحد أحدث رنينًا في أوروبا، وإلا لعرف الناس ذلك، وفي هذا يقول موفيون اذكروا لي عقلاً واحدًا مبتدعًا على برناسكم أي اذكروا لي شاعرًا ألمانيًا انتزع من أعماق نفسه كتابًا له شيء من الشهرة. إنني أتحداكم في هذا[1])». ولقد رفعت شارة التحدي إيذانًا بقبوله، وقد لوحظ هذا العهد من عهود الأدب الألماني مرحلة إثر مرحلة. وفي سنة ١٧٥٠ يقول جريم: «منذ حوالي ثلاثين سنة، صارت ألمانيا قفصًا للطيور التي لاتنتظر إلا الفصل الملائم لكي تشدو. ومن الممكن أن يكون هذا الوقت الماجد بالنسبة إلى ملهمات وطني، غير بعيد ...» وفي سنة ١٧٥٢، نشر البارون دي بيلفيلد، كتابه الذي عنوانه: « تقدمات الألمانيين في الأدب والفنون». وفي سنة ١٧٥٣ يقول جريم: «يبدو أن الميل إلى الترجمات عن الألمانية، ينمو على مر الأيام ...» وفي سنة ١٧٦٢ يقول أيضًا: «إن الشعر والأدب الألمانيين قد صارا بدعة العصر في باريس. .

ولو أن أحدًا منذ اثني عشر عامًا تحدث عن شاعر ألماني، لبدا جد مضحك، أما اليوم، فإن هذا الوقت قد تغير ...» وفي سنة ١٧٦٦ يقول دورا Dorat في كتابه «فكرة عن الشعر الألماني» مايلي:

---

(١) Mauvilon Lettres franncaises et germaniques, 1740

«أيتها الجيرمانية، إن أيامنا الجميلة قد انتهت، وإن أيامك ستبتدئ». وفي سنة ١٧٦٦، يقدم هوبير إلى الرأي العام في كتابه «اختيار من الشعر الألماني» منتجات لمؤلفين ذوي أسماء غريبة كأوز، وجيلير، ورابيتير، وهاجيدورن، وليشتوير Giellert, Rabener, Hagedorn, Lichtwer وكآخرين أيضًا ينبغي أن يحسب حسابهم. ثم يضيف إلى ذلك مايلي: «منذ حوالي ستة عشر عامًا، كان الشعر الألماني مجهولاً في فرنسا». وفي هذه المدة القصيرة من السنين، مر الناس من الجهل إلى الغرام.

كان الأمر يتعلق بتغير الأنواع، فجيسنير الملقب: «براعي سويسرا»، كان يرادف البسيط المتعارض مع المتعمل، والطبيعي المتعارض مع الصناعي، والإخلاص القلبي المتعارض مع التطرف الفارغ، وكلوبستوك، كان يرادف، شعر الـ «بارْد»[1]، والشعر الديني، وفينكيمان، كان يرادف فكرة أخرى عن الجمال، وفرترجوت الشاب، كان يقترح على قرائه الذين لايحصيهم العد، الإعجاب بالنموذج الإنساني الجديد ومحاكاته. وكانت ثروات ألمانيا ـ وهي متباينة بصورة عميقة مع الثروات التي كانت فرنسا تقدمها ـ تتطلب التمييز بينهما، وكان ينبغي الاختيار. وفي سنة ١٧٦١، لايمنح دينينا البيمونتي «Denina» الألمانيين في كتابه «خطبة على أحداث الأدب» سوى قليل من السطور. والشاعر الوحيد الذي يبدو لهذا المؤلف، أن الألمانيين قد ظفروا به، هو هالير السويسري. ففي سنة ١٧٦٣، نشرت في جلاسجو، الطبعة الثانية من «خطبته» التي ترجمت في باريس في سنة ١٧٦٧ تحت عنوان «لوحة ثورات الأدب القديم والحديث». وفي هذه المرة أصلح الخطأ حيث قال المؤلف: في الماضي البعيد لم يكن الألمانيون يستعملون سوى اللغة اللاتينية، ليكتبوا بها مؤلفاتهم العالمة، ومنذ عشرين سنة، لم يكونوا يملكون إلا

---

(١) ألبارد، هم الشعراء القوميون للأجناس السيلتية كالجوليين والبريطانيين والإيرلنديين ولاإيلوسيين، وأشهر أولئك الشعراء هما فينجال، وابنه أوسيان. (المترجم)

بضع قصائد باللغة العامية غاية في الشذوذ. والآن يظهر أنهم يريدون أن يسيروا، «على التساوي، مع أعلم شعوب أوروبا، وأكثرها وفرة في الأدب». وهم لايتعرضون إلا لخطر واحد وهو الإفراط في محاكاة الفرنسيين والإنجليز.

في الواقع أن البدعة الآن هي محاكاة الإنجليز. وأن الإنجليز لايكتفون بأنهم قدموا إلى أوروبا: أشهر الفلاسفة وهو لوك، وفريق المؤلهين، والمدافعين اللبقين، والأخلاقيين وفيري العدد، بل طبقة ثانية من الكلاسيكيين كـ «دريدين» و«پوب»، وإنما كانوا يجتذبون غيرهم بنموذجهم، إلى طرق مجهولة، فكانوا يبعثون إلى الخارج بمنتجات دانييل دي فويه وسويفت وريتشاردسون وفيلدينح واسموليت، واستيرن، ويونج. وجريه وهيرفيه، وهوسيان Daniel de Foe Swift, Richard-son, Fielding, Smollett, Sterne, Young, Gray, Hervey. Ossian وذلك كله أدب مبتدع، إذ أنهم لديهم في الوقت ذاته الميزة والعدد. ومن الجزيرة التي لاتنفد، كانت تصدر على الدوام رسائل جديدة فتتلقف في القارة بنهم. وكان الإنجليز هم الذين جعلت ألمانيا ـ حين أخذت تنبذ الفرنسيين ـ تتخذهم أساتذة لها، فكانت تستمع دروس مفكري انجلترا الأحرار، وصحفيها المشتغلين بالأخلاق وروائييها، وفاجعيها، وشعرائها. وكما كان أوز ـ عندما جعل يستخدم من جديد، بعد كثيرين آخرين، صورة صعود الشعراء إلى البارناس العصري ـ يقول: إن الألمانيين، بدلاً من أن يتبعوا الطريق الأكثر طروقًا، والتي يتضوع فيها عرف الزهور، والتي تنتهي إلى تمثال هومير، كانوا يتخذون ممرًا ضيقًا ووعرًا، يجدون عند نهايته، تمثالاً انجليزيًا من رخام أسود، . وفي هذا يقول هوبير أيضًا: «إن العقلية الإنجليزية، يبدو أن لها اليوم في الأدب الألماني نفس التأثير الذي هو للثروات، وللجيوش الإنجليزية في توازن أوروبا، وإن للندن الآن، ماكان لباريس فيما مضى(١)».

---

(١) Huber, Choix de poEesics allemandes, t. IV; Epitres, moral. p. 202 sqq

كـان الإنجليـز ينبـذون كل الإلزاميـات، أي الاعتـدال، وحسن الذوق، والتوازن، وطاعة القواعد المقدسة، وكانوا سعداء بأن يعودوا إلى عبقريتهم الحرة. وكانت الرهبة من الواقعي، وأعياد الخيال، ولو كانت منقبضة، وجنائزية، واضطراب الحساسية، وانفعالات القلب، كل ذلك كان يتعارض عندهم مع سيادة الذكاء المجرد، والعقل الفلسفي، فماذا كانت فرنسا تعمل عندهم مع سيادة الذكاء المجرد، والعقل الفلسفي، فماذا كانت فرنسا تعمل بإزاء تقدمات هذه المنافسة؟ إنها كانت تقبلها وتدعوها وتحتفل بها. إنها كانت تمنح شغفها، وجاذبيتها، وتفضيلها لميزات كانت توشك أن تمثل بالضبط عكس مميزاتها. وبالإجمال صارت كلغة بكل ماهو انجليزي، وكانت بهذا تطيع البدعة الجديدة. وأكثر من ذلك، أنها كانت تصنع من نفسها واسطة بين انجلترا وأوروبا. كانت الكتب الإنجليزية جد ثقيلة، فكانت فرنسا تخففها، وكانت مفرطة في النهوش، فكانت هي تنظمها، وكانت متطرفة في الطول، فكانت هي تختصرها، وكانت تعمل كل ذلك في ترجماتها. إنها كانت تقوم بعل الزينة لتلك المؤلفات بحيث إنها لم تعد تزعج الزبائن، فجعلت الكتب المترجمة، بعد إقامة موجزة في باريس، ترتحل إلى البلاد اللاتينية، بل البلاد الجيرمانية وعن طريق فرنسا تمكن الإيطاليون والإسبانيون، والبورتوغاليون والألمانيون، ولو إلى منتصف القرن على الأقل، من معرفة الأدب الإنجليزي بحيث إن نفس أولئك الذين كانوا يدعون الرفعة، كانوا يعملون في مرح على هدمها. وإن تينك الجارتين، هولاندا وسويسرا اللتين قدمناهما كداعيتين لمجد الفرنسيين، كانتا تغيران في الوقت ذاته اتجاههما، فجوستوس فان إيفين الهولاندي مثلاً يعرف الناس بالصحف والكتب الرئيسة الانجليزية مستخدماً في ذلك اللغة الفرنسية. وسويسرا تتطور، ففي بيرن، وباللغة الفرنسية يعلن بيادي مورالت، رفعة انجلترا الناشئة على فرنسا، وفي زوريخ، يتخذ بودمير وبريتانجير من نفسيهما موحيين بالأدب الألماني الجديد، وهالير، يبتدئ الشعر الفلسفي على النموذج الإنجلز ي، وجنيف تصير مولعة بكل ما هو إنجليزي كباريس.

لا جرم أن الزمن قد تغير.

بما أن فرنسا كانت قد فتنت، وبما أنها كانت تشعر بالحاجة إلى التجرد، ولأنها لما كانت هي المقدمة الرسمية للمؤلفات إلى الزبائن الأجانب، فلم تكن تستطيع أن تقصر في هذه البضائع المطلوبة، ولأنه يوجد حماس في الدعاية لكل مشروعاتها، لهذه الأسباب كانت فرنسا تساعد أوروبا في التحرر من سمو فرنسا العقلي. ومن النادر أنها كانت ترى أن الأمر بالنسبة إليها، يتعلق بعقلية بلغت حداً كانت بإزائه تنكر نفسها حين تطرى تلك العقلية. وفي هذا كتبت مدام ريكوبوني[1]، إلى جاريك[2] تقول: «إن قصائد«الليالي اليونجية»[3] قد ظفرت بنجاح عظيم هنا، وذلك تغير تام في العقلية الفرنسية!». ولكن فرنسا في أكثر الأحايين يبدو أنها تجهل هذا الفرق الجوهري، فهي لم تكن تعرف أن انجلترا قد كفت عن إذاعة فلسفة الأنوار. وبينما كانت فرنسا، تقيم الاحتفالات لـ«بولين بروك» وهيوم، وچيبون الذين كانت تتبين فيهم رفاقها في الكفاح، لم تكن تعرف أن الرأي البريطاني قد صمم على العودة إلى العقيدة المتزمتة.

لم ينطق في فرنسا في القرن الثامن عشر إلا قليلاً، باسم، وليم لاس المتنسك الذي نشر في سنة ١٧٢٣، كتابه الذي عنوانه «دعوة جدية إلى حياة نقية ورعة». وفي سنة ١٧٣١ كتابه الآخر «قضية العقل»، والذي يرى أن إنسان الطبيعة، وإنسان العقل، كانا مقضياً عليهما، لأن الطبيعة لم تكن سوى الدم واللحم والخطيئة، ولأن العقل لم يكن سوى نور زائف آت من الخارج. بينما أن المسيحي الذي أنير من الداخل بالفيض الإلهي، هو وحده الذي يصل إلى الحقيقة وإلى الحياة.

---

(١) مدام ريكوبوني هي إحدى ممثلات الكوميدي فرانسيز، وصديقه ديديرو. (المترجم)

(٢) جاريك هو أحد مشاهير ممثلي لندن في ذلك العهد. (المترجم)

(٣) الليالي اليونجية هي منتجات الشاعر الانجليزي يونج (١٦٨١ - ١٧٦٥) وهو مؤلف تلك القصائد القاتمة المنقبضة المسماة بالليالي والتي كانت مصدر خلوده ومنبع شهرته. (المترجم)

ولم تكن فرنسا القرن الثامن عشر، تظهر إلا الازدراء لچون ويسليه حين كانت تعرفة عن طريق المصادفة، وچون ويسليه هذا هو الذي كان قد وجد في سنة ١٧٣٨، طريقه إلى دمشق [١].

كان بعد ذلك يذهب في كل يوم من أيام حياته ليعظ عمال مناجم نيوكيستول، أو نساجي بريستول، أو بؤساء لندن، أو كان ينتقل من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، ليعظ كل الذين فقدوا الإيمان بالمنقذ. وفي أعماق تعاستهم، كان يرد إليهم أمل البعث باسم المسيح. وكانت تلك حربا صليبية في وسط السوقة نتيجتها أن انجلترا كانت تعثر بوساطة الإيمان، على أساسها الأخلاقي.

وهكذا بدأنا نرى - بعد القوى المتحدة الغاية- تلك القوى المتباينة التي تتعارض مع وحدة الضمير الأوروبي. وهاك قوى أخرى.

* * *

حقًا إنه في القرن التاسع عشر قد نودي بمبدأ الوطنية، وأعلنت القومية، ولكنها قد أعدت في القرن السالف.

كم كانت عميقة وقوية تلك العاطفة الغامضة التي سبقت الفكرة! وكم كانت ماهرة في أن تميز- من بين التأثيرات الأجنبية- العناصر التي هي مفيدة لها، والتي ستحتفظ بها، من العناصر التي ليست نوعية والتي تعرف كيف تتخلص منها. وكأن كل بلد هو جسم حي يحتفظ بدوامه في كيانه، وينتهي دائمًا باتباع قانونه الخاص. وليس هناك بلد واحد، من بين البلاد التي عرضنا لها، لم يرد قبل كل شيء، أن يؤكد وجوده الفردي. وليس هناك بلد واحد لم يكن يعتبر معونة الفكر

(١) يشير المؤلف بهذا التعبير «وجد طريقه إلى دمشق» إلى حادثة اهتداء القديس بولس إلى المسيحية عندما سمع، وهو في ذلك الطريق، صوت السيد المسيح يدعوه إلى العدول عن محاربة المسيحية، وقد صار هذا التعبير رمزًا لكل اهتداء مباغت إلى الحق. (المترجم)

والصورة الفرنسيين شيئًا آخر غير أن يكونا كوسيلة كان يجب عليه استخدامها مؤقتًا لكي يصير هو بهيئة أقوى، وليس هناك بلد واحد لم يكن خاضعًا لسيادة عقلية لسبب آخر غير تحرره.

ولنأخذ مثلاً أحد البلاد التي كانت وحدتها مكتسبة منذ وقت طويل، وهو إسبانيا، فإنها للمرة الأولى في تاريخ الزمن الحديث. يبدو أنها في القرن الثامن عشر قد تفرنست. فينبغي لها مجمع يشبه المجمع المستقر في اللوڤر بباريس. وفي الواقع أنه - تحت تأثير رجل على صلات مباشرة بالعلماء الأجانب، وهو المركيز دي ڤيلينا - قد أسس المجمع الملكي الإسپاني في سنة ١٧١٤، وبدأ في إعداد قاموس ظهر منه المجلد الأول، في سنة ١٧٢٦. وكان ينبغي لها أيضًا مجلة على نموذج «مجلة العلماء» وفي الواقع أن «مجلة الأدباء الإسبانيين» تبدأ في الظهور منذ سنة ١٧٣٧، وتتبعها عدة مجلات أخرى، وينبغي أن تخضع عبقريتها للذوق السليم، وأن يكون لها أخيراً مسرح كلاسيكي، ومآسي جميلة منظمة تذعن للقواعد الثلاث. ولقد وجد من بين الإسپانيين من تنكروا لكالديرون، ولوپ دي ڤيجا Calderon, Lope de Véga[1] إن بدع الزينة هي فرنسية، وإنها ممثلة جهاراً بوساطة النساء، بل بوساطة الرجال الذين يدعون أيضًا «بالمعلمين الصغار» وإن اللغة مرصعة بالتعبيرات الفرنسية، وإن الوزراء في سلطاتهم مفعمون بالفكر الفرنسية، وذلك هو انتصار للإسپانيين المتفرنسين، أو بالحري هو نظرة سطحية وساذجة، إذ أن هذه الانتصارات الواهنة للكلفين بكل ما هو فرنسي، لم تكتسب بلا مقاومة طويلة، ولأنها أيضًا ليس لها غد. فالثناءات المغالية على باريس، تَرُدُّ عليها الملامات الموجهة إلى الفرنسيين، والإهانات الموجهة إلى الإسپانيين الذين هم مجانين بهيئة كافية لمحاكاة من هم وراء الجبال. وأخيراً يلمح الإسبانيون أن

(١) كالديرون ولوب دي ڤيجا، أعظم كتاب الإسپانيين الذين ألفوا كثيراً من الفواجع والمهازل ولكنهم لم يؤلفوا مآسي تراعى فيها القواعد الكلاسيكية الثلاث ولهذا تنكر لهما الإسبانيون المتفرنسون. (المترجم).

الإنتاجات الوحيدة ذوات القيمة الجديرة بالبقاء، هي المنتجات التي عرفت كيف تترجم عن الروح القومية، كمسرحيات رامون دي لاكروز القصيرة، وكمهازل نيكولا فيرناندیز دي موراتين، وأن فعل البلاد الأجنبية لم يلحق الكافة، ولا دنيا الطبقة المتوسطة، ولا كل الأرستقراطية، ولا جميع الكتاب، ودون ذلك أهوال، وإنما قد وقف عند مستوى سريع اللحوق فعندما يهاجم المجد الإسپاني، يهب المدافعون. ومن أمثلة ذلك أن حادثة نزاع النقاد الإيطاليين مع اليسوعيين الإسپانيين، كانت مليئة بالمعاني، فقد رأينا بأية وحشية قد طرد هؤلاء الأخيرون من إسپانيا، ولقد لجأ أكثرهم إلى إيطاليا وعندما عاد بعض الإيطاليين إلى ذلك اللوم القديم الذي مؤداه أن سينيك [1] ومارسيال [2]، قد أدخلا إلى روما سوء الذوق الذي انتهى بأن أفسد الأدب اللاتيني، وأن الكاتب جونجورا، في العصور الحديثة قد استمر يتابع ذلك الإتلاف. وحينئذ تناول القلم الآباء اليسوعيون الإسپانيون: چوان أندريس، وتوماس سيرانو، وچاڤييه لمپياس، وهؤلاء المنفيون الذين نسوا الخطأ الذي نسبته إليهم بلادهم، قد دافعوا عن حرارة، عن الشرف القومي. وهناك يسوعي منفي أيضاً، وهو الأب جوان فرانشيسكو دي ماسدو، قد نشر منذ سنة ١٧٨٣، كتاباً ضخماً عنوانه «تاريخ النقد لإسبانيا». وفي المجلد الأول منه، يعدد عناوين مجد بلاده، مبيناً أنه ينتزع مميزات هذا المجد من أعماقها الخاصة لا من البلاد الأجنبية، والواقع هو أنه لا يستطيع أحد أن يمس إسپانيا العتيقة في يسر، وأن معالم طابعها متطرفة في الوضوح إلى حد يمنع من أن تمحوها بدعة عابرة. وهي سوف لا تلبث أن تبين في كفاحها ضد ناپوليون، أنها تريد أن تبقى هي هي، في استقلالها المستوحش.

كانت في القرن الثامن عشر، قومية انجليزية يرجع تاريخها إلى أبعد من

(١) و (٢) ولد سينيك الخطيب وابنه سينيك الفيلسوف الشهير في قرطبة، أولهما في سنة ٦١ قبل المسيح، وثانيهما في سنة ٣ بعده، وأما مارسيال فهو شاعر لاتيني شهير قد ولد في سنة ٤٣ بعد المسيح ببيلبيليس بإسبانيا. (المترجم)

ذلك، وكانت هناك أيضًا فرقة قومية فرنسية تجلت في سطوع حين قدم دي بيلوا في سنة ١٧٦٥ إلى التمثيل، مسرحية: «حصار كاليه»[1]. فجعل الرأي العام يصفق ويبكي ويهتف معلنًا تفوقها أو كان ذلك لما تثيره من انفعالات، أكثر منه لقيمتها الخاصة. وقد تكون هذه المأساة الفرنسية الأولى التي جلبت إلى الوطن مسرة أن تشوقه لذاته. وإذ ذاك ودع الاتجاه إلى العالمية، أو كوسموپوليسم عندما يتعلق الأمر بوطن لَم يعد يمتزج تمامًا بالمملكة كما تشير إلى ذلك الأبيات التالية:

«إنني أمقت تلك القلوب المتثلجة والميتة عندما يتعلق الأمر ببلادها، والتي، وهي ترى تعاساته، تظل في سلام عميق، إذ تتشرف بذلك الاسم العظيم وهو اسم المواطن العالمي...».

غير أن هذه العاطفة القومية، لم تكن في أي مكان أكثر حيوية منها في بلدين عظيمين كانا لا يزالان مقسمين، وفيهما كان الأدب القومي يجمع الوطن وهما إيطاليا وألمانيا.

كم كانت إيطاليا مقسمة، نحن نعرف ذلك، فكل أنواع الحكومات تقريبًا كانت ممثلة عندها، وكان لا يوجد إلا حدود وجمارك بين كل واحد والآخر من أقاليمها، وكانت تشبه أن تكون مكونة من قطع متباينة لن تأتلف أبدًا. ومع ذلك فقد كانت تشعر بضعفها السياسي، وكانت تتألم وتأسف، وكانت تؤمل في صورة غامضة. ومهما تكن متفرنسة، فإنها كانت تنتفض في كل مرة يهاجمها فيها الفرنسيون أو أي شعب آخر. ولم يكن حقًا أن مسرحها وشعرها وفلسفتها وعلمها، كانت ذات قيمة منخفضة، بل إن سمو فنها، كان يجب أن يكفي لأن يؤكد لها حقها في الحياة. ولم يكن حقًا أنها انحصرت في محاكاة دنيئة. ولم يكن عدلاً أنه في بعض عواصمها كميلانو مثلاً يعتبر أجنبيًا كل إيطالي لم يكن ميلانيا، فالإيطالي كان في كل مكان في إيطاليا، في بيته كالإنجليزي في انجلترا،

---

(١) هي مسرحية تصور أحد أحداث حرب المائة سنة عندما قام أهل كاليه، بمقاومتهم البطولية العنيفة في سنة ١٣٤٧ ضد هنري الثالث ملك انجلترا حيث برزت وطنيتهم الخالدة بوضوح وجلاء (المترجم)

والهولاندي في هولاندا [1]. وكان الشعراء في أكثر الآحايين يستأنفون ذلك الموضوع العادي المطروق في كل أوروبا وهو تدهور إيطاليا الراهنة حين نوازن بينها وبين روما الإمبراطورية ولكنهم كانوا يعالجونه على طريقتهم ، وهي تذكير الناس بلقب الشرف الذي لا يزال مشروعًا ، والذي هو بمثابة عماد للمستقبل .

على أنه ، حتى إذا كنا لا نأبه - وذلك يكون من الخطأ- لهذه الدعوات ، وتلك المطالب الأدبية ، وهاتيك الإلزامات ، فإن واقعة سيكولوجية ستبقى يقينية وهي أن أولئك الذين درسوا المعالم العميقة للجنسية الإيطالية ، لم يفتهم قط أن يلحوا على الفطرة السليمة العملية التي يبدو لهم أنها أحد معالم السعادة لتلك النفس اللاتينية ، ففي الواقع أنها تظهر هنا غير قابلة للانحصار في جميع الفكر النظرية ، فمثلاً الحرية والمساواة والتقدم ، هي كلمات جيدة ، ولكن إيطاليا فوق القيمة النظرية للمبادئ التي تقتضيها هذه الكلمات - تفكر في تطبيقها الخاص ، فهي تريد أن تصلح نفسها ، قبل أن تصلح العالم إنها ليست متحمسة للحكومة الحرة إلى حد يمنعها من الالتئام حتى مع الحكومات المستبدة التي تريد أن تعمل لصالح الدولة . ولئن تكن نابولي جمهورية ، أو ملكية مطلقة ، فإن الأمر الجوهري هو المحاربة بصورة ناجعة ضد الإقطاعية التي تنوء عن ثقل ، فوق الشعب ، إن المساواة عند إيطاليا ، ليست هي التسوية ، ولكنها تنظم الطبقات على أفضل ما يمكن . إن التقدم هو توزيع الضرائب بهيئة أكثر عدلاً ، وتثبيت سجل ، والتيسيرات الممنوحة للتجارة والزراعة . إن المرء لا يرى عندها إلا قليلاً من العقليات المطلقة ، وهو يبحث فيها عبثًا عمن يعادل البارون دولباك . إنها لم تشعر بالحاجة إلى إلغاء دين أجدادها ، سواء أكان ذلك بسبب ارتياب معتدل يحميها من التطرفات حتى التطرف في عدم الإيمان ، أم لأنها تحترم تقاليدها ، أم لأنها تكتفي بأن تجد دواء لإفراطات الإدارة الكنيسية دون أن تخلط بينها وبين جوهر

---

(1) G. Rinaldo Carli Della patrea degli Italisni, dans il Caffé1764- 1765 Semestre terzo, p. 12 - 17.

العقيدة، إن منتجاتها العظمى - وهي منتجات پاريني، وپييترو ڤيري، وبيكاريا Parini, Pietro Verri, Beccaria, - هي اجتماعية واقتصادية. وإن فلسفة الأنوار في إيطاليا، لن تترجم بثورة، بل بتطور قمين بالإفادة بهيئة مباشرة. وإذا لم يكن من الحق أن تعزى إليها منذ ذلك الزمن برامج محددة للوحدة القومية، فإنه ليس وأقل من ذلك حقية أنه كانت توجد عاطفة حية للتّأيْطل «Italianita» وأنها من أصول بعثها السياسي، إذ أن حركة البعث أو «ريزو رچيمانتو» «Risorgimento» تبتدىء منذ القرن الثامن عشر.

أما ثاني البلدين اللذين نطقا بالرفض الأعظم للرفعة الفرنسية؛ فهو ألمانيا التي توجد فيها ذات الحساسية لدى كتابها، بإزاء جميع الأحكام المضادة التي أصدرها الأجانب عليهم؛ وكانوا يشعرون بنفس أنواع المرارة؛ وبنفس ألوان الغضب لفكرة أن الناس لا يؤدون إليهم العدالة، وكان لديهم ذات السبب للمطالبة بمكانة رفيعة بل بالمكانة الأولى.

غير أننا هنا نعثر فوق ذلك على إنتاج ذي قوة إلى حد أنه يلخص في داخله جميع المهاجمات، هنا نجد ليسينج.

إن هامبورج، قد أرادت أن يكون لها مسرح، وقد وجد هناك هواة ليخلصوا مدير الفرقة مما يتسبب بوجه عام في فقده من وجهة نظر الفن، وهو الانشغال بكسب المال. وإلى جانبه قد أراد أولئك الهواة وضع الموجه الذي- إذ يتخلص من كل شاغل مادي، وليس لديه ما يعنى به لاختيار الممثلين، ولا تنظيم المسرح، ولا الإرادة - تكون وظيفته الوحيدة، هي القيادة الأدبية للمشروع. ولم يكن هناك أحد أقدر على ذلك من ليسينج، ولهذا قد دعى إليه. وفي أبريل من سنة ١٧٦٧ نشر القطعة الأولى من «دراستة الفاجعية» أو دراماتورچي Dramaturgie التي يحدها على النحو التالي: «إنها ستكون نظرة نقدية لجميع المسرحيات التي تمثل، وستتابع خطوة إثر خطوة كل التقدمات التي سيستطيع الشعر والفن الفاجعي تحقيقه هنا».

وفي الواقع إنه كان يتتبع المسرحيات الممثلة واحدة واحدة، وكان يبين لماذا لم تكن مسرحية «أولانت، وسوفروني» لكرونيك، جيدة ولماذا على الضدمن ذلك، كانت مسرحية «انتصار النساء الشريفات» لچوان إلياس شليچيل، تروقه. غاية ما في الأمر أنه لا تكاد توجد مهازل ألمانية جديرة بأن تشغل المسرح، وأنه لم تكن توجد محاسن. وحينئذ كان المعنيون بالأمر مضطرين إلى الإلتجاء إلى قائمة المسرحيات الفرنسية. بحيث إن مسرح هامبورج القومي- عن طريق نتيجة غير متوقعة - كان سيعمل على تثبيت رفعة فرنسا. لو لم يكن ليسينج.

حقًا إنه كان رفيقًا برينيار ودانكور Régnard, Dancourt بل كان يستلطف الفواجع البرچوازية لديديرو، ولكنه بإزاء المآسي الكلاسيكية، كان بلا إشفاق، وكان لسان حاله يقول: هل سوف لا تموت إذن أبداً هذه المتكبرة؟ وفي كل مرة كان الناس يصفقون لها، كان يبين لماذا يجب ألا يصفق لها، وكان يلح على إبراز عيوبها في كل مرة يطري الناس محاسنها. وكان يقول: إنها لم تكن سوى فتور واتفاق وصناعة، وهي غير قادرة على رسم الأهواء القوية، وتصوير الأخلاق على طبيعتها وكانت هناك قواعد تحددت قيمتها نهائيًا بمعنى أنها تتجاوب مع بعض معارف العقل الثابتة، وكان أرسطو قد عبر عن نفس اليقين الذي منحه أوكليد لمبادئه، وكان الفرنسيون يحسبون أنهم خاضعون لها، ولكن ذاك لم يكن، بل هم تنكروا لها. وبالإجمال كان كل مسرحهم ضد المنطق والعقل، وعلى معنى أدق، لم يكن له وجود.

كان ليسينج مضطرا إلى أن يستمع لمآسي ڤولتير أكثر مما يود. وسواء أتعلق الأمر فيها بـ «سيميراميس» أم بـ « ميروب» التي يرى أنها أخفض من «ميروب» تأليف ما في MAFFEI الإيطالي، فإن هذه المآسي، كانت في رأيه، رديئة. وماذا! أڤلتير أيضًا؟ وڤولتير دائمًا؟ وكان ليسينج يشرح لماذا هو يحتج فيقول:

« يخيل إلى، أنه لا يوجد للناقد، منهج أفضل من اتباع هذه القاعدة وهي: أنه يجب أن ينقب قبل كل شيء عن خصم يقاتله، وعلى هذا النحو سيصل شيئًا

فشيئًا إلى موضوعه، والباقي سيأتي على هيئة نافلة. ومن ثم فإني، في هذا الكتاب - وأعترف بذلك صراحة- قد اتخذت بصورة حاسمة. الكتاب الفرنسيين هدفًا لمهاجماتي، وعلى الأخص السيد دي ڤولتير. وهكذا في هذه المرة أيضًا تحية خفيفة، وهيا[1]! ».

غير أن هذا القضاء على ڤولتير لايكفيه لأنه يريد أن يدين مؤلفًا آخر أعظم منه أيضًا، وهو نفس مبتدع المأساة الفرنسية أي پيير كورني Pierre Corneille، فليسينج لا يستطيع أن يحتمل أن يطلق عليه الناس اسم كورني العظيم، بل كان ينبغي أن يطلقوا عليه فيما يرى، اسم كورني الشاذ الخلقة أو الممسوخ، إذ إنه لا توجد عظمة حيث لا توجد حقيقة. ولم تكن مآسيه رديئة فحسب، بل إنه أراد أن يجعل الناس يعتقدون أنه اتبع قواعد أرسطو، ليسوغ رداءتها بعد إنشائها، ففي الواقع أنه في «خطبة» - بعد إتمام كل واحد من منتجاته - كان يؤول تأويلا غادرا، فكرة الفيلسوف الإغريقي بطريقة زائفة تمامًا. وإذن فكورني هو المفسد الأول، وهو الرجل الذي لقن العالم ذلك الوهم الذي مؤداه أن الفرنسيين كان لهم مسرح على حين أنه ليس لهم، وهو في هذا يقول: «إنني أجرؤ أن أقدم هنا عرضًا، سيتخذه الناس كما يشاوون وهو: ليذكر أحد لي مسرحيةمن مسرحيات «كورني العظيم لا أستطيع أن أعيد إنشاءها خيراً منه، فمنذا الذي يتولى الرهان؟ »

لم يتوله أحد، ولم يظفر مسرح هامبورج إلا بحياة قصيرة، وكانت أخرى القطع من «دراسته الفاجعية» تحمل تاريخ ١٧ أبريل من سنة ١٧٦٩.

حقًا إن نقده كان جافًا ومتحذلقًا، ومتعسفًا، ولكنه مع ذلك حار، ومقتنع بصورة قوية، وشخصي إلى حد أنه يعد على الدوام بين منتجات النقد العظيمة لأنه طبع بطابعه، آونة تاريخية معينة وهو طابع التمرد الواضح ضد العبقرية الفرنسية التي جحدت حتى في مجدها الأعلى وهو المسرح. وفي الموضع الذي كان يشغله

---

(١) يستعمل ليسينج هنا التعبير الفني الذي يستعمله المتبارزان إيذانًا ببدء المبارزة. (المترجم)

كورني وراسين وڤولتير، كان ليسينج يضع شكسبير العملاق الذي كان بالنسبة إلى المأساة الفرنسية، بمثابة الصورة الضخمة إلى الرسم الضئيل، بل كان يستعين في ذلك المسرح الإسپاني، لأنه لم يكن صناعياً، وكان يترجم عن نفس جامحة. وكان ينبغي وجود رفاق لليسينج الساخط من الإنجليز والإسبانيين إلى جانب الألمانيين لكي يحارب هيبة فرنسا.

ومما لا ريب فيه أنه الذي لم تظفر به إيطاليا أيضاً هو تجسد الوطن، أو هو الرجل العظيم الذي عرف بأنه هو «ذكاء وإرادة يحركان قوة»، أو هو فريديريك الثاني.

لا جرم أن أي شخص يقرأ، على غير سابق إنذار، ذلك الإنتاج الشعري الألماني الذي يكثر حوالي منتصف القرن، يدهش من أن يلتقي في وسط هذه الوفرة من القصائد الباكوسية (١). والأناكريونية (٢)، أو الأخلاقية أو الفارعة بكل بساطة - بإيماءات إلى جير ماني الماضي المعتزين بأنفسهم إلى قوتهم، وإلى فضيلتهم وإلى استقلالهم، وبشكايات فيما يتعلق بالجيرماني التي هي مضطهدة، وبدعوات إلي الاتحاد. إن هولاء الشعراء - وهم لا يزالون خرقاً يعبرون عن ذات العاطفة القومية التي تتقوى في كل مكان، وهذه العاطفة ستتبلور حول فريديرك الثاني.

حقاً إن «أناشيد جندي بروسي» لجليم Gleim، وهي التي جمعت في سنة ١٧٥٨، ليست إنتاجاً رئيسياً، ولكن يمكن أن يرى فيها العبور من الفكرة البروسية، إلى الفكرة الألمانية، إذ أن جليم فيها يتظاهر بأن يكون جندياً مقاتلاً، ويعلن أنه شيء آخر غير پاندا، وهوراس Pindare, Horace وإنما هو تيرتيه(٣)

---

(١) القصائد الباكوسية هي المخصصة لباكوس إله الخمر عند الهيلين. (المترجم)

(٢) القصائدالأناكريونية هي الشعر الخفيف الذي يعالج الحب: ويرسم اللذائذ التي كان يعالجها أناكريون الشاعر الهيليني الشهير (٥٠٦ - ٤٧٨) قبل المسيح. (المترجم)

(٣) تيرتيه، هو شاعر أثيني أعرج أرسلته أثينا على كره منها لمساعدة اسبارتا عندما أصدر أپولون أمره بذلك، فلم يكد يتولى قيادة الجيش الإسبارتي، حتى أشاع فيه الحركة والحياة بأناشيده، وانتهى به إلى النصر. (المترجم)

حديث«Tyrtée» يطرى الحرب والبطولة، وشجاعة أولئك الذين يموتون من أجل الوطن، والذين يستحقون أن يحيوا حياة أبدية في ذاكرة مواطنيهم. وهو يشيد بمجد فريديريك الأكبر الذي به قهرت پروسيا النمسا، وحررت ألمانيا فيقول «عندما حقق فريديريك، أو حقق الإله بوساطته، ذلك العمل العظيم، أخضع ڤيينَّا المعتزة بنفسها، وحرر ألمانيا. . . . ».

غير أن هذا المنتصر الألماني، فريديريك، أية لغة كان يستعمل على أسهل صورة ؤإذا لم تكن الفرنسية؟ وبأية لغة كان ينشئ مؤلفاته إذا لم يكن بالفرنسية؟ ينبغي أن يتحقق الوضوح في هذه النقطة الأخيرة.

في سنة ١٧٧٩ نشر فريديريك الثاني «رسائل عن حب الوطن، أو تراسل بين أنا پيستيمون وفيلوپاتروس».

ومجمل هذه الرسائل أن الملك قلق من بعض اتجاهات حلفائه من الفلاسفة، وسيشرح فكرته بلا إبهام على قدر الإمكان. كان أناپيستيمون قد استقبل عند صديقه فيلوپاتروس (أي محب الوطن). عندما يعود إلى داره، يشكره على هذا الثواء السعيد، ولقد دار بينهما في هذا المساء الأخير، حديث حول روابط المجتمع، وحول واجبات من يؤلفونه. ولم يكن قد فكر قط في هذا الموضوع الخطير، فهل يود فيلوپاتروس، أن يقدم إليه معلومات بصورة أفضل عن طريق الرسالة؟

حين ذاك يقدم فيلوپاتروس درسًا إلى أناپيستيموس الارتيابي، والإيبيقوري، والعالمي، ويتخذ الحجج العادية التي تتجه إلى التدليل على أن خير النحلة لا يمكن أن ينفصل عن خير الخلية. ولكن الجوهري بالنسبة إلينا، هو استبدال فكرة المجتمع العائمة بفكرة الوطن المحددة، فيسأل أناپيستيمون قائلاً: «هل من الممكن أن يحب المرء حقًا وطنه؟ أو لا يمكن أن يكون هذا الحب المزعوم قد اخترعه فيلسوف ما، أو هو حلم أجوف لأحد المشرعين ليحتم على

الأناسي كمالاً ليس في متناولهم؟ وكيف تريد أن يحب المرء الشعب؟ وكيف يضحي بنفسه من أجل إنقاذ إقليم ينتسب إلى مملكتنا، على حين أنه لم ير قط هذا الإقليم؟ إن كل ذلك ينحصر في أن يشرح لي كيف يكون من الممكن أن يحب المرء بحرارة وحماس ما لا يعرفه قاطبة. ». وهنا يرد فيلوپاتروس الذي هو فريديريك الثاني نفسه، فيقول: «إن خير المجتمع، هو خيرك، وإنك مرتبط بوطنك في قوة ـ دون أن تعرف ـ إلى حد أنك لا تستطيع أن تعتزله، ولا أن تنفصل عنه دون أن تشعر أنت نفسك بخطئك. وإذا كانت الحكومة سعيدة، فإنك ستكون في رغد، وإذا تألمت، فإن محتوى شقائها، يتدفق عليك... وإذن فحب الوطن، ليس كائناً ذهنياً، وإنما هو يوجد واقعياً».

غير أن أناپيستيمون، لا يقتنع، لأنه سمع أن أحد الموسوعيين قد علم الناس أن الأرض كانت هي المقر المشترك لكائنات نوعنا، وأن الحكيم هو المواطن العالمي، وأنه مغتبط في كل مكان اغتباطاً متوازياً. وأن رجلاً من رجال الأدب قد صرح بذات الفكر التي سحرته لأنه أليس جميلاً أن ينقطع المرء عن أن يكون عضواً خاملاً في دولة صغيرة، لكي يصير جزءاً من الكون؟

عند ذلك يحتد فيلوپاتروس فيقول: إن هؤلاء الموسوعيين، وأولئك الأدباء الذين يتبعونهم، ينطقون أحياناً بحماقات، فهم يقول إن الأرض كلها هي مقر الأناسي نحن متفقون معهم في هذا، ومن العبث البسط في إطناب لحقيقة متهافتة إلى هذا الحد، فهم يقولون أيضاً إن الحكيم هو المواطن العالمي. نحن متفقون، ولكن لا ينجم عن ذلك، أنه يجب أن يكون هو الأفاق الذي ـ لما كان لا يتمسك بشيء ـ يجوب العالم مدفوعاً بالضجر، ويصير متشرداً بالضرورة وماذا عسى أن يقول الموسوعيون لو أن الوطن نفسه تقدم نحوهم وتحدث إليهم بهذه اللغة: « أيها الأبناء المنحرفون عن الطبيعة بقدر ما هم منكرون للجميل، أي أولئك الذين منحتهم الحياة، هل ستكونون دائماً غير شاعرين بالإحسان الذي أغمسكم فيه؟ فمن أين أتى أجدادكم؟ إنما أنا الذي أنتجتهم ومن أين استخرجوا غذاءهم؟ إنهم استخرجوه من خصوبتي التي لا تنفد. وتربيتهم؟ إنهم مدينون لي بها. وثرواتهم

وممتلكاتهم؟ إنما أرضي هي التي تقدمها، وأنتم أنفسكم قد ولدتم في بطني ... » لو أن الوطن كان يتحدث إليهم بهذه اللغة، لأجابه كل منهم على النحو التالي :

«إن قلبي - وهو الشديد التأثر بالحنان والوفاء - لم يكن في حاجة إلى أن يراك ويسمعك لكي يحبك. نعم إنني أعترف بأني مدين لك بكل شيء ومن ثم فإني مرتبط بك ارتباطاً غير قابل للانحلال، وإن حبي ووفائي لن ينتهيا إلا مع حياتي، بل إن هذه الحياة نفسها هي ملكك، وعندما ستطلبها إلي، فإني أضحيها لك بكل سرور، إذ أن الموت في سبيلك هو الحياة الأبدية في ذاكرة الأناسى، وإني لا أستطيع أن أؤدي إليك خدمة دون أن أغمس نفسي في المجد ... ».

وهنا يعتذر فيلوپاتروس عن حدته قائلاً: « إغفر لي يا صديقي العزيز هذه الحركة التحمسية التي تغلبني، فأنت على هذا النحو ترى نفسي تامة السفور ... ».

وفي سنة ١٧٨٠، ينشر فريديريك الثاني «عن الأدب الألماني، والعيوب التي يمكن أن تؤخذ عليه وما هي أسبابها، وبأي الوسائل يمكن إصلاحها» إن فريديريك الثاني نفسه يعرف أن الألمانيين يدهشون من تفضيله لأدب أجنبي، وهو يشرح ذلك هنا، بل سيثبت براءته تقريباً، إذ يدعو إلى التعقل على النحو التالي: إن ألمانيتنا لم تصل بعد إلى درجة نضوجها، بل هي لا تملك بعد، لغة مشتركة، فكيف تستطيع أن تنتج مؤلفات رئيسية؟ أجل إن آباءنا قد أدوا مهمتهم بجعلهم الوطن قوياً ورغداً، وكان ذلك هو العمل الأول المراد تحقيقه، وإن العناية بالزينة لم تأت إلا فيما بعد. أما اليوم فإن الذوق العام هو قوي بالنسبة إلى كل ما يبرز هذا الوطن الماجد، إلى حد أننا نشتهي أن ندخل أنفسنا بدورنا، في معبد الذكرى. ولكن يجب أيضاً أن نستحق هذا التتويج. وإذن فيجب على كتابنا أن يضعوا أنفسهم في مدرسة الكلاسيكيين القدماء، وفي مدرسة الكلاسيكيين المحدثين أي الفرنسيين، وأن يحذروا من أن يحاكوا شيكسبير الذي ليست مآسيه سوى مضحكات مسفة جديرة بتوحشي كندة» وما هي «جوتزڤون بيرليخينجين». تأليف جوت التي تظهر اليوم على المسرح إن لم تكن محاكاة بغيضة للمسرحيات الإنكليزية الرديئة؟

ومع ذلك فإن نظارة المقاعد الدنيا من القاعة يصفقون بحماس، ويطلبون إعادة «هذه التوافه المقززة ...».

بهذه العبارات يسوغ فريديريك الثاني موقفه حين يعلن عدم اعترافه بالأدب الألماني. حقاً إنه لا يتغير، فهو دائماً وفِي في حبه للوطن، لكن فيما يتعلق بالنجاح الأدبي العظيم، هو يرى أنه ينبغي فقط إعداده، وأنه لن يأتي إلا في الغد. أما اليوم، فإن كتابة المرء بالألمانية، معناها أنه يسجن نفسه، فيما أنه إذ يكتب بالفرنسية، هو يفتح لنفسه كل أوروبا.

وفي سنة ١٧٨١ نشر چوستوس موزير كتابه«عن اللغة والأدب الألمانيين».

وبين المؤلفات التي ترجمت الانفعال الذي سببته خطبة الملك، يعتبر هذا الكتاب الأخير أفضلها.

إن چو ستوس موزير مؤرخ مدينة أوسنابروك، هو مفعم بالاكتراث، بل بالاحترام. إنه يعرف كيف يحتفظ بالاعتدال، ومن ثم، فإنه حين يأسف على أن الألمانيين ليس لهم سوى وطن أدبي هو مشترك بينهم، وحينما يومئ ـ بهذا الأسف نفسه ـ إلى الوحدة السياسية التي لم تنشأ بعد، هو يحتفظ برزانة كاملة. ولكن لهجته جد واضحة، وهو يبين في حزم قوي الطريقة التي يبدو له، أن فريديريك الأكبر قد انحرف بها، ومجملها أنه إذا كان الألمانيون متأخرين، فإن الذنب في هذا، ليس ناشئاً من عدم كفاية محاكاتهم للنماذج الفرنسية، وإنما نشأ على الضد، من أنهم لم يجرؤوا على الاستلهام من عبقريتهم الخاصة. إنه لخطأ أن يفضل المرء حدائق الطراز الفرنسي، على عظائم سنديان الغابات الألمانية. وإن المنتجات النباتية النحيلة التي ترعرعت في البيوت الزجاجية [1] الأجنبية، لن تنمو نمواً جيداً على أرض التوتونية [2]. أما مسرحية «جوترفان بيرليخينجين» لجوت، فإنها تستوحى

(١) البيوت الزجاجية هي حجيرات من زجاج تنشأ في الحدائق وتدفأ لحماية النباتات الأجنبية التي لا تحتمل البرد. (المترجم)

(٢) التوتون هي القبائل الجيرمانية الأولى التي تتخذ دائماً في الأدب رمزاً للأرومة الألمانية الأصلية. (المترجم)

من التاريخ القومي، ولهذا هي جميلة. إذ أن مأساة الطراز الفرنسي تتميز ببساطة صناعية هي نتيجة لإنقاصات متتابعة، وتجريدات، بينما أن الفاجعة الألمانية، تأليف الشاب جوت، ترسم وفرة عناصر الحياة. إنه يوجد هنا تصوران للفن وإن ثانيهما مفضل بهيئة لا تقبل الاعتراض. إنهما تصوران للعالم.

إنه لخطأ آخر أن يظن المرء أن الأدب الألماني لن يزهر إلا في الأرض الموعودة، لأنه أزهر منذ الآن، وإن كلوبوستوك، وبورچير، وجوت هم من أدلة ذلك. وإن اللغة نفسها ـ وهي فقيرة لأنها طهرت على خطأ ـ تعثر على تراثها باستعمال الكلمات والصور الشعبية، وإن ليسينج وجوت أيضاً، لحسن الحظ قد انتهلا من هذا النبع. ومن ثم فإن الملك قد أخطأ، والسبب في ذلك بلا ريب، هو أنه أنشأ خطبته منذ زمن بعيد حين كانت التغيرات التي حدثت في ألمانيا، لا تزال غير مؤكدة، وحين كان لا يزال تلميذاً لجاروتي وڤولتير. كم هو عظيم في جميع المرات التي يضع فيها ثقته في القوة الألمانية التي تضمن البقاء، وحين يظهر قلباً ألمانياً نبيلاً! ولكنه حين يريد أن يتنافس مع نماذج أجنبية، فإنه ـ بدلاً من أن يكون الأول في كل شيء ـ لا يكون بعد إلا الثاني، وذلك مؤسف.

هناك مقاومات وتمردات وكفاحات لتجريد فرنسا من امتيازها، ولغات، وآداب، وفلسفات منوطة بالتعبير عن قوة العاطفة القومية التي تنمو في كل يوم. ودول تجزم بأنها تريد أن تحيا حياتها الخاصة، وإسپانيا التي لا ينفذ إليها التأثر، وإيطاليا التي تريد العثور على وحدتها الرومانية، وألمانيا التي تتكون معنوياً، وانجلترا التي يغزو فكرها القارة، تلك هي بعض العناصر التي نسيها ريڤارول ـ والأمر لا يتعلق هنا إلا بالبلاد التي وجهت الرأي الأوروبي ـ حين كان يكتب في سكينة أن الوقت قد حان لأن يقال: العالم الفرنسي.

* * *

وإذن فلن يكون هناك اتفاق روحي من وحي دولة حية، بل إن بعض الثقافات المشتركة كانت محددة، ففي الواقع أنه ـ في أثناء العصر الكلاسيكي

الأعظم ـ كان جميع أبناء الأرومة الحسنة قد عاشوا في صحبة قيصر وتيت ـ ليڤ، وڤيرجيل، وكانوا يترددون بين هانيبال وشيپيون، ويحلمون بمحاكاة أبطال فلوتارخوس. وعندما ترقى أولئك الأطفال وصاروا رجالاً، لم يكونوا قد فقدوا تماماً، إذ كانت قد بقيت هنيهةٌ «من الزمن، وجُزْءٌ من المكان حيث فكروا تفكيراً مشتركاً، وبقيت لهم ذكريات مشتركة، ومقياس مشترك أيضاً كانوا يحكمون بمقتضاه على الراهن. وقد أقاموا معاً في جزيرة محظوظة كانوا يعثرون فيها على الذكرى. ولكن التربية الجديدة والرغبة في الحديث، والبحث عن التقدم الذي كان كل واحد يستطيع أن يتخيله حسب سرابه الفردي، كل ذلك كان يتجه إلى محو هذا الماضي الذي جمعهم.

ولن يكون أيضاً اتفاق سياسي، وإنما ستكون على الأكثر أحلاف مؤقتة ستتفكك كما تكونت دائماً. ولن يحكم الدول الفلاسفة الحكماء بل بالحري سيحكمها الماكياڤيليون العنيدون المنتصرون. ولن يكون هناك سلام عام. وإنما ستكون مهادنات عامة يستعد الناس أثناءها للحرب منقبين عن أنجع الوسائل لتبادل القتل، لأن العلم سيزيد ـ كما أمل الناس في ذلك ـ من مقدرة الإنسان، ولكنه سيزيد في الوقت ذاته، مقدرته على الهدم. وسينتهي القرن الثامن عشر بحروب الثورات، وسيبتدئ القرن التاسع عشر بحروب الإمبراطوريات.

وسيستمر ذلك أي الحروب والثورات والكوارث المتسعة.

مع أوروبا ـ وهي الواقعة الجغرافية العسيرة التحديد والمكونة من تشابهات متموجة، وميول إلى تأليف كل، شامل، ومشروعات نظرية، وتوقان إلى الغد حيث الآلام المشعور بها قسوة تتلطف بفضل اتحاد حقيقي ـ مع أوروبا هذه ستتعارض أوروبا الزائفة التي هي خليط من المنافع والأهواء، وسينقلب العالم كله في النهاية.

أليست هناك ملاحظة أخرى ستعرض في محيط العقل؟ أوليس هناك شيء آخر غير هذا الخلط وتلك المرارة، وهاتيك الكفاحات الدائمة؟ أو ليس هناك شيء

آخر غير هذه العواصف وتلك الحطامات المتخلفة من السفن الغارقة في بحر الحياة؟ أولا ينبغي الانتهاء إلا إلى اليأس؟ إنه ينبغي مع ذلك أن تملك أوروبا شيئاً من القوة غير القابلة للهدم، ما دام أنها ـ في وسط الكوارث الهائلة ـ تستمر في الحياة. ولقد تساءلنا ماذا كانت هذه القوة، حين درسنا تاريخ أفكارها، وهي ما بين سنتي(١٦٨٠-١٧١٥). وبعد أن قلنا إنها كانت أول الأمر طائفة عنيدة من الجيران الذين يتكتلون، نضيف إلى ذلك قولنا «ما هي أوروبا؟» إنها فكر لا يكتفي ألبتة. ولما كانت لا تشفق على نفسها، فإنها لا تكف إطلاقاً عن متابعة تنقيبين أحدهما عن السعادة، والآخر ـ وهو بالنسبة إليها أشد ضرورة وأكثر إعزازاً ـ نحو الحقيقة. وهي لم تكد تعثر على الحالة التي يبدو لها أنها تتجاوب مع هذا المطلب المزدوج حتى تتبين أنها لم تظفر بعد إلا بالمحاكاة وبالنسبي، وإذ ذاك تستأنف البحث الذي ينشئ مجدها وعذابها» نعم على هذا النحو كانت، وعلى هذا النحو هي في القرن الثامن عشر، ومما لا ريب فيه أنها على هذا النحو ستكون فيما بعد، وهذا النحو هو استمرار مبدأ منقذ خلال جميع أنواع خيبة الأمل.

إن ظمأ أوروبا الذي لا ينطفئ، إلى الحقيقة، هو عظمتها في بأسائها، فبهذا وحده هي تشخص الحالة البشرية أكثر من أية قارة أخرى. إنها لا تقر قاعدة أن ما هو موجود، يجب أن يكون بالضرورة. وهي لا تهجر نفسها في «النيرڤانا [1]». وهي لا تضع ثقتها في ميكانيكية تنيم الفكر بزيادتها للرفهنية، وهي ليست جبانة، فهي لا تخضع، ولا تقبل. إن الحجر قد انزلق على طول منحدر الجبل وهوى إلى السهل، فينبغي إصعاده من جديد نحو القمة، وإذن فأوروبا ستستأنف مهمتها، وهي لا تعتبر ألبتة أنها تفرط في دفع الثمن غالياً لإتمام رسالتها، وحين تخلق، يكون معنى هذا أنها لا تزال تبحث، وحين تجدف، يكون معناه أنها لا تزال تؤمن ويأسها بلا غد.

---

(١) النيرڤانا هي عند البوذية الهندية، حالة السلام العميق النهائي ولا يصل إليها الشخص إلا حين يتم له التخلص الكامل من روابط الدنيا وعلائق المادة ويرتفع عن الأنية تماماً. (المترجم)

ولقد كان ڤولتير يقول: «أيها الأوروبيون القلقون دائماً[1] ... »

ويعلن مونتيسكيو «أن أوروبا لديها عبقرية حُرِّيَّة تجعل كل جزء من أجزائها عسير الإخضاع والإذعان لقوة أجنبية [2]». ويصرح ليسينج: «بأن ما يصنع قوة المرء، ليس هو الحقيقة التي يمتلكها، أو يحسب أنه يمتلكها، وإنما هو المجهود الصادق الذي يبذله ليدنو منها، لأنه ليس بوساطة الامتلاك، بل بوساطة البحث عن الحقيقة تعظم القوى التي تجعل كماله نامياً دائماً. ولأن الامتلاك يصير صاحبه هادئاً وكسولاً ومتكبراً. لو أن الإله كان يمسك في يده اليمنى كل الحقيقة حبيسة، وفي يده اليسرى التوقان الأبدي إلى الحقيقة ... ولو أنه كان يقول لي «اختر!» لاخترت اليد اليسرى في تواضع ولقلت: « أعطني يا أبي لأن الحقيقة الخالصة ليست إلا لك [3]!»

أو لكي يؤدى ذلك بتعبيرات أخرى، وعلى لسان رجل من القرن العشرين وهو ڤاسيرمان [4]، يقال:

«إنه بدأ يفهم ماذا كانت أوروبا في الواقع بالنسبة إليه. إنها لم تكن تمثل ماضيه فحسب، بل ماضي الثلاث مائة مليون من الأناسي، بما كان يعرفه هو من ذلك الماضي، وما كان يحمله في دمه. ولم تكن تمثل فقط المنطقة التي أنتجته، بل كانت تمثل أيضاً صورة جميع المناطق فيما بين بحر الشمال، والبحر الأبيض المتوسط، ومناخها ووتاريخها وتطورها، ولا هذه المدينة أو تلك التي عاش فيها فحسب. بل عدة مئات من المدن، وفي هذه المدن، تمثل الكنائس والقصور، والمنتجات الفنية، والمكتبات، وآثار عظماء الرجال، فهل كان هناك حدث واحد من أحداث حياته، لم تكن ذكريات عدة أجيال مرتبطة، ذكريات ولدت معه في

---

(١) Oeuvres, Ed. Oarnier, t.22, p. 491

(٢) Esprit des Lois, livre 17, chap. 6

(٣) G. E . Lessing, Eine Duplik. Werke, Ed, Hempel, t. 16, 26

(٤) J. Wassermann, Der Fall Maurizius, L,Atfaire Maurizius, trud. Guidau, 1980

وقت واحد؟ إن أوروبا- وتلك فكرة غير قابلة للتصور ، وهي تملؤها بالاحترام - كـانت هي وجـود كل شـامل منذ ألفين من السنين . إنهـا هي بيـريكليس ونوستراداموس ، وتيودوريك وڤولتير ، وأوفيد وايراسم ، وأرشيميد وجوس ، وكالديرون ودورير ، وفيدياس وموزار ، وبيترارك ونابوليون ، وجاليليو ونيتش

«Periclés et Nostradamus, Théodoric et Voltaire, Ovide et Erasme, Ar-chiméde et Gauss, Calderon et Durer, Pétrarque et Napol∑won, Galilée et Nietzscheå†»

وجيش لا يحصى من العباقرة الساطعين ، وجيش آخر من الشياطين ليس أقل من الأول عدداً ، ولا غرو فكل نور يلتقي به متلألئاً فيه مستحدثاً من الرواسب السود ، وماءاً ذهبيًا . كل ذلك ، أي الكوارث ، والإلهامات النبيلة ، والثورات ، وحقب الإظلام ، والأخلاق ، والبدعة ، والخير المشترك بين الجميع بتقلباته وتسلسلاته وتطوره درجة بعد درجة أي الروح ، ذلك هو أوروبا» .

# الفهرس

**صفحة**

صفحة

## القسم الثاني

## مدينة الأناسي



## الجزء الثاني

## القسم الثالث

## إنحلال

## الكتاب الأول

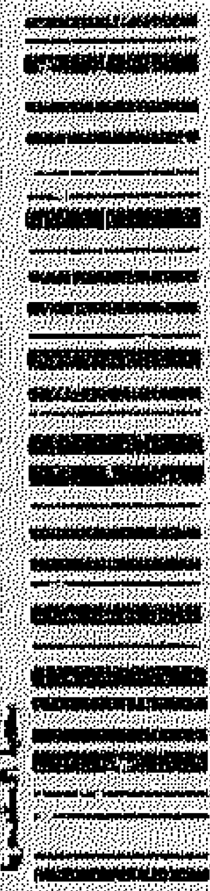
صفحة

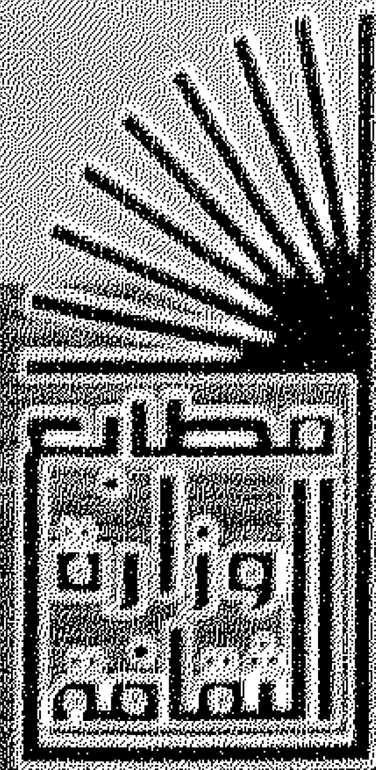
الطبعة الثانية / ٢٠٠٤

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

بعد كتاب "أزمة الضمير الأوربي" لبول هازار الذي نشرته وزارة الثقافة ها هي الوزارة تقدم ما يمكن اعتباره جزءا ثانيا لهذا الكتاب الهام ، فإذا كان الكتاب السابق يعالج الفكر الأوربي في الفترة ما بين ١٦٨٠-١٧١٥ ،فإن هذا الكتاب ( **الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر: من منتسكيو الى ليسنج** ) للمؤلف نفسه، يتابع سيرورة هذا الفكر وتحولاته وانجازاته في القرن التالي: أي القرن الثامن عشر- عصر الانوار- ،وهو قرن لا تقل أهمية ما حصل فيه ،وماترك من أثر عن القرن السالف.

يساعد هذان الكتابان اللذان نتمنى على القارئ الكريم أن يقرأهما بالتتالي في تكوين فكرة واضحة عن أساس التحولات الفكرية والاجتماعية التي جرت وتجري في العالم المعاصر.





سعر النسخة داخل القطر ٢٢٥ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٤٥٠ ل.س

٢٠٠٤